

موسسه

کتابخانه

و کتابخانه

و کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه

عصر الأَطِين الممالك

ونشأه
العالمى والأدبى

تأليف

محمود زور سليم

وكيل كلية الدراسات العربية — جامعة الأزهر

المجلد الأول

وهو القسم الأول من الجزء الأول

ويحتوى على خلاصات في سيرة ملوك هذا العصر ، وأحوال الدولة ونظمها
وعاداتها وما يتصل بذلك من شئون ، مع ترجمة كثير من رجالها .

الطبعة الثانية

١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م

مكتبة الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعها بالجواميز ت ٢٢٧٧٧

المطبعة الشافعية
مكة الشافعية بالحمية الجديدة

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

أحمد الله سبحانه وتعالى لأن وجه قلبي وجهة صالحة ارتضاها ، ويسر لي سبيل عمل حبيته ، ووفقني إلى أن أجد في هذا العمل النافع لذة نفسية ومتاعا روحيا بريئا ، وهداني إلى أن أبرزه للناس في ثوب قشيب ، راجيا منه جل وعلا ، أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، رياء فيه ولا سمعة ، وأن يهب لي من لدنه توفيقا وقوة وجلدا ، إنه سميع مجيب . وأصلي وأسلم على نبيه سيدنا محمد أكمل الناس خلقا ، وأغزهم علما ، وأسماهم مثالا ، أعلام همة وأمضاهم عزما ، وأنبلهم مقصدا ، وأبعدهم أثرا ، وعلى آله وصحبه الكرام . وبعد ، فهذا كتاب سميت به عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، يتكون من أربعة أجزاء ، يصدر كل جزء منها في مجلدين - يحتوي الجزء الأول منه - على خلاصات تاريخية واجتماعية ونحوها ، للعصر المذكور ، ويحتوي الثاني على وصف لحركة العلمية فيه وما يتصل بها ، مع ذكر المؤلفات العلمية وترجمة عدد من العلماء من التفصيل والإيجاز . وبتسكلم الثالث عن النثر الفني وعن الكتاب وما يتصل بذلك . وخصص الرابع للحديث عن الشعر والشعراء وتراجهم والمجلد الذي تقدمه الآن هو المجلد الأول أو القسم الأول من الجزء الأول .

وأعني بعصر المماليك ذلك العصر الذي وليه عمر الأيوبيين في مصر ، لحكمها فيه سلاطين من المماليك ، حتى احتلها الأتراك العثمانيون ، وهي الفترة الواقعة بين سنتي ٦٤٨ هـ و ٩٢٣ هـ .

ويرجع تفكيري في وضع هذا المؤلف إلى نحو عام ١٩٣٨ هـ ، وكنت أدرس لطلابي العصور الأدبية العربية المختلفة . فلحظت أن تاريخ الأدب العربي لم يدرس حتى اليوم الدراسة السكافية الشافية ، ولم توضع فيه مؤلفات واسعة منظمة مبنية تكون معينا فياضا سائغا سهلا ، قريبا للناهلين ، من طلاب الأدب في هذا الجيل . ولحظت أننا لا نزال ندرس الأدب العربي المصري تابعا لآداب الدول العربية ومضافا - في الغالب - إلى أدب دمشق أو بغداد في عصورهما الأولى . وفي ذلك ما فيه من اهتضام الأدب المصري الخاص ، وضياغ معالمه وخفاء سماته واتجاهاته . ولحظت أن عصر المماليك بصفة خاصة من أكثر العصور الأدبية المصرية ، اهتضام حق وضياغ معالم . فهالني ما رأيت .

(د)

ولا أريد في هذا المقام أن أعظم أهل الفضل فضلمهم ، ولا أنقصهم حقهم .
وليس بالفاضل في نفسه من ينكر الفضل على ربه
فإن لكثير من أدباء العصر الحديث ، محاولات مشكورة ، وضروبا من الإقدام
مذكورة ، اقتصموا بها على الأدب بابه ، وولجوا أعتابه ، وداعبوا أكوابه ، فهدوا
الطريق ، وأناروه ، فكان لنا من عملهم خير نبراس ، وأثبت أساس .
غير أننا نشعر أن الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة في تاريخ الأدب العربي
بعمامة ، خروجا به عن هذا الحيز الضيق ، الذي لا يزال يمشى فيه وثيدا . ونشعر أن
الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة في تاريخ الأدب العربي في مصر بخاصة ، وأن
نبذل من عنايتنا بالآداب نصيبا محمودا لدراسة الأدب المصري وحده ، ولربط عصوره
أحدهما بالآخر . فإن في دراسته تلك تذييها للعقيدة المصرية ، والعاطفة المصرية ، وتركيزا
لها ، وسموا بهما وإصلاحا لانتجاههما .

آن الأوان إذن الانتقال بحركة التأليف في آداب العربية وتاريخها انتقالا جديدا
يراعى فيه الإسهاب وعرض النماذج عرضا مشوقا مع النقد والتحليل والربط والتعليل ،
وتوضيح الملابسات وقوة الاستنباط ، مع حسن التوجيه وتيسير الفهم والكشف عن
المراجع ، حتى لا تظل ضرا من المغيبات . بذلك نطمح للثام عن نواحي الجمال في أدبنا
ونهيء للباحث الجديد سبيل البحث ، ونعينه على بلوغ إربته بأيسر طريق وأقل مشقة .
وأحق بالعناية مصر وآدابها . فلو وضع في كل عصر من عصورها الأدبية مؤلف
جامع على هذا النمط الذي رسمناه ، وأحسن الربط والصلة بين كل مؤلف وآخر ،
لباغنا من وراء ذلك أملا مرموقا ، وحققنا أمنية طالما جاشت بها النفوس ، وأنصفنا
تلك العصور من ظلم النسيان .

ومن أبرز العصور المصرية المظلومة المهتزمة ؛ عصر المماليك ، الذي نحن بصدد
الحديث عنه ، فقد راعى ما أصابه من جفاء ، وهالتي ما ناله من صد ، وما رمى به حينما
من أنه عصر ظلمة وتأخر ، وانحطاط وتقليد ، مع أنه جليل الخطر عظيم الأثر . . . ولم
تقدم لنا منه الكتب الحديثة إلا صبابة لا تنقع غلة ، وإلا ثمالة لانزوى طالب نشوة .
فاكتنفته غموضة في أذهان كثيرين من طلاب الأدب الناشئين ، أكثر مما اكتنفت
عصرا غيره . لذلك أحبت أن أدرسه ، وأن أطيل الوقوف بمعالمه ، حتى أصل إلى

قرار الحق فيه . وعولت على الرجوع إلى ما كتبه بنوه أنفسهم الذين عاشوا ، فيه . آتيا البيوت من أبوابها ، فإنهم - بلا شك - أصدق عنه حديثا ، وأقرب رجعا ، وأجمل نجوى . وأغراني البحث والقراءة ، حتى وجدتني غارقا في محيط من مؤلفات لا عدد لها ، فيها الغنية لكل أديب ، والمنهج لكل زاهج ، وهي كالبحر لا ينضب معينه ، وكالسميل لا تنضب عيونه . ينهل المرء منه ، ويتجدد ظمؤه إليه . حينئذ انبهرت عيني ، وماجت الآمال في نفسى موجا ، ووددت لو استطعت أن أضع موسوعة جامعة في أدب هذا العصر ، تكون منه للفارى . بمثابة المائدة الشهية التى عليها ألف طعام وطعام . يتناول منها ما لذ وطاب . ولكننى شعرت أن محاولة ذلك تحتاج إلى رفاة عيش وبلهنية بال ، وفسحة أجل وطول صبر ، حتى تتم الموسوعة كما لاحت في الخيال . غير أنى أجمعت العزم ونقدمت إلى العمل قائلا للنفس : حسبي أن أضع البنة فى البناء .

ومن الإنصاف أن أذكر أن عوامل عدة حببت إلى الإقدام على دراسة هذا العصر ، والكتابة فى آدابه وعالومه بعد قراءة الكثير من مؤلفات أهله . ومن هذه العوامل ، كتاب « تأهيل الغريب » لابن حجة الحموى أحد أدبائه عثرت على هذا الكتاب عرضا . وهو من المخطوطات الثمينة المجفوة ، وفيه جمهرة كبيرة من شعر شعراء هذا العصر فى فنون شتى ، فزادنى بهم معرفة وفهم حبا ، وأثار فى نفسى كلما بدراستهم ، والوقوف على حياتهم ، فقرأت « خزنة الأدب » لابن حجة أيضا ، وهو سجل قيم أسكن كثير من رجال العصر كذلك . فوسع أمامى الأفق وأفسح المجال . وهكذا وهكذا ، تناولت كتب القدامى فى التاريخ والتراجم والأدب ، كبداية ابن إياس وطبقات السبكي ، وطالع الأدفوى ودرر ابن حجر ، وخطط المقرئ وسلوكة ، ونجوم أبى المحاسن . وضوء السخاوى وحسن المحاضرة للسيوطى ، وغير ذلك من دواوين ومؤلفات علمية فقبست من كل قبسا ، وجمعت فى كل أنارة . وأعملت الفسكرة فى كل أولئك ؛ حتى استقام لى هذا الكتاب وانسقت موضوعاته .

وقد أعجبت إعجابا لا حد له بكتاب تاريخ مصر لابن إياس ، وهو المعروف « ببداية الزهور فى وقائع الدهور » . وشعرت حين قراءته ، أن رجلا مصريا صديقا معاصرا شديد الصلة بى ، يحدثنى . وهو إلى قصة الأحداث السياسية والتقلبات الإدارية ، له نقدات عارضة . وأوصاف اجتماعية قد يستطرد إليها فى هواة ورقق بمناسبة ، أو يفجأ

القارىء بها ، وكأنها غير مقصودة لذاتها ، واسكنها تذبذه الذهن على كثير من خفيات الأحوال العامة فتأملها ، وإذا بك تشعر بجلالها وخطرها ، وإذا بك بتتبع جزئياتها ، تستطيع أن تكون فكرة ، أو ترسم صورة ، تجلى فيها حالا من تلك الأحوال .

وكان بحثي أولا متجها إلى دراسة أدب عصر المماليك ، فاضطرت إلى دراسة تاريخه دراسة ما ، تمهيدا لدراسة أدبه . فأكبت على كتب تاريخه ، وهى فياضة بفنون أدبية لاحد لها . وأعجبت - كما ذكرت - بدائع ابن إياس . فاتخذته أساسا ومحورا ، وتجلى لى فيه ما تجلى من أفكار وصور . هذبها ، وغذيتها ، ونميتها ، بما وجدت من أمثالها فى كتب تاريخ العصر المذكور الأخرى . وحبب لى أن أجمع من جزئيات كل موضوع على حدة ، جملة ، ألثم بينها ، وأحسن الصلة بين متفرقاتها . حتى يسكون ذلك عونا على دراسة أدبية نافعة . فرأيتنى مسوقا - دون عمد - إلى أن أكتب فصولا تاريخية فى عدة نواح للحياة المصرية إذ ذاك ، وجملة من تراجع رجالاتها . فتألف منها " الجزء الأول " ، من هذه الموسوعة . وهو هذا الجزء الذى أدفع قسمه الأول بين يدي القراء . وأقل ما يقال فيه . إنه ضرب من العرض جديد لبعض مافى بدائع ابن إياس وأنداده .

الجزء الأول إذن ، جملة خلاصات فى نواح شتى إدارية واجتماعية ونحوها . وفى أثر كثير منها تراجع لرجال من العصر ، بينهم وبين موضوعها صلة ، وبينهم من لم تجمع ترجمته حتى اليوم . هذا إلى أن حوادثهم الفردية ، تعين على فهم الأحوال العامة .

ووجدت من الضروري ، أن أقدم هذه الخلاصات بموجزات يسيرة فى التاريخ السياسى للملك العصر ، ووقائع "حروبهم" ، وأن أقدم هذه الموجزات ، بملخص سريع فى تاريخ مصر القديم أسير به حثيثا ، حتى أربط بينه وبين العصر المملوكى ، على نمط من المؤلفات التاريخية القديمة ، حتى يسكون الحديث أتم وأوفى وأكثر صلة . وبذلك يتم الجزء الأول .

وقد قسمته قسمين تسهيلا للاقتناء والجل . وهذا هو قسمه الأول ، وأنبئه بالقسم الثانى . ثم أتبعه بالأجزاء الأخرى ، على النمط الذى سبىراه القارىء الكريم ، مزودة بموضوعاتها المدروسة ، وتراجيحها المفصلة أو الموجزة ، وعرض كثير من الكتب والآثار العلمية والأدبية النافعة ، ما بين مطبوعة بخطوة ، أو مخطوطة مخبوءة ، مما يغنى القارىء عن عشرات المؤلفات .

وأرجو ألا يتخيل القارىء أن لا صلة بين هذا الجزء - الأول - والأجزاء

الثلاثة الأخرى . نظر آ لاخصصاصه بمسائل تاريخية بحثية ، واختصاصها بوصف الثمرات الفكرية والأدب من شعر ونثر ، فإن فهم هذه المسائل ، يعين على معرفته روح العصر واتجاهه ويمهد تمهيدا حسنا لدراسة آدابه واقتطاف ثمراته .

وفي الحق أننى أحببت أن أرسم للعصر المذكور صورة كثيرة متعددة ، لكل ناحية فيه ، صورة . وأن أضع هذه الصور جميعها فى إطار واحد . فإذا جال فيها الناظر بنظره جولة ، أمكنه أن يعى العصر من كثير من نواحيه ، فى سهولة ويسر .

وقد أشير على ، بأن أفصل هذا الجزء — الأول — عن أجزاء الكتاب الأخرى ، لاختلاف موضوعه ، عن موضوعاتها ، وأن أصدره وحده مستقلا بعنوان آخر . ثم أصدر الأجزاء الأخرى وحدها ، كأنها كتاب جديد مستقل . والمسألة كما يرى القارى لا تعدو أن تكون شكلية ، فضلا عن أنها لا تحقق الغاية التى أرمى لإيها من جمع صور العصر فى إطار واحد — كما ذكرت — وهى غاية تركزت فى نفسى ، واستقرت فى ضميرى . ففصل هذا الجزء عن إخوته ، يشوه — كما أشعر — جمال هذه الغاية ، ويبعد القارى عن فهم ما أرمى إليه .

وتوخيت فى كل فصول الكتاب ، سهولة العبارة ، والبعد عن الغموض وتبسيط الحديث بما يلائم ذوق عصرنا ، دون أن يبعد بنا عن جو العصر الذى نؤرخه . مع الاقتباس ، وإيراد النص القديم عند الحاجة ، ومع الإشارة إلى المرجع عند كل مناسبة حتى أعين القارى على الاستيعاب السريع . وأعين الباحث على متابعة بحثه واستكمله . ولم يكن همى الاستقصاء فى كل خطوة . فهذا — وإن لم يكن أحد أغراضى — ضرب من العسر لا يستطيع تذليله رجل واحد ، وفى عمر محدود . وإنما أشرت إلى ذلك لىكى أطمع الباحثين فى البحث ، وأثير فيهم عوامله ودوافعه وحسبى أن أضع بذورا تصلح ، إذا سقيت ، للنماء . وفى نمائها من بعد ، سعادة لامتحد للخلصين للعلم .

على أنى وطدت العزم ، بعد الفراغ من طبع الكتاب كله ، أن أعود إليه — إذا كان من الله عون ، وفى الأجل فسحة ، وفى العيش رفاة وفى الصلحة بقية — فأهذب فيه ما استطعت ، وأضيف إليه ، وأصح منه ، وأعلق عليه .

ولا يخلو كل مؤلف صغير من هفوات ونقائص . فما بالك إذا كان بضع مجلدات مليئة بالحوادث المقيدة بتواريخها ؟ وفى الحق أننى أنفقت جهدا كبيرا ، ووقتا طويلا ،

(ح)

فى سبيل الدقة وحسن الضبط ، ويشعر بذلك كل مناول لمثل هذا العمل . فإن يكن من خطأ ، فغير مقصود . وأرجو أن يقيض الله لى من يرشدنى إلى صوابه فى رفق ولين . ولا بد من الإشارة هنا إلى حاجته الباحث الماسة إلى دور الكتب المصرية على اختلافها . وهو - بلا ريب - يجد من رجالها كل عون . غير أن فهرسها جديرة بالعناية . فباحث لو وضعت بها فهرس لأعلام المؤلفين الذين لهم كتب بالدار ، وترتب إلى جانب الترتيب الأبجدى ، ترتيبا حسب سنوات وفاتهم ، أو حسب عصورهم التاريخية التى عاشوا فيها . وباحثا لو قسمت فهرس المؤلفات هذا التقسيم أيضا ، ووضعت مؤلفات كل عصر على حدة . وباحثا أيضا لو عنى بوضع فهرس للموضوعات حتى يرجع إليها الباحث فى يسر وسرعة .

هنا وإنى فى النهاية لأرجو من الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل هذا الكتاب نافعا للناس ، وأن يهين لى أو لغيرى ، وضع مؤلفات على نمطه فى العصور الأخرى . حتى تكمل من الجميع سلسلة وثيقة الحلقات فى تاريخ الآداب المصرية . لنقدم بذلك بعض ما يجب علينا نحو وطننا العربى العزيز . والسلام ؟

المؤلف

مراجع القسم الأول من الجزء الأول

عنيًا بإثبات مراجع موضوعات هذا الكتاب عقب التراجع وعند المناسبات ،
ذاكرين في أغلب الأحيان أرقام الصفحات مع أسماء الكتب . وفيما يلي نثبت بعض هذه
المراجع وطبعاتها التي اعتمدنا عليها :

١ - بدائع الزهور لابن أبياس المصري : طبع مطبعة بولاق ، ج ١ ، ٢ طبع سنة
١٣١١ هـ ، وج ٣ طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وج ٤ ، ٥ طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية
٢ - الخطط الممترزية : طبع مطبعة النيل بمصر ج ١ طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ج ٢ طبع
سنة ١٣٢٤ هـ ، ج ٣ طبع سنة ١٣٢٥ هـ ، ج ٤ سنة ١٣٢٦ هـ .

٣ - حسن المحاضرة للسيوطي : طبع مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر
في شوال عام ١٣٢١ هـ .

٤ - التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمرى : طبع مطبعة
العاصمة بحوش الشرفاوى بمصر عام ١٣١٢ هـ .

٥ - تاريخ ابن خلدون : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

٦ - صبح الأعشى للقلقشندي : طبع دار الكتب بالمطبعة الأميرية عام ١٣٣٢ هـ

٧ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية
المصرية بكفر الطماخين ، تمت في شعبان سنة ١٣٢٤ هـ .

٨ - الاتصار لابن دقاق : ج ٤ طبع مطبعة بولاق عام ١٣٠٩ هـ .

٩ - ديوان ابن مطروح : طبع الجوائب عام ١٢٩٨ هـ .

١٠ - سلوك المقرئى طبع دار الكتب المصرية ولجنة التأليف والترجمة والنشر .

لماشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، منذ عام ١٩٣٤ م .

١١ - الدرر السكامة لابن حجر العسقلاني طبع حيدر آباد بالهند .

١٢ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي طبع مطبعة بولاق عام ١٢٨٣ هـ .

١٣ - الضوء اللامع للسخاوى لماشره مكتبة القدسي بباب الخلق ، منذ عام ١٣٥٣ هـ

١٤ - تاريخ حماة للصا بوني . طبع حماة سنة ١٢٣٢ هـ

١٥ - النهج السديد لابن أبي الفضائل . طبع باريس سنة ١٩٢٠ م

١٦ - الكراكب السائرة أنجم الدين الغزى ج ١ طبع المطبعة الأميركية بروت

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة سريعة في تاريخ مصر

من الفراعنة إلى المماليك

تمهيد

مصر بنت النيل . الطيبة تربتها ، الصافية سماؤها ، المعتدلة أجواؤها ، الرضية حياتها ، السمع أهلها ، الرحب جنابها ، مرت بها العصور تتوالى دونها ، وهى خود كهاب . صاحب الشمس منذ مطلعها ، ورافقت الزمن منذ نشأتها . وعبرت بها الأحداث حيرى دونها ، مع كثرة غيرها وصروفها ، ولكن مصر كانت هادئة بإيمانها ، مطمئنة بيقينها . لتلك لم تكن تألو أن تخلع على هذه الأحداث والغير والصروف أنوابا من الهزء ، وأردية من السخرية ، أن أمنت أن العاقبة لها ، وأن الخلود فى جانبها ، وأن البقاء من نصيبها . أما مادونها من عوادي الزمن ومحن الأيام ، فإنها أمامها أشبه ببساط منشور ، يستعين به الهراجون والمتبدلون ، فيفسكون الناس حينما يبعض ألعابهم وقصصهم . فإذا ما انقضت آونهم ، وانتهت قترتهم ، طووا بساط اللهو ، ورجعوا الى عقر دارهم قافلين ، فينشر غيرهم بساطا آخر جديداً ، وهكذا دواليك .

بين هذه الأمواج الصاخبة فى بحر الزمان ، وبين هذه العواصف المتلاحقة فى بحر الليالى ، شهدت مصر ألوانا شتى من قصص الحياة ومثلها . آناً تسمو إلى ماهى له أهل من السمو ، فتقبض بيدها على ضوئجانها ، فيأتمر الناس بأمرها ، وينتهون بنهيها ، وآناً تهددها الأحداث ، وتتعاورها الخطوب ، فتنتشى باسمه أمام العاصفة فتهمز شدتها بمحب وهب لها من أين ، وتقهقر قسوتها بما منجته من لطف ، وهى هى مصر الباقية الوادعة .

مصر الفرعونية :

ومنذ فجر التاريخ ، ومنذ نحو أربعين قرناً ، ومنذ عهد ميناء ، حين وحّد وجهها

مصر بزعامته ، أشرفت هذه البلاد شمساً في سماء الحضارة والعرفان ، وطلمت على الدنيا بألوان من المدنية والرقى ، وضروب من العلم والفن ، تشهد بذلك نقوشها الخالدة وأهرامها الضخمة لإحدى عجائب الدنيا وتماثيلها الدقيقة ، ومدوناتها البردية ، وجثث موتاهة المحنطة ، وغير ذلك ، مما خلده عظمته وسموها في فنون النقش والنحت والبناء ، وعالوم الهندسة والطب والتشريح ، وضروب الصياغة والصباغة ، مع آيات من الأدب الرفيع ، وصنوف من مظاهر الأبهة والترف ، مما لا تزال الأيام تضرب به الأمثال ، ومما لا يزال علم القرن العشرين عاجزاً عن استنباط سره ، واكتناه أمره .

وقد بسطت سلطاتها في حقب كثيرة إذ ذاك ، على بلاد النوبة والسودان ، وفينيقية وسوريا ، وشواطئ الفرات ، وارتبطت آناء بحملة معاهدات سياسية واقتصادية . وأزدهى ملكها وامتد نفوذها في عهد بناء الأهرام ، وكذلك في عهد سينوستريس وأمينمحت الثالث . وهى وإن سادها من بعد ذلك عهد ظلمة وفوضى ، أدى إلى أول احتلال اجنبى عرفه لها التاريخ ، فتحكم فيها ملوك أجنبية هم : الهكسوس ، أو دملوك الرعاة ، كما يسميهم بعض المؤرخين - وذلك قبل الميلاد بأقل من ألف وسبعمائة عام ، فإن هؤلاء الأجانب - وكانوا قد بادروا إلى ظلم المصريين - لم يلبثوا أن اندمجوا في غمار أبنائها ، وتطبعوا بطبائعهم ، وتدينوا بأديانهم ثم كونوا من أنفسهم أسرتين من الأمر المصرية الحاكمة هما الأسرة السادسة عشرة والسابعة عشرة . غير أنه قامت لإجلائهم عن البلاد ثورة وطنية جاححة ترأسها الأمير المصرى « أحس » من أمراء طيبة بالوجه القبلى ، فطردهم من البلاد المصرية في أوائل القرن السادس عشر (ق . م) ثم أسس الأسرة الثامنة عشرة . فدخلت مصر بذلك في دور حديث ، هو طور رقى وتموض ، وعزة ومنعة ، وبسط سلطان ، وامتداد رقعة ورخاء . وكان بين ملوكها البارزين في هذا الدور : « تحتمس الأول ، و « تحتمس الثالث ، و « أمينمحت الثالث ، ثم من ملوك الأسرة التاسعة عشرة : « سبتي الأول ، ورمسيس الثانى ، أو الأكبر ، و « منفتاح . واكل من هؤلاء الملوك غزوات ووفقة رفع بهارأس مصر ، وإصلاحات عرانية عدة .

ثم ما عتصت مصر بعد أن دالت الأسرة العشرون ؛ أن دخلت في دور اضحلال

ونأخر ، لتضخم نفوذ كهنة آمون ؛ ثم استيلائهم على الملك ، مع ملوك الأسرة الحادية والعشرين ؛ وذلك بزعامة أحدهم وهو « حرحور » .

وقد كان هذا الضعف تمهيدا للاحتلال اللوبي ؛ وهو ثاني احتلال ابتليت به هذه البلاد ؛ إذ أسس بها قائد اللوبيين بمصر وهو « شيشنق » ، أو « شيشاق » ، الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ ق م) التي حكمت مصر زمنا . وبينما وقعت مصر في أيدي هؤلاء اللوبيين إذ فر أمراء الكهنة إلى إثيوبيا ؛ فكان لهم بها شأن عظيم .

وكما حالت حال الهكسوس من قبل ؛ حالت حال اللوبيين ؛ فقد أخذوا في تقليد المصريين ؛ وتدينوا بأديانهم . وعبدوا إلههم « آمون » ، واتخذوا مصر موطنهم ومستقرا ودستار الحكيم . ومهبطا لآسلافهم وغنائمهم . إلا أنهم ما لبثوا أن ضعفوا . فمكثوا بذلك الضعف للملك إثيوبيا من احتلال البلاد المصرية ؛ فدخلوها بزعامة ملكهم « بسمنخي » . (٧٢١ ق م) وحكوها منذ أيام الأسرة الثالثة والعشرين . وحافظوا على تقاليد البلاد وأديانها . وأقاموا شعائرها فازدهرت في عهدهم ازدهارا يذكر .

غير أن الحروب التي قام بها المصريون بعدد ضد الآشوريين قد انتهت بهزيمتهم . وباستيلاء الآشوريين على مصر سنة ٦٧٢ ق م . فعانت مصر على يد الآشوريين مصاعب جمة وشدائد كثيرة . جعلت أمراءها الوطنيين يتربصون الدوائر بالآشوريين . وما هي إلا أن حانت الفرصة حتى هب من بينهم الأمير المصري « إيسانيك » ، وطردهم الآشوريين من بلاده . كما طرد « أحس » ، ملوك الهكسوس من قبله .

ثم أسس « إيسانيك » ، الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ - ٥٢٥ ق م) وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الأجنبي . وبدأت تدخل في دور نهوض جديد . إلا أنه كان يشوبه تضخم نفوذ الإغريق . لأن « إيسانيك » ، وغيره من ملوك أسرته . استعانوا بهم على توطيد سلطاتهم ونشر نفوذهم .

غير أن ذلك لم يدم إلا ريثما ظهرت دولة الفرس ظهوراً قويا . أخذت في غزو البلاد المجاورة ، وضمتها إلى ملكها . فغزوا مصر في عهد « إيسانيك » ، الثالث بقيادة ملكهم « قبيز » ، وأسسوا بها أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة السابعة والعشرين فجاروا على المصريين وعيشوا بأرضهم . ولبثوا حتى عام ٤٠٥ ق م فطردهم المصريون . وأسسوا

بها أسرا منها الأسرة الثلاثون التي ظلت تحكم البلاد حتى استولى عليها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق . م بعد أن دخلها الفرس مرة أخرى .

مصر من عهد الإسكندر إلى فتح العرب :

نشطت دولة مقدونيا الصغيرة . وأخذت توسع نفوذها . وتستولى على جاراتها . حتى غدا ملكها ملكا على بلاد الإغريق . وكان ذلك في نحو عام ٣٣٨ ق . م . ثم ظهر ملكها الإسكندر الأكبر . فقام بحروب عدة . وفتح بلاداً كثيرة . ووصل في فتوحه إلى بلاد الهند . وكانت مصر في جملة البلاد التي رحبت بقدمه وفتحت له بابها على مصراعيه . ويعتبر فتح الإسكندر لمصر فاتحة عهد احتلال أجنبي طويل . وقد كان من أهم ما خلفه هذا الملك العظيم بمصر إنشاء مدينة الإسكندرية . وبث نفوذ الإغريق في أرجاء البلاد . كما أنه خلف فيها دولة البطالسة . فإنه بعد موته اقتسم قواده مملكاته . فكانت مصر من نصيب قائده الشجاع بطليموس الأول ، الذي ما لبث أن استقر بمصر . واتخذها موطناً له ولذويه . وأسس فيها دولة البطالسة الشهيرة ، وهي الدولة التي زهت في عهدها مصر وازدهرت بضروب من الإصلاح العلمي والعمرائي . في مقدمتها إنشاء مكتبة الإسكندرية وجامعتها المسماة بدار المتحف . ودولة البطالسة . وإن كانت إغريقية الأصل — لا شك في أنها أصبحت مصرية صميمية ، لأنها ترطنت مصر . ووهبت جهودها لمصر . وحكمت باسم مصر ، وغزت البلاد المجاورة وفتحتها ونشرت فيها راية مصر ، متخذة من شعب مصر شعباً . ومن جنودها جنوداً . على الرغم من أنها عاشت بها معيشة الإغريق . وجلبت إليها علم الإغريق . وإن زلنا طويلاً كالذي قضته في حكمها (٣٢٣ — ٣١ ق . م) وعاشت فيه لمصر دون سواها لجدير بأن يخلع عليها ثوب المصرية الكريمة . ولا نشك في أن عهد البطالسة . لو امتد في مصر . لكان لها خيراً من الاحتلال الروماني . الذي مهد له ملوك البطالسة الضعفاء في أخريات دولتهم .

فبينما كانت الدولة الرومانية تظهر في الوجود . ويشهد ساعدها . وينتشر سلطانها . إذ أهلك الترف والزراع أمراء البطالسة . وغلبهم على أمرهم . حتى تراموا في أحضان الرومان ، يستمدون منهم العون والحماية . ويستجدونهم الفصل في منازلهم . وما زالوا حتى انتهى أمرهم بانتهجار آخر ملوكهم . وأعني كليوباترا ، واستيلاء أوكتافيانوس ،

الرومان نهائيا على مصر .
بدأ عهد الاحتلال الرومانى حوالى عام ٣٠ ق . م . وفيه كانت مصر مزرعة لسادة رومان وشعب روما . يسعدون ويشقى سكان مصر فى سبيل سعادتهم . كان عهدا مليء ظلما وعسفا وإرهاقا . ولم يخفف من أعبائه تلك الإصلاحات الضئيلة التى كان أباطرة الرومان يجودون بها على مصر بين الفينة والفينة . ولهذا ظلت مصر وايس لها كيان سياسى نحو ٦٧٠ سنة (٣٠ ق م - ٦٤١ م) . ولهذا كان تمام فتح العرب لها فى هذا العام الأخير . وانزعاعها من يد الرومان . ظفرا لها عادلا . ونجدة مفاجئة . أخذت من بعدها ثوب إلى رشدتها . وتفتق من سباتها الطويل . وإن يكن هذا الفتح ضربا من الاحتلال . ونحن نمقت الاحتلال أبا كان نوعه .

مصر من فتح العرب حتى قيام دولة المماليك :

شغل العرب بفتح البلاد المصرية بين سنتي ١٨ هـ و ٢٠ هـ (٦٣٩ م - ٦٤١ م) وتم فتحها فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وبدا القائد العربى الكبير عمرو بن العاص قاهر الرومان . فأصبحت من ذلك الحين جزءا من الدولة العربية الفتية العظيمة فوفدت إليها وفود عدة وجلت إليها جوال كثيرة من بطون العرب وأخذوا وتوالى عليها أمراء من العرب . يحكمونها من قبل الخلفاء الراشدين . ثم من قبل ملوك بنى أمية . وحينما زالت من الوجود دولة الأمويين . لم تجد خليفة لها الدولة العباسية . صعوبة تذكر فى الاستيلاء على مصر . ومن ثم تتابع ولاية العباسيين أيضا على هذه البلاد . غير أن كثيرا من ولاية العباسيين حينئذ . كانوا من الترك ومنهم من يفضل الإقامة فى بغداد قريبا من دار الملك . عن النزوح إلى مصر . فكان منهم من يرسل نائباً عنه يحكمها باسمه . وفى ذلك ما فيه من هوان لمصر ؛ وإغفال لمراقبتها . ومضاعفة الظلم لأهلها . ولهذا كان طبعيا أن يتخلل حكم العرب لها ثورات متعددة ، آنا ضعيفة ، وآنا قوية . قوامها العناصر العربى حينئذ ، والقبطى حينئذ ، وقد يتحد العنصران معا ، بدافع من المصلحة المشتركة .

ومهما يكن من شيء . فإن الفتح العربى أروخى ذيل النسيان على الفرعونية القديمة ، وأنشأ مصر لإنشاء آخر ، وكان الحكم الرومانى من مهادت هذا النسيان . وبذكر التاريخ أنه منذ فتح العرب مصر ، أخذ أهلها من مسيحيين ويهود وغيرهم ، يدخلون فى دين

الله أفواجاً ، وبخاصة في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي إذ خف ضغط الضرائب ، وانخفضت العربية أداة لضبط الدواوين . حالة محل اللغات الوطنية فيها . فساد الإسلام واشتد أذى اللغة . وغلبت على المصريين مقومات عربية كثيرة من عادات وتقاليد ونحوها .

ونحن وإن نعمنا من الفتح العربي بنعمة الإسلام ، ومحبست إلينا لغته العربية لانسى أنه أزال استقلال البلاد مرة أخرى ، فظلت تابعة لامتبوعة . وظلت كذلك حتى تقلد ولايتها من قبل العباسيين الأمير التركي « بكباك » ، أو « بقبك » ، وذلك في عام ٢٥٤ هـ فأصاب عنه في حكمها « أحمد بن طولون » ، وكان تركيا أيضاً ، وعندما مات « بكباك » ، عهد الخليفة بولايتها إلى أمير آخر هو « ماجور » ، وكان حماً ابن طولون . فاستبناه في نيابته ، فجمع ابن طولون حزمه وعزمه لكي يستقل بالبلاد ، فأصلح مرافقها وقوى جيشها ووفر مالها ، ثم منع إرسال أخرجها إلى بغداد ، وحذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة عام ٢٦٩ هـ فكان ذلك إعلاناً باستقلاله . وبني مدينة القطائع وجامعه المشهور بها ، فكان ذلك منه إيذاناً بعودة الروح الاستقلالية إلى البلاد . غير أن خلفاء ابن طولون لم يحافظوا محافظة نامة على هذه الروح ، وإن كان مثلك ابنه خمارويه قد امتد إلى البلاد الشامية والموصل والجزيرة . ولقد عرف عن خمارويه ولوعه بالإتفاق والسرف ، والإغراق في الترف ، حتى أصبحت خزائن أبيه خاوية على عروشها ، وبخاصة من جراء زواج ابنته « قطر الندى » بالخليفة المعتضد العباسي . لذلك سرعان ما آلت مصر إلى حكم العباسيين بعد ولديه : « أبي العساكر » ، و « أبي موسى » . وذلك عام ٢٩٣ هـ . أخذ العباسيون يرسلون عليها ولاتهم من جديد ، فظلت نحو ثلاثين عاماً كذلك ، وهي تموج بالفتن والاضطرابات ، حتى ولي عليها الأمير « محمد بن طنج » ، الإخشيد ، من قبل الخليفة العباسي عام ٣٢٤ هـ - (٩٣٥ م) فنهض بالبلاد نهضة محمودية ، وأبدى كفاءة ونشاطاً في حكمها وصد الخارجين عليها ، ودفع الطامعين فيها . وامتد سلطانه حتى حكم دمشق ، وقلده الخليفة حكم مكة والمدينة ، وجعل الحكم من بعده وراثياً في عقبه . غير أن ابنه « أبا القاسم » أو « نوجور » ، كان حدثاً صغيراً ، فأقيم « أبوالمسك » كائور الإخشيدى ، وصياً على عرشه . وكان كائور خصياً حبشياً مملوكاً من قبل للإخشيد ، علت عنده مكانته لرجاحة عقله ونقوب بصره ، فحكم البلاد زمناً باسم سيده

« أبى القاسم » ، ثم استأثر بالحكم نهائيا بعد موته ، ثم مات كافور ، فلم تقم لدولة الإخشيديين من بعده قائمة .

هنا وجد الفاطميون مصر مراحا مباجا ، وملكها شاعرا لا يحجيه أحد ، فاستولوا عليها زاحفين من الغرب بقيادة قائدهم المظفر « جوهري الصقلي » ، مولى المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ . والفاطميون ينسبون إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمؤرخون مختلفون في صحة هذا النسب . ويروى أن المعز الفاطمي بعد أن وفد إلى مصر ، جمع النسابة وأقنعهم بصحة نسبه إلى جعفر الصادق من نسل سيدنا علي كرم الله وجهه ، ويروى أنه نثر بينهم الذهب وبسط أمامهم السيف وقال : « هذا حسي وهذا نسي » .

وقد كانت للفاطميين ببلاد المغرب دعوة فدولة ، فلما فتحوا مصر جلوا إليها واتخذوها دار مقام ووطنا وبنوا بها قاهرتهن المعزية وجامعها الأزهر ، وتشبهوا بخلفاء بني العباس الأوائل ، فسموا بالخلفاء . ونظموا دولتهم وعنوا بظاهر الآبهة والفخامة وأكثروا من الحفلات والموائد العامة والخاصة ، وأشاعوا الكثرة من الموالد الدينية والأعياد والمواسم ، متخذين منها فرصة للبر والإحسان لكي يشغلوا الشعب عنهم بكل أولئك . وقربوا إلى مجالسهم العلماء والأدباء والشعراء ؛ فوجدت اللغة العربية لها منهم أكبر عون ونصير . فازدهرت بأدائها ورجالها . وعنوا بالبناء والزخرفة حتى أصبحوا ولهم طراز خاص . وكانوا في جملةهم محبوبيين من أهل البلاد . لما تحلوا به من تسامح وعقل وعلم ، هذا على الرغم من غلوهم في مذهبهم الشيعي . ورغبتهم في نشره بالبلاد . وعلى الرغم من قسوة بعض ملوكهم كالحاكم بأمر الله . وعلى الرغم مما أصيبت به البلاد في بعض أيامهم من قحط وجذب وغلاء ، كما وقع في عهد المستنصر بالله .

ويهمنا أن نشوه هنا بأن البلاد كانت مستقلة عزيزة الجانب في عهدهم . وانتشرت كلمتهم إلى نواح عدة من الشام والحجاز والعراق ، حتى قيل إنه خطب للخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد نحو أربعين خطبة دعى له فيها .

ثم دب فيهم ديب الضعف ، وكان مذهبهم الشيعي الذي يخالف مذاهب الجمهور المصري في مقدمة الأسباب التي نفرت عنهم . هنا ظهرت طائفة من الزعماء سعى كل منهم

إلى الوزارة واستبد بها دون الخليفة ، فتنازعوا بينهم أمرهم ، واستفحل النزاع وتشبهوا بالخلفاء في الرواح والغدو والحفلات والمجاس وما إلى ذلك ، وعرفوا بالوزراء العظام ، واجترأوا على أن يتلقبوا بألقاب الملوك ، ومنهم الملك الصالح «طلائع بن رزيق» ، وأورزيق ، وزير الفاتر الفاطمي ، وكان أدبياً شاعراً وعالماً مصلحاً . فسكان ضعف الخلفاء وتشاحن الوزراء ، واستنجدوا بأمراء الشام ، ليحزنوا بعضهم على بعض ، وازدياد نفوذ العناصر التركية ، والحقود الكفانة بين الترك والمغاربة ، بسبب الحكم والسعي إليه ، ثم عدم الوحدة بين الجنود المصريين - إذ كان فيهم ترك وعرب ومصادمة وحدة أمة وروم وعبيد سود - ثم قيام الحروب الصليبية ، كان كل أولئك من أسباب زوال دولة الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ . إذ قبض على زمام الأمر في البلاد دونهم البطل الكردي المعروف «صلاح الدين الأيوبي» .

وقد «صلاح الدين بن أيوب بن شاذي» منح عنه «أسد الدين شيركوه» إلى مصر لإصلاح الحال فيها . وكان «أسد الدين» أحد قواد أمير الشام «نور الدين ابن زنكي» . استعان العاضد الفاطمي هو وبعض الوزراء «بنور الدين» ، ليعينهم ويقضى على منازعهم ، فنجحت إليهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين . فما زال صلاح الدين حتى دفعت الأيام بين يديه بمنصب الوزارة المصرية ، في خلافة العاضد المذكور ، فاستبد بالأمر دولة ، وأقصى عنه المتنافسين من الوزراء . وساعده على ذلك حنكته ودهاقته وبرده همة وشجاعته . فجمع السلطة في يده ، وحكم مصر نائباً «عن نور الدين» ، ثم قطع اسم العاضد من الخطبة ، ودعا للمستضيء العباسي خليفة بغداد ، وكان العاضد مريضاً فمات . ثم مات من بعده «نور الدين» ، وبذلك خلا وجه مصر لصلاح الدين الأيوبي وحده فأعلن نفسه سلطاناً عليها ، ومن هنا ابتدأت الدولة الأيوبية .

أخذ صلاح الدين يسوس البلاد بمهارة وقدة ، وبصلح من أمرها ويعالج مريض الشئون فيها ، ويقر مضطربها . فأبطل المذهب القديم ، وعمل على نشر المذاهب السنية وبخاصة مذهب الإمام الشافعي ، وعنى كثيراً من آثار الفاطميين ، ووجد عناصر جيشه ، فانخذ جنوده من الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم نحو اثني عشر ألفاً . ونظم الضرائب وأقام المائنة ، وعدل بين الرعية فأحبته وتعلقت به . ثم خاض غمار الحروب الصليبية ، وانتزع بيت المقدس ، وأرعب المسيحيين . فسجل اسمه بين أبطال الإسلام الخالدين .

ويعتبر العصر الأيوبي في مجملته امتداداً للعصر الفاطمي من ناحية استقلال البلاد في إدارة شئونها - وغزو أمرائها باسمها - زد على ذلك أن الأيوبيين - وعلى رأسهم مؤسس دولتهم صلاح الدين - نصبوا أنفسهم حماة عن الدين وزيادة عن أهله ضد متعصبى المسيحية - الراغبين في الاستحواذ على بلاد المسلمين باسم البلاد المقدسة - فوقفوا دونهم سداً منيعاً . ومنعوا توغلهم في بلاد المسلمين خاصة - وبلاد الشرق عامة - فلم يستطيعوا أن ينالوا في تلك العصور الوسطى ما نالوه في العصور الحديثة . وكم للأيوبيين من بعد صلاح الدين من موقعة أذلوا فيها أنوف الفرنجة ، وذهبنها من كبرياتهم ، وتلك موقعة « المنصورة » في عهد المعظم « توران شاه » . وفيها أسر جنود مصر « روادى فرانس » ، أى ملك فرنسا لويس التاسع - وغيره . وبجنتوه في ديار ابن لقمان وهو القاضى نجر الدين بن لقمان الذى كان كاتباً للسر ، وداره بالمنصورة . ثم اقتدى نفسه وعاد إلى بلاده على ألا يفكر في غزو مصر مرة أخرى . وفي هذه الغزوة بالذات ظهر تضامن طبقات الشعب ظهوراً محموداً وعاونوا أولى الأمر حتى تم لهم النصر . وقد قال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه بصدد الموقعة المذكورة ما نصه :

« فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستائة ، ركب الأمير بيبرس البندقدارى ، والأمير لاجين ، وغيرهما من الأمراء ، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك ، وفي أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، لحملوا على الإفرنج حملة واحدة ، فكانت ساعة تشيب منها النواصي . فانكسر الإفرنج بأخس كسرة ، ولولا مدبرين والله تعالى ناصر الناصرين . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فبلغ عدة من استشهد في هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين أميراً غير المالك . وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الإفرنج على فارسكور ما يزيد على اثني عشر ألف إنسان . »

وكان سبب هذه الموقعة غزو الفرنجة للديار المصرية عن طريق دمياط . أقول : ولم يقتصر نصيب الشعب على ما قام به عوامه ، بل قام الخطباء بثيرون الحاسة في النفوس ، ويوغرون الصدور على هؤلاء المعتدين . وفي كتاب (الخريدة) للعماد الأصبهاني ، وكتاب « الروضتين » في أخبار الدولتين المقدسى ذكر لهذه الحروب وما لبسها من خطب وأشعار .

ولم يقصر ملوك بني أيوب في تقريب العلماء والناغبين والاستئناس برأيهم ومشورتهم. وهذا هو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي أديب مصر الذائع الصيت ، كان وزيراً لصلاح الدين وعضداً له قوياً . وابتنى كثير منهم العمارات والمساجد ، ورتبوا الدروس ، وشجعوا أدباء العربية ، وأسندوا ضررباً من البر والإحسان كثيرة . حتى بهروا الناس . غير أن دولتهم لم تملخ من عمرها إلا نحو ثمانين سنة (٥٦٧ هـ — ٦٤٨ هـ) حتى كان الهرم قد أصابها لضعف ملوكها حينذاك ، ووقوع الخلف في صفوفهم . وطغيان نفوذ عماليكهم — مما سنفصله بعد — فكان آخر ملوكهم زوجة الصالح الأيوبي « شجرة الدر » أم خليل ، التي تزوجت أحد كبار عماليك زوجها « عز الدين بن أيبك » وخلعت نفسها من الملك ، فتسلم « عز الدين » مقاليد مملكتنا بنفسه سلطاناً على البلاد عام ٦٤٨ هـ وبذلك دالت دولة الأيوبيين ، وبدأت دولة المماليك . وهي التي نفصل الكلام تفصيلاً فيما يلي :

مصر فى عهد المماليك

٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م)

نقصد بهذا العصر ، الفترة التى حكم فيها سلاطين المماليك فى مصر ، منذ انقضاء عهد الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ . ولا نقصد هنا استيعابا تاريخيا للعصر المذكور ، وتفصيلا وافيا لحوادثه السياسية وحروب ملوكه وقائعه فإن ذلك مما يضيق به صدر كتاب كهذا . زد على ذلك أن بين أيدينا موسوعات تاريخية ، كملت لإيضاح تلك الحوادث والحروب والقائع ، وفيها إسماعيل بن قسطنطين الفيلسوف وروى الظما . وإن كانت هذه الموسوعات تروى روايتها وتقص قصتها بعبارة تحتاج إلى التجديد والنمحيص والمقارنة ، مع جمال العرض وحسن التحليل ودقة التعليل ، كما يقتضيه فن كتابة التاريخ فى عصرنا الحديث ذلك لأن الموسوعات المشار إليها قد كتبها مؤرخون عاشوا فى العصور الوسطى ، كان أكبرهم هم محمد بن الحوادث غالبا ، دون الربط بينها أو تعليلها أو تحليلها ، وعرضوها غالبا عرضا لا أناقة فيه ، ممزوجة بصنوف أخرى من الحوادث والقائع المختلفة . وهى بذلك تحتاج إلى إعادة النظر فيها لإخراجها فى صورة جديدة شائفة تلذ للقارئ من طلاب التاريخ فى العصر الحديث . وليس هنا أن ننقص قصتها ولا أن نعيد النظر فيها إلا بمقدار ما نخرج منها خلاصات سريعة وصورا عاجلة للحالات شتى من حالات عصر المماليك تعين على رسمه فى الأذهان رسما واضحا مقبولا . وإن يكن موجزا . ههنا أن نعرض النظم المرعية فى الدولة والأمة ، ونصف ضروبا من عاداتها وتقاليدها ، حتى نعين القارئ على تصور الأمة المصرية فى ذلك العصر ونفهم اتجاهاتها ومعركة روحها وأسس معيشتها ومدار حياتها ، ونشبع ذلك بتراجم كثير من رجالها . فترجمتهم تعين على حسن التصور ، وتساعد على تفهم الانجازات . ولأن ترك الحوادث السياسية وسير الملوك جانبا . بل سنعرض لها بمقدار يدين . حتى لا يخلو هذا المؤلف من إحدى الدعائم الهامة التى يرتكز عليها تصوير العصر . ولأنه بذلك كله . أو بالأحرى بهذا الجزء التاريخي سنن على فهم الحركات الأدبية والعلمية فهما أدق

وأوقى . وبذلك كله نغنى القراء عن عشرات من المصنفات التى لا غنية عنها لمن يريد فهم العصر على أكمل وجهه .

أصل الممالك

كان الرق منتشرا فى العصور الوسطى ، وكانت تجلب الغلمان المرد والفتيان الحسان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق ، حيث توجد الرغبة فى اقتنائهم ، وحيث يتنافس فى ذلك المتنافسون للخدمة أو اللهو . وكان هناك تجار أخصاء ، هم النحاسون ، يعرضون هذه الأجسام البشرية بضاعة فى الأسواق العامة وغير العامة ، ويصفون محاسنها للناظرين ، أما طريقة جلبهم لهذه البضاعة فأسرقة والخطف ، يسرقون الغلمان ، ويختطفون العذارى من أهلهم ، ثم يستحلون بيعهم للناس ويستحل الناس شراءهم . وقد يشتد قحط أو غلاء ، أيعم وباء . فتتوهم حينذاك قلذ الأكباد على أهلها . فيفرون فيها بالبيع . تخفيفا للبلوى ، وحفظا للرمق ، بما يدفعه لهم الشارى الكريم ، وبما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الفارات الحربية التى يشنها غازاتج قاس غليظ القلب ، على أهل بلد وادعين آمنين ، فيفرق شملهم ويبيد جمعهم ويقيم الولدان ، ويسبى الجوارى الحسان . فينشط النحاسون حينذاك ، ويغالون فى شراء هؤلاء . ولم لا يغالون ؟ وفى انتظارهم خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وعظماء ، على أهبة لقايتهم بصرى الدنانير الذهبية والأعطيات الثمينة أجرا لبضاعتهم الجيدة . فقد كان منهم من يدفع الآلاف والآلاف بل والآلاف ، ثمنا لجارية جميلة أو علام وسيم وبما ساعد على رواج هذه التجارة أيضا ما يتوقع من الحظ الحسن الأرقاء فى مستقبل حياتهم . فقد تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه أحرار الرجال وعقيلات النخلاء ، من عز ورفاهية ومجد وطيب أحوال .

لهذا انتشر الرق فى العصور الوسطى . وكان الأرقاء فيها أحياء باضربا من المنح والهدايا ، يبادلها العظماء والمترفون . وتذوق الناس وجود الرقيق بلاغربة ولا استكراه ، وكثر للتخزين ، وتعددت جيوش الجرارى فى القصور ، وامتلات أروقتها بالغلمان ، وأصبحوا أحيانا أولى قوة وأولى بأسا شديدا . ولم يبل بالرق شعب دون آخر ، أو جنس دون غيره . فقد كان من الأرقاء : التركى

والجزركسى والرومى والزنجى والحبشى والفارسى وغيرهم . وأروج ما كانت تجارتهم فى
الأجناس التركىة والجركىة ، لما تنصف به من جمال وطيب مجلس ، ولما ابتليت به
بلادهم من غارات وحروب طاحنة .

واستكثر منهم خلفاء بنى العباس والفاطميون والايوبيون وغيرهم . ولقد كان
لمصر نصيب من هؤلاء كبير .

وقد ذكر بعض مؤرخى عصرنا الحاضر ، أن أول من استخدم المماليك الأتراك فى
مصر ، وجلبهم إليها ، واستعان بهم على تثبيت سلطانه ، خلفاء الفاطميين ، تشبها منهم
ببنى العباس ببغداد ، ثم اقتنى أثرهم فى ذلك ملوك الدولة الأيوبية .

ولكن الحق أن أول من استخدمهم وجلبهم إلى مصر ، وجعلهم عمدة جيشه هو
أحمد بن طولون . وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربى كما بيناه
فقد قال القلقشندى فى صحيح الأعشى بالجزء الثالث عند الكلام عن ولى مصر ملكا قبل
دولة الفاطميين ما يلى : « وأولهم أحمد بن طولون . . . وفى أيامه عظمت نيابة مصر ،
وشمخت إلى الملك ، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية ،
واستخدمهم فى عسكرها » .

وقال ابن إياس فى الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون
ما يلى : « قال ابن وصيف شاه : فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون فى ولايته على مصر ،
واستقامت أحواله بها ، استكثر من مشترى المماليك الديالمة ، حتى بلغت عدتهم
أربعة وعشرين ألف مملوك » .

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء المماليك — على فرض المبالغة فى
عددهم — كان خير نواة لوجود المماليك فى مصر . وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين
وخلطوا فى جندهم بين أجناس مختلفة . ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبى اتخذ
جنوده من الأكراد والمجاولى المرتزقة ، وحذا خلفاؤه حذوه .

ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب فى سنة ٦٣٦ هـ ، فرأى أن يثبت ملكه
بجنود جدد ، فاستكثر من مشترى المماليك الأتراك ، ونشأهم تنشئة عسكرية . غير
أنهم كانوا كثيرى العبث والشر ، يجوسون خلال الأسواق ، وينهبون البضائع من
التجار ، حتى علا الضجيج بسببهم . فبنى لهم سيدهم قاعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها

ولا يبرحون . وسماهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وجراسه .
وكانوا أقل من ألف مملوك (١) .

وقد كان هؤلاء البحرية عضدا قويا للملك الصالح حرسوا ملكه وذادوا عنه ، وثبتوا
دعائمه ، وأبلاوا بلاء عظيما في موقعة المنصورة ، التي هزموا فيها الفرنجة ، والتي نوهنا
بها . وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بنى أيوب إلى أمراء المماليك ، فملكوا
مصر وأصبح منهم سلاطينها وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة ودولة من طراز جديد هي
دولة المماليك .

وإذا ما أطلقنا هنا لفظ « المماليك » ، أو « دولة المماليك » ، فإنما نقصد الدولة التي
كونها هؤلاء . دون من تقدمهم في عصر الأيوبيين أو الفاطميين ، أو تأخر عنهم في
العصر العثماني .

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون ، واتبعوا في الحكم نظاما
سنيينه فيما بعد . وقد جدت السلاطين والأمراء في مشترى المماليك الجدد باستمرار .
فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدي لهذه الطبقة الحاكمة . وقد ساعدتهم على مشتراهم
تعدد هجمات التتار إذ ذك على أواسط آسيا الخوارزمية وبلاد التركان وشرق آسيا
الصغرى ، وغير ذلك من نواحي آسيا . فكثر سبي الصغار وفرار الكبار أمام هذا
الخطر الداهم . وأقبل سلاطين مصر وأمراؤها على شراء هؤلاء المماليك ، وغالى بعضهم
في ذلك ، ووقع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين القادمين إلى مصر
وتوصيهم ببيعهم فيها (٢) ، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير ، ولما كان ينتظرهم من
مجد خطير .

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة المماليك ، وأمرائها ، لوجدتهم
من هذه المماليك المشتراة . وإليك أخبارا عن بعضهم ، نقلا عن ابن لإياس :
الملك الظاهر بيبرس : أصله تركي الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير ، فبيع
لشخص يسمى العماد الضائع ، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين البندقدارى ، ثم آل
ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي . ثم أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية .

١ — راجع خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٨٤ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك البحرية » .

٢ — راجع خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطبايح بساحة الإيوان » .

ثم دفعت به الأفدر فصار أتابك العسكر في دولة المظفر قطز . فلما قتل قطز صار بيبرس سلطاناً .

والملك المؤيد شيخ الحمودى : أصله من ممالك الظاهر برقوق ، اشتراه من الخواجا محمود شاه ، وأعتقه وأخرج له خيلاً ، ثم أخذ يترقى فصار أميراً وناظراً ، وعاونته الأيام حتى أصبح سلطاناً على مصر ، بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسى .
والملك الأشرف قايتباى : أصله من الجركس ، جلبه إلى مصر الخواجا محمود ، فاشتراه الملك الأشرف برسباى هو وعدة ممالك صغار ، كل مملوك بخمسين ديناراً ، ثم أعتقه وترقى في سلك الإمارة ، حتى بلغ الأتابكية فالسلطنة بعد خلع نمرىقا .

وعلى مثال مما تقدم تجد الأمراء . حقا قد ولى سلطنة مصر في ذلك العصر أحيانا مملوك لم يكونوا من قبل أرقاء مثل : الناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قايتباى ، والمنصور عثمان بن جقمق . وهؤلاء وهؤلاء أبناء مملوك ، حكم آباؤهم من قبل ، فورثوا عنهم الملك ؛ ولكن بعد أن جرى الرق على آباؤهم ، وربما جرى على أمهاتهم أيضاً ومن غريب الأمر أن بعض الأمراء كانوا يتنادرون بعضهم على بعض بالبيع والرق ! ... فقد روى ابن إياس في ترجمة الناصر بن قلاوون . قال : (١)

« وقع يوماً بين الأتابكى « بكتمر » وبين الأمير « قوصون » ، تشاجر . فقال قوصون للأتابكى : « أنا ما نقلت من الأطباق إلى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال ، فأنعى على السلطان بإقطاعه وبركته وبيته . وصرت خاصكياً فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده ، لما قال له السلطان : « معنى هذا المملوك ، قال التاجر : « هو حر لوجه الله تعالى ، فأخذنى السلطان برضاى ولم أقعد فى طبقه ، ولم أكن تحت حكم آغا . ولم أبع مثل بقية الممالك » . فلما سمع الأمير « بكتمر » ذلك ، سكت عنه ولم يجبه بشئ . » .

ويلاحظ أن قوصون وبكتمر المذكورين كانا من أمراء عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يدهما الحل والربط فى البلاد المصرية يوماً ما .

ومن النواذر الطريفة المناسبة لما رواه ابن إيلس قال : (١)
 « غضب السلطان قايتباى على شاد بك أباز ، الإينالى الأشرفى : أحد الأمراء
 فألبسه زنطا عتيقا ، وأمر بحمله إلى خان الخليلى ليبيع وقد ثبت أنه باق على
 ملك المنصور عثمان ، فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه إلى الملك المنصور . فشفع فيه
 الأتابكى ، أربك ، فاقبل منه . وآل الأمر إلى أن حل إلى الملك المنصور (٢) . فأشهد
 على نفسه بعثقه . »

ويروى عن شيخ الإسلام « عز الدين بن عبد السلام » ، أنه صمم يوما على بيع عدد
 من أمراء الدولة الأتراك ، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار . وكان هو إذ ذاك قاضى
 القضاة . فاعتقد أنهم من جملة مال المسلمين ، وأنهم ملك بيت المال . فعجب الأمراء
 وكان بينهم نائب السلطنة فأرسلوا إلى الشيخ يطلبون عدوله عن ذلك ، ولا طفوه
 ولا ينوه ، فلم يزد إلا إصرارا على رأيه ، ولبت لا يجيز لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا
 ولا أى نوع من أنواع المعاملة ، حتى لحقهم من ذلك أذى كثير ، مع أنهم سادة الناس
 وحكام الأرض . فغضبوا وهم أحدهم بضرب هامة الشيخ بالسيف تأديبا له ، فبيست
 يده . فأسقط في يده ، وانتهى الأمر بعرضهم للبيع ، وغالى الشيخ في بيعهم وضم
 ثمنهم إلى بيت المال ، لينفق في شئون المسلمين ، (٣) .

هذا . ونظرا إلى أن هؤلاء الممالك ، وفيهم السلاطين والأمراء ، أرقاء ، والأرقاء
 لا ينسبون عادة إلى آبائهم ، تجدد أغلبيتهم العظمى قد نسبت إلى غير الآباء والأجداد
 جريا على العادة المذكورة . وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء فيقال
 مثلا : شيخو الناصرى (٤) نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون ، لأن شيخو من
 مشترى يانه ومعنوقيه . أو ينسب إلى من باعه من التجار فيقال مثلا : « برقوق العثمانى (٥) ،

١ — بدائع ج ٢ ص ١٥٣ .

٢ — الملك المنصور عثمان هو ابن السلطان جقمق . ولّى الملك ثم خلع وأقام مكرما في عهد قايتباى .
 ووات بدمياط ثم نقل وفاته إلى القاهرة .

٣ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ ، طبقات السبكى ج ٥ ص ٨٠ .

٤ — انظر ترجمته في باب « أفذاذ الرجال » في هذا الجزء من كتابنا .

٥ — انظر ترجمته في بدائع ابن إيلس ج ١ ص ٢٥٨ .

نسبة إلى الخوارج عثمان بائع الرقيق الذى جلبه إلى مصر . أو ينسب إلى مبالغ المال الذى اشترى به . فيقال مثلاً : « قلاوون الآلاني (١) » لأن الأمير علاء الدين آق سنقر اشتراه بألف دينار .

هذه طريقة نسبتهم . ومن الحق أن نقول : إن النسب إلى الشارى أكثر من النسب إلى غيره ، وأن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد ، بمن تداولوا ملكه . وقد ينسب إلى البائع والشارى معا ، وهكذا .

ويظن المرء لأول وهلة أن ممالك مصر هؤلاء ، كلهم من الجنس التركى أو الجركسى ، والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عدداً ، فمنهم التركى كالظاهر بيبرس (٢) ، والجركسى كالآشرف قايتباى (٣) ، والتترى كالعادل كيتباى (٤) والقبحاقى كالممنصور قلاوون (٥) والهندي كالأمر جوهر التركمانى الشبكى (٦) ، والرومى كالظاهر تبرغا (٧) . ولكن الجنس التركى والجركسى كانا غالبين . وكانت للجنس التركى السيادة فى الدولة الأولى « الدولة البحرية » ، وللجنس الجركسى السيادة فى الدولة الثانية « الدولة البرجية أو الجركسية » . وكان من الأجناس الأخرى جماعات من الأورانية ، وهم طائفة من المغول ، استقدموا إلى مصر العادل كيتباى المنصورى ، وهى لهم مساكن مناسبة . وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد (٨) . وكان منها أيضاً طوائف من التركان واللاظ والكرد والقرانصة والأرمن والخطا (٩) . وكثرت أنواعهم وتعددت فى الجزء الأخير من الدولة الجركسية .

ويلاحظ أن المملوك كسان يشتري صغيراً ، ثم يربى -- كما سنبينه -- غير أنه فى أخريات الدولة الجركسية . جلبت الممالك كباراً . ومنهم من كان عاملاً أو صانعاً محترفاً قبل جلبه . فكان ذلك فى جملة أسباب فسادهم ...

١ — انظر ترجمته فى صبح الاعشى جزء ٣ ص ٤٣٥ .

٢ — و ٣ — ٤ — راجع تراجمهم فى بدائع ابن عباس .

٥ — خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٨٧ . ٦ — بدائع ج ٢ ص ١٠٤ .

٧ — بدائع ج ١ ص ٨٧ . وراجع تراجمهم جميعاً أضافى الضوء اللامع للسخاوى ، والمنهل الصافى لأبيهم

بالجاسن ، والدرر الكامنة لابن جبر العسقلانى .

٨ — كتاب التعريف باب « المحرفات » .

٩ — تاريخ ابن خلدون ج ٥ ٣٦٩ تحت عنوان « الخبر عن دولة الترك » .

انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك

أخذ عدد المماليك يتكاثر في مصر من الأيوبيين وأخذ نفوذهم يزداد ويعظم . وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين ، ونهكهم الترف والانفاس في المذات ، ودب بين أمراءهم الشقاق ، وقادتهم الأطماع غير المشروعة ، أتاح ذلك للمماليك أن يكونوا ذوي شأن وسلطان . لأنهم اليد العاملة ، والقوة الفعالة في ملافاة هذا الضعف ، وفي فض هذا النزاع . فأكسبهم ذلك بأسا على بأس ، وسلطانا فوق سلطان .

وقد قوى بأسهم في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي . فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هـ ، اشترى عددا كبيرا من المماليك ومرتزمهم تمرنسا عسكريا ، واتخذ منهم حراسا وجندا . ولكن كان فيهم شر ، وضج الناس من شرهم — كما بينا — فبنى لهم قلعة بجيزة الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم « البحرية » (١) وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالأسلح والذخيرة . وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة ، وأجرى عليهم الرواتب والطعام والشراب والكسب . وكانوا دائما على قدم الاستعداد لتلقى أوامره للخروج إلى القتال .

وأخذ نجمهم في الصعود ، منذ أن هيئت لهم الفرصة ، لقتال الفرنجة والتغلب عليهم ، وأمر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هـ في موقعة فارسكور والمنصورة كما بينا . وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم ودعاهم إلى القتال .

وكانت الأخبار قد تواردت بأن « روا دي فرانس » أي ملك فرنسا ، أتى في جموع من الفرنجة زاخرة ، وفي ألوف من المقاتلين ، تحملهم السفن إلى « دمياط » حيث ظلوا يحاصرونها زمنا . ثم ضيقوا عليها الخناق ، وخاف أهلها من القتل والسبي ، فهجروا مدينتهم فارين تحت جناح الليل ، فدخلها الفرنجة في الصباح . ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة ، مقيمين في طريةهم بالاستحكامات . وكان الملك الصالح قد أهاب بمماليكه البواسل فأحاطوا به وحلوه في حفرة خدشه ، وساروا به نحو مدينة المنصورة ، ونودي أن يجتمع إليهم عربان الجهات ،

ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد .

هنا فلك المسلمك الصالح بنائب دمياط ، وطائفة أخرى من أمراء المماليك ، كانوا معه في إخلاء المدينة ، وقراره منها ، وتركها غنيمة باردة في يد الفرنجة . فأنف بماليك السلطان من غدره ، وحارلوا الفتك به جزاء لما قدمت يداه . ولكنهم تريتوا حتى وقعوا بالفرنجة ، وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل . ولكن الموت سبقهم إليه ، وكفاه شرهم ... فكسّم موته حتى لا تكون إذاعته سببا في تخاذل جنده ، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة ، فتكون العاقبة وخيمة . وحملت جثة الملك في زورق ، وسير به تحت ستر الليل إلى القاهرة ، ودفن بالقلعة مؤقتا . وأرسلوا إلى ابنه « المعظم توران شاه » — وكان مقبلا في حصن « كيفا » ببلاد الشام — وقام أمراء المماليك بتدبير الأور حتى يعود . وكان على الأمراء : حسام الدين لاجين ، وفارس الدين أقطاي ، وعزالدين أيك ، وبيرس البندقداری . وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل — وهي « شجرة الدر » ، أم خليل — زعيمة ، يأترون بأمرها ، ويصدرون عن رأيها . فكان ذلك منهم أول خطوة في سبيل التآمر على ملك الأيوبيين ، وقلب نظام الحكم فيه ، وكان فيه تثبيت نفوذهم وإعلان مبدئي باطاعهم .

عاد « توران شاه » بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم . فدخل القاهرة ، وأذيع موت أبيه الصالح ، ونودي له بالسلطنة وتلقب بالمعظم . ثم اجتمع المماليك تحت امرته صفا ، وتحفزو للقاء عدوهم بحماسة للجهاد وحب الاستشهاد . وكانت الأخبار قد توالى بزحف الفرنجة نحو « فارسكور » . خفف إليهم جيش المماليك سائرا إلى شمال « المنصورة » ، يعاضده جمع عظيم من فلاحى البلاد ومعهم المقاليع والحجارة . وعارتهم أمداد من الشمال ، ضغطت على العدو فأصبح بين قوتين . وكانوا قد أرسلوا هذه الأمداد من قبل ، ومعها سفائن محمولة على جمال لينزلوها في البحر تجاه دمياط ، ومن ثم تسير في النيل نحو الجنوب . ثم هجم رجال القوتين هجمة صادقة على العدو فأبادوا جمعه ، وشقتوا شمله ، وأسروا منه عددا كبيرا ، ومنهم لويس التاسع (١) نفسه . وقد أشرنا

١ — هذا الملك سماه المقرئى « روا دى فرنس » . وابن لياس « ريدا فرنسيس » . وابن خلدون « رى فرانس » . وابن الوردي « پرنس افرنسيس » . وكتب عنه ابن شاکر الکتبى فى وفیاتہ ج ١ ص ١٠٦ فضلا ، وسماه « البرنس الفرنسيس » . وهذا تحريف . ومأخوذ عن Roi de France أى ملك فرنسا . وتبعهم الأذباء فى ذلك كما فى شعرا بن مطروح .

إليه - فسجنوه في دار القاضي نحر الدين بن إيمان بالمنصورة ، ووكلا حراسته إلى الطواشي صبيح الفاطمي (١) . فظل في سجنه حتى افندى نفسه بالمال . وقتل في هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفا ، عدا من أخذ أسيرا ، وعدا الغنائم والأسلاب .
وبهذه المناسبة نذكر ما روى عن لويس هذا من أنه بداله أن يعود إلى غزو مصر في عهد سلطنة المنصور بن عز الدين بن أيك ، فبعث إليه المنصور رقعة يهدده فيها وفيها أبيات ساخرة للشاعر ابن مطروح . وهي .

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قتل فصبح
آجرك الله على ما مضى	من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبغى أخذها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت وأصحابك أودعهم	بقيج أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يشرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستر
إن كان باباكم، بذا راضيا	فرب غبن قد أتى من نصيح
فاتخذ كاهنا إنه	أنصح من شق لكم أو سطيح (٢)
وقل لهم إن أضمرنا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدنا	والقيد باق والطواشي صبيح (٣)

فرجع لويس عن عزمه .

وفي هذه الموقعة التي شرحناها ، ظهر تضامن طبقات الشعب ظهورا محمدا . وقد أسهبنا في شرحها ، لأنها السبب المباشر لتوطيد سلطة المماليك وظهور قوتهم ، وبرز أطاعهم ، وظلوا من بعدها يتلبسون الفرصة للوثوب العملى إلى عرش البلاد . وقد أتيح لهم هذه الفرصة عندما أساء إليهم «توران شاه» وإلى شجرة الدر معا .

١ — هكذا سمي «صبيح» هذا بالفاطمي . وسماه ابن خلدون «المعظم» وهو أقرب لنسبه إلى المعظم توران شاه .

٢ — شق : كاهن كان في زمن كسرى . وسطيح كاهن آخر من بني ذئب كان في الجاهلية .

٣ — هذه الأبيات من حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٣٩ ، ومن دوان ابن مطروح طبع الجواب سنة ١٢٩٨ م ص ١٨١ ، ومن سلوك المقرئى حوادث سنة ٦٤٨ هـ

لإذكف عنهم الخير ، وتوعدهم بالأذى ، وفضل عليهم أخصاءه الوافدين معه من الشام . وكان أولى له أن يتخذ من ممالك أبنه هؤلاء قوة وسندا ، وعونا وعضدا ، لتدبير مملكته وحفظ عرشه ، وبخاصة بعدما ظهر منهم من قوة ونشاط وشجاعة وإقدام ، وبعد أن كانوا أسببا في انتصاره ودحر عدوه . لذلك كان انصرافه عنهم وتهديده لهم طيشا منه وحقا ، دفعهم إلى الائتثار عليه . وما زالوا به ياتمرون حتى قتلوه أشنع قتلة وأبشعها . وملكوا عليهم من بعده زوجة أبيه «شجرة الدر» . وأطاعوها تبعا لذلك ولما بدا منها لهم من عدل وكياسة ، ولما فرقته عليهم من وظائف وأعطيات . أو بالأحرى ، لإطاعتها لهم واتجارها بهم ، وانطوائها تحت كلمة أحد زعمائهم وهو الأمير «عز الدين أبيك» . فعينته «أنا بك العساكر» أى قائد الجند ، وهى أرفع مرتبة فى الجيش . فكان عز الدين المدبر لمملكته وصاحب الرأى فى دولتها ، على الرغم مما يقال من إنه كان لا يتصرف فى الأمور إلا بعد مشورتها .

ضربت «شجرة الدر» الحجاب على نفسها ، فكان لذلك أثره فى ضعف مشورتها ، وصعوبة اتصالها بأمرائها ، وحسن اطلاعها على مهام دولتها . زد على ذلك أنها كانت أول امرأة مملكة فى الإسلام ، فكان تملكها غريبا ، حتى قيل إن الخليفة العباسى - على ضعفه - أرسل إلى المماليك ينعى عليهم أن يملكوا امرأة ... كان ذلك كله حافزا لهم على إعادة النظر فى أمر الملك من جديد ، وكثر بينهم الاتخذ والرد . حتى رأت «شجرة الدر» بثاقب نظرها ، وبعيد رأيها ، أن تخلع نفسها من الملك ، بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يوما . ثم استشير الأمراء والقضاة لاختيار سلطان جديد . فتمت المشورة بسلطنة الأمير «عز الدين أبيك» . ثم تزوج هذا الأمير من «شجرة الدر» ، ليكون ذاصلة بالبيت المالك القديم ، مع أنها زوجة سيده .

كان ذلك فى ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ . فركب «عز الدين» فى حفل جامع زاخر ، وبأبهة وجلال ، وأجلس على سرير الملك . وقبل الأمراء الأرض بين يديه ، واقبوه «بالمالك المعز» . فكان أول سلاطين المماليك بالديار المصرية ، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المماليك ، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش البلاد سلطانا بعد سلطان .

دولتا المماليك

٥٦٤٨ هـ — ٥٩٢٣ هـ

بدأ عصر سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ على يد الملك المعز د عز الدين أيبك، وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى عام ٩٢٣ هـ أى نحو ٢٧٥ سنة ، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثمانى . وانقسموا خلال هذه الحقبة درلتين هما : « الدولة البحرية » ، و « الدولة البرجية أو الجركسية » ، ولتتكلّم عن كل منهما بإيجاز ، فنقول :

الدولة البحرية ٦٤٨ هـ — ٧٨٤ هـ

مؤسسها « عز الدين أيبك » . وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة بين سنتى ٦٤٨ هـ — ٧٨٤ هـ ١٢٥٠ م — ١٣٨٢ م . وكنية « البحرية » ، أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم . وهذه الطائفة هى التى أمكنها سيدها الملك الصالح « نجم الدين الأيوبي » ، بقلعة الروضة . فمرفوا بالبحرية . وصاحبهم هذا الاسم . وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو ممالكها من المماليك الصالحية نفسها ، بل منهم سلاطين ومماليك من غير البحرية الصالحية . وذلك لأن هؤلاء تشبّثوا من بعد ، وأصبحوا فى حالة مزرية يرتئى لها ، بعد قتل رئيسهم « فارس الدين أقطاي » ، فى عهد السلطان الملك « المعز أيبك » . لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه . فأخذ يقوى نفوذه ، ويحصن عرشه ، وجند لنفسه مماليك جدد اسموا بالمعزية ، ثم بطش بالبحرية فقتل زعيمهم « فارس الدين » ، وشدت جمعهم فصار كثير منهم إلى الشام . ومع ذلك ظلت هذه التسمية : « البحرية » ، أيضاً لصيقة بممالك هذه الدولة فعرفوا بها . وسمّاهم بها المقرئى فى خططه . وسمّاهم غيره « دولة الأتراك » ، (١) . وقد جمع الملك المنصور قلاوون ، بعد ذلك شتات الصالحية

١ — ذكر الدكتور الفاضل ناشر سلوك المقرئى فى ص ٣٧ : من السلوك ، أن تسمية دولتهم « بالبحرية » تسمية حديثة . ولكن يفهم من الفصل الذى كتبه المقرئى فى خططه تحت عنوان « ذكر دولة المماليك البحرية » أنها تسمية قديمة .

حوسماهم البحرية ، أيضا ، لأنه أحدهم . فبقى هذا الاسم فيهم وفي بقاياهم ، وأطلق على
إحدى طوائف أجناد الدولة .

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة ، وكبحت جماح التتار في عدة وقائع .
فدفعت خطرهم عن مصر دفعا تاما ، وكفكتهم من عدوانهم على بلاد الشام . وكان
ملوكها بمصر مستقلين ، وملكوا باسمها - في أغلب أيامهم - بلاد الشام وجزيرة العرب ،
ووصل نوذهم حينما إلى شواطئ الفرات والجزيرة ، وما وراء ذلك ، كما وصل حينما
آخر إلى بلاد المغرب . وسيوضح ذلك فيما يلي من هذا الجزء .

والآن نورد ثبوتا موجزا بأسماء ملوك هذه الدولة مع الإشارة إلى أهم الحوادث في
أيامهم (١) . ذاكرين أنه تعاقب على العرش منهم أربعة وعشرون ، من بينهم أربعة
عشر ملكا من أسرة قلاوون وحدها .

١ - الملك المعز « عز الدين أيك » ،

٦٤٨ هـ - ٦٥٥ هـ (٢)

هو عز الدين أيك الجاشنكير الصالحى التركمانى . كان من مماليك الملك الصالح
نجم الدين بن أيوب ، فأعتقه ، وما زال به حتى رفاه أميرا . ولما توفى الملك الصالح
اشترك عز الدين في تدبير أمور الدولة ، مع بعض أمراء المماليك البحرية ، ريثما يعود
« توران شاه » بن الملك الصالح ويتولى عرشه . فلما عاد « توران شاه » ، وانهمزم الفرنجة ،
فسد ما بينه وبين أمراء أبيه ، فأدى ذلك إلى قتله ، وصار الملك إلى « شجرة الدر » ،
فدبرت ملكها بوساطة « عز الدين » . ثم خلعت نفسها ، واختير « عز الدين » سلطانا
على البلاد ، وتزوج « شجرة الدر » ، ليخفى بعلاقة بيت الملك . وكانت سلطنته في ربيع
الآخر عام ٦٤٨ هـ .

١ - لم نسهب في ذكر هؤلاء الملوك وحوادثهم ، ففى سلوك المقرئى وبدائع ابن لياس والنجوم
للأبى المحاسن متسع لحجى الإسهاب .

٢ - ذكر ابن لياس والمقرئى فى خططه أنه عام ٦٥٥ هـ . وقال القلقشندى فى صبح الأعشى
أنه عام ٦٥٤ هـ .

بدأ الملك يصفو لعز الدين، وأذنه هو يضبط أموره. غير أن بلاد الشام اعتلت عليه ، وكان قد ملكها الملك الناصر الأيوبي . ويبدو أن الأمراء نفسوا على « عز الدين » أن يصفو له وجه الملك . فانهزوا الفرصة وأرغموه على إقامة أحد الأيوبيين معه في الملك ، لكي يستطيعوا به لقاء الخارجين على ملك مصر . فتم لهم ما أرادوا ، واستقدموا إلى البلاد شخصاً من الأيوبيين ، اسمه « مظفر الدين يوسف (١) » ، بن « الملك مسعود الأيوبي » وسنة عشرون ، أقاموه ملكاً أيضاً ، ولقبوه بالأشرف . فصار للبلاد ملكان هما : المعز والأشرف . فصبر المعز ريثما قوى عضده بمعاليك جدد سماهم المغزية ، وأمر منهم عدداً . ثم انقرد بالملك ، وسجن الأشرف ، ثم نقاه بعد قليل . وكانت قد وقعت بينه وبين الناصر وقائع ، انزم فيها الناصر ، ثم تم الصلح بين الاثنين عام ٦٥١ هـ على أن يكون للصريين إلى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك . وأن يكون للصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وأن تطلق أسرى الشام ، إلى غير ذلك . وقد أخذ المعز ثائرة عرب الصعيد والبحيرة غيرهما ، وشنق زعيمهم الشريف حصن الدين ثعلباً . ثم رأى أن خطر البحرية قد استشرى ، وأنهم استطالوا عليه حتى هموا بقتله ، ونقل عليه زعيمهم « فارس الدين أقطاي » ، — بالرغم من أنه عاونه في غزواته — فاحتال حتى قتله ، وأدخل اليأس إلى قلوب أعوانه ، فتفرقوا ، ومنهم من رحل إلى الشام . وبذلك استراح المعز من الشاغبين عليه ، ولم يعد إزاءه غير زوجته المملكة « شجرة الدر » . فقد حاول أن يتزوج سواها فوقع الخلف بينهما ، وأساء في التصرف معها . قيل : وعزم على قتلها ، فأختمها وأثار غضبها . ولكنها تلطفت به حتى أمكنتها الفرصة فيه ، ودست إليه من خدها من قتله وهو يستحم . وهكذا بدأ العصر بالمؤامرات والدسائس التي لازمتها . وكانت وفاة المعز في سنة ٦٥٥ هـ بعد أن حكم نحو سبع سنوات . وكان حازماً شجاعاً عافياً كاللدماء . وقد حملت « شجرة الدر » ، بعد قتله إلى أم ولده على فقتلها جوارحها ودقنت بعد أيام .

٢ — المنصور « نور الدين بن المعز » ، ٦٥٥ هـ — ٦٥٧ هـ

هو نور الدين علي بن المعز أيبك . ولي الملك بعد قتل أبيه عام ٦٥٥ هـ ، وكان صغير السن : فدير له المملكة الأتابكي « قطز » . وفي عهده زاد خطر التتار ، وخرّبوا بغداد ،

١ — هذه رواية ابن لباس ، وروى المقرئ في السلوك أنه « مظفر الدين موسى بن الملك مسعود الناصر صلاح الدين يوسف » ، وأن سنة كانت نحو ست سنين .

وأزالوا الخلافة العباسية منها ، وهموا بالزحف على الشام ومصر . فشعرا أمراء مصر بالخطر الداهم القريب ، ورأوا أن يملكوا عليهم أحسد كبارهم ، ليعتمدوا عليه في صد العدوان . لذلك خلعوا المنصور بعد أن لبث في الحكم قرابة ستين وثمانية أشهر وملكوا عليهم أنابكيه د قطز ، عام ٦٥٧ هـ .

٣ — المظفر د سيف الدين قطز ، ٦٥٧ هـ — ٦٥٨ هـ

أصله من ماليك المعز أيك ، وليس من البحرية . ولى الملك بعد المنصور بن المعز ، وهو الذى خلعه وقبض عليه وعلى أخيه وأمه وسجنهم ، وذلك عام ٦٥٧ هـ . واعتذر إلى من خالفة ونازعه من الأمراء ، بضرورة التناهب لمحاربة التتار وصددهم عن الديار ، ولا يكون ذلك على يد ملك صغير حدث . وأبدى استعداداه للتنازل عن العرش متى تم لهم هزيمة العدو ، ثم ليقبضوا على الملك من يشاءون . وهكذا أخذ يترضاهم ، ومن ثم استعد للقاء التتار . وبعد قليل دهم هولاء كوال التتار مدينة حلب وخربها وقتل أهلها وهدم قلعتها ، ولوى جيده إلى دمشق — وكان عليها الملك الناصر — ففر الناصر ، واستسلمت دمشق للفتح . وبعث هولاء كوال خطابا إلى قطز يطلب إياه الطاعة والتسليم . فما كان من قطز إلا أن قتل رسل هولاء كوال ، ولم شعث أمرائه ، وأعد العدة معهم للقتال ، وخرج للقاء التتار بجيوشهم الجرارة الزاحفة . وهناك بفلسطين التقى بهم بموضعين أولهما د عين جالوت ، وثانيهما د بيسان ، فدحرهم شر دحرة ، وشقت شملهم ، واستولى على الكثير من أسلابهم . وكانت موقعة د عين جالوت ، أول موقعة هزم فيها التتار منذ قدموهم من ديارهم . وكان لهذه الهزيمة أثرها المعنوى في نفوس المسلمين ، إذ فهموا — على الأقل — أن التتار قوة يستطاع التغلب عليها . وبهذه النصرة وفى الله مصر شر التتار ، وفتح أمامها بلاد الشام ، فأصبحت تابعة لها إذ استولى قطز عليها من الفرات إلى حدود مصر .

عاد قطز من القتال مظفرا ، فدبر له الأمير بيبرس البندقدارى مؤامرة لاغته إليه . وكان بيبرس في مقدمة أمرائه الذين أبلوا معه بلاء حسنا في حروبه . فتمت قتلته على يده ويد المؤتمرين معه ، وذلك في أخبارات عام ٦٥٨ هـ . ولم يكن قد أتم سنة في حكمه . وقفز إلى العرش بعده الأمير بيبرس .

٤ — الظاهر د ركن الدين بيبرس ، ٦٥٨ هـ — ٦٧٦ هـ (١)

هو ركن الدين بيبرس البندقدارى . وقد لقب بالظاهر . ولى عام ٦٥٨ هـ . وهو أهم ملوك الدولة البحرية . وأصله من أرض القبحاق ، أسروبيع ، واشتره صغير السن رجل يدعى د العباد الضائع ، ، فباعه للأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى . ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فنسب لذلك إليهما وقد أعنته الصالح وضمه إلى ممالكه البحرية ورباه معهم ، فشب شجاعا بأسلا لا يهاب الموت . وقد عرفته الحروب — وهو أمير — مقداما صنديدا . عرفته في موقعة د المنصورة ، التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه ، وموقعي د عين جالوت ، ود بيسان ، اللتين هزم فيهما التتار في عهد قطز . اشترك بيبرس ، قبل سلطته ، في عدة مؤامرات ، منها مؤامراته مع المماليك البحرية بزعماء د فارس الدين أقطاي ، ضد الملك المعز . فلما قتل د فارس الدين ، وشدت شمل زملائه ، فر د بيبرس ، مع بعضهم إلى بلاد الشام ، واتصل بمسكها الناصر . ثم عاد إلى مصر في عهد قطز ، وعين د أبا بك العسكر ، فقاتل معه في الطليعة . ثم دبر مؤامرة اغتيال د قطز ، بعد انتصارهم على التتار ، إذ تقدم بيبرس إلى سلطانه ليقبل يده لأنه منحه جارية حسناء من سبايا التتار — كما قيل — وكانت هذه علامة بيبرس لأعرانه ، فائقضوا على سلطانهم بالسيوف فقتلوه . وأقاموا بيبرس مكانه سلطانا . وقيل إن د قطز ، كان قد وعد بيبرس بولاية حلب ، ثم أخلف ، فكان ذلك سببا للوحشة بينهما (٢) ، وسبيلا للانتقام فالتضاء عليه .

ويعتبر المؤرخون د بيبرس المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية ، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال . فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة إذ أعلن الأمير د سنجر الحلبي ، بنفسه سلطانا عليها ، وتلقب بالملك المجاهد ، وجمع من حوله عدة من الأمراء . وزاد الطين بلة معاودة التتار الزحف على بلاد الشام ، فنهبوا وقتلوا وسبوا . هذا إلى زيادة نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية ، وإلى قيام ممالك المعز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس .

١ — ترجمة بيبرس موجودة بتفصيل واسع في سلوك المقريزى ، كذلك في بدائع ابن ليث ونحوها . وفي الفوات لابن شاكر فصل عنه ج ١ ص ١٠٩ .

٢ — هذه رواية السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » عند الكلام عن شرح حال التتار .

هذه أمور جبهت مصر ، فلم يكثر لها ، وقابلها ثابا الجأش قوى النفس صلب الإرادة ماضى العزيمة . ففتك بماليك المعز وقضى على مؤامرتهم . وجرد جيشا قوى الشكيمة على بلاد الشام فأخضع أمراءها ، وأوقع بالتار ودهم عنها حرين . وأذل الفرنجة ونهه من نفوذهم . وهزم الأتراك السلاجقة ، وفتح جملة من البلاد منها : البيرة والكرك ، وحص ، وبيسارية ، وأرسوف ، وصفد ، وبافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وحصن الأكراد ، وعكا ، وصافيتا ، وبلادسيس .

وقد غزا بيبرس بلاد السودان واحتاز منها جزءا ، إلى جانب ما احتازه . فهابه الناس ، ودان له الملوك والأمراء ، وامتد في عهده ملك مصر ، وانتشر سلطانها شرقا وغربا ، وهبت منزلها . وظل بيبرس سلطانا عليها يملأ الدنيا مهابة ، زهاء سبعة عشر عاما ثم مرض وتوفي بدمشق ودفن بها عام ٦٧٦ هـ .

وأهم ما يتصف به بيبرس : الشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها ، مسع الدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء . وكان يكرم العلماء وينطوى تحت مشورتهم ، ويقربهم . وكان بعضهم يخاشنه في الحديث والنصيحة فلا يبطش به لخاشنته ، وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه وهو عز الدين بن عبد السلام ، . ووقعت بينه وبين عبدالله يحيى النووى أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووى الصيحة ، فزاد على أن نفاه من دمشق (١) . وبعث إليه ابن مالك النحوى صاحب الألفية المشهور رسالة من الشام يستعينه فيها على صلاح حاله ، فأعانه .

ومن أجل أعماله : أن أمر بإبطال شرب الخور ومقارفة الزنا ، وأشبه ذلك من المفاسد . وشدد التنكير على مقتضى هذه الآنام ، حتى شدا بذكره يمض شعراء عصره ، ونفسكه بذلك بعض منهم آخر (١) كما أنه نظم البريد وخصص له الخيل ، وبنى كثيرا من العمار ، ومن بينها مسجده الشهير . وجد المسجد النبوى الشريف ، وشاد القناطر والأسوار ، وحفر الترع والحلجان ، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح والإنشاء .

وقد انتاب البلاد في عهده قحط وغلاء ، وكان به ميل إلى ظلم الرعية والقسوة عليها بفرض الضرائب المهرقة ، بدعى الحاجة إلى المال للجهاد وإعداد الجند ، مع امتلاء

١ — انظر الأعراس الكتابية في الجزء الثالث من هذا الكتاب ،

٢ — انظر باب « الرجل في الجزء الرابع من هذا الكتاب .

بيت المال بالمال. غير أنه لم يكن به ضئيفا على جنده ، واتهمت طائفة من نصارى القاهرة بإحداث الحرائق فى بعض أنحائها ، فكاد يحرق أفرادها عتبا بلهم لو لا شفاعة بعض أمرائه ، فعفا عنهم بعد أن دفعوا له غرما ماليا .
ومن أهم الحوادث فى عهده ، أولا : أنه أقام خلافة - ثانية - ثانية مركزها مدينة القاهرة وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية الأولى من بغداد على يد التتار . فكان فى هذا كسب أدبى لمصر ، ونأهيل لزعامة العالم الإسلامى وجعل القاهرة مركزا للعلوم الإسلامية .
ثانياً : أنه أعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر وعمره هو وجامع الحاكم بعد أن هجرا زمنًا طويلا . ثالثاً : نصب أربعة قضاة شرعيين ، واحد من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة ، بعد أن لم يكن بالبلاد إلا قاضى قضاء شافعى واحد يقضى بمذهب الإمام الشافعى . رابعاً : أمر بأن يطاف بالمحمل حين خروجه من مصر إلى الأراضى المقدسة . — وولى الملك بعده ابنه الملك السعيد .

٥ - السعيد ، أبو المعالى محمد ، ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ

هو أبو المعالى محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس ، ولى الملك بعد أبيه سنة ٦٧٦ هـ ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره تقريبا . فبطش ببعض الأمراء ، فأضربوا له الحقد والضغينة ، وحاكوا له المؤامرات ، وأعلنوه بالحرب حتى اضطر إلى أن يخلع نفسه من السلطنة ، وينزح إلى الكرك ، حيث مات بعد قليل ، ونقل إلى دمشق ودفن مع والده . وكان خلعه بعد نحو سنتين من حكمه عام ٦٧٨ هـ . ومما يذكر أنه كان زوجا لابنة قلاوون الذى ملك فيما بعده أخوه الملك العادل .

٦ - العادل ، سيف الدين سلامش ، ٦٧٨ هـ

هو سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس . ولى الملك بعد خلع أخيه . كان عمره سبع سنوات . فاستبد بتدبير دولته الأمير قلاوون ، أنابك العسكر . فكان يخطب له مسج السلطان يوم الجمعة ، وضربت النقود باسميهما . ثم صفارجه الأمور لقلاوون ، فخلع العادل ونفاه إلى الكرك ، بعد مائة يوم من سلطنته ، وفى نفس السنة إلى ملك فيها . ثم ولى قلاوون السلطنة .

٧ - المنصور د سيف الدين قلاوون ، (١) ٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ

هو سيف الدين قلاوون الألباني العلاتي الصالح النجدي ، ولقب بالمنصور . ولى الملك سنة ٦٧٨ هـ . وكان من قبيل مملوكا بيعس للأمير علاء الدين آق سنقر ، ثم ملكه الصالح نجم الدين الأيوبي ، فضمه إلى مملكته البحرية . ثم أعتق . ولبت يترقى في سلك الإمارة حتى صار أتابكيا في عهد العادل بن بيبرس . وقد اشترك من قبل في حوادث البحرية . ويعتبر قلاوون ، من أعظم سلاطين هذه الدولة ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا . وحكموها وحدهم قرابة مائة عام وكان قلاوون ، مغرما بشراء الممالك الجدد ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثني عشر ألف مملوك . وقيل : أقل .

وبعد توليته بقليل خرج عليه فائيه بدمشق الأمير « شمس الدين سيف الدين الأشقر » وأعلن بنفسه ملكا عليها وتناوب بالملك الكامل ، فأرسل إليه مملوكه « طرناى » وكان نائب سلطنته بمصر ، فما زال به « طرناى » حتى استسلم . ودانت بلاد الشام ثانية المنصور . وكان التتار قد شرعوا في الهجوم على بلاد الشام ، وخربوا مدينة حلب . فوثب عليهم قلاوون ، بجند كثيف ، وشدت شملهم في مدينة « حصص » ، وأخذ يماود حربهم ، حتى قل من عزيمتهم ، وثبط من همهم ، وارتدوا عن الشام خائبين . وحاصر مدينة « طرابلس » أربعة وثلاثين يوما ، حتى انتزعها هي و « حصن المرقب » من يد الفرنجة . وخرب « طرابلس » وبنى على مقربة منها مدينة « طرابلس » الحالية وغزا بلاد النوبة مرتين ، واستولى منها على غنائم وأسلاب كثيرة .

ثم مات المنصور بعد أن حكم نحو إحدى عشرة سنة ، وبعد أن أذل التتار والفرنجة وأخضع الشام . وكانت وفاته عام ٦٨٩ هـ .

ومن أجل آثره « البهارستان » المنصوري الذي أنشأه بالقاهرة ، وهو مستشفى عام لكثير من الأمراض ، ومدرسة طبية . وكانت المقراء تعالج فيه بالمجان . وفيه قبة عظيمة دفن فيها . وله كذلك مسجد مشهور . وقيل : إن سبب بناء « البهارستان » أن المنصور توهم أن العوام خالفوا أمره وخرجوا عليه ، فأمر جنوده فأعملوا السيف في

رقابهم جزافا ثلاثة أيام ، حتى قتلوا منهم عددا لا يحصى ، وأخذ المسمي والبري . ثم بدا له سوء عمله ، فكشف عنهم ، ثم ندم . ثم بنى هذا المسجد تكفيرا لذنبه ، وأوقف عليه أوقافا لا تحصى . كما أوقف غيرها على أعمال البر والإحسان .

ومن حسناته كذلك ، أن ألغى بعض الضرائب المرهقة ، ومنها ما كان يتقاضاه ناظر المال زكاة خاصة لليال ، من صاحبه أو من ورثته بعد موته ، ولو بعدوا ، أوضاع منهم المال . ومنها ما كان يجيئها المبشرون بفتح من الفتوح التي تتم على يد السلطان . ومنها رسم السباط الذي يجبي من الناس للاحتفال بوفاء النيل — وولى الملك من بعده ابنه الأشرف خليل .

٨ — الملك الأشرف «صلاح الدين خليل» ٦٨٩ هـ — ٦٩٣ هـ

تولى الملك بعد وفاة أبيه ، بعهد منه ، وذلك في سنة ٦٨٩ هـ — وكان بينه وبين نائب السلطنة «طرطاي» في عهد أبيه بغض ، فقتله في بدء ولايته ، مع أنه هو الذي حفظ له العرش من عبث الأمراء له بالاستيلاء عليه . ثم أناب السلطان مكانه الأمير «علم الدين الشجاعى» . ولكن كان هناك وزير ذو صلة وثقى بالسلطان ، وهو ابن السعلوس ، فكان هو المتصرف الحقيقي في شؤون دولته .

وقد حارب الأشرف في بلاد الشام ففتح مدينة «عكا» بعد أن رماها بالمنجنيق وهدم سورها وقلاعها وكانت بيد الفرنجة . وفتح «بيروت» وغيرها ، ثم دخل مصر عاندا دخول الفاتحين .

غير أن الأشرف اشتط في القبض على أمرائه والتنكيل بهم بالسجن أو الخنق ، وسمع وشاية وزيره ابن السعلوس في الأمير «بيدرا» وهو من كبار الأمراء ، فأثخنه بهجر القول . فما كان من «بيدرا» إلا أن تأمر هو وبعض الأمراء على اغتياله . فتم لهم ما أرادوا ، عندما كان الأشرف في بعض نزهة . فوثبوا عليه وقتلوه قتلة شنيعة مزقوا فيها جسده شرمزق عام ٦٩٣ هـ ، فمات وهو في نحو الثلاثين . بعد أن حكم نحو ثلاث

١ — بدار الكتب المصرية كتاب عن الأشرف اسمه «الأطراف الخفية» لمؤلفه عبد الله ابن عبد الظاهر . طبع باريس ، وبرقم ١٨٥٨ تاريخ منه جزء — وفي الفتاوى ج ١ ص ١٩٣ فصل طويل عن الأشرف أيضا .

سنوات . وملك بعده «بيدرا» .

استقر رأى قاتلى الأشرف على تملك هذا الأمير ، فهو رأس المؤامرة ، ولقبوه «بالمك الأجد» . غير أن أتباع الأشرف لم يتركوا «بيدرا» فى ليلته تلك إلا مقتولا فلم ينعم بسلطته ، ولم يعترف به أحد . ولذلك يسقطه كثير من المؤرخين من عداد ملوك هذه الدولة .

٩ - الناصر «محمد بن قلاوون» ٦٩٣ هـ - ٦٩٤ هـ

بويع بالسلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف ، ومقتل «بيدرا» ، وذلك عام ٦٩٣ هـ . وكان فى سن التاسعة . وهذه أول تولية له لأنه خلع من السلطنة وعاد إليها مرتين . وفى هذه المرة قام بتدبير الملك له نائب السلطنة الأمير «كتبغا» ، وكان صغر سن السلطان ، سببا فى طمع الأمراء فى المملكة ، واضطراب أحوالها . فقامت فتنة شـعواء بين الأمير «كتبغا» والأمير «سنجر الشجاعى» جرت بسببها حروب داخلية ، انهزم فيها الشجاعى ، وقتل . فاستبد «كتبغا» بالملك ، ووافق الأمراء على خلع الناصر ، فخلعه بعد أن حكم أحد عشر شهرا . وتولى السلطنة مكانه . وتم ذلك عام ٦٩٤ هـ .

١٠ - العادل «كتبغا المنصورى» ٦٩٤ هـ - ٦٩٦ هـ

تولى الملك بعد أن خلع الناصر عام ٦٩٤ هـ . وأصله من سببى التتار الذين أسره المنصور قلاوون فى موقعة «حمص» ثم أعاقه ، وما زال يرقى حتى أصبح نائب السلطنة ، ثم وثب إلى سرير الملك . ومن أعماله أنه رحل إلى بلاد الشام فى السنة الثانية من حكمه ومهد أمورها ، وبينما هو فى الشام إذ أعان أمراء مصر خلعه سنة ٦٩٦ هـ بتدبير الأمير «لاجين» نائب سلطنته ، ووثب «لاجين» مكانه إلى السلطنة ، فظل العادل إزاء ذلك ، مقبيا فى «صرخد» مخلوعا وإن كان مرعى الجانب مكرما ، وكانت مدة سلطنته فى مصر نحو سنتين ، وفيها وقع الغلاء وانتشر الوباء وقصر ماء النيل ، وتوطنت بمصر طوائف من المغول تعرف «بالأويرانية» جلث إليها بأمر العادل .

وبما يذكر أن العادل هذا لبث حتى عاد الناصر بن قلاوون إلى السلطنة ، فولاه ملكا على نيابة «حماة» عام ٦٩٩ هـ . فظل بها نائبا عن سلطان مصر حتى أدركته الوفاة عام ٧٠٢ هـ .

١١ — المنصور دحسام الدين لاجين ، ٦٩٦ هـ — ٦٩٨ هـ

أصله من معتوق قلاوون . وكان نائب ساطنة في عهد « كتيبغا » ، فانتدب مقام سلطانه بالشام ودبر أمر إخلاءه ، وروثب على سلطنته عام ٦٩٦ هـ . ومن أعماله : أنه جدد بناء جامع ابن طولون وأوقف عليه أوقافا طائلة . وأنه أعاد تقسيم البلاد المصرية لإقطاعات جديدة ، وفرقها بينه وبين الأمراء والجنود ، وخص نفسه منها بنصيب كبير . وهذا التقسيم هو المعروف « بالروك الحسامي » . فكان سبياني النفرة بينه وبين الأمراء . وبما زاد النفور ، أنه عين مملوكه « منكوتمر » ، نائبا عنه فزاد نفوذه ، وكان غاشما ، أساء إلى كثير من الأسراء . فدبروا مؤامرة لقتلهما ، فقتلا في ليلة واحدة من عام ٦٩٨ هـ .

العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨ هـ — ٧٠٨ هـ

بعد أن قتل المنصور لاجين ، استشار الأمراء بعضهم بعضا فيمن يولونه السلطنة ، فانفقوا على إعادة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد إلى عرشه بعد أن ظل نحو أربع سنوات مقصيا عنه . وذلك عام ٦٩٨ هـ . وعاونوه في تدبير شئون الدولة الأميران « سلا » ، نائب السلطنة و « بيرس » ، الجاشنكير أتاك بك العسكر (١) وبعد سلطنته بقليل أراد التتار أن يمزوا بلاد الشام ومصر . فاستعد الناصر برجاله وزحف إلى الشام . وهناك في « سلبية » قرب بعلبك ، وقعت بين الفريقين معركة حامية ، دارت فيها الدائر على الناصر وجيشه ، ففر من وجه التتار . وأمعن التتار في فلول المصريين سلبا ونهبا ، وفي بلاد الشام قتلا وتخريبا . فقتشاور أهل دمشق فيما بينهم ، فاستنم رأي عليائهم على طلب الأمان من « غازان » ، ملاك التتار ، فأمنهم ، وكان الأمير « قفجق » ، نائب الشام — كان — هو الذي حسن لغازان غزو الشام ، ولذلك عينه نائبا عنه فيها . — ومع ذلك ظل التتار يعمشون في بلاد الشام فسادا . وأخذ الناصر بعد فراره يحشد جيشا جديدا لملاقاة أعدائه . ثم زحف إلى بلاد الشام ثانية عام ٧٠٢ هـ ومعه الخليفة وقضاة مصر الأربعة ونحو مائتي ألف جندي . فلاقى جنود « غازان » ، في « موقعة « مرج راهط » (٢) ، فانتهصر الناصر

١ — ذكر في السلوك أن بيرس هذا كان أستاذارا .

٢ — ذكر في السلوك أنهم تلاقوا في « شقيب » ، وروى في البدائع « في مرج راهط » وذكر كل موضع أنه « تحت جبل غباغب » قريبا من دمشق . وقيل إن « مرج راهط » هو « شقيب » و « مرج الصفر » راجع العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

عليهم انتصارا حاسما . وأفى التتار إقناء تاما، حتى أنه لم ينج منهم إلا القليل ، وغنم منهم غنائم عدة ، ولكن بعد أن قُتِل من أمراء مصر وجنودها وعربانها عدد كبير . — فدانت بلاد الشام بذلك لمصر ثانية ، وخضعت لمشيئة سلاطينها . ثم عاد الناصر إلى مصر ، وقد صفا له وجه الملك . وما زال صافيا حتى فسد^١ ما بينه وبين « بيبرس » . فرحل الناصر من القاهرة معلنا بأنه يرحل للحج — ولكنه عندما وصل إلى الكرك ، خلع نفسه من السلطنة ليولى الأمراء من يشاءون . وذلك عام ٧٠٨ هـ بعد أن حكم في هذه المرة نحو تسع سنوات ونصف .

١٢ — المظفر د ركن الدين بيبرس ، ٧٠٨ هـ — ٧٠٩ هـ

هو بيبرس الجاشنكير من ممالك المنصور قلاوون . وكان قد ترقى في عهد الناصر محمد ، فصار أتابكيا . فلما خلع الناصر نفسه عن الملك وقع اختيار الأمراء عليه فولى السلطنة عام ٧٠٨ هـ . فقبض على الأمراء الموالين للناصر ، فكان ذلك سببا في هروب بعضهم إلى الناصر والاجتماع به بالكرك . فأرسل المظفر إليه يهدئه بسبب من يجتمع إليه من الأمراء . فثار غضب الناصر وكنايب نواب بلاد الشام في أن يسكنوا عنه أذى المظفر بيبرس . فأظهروا خضوعهم للناصر وطاعتهم . فلما رأى ذلك ، سار إلى بلاد الشام ودخلها ملكا وسلطانا ، وخطب باسمه على منابرها . فكان ذلك خير تمهيد لعودته ثانيا إلى عرشه بمصر . ولما رأى المظفر بيبرس أن الأمراء ينحازون إلى جانب الناصر ، كدأ تبسُّ بخضوعه له ونزوله عن الملك . وعرض عليه أن يعيش في إحدى مدن الشام . ثم إنه فرق بعض خواصه إلى صعيد مصر . وزحف الناصر إلى البلاد المصرية منتصرا . فلما دخلها سنة ٧٠٩ هـ ، أرسل أمانا إلى المظفر بيبرس ، وأمره بأن يسير من صعيد مصر إلى الكرك مباشرة . على شرط أن يرد جميع الأموال والتحف والماليك الذين غصبهم من بيت المال والخزائن ، ففعل وامثل الأمر ، وسار متوجها إلى الكرك . وبينما هو في طريقه إليها إذ قبض عليه وأُتي به إلى القاهرة ، ثم خنق أمام الناصر . — وكانت مدة حكمه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ هـ — ٧٤١ هـ

عاد إلى سلطنة سنة ٧٠٩ هـ بعد أقل من عام مضى على مفارقتها . ولما دخل القاهرة وصعد إلى القلعة ، بايعه الخليفة المستكفي بالله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . ثم قبض على الملك السابق وأعدمه كما بينا . ثم أخذ في القضاء قضاء حاسما على أعدائه والمؤتمرين به . ويظهر أنه رأى أن نواب السلطنة خطر عليه ، فكان يفتك بالواحد منهم تلوا الآخر ، ثم ألغى نيابة السلطنة . ورحل في عسكر كثير العدد إلى بلاد الشام ، ومنها إلى البلاد الحلبية ، على أمل أن يلتقى بالعتار . ولكنهم لم يجسروا على لقائه . فامتد نفوذه في أرجاء تلك البلاد حتى هابه الناس . وخطب باسمه على منابر بلاد المغرب ، وسعت إلى وده الملوك ، وأرسلت إليه الهدايا النفيسة . وذخرت خزائنه بالمال . وبلغ ما كان لديه من المالك والامراء نحو أربعة وعشرين ألفا ، وقيل بلغ عدد ما اشتراه اثني عشر ألفا ، وألبسهم الأقمشة الثمينة ، وقلدهم السيوف المحلاة . وامتلا عصره بكثير من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء .

ومن أعماله : أنه قسم البلاد الشامية والبلاد المصرية إلى إقطاعات جديدة بينه وبين الأمراء والجند . وهو يخالف التقسيم الذى تم في عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين . ويعرف التقسيم الجديد باسم « الروك الناصرى » . وقد قام الناصر ببناء جملة قصور وعمارات ومساجد وقناطر . وهو الذى حفر الخليج الناصرى عام ٧٢٤ هـ ، ومن ذلك الحين أصبح السكسرسده كل عام يوم حافل . وهو الذى أنشأ حوش القلعة ، وجملته ببستان بديع . وحج مرتين (١) وبصحبته الملك المؤيد صاحب حماة وجمع من كبار الأمراء . وأهدى إلى السكسرسدية الشريفة في حجته الثانية سنة ٧٢٢ هـ بابا من خشب السنت الأحر مغطى بالفضة . وقد ضيق الناصر الخناق على البغايا وأهل الفساد ، وأبطل بعض المكوس الظالمة . وولد أحد عشر ولدا ذكرا ، اعتلى عرش البلاد منهم ثمانية . وقد مات الناصر عام ٧٤١ هـ ، بعد أن اتسع ملك مصر في عصره شرقا وغربا ، رهايتها جيرانها وثبتت دعائم دولتها . وهو بلارب من أعظم سلاطين الدولة ، ولايدانية منهم سوى أبيه المنصور قلاوون ، والظاهر بيبرس . وكان مجموع السنين التى حكم فيها المرات الثلاث ، نحو ثلاث وأربعين سنة وثمانية أشهر . وقد تولى من بعده ابنه أبو بكر ، وكان قد عهد إليه قبل وفاته .

١ — خرج الناصر للحج ثلاث مرات . ولكن في المرة الأولى عدل عن الحج وأقام في الكرك .

١٣ - المنصور وسيف الدين أبو بكر ، ٧٤١ هـ - ٧٤٢ هـ

هو ابن الناصر محمد بن قلاوون . بويح بالسلطنة بعد موت أبيه عام ٧٤١ هـ . وكان أبوه قد جعله وليا لعمده ، مع أنه ليس أكبر أبنائه . وجلس على سرير الملك وعمره نحو العشرين . ولكنه لم يدم فيه سوى تسع وخمسين ليلة ، ثم دبرت ضده المؤامرات ، فقبض عليه الأتابكي « قوصون » ، وأرسله إلى السجن بمدينة قوص ، وهناك قتل . وتولى من بعده أخوه .

١٤ - الأشرف « علاء الدين بكك » ، ٧٤٢ هـ

وهو ابن الناصر محمد ، ولي السلطنة بعد خلع أخيه وذلك في أوائل سنة ٧٤٢ هـ . وكانت سنة حينئذ أقل من ثمانى سنوات . فاستبد الأتابكي « قوصون » بالأمرو وكان قد جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وقد اضطربت أحوال الدولة ، ووقع الخلاف بين الأمراء . فتجتمع عدد من أمراء الشام حول « أحمد بن الناصر محمد » ، وكان مقبلا بالسكر - وهو أكبر إخوته - فرغبوا إليه في أن يلب السلطنة عوضا عن أخيه « بكك » ، وتوجهوا جميعا إلى مصر فوقع فتن إذ ذاك كثيرة ، أدت إلى القبض على « قوصون » وخلع السلطان الأشرف « بكك » . وتولى مكانه أحمد . فزال ملك بكك في عام تولىته بعد حكم خمسة أشهر تقريبا .

١٥ - الناصر « شهاب الدين أحمد » ، ٧٤٢ هـ - ٧٤٣ هـ

هو أكبر أبناء الناصر بن قلاوون . ولي الملك بعد خلع أخيه سنة ٧٤٢ هـ ، وأول عمل قام به أمره بقتل سبعة من الأمراء ، وسجن آخرين ممن توهم فيهم العداة له . فكان هذا سببا في نفور قلوب الجند منه . ثم إنه أقام بالسكر زمنا طويلا ، ولم يلتفت إلى شؤون الرعية . فنظر الأمراء في الأمر ، وقر قرارهم على أن يطلبوا إليه الحضور . فلم يلب لهم طلبا . فتمرروا خلعه وتولية أخيه إسماعيل . وهكذا انتهت سلطنته بعد شهرين واثني عشر يوما ، في أوائل عام ٧٤٣ هـ . وظل مقبلا بالسكر زمنا ، ثم قتل بأمر أخيه .

١٦ — الصالح د علاء الدين إسماعيل ، ٧٤٣ — ٧٤٦ هـ

هو أبو الفداء إسماعيل بن الناصر بن قلاوون . ولى السلطنة عام ٧٤٣ هـ ، بعد عزل أخيه الناصر أحمد . وشغل بقتال أخيه زمنا حتى استسلم له في النهاية ، وقبض عليه وقتل . وكان الملك الصالح محبا للعدل معروف بالبر والإحسان . وقد توفي سنة ٧٤٦ هـ .

١٧ — الكامل د شعبان بن الناصر محمد ، ٧٤٦ هـ — ٧٤٧ هـ

بويج بالسلطنة عام ٧٤٦ هـ بعد موت شقيقه إسماعيل بعهد منه . ثم قبض على بعض الأمراء وبجنهم ، وأخذ بمصادر أموال المباشرين ، وعادى كثيرا من الأمراء ، وهم يقتل أخوين من إخوته منهما أخوه د حاجي ، فكان ذلك سببا في تحزب بعض الأمراء عليه ، فدارت بين الفريقين موقعة في جهة قبة الهواء ، انهزم فيها السلطان وولى هاربا . فانفقت كلمة الأمراء على خلعه وتولية أخيه د حاجي . وكان ذلك عام ٧٤٧ هـ بعد توأيمته بنحو سنة وشهرين ونصف . وقد قبض على الكامل فيما بعد ، وخنق في سجنه بأمر أخيه .

١٨ — المظفر د حاجي بن الناصر محمد ، ٧٤٧ هـ — ٧٤٨ هـ

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الكامل شعبان ، عام ٧٤٧ هـ . وكانت سنة دون العشرين . وفي أول عهده قبض على عدد من الأمراء ، وبجنوا بشعر الإسكندرية ، وأمر بخنق بعض الأمراء الآخرين . ثم إنه اشتغل بتربية الطيور والحمام واللعب بها ، ولها عن النظر الصادق في شئون الدولة ، واستخف بالأمراء . فتغلبت قلوبهم عليه وانفقوا جميعا على خلعه . فوقع بين الفريقين موقعة رائعة أسر الملك د حاجي ، على إثرها بسجن ثم خنق ، فمات بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، وكان ذلك عام ٧٤٨ هـ . سم ولى الملك من بعد أخوه .

١٩ - الناصر ، أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد ، ٧٤٨ هـ - ٧٥٢ هـ

ولى الملك بعد أخيه «حاجي» عام ٧٤٨ هـ إذ اجتمع رأى الأمراء بعد لآى - على توليته . وكان عمره حينئذ ثلاث عشرة سنة . فعاونوه بعض الأمراء فى تدبير مملكته . ووقع فى زمنه طاعون جارف وهو وباء عام ٧٤٩ هـ الذى أهلك كثيرا من الناس واشتد بسببه الغلاء . وقامت قتنة شديدة فى بلاد الشام ، إذ اعتدى نائب طرابلس «جبغا» على دمشق ، واغتال نائبها «أرغون شاه» ، فوثب جندها على نائب طرابلس ، وقبضوا عليه ثم شنقوه . ثم إن بعض الأمراء تأمر على خلع الملك فقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة داخل منزل الحرم سنة ٧٥٢ هـ ، بعد أن لبث فى الحكم نحو ثلاث سنين وتسعة أشهر . واختاروا من بعده أخاه صالحا .

٢٠ - الصالح «صلاح الدين بن الناصر محمد» ، ٧٥٢ هـ - ٧٥٥ هـ

بويع بالسلطنة عام ٧٥٢ هـ بعد خلع أخيه حسن . وكان الساعى إلى تملكه الأمير «طان» ، ولذلك أصبح هذا الأمير صاحب التصرف المطلق فى شئون الدولة . فدبت عقارب الحسد والبغض له فى قلوب كثير من الأمراء ، وأجمعوا أمرهم على قتاله هو والسلطان . ف وقعت حرب أهلية بين الفريقين قرب المطرية عند خليج الزعفران ، قتل فيها عدد كبير من الأمراء . ثم انتصر السلطان عليهم وقبض على بعضهم وألقاه فى السجن . ثم خرج عن طاعته نائب حلب «بييغا أروس» ، ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد وغيرهم ، ف وقعت البلاد الشامية فى فتنة قاسية بسبب ذلك . فسار إليهم السلطان بعسكر كثير ، وطارد «بييغا» حتى هرب إلى بلاد الزركان . وقبض السلطان على كثير من جنوده ، وأعدم بعض الأمراء المنضمين إليه ، وسجن بعضا آخر . ثم عاد إلى القاهرة فى حفل عظيم . وقد مات فى زمنه الخليفة المستكنى بالله العباسى ، فتولى الخلافة ابنه أبو بكر المعتضد بالله . وثار عربان الصعيد فأخذ ثورتهم ، وغنم منهم أسلحا عدة ، وأسروا نحو سبعمائة نفس منهم ، وأعدمهم فى القاهرة .

وبعد أن حكم نحو ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف ، دبرت مؤامرة لخنعه بزعامه الأمير «شيخو العمرى» ، مع أن هذا الأمير كل مسجونا من قبل ، فأطاعه هذا الملك ، وقد نجحت مؤامرتة ، فقبض على السلطان ، وسجن بمنزل الحرم بالقلعة أيضا . وانفق

الأمراء على إعادة الناصر حسن إلى العرش ثانيا . وكان خلع الملك الصالح عام ٧٥٥ هـ .

عودة الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ٧٥٥ هـ — ٧٦٢ هـ

عاد إلى العرش في سنة ٧٥٥ هـ بعد خلع أخيه الصالح . وكان طبيعيا أن يطلق يد الأمير « شيخو العمرى » الأتابكي في الملك . وقد شاركه في ذلك الأمير « صرغتمش » . وقد بنى الأمير « شيخو » مدرسة جميلة الشأن ، ودورا ، وخانقاه ، وغير ذلك من العاتر النافعة ، ثم أوقف عليها أوقافا واسعة . وكذلك فعل السلطان حسن ، إذ أنشأ مدرسته المشهورة عام ٧٥٧ هـ . وكان أحد المماليك يحقد « على الأمير « شيخو » ، فغاضه مرة وعاجله بضربة كانت القاضية . وبموته خلا الجو للأمير « صرغتمش » . وسرعان ما فطن السلطان إلى ضخامة نفوذه ، نفشى عاقبته ، فعجل بالقبض عليه . فثارت ثائرة أتباعه فأخذها السلطان ، وسجن كثيرا منهم ، ثم لأنه خفى « صرغتمش » وهو في سجنه . إلا أن الفساد كان قد امتد ، حتى لحق « بيلبغا » الناصرى مملوك السلطان ، فثار على سيده وهزمه وقبض عليه ، ثم سجنه . وقيل : إنه ختمه ورماه في البحر ، لأن جثته لم يعثر لها على أثر . وذلك عام ٧٦٢ هـ . وكانت مدة حكمه زهاء عشرين سنة ونصف . ومن أعمال هذا السلطان : أنه نزح بعض الأراضي لمحبوسة على منافع السكتائس والأديرة ، وأنعم بها على الأمراء وأنه أبطل كثيرا من العادات التقليدية الخرافية ، وكثيرا من أنواع الفساد .

٢١ — المنصور (محمد بن المظفر حاجى) ٧٦٢ هـ — ٧٦٤ هـ

هو حفيد الناصر بن قلاوون . بويع بالسلطنة بعد مقتل عمه الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وكان عمره حينئذ أربعة وعشرين عاما . وقد قام بتدبير ملكة الأمير « بيلبغا » العمرى الناصرى الذى أصبح أتابكيا . وفي أول عهده بالحكم أفرج عن كثير من الأمراء المسجونين . ثم اضطربت عليه أحوال البلاد الشامية ، ففرج إليها في عدة من أمرائه ، وجمع من جنده ، وأخذ قتلتها ، وقبض على زعمائها ، ثم عاد إلى القاهرة . فما لبث إلا ربثا قبض عليه الأمير « بيلبغا » وخلعه وسجنه بالقلعة ، وولى بدله ابن عمه . وذلك في عام ٧٦٤ هـ بعد أن حكم نحو سنتين وأربعة أشهر .

٢٢ — الأشرف و شعبان بن حسين ، ٧٦٤ هـ — ٧٧٨ هـ

هو أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . ولى الملك بعد خلع ابن عمه المنصور عام ٧٦٤ هـ ، وكانت سنة العاشرة . فقدر له الملك الأمير « يلبغا » العمرى ، وفى عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخربها . فسار إليه السلطان فى جمع كثيف ، ولسكنه وجده قد غادرها إلى بلاده . ثم ثارت جماعة من أمراء المماليك على السلطان إيرا الأتابكى « يلبغا » ، وخالفوا أوامرهما ، ف وقعت بين الفريقين معركة هائلة ، كادت تدور دائرتها على السلطان وجنوده . ولكنهم انتصروا فى النهاية ، وتمكنوا من القبض على أعدائهم ، فسجنوهم بالإسكندرية .

ثم إن الأتابكى « يلبغا » قام بتشديد عمارة بحرية كبيرة ، لاستخدامها فى النود عن الشواطئ المصرية ، وحمايتها من عبث الفرنجة . وفى يوم إنزال هذه السفن إلى النيل أقيم احتفال رائع ، شهده السلطان . فلما انتهى من شهود الاحتفال عبر إلى جهة الجزيرة ومعه أتابكيه « يلبغا » ، وكان « يلبغا » قد عذب طائفة من مماليكه . فانتهزوا هذه الفرصة ، واقتحموا عليهم مخيمهما . ففر « يلبغا » إلى القاهرة ، أما السلطان فقد وقع فى قبضة يدهم وانقاد لهم . وبينما كان هذا يحدث فى ناحية الجزيرة ، إذا اجتمع عدد من الأمراء والمماليك بزعامه « يلبغا » وملسكوا عليهم أخا السلطان الأشرف ، وهو « أنوك ابن حسين » ، واجتمع الجمعان متقابلين على شاطئ النيل ، وتراشقا بالنشاب ، وتراميا بقذائف النقط . ثم تمكن الملك الأشرف من العبور إلى القاهرة خفية وصعد إلى مقره بالقلعة ، فالتفت به طوائف عدة من الأمراء والجند الموالين له ، ففت ذلك فى غضب الفريق الآخر فتخاذل : ثم قبض على « يلبغا » وقتل شر قتله .

هذا . وقد شبت فى عهد ذلك السلطان فتن متعددة منها ما دبر لحله من السلطنة ، وفى عهده أيضا اشتدت فتن الأمراء ، وزاد خطر المماليك الجند ، وضعف السلطان عن كبح جماحهم ، كما اشتد خطر الفرنجة على ممتلكات الدولة ببلاد الأرمن والشام ، ونهبوا المدن وقتلوا المسلمين . وفى عهده نفثى وباء جارف فى القاهرة ، وانتشر الجراد فى دمشق وضواحيها ، وثارت العامة على بعض الأمراء .

وخرج السلطان إلى الحج عام ٧٧٨ هـ . وبصحبة الخليفة والقضاة الأربعة وكبار الأمراء ، فانتهز بعض الأمراء الباقين فى القاهرة ، فرصة غيابه وثاروا ضده ، وملسكوا

عليهم ابنه عليا . وكانت الممالك المصاحبة للسلطان شعبان في ركبه ، قد ثاروا به أيضا ناحية العقبة ، وكادوا يفتككون به ، لولا أنه فر ودخل إلى القاهرة محتفيا ، فدلّت على مكانه إحدى النساء ، فقبض عليه الجند ، ثم سجن وخُشِق في ذلك العام . بعد أن قضى في السلطنة نحو أربع عشرة سنة . ومن عجيب الأمر أن يقول ابن إلياس : « إن أيام هذا السلطان كانت هادئة من الفتن ، مع أننا علمنا أنها كانت ملأى بها .

٢٣ — المنصور د علي بن شعبان ، ٧٧٨ هـ — ٧٨٣ هـ

هو ابن الملك السابق . ولى الملك في غيبة أبيه عام ٧٧٨ هـ . وكانت سنه نحو سبع سنوات . وقد أصبح الأتابكي « أيذك البدري » صاحب الحول والطول في دولته . وامتأّت أيام هذا السلطان بالفتن والحروب الداخلية بين الأمراء . وهى حروب أطماع وأهواء . وكانت إحدى نتائجها أن قبض على الأتابكي « أيذك » ، ثم سجن . وما زالت الفتن تترى ، والوقائع ينداع لهيبها ، إلى أن توفى السلطان بعد أن مرض زمنا . وكانت وفاته سنة ٧٨٣ هـ بعد أن حكم نحو خمس سنوات . وما يذكّر أن الأمير برقوق ، العثماني الذي أسس الدولة الجركسية فيما بعد ، قد ظهر في عهد هذا السلطان ظهورا قويا وسط هذه الفتن . وأخذ يستبد بأمور الدولة حتى وصل إلى الأتابكية . وبذلك صار صاحب الأمر والنهي فيها .

٢٤ — الصالح د أمير حاج بن شعبان ، ٧٨٣ هـ — ٧٨٤ هـ

هو ابن الأشرف شعبان ، وأخو السلطان السابق . بويع بالسلطنة عام ٨٧٣ هـ بعد وفاة أخيه . وكان في نحو الحادية عشرة . فقام بتدبير ملسكة الأتابكي « برقوق » ، العثماني الجركسي . وقد قام هذا الأمير بأعمال جليلة منها أنه أرسل حملة تأديبية إلى التركان المغيرين على البلاد الحلبية ، وطردهم منها . وأدب عرب البحيرة الثاثرين . وأقام جسرا عظيما على أحد خيجان النيل جهة الروضة . إلا أن نفسه حدثته بالوثوب إلى السلطنة . فأخذ يعد العدة لذلك . ففضى على جماعة من منازعية من الأمراء ، ثم عمل على خلع الملك الصالح ، فجمع لذلك مجلسا من الخليفة والقضاة وكثير من الأمراء وتشاوروا في الأمر ، فوافقوا على خلع السلطان الملك الصالح ، وتولية الأتابكي برقوق العثماني . بحجة أن الرعية فسدت وساءت أحوالها . كثر وخروج العربان عليها ، وذلك عام ٧٨٤ هـ . وبذلك انتهت الدولة البحرية . وبدأ عهد الدولة الجركسية . وبرقوق العثماني الجركسي هو مؤسسها . وقد حكم د أمير حاج ، في هذه السنة نحو سنة وسبعة أشهر .

دولة الممالك الجرركسية

٥٧٨٤ - ٥٩٢٣

تلك هي الدولة الثانية من دولتي الممالك . وأصل ملوكها من الجنس الجرركسي . ولعل هذا الاختلاف اليسير في الجنسية بينهما ، هو السبب في أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى جديدة مغايرة للداضية . مع أن الحق في أنهما لا يفترقان في مظهر جوهري ، لأن ملوكهما من معتوق الممالك المشتراة أو من أبنائهم ، ولأنهما لم يتبعيا في الحكم إلا نظاما واحدا في أصل حقيقة . على الرغم من أن النظام الوراثي للسلطنة كان أكثر مراعاة في الدولة البحرية . وعلى الرغم من أن الثورات والفتن والمؤامرات الداخلية . قد نشطت في الدولة الجرركسية ، وعلى الرغم من فساد الجند ، ومن اختلاط أجناسهم ، وعدم العناية التامة بتربيتهم ، في الدولة الثانية ، بالنسبة لما كان من ذلك في الدولة الأولى .

أما ما عدا ذلك فهما فيه متشابهتان . فقد امتد نفوذ مصر المستقلة في عهدهما ، فملكيت بلاد الشام والحجاز في أكثر الأيام . وبسطت نفوذها أحيانا على بلاد السودان والمغرب ، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق . وشغلت بمحاربة التتار والفرنجة والسلاجقة . ويتشابه ملوك هاتين الدولتين في حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والغيرة على الشريعة ، فهابوا العلماء وقربوا أهل الدين والصالحين . واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر ، وبنوا المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل . كما يتشابهون في النشأة العسكرية والصبر على الكفاح ، كما أن نظام العمل وترتيب الدواوين وما إلى ذلك ، كان يسير في الدولتين على وتيرة واحدة تقريبا . ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلهما دولتين لا واحدة ، إلا ما ذكرنا من اختلافهما في التركيبة الجرركسية . وإلا ما راعاه البعض من أن « البحرية » كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة ، وأن الجرركسية كانوا يسكنون قلعة الجبل . وأصلهم من رعايا مملكة خوارزم ، أكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف

وسبعمائة ، وأسكنهم في أبراجها . ولذلك يسمون أيضا « البرجية » (١) . غير أنه من الحق أيضا أن بعض السلاطين البحرية ، لم يكونوا من سكان قلعة الروضة ، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل . ومهما يكن من شيء فأول ملوك الجراكسة هو « برقوق » بن آنص العثماني ، وعددهم جميعا واحد وعشرون ، عدا سلطنة أحد آل قلاوون ، وأحد الخلفاء العباسيين كما سنبينه فيما يلي :

١ - الظاهر « برقوق العثماني » سيف الدين ٥٧٨٤ هـ - ٧٩٠ هـ

هو برقوق بن آنص الجركسي ، وينسب إلى الخواجا « عثمان » تاجر الرقيق الذي جلبه إلى مصر . وقد أسعده الحظ حتى وصل إلى الأتابكية في عهد الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، فديره أمور الدولة ، ثم دبرها لأخيه من بعده ، ثم خلعه ووثب إلى سرير الملك في عام ٨٧٤ هـ . وعلى يده انقضى ملك آل قلاوون تقريبا . وانتقلت الدولة إلى الجركسية .

وقد كان السبب في سلطنته أن الملك آل إلى الصغار من آل قلاوون . فسرحت الفتن في البلاد ومرحت . فرأى الخليفة والقضاة والأمرأ ، أن يولوا في الملك رجلا قويا ينقذ الرعية من الفساد . واختاروا أن يكون الأتابكي « برقوق » هو ذلك الرجل . وكان أول ما قام به ، أن أهدي الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أتباعه وخلصائه . وقبض على كثير من أعدائه ، وأودعهم في السجن دون رحمة . وكان فانسكا قاسيا فهابه الناس ، وأبطل كثيرا من العادات الذميمة ، وبخاصة ما كان يعمل في عيد النيروز ، وذلك أن يقف كثير من العوام يقهرون عظماء الدولة على أن يعطوهم مالا . وفي ذلك اليوم ، يكثر تراشقهم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، إلى غير ذلك . فشدد « برقوق » النكير على القائمين بذلك وضرب على يدهم وهددهم بالشنق ، حتى كفوا وأرتدعوا عن غيبتهم . ثم بنى مدرسته الشهيرة عام ٧٨٨ هـ ونظم فيها أمر الدراسة . وساق لمقاتلة « تيمورلنك » التتري حملة من الجنود . فهزمت في ناحية « سيواس » ومنعته العبث بالبلاد الخلبية . ثم شق عصا طاعته بعض أمرأ الشام بزعامة الأمير

١ - في خطط المقرئ جزء ٣ ص ٣٩١ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك الجراكسة » ما يفهم منه أن الذي سماهم البرجية هو المنصور قلاوون . وفي ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطبايق بساحة الأيونان » ما يفهم منه أن الذي سماهم البرجية هو ابنه خليل .

« يلبغا » ، الناصري نائب حلب ، فسير إليهم برقوق جندا كشيفا . ولكن كانت عاقبته الخذلان . وزحف « يلبغا » إلى القاهرة فدخلها بعد قتال يسير . ثم نهبتها جنوده . فنظر الأمراء والخليفة فيمن يولونه سلطانا ، ولا سيما أن « برقوقا » قد اختفى ، فاجتمع رأيهم على إعادة الملك الصالح « أمير حاج » إلى الملك ثانيا . فتم في ذلك عام ٧٩٠ هـ . بعد أن حكم برقوق نحو ست سنين وتسعة أشهر .

عودة الصالح « أمير حاج بن شعبان » ٧٩٠ هـ - ٧٩٢ هـ

وهو من بني قلاوون . وآخر ملوك الدولة البحرية . اتفقت كلمة الأمراء على دعوته للسلطنة ثانيا بعد اختفاء برقوق عام ٧٩٠ هـ ولقبوه بالمنصور ، بدل « الصالح » . ودبر له الملك الأمير « يلبغا الناصري » ، الأتابكي . لجد في البحث عن « برقوق » حتى قبض عليه وسجنه في قاعة السكرك مسكرما . ثم شبت فتنة ضد « يلبغا » ، تزعمها الأمير « تمر بغا منطاش » . ف وقعت بين الفريقين معركة حامية الوطيس في جهة الرملة . فانزمت « يلبغا » ، وقبض عليه ، وأصبح « تمر بغا » أتابكيا مكانه وبيده مقاليد الأمور . ثم إن « برقوقا » انتهم فرصة الفتن الداخلية والحروب الأهلية الواقعة بين الفريقين ، وبث دعايته في السكرك ، حيث كان مسجوناً ، وتحبيل حتى ملكها وقوى بها أمره ، ففر إليه عدد كبير من مماليكه ، فاشتد بهم أزره . وعاونته طوائف من العربان . فاستطاع الزحف بكل أوائله إلى البلاد الشامية ، فلما بعد جملة وقائع وبعد معاناة شديدة بينه وبين أهلها ونوابها . هنا خرج الملك الصالح ومعه الأمير « منطاش » ، والخليفة والقضاة والأمراء والهند لمحاربة « برقوق » ، وانتزع الشام منه ، ف وقعت بين الفريقين معركة حامية في « شقحب » ، انهزم فيه « برقوق » . غير أنه ما لبث أن كرّر على أعدائه كرة صادقة فغل بهم ، بعد أن أفنى منهم عددا كبيرا . فاضطر « أمير حاج » ، إلى خلع نفسه من السلطنة ، وأشهد الخليفة والقضاة على ذلك . فبايعوا « برقوقا » في مكان المعركة ، وعادوا جميعا وعلى رأسهم سلطانهم « برقوق » ، فدخل القاهرة في حفاوة زائدة وإفاء كريم . وبذلك انتهى ملك آل قلاوون نهائيا من مصر عام ٧٩٢ هـ .

عودة الظاهر « برقوق العثماني » ٧٩٢ هـ - ٨٠١ هـ

عاد إلى عرشه عام ٧٩٢ هـ . وفي أوائل عهده وقعت اضطرابات متعددة في بلاد الشام

اشترك فيها « منطاش » . فلما طال عليها الأمد ، أعد السلطان العدة ، وخرج إلى بلاد الشام في عسكر كثيف ، فتمكن من القبض على كثير من أعدائه هناك وأعدهم عن آخرهم ، وفيهم « يلبغا » ، الذي كان سببا في خلعه من السلطنة في المرة السالفة . غير أنه لم يستطع القبض على « منطاش » . ولذلك لما عاد إلى مصر ، لبث « منطاش » وأعوانه يعيشون في بلاد الشام فسادا ، حتى أقلق بال السلطان . فشدد في طلبه حتى قبض عليه وقتل .

وما فرغ برقوق من القضاء على الفتن الداخلية والفتك بمنائوه ، حتى أخذ « تيمورلوك » ، التترى يزحف على بلاد الشام ، بعد أن اجتاحت فارس والعراق . خف السلطان للقائه ومعه أمراؤه وجنوده ، ومعه الخليفة والقضاة . وحينما بلغ مدينة حلب ، وافته رسل من ملوك عدة يخطبون وده . من بينهم رسول ملك العثمانيين « بايزيد » ، يعاهده على أن يتعاونوا لصد التتر . فرحب برقوق بكل هذه الوفادات . وسمع التتار باستعداد الجنود المصرية للقائهم ، ففضلوا العودة إلى ملكهم ، وكفوا عن الزحف على أملاك الدولة المصرية .

ثم مرض « برقوق » ، وعهد بالسلطنة من بعده لابنه فرج . ومن أهم آثاره مسجده المشهور ، كما أنه أقام كثيرا من الجسور والأسوار والعائم . وأرصد أوقافا طائلة على وجوه البر والإحسان . ثم توفي في عام ٨٠١ هـ . بعد أن حكم في هذه المرة نحو تسع سنين وثمانية أشهر . مات وعمره ثلاث وستون سنة . وهو ولا شك من أعظم سلاطين المماليك . وعصره شبيه بعصر الناصر محمد بن قلاوون في كثرة من عاشوا فيه من العلماء والأدباء وأفذاذ الرجال . وقد ولي السلطنة اثنان من أبنائه .

٢ - الناصر « فرج » بن برقوق ، ٨٠١ هـ ٨٠٨ هـ

هو زين الدين أبو السعادات بن برقوق . ولي الملك سنة ٨٠١ هـ . بعد وفاة أبيه بعهد منه فبايعه الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام عمر البلقيني والأمراء . وكانت سنه حينئذ انتى عشرة سنة . فدبر له الملك « الأتابكي » « إيتمش البجاسي » . غير أن « إيتمش » المذكور انقلب ضد السلطان بعد قليل . ف وقعت الفتن بين أنصار الاثنين . وتلاقوا في معركة حامية ، فانهزم جند « إيتمش » ، ففروا إلى الشام ، بعد أن عاشوا في القاهرة فسادا . وكان نائب الشام « تم » ، قد حدثه نفسه بالخروج عن طاعة السلطان . فقتل الجنود

المنهزمة بهددر رحب ، وانضم إليه في عصيانه نواب حلب وحماء وصفد وطرابلس ، وقويت شوكته ، فجرد السلطان عليهم جيشا قويا ، وسار هو في طلبه . فهزمهم هزيمة منكرة ، ففروا من وجهه . وتمكن أعوانه من القبض على كثير من هؤلاء العصاة وبينهم د لايمش ، فسجنوا ثم قتلوا . وعين السلطان نوابا جودا عنه في تلك البلاد . وفي عهده زحف د تيمورلنك ، على مدينة حلب ، واستولى عليها وقتل بأهلها ، ومثل بهم أقبح مثله . فجمع له السلطان فرج عسكرا كثيفا وخرج للقائه . فتلاقى العسكران لقاء جزئيا ثم تصالحا . إلا أن د تيمورلنك ، انتهز عودة السلطان إلى مصر ، لتلافي الفتن التي أثارها أمراؤه ، وطرق دهشق ، وأجبر سكانها على دفع أموال طائلة له ، ثم عاث جنده فيها فسادا ، فعذبوا أهلها ، وأنخنوا فيهم قتلا ، وهتكوا أعراض نسائها ، وأسروا عددا ضخما من علماء وقضاة وأعيانها وأمراءها وجنودها ، وصنعوا بها أشنع مما صنعوا بمدينة حلب . ثم أشعلوا النار في دورها وتركوها خربة مقفرة ... فهم السلطان فرج بالخروج لملاقاته ، ولكن د تيمورلنك ، كان قد تلاقي هذا التلاقى ، ورحل عن المدينة ، ونشطت السفارة بين الملاكين ، فتصالحا على أن يطلق كل منهما ما لديه من الأسرى .

ومن أهم ما شغل بال السلطان فرج ، الفتن والثورات الداخلية التي أضرم نارها الأمراء فيما بينهم ، بسبب أطاعهم وحقودهم ونزوعهم إلى العصيان ، واشتداد معاكساتهم له فسم السلطان تلك الحال ، ورأى أن يهجر القلعة - وهي مقر حكمه - ويحتفى . . بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف . فانفقت كلمة الأمراء على تولية أخيه د عبد العزيز ابن برقو ، ، وذلك عام ٨٠٨ هـ .

٣ - المنصور د عز الدين عبد العزيز بن برقو ، عام ٨٠٨ هـ

اختاره الأمراء ملكا على البلاد بعد أخيه عام ٨٠٨ هـ وله من العمر نحو عشر سنوات . فدبر له الأمر الأتابكي د بيبس ، فأثار ذلك حنق منافسيه ولا سيما الأمير د إشبك الشعباني ، . فجمع أعداء الأتابكي د بيبس ، وجدوا في إعادة السلطان فرج إلى العرش - وكان مخفيا في منزل أحد أتباعه . فوقع بين الفريقين الممنازعين معركة هائلة ، انتصر فيها أتباع فرج . فلما علم بذلك ، أسرع من خيسته بالصعود إلى القلعة ، وسجن أخاه الصغير ، ولما يمض على سلطنته سوى شهرين وعشرة أيام .

عودة الناصر د فرج بن برقوق ، ٨٠٨ هـ — ٨١٥ هـ

عاد إلى عرشه بعد قليل . وفي أوائل عودته خرج عن طاعته بعض أمراء البلاد الشامية ، وكاد يقاتل من يده زمام تلك البلاد . وكان من الثائرين بها الأميران : « شيخ الحمودى » و « نوروز الحافضى » . فزحفا على البلاد المصرية بسكتائب عدة فلاقاهم الناصر ، فهزموه . فأغرتهم هزيمته على أن يتبعوه إلى القاهرة . فكان هذا سببا في أن يكره عليهم ، فهزمهم هزيمة نكراء فروا من بعدها إلى الشام بعد فناء كثير من العسكرين . وقد كانت هذه الفتن المتوالية والعصيان المستمر ، سببا في أن حجب إلى السلطان استخدام العنف والشذوذ في معاملة الممالك ، حتى كان كثيرا ما يذبح بعض ممالكه بيده . . . انفجرت منه القلوب ، وهجره كثير من الجنود ، وانحازوا إلى أعدائه بالشام . فقويت شوكتهم ، وتجمعوا تحت قيادة الأميرين « شيخ » و « نوروز » . فخف السلطان فرج إلى لقبائهم بجهة تدعى « اللجون » ، بالشام ، فهزم وأفل نجمه . فخلع من السلطنة وقبض عليه ، ثم أعدم عام ٨١٥ هـ . بعد أن حكم في هذه المدة نحو سبع سنوات .

ويعتبر الناصر فرج من أعظم سلاطين الدولة الجركسية لشجاعته وبطولته في القتال ، وما جده من المباني ، ولا متلاء عصره بكثير من العلماء والأدباء . غير أنه - فيما قيل - كان يحيا لشرب الخمر ، ميالا إلى سفك الدماء ، قليل الحرص على الدين ، ولهذا حكم عليه أعداؤه بالكفر . . . وعانى الناس في عهده كثيرا من آلام الظلم والطغيان .

سلطنة الخليفة « المستعين بالله » العباس ، ٨١٥ هـ

هو أبو الفضل العباس بن الإمام محمد المتوكل على الله . وكان هو خليفة ذلك العصر من بنى العباس بمصر . ولى السلطنة المصرية في عام ٨١٥ هـ وحسبا للنزاع القائم بين الأميرين المتزعمين : « شيخ » و « نوروز » ، على أثر خلع السلطان فرج ، واختلاف الأمراء فيمن يولونه السلطنة من الأميرين . فانفق الرأي على تولية خليفة العصر أبي الفضل العباسى ، لدرء أسباب النزاع ، وأعطيت بلاد الشام للأمير « نوروز » ابتداء من غزة إلى بلاد الفرات . أما الأمير « شيخ » فاختار أن يكون أنابا بكميا بمصر .

وهذا الخليفة هو الوحيد من بنى العباس الذى ملك مصر زمنا ، دفعته إلى ذلك أسباب القاهرة خارجة عن اختياره . ونظرا إلى حرج موقفه أمام الأتراك أصحاب السطان ، ومعرفة

مقرباً ما، يشول إليه أمره، احتاط واستبقى لنفسه منصب الخلافة، يعود إليه مستقلاً به إذا لم تفلاح سلطنته. والواقع أنه لم يكن له من أمره شيء، بل كان المستبد دونه بكل شيء هو الأتابكي «شيخ» المحمودى. وكان وجود هذا الخليفة فى السلطنة، من باب التهديد لسلطنة «شيخ». ولذلك سرعان ما خلعه بعد ستة أشهر تقريباً، ووثب بنفسه إلى السلطنة بحجة أن البلاد فى حاجة إلى سلطان تركى، يتولى بحسبته قيادها. وذلك فى عام ٨١٥ هـ.

٤ — المؤيد د أبو النصر شيخ المحمودى، ٨١٥ هـ — ٨٢٤ هـ

كان من ممالك السلطان «برقوق»، فأعقبه. وأخذ يدرج فى مدارج الرق والإمارة حتى صار نائب الشام. ثم تعاون هو وصديقه نوروز الحافظى على خلع السلطان فرج. ثم لما تولى الخليفة العباسى سلطنة البلاد من بعد فرج، استبد به الأمير «شيخ»، ثم خلعه وجلس مكانه على سرير الملك عام ٨١٥ هـ. وكان «نوروز» صديقه نائباً بالشام، فشق عليه ملك «شيخ». وخرج عن طاعته ولم يعترف بسلطانه. فما كان من المؤيد إلا أن عبأ الجند وحملهم إلى دمشق وكرهم على عدوه «نوروز»، فهزمه وقبض عليه وجز رأسه. وأخذ فى تهديد البلاد الشامية والحلبية. ثم عاد إلى مصر.

ولكن تسكررت ثورة أمراء الشام عليه. فشدد النكير عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً، فدانت له هذه البلاد. وقد مرض المؤيد ثم توفى فى أوائل سنة ٨٢٤ هـ.

ومن أهم آثاره جامع المشهور بالقاهرة بجوار باب زويلة. وكان المؤيد شجاعاً كريماً محباً للعلم والموسيقى. وقيل كان يفهم العربية وينظم الشعر بها. وتولى بعده ابنه.

٥ — المظفر د أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ، ٨٢٤ هـ

اختير للسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ. وكان رضيعاً لما يفطم. فدبر له الأمر الأمير «ططر»، وكان أمير مجلس وائس نائب سلطنة ولا أتابكياً. وكان أتابكى العصر هو الأمير «الطنبغا القرشى»، وكان قد أرسل على رأس تجريدة لتأديب العصاة من نواب الشام. فلما سمع بسلطنة المظفر امتنع عن طاعته واستقر ببلاد الشام. فترقى حينئذ الأمير «ططر» إلى منصب الأتابكية بمصر. فلما تم له ذلك قوى نفوذه واشتد ساعده، وتزوج أم السلطان الرضيع، وعوّل على تأديب «الطنبغا». فرحل إليه فى جند كثير، وحمل معه فى ركبه ساهلانه ومرضعته وأمه، فقبضوا على العصاة وأعدموهم.

ولما شهد ططر ، ما آل إليه أمره من بسطة ملك ورفاه زمان ، خلع السلطان وهو بدمشق ، وأعلن بنفسه سلطاناً على البلاد المصرية وما يتبعها . وبايعه الخليفة والقضاة والأمراء وذلك في نفس عام ٨٢٤ هـ . وعاد إلى القاهرة فدخلها سلطاناً ، فلتعته في أبهى حلة ... وبذلك انتهت سلطنة المظفر الذي لم يدم في الملك سوى ثمانية أشهر إلا قليلاً . - ثم إنه سجن وظل مسجوناً حتى توفي مطعوناً وسنه العاشرة تقريباً .

٦ - الظاهر ططر ، ٨٢٤ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسي . كان في عداد مماليك د برقوق ، ثم دفع به حفظه إلى عرش السلطنة المصرية ، إذ بويع بها وهو في دمشق عام ٨٢٤ هـ . واسكنه لم يدم في سلطانه ، إذ مرض بعد عودته من الشام ، ثم توفي في عام توليته . وقيل إن مطلقته - وهي أم السلطان السابق - قد دست له سماً كان السبب في مرضه ، وبويع أبنه من بعده .

٧ - الصالح د ناصر الدين محمد بن ططر ، ٨٢٤ هـ - ٨٢٥ هـ

بويع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ ، وعمره حينئذ إحدى عشرة سنة . فدير له الأمر الاتابكي د جاني بك الصوفي ، وكان لهذا الاتابكي أعداء من الأمراء ، حاقدون عليه ، وعلى ما صار إليه من عز وجاه . وتزعهم في ذلك المقر السيق د برسباي الدقاق ، الدوادار . فما زالوا به ، حتى قبضوا عليه وسجنوه . وانفرد بشئون الدولة الأمير د برسباي ، المذكور . فلما رأى أن شوكته قد أصبحت قوية ، خلع السلطان الطفل ، وتبوأ مقعده عام ٨٢٥ هـ .

٨ - الملك الأشرف د برسباي ، ٨٢٥ هـ - ٨٤١ هـ

هو أبو النصر د برسباي الدقاق الظاهري . بويع بالملك عام ٨٢٥ هـ فأخذ في غزو قبرص ، فهزم ملكها وأسره مع عدد من جنوده ، وسبقوا إلى القاهرة مصفين في الأغلال . ولم يهدأ له بال ، حتى قبض ثانية على الأمير د جاني بك الصوفي ، - لأنه كان قد فر من سجنه - فأعدم . ثم جمع الأشرف جنداً كثيفاً ، ورحل بهما إلى بلاد الأرمن لتأديب الخارجين عليه فيها ، وعلى رأسهم د قراملك . ولكن عاده من غير طائل . مرض الأشرف بعد ذلك . واختلط عقله . فاضطربت أحكامه ، وشذت أوامره

قيل : إنه رسم مرة بنى الكلاب إلى الجيزة ، وعدم خروج النسوة ، وقتل بعض الأطباء ... وما زال حتى توفي عام ٨٤١ هـ . ودفن بمقبرته التي أنشأها بالصحراء .
ومن أعماله : مدرسته بسوق الوراقين ، ومدرسته بخاقاه سرياقوس . - وفي عهده وقع طاعونان جارفان بالديار المصرية أحدهما عام ٨٣٣ ، والآخر عام ٨٤١ هـ . واشتهر بدنانيره الأشرفية « أجود أنواع الدنانير » . وما يذكر أنه عهد إلى ولده بالسلطنة من بعده ، وجعل الأتابكي « جقمق » وصيا عليه .

٩ - الملك العزيز « يوسف بن برسباي » ٨٤١ - ٨٣٢ هـ

وهو أبو المحاسن جمال الدين ، بويغ بالسلطنة في أواخر عام ٨٤١ هـ ، بعد موت أبيه وبعهد منه . وعمره حينئذ أربع عشرة سنة . فدبر له أمر المملكة ، وصيه الأتابكي « جقمق » ، فحكمت مؤامرة لخلعه ، نجحت بعد ثلاثة أشهر ، في أوائل عام ٨٤٢ هـ . وتولى السلطنة الأتابكي « جقمق » .

١٠ - الظاهر « جقمق العلائي » (١) ، ٨٤٢ هـ ٨٥٧ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي . بويغ بالسلطنة عام ٨٤٢ هـ بعد الملك العزيز . وقد همّ الأتابكي « قرقاس الشعباني » ، بأن ينقض على السلطان ، وينزع منه السلطنة . فوقعت بين الفريقين معركة شديدة في جهة الرميطة ، انزعم « قرقاس » على أثرها وفر هارباً ثم تمكن السلطان من القبض عليه ، وسجنه ثم قتله ، وخرج عن طاعته نائب الشام ، فأدبه وقتله أيضاً . وفي عهده كذلك تجمع عدد من العبيد السود ، في ناحية الجيزة ، وسلطنوا منهم واحداً ، وعاثوا في تلك الناحية فساداً . فبطش بهم السلطان جقمق بطشاً شديداً ، وجمعهم وساقهم إلى أسواق بلاد الروم حيث بيعوا .

بعد أن انتهى السلطان من إطفاء نار الفتن المتوالية المذكورة ، عاشت البلاد في كنفه زمناً ، عيشاً هادئاً بعض الهدوء بالنسبة لعصور سابقة . ثم مرض عام ٨٥٧ هـ ، وأحس دنو الموت . فنزل عن العرش لابنه في ذلك العام . وما لبث غير قليل حتى

١ - ترجم له السخاوي في الضوء ببعض التفصيل ج ٣ رقم ٢٧٨ ، وقال في السياق : إن الرضى بمحمد بن الشهاب أحمد بن الغزي أفرد سيرة جقمق في حياته بالتأليف هذا وقد ترجم له أيضاً شهاب الدين ابن عربشاه :

قبض ، بعد أن حكم أكثر من أربعة عشر عاما . وكان جقمق كريماً براً محباً للعلماء معظماً الأمراء .

١١ - المنصور ، عمان بن جقمق ، ٨٥٧ هـ

بويغ بالسلطنة قبل وفاة أبيه بنحو شهر ، وذلك في أوائل سنة ٨٥٧ هـ . وهو أبو السعادات نضر الدين . وكانت سنه تسعة عشر عاما . وعاونه في تدبير مملكه ، الأمير « إينال العلاني » . إلا أن فريقاً كبيراً من المماليك ، رغب في تمليك الأتابكي « إينال » المذكور . فقاموا المنصور بعد سلطته بثلاثة وأربعين يوماً لا غير . وتولى السلطنة مكانه « إينال » . فقبض على المنصور وسجنه بالإسكندرية .

١٢ - الأشرف « إينال العلاني » ، ٨٥٧ هـ - ٨٦٥ هـ

هو أبو النصر سيف الدين إينال العلاني الظاهري . ولي الملك بعد خلع المنصور عثمان عام ٨٥٧ هـ . وقد ساد في عهده الهدوء وقلت خلاله الثورات الداخلية زمناً . ثم ثارت عليه المماليك « الجلبان » مراراً . ومن هذه المرات ثورة عام ٨٥٩ هـ التي اشترك فيها خليفة عصره القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل . فانخذلوا جميعاً ، وخلع الخليفة من منصبه ، وتولى مكانه أخوه المستنجد بالله . غير أن هؤلاء المماليك اجتمعوا على السلطان ؛ واضطر إلى إسكاتهم ببذل المال لهم .

ومن أعماله : أن أرسل حملة لتأديب المغيرين على أملاكه الشمالية ، فنجحت في تأديبهم ، وأنشأ عمارة بحرية لتأديب الفرنجة المغيرين على قبرص وسواها ، ولكنها لم تفد كثيراً . وعرف هذا السلطان بالكرم وهدوء النفس . ويقال إنه كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة . وهو من مماليك برقوق .

وقد مرض الأشرف عام ٨٦٥ هـ . ولما أحس دنو أجله ، تنازل عن مملكه لابنه أحمد في هذا العام أيضاً . وما لبث حتى مات بعد قليل ، وعد أن حكم حوالي ثمان سنوات وشهرين .

١٣ - المؤيد « أحمد بن إينال » ، ٨٦٥ هـ

هو أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف إينال . بويغ بالسلطنة قبيل وفاة أبيه . وكانت سنه نحو ثمان وثلاثين سنة . وقد جعل الأتابكي « خشمقدم » معيناً له في تدبير

الملك . ثم ثار عليه مما يليك أييه لأنه لم يحابهم بالمال والوظائف . فثارت بين الفريقين واقعة نكراء في جهة الرميّة ، استمرت ثلاثة أيام . فانهمز السلطان وفر واختفى . فطلب الثائرون الأتابكي « خشقدم » ، وبايعوه بالسلطنة . وهكذا انتهى حكم المؤيد ولم يمض على يوم توليته سوى أربعة أشهر تقريبا .

١٤ — الظاهر « خشقدم الناصري » ، (١) ٨٦٥ هـ — ٨٧٢ هـ

هو أبو سعيد سيف الدين خشقدم . بويح بالسلطنة عام ٨٦٥ هـ ، بعد الاعتداء على الملك المؤيد واختفائه . وكانت رغبة كثير من المماليك ، متجهة إلى تملك نائب الشام الأمير « جانم » ، فكاتبوه بذلك ، وملكوا عليهم « خشقدم » ، مؤقتا ريثما يعود الأمير « جانم » ، ويتسلم زمام السلطنة . إلا أن « خشقدم » ، ثبت في السلطنة ، وعاونه على ذلك « إبطاء جانم » ، في عودته .

وقد بدأ خشقدم حكمه ، بالقبض على الملك المؤيد ، أحمد بن إينال . وسجنه مع أخيه وأمه في ثغر الإسكندرية . ثم أرضى الأمراء والجند ، ووفر عليهم أموالا طائلة ، واسترضى كذلك الأمير « جانم » ، ليأمن جانبه مؤقتا . فاستبقاه في الشام . ثم رتب أمر البطش به سرا وأغرى به ، فكانت العاقبة قتل « جانم » . وبذلك تخلص من منافس قوى . وهبت بعد ذلك ثورة بين المماليك عاصفة ، بقصد الاعتداء على حياة السلطان . واسكنها بامت بالحنية ، بعد محاولات عدة . ونظر السلطان من حوله فرأى هناك منافسا جديدا يعظم أمره ، ويشتمد ساعده ، ويكثر تابعوه ، وهو الأمير « جاني بك » ، فلم يتردد في أن دبر له كميناً ، قتله في صباح باكر .

ومن أعماله : أن أرسل تجريدة لتأديب الفرنجة في رودس ، كما أنه أدب الغربان الثائرين عليه . وقد مرض في عام ٨٧٢ هـ واستمر مريضا نحو أربعين يوما ، كانت البلاد فيها مسرحا لفوضى الجنود والأمراء معا ، ثم توفي في العام المذكور بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف .

١ — الظاهر خشقدم أصله رومي الجنس ، وليس جركسيا ، ولذلك لا يعده بعض المؤرخين من ملوك الدولة الجركسية . فهو مثل الظاهر تمريفا .

١٥ - الظاهر د أبو النصر بلباى ، ٨٧٢ هـ

هو أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى من معتوقى الملك الموقد شيخ . كان أتابكيا فى عهد سلفه د خشمقدم ، . وقد دبر له أمر الدولة الأُمير الدوادار د خير بك ، . ولكنّه اضطرب فى حكمه واغتال بعض الأُمراء فاضطربت أحوال المملكة ، وكبر فيها الفساد ، وتفاقت الفتن . فنقم الأُمراء الباؤون عليه ، وخلصوه من السلطنة فى عام توليته وبايعوا الأتابكى د تمرغا ، بالسلطنة . فانهى حكم د بلباى ، بعد نحو شهرين فقط .

١٦ - الظاهر د أبو سعيد تمرغا الناصرى ، (١) ٨٧٢ هـ

اختاره الأُمراء للسلطنة ، بعد عزل الظاهر د بلباى ، . فبويع بها عام ٨٧٢ هـ . ولكنّه لم يلبث فى السلطنة سوى ثمانية وخمسين يوما . ثم غدر به جماعة من المالك الحشقدمية ، بزعامه د خير بك ، الدوادار ، وقبضوا عليه ثم أعلن د خير بك ، بنفسه سلطانا على البلاد . إلا أن أتابكى هذا العصر وهو الأُمير د قايتباى ، . كان متغيبا . فلما سمع بهذه الحركة ، عاد بسرعة ، ومعه عدد كئيف من الجنود ، دهم به السلطانين القديم والجديد ، على حد سواء ، وقذف بهما فى السجن ، ووثب إلى عرش البلاد . - أما د تمرغا ، فقد سجنه فى مدينة دمياط فظل هناك معوزا مكرما إلى أن توفى عام ٨٧٩ هـ .

١٧ - الأشرف د أبو النصر قايتباى ، ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ

هو أبو النصر سيف الدين ، الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى . جذبّه إلى مصر الخواجا د محمود ، ، فاشتراه الأشرف د برسباى ، ، ثم انتقل معه إلى الظاهر د جمقمق . . ولذلك ينسب إلى د محمود ، وإلى د جمقمق ، فيقال : المحمودى الظاهرى . ثم أعتقه الظاهر د جمقمق ، ، فأخذ سبيله فى معراج الترقى والإمارة ، حتى وثب إلى العرش فى عام ٨٧٢ هـ .

وقد واجه فى بدء حكمه د جملة عقبات : منها فرار السلطان السابق ، د تمرغا ،

١ - ترجمه السخاوى فى الضوء بشىء من التفصيل ج ٣ رقم ١٧٦ ، والظاهر تمرغا من الجنس الزومى وليس جر كسيا وبذلك لا بعده بعض المؤرخين ملوك الجراكسة فهو كالظاهر خشمقدم .

من يبحنه بدمياط ، إلى بلاد الشام ، ومنها إلى حلب . فعمل السلطان على القبض عليه ، وإعادته إلى يبحنه . ومنها خلو الحزائن من الأموال ، مع شعوره بالحاجة إليها لإعداد الجنود ، حتى يرد الأخطار الخارجية عن المملكة . فعمل على جمع ما يستطيع منها ، على الرغم من معارضة رجال الدين له في ذلك . ومنها انقضاض « سوار » (١) - ملك الأبلستين وأحد أمراء التركان - على أملاك الدولة ، في شمال الشام والبلاد الحلبية . حتى عظم أمره واشتد بأسه ، واستولى على قلعة « لباس » . فجرد عليه السلطان جملة حملات ، فبأت بالخيبة ، إلا الحملة التي قادها الأمير الشجاع الباسل « يشبك الدوادر » ، عام ٨٧٥ هـ ، فإنها هزمت جنود سوار ، وأعدت شمال البلاد الشامية والحلبية إلى طاعة السلطان . ووصلت في غزوها إلى شواطئ نهر جيحون ، وحاصرت قلاع التركان ، ثم شددوا الحصار على « سوار » حتى استسلم وخضع . فساقوه إلى مصر هو وجمع من الأسارى مصفدين في الأغلال ، بعد أن ولوا أخاه على بلاده مكانه . ثم قتل « سوار » على باب زويلة .

ومما شغل بال السلطان أيضا ، إغارة ملك العراقيين « حسن الطويل » ، على أملاك الدولة في الشام . فساق إليه جيشا قويا بقيادة الأمير « يشبك الدوادر » أيضا ، فردّه على أعقابهِ . إلا أن هذا الأمير المقدام ، قد قتل بعد ذلك ، حينما خرج بعض أمراء شرق الشام عن طاعة السلطان ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عمياء بمدينة حماة ، نفخ الأمير « يشبك » لإطفائها عام ٨٨٥ هـ ، فنجح في ذلك نجاحا تاما . إلا أن انتصاراته المتوالية ، أغرتة على أن يمعن في الفتح ، ويسير إلى شرق الفرات . فأصيب بهزيمة كبرى عند حصار مدينة « الرها » ، وقتل أمادها هو وكثير من جنوده ، وعذبت عدة من أمراء مصر المرافقين له في الحملة . وكادت البلاد الشامية والحلبية يفلت زمامها من يد سلطان مصر ، لولا أن تدارك السلطان هذا الخطر ، وبعث بحملة جديدة بقيادة الأتابكي « أربك بن ططخ » ، فكان لها أثر حميد في إعادة الأمن إلى نصابه في تلك البلاد .

على أن قايتباي لم يلبث - بعد أن فرغ مما تقدم - أن واجه عدوا جديدا ، أخذ

١ - سوار هو ابن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلفادر التركاني . كان حاكما على الأبلستين ومرعش . خرج عن طاعة سلطان مصر ؛ فخاربه مرارا حتى هزم وشنق « اقرأ ترجمته في الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٠٤٦ .

يطغى على أملاك الدولة ، ويغير على أطرافها . وهذا العدو هو العثمانيون ، الذين لم يكفهم عدوانهم على البلاد ، فأغروا على دولات ، أحاد سوار ، بالثورة في وجه السلطان ، وعاونوه على ذلك . فلم يجد السلطان بدا من محاربتهم ، فساق إليه جندا من مصر ومن حلب كسروه شر كسرة ، ولكن بعد أن أثخن فيهم قتلا . وكانت هذه الحادثة بدء النزاع الذي وقع بين المصريين والعثمانيين ، والذي كبر ونما في المستقبل ، حتى أفضى إلى الاحتلال العثماني للممقوت .

ولما رأى السلطان قايتباى ، ما يقوم به العثمانيون ضد بلاده ، حاربهم أكبر من مرة ، وعادت إليه جنده منتصرة فائزة ، تسوق في أصفادها عديدا من الأسرى . ولقد خرجت إليهم في عام ٨٩٣ هـ ، حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكي دأزبك بك ، أيضا ، فأوقعت بجند العثمانيين ، وهزمتهم هزيمة منكرة ، فلولوا من بعدها مدبرين ، بعد أن استولت منهم على مدينة دأدنه ، دأطنا . وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ هـ ، فوصلت في زحفها إلى بلاد العثمانيين نفسها بآسيا الصغرى ، واستولت على قيسارية ، ، ثم تصالح الطرفان على تبادل الأسرى .

وأعتقد أنه لو صفا قلب البلاد لسلطانها في ذلك الوقت ، وترك الأمراء حرب المطامع والأهواء ، ونبد الجند حب المال والثورة في سبيل طلبه بحق وبغير حق ، والتفوا جميعا حول سلطانهم العظيم ، وقادتهم الشجعان ، لتغير بهم وجه التاريخ ، ولنشروا الراية المصرية الحميدة ، في آفاق من الدنيا بعيدة . ولا غرابة فقد واجه قايتباى ، أعداء من الخارج أقوياء عنيدون ، ففل غربهم ، وكف فكف من همهم ، وخضد شوكتهم ، حتى أرغهم على مصالحتهم . ولكن مع الأسف الشديد ، ثار الجند في عهده عدة مرات ، وأتوا بضروب من الفساد كبيرة . وبخاصة المماليك ، الجلبان ، الذين بلغ من حقهم أن استخفوا بالسلطان ، وأكثروا من العدوان على الناس — واستمروا في حقهم وفي غوايتهم هذه ، حتى كانوا شر ما بليت به مصر من جنود . إذ كان تخاذلهم فيما بعد ، سببا من أسباب الاحتلال العثماني في عهد الغورى وطومان باى . ومن محاسن قايتباى : أن أدب العربان الثائرين بنواحي البلاد العائشين بها . كما أنه بطش مرارا عدة بجنود الفرنجة المغيرين على الشواطئ . كما أنه كان كثير التفقد للندن الكبيرة والأمصار ، فزار مدينة الإسكندرية ودمياط والفيوم ، وطوف في بلاد

الشام وحلب نحو أربعة أشهر . وعرج على بيت المقدس .
ومن أعماله : إنشاء برج عظيم يكون كالحصن لمدينة الإسكندرية . وقد أقيم في
مكان منارها القديم عام ٨٨٢ هـ . وبناء كثير من العمارات النافعة ، وإصلاح بعض
المساجد كالجامع الأزهر ، والحرم النبوي الشريف ، إذ شُيِّد فيه نار صواعق فسببت
تلف جزء منه . فجدده الأشرف قايتباي عام ٨٨٦ هـ . وله عدد من المدارس والمساجد ،
وضروب عدة من أعمال البر .

وقد أقدم بعض المماليك ، على العدوان على السلطان ، فرماه أحدهم بنشاب وهو في
سريره ، رغبة في قتله . فلما شعر السلطان بذلك حمَّ ومرض ، واشتدت عليه وطأة المرض ،
فتولى الأمر مكانه ابنه محمد . ثم توفي الأشرف بعد قليل . وذلك في عام ٩٠١ هـ ، وله من
العمر نحو ست وثمانين سنة ، حكم البلاد منها نحو تسع وعشرين سنة ونصف .
ومن مساوئه : أنه قطع مرتبات بعض الجند والموظفين ، وصادر كثيراً منهم ،
وفرض عليهم الاتاوات والغرامات . كما أنه كان يميل إلى ابتزاز أموال الأوقاف ، إلا أن
منها على حروبه وتجاريده . ومهما يكن من أمر فإن الأشرف قايتباي ، من أعظم
السلطين الذين حكموا البلاد المصرية . وولى ابنه السلطنة من بعده .

١٨ — الناصر « محمد بن قايتباي » ، ٩٠١ هـ — ٩٠٤ هـ

هو أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباي . بويح بالسلطنة عام ٩٠١ هـ ، قبل
وفاة أبيه بيومين ، واستلم بتدبير دولته الاتابكي « قانصوه خمسمائة » ، والاستادار
« كرتباي الأحمر » . وقد اضطرب حبل الأمن ، وطمع « قانصوه خمسمائة » في السلطنة ،
فدبر مؤامرة اشترك فيها الخليفة المتوكل على الله أبو العز ، وقضاة الدولة الأربعة ، وعدد
من الأمراء ، وبائعوا « قانصوه » ، فتسمى بالملك الأشرف .

ولكن السلطان الناصر تعصب له جند كثير من مماليك أبيه . فوقع بين الفريقين
حرب أهلية شعواء ، انهزم فيها « قانصوه » وجنوده وأصيب ، ففر واختفى ، بعد أن
وقعت القاهرة فريسة للنهب والسلب ، وعاد الخليفة والقضاة إلى « بايعه الناصر » . . .
وتركت هذه الفتنة في أعقابها فتناً أخرى متعددة ، قتل فيها كثير من رؤوس هذه
الأمارات ومدبريها ، ووقع فيها أنواع شتى ، من فساد الجنود وعيهم ، حتى اضطروا

الناصر إلى تغيير لقبه والتلقب « بالأشرف » ، حتى يتساوى المماليك الأشرافية وغيرهم ، ويصبح الجميع منسوبين إلى السلطان ... ومع ذلك تمخضت هذه الحوادث عن انقسام الأمراء والجند معسكرين : معسكر يتزعمه الأمير « أقبردى » ، ومعسكر يتزعمه « قانصوه بن قانصوه » وهو خال السلطان ، وقد بزغ نجمه في هذا العهد . ومن عجيب الأمر أن فريق « قانصوه » المذكور كان يدافع عن السلطان ، بينما كان هو طامعا في الخفاء أن يقفز إلى كرسي السلطنة . . . والفريق الآخر يناوى حزب « قانصوه » ، وهو حزب السلطان الناصر ، بينما السلطان الناصر نفسه يعطف سرأعلى فريق « أقبردى » ... ! وتقاتل الفريقان وتراميا بالنشاب والرصاص وقذائف النفط ، وانضم إلى كل فريق جمع من العربان . ومن الرياء أن كان كل منهما ينادى : « الله ينصر السلطان » ! ويعلم الله مقدار ما يضمرون له من الحب ! وظلت الحال كذلك ، والبلاد في قبضة هذه الفتنة الأهلية العمياء ، يصيبها القحط ، ويصمى أبناءها القتل ، ويفنيها الحراب ، أكثر من شهر . حتى أذن الله ، فانهزم « أقبردى » ، الدوادار ، وسلك سبيله إلى بلاد الشام عابثاً بها . فعمل السلطان بإرسال تجريدة خلفه بددت شمله ، ونكشت قتله ، ثم عادت إلى مصر ، وعاد هو إلى عيشه ببلاد الشام . وبينما الفساد يتفاقم أمره ، والآهواء تذكو شرورها ، إذ عاجل السلطان كمين رصده له أحد أمرائه وهو « طومان باي » فقتل شر قتلة ، إثر إيالي هو حائلة عام ٩٠٤ هـ . فذهب في سن السابعة عشرة ، ضحية لطيشه ونزقه ، وعدم إقامته على نية واحدة في تصرفاته ، بعد أن حكم نحو سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً .

١٩ — الظاهر « قانصوه بن قانصوه » ٩٠٤ هـ — ٩٠٥ هـ

هو أبو سعيد قانصوه الأشرفي ، أصله من مماليك « قايتباي » ، وأخو سرية أم السلطان الناصر بن قايتباي . وقد علا نجمه بسرعة ، فقد كان المتصرف في شؤون الدولة في عهد ابن أخيه . وظل يدبر الأمر لنفسه ، حتى وثب إلى الملك . ولم يمض بين إقامته بملوك في أطباق القذعة ، وبين تسنمه كرسي المملكة سوى ست سنوات .

وأول ما عني به : إرسال حملة تأديبية ، على بلاد حلب ، وبلاد التركان ، حيث انتشر فيها نفوذ غريمه « أقبردى » ، الدوادار وأعوانه . فعادت الحملة ومعها عدد كبير من أسراهم . وأدب عرب عزالة الضاربين بجهاات البحيرة ، بحملة قادها الأمير « طومان باي » ،

الدوادار. فهزم جموعهم ، وشتت شملهم . وقبض على كثير منهم ، واستاقهم إلى القاهرة مكيلين بالأصفاد .

ومن أهم ما حدث في عهده: خروج الأمير د قوصروه ، نائب الشام عن طاعته ؛ فهم بتأديبه . ولكنه فوجيء بمصيان داخلي عنيف ، بزعامة الأميرين د جان بلاط ، الأماكي و د طومان باي ، الدوادار . فوقع بينهما وبين السلطان موقعة ، انتهت بانخزال السلطان واختفائه ، بعد أن حكم أقل من عامين . وذلك في سنة ٩٠٥ هـ .

٢٠ - الأشرف د جان بلاط بن يشبك ، ٩٠٥ - ٩٠٦ هـ .

بويع بالسلطنة عام ٩٠٥ هـ ، على أثر اختفاء الظاهر د قانصوه . وهو أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفي - فليسا ملك ، دبر له ملكة الأمير د طومان باي ، وجد في البحث عن الظاهر د قانصوه ، حتى قبض عليه ، وسجنه بالإسكندرية . ثم كثرت مصادراته للوظفين وغيرهم ليجمع ما لا ينفقه على الجند .

وأهم ما شغل به خروج د قوصروه ، نائب الشام عن طاعته ، وتحصنه بها ، واستبلاؤه على مدنها . وكذلك الأمير دولات باي ، نائب حلب ، أعلن العصيان ، وقيل : إن هذا كله بترتيب د طومان باي ، الدوادار ، إذ كان يمسد نفسه في الباطن . ومن سوء حظ د جان بلاط ، أن أخرج إلى البلاد الشامية والحامية تجريدة كبيرة ، بقيادة د طومان باي ، نفسه . فلما زحف بها على بلاد الشام ، انضم إليه عصاتها ، وأعلن بنفسه بينهم ساطاناً ، وتلقب د بالعدل . ثم عاد إلى الزحف من جديد ، على البلاد المصرية . فلما رأى ذلك ، السلطان د جان بلاط ، جمع جنده وعدده ، وتحصن بالقلعة ، وأقام بها على استعداد للقاء الزاحفين ، وترك بقية فجاج البلاد مفتوحة أمامهم . فحاصروه بالقلعة ، ولم ينجهم من الهزيمة حصنه العتيق . فأسر بعد موقعة رائدة كثيرة الهول ، وسجن في الإسكندرية ، ثم خنق عام ٩٠٦ هـ ، ومدة حكمه نحو نصف عام . وتولى السلطنة العادل د طومان باي ،

٢١ - العادل د طومان باي ، ٩٠٦ هـ .

هو أبو النصر طومان باي الأشرفي ، من مماليك قايتباي . ذهب في عهد سلفه إلى بلاد الشام لتأديب العصاة ، فألفهم حوايه ، وسار على رأسهم ضد سلاطانه الأشرف د جان بلاط ، بعد أن تسلطن هناك باسم د العادل ، في أواسط عام ٩٠٦ هـ . وانتهى

أمره ، بأن أصبح سلطان مصر .
وطومان باى هذا هو الذى غدر بابن سيده فقتله ، وأعنى الناصر محمد بن قايتباى ، وهو الذى غدر بالسلطان « قانصوه » ، فسكران من أهم أسباب خلعها عن ملكه . ومع ما عرفتة الرعية عنه من الغدر ، كان محببا إليها فى أول عهده ، اظهره بمظهر الرجل المحب لها الخدب عليها . غير أنه ما لبث حتى غدر بأحد الأمراء الذين عاونوه على السلطنة ، وأعنى « قوصروه » ، فقد أمر بخنقه . ومن ذلك الوقت أخذ شره يزداد وشدد فى البحث عن أعدائه من الأمراء ، وألقى بالناس - بسبب البحث عنهم - أذى كثيرا ، حتى أصبح بغضا إلى الجميع . فخرج عليه عدد من الأمراء والجند ووقع بين الفريقين نزال ، انكسر فيه الملك العادل . فاخفى بعد سلطنة لم تدم إلا نحو ثلاثة أشهر . وظل محتفيا زمنا حتى قبض عليه فخر رأسه . وتسلطن بعده الملك الغورى .

٢٢ - الأشرف « قانصوه الغورى » ، ٩٠٦ هـ - ٩٢٢ هـ

هو أبو النصر قانصوه الغورى ، من ممالك الأشرف قايتباى أعتقه فأخذ سبيله إلى الترقى ، حتى كان أستاذارافى عهد الملك السابق « طرمان باى » ، فلما اختفى وطومان باى ، اتفقت كلمة الأمراء على تولية الغورى . فما زال يتأبى عليهم ، وهم يلحون عليه بالقبول ، حتى لبس خلعة السلطنة ، ودعمه يجرى إذ ذاك ، عام ٩٠٦ هـ . وكانت سنة ستين عاما تقريبا .

تولى الأشرف الغورى أمر المملكة المصرية ، وهى فى أخرج ساعاتها ، فتد اضطربت أحوالها الداخلية ، وتركز فى نفوس أمرائها وجنودها حب العصيان والخيانة ، واعتادوا الفتنة والثورة ، وانتأبى على أوامر السلطان . وابتليت مصر إذ ذاك بطئفة المماليك « الجلبان » ، الذين بدأ شرهم فى عهد « قايتباى » ، وضاعت من قلوبهم هيبة السلطان . ضحوا بمصلحة الوطن فى سبيل الاستحواذ على المال ، ولإرهاق السلطان بالإتفاق عليهم . فهذا بنيان تصدع داخله ، ولم يبق له قوام ، غير هيكل خارجي ، أصبح ينم عما تحتوى جوانبه . لهذا طمع فى الدولة المصرية الطامعون ، وامتدت إليها أظافر القطط ومخالبها ، سم استأسدت عليها ، حتى هدمت بنيانها ، وقوضت أركانها ، وأدالت من حريتها ، وأزالت استقلالها ، فأصبحت تابعة ، وكانت متبوعة . وباتت خاضعة ، وكانت عزيزة

منبعة . وتلك عاقبة محتومة لامفر منها ، لمن لها وأمن مكر الزمان .
واجه الغورى منذ بدء حكمه ، شرورا فى الدولة متعددة ، وشدائد حمة ، أخذ يعمل
جادا فى سبيل القضاء عليها . ولو أنصفه بنو جلده ، وتركوا الفتن والمطامع ، ونبذوا
هواهم جانباً ، لتغير بهم وجه التاريخ ، وانقلبت أوضاعهم ، ولا تمتد ملك مصر
إلى شواطئ بحر مرمرية . . .

وأول ما عنى به الغورى ؛ القبض على السلطان السابق د طومان باى فقبض عليه ،
ثم أعدم . وثار فى وجهه الأمير د مصر باى . فما زال به حتى أعدمه . واضطرب أمر
المماليك عليه طلباً لثمة تهمهم ، فاضطر إلى اللجوء للأموال الموقوفة ، فأخذ منها جانباً وفرض
الضرائب على الناس ، حتى تدمروا منها ولكن ماذا يصنع وخزائنه خاوية ؟ واشتدت
الفتن فى بلاد الحجاز وبين أمرائها ، حتى اعتدوا على حجاج مصر ، والشام . فعمل على
تهدئة الحال وتأمين طريق المسافرين . وشذ عن طاعته بعض أمراء الشام ، فصانعهم
حتى أعادهم إليها . وازداد عبث عربان البلاد فى نواحها ، فكيف أبديهم عنها .
إلا أن ذلك كله ، لم يكن غير تسكين وقتى لهذه الأدواء ، لأنها كثيراً ما عادت
إلى نورانها من جديد .

ومع ذلك كله ، كانت أمامه أخطار خارجية يحسب لها ألف حساب . ولكنه
تباطأ فى الاستعداد لها فى الأوقات المناسبة . ذلك - فى أغلب الظن - بدافع الأحوال
الداخلية . وأهم هذه الأخطار : عبث الفرنجة ، وإغارة سلطان الفرس د الشام إسماعيل
الصفوى ، على أملاك الدولة ، وطموح العثمانيين إلى توسيع مملكتهم .
أما الفرنجة ، ولا سيما البرتغاليون . فقد هالهم ما كانت تجنيه مصر ، وما يجنيه البنادقة ،
من الضرائب والأجور المفروضة على المتاجرين بين الهند والشرق وبين أوروبا ، لمرورها
بطريق مصر . فما زالوا حتى كشفوا طريق جنوب إفريقيا . فتحولت بعض المتاجرين إليه ،
ونقصت إيرادات مصر تبعاً لذلك . ولم يكتفوا بهذه ، بل أخذوا فى العبث بالسفن
المصرية ، والشواطئ المصرية والمتاجر المصرية ، فى الشمال وفى الشرق ، وأنقلوا على بعض
أمراء العرب والهند الذين تربطهم بمصر روابط اقتصادية . فاستغاثوا بالسلطان .
نخس د الغورى ، استفحال هذا الخطر ، وصنع عمارات بحرية ساقها لتأديب هؤلاء
العابثين فى الشمال وفى الشرق ، وفى بحر العرب وشواطئ الهند ، بقيادة الأمير د حسين

السكردي . ولسكنها لم تستطع كبح جماحهم ، بل وقتلوا كثير من جندها . - ولم يقتصر خطر الفرنجة على هذا ، بل كانوا يرسلون إلى البلاد عددا من الجواسيس ، لاستطلاع أحوالها . وكانوا يُطمعون ملك الفرس ، الشاه إسماعيل ، بالاستيلاء على أملاك السلطان . واستطاع المصريون - في بعض الأحيان - أن يقبضوا على هؤلاء الجواسيس والدسائسين ، ويمثلوا بهم شر مثله .

وأما الشاه إسماعيل ، ملك الفرس ، فكثيرا ما أغارت جنوده على مدينة حلب وأطراف الشام ، وعيثت بها . وكان يراوغ السلطان ، فبينما تغير جنوده على البلاد ، لاذ يرسل الهدايا والمكاتبات إلى السلطان ، معتنرا إليه عما جناه هؤلاء الجنود . ولولا ما شغل به الشاه إسماعيل ، من حروب أخرى ، لكان له - ولا شك - موقف آخر صريح تجاه مصر . فقد ابتلى بأزبك خان ، ملك التتار ، فما زالت الحروب تترى بينهما ، حتى قتل « أزبك » ، عام ٩١٦ هـ . فتألم السلطان « الغوري » لموت ملك التتار ، لا لأنه مات ، ولكن لفراخ الشاه إسماعيل ، من الاشتغال به . . . ومع ذلك فقد سُلط على هذا الشاه من بعد ، العثمانيون الطامعون في ملكه . فما زال به السلطان « سليم » ، العثماني حتى أذله وكسره شر كسرة ، وملك جانبا كبيرا من بلاده . وأخذ يتفرغ للقضاء سلطان مصر وأمرائها وجنودها .

ولقد بدأ تدخل السلطان سليم ، في شئون مصر ، بأن عاون ابن « سوار » ، ضد عمه « على دولات » ، نائب حلب ، في نزاع بينهما ، وطلب إلى السلطان أن ينصف هذا الابن ، فرفض السلطان هذا الطلب . وكان السلطان من قبل هذا ، قد أرسل حملة إلى مدينة حلب ، تقيم فيها ، ترقباً للحوادث والحروب الناشئة ، بين الشاه إسماعيل ، و « السلطان سليم » . ومن عجيب الأمر وغريبه ، أن عاث جنود هذه الحملة فساداً في مدينة حلب ، حتى فضل أهلها أن يهجروها . . ثم عادت هذه الحملة عام ٩٢٠ هـ دون أن تقوم بعمل ما .

وفي عام ٩٢١ هـ تحقق السلطان الغوري ، أن العثمانيين يزحفون على البلاد الحلبية ، متجهين نحو الجنوب ، ويدنون القلاع والحصون . فتباطأ الغوري في الاستعداد لملاقاتهم وردزخفهم . وأعتقد أن أهم أسباب تباطئه تلكؤ الأمراء عن تلبية ندائه تلبية سريعة ، وروح العصيان البادية في صفوف الجند ، وتدمرهم بسبب تأخر مرتباتهم .

ومهما يسكن من أمر ، فقد أخذ يعد العدة . فجهز حملة قوية ، لم يدخر وسعاً في الإنفاق عليها والدعوة إليها ، وتزويدها بكافة أنواع الأسلحة ، والخيول والملابس والقوت والمال ، ونسبت الحملة من البلاد المصرية في ربيع الثاني عام ٩٢٢ هـ . فخرجت في حفاوة باهرة ، بين أكف الدعاء والرضا . وبدأت في أبهى زينة وأجمل حلة بجنودها وأمرائها . وخرج السلطان ومعه الخليفة والقضاة ، فباغوا أبواب حلب .

هنا بعث السلطان « سليم » ، رسلاً من عنده إلى الغورى ، يبدى له الودالكمين والحب الخاص ، ورفع إليه الهدايا الثمينة ، وبعلم الله أنها الحرب والمكر والخديعة . وأنها القدرة في الاستطلاع ، والبراءة في التخذيل وتثبيط الهمة . فرد الغورى أجمل رد . . وكان أجمل به أن يحتاط للأمر ، ويأخذ له أهبطه . ولكنه كان غافلاً عن مكر عدوه . فما وصلت رسل الغورى إلى السلطان سليم ، حتى مثل بهم ، وردهم إليه أقبح رد . وعالتهم بزحفه للقاء سلطانهم ، في « مرج دابق » قريباً من حلب .

تلاقى الفريقان في « مرج دابق » في رجب عام ٩٢٢ هـ ، وعلى الرغم من كبرة العثمانيين وقوة مدافعهم ، أوقع المصريون الرعب في نفوسهم ، حتى هم السلطان سليم بالفرار . هنا مع الأسف وقع التخاذل في صفوف جنود مصر ، فقد أشيع أن السلطان يفضل فرقة منهم على أخرى ، فتماعداً عن القتال الصادق ، ثم ظهرت الخيانة المدبرة التي تزعمها « خاير بك » ، نائب حلب ، إذ فر من المعركة دون سبب واضح ، وكان على ميسرة الجيش المصرى . فلما فر ، تبعه جنود كثيرون . فوقع الاضطراب والخوف في صفوف جند مصر ، بينما ثبت السلطان الغورى في عدد قليل من جنوده ، وهو يرى بعينيه ، خيانة خليفته وقضائه وأمرائه ، واستسلامهم لعدوه دون مقاومة تذكر . وهو يرى بعينيه فرار جنده ، فيقول : « إلى أين يا أهل المروءة ! هذا وقت النجدة . . . هذا وقت المعونة » . فلم يلتفت إلى ندائه أحد ، فأصيب بالشلل . . . ودعته الجنود العثمانية من كل جانب . وكانت قد عادت إليها شمامتها - فوقع إلى الأرض ، قتلتهمه سنا بك الخيل . ولم تدر أين جثته ، ولا عر عليها من بعد . بذلك تمت الجريمة هناك على جيش مصر ، وأخذت فلوله تعود منهوكة القوى ، خائرة العزيمة إلى البلاد ، ناركن جسد سلطانهم وسط فيافي حلب مجهولا . وبذلك انتهى ملك الغورى ، بعد أن حكم نحو ست عشرة سنة .

وأهم ما يؤخذ على الغورى : بطؤه وتراخيه فى الاستعداد لمقاومة الأخطار ، ونخوفه من الجند أو الأمراء ، وعدم الحزم فى معاملتهم ، وخصوصاً فى ساعات الشدة العصبية التى تتعرض لها البلاد ، وانخداعه بالظواهر ، وعدم احتياطه منها ، وجمعه الضرائب الظالمة من الناس ، ثم إنفاقها فى إنشاء البساتين ، وجلب أشجار الفاكهة ، وتوسيع الميادين ، وإنشاء السواقى ، والعناية بالعائر والمباني . وهذه كلها ضروب من الإصلاح محدودة ، ولكن لكل شىء إبان . وكان أولى به أن ينفق المال على تنظيم الجند وأن يضرب على يد من يضمرون له الغدر والخيانة . وكان محبا لأنواع الرياضة والنزهة والتسالية ، مع أن صوت الحرب من حوله كان صخاباً .

وهذا كله لا يمنعنا أن نذكر بعض منشئاته النافعة ، فقد أنشأ بحمة العقبة : مخافرو وأرصفة وفنادق وسواقى ، وما إلى ذلك . مما يحتاج إليه الحجاج ، فى ذهابهم إلى الحجاز ، أو إيابهم منه . وأقام المئذنة ذات الرأسين بالجامع الأزهر . وجدد خان الخليل . وأنشأ ميدان القلعة ، وجملة بالأشجار المجلوبة من الشام وغيرها . وأجرى إليه الماء من النيل بواسطة سواقى متعددة . كما أسس كثيراً من الجسور على خلجان النيل ، وخصوصاً جسر الفيوم . وله منشئات كثيرة غير ذلك . وهو من أعظم سلاطين مصر . وقد ملك من بعده «طومان باى» .

٢٣ - الملك الأشرف د أبو النصر طومان باى ، ٩٢٢ هـ - ٩٢٣ هـ

هو من ممالك «قايتباى» . سم أعتمقه «الناصر بن قايتباى» . وما زال يدرج فى مدارج الرقى ، حتى بلغ فى مملكة الغورى منزلة سنية . سم كان نائب غيبة ، حينما خرج الغورى إلى قتال العثمانيين بحلب . وفى أثناء ذلك ملأ قلوب الناس أمناً ، بسهره على حفظهم ، وحراستهم من اللصوص وقطاع الطريق والعاثين ، فأحبوه . ولما قتل الغورى ، اجتمعت كلبة الأمراء على توليته . فأخذ «طومان باى» يعد العدة للقاء العثمانيين ، ورد زحفهم عن البلاد . وكان شجاعاً قوياً ، وبطلاً صنديداً لا يهاب ، ولكن حوله أمراء خائرين ضعافاً متنازعين ، وجنوداً منحلى العزيمة ، قليل الثقة بانفس . ومهما يكن من شىء ، فقد بدأ «طومان باى» بإرسال طليعة من الجند ، على رأسها الأمير «جان بردى الغزالى» ، وكان هذا قد أضمر الخيانة للسلطان كصديقه «خايربك» نائب حلب . فما لبثت طليعته أن انهمزمت .

أحب « طومان باى » ، أن يبادر بالخروج إلى الشام بجنود كثيفة ، فنعه الأمراء وأصبروه ، والعثمانيون يزحفون ، حتى دخلوا مصر نفسها . فأحب « طومان باى » ، أن يبادر بملقائهم في جهة الصالحية ، قبل أن يصلوا إلى القاهرة ، ولا سيما أنهم في حينهم منهوكون القوى ، قليلو الغذاء ، لطول سيرهم . فن السهل الفتك بهم . فنعه الأمراء أيضاً وأصبروه ، ولم يحبوا أن يقانلوا بعيداً عن القاهرة . كأن القاهرة وحدها هي وطنهم دون سواها ، أو أنها تلهم الشجاعة والإقدام دون غيرها . لكنهم الجبن والخور والجهل والسفه وقصر النظر . ثم خرجوا إلى جانب القاهرة بناحية الريدانية ، وحسنوا ظهورهم ، حتى لا يطعنوا من الخلف . وقيل : كان عدد جنود مصر نحو عشرين ألف مقاتل . ولكن قوتهم المعنوية متداعية ، والاتحاد بينهم ضائع ، والتعاون مفقود . وأصبح كل منهم يفكر في نفسه فحسب ، ومصيره هو ، لا مصير البلاده . ف وقعت بينهم وبين العثمانيين الزاحفين ، معركة شديدة الروع في ناحية الريدانية في أواخر عام ٩٢٢ هـ ، قتل فيها من الجمع عدد كبير . ودارت الدائرة على المصريين ففروا من الميدان . وفرك ذلك « طومان باى » ، بعد أن ثبت زمنا مع فئة قليلة من أتباعه . وغنم العثمانيون غنائم لا تعد ولا تحصى . سم زحفوا على القاهرة . وملكوها ، وعاثوا في أرجائها فساداً . وأنخنوا في أهلها قتلًا وسلبًا وهتكًا . وتحصن « طومان باى » ، بالصعيد ، سم أخذ في الزحف نحو القاهرة . فلاقاه العثمانيون في ناحية الجيزة . وهزموه هزيمة نكراء . ولكن بعد أن أظهر ضروبا من البطولة الخارقة . سم فرطومان باى إلى بعض أصدقائه من عربان البحيرة ، فسلوه إلى السلطان « سليم » جزاء وفاقا لصداقته لهم ويده عندهم ... ! ولما قبض عليه ، شق أشنع شققة ، على باب زويلة ، في المحرم عام ٩٢٣ هـ . وبموته انتهت دولة الجراكسة ، وبدأ عهد الاحتلال العثماني الممقوت .

تعقيب

على الرغم مما يحول في خاطرى — وأنا مصرى — من الحق على دولتى الممالك وسلطينهما وأمرائهما وجنودهما جمعاء ، وما يفيض بالنفس من شعور الأسف الشديد على ما اجتروحه ، من تجاهل الشعب المصرى ، ومن نبذه نبذ النواة وعدم الاكتراث له ، والإنقال عليه بضروب من الظلم والقسوة والإرهاق ، وعلى ما ألفوه من

التنازع على السلطان تنازعا يمليه الطمع والهوى ، لا الإيمان والعقيدة . وتوحي به المصلحة الذاتية العارضة ، لا المصلحة العامة الباقية ، — وسنبين ذلك فيما بعد — أقول على الرغم من هذا كله ، خنقنى العبرة وملكتنى الزفرة ، عند ما طاعت أخبار الفتح العثمانيّ اللعين ، وما اقترفه العثمانيون من مآثم في القاهرة وفي مصر . فقد كانت مصر في عصر المماليك ، مستقلة منشورة السلطان في جميع البقاع الإسلامية ، تدين لها هذه البقاع بالتبعية السياسية أو التبعية الأدبية ، فكانت مركز الإسلام ، ومبعث الحركة العلمية ، وسنزل الخلافة . أما العثمانيون فقد أزالوا استقلالها ، وعيشوا بحرياتها . وزادوها ظلمة على ظلمة ، ومكثت موءودة تحت عبء الاحتلال ، إلى أن قامت بنهضتها الحديثة من ويلاتها ، فعاد لها العلم والمال والحياة والحرية والقوة والمعنوية ، والإيمان بالنفس والثقة بالله .

العثمانيون نهبوا أموال البلاد وملئوا جعابهم بذهبها وكتبها وساقوا إلى القسطنطينية خليفتها وقضاتها وأطبائها ومهندسيها ومباشرى الأعمال فيها ونجارها وحدادها ، وكل ذى علم وفن معروف فيها ، ثم تركوها قاعا صفصفا يجرى الخراب على أديمها . فأى لأم هذا الذى اقترفوه ؟ ... انتقل بهذا الاحتلال قلب الإسلام من القاهرة إلى القسطنطينية ، ومعه مركز العلم ومنزل الخلافة ، إذ تحمّلوا على الخليفة المتوكل فنزل لهم عنها وهو في قبضة يدهم ، وقد كافئوا خونة الأمراء المصريين الذين عاونوهم في خطة الفتح مكافأة قيمة فقد عين « خاير بك » نائبا عن السلطان العثمانيّ في القاهرة ولحقب « ملك الأمراء » ، وعين « جان بردى الغزالى » نائبا عنه في الشام . — ولو كانت في الشعب حياة وقوة لمزق أجساد الخوثة شذر مذر ، مهما لاقى في سبيل ذلك من سوء .

السلطنة ونظام الحكم

كتبنا كلمة سابقة عن منشأ الممالك ، وعرفنا أنهم كانوا يجلبون من بلادهم إلى الأسواق المصرية وغير المصرية ، فيشتريهم السلاطين والأمراء . وعرفنا أيضاً كيفية انتقال الحكم المصري من يد الأيوبيين ، إلى الممالك البحرية ، وهم عماليك الصالح نجم الدين الأيوبي . وسنكتب فيما بعد ، كلمة نشرح فيها ثقافة هؤلاء الممالك ، وأدوارها وطرقها . وسيتضح لنا أن المملوك ، في أغلب الأحوال ، كان يظل رقيقاً زمنياً غير محدود ، يعيش في طباق القلعة معيشة جندي خالصة . حتى إذا ما ثبت لدى السلطان ، أن مملوكاً ، ذومقدرة وكفاءة متميزة ، وبدا له ما يثبت تلك القدرة والكفاءة ، أعنته وأنزله من الطباق إلى وظيفة أخرى . وأعانه على حياته الحرة بما يعطيه من مال وقش وخيل وما شابه ذلك .

وغنى المملوك لا يخرج عن أنه لا يزال من جند الدولة ، ومن سواعدها التي تستند إليها ، بل عنته أول مراحلها في خدمتها العليا . حينئذ يتسع أفق الرقي أمام المملوك ، وتساوره المطامع ، وتدفعه قدرته وحظه معاً ، إلى التنقل في وظائف الدولة شيئاً فشيئاً ، ويخلع عليه السلطان لقب الإمارة ، فتسمو بذلك منزلته ، ويتنقل في مدارجها صعوداً ، أخذاً طريقه نحو المناصب الرئيسية . وقد تدفع به الحوادث إلى أن يكون أستاذاراً أو دوا داراً أو أتابكياً أو نائب سلطنة . وهذه المناصب من أسمى وظائف الدولة ، وليس وراءها غير منصب السلطنة الجليلة . فإذا بلغ المملوك هذا الحد ، أصبح دانياً إلى هذا المنصب . وكثيراً ما تنقلب الأيام ، وتبدل الحوادث ، فإذا بهذا الأتابكي أو النائب يُختار للسلطنة . وإن هذه المناصب المذكورة وما مائلها كانت تؤهل شاغلها لتولى الملك . فإذا اختير ملك جديد ، أقام بالقلعة ، وأعنى قلعة الجبل ، فقد استخدمت في معظم هذا العصر مقرأ رسمياً للسلطان .

والملك بعض الأمثلة التي تبين المراقى التي صعد بها بعض السلاطين ، من حالة الرق إلى حالة السلطنة ، وذلك نقلاً عن ابن إياس وغيره :

« السلطان كتبغا المنصوري : أسره الملك المنصور قلاوون في موقعة خمص ، التي

كانت بينه وبين التتار ، فأصبح من مماليكه . ثم أعتقه وجعله أمير عشرة ثم صار مقدم ألف ، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون صار نائب سلطنة . ثم خُلع الناصر ، وقفز « كتيبغا » إلى العرش .

« السلطان برقوق العثماني » - جلبه إلى مصر « الخواجا عثمان بن مسافر » تاجر الرقيق ، فاشتراه منه الأتابكي « يلبغا » ثم أعتقه . ولما تغير وجه الدهر للماليك « يلبغا » ، هرب « برقوق » إلى الشام ، فخدم عند الأمير « منجك » نائب الشام ، ثم ترقى أمير عشرة في دولة الأشرف شعبان ، ثم أمير أربعين ، ثم مقدم ألف ، ثم أمير أخور كبير ، ثم أصبح أتابك العساكر في دولة المنصور علي بن الأشرف شعبان . ثم صار سلطاناً .

« السلطان جقمق العلائي » - أصله جركسي جلبه « الخواجا كزل » ، فاشتراه منه « العلائي علي » بن الأتابكي « إينال اليوسفي » ، وقدمه إلى الملك الظاهر « برقوق » فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم رُقِيَ خاصكياً ثم ساقياً . ثم قبض عليه وسجن في عهد الملك الناصر فرج ، ثم أطلق سراحه . وعين أمير طبلخاناه وخازنداراً في دولة المنصور شمس ، ثم صار مقدم ألف في عهد السلطان طغرل ، ثم عين حاجب الحجاب في عهد الأشرف « برسبای » وترقى حتى بلغ الأتابكية ، فلما كان عهد ابنه العزيز ، أصبح « جقمق » نظام الدولة ومشيرها ، ثم خلع العزيز ، وولى « جقمق » السلطنة .

غير أن الزمن الذي يستغرقه مملوك أسعده الطالع ، وبلغه منصب السلطنة ، من عهده إلى عهد سلطنته ، يختلف طولاً وقصراً ؛ حسب اختلاف الأشخاص والظروف . غير أن أقصر زمن - ولا شك - كان زمناً طويلاً ، ولا يعتبر قصيراً إلا بالنسبة إلى سواء . فبئس المملوك أربعين عاماً أو خمسين ، في حياة رقي مطرد ، حتى يصل إلى كرسی السلطنة . ولذلك عُدَّ أمراً عجيباً ، أن يصل السلطان الظاهر « قانصوه بن قانصوه » إلى منصب السلطنة ، في مدة لم تتجاوز ست سنوات ما بين رقه وعتقه وبين سلطنته .

والآن أصبح مفهوماً أن كل جندي مملوك ، قد يحول عليه الزمان ، وتدفعه الأقدار ، إلى أن يكون سلطاناً يوماً ما . والأقدار إذا صنعت ذلك لا تتكلف معجزة خارقة ، أو شذوذاً عجيباً ، أو سنة غير معلومة ، أو التواء وتحويلاً في سياسة متبعة . بل ذلك هو المترقب المنتظر . ولهذا لا يصح أن تعزينا الدهشة ، عندما يحدثنا التاريخ أن فلاناً المملوك أو الأمير ، حدثته نفسه يوماً ما ، بأن يلى السلطنة ، وبأنه إذا ولى السلطنة يصنع كذا

وكنا . فقد روى (١) أن الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ، كان قد اختفى مرة في مئذنة جامع ابن طولون ، ونذر أنه إن صار سلطانا ليعمرن هذا الجامع ، وقد صار سلطانا ووفى بنبذره .

وروى (٢) : أن المنصور قلاوون لما كان أميرا ، في عهد الملك الظاهر « بيبرس » خرج في غزاة ، فأصيب بقلنج (٣) ، فعولج منه في مدينة دمشق ، بمعرفة أطباء جلبوا له الدواء من مستشفى « نور الدين الشبيد » فبرأ . ففاق إلى زيارة هذا المستشفى فزاره ، ونذر إن آياه الله الملك ، أن يبنى مستشفى « دارسنانا » فلما أوتى الملك برنبذره ، وأقام « البيمارستان المنصوري » .

وقيل (٤) : إن الملك المؤيد شيخا ، سجن مرة وهو أمير — في خزانة شمائل — فقامى بها شذائد عظيمة ، فنذر في نفسه ، إن خلص من هذه الشدة ، وصار سلطانا ، يهدم هذا السجن ، ويقيم مكانه مسجدا . ولما صار سلطانا على مصر ، بربوعده وبنى جامع الشهيدي بجانب باب زويلة ، مكان السجن المذكور .

وحكى (٥) : أن الأتابكي تمرار — الذى توفى عام ٩٠٢ هـ في عصر الملك الناصر محمد بن قايثباي — كان إذا سأله أحد في حاجة ، يقول : اصبر علينا حتى يمضى وقتها . وكان طامعا في السلطنة فخاف فيه الظنون ...

هذا ، والسلطان وأمرأؤه وماليتهم هم أهل الرأى ورجال الحكم وأرباب المناصب دون سواهم . يعاونهم بعض من يختارونهم من المتعممين ، ليلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليها .

لذن اعتبر الماليت أنفسهم « الطبقة الحاكمة » في هذه البلاد وما يتبعها . وذلك بما لهم من القوة الباطشة ، والأيدى المسلحة ، والكثرة المجندة ، وحق القيام وحدهم بالفتح والغزو . ولم يخرج الملك عن أن يكون لواحد منهم . ولكن من هو هذا الذى يخصوصه بهذا الشرف العظيم ؟ ... وكيف يحدونه ؟

لم يوضع نظام ما لورانة السلطنة ، وإنما كانت مؤهلات الأمير الشخصية ، وما

١ — ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ .

٢ — خطط القرينى ج ٤ ص ٢٦٠ .

٣ — القوننج : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الفضل والريح .

٤ — ابن إياس ج ٢ ص ٣٣٠ .

٥ — ابن إياس ج ٢ ص ٦ .

يؤتاه من حمة ودعاء ، وما يديه من بلاء في الحروب ، ومن إحسان في السياسة ، ومن قدرة على الارتفاع من الفرصة السانحة ، وما يستطيع جمعه حول نفسه من مماليكه الأخصاء ، وغيرهم من محبيه ، ومن ذوى المطامع ، ممن يكون له منهم عصبية قوية يخشى بأسها . كل هذه الأمور ، كانت هى التى تقرب الأمير تدريجيا ، وأوقد تقذف به أحيانا إلى المناصب الكبرى . مثل أتابك العسكر أو نائب السلطنة . فيصبح قاب قوسين أدنى من منصب السلطنة .

بل إن الأمير إذا ما وصل إلى مرتبة النيابة والكفالة أو الأتابكية ، يقع في نفسه — غالبا — أن الأقدار تهيئه بذلك لتولى السلطنة . فيعمل ببلوغ أمله هذا ، ولتحقيق إحساسه الباطنى ، بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . حتى لتجده في أغلب الأحوال ، يدبر لسلطانه المكائد ، وينصب له الحبائل ، ويخلق حوله المشاكل . ويحيك من أجله سلسلة من المؤامرات ، تنتهى غالبا بخلع السلطان أو قتله قتلة شريرة ، ووثوب النائب أو الأتابكى إلى كرسى المملكة .

فالأتابكى « قطز » خلع الملك المنصور نور الدين على بن المعز ، سنة ٦٥٧ هـ وتولى مكانه . والأتابكى « بيرس » البندقدارى ، قتل بيده سلطانه « قطز » ، ووثب إلى عرش السلطنة عام ٦٥٨ هـ . والأتابكى « شيخ محمودى » خلع سلطانه الخليفة « المستعين بالله » وتولى السلطنة سنة ٨١٤ هـ . وهكذا .

وتعتبر هذه الحالة أمرا عاديا في دوائى الممالك . ومعنى ذلك أن نظام الوراثة لم يكن مرعا لديهم . وهذا لا يمنعنا أن نقول : إن أسرة المنصور « قلاوون » كان لها نصيب كبير من وراثة الملك في الدولة البحرية . وإن أسرة « برقوق » كان لها نصيب آخر أقل من ذاك في وراثة الملك في الدولة الجرسية . وقد ولى السلطنة من أسرة « قلاوون » أربعة عشر ملكا . وقد ولى بعضهم بناء على وصية من أبيه بذلك . فإن المنصور سيف الدين أبا بكر ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، قد بويج بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه . وقد يكون هذا العهد تولد غير الابن الأكبر ، مثل عهد الناصر محمد إلى ولده المنصور المذكور .

غير أن مبايعة السلطان لا يمكن أن تتم في الواقع إلا بعد أن يتشاور الأمراء في الأمر فيما بينهم ، ويقع اختيارهم على من يصلح لذلك . سم إن هذه المشورة قد تستغرق زمنا . وفي خلال هذا الزمن يحكم الممالك البلاد بلاسلطان فبعد ممات لاجين ، دبر الأمراء

الأمر ، حتى عاد الناصر . وقد بقيت السلطنة شاغرة يومين عقب انكسار السلطان « قانصوه بن قانصوه » واختفائه . ثم تولى السلطنة الأناطلي « جان بلاط » . وبعد قتل الغوري بقيت البلاد نحو خمسين يوما بلا سلطان ثم تولى السلطنة « طومان باي » .

وقد درج أمراء الممالك — بعد وفاة السلطان أو خلعه أو قتله مثلا — متى أن يعقدوا مجالس للشورى ، يتبادلون فيها الرأي فيمن يصلح للسلطنة . حتى إذا ما انعقد على شخص ما ، أحضره في حفلة رائعة ، يتقدم فيها الخليفة ثم القضاة بمبايعته . والأمراء له الأرض ، بعد أن يلبس شعار السلطنة ، ويحمل في موكب ، وعلى رأسه القبة والطير ، إلى أن يجلس على كرسى السلطنة . فتجرى رسوم الحفلة المذكورة وعلى إرهابها يوزع عليهم الخلع والعطايا والوظائف السنية ، فيرقى من يشاء ، ويقرب من يشاء ، ويعزل من يشاء . فإذا وقع اختيارهم ، على معهود إليه بالملك من أبيه المتوفى مثلا أو على ابنه أو أخيه ، ولو لم يكن معهودا إلى أحدهما ، ولو كان صغير السن — أقاموا له رسوم التولية وقبلوا له الأرض . غير أنهم لا يستمرون على طاعته ، إلا بمقدار ما في هذا الاستمرار من نفع شخصي لهم . لالأنه وارث شرعي للسلطنة ، ولا لالأنه أصبح ذا حق قانوني فيها ، ولا لالأنه واجب الطاعة ، ولا لالأن في طاعته مصلحة عامة للشعب ، تهون في سبيلها المصلحة الخاصة ... وإذا شعر أحد الأمراء أو فريق منهم ، بأنه لم ينل في عهد السلطان الجديد مآربه ، أو أنه إذا انتقص عليه وثار في وجهه ، ينال من يخلفه هذه المآرب ، فسرعان ما ينتقص عليه ويشور في وجهه ، ويدبر له المكائد ، ويضخم عيوبه ، وينشر مثالبه ... ثم قد تمكن الفرصة هذا الثائر — وكثيرا ما تمكنه — من أن يطغى على سلطانة ، فيقتله أو يسجنه أو ينفيه من الأرض ، ويحل غديره محله . وقد يكون هذا الغير ممن لا يمتنون إلى بيت الملك السالف بصلة ما . وهكذا .

ومن السلاطين من كان صغير السن ، ولذلك طمع فيه الطامع بسرعة ، وثار في وجهه ، ونزعه من السلطنة وتولى من بعده رجل جديد . كما وقع في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، حينما تولى أول مرة ، وسنة تسع سنوات ، فحكم أحد عشر شهرا ، ثم خلعه « كتيبغا » المنصوري ، وتولى بنفسه السلطنة عام ٦٩٤ هـ . وكما وقع في عهد الملك الصالح « أمير حاج بن شعبان » ، حفيد قلاوون ، حينما تولى أول مرة وسنة إحدى عشرة سنة . فحكم نحو سنة وسبعة أشهر ، ثم خلعه « برقوق » العثماني وتولى بنفسه السلطنة عام ٧٨٤ هـ وأسس الدولة المجركية .

ولم تذكر هناك نظم للوصاية على السلاطين الصغار تحفظ حقوقهم في الملك ، وتنشئهم
تنشئة ملكية مناسبة ، تؤهلهم لأعباء السلطنة المقبلة . ويندر أن تجد سلطاناً
ترك من خلفه طفلاً صغيراً يلى السلطنة من بعده ، ثم أوصى عليه أحد الأمراء
الكبار . وإذا ما أوصاه فيغلب أن ينزع الملك منه - مع العلم بأنه روى ما يفهم منه
أن مجالس الوصاية كانت معروفة في تلك العصور . فإن الملك المظفر صاحب حماة
والمتم في عام ٦٤٢ هـ ، قد ترك من خلفه ابنه محمدا المنصور ، وسنه عشر سنوات .
فأقيم عليه مجلس وصاية مكون من أربعة رجال من أفذاذ مملكتهم منهم شيخ شيوخ حماة
شرف الدين « عبد العزيز الأنصاري » . وكان هذا المجلس يرجع في رأيه إلى أم الملك (١) .
هذا مع أن مملكة حماة كانت إحدى أقسام الدولة المصرية الواسعة في زمن المماليك .
ولم يروا ابن إياس في بدائعهم من أخبار الوصاية إلا لحاح يشعرون منها المرء أن نظام
الوصاية لم يكن مرعياً : وما رواه ما ذكره في ترجمة الناصر حسن قال : « في سنة
٧٥١ جمع السلطان حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ورشد نفسه واستعذر
الأوصياء فأعذروا له في ذلك » .

وحقاً كان يعاون الملك الصغير كبير من الأمراء ، أتابكياً أو نائب سلطنة أو غير
ذلك . فيصرف له شئون الدولة . ولكن مع هذا كله ، كان الملك الصغير يجلس مع
الأمراء مجلس السلطان ، وتقدم إليه الأوراق الرسمية ، فيمهرها بتوقيعه الكريم ...
ويرقى من يشاء ويعزل من يشاء ، كما يفعل السلطان الكبير تماماً ، ولو أن تصرفه
هذا كان صورياً . فقد روى (٢) أن الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون تولى
الملك عام ٧٤٨ هـ فأهدى خلع الوظائف ، وألقاب الإمارة إلى من شاء وعمره ١٣
سنة . وروى : أن الأشرف بك بك بن الناصر محمد بن قلاوون ولي الملك عام ٧٤٢ هـ
وسنه سبع سنوات ، فتصرف في الأحكام صغيراً ، وعارنه الأتابكي « قوصون » .
فكان إذا احتاج إلى توقيع السلطان أخذ « قوصون » بيد « بك بك » والقلم فيها ،
ويريه كيف يوقع على المراسيم والمناشير ، وهكذا كان الحال في عهد غيرهما
من السلاطين الصغار .

١ - كتاب تاريخ « حماة » للصابوني .

٢ - عن ابن إياس ج ١ - ١٩٠ و ١٧٧ .

هذا ، وإذا اختار الأمراء عليهم سلطانا ، فالمفروض أنه سلطان مدى حياته . ويستمر سلطانا فعلا مدى حياته ، حتى تصادفه وفاته الطبيعية . إلا إذا عاقته ثورة جاحية ، تكون فيها عاقبته ، من خلع أو سجن أو إعدام أو نفي أو اختفاء . ويندر أن يخلع سلطان بغير ثورة ، أو نزاع بين أنصاره وأعدائه . كما يندر أن يولى سلطان تولية مؤقتة ريثما يعين سلطان سواه تعيينا دائما . . . ١ فقد حدث ذلك مرة واحدة في تاريخ دولتي الممالك ، حينما خلع الملك المؤيد أحمد بن إينال عام ٨٦٥ هـ وأرسل الثائرون إلى الأمير « جانم » نائب الشام ليتولى السلطنة . ثم ولوا فيها مؤقتا الأتابكي « خشقدم » ، فتلعب بالظاهر ، وانتظر الجميع عودة « جانم » ، ولكنه أبطأ في العودة ، فساعدت المقادير الظاهر « خشقدم » ، على أن يثبت في سلطنته ، بعد أن كان فيها خارجا عن هيئة عمال الحكومة . . . ١ ولبت يحكم نحو ست سنوات ونصف . والأمراء هم أصحاب الأمر في تولية السلطان . ولكن ذلك لا يتم بناء على قانون موضوع وقواعد مدونة محكمة ، وإنما هو العرف جروا على اتباعه . أما الجند فهم من ورائهم بشدون أزرهم وليس لهم رأى فعلى قاطع وقت الشورى في أمر السلطنة . وإن كان الأمراء يرعون حينما اتجه رأى الجنود . ومع ذلك فقد تدخل الجنود في التولية في أخريات الدولة الجركسية . ومن ذلك تدخلهم عقب اختفاء الظاهر بن قانصوه عام ٩٠٥ هـ في أمر من يخلفه . فقد كان أمامهم ثلاثة مرشحوين ، هم : الأمراء « ناني بك الجمالي » ، والأتابكي « جان بلاط » ، والدوادار « طومان باي » . وكان هناك مرشح رابع أيضا وهو الأمير « قانصوه خمسمائة » ، الذي قد ملك آنا ولم يثبت ملكه ولم يعترف به فاخترى . - فنادى الجند على « قانصوه خمسمائة » ، إذا أراد أن يظهر من خفائه ، فليظهر ، لتسند إليه السلطنة . فلم يظهر . ثم عرض اسم « ناني بك الجمالي » ، فرفضه الجند ، ثم انحصر الأمر بين الأميرين « الصديقين » « جان بلاط » ، و « طومان باي » . وكان « طومان باي » ، مقربا من الجند ورغبتهم متجهة إليه ، فعرض اسم « جان بلاط » ، للسلطنة فلم يرضه الجند . ولكن « طومان باي » ، تعصب له وأماهم إليه - الحاجة في نفسه - فاستقر الرأى على اختيار « جان بلاط » ، في السلطنة . فكانت سلطنته تمهيدا لسلطنة « طومان باي » ، إذ خرج عليه وحاربه وهزمه وتولى مكانه (١) .

والأمراء كذلك هم أصحاب الأمر في خلع السلطان ، وإزاحته عن السلطنة بأى

شكل ، ويندر أن يتم ذلك بدون فتن ومؤامرات فيما بينهم ، ينقسمون فيها فريقين : فريقاً مع السلطان وفريقاً عليه ، يحتربان حتى ينتصر أحدهما . أما الجند فالغالب أنهم ذوو رأى مرعى وذو أثر فعلى فى مسألة خلع السلطان أو إبعاده عن كرسيه ، لأنهم هم الذين يعززون الفريقين المحتربين من الأمراء ، فقد خلعهم فى الخلع أكثر من تدخلهم فى التولية .

وهناك عنصر ثالث فى تولية السلطان ، وهو الخليفة والقضاة الشرعيون الأربعة . فلا بد لتسام التولية من حفلة مبايعة — كما ذكرنا — يتقدم فيها الخليفة أولاً إلى السلطان المختار فيبايعه بالسلطنة . ثم يتبعه القضاة فيبايعون ، ثم من بعدهم الأمراء . ولا تتم تولية السلطان بغير ذلك .

غير أن الخليفة والقضاة ليسوا ذوو رأى مرعى فى التولية أو الخلع ، وإنما هم مأمورون فيؤدون ما أمروا به ، ولا قدرة لهم على الامتناع عن المبايعة ، أما دامت مشورة الأمراء فقد تمت . ومن السهل إذا ما حدثتهم النفس بالامتناع عن المبايعة — وهى لا تحذهم — أن يصرفوا عن وظائفهم وبقائهم سواهم فيقوم بما يطلب منه من المبايعة على خير وجه مرضى .

وقد اشتد نزاحم الأمراء حول منصب السلطنة ، وكثير تطلعهم إليه وتشوفهم نحوه . وبسببه كانت ثغور ثائرتهم وتدبر مؤامراتهم . مع العلم بأن هذا المنصب الشائك كان كثير الأعباء ، وهو حمل ثقل على عاتق حمله لأنه قل أن يسفله إلا مخلوعاً أو هنياً أو مسجوناً أو مقتولاً . فوق ما يلاقيه فى حياته من أذى المؤامرات والفتن ، أو مسؤوليات الحروب أو غير ذلك . ومن الطريف أن تنص فى هذا المجال ، ما وصف ابن إياس به الشهابى « أحمد بن العيى » إذ روى أنه كان يقلد السلاطين فى معيشته ، حتى أطلق عليه « عزيز مصر » . وعرض اسمه مرة للسلطنة ، ولكنه لم يتم سلطنته ، وقد لطف الله تعالى به حيث لم يل السلطنة لئلا يقضى عمره كله فى القيد والسجن إلى أن يموت (١) .

ولذلك كان بعض السلاطين يتأبى على الأمراء ، حين اختياره للسلطنة ، ويمتنع عن قبولها خوفاً من أعبائها ، ورهبة من مسؤولياتها . ومنهم الغورى الذى قيل إنه

امتنع عن قبولها ، وألبسه الأمراء خلعة السلطنة ، ودعمه يجرى رهبة منها . - ولذلك كان بعض السلاطين يلجأ إلى دعوة الأمراء الذين اختاروه للسلطنة إلى أن يقسموا له يمين الطاعة والولاء والإخلاص على المصحف العثماني ، فيقسمون والله يعلم ما تنطوي عليه قلوبهم من أهواء . . . ١

وقد يكون ضرباً من ضروب التسلية أن نذكر للقارئ كيف تم اختيار الأمراء للأشرف ، طومان باي ، آخر الملوك الجركسية ، وكيف قبل السلطنة وذلك عام ٩٢٢ هـ . فإنه حينئذ رجعت فلول الجيش المصري بعد هزيمة الغوري في « مرج دابق » وبعد قتله . وقع إجماع الأمراء ، على سلطنة « طومان باي » ، وكان نائب غيبة . فامتنع عن قبولها ، وأصر الأمراء على توليته ، وهو يمتنع . ثم ركب هو والأمير « علان » وجماعة من الأمراء ، وتوجهوا إلى كوم الجارح - خارج القاهرة - عند الشيخ « أبو السعود الجارحي » ! فلما جلسوا بين يديه ، عرض الأمراء عليه الأمر ، وذكروا تمتع « طومان باي » عن السلطنة . فأبدى « طومان باي » غدره ، واحتج بأن خزائن بيت المال خاوية على عروشها ، وأنه لا يقبل السلطنة إلا إذا تعهد الجنود والأمراء بالأيطاء بوجه بمفقة ، وأن الجميع رهن لإشارته ، لا يخونونه ولا يعصونه إذا استعد للحرب ، بمناسبة زحف العثمانيين على البلاد . ولما تراضى الجميع بين يدي الشيخ ، أحضر لهم مصحفاً شريفاً فأقسموا عليه بما تراضوا عليه وتواصوا به - ثم جرت بعد ذلك رسوم التولية كالمعتاد . . . ١ وهكذا تدخل الأوامر الصالحون في تنصيب سلطان البلاد ١

بعد أن تبين لنا ملائسات السلطنة من تولية وخلع وما لهما ، نستطيع القول إن عدم وضع نظام ثابت مقرر مرعى لوراثته الملك وطريقة الحكم ؛ كان من أهم أسباب الاضطراب والفتن في دواشي الممالك . وأعنى نظاماً آخر غير ما اتبعوه . على أن النظام الذي اتبعوه ، يعتبر فذاً وعجيباً في التاريخ ، ووحيد نسجه . وقل أن نجد منه ضرباً في تاريخ الحكم وأدواره ، في أية أمة من الأمم . فلا هو ملكية وراثية ، مطلقة أو مقيدة . ولا هو جمهورية شوروية ، يرأسها فرد أو جماعة من المستبدين أو غير المستبدين .

ولعله أقرب شهاً إلى حكومات الأشراف ، وهي التي عمادها بضعة نفر من الأنداز والروس ، في الطبقات العالية من الشعب . يقومون معاً متعاونين على حكم الشعب ،

وخدمة شئونه الاجتماعية والاقتصادية .

غير أن هذا القياس لابد فيه من بيان الفارق . إذ الأشراف في اليونان القديمة مثلاً ، وخاصة في إسبرطة وأثينا قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، كانوا من الشعب نفسه ، ومن صميمه ، وإن كانوا طبقة ممتازة من طبقاته . فهى تغار على الشعب غير طبيعية غير مجلوبة ، وتعطف عليه عطفاً عميقاً لا كلفة فيه . بل وكانت تعتبر نفسها صاحبة الوطن الأولى ، والمكلفة حراسته ، وتوجيه كل طبقة من طبقاته إلى خير المجموع ونفعه . وبينما كانت هذه الطبقة الممتازة الحاكمة المذكورة من « أشراف ، الشعب ، إذ كان بين طبقاته عدد من « الأرقاء ، يعملون في فلاح الأرض . هذا كان في بلاد اليونان . أما في مصر فقد كان المالك طبقة طارئة على الشعب من الخارج ومن أمم شتى . فليست من صميمه ، ولا هى إحدى طبقاته التى قسمته إليها الأحداث الطبيعية والعوامل الاقتصادية . ثم إنها طبقة متجددة ، وتجدها يفد عليها من الخارج عادة ، ومن أسواق الرقيق ! ثم إنها طبقة « أرقاء ، أما طبقات الشعب الأخرى فهى من « الأحرار » . لو أن طبقة المالك كانت من صميم الشعب ، مولودة منه وناجحة عنه . أولوا أنها كانت طبقة طارئة عليه ، ولكن محدودة ، ثم أقامت هى وسلالاتها في هذا الوطن زمنات طويلة ، بغير أن يكون لها مدد أجنبي من الخارج ، اطبعت بالطابع المصرى الصحيح ، ولجرت في دماها الجنسية المصرية الخاصة ، ولأصبحت تغار على مصر ، لأن مصر وطنها المحبوب ، لا ليملكها المحمى . ولأها البلاد العزيزة ، لا الضياع الخاصة .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا : إن حكومة المالك ، كانت خليطاً متمازجاً عجيباً ، من نوعين متمافرين . هما : حكومة الأشراف ، وحكومة الطغاة . فإن الطبقة الحاكمة هنا هى « طبقة المالك » ، وأمراؤها هم الذين بيدهم الأمر والنهى في البلاد وهم الذين يختارون سلطانها . لحكومتهم « حكومة أشراف » . ثم إن السلطان الذى يولونه ، يلبى بعد ذلك كل الأمور بنفسه ، وقل أن يستشير ، وإذا استشار فبمحض إرادته ، وهو غير متقيد بقانون ما . فيعمل ويتخذ أن المصلحة فيما يعمل ، لحكومته « حكومة طغاة » .

أما الشعب — وقد كان يتكون من عناصر وأجناس شتى ، مما خلفته في البلاد العصور المنصرمة — فلا وجود له هنا ، ولا صوت له ، ولا مظهر لإرادته في إدارة بلاده ، وإنما هو آلة صماء يؤمر فيفعل ، وتفرض عليه الضرائب فيدفعها ، لا لأنها تنفق في المصالح

العامة وفي حاجات البلاد ، بل لأن الذى يفرضها عليه قوى غليظ القلب ، لا يجب إلا الطاعة إذا أمر . ولذلك توقف البعض عن دفع الضرائب خلال الزحف العثماني لانشغال الماليك به ، حتى يرى لمن ستكون البلاد فيؤدى إليه حينئذ ما عليه من الضرائب ...! واصل المظهر الوحيد ، الذى يمكن أن نعتبره مظهرا لإرادة الشعب ، هو اشتراك القضاة فى حفلة مبايعة السلطان — لأن هؤلاء القضاة ، من طبقات الشعب الأخرى غير طبقة الماليك . ومع ذلك قد علمنا أنه لم يكن فى مقدورهم ، الامتناع أو التحلف عن الحضور أو المعارضة ، فليس لهم فى ذلك صوت مسموع . حتى إذا كان بينهم رجل قوى الشكيمة ، حديد رأى ، صلب العزيمة ، ورج القلب ، ذوغيرة على مصالح المسلمين ، وأراد أن يتوقف عن البيعة ، فإنه يستطيع ، وسرعان ما ينظر فى أمره ويحاج إلى طلبه . والغالب أنه يتوقف فى أمور شكلية ، لا تمس صميم المبايعة ، ولا تعبر عن كرامة الشعب باعتباره شعبا .

ومن أمثلة ما يحكى فى هذه المناسبة عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، شيخ الإسلام فى عهد الظاهر بيبرس . أنه جلس فى صدر المجلس الذى بايع بيبرس بالسلطنة وامتنع عن مبايعته ، وقال له : ياركن الدين ! أنا أعرفك بملوك البندقدار فما بايعه حتى جاءه من شهد له ، بخروج بيبرس عن ملك البندقدار ، الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ثم أعتمقه .

أقول : لقد كان الشيخ عز الدين ذا مهابة وجراءة فى الحق ، وكان يلقب بـ«سلطان العلماء» . قيل : لأنه لما توفى كان بيبرس ينظر إلى جنازته ، وهو واقف بالقلعة ، ثم قال : ما استقر ملكي إلا الآن ...

ثقافة الممالك وتربيتهم

نقصد بكتابة هذا الفصل أن نرسم صورة موجزة ، ولكن واضحة ، نبين فيها طرق التربية التي اتبعت في تثقيف ممالك مصر في هذا العصر الذي نحن بصدده ، ونتائج هذه التربية ، مع بيان طرق استخدامهم بعد الانتهاء من عهد التربية الرسمي .

وقد كانت الرغبة في العصور الوسطى منصرفة في الدول التي كثر استخدام الرقيق فيها ، من سبائا الفرس والترك والروم ، إلى الانتفاع بهم في أعمال الخدمة في القصور ، وماشابه تلك الخدمة خارج القصور ، والتسرى بالجوارى الجيلات ، أو الانتفاع بمواهبهن في الخدمات المناسبة . ولم يعن بتربية الذكور تربية جنسية منظمة استعدادا للانتفاع بهم في الحروب . إذ كان الجنس العربي مختصا وحده بهذه التثنية دون سواه ، بدافع العصبية العربية . وبتوالي الأيام تداعت هذه العصبية ، واحتاج بعض الخلفاء إلى اتخاذ الجنود من الأجناس الأخرى غير العربية ، وبني الممالك منهم المدن الخاصة . فبدأت من ذلك الحين تمتد العناية إلى الأرقاء ويهتم بتربيتهم تربية جنسية منظمة .

وأول عناية انصرفت إلى تربية ممالك مصر ، الذين تولوا قيادها بعد انقضاء عصر الأيوبيين ، كانت عناية الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فقد راعه بما ليكه بإخلاصهم له ، حينما قبض عليه أعداؤه من ذوى قرابته ، وبخنوه بالسكر ، فبقى حوله هناك ممالكه ، وكانوا ثمانين رجلا . حتى أطلق وعاد إليه ملكه وجلس على أريكه مصر بمعاونتهم ، فعظمت مكانتهم لديه . وحينما استتب له الأمر في مصر ، أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطانته (١) . قيل : فلما زاد شعبهم على الناس ، وعيبتهم ببضائع التجار ، وارتفعت أصوات القاهريين منهم بالشكاية ، بنى لهم الملك الصالح قلعة خاصة ، وهى قلعة الروضة . فأصبحت لهم بمثابة الشككنات العسكرية ، وأمرهم بالآيائلوها وألا يخالطوا الناس . وقلعة الروضة المذكورة تسمى قلعة المتعاس أيضا ، وقد زودها الملك الصالح ، بكل ما يحتاج إليه ممالكه من زاد وأسلحة ، وبني حولها البسانين وجعلها خير تجميل (٢)

١ — عن خطط المقرئى جزء ٣ ص ٣٨٤ « ذكر دولة الممالك البحرية » وكذلك تحت

عنوان « الطباق بساحة الأيوان » ج ٣ ص ٣٤٦

٢ — اقرأ خطط المقرئى ج ٣ ص ٢٩٧ « ذكر قلعة الروضة » .

وبلغ عدد من كان بهامن الجنود أقل من الألف ، ومنهم الأمراء عز الدين بن أيك ،
ويبرس البندقدارى ، وفارس الدين أقطاى ، وقلاوون الألفى ، وبلباى الرشيدى ،
وسنقر الرومى ، وغيرهم . وقد ملك من الأمراء المذكورين فى الدولة البحرية : عز الدين
ويبرس وقلاوون .

واطردت ثقافتهم طيلة عصرى الدولتين ، وكانت ترمى فى جوهرها إلى الاحتفاظ
بهم جنودا - هم والأرقاء الجدد الطارئون عليهم باستمرار - وذلك لأن دولتهم لن
نقوم إلا لما وجدت لها سواعد مفعولة ، وقلوبا تملؤها الشجاعة ، وعلا أمرتها
الدربة والمرانة فى ضروب القتال . فكان لابد لهم إذن من الاحتفاظ بهم جنودا على
أهبة الاستعداد لحوض المعامع والجروب ، والدفاع عن الوطن ، والذود عن حياض
الإسلام ، والاحتفاظ بالملك . يفزعون إلى حمل السلاح ، إذا ما نفخ فى الأبواق ،
وقرعت الكشوس . ولا يمنع هذا أن يتزود منهم من يشاء ، ومن يدفعه ميله الخاص ،
من موارد العلم وموائد الأدب . لذلك لا تعجب إذا لقيت منهم رب القلم ، أو ناظم
الشعر ، أو الفقيه الدارس لعلوم الدين .

ولما كانت الثقافة العسكرية هى برنامج تعليمهم ، ناسب أن نورد هنا بعض التفصيل .
وقد كان للسلطان ممالك ؛ يقيمون فى طباق قلعة الجبل ، يسمون « الممالك السلطانية » ،
هم أهم من تتجه إليه العناية بالثقافة . وقد كان للأمراء ممالك آخرون ، لكل واحد
منهم طائفة . وهؤلاء بلا شك أقل ثقافة ودربة من الممالك السلطانية .

والثقافة العسكرية المذكورة ، مرت فى ثلاثة أدوار : ١ - دور الصرامة ٢ - دور
التساهل ٣ - دور الأعمال .
وانتلكم عن كل دور منها .

١ - دور الصرامة

هو دور الأخذ بالشدّة ، وفرض النظم الدقيقة ، والسهر على تنفيذها ، بقسوة
لا تعرف سبيلا إلى اللين أو المصانعة . فهو دور الثقافة السكاملة .

وحقا ، إن قلعة الروضة قد تهدمت ، وقوض أركانها الملك المعز بن أيك ، وشدت
شمال ممالكها البحرية . وذلك لأنهم ضايقوه فى أول عهده بالسلطنة ، وأرغموه على
قبول أحد الأيوبيين شريكا له فى الملك . فرضى مكرها ، وصابرهم وصابر نفسه ، وعمل
على شراء ممالك له خاصة . حتى إذا ما رأهم قد أصبحوا من حوله كثرة ، يسهل التغلب

بهم على أعدائه من المماليك البحرية ، بغش بهم ، وقتل رهوسهم ، وشئت شمل الباقين منهم ، ففروا من وجهه إلى بلاد الشام . وقد ملك من ممالك المعز بن أيك : الملك المظفر « قطاز » . - ولكن المماليك البحرية ، عادوا من بعد ابن أيك إلى هذه البلاد ، حتى ملك منهم الظاهر « بيبرس » ، فأعاد بناء قلعة الروضة ، وأسكن بها عددا من الأمراء والجنود . ومع ذلك ، قد بقي عدد من البحرية مشتمين هم وأبناءؤهم ، حتى جمعهم الملك المنصور قلاوون ، وأسكنهم بأبواب قلعة الجبل ، بعيدا عن « البرجية » . لأنه كان قد ابتنى للمماليك الأخصاء بروجاً في تلك القلعة . جعلها بما جلبه إليها من بناء قلعة الروضة ، وأسكنهم بها وسماهم « البرجية » .

كانت بهذه البروج طباق مقسمة ، يسكن في كل طبقة منها أبناء جنس واحد من المماليك . ويشرف على ممالك كل طبقة « أغوات » أو طواشية ، و « زمامون » يهيمنون على تنفيذ الأوامر وتعليم المماليك . ولكل طبقة فقيه أيضا .

وأهم العصور التي سادت فيها الثقافة السكاملة : عصر المنصور « قلاوون » وابنيه الأشرف خليل ، والناصر محمد .

وينقسم التعليم في هذا الدور إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تبتدىء من عهد الصغر إلى سن البلوغ . فكانت المماليك تجلب صغار السن ، ثم يوضعون في الطباق تحت إشراف « الأغوات » ، فيقومون ببعض التمرينات الرياضية الهينة ، ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقنون آيات من الذكر الحكيم ، وضرباً من الفروض الدينية ، ويعودون الصلاة ، ويحفظون بعض الأدعية لتلاوتها في مناسباتها . ويحجب إليهم الدين والندود عنه ، والتخلق بكل جميل من الأخلاق .

المرحلة الثانية : وتبتدىء من سن البلوغ . وفيها يؤخذ المملوك بكل شدة ، فلا يتسامح معه إذا غلط أو هفا ، أو بدا منه شذوذ خلق . بل يعاقب على ذلك عقاباً قاسياً . ويقسم المماليك إلى طوائف ، وتوكل كل طائفة إلى معلم ماهر ، فيمرنها على السباحة في الماء ، واللعب بالسيوف ، والضرب بالرمح ، والقذف بالأطواق ، وركوب الخيل والعدو على ظهورها ، والمبارزة ، ورمي النشاب . ولعب الكرة - وقد تكون على ظهور الخيل - وليس هناك مانع من أن يخرج المملوك في وقت فراغه إلى مطالعة علم أو مدراسة أدب . ولذلك قد يتفقه أحدهم في الدين ، وقد يأخذ نفسه بنظم الشعر أو الكتابة .

ونهاية هذه المرحلة أبست محدودة بسن معينة ، بل هي رهن ظهور مهارة المملوك وبرز مواهبه ، ونضج خواصه .

المرحلة الثالثة : إذا ما برزت مواهب المملوك ، فنبه شأنه ، وذاع فضله ، وعرفت قدرته ، وسعة حيلته ، وشوهدت عليه ضروب الشجاعة ، وحسن البلاء في الرياضة العسكرية عرض ، واشترك في سباق أو مباراة أو حفل أو لعب ، أو سيق في عداد المحاربين إلى صفوف القتال - وتكون مكافأته في النهاية ان يعتق ، وترد إليه حريمه ، ويوكل إليه أمروضية من الوظائف الصغيرة ، ويكتب له إقطاعها . - والإقطاع عبارة عن جزء من الأرض يستغله صاحبه كما يشاء . أو يفرض له عليه مال معين - ويتمتع خيلاً وقاشاً ، وما شابه ذلك ، معاونة له على النهوض في حياته الحرة الجديدة . ويظل جندياً موظفاً ، فيترقى في سلم وظائف الجندية ، حتى يبلغ مبلغ الإمارة ، فيمنحه السلطان لقبها ، ثم يترقى في سلمها ، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة ، وقد تقذف به الحوادث والحظوظ إلى منصب السلطنة .

ولم يسمح للبلوك في هذا الدور ، أن ينزل إلى المدينة ، ولا أن يختلط بأهلها ، ولا أن يتزوج ، حتى يعتق .

وكانت السلاطين المعنية بملابس عماليك الطباق عناية محدودة ، وألبسهم بعضهم في بعض الأحيان الملابس الفخمة ، والمناطق الذهبية المزركشة . وقدمت إليهم المأكول والمشارب الشهية وكان المنصور «قلاوون» ينزل إلى مواضع الطعام والمطامح ، ويشهد الأطعمة بنفسه قبل تقديمها إلى المماليك . ولا يتساهل مع المتهاون في إعدادها ، إذا ما وجدتها ونا . وسمح لهم الإشراف « خليل » ، بالنزول إلى المدينة بعض النهار ، بلا تخلف إلى الليل . وعنى بتقسيمهم إلى طوائف حسب جنسياتهم . كما أسبغ عليهم الناصر « محمد بن قلاوون » كثيراً من النعمة ، وغالى في جلبهم . وكان يوصى تجار الرقيق ، بالعناية في اختيارهم من صغار الغلمان . ورفع أثمانهم حتى وصل ثمن الواحد إلى آلاف الدراهم ، ولذلك كان يسيل لعاب آباء الأطفال لهذا المال الوفير والخير الكثير . فيلقون بأطفالهم بين أيدي التجار ، ويوصونهم ببيعهم في مصر ، مهد النعمة الغزيرة والتربية العالية والمستقبل الزاهر . وسمح لهم الناصر بالنزول إلى حمامات المدينة مرة في كل أسبوع تحت عيون الرقباء .

وكانت نتيجة هذه التربية العسكرية الخلقية من خير النتائج . وقد صدق المقرئى إذ قال : « لمنهم كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبذلون فى إظهار الجليل . »

ويظهر أن هذا النظام الدقيق الذى أخذوا به فى هذا الدور كان طبيعياً ، إذ كانت الدولة فى بدء نشوئها ، ففيها كثير من الحيوية . والممالك الجديدة حديثو العهد بعظمة سلطنتهم ، فكان لابد من التشدد فى تربيتهم ، حتى تبقى دولتهم قائمة ، وسلطتهم منشورة ، ونفوذهم ممدودا . وعرف من الممالك فى هذه الفترة الأولى ، أناس اشتهروا بحب الألعاب الرياضية وبأعمال الفروسية ، ومنهم سلاطين مصر وكبار أمراءها . روى عن الملك السعيد « محمد بن الظاهر بيبرس » ، أنه توفى عتق عشرة عشرها فرسه أثناء لعبه بالكرة فكسرت أضلاعه ، وذلك عام ٦٧٨ هـ (١) . وروى عن « قطبجانب بلبلان الجوكندار » وكان من أمراء الأربعة بدمشق — توفى عام ٧٣٠ هـ — أنه كان فارساً بطيلاً خفيف الحركات . ويقال إنه عدا بفرسه ، فقطع نصف سرجلة من غصنها ، وبقي نصفها الآخر مكانه ، وكان ماهراً فى لعب الكرة (٢) . وروى أن « محمد بن بكتمر » المتوفى عام ٧١٠ هـ انتهت إليه الرياضة فى زمانه فى لعب الكرة ، فلم يكن من يجاريه إلا « علاء الدين قطبجانب » . فكانا إذا اجتمعا ، رأى الناس منهما العجائب . وكان الناصر « محمد بن قلاوون » يكرم محمداً هذا ، ويدعوه « أخى » (٣) . وقد كان للعب الكرة مواسم خاصة من السنة ، يزاوله فيها السلطان وخاصة أمراءه ، وقد كان الغورى يزاوله بالرغم من كبر سنه وإن تأخر عصره .

على أننا فى الواقع لسنا فى حاجة إلى الاستشهاد على فروسياتهم بدليل ما ، وأما منا حروبهم فى الدولة البحرية ، وإبقاعهم بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود الأوربيين . وبالتتار ، وهم الذين اكتسحوا أواسط آسيا . فأوقعوا بهؤلاء وهؤلاء ، المرة تلو المرة ، حتى ردوهم عن البلاد صاغرين .

هذا وقد قيل : إن مشتريات المنصور « قلاوون » بلغت ١٢ ألف مملوك . وقيل إنهم كانوا ٦٧٠٠ مملوك فقط . فأكلها ابنه الأشرف « خليل » ، إلى عشرة آلاف . وقيل اشترى الناصر

١ — عن ابن إياس جزء ١ ص ١١٤ — ٢ — عن الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٦٥١

٣ — عن الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ١٠٥٢

« محمد بن قلاوون » نحو ١٢ ألف مملوك . وبلغت ممالك جيوشه ، نحو ٢٤ ألف مملوك .
وكان لسلك أمير ممالكه في هذه الآونة أيضا . وروى أن ممالك الأمير « صرغتمش »
المتوفى عام ٧٦١ هـ ، في عهد الناصر « حسن بن محمد بن قلاوون » ، بلغت عدتها ثمانمائة
مملوك . وأن ممالك الأمير « يلبغا » العمرى الذى قتل عام ٧٦٨ هـ ، في عهد الأشرف
شعبان ، بلغت عدتها ثلاثة آلاف مملوك .

٢ — دور التساهل

هو دور التراخي وترك التشدد ، وإباحة أنواع من الحرية للممالك الطباقي ، وعدم
عصمتهم من التمتع بلذات كانت محرمة عليهم في الدور السابق . وظهر هذا الدور بوضوح ،
في عهد السلطان الظاهر « برقوق » العثماني ، مؤسس الدولة الجركسية . وقد استمرت فيه
التربية العسكرية التي وصفناها ، وأهم ما طرأ عليها التسامح في نزولهم من طباقهم إلى
المدينة ، وإباحة الزوج . فكان من أثر ذلك أن اختلطوا بالعوام وصاحبوا سفلة
الناس ، وعاشروا النسوة . فبدأ الترف الجسدى يكون محببا إلى نفوسهم ، وبدأت البطالة
تكون عادة ممقوتة لهم ، وبدأت ملكتهم الحربية تتعثر وتخور ، وفنوتهم العسكرية تنسى .
والجندى كان ولا يزال آلة صماء ودابة عمياء ، ما دام في نكباته وبين رؤسائه .
فإذا ما أترف ، وأبيح له النعيم ، انصرف إليه انصراف الملهوف ، وانكب عليه انكباب
الظالمى الصادى ، فلا يبقى على شيء ولا يذر .

٣ — دور الاهمال

وابتدا في عهد الملك الناصر « فرج بن برقوق » . ومنذ عهده لم توجه إلى تربية
الممالك العسكرية عناية كبيرة دقيقة ، كما كانت توجه إليهم من قبل . وترك لهم الحبل
على الغارب . وظن الناصر « فرج » أن إطلاق الحرية لهم ، سبيل إلى إتمام مواهبهم ،
وإذ كاه ملكاتهم . فليس ثم ضرورة إلى دفعهم لفقيه أو مؤدب . بل قيل : « استقر
رأى الناصر « فرج » على أن تسليم الممالك للفقيه يتلفهم » .
وقد قلت أجورهم ، وغث طعامهم ، وأعطوا جانباً من المال لينفقوا منه على
ما كلهم . فاختلفت في ذلك مشاربهم ، واتجهوا وجهات متباينة فسككت وحدتهم ،

وباعدت بينهم . ولم تعد تبذل في سبيل اختيارهم عناية ولا دقة . فاستقدموا كبار السن ، ومنهم من كان محترفا في بلده قبل وفوده إلى مصر .

وفي عصر الدولة المجركية ، كان السلاطين أحيانا يتوالون على العرش بسرعة . ويزولون بسرعة . ويغلب أن يتخذ كل سلطان لنفسه جماعة من المماليك جددا ، يطلق عليهم اسمه ، ويسكنون في عداد ساكني الطباق بقلعة الجبل ، يتعصب لهم السلطان ، ويتعصبون له . ويعنى بهم عناية خاصة لا يظفروا غيرهم من المماليك الآخرين . فتتج من ذلك أن تعددت أنواع المماليك ، فكان منهم — بمرور الأيام — في الطباق : مماليك مؤيدية ، وإيذالية ، وأشرافية ، وبرسبية ، وخشقدمية ، وغير ذلك .

وكانت الحدود والضغائن تفرق بين هذه الجماعات ، نتيجة للغيرة والتحاسد . ومن الطريف المناسب ذكره أن مماليك الأشرف قايتباي « الأشرفية » ، وأنوا بعد وفاته أن ابنه الناصر قد كون لنفسه جماعة جديدة من المماليك ، وسماهم « الناصرية » ، وصرف إليهم عناية حُرمتها الأشرفية ، فثاروا ، وأرغموا الأمراء والسلطان على تغيير لقبه وتلقبه بالأشرف ، كإبيه ، ليكون الجميع « أشرافية » ، فلا يفرق بينهم في المعاملة . وقد تم هذا التغيير فعلا . !

ولما شح عليهم السلاطين ، بالمال والرعاية والتربية الصالحة ، فسدوا وكثرت ثوراتهم . وكان أكثرهم ثورة المماليك « الجلبان » . وقد أمر الناصر « محمد بن قايتباي » ، بإضافة عدد من هؤلاء الجلبان ، إلى كل أمير لتأكل معه من إقطاعه ... ! فتأذى كل من الفريقين ، وكانت هذه الحالة أدعى إلى فساد الخلق .

وقد حاول بعض السلاطين كالغوري ، المحافظة عليهم ، وإعادة النظام إليهم ، ومنعهم من النزول إلى المدينة ، ووضع القيود لهم في سبيل الزواج ، وحظر مخالطة النساء عليهم . ولكن كانت الثغرة قد انفتحت ، وكانت النفوس قد جنحت إلى اللذة ، وأشربت حب العصيان ومخالفة الأوامر . ولذلك ذهب هذه المحاولات عبثا . وخولفت دون اكتراث . بل رأى أنه لما ناب الأمير طومان باي الداودار ، عن السلطان « الغوري » ، في السلطنة عند غيابه في حروب العثمانيين ، بالبلاد الحلبية ، لم يلزم أجناد الحلقة بالمبيت بالقلعة . ومن اشترى وجدد في المماليك ، في الدولة المجركية : الملك المؤيد شيخ ، فقد قيل بلغث بماليكه . المؤيدية ، خمسة آلاف مملوك . والملك الأشرف برسباي ، بلغت بماليكه

« البرسيمية » خمسة آلاف مملوك ، والمملك الظاهر « خشقدم » بلغت مائتيك « الخشقدمية » أربعة آلاف مملوك . وكان الملك الأشرف « قايتباي » مغرماً بشراء المماليك ، حتى قيل : إنه لولا الطواغين التي أصيبت بها البلاد في عهده لأصبح مجموع ما عنده ثمانية آلاف مملوك . وهكذا تعددت طوائف المماليك ، بتعدد الملوك واتجاههم وجهة حزبية خاصة في اقتنائهم .

ومع ضعف التربية العسكرية والخلقية في هذا الدور لم يترك السلاطين وكثير من الأمراء مزاوله ما أغرموا به قبلاً من ضروب المراتنة الرياضية . فلقد كان الأشرف الغوري — على الرغم من شيخوخته — لا يفتأ يلعب الكرة في مواسمها الخاصة هو وخاصة من الأمراء — كما ذكرنا — وكانوا يلعبونها وهم على ظهور خيولهم في ميدان القلعة ، وقد تصاحبهم الموسيقى وقت اللعب .

أما الجنود فقد كانت نتيجة النهاون في تربيتهم ، والإهمال في الإشراف الدقيق عليهم منذ نشأتهم ، واختلاط أجناسهم ، والبخل بالإتفاق عليهم وخيمة . فكثرت ثوراتهم وتآلبهم على السلطان ، فأصبحوا لا يطيعونه أو يعظمونه إلا إذا أشبع بطونهم من الطعام ، وأنخم جيوبهم بالمال . وانصرفوا عن التفكير في المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة . وضعفت فيهم الروح العسكرية ، حتى كانوا لا يخرجون إلى قتال إلا بعد رجاء وإلحاح من السلطان . وكانوا في أغلب أمرهم يبيومون بالخبيية . وقد كانت هذه الحالة من أهم ما عجل بسقوط الدولة الجركية ، ووقوع مصر غنيمة باردة في يد العثمانيين . إذ سقطت هيبة الدولة ، وتطلع إليها الطامعون . وهذا كله نتيجة فساد الجندية في العصر الأخير . وقد صدق المقرئى ، إذ قال في وصفهم : « وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس ، وأدناهم وأخسهم قدرا ، وأشتمهم نفسا . وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكبرهم إعراضا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أذن من قرد ، وأص من فأرة ، وأفسد من ذئب . » (١) . — هذا مع أن المقرئى توفي قبل انتهاء الدولة الجركية بنحو سبع وسبعين سنة . لأنه مات سنة ٨٤٥ هـ .

الرتب والمناصب الهامة في الدولة (١)

قال القلاشندى ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية ، لما خلفت الدولة الفاطمية خالفها في كثير من ترتيب الدولة ، وغيّرت معالمها . وجرت على ما كانت عليه دولة وحماد الدين زنكي ، بالموصل ، ودولة ابنه « نور الدين محمود » ، بالشام . ثم جاءت الدولة التركية ، وقد تنفّخت المملكة وترتبت . فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنفيذ الملك ، وقيام أجهته ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها . فسلكت سبيله ، حتى تهذبت ، وفاقت سائر الممالك . »
وفيه فهم ما كتبه في صبح الأعشى (٢) ، وكذلك المقرئى (٣) في خطط . وما نشره ابن إياس (٤) في ثنايا بدائعه . ما يلي :

أن مناصب الدولة — عدا منصب السلطنة — كانت مقسمة بين نوعين من الرجال هما : المتعممون ، والأمراء . وقد أطلق لفظ « المتعممون » ، على المثقفين من أبناء الشعب ، المتخرجين في المساجد ، النابغين في علم أو أدب . وهؤلاء يختار منهم : قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم ، وكتاب الدواوين ومعاونوهم ، وكتاب السروشيوخ المدارس والخوارج ، وما إلى ذلك . أى تركت لهم مناصب القضاء والكتابة والتعظيم وما يتصل بها . ول هؤلاء أجور ودرائب وضروب من المعونة يمنحونها من أوقاف أو نحوها لقاء أعمالهم . أما الأمراء ، فأصلهم — كما بنا — من معوقى الممالك ، الذين سميت بهم همتهم وحظهم ، إلى مرتبة الإمارة . ولكل واحد من هؤلاء إقطاع يمنحه فيستغله وفق هواه ، أو يتناول منه مالا معيناً . ويتغير إقطاعه ، ويعطى أوسع منه ، كلما ترقى . ويرد الإقطاع إلى السلطان لينحله لأمر آخر ، إذا توفي صاحبه أو عطل .

ويعتبر الأمراء جميعاً أعضاء عاملين في الجيش « ضباطاً » ، لإلّا من غضب عليه السلطان منهم ، فنفاه وجعله « طرخاناً » : أى عاقلاً بلا عمل . ولكل أمير رئاسة على طائفة من

١ — اعتمدنا في هذا الباب على ج ٤ من صبح الأعشى ، وج ٣ من خطط المقرئى ، ومتفرقات في بدائع ابن إياس وسلوك المقرئى .

٢ — ج ٤ من صبح الأعشى تحت عنوان « من أحوال المملكة ما عليه ترتيب الملكة ... الخ »

٣ — ج ٣ من المخطوط ص ٣٤٨ تحت عنوان « دار النيابة » وما بعدها

٤ — حوادث عام ٩٠٨ هـ ، ٩٢٢ هـ بدائر الزهور .

الجنود محدودة ، حسب مرتبته . ومن هؤلاء الأمراء من يشغل — بجانب إمارته — وظيفة من وظائف الدولة ، أو أكثر . ومنهم من يكون بلا وظيفة . والوظائف التي توكل إلى بعضهم ، هي ماعدا وظائف القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بهما اختص به « المتعممون » . فغيرها ، مقصور على طائفة الأمراء دون سواها ويندر أن يوظف في إحداها متعمم ، إلا إذا كانت عملا كتابيا .

ومراتب الإمارة — في الغالب — أربع . وهي :

١ — أمير مائة ومقدم ألف : ويرأس مائة فارس ، وقد تزيد . ويتقدم ألف أمير ، من دونه في المرتبة . ويبدولنا أنه تقدم أدنى لا غير . وهذه المرتبة أرفع مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها نواب السلطنة ، وأكبر موظفي الدولة مثل الأتابكي وحاجب الحجاب . — وبلغ عدد الأمراء المقدمين في أيام الناصر بن قلاوون أربعة وعشرين ، ثم نقص هذا العدد أو زاد قليلا . وبلغ في عهد الغوري نحو ستة وعشرين أميراً .

٢ — أمير طبلخاناه : ويرأس أربعين فارسا ، وقد تزيد . وهذه المرتبة ثانية مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها موظفون أقل خطرا من سابقيهم ، وكشاف الأعمال . وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له . وقد بلغ في عام ٩٠٨ هـ ، نحو خمسة وأربعين أميراً ، كان منهم عشرة موظفون ، والباقي بغير وظيفة .

٣ — أمير عشرة : ويرأس عشرة فرسان ، وقد تزيد . ويختار من طبقتها أصاغر الولاة والموظفين . وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له أيضا . وبلغ في عام ٩٠٨ هـ نحو مائة وثمانين أميراً .

٤ — أمير خمسة : وهم قلائل ، ويعتبرون كأكبر الجنود .

ورتب الإمارة رتب عسكرية ، وتمنح عادة في حفل عظيم . وبخاصة عقب حفلة تولية سلطان جديد . وقل أن تمنح ألقاب الإمارة لأحد من أبناء السلاطين ، بل يعرفون بالآسياد . ويقال لأحدهم : سيدي فلان .

والمملوك إذا اكتمل شبابه وأينع ، وأظهر كفاءة ونشاطا ، أعثق ، ومنح لقباً من ألقاب الإمارة — وهو أمير عشرة غالبا — ثم يعطى خيلا وقاشا ومالا ، ويفرد له إقطاع جديدة مناسبة للقبه . وبعد زمن يقضيه في نشاط مستمر ، يرقى إلى أمير طبلخاناة ، وبعد زمن آخر يرقى إلى أمير مائة ومقدم ألف ، وهكذا غالبا .

ويتكون الجيش من هؤلاء الأمراء ، ومعهم الجنود . والجنود أنواع ، وأهمها

وأوسعها عدداً ، المماليك السلطانية ، وهم من تحدثنا فيما سبق عن ثقافتهم . وكثيراً ما يتخذ بعض الأمراء حاشية لنفسه وجندا ، من ممالك أخصاء يشترهم بماله الخاص . يعينونه إذا انتزك في حرب أو فتنة .

أما الوظائف التي يلها بعض هؤلاء الأمراء ، فكثيرة . ولا نقصد هنا أن نستوعبها ونلتصق الأحوال التي تقلبت فيها . وإنما نذكر بعضها لحسب . فمنها :

١ - النيابة : وهي ثلاثة أنواع (أ) نيابة السلطنة (ب) نيابة الأقاليم (ج) نيابة الغيبة .

(أ) نيابة السلطنة : هي أرفع مناصب الدولة . ويدعى شاغلها « نائب السلطنة » ، ويقال له أيضاً « النائب الكافل » ، و « كافل الممالك الإسلامية » . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويؤشر على ما ينبغي أن يؤشر عليه . فهو - في الواقع - الحاكم الفعلي وليس للمملكة إلا نائب سلطنة واحد . وسنتحدث عن النيابة بتفصيل .

(ب) نيابة الأقاليم : كانت المملكة مقسمة إلى عدة أقسام ، هي وتوابعها ، كالبلاد الشامية والحلبية . ويقال لكل قسم « نيابة » . ويحكم كلا منها « نائب » ، يختار من كبار الأمراء . فكان مثلاً لكل من الشام وقلعة دمشق وحلب ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، والكرك ، والإسكندرية ، « نائب » . وأعظمهم جميعاً « نائب الشام » .

وما يذكر أن نواب « حماة » من بنى أيوب أبناء المظفر ، أطلق عليهم لفظ « ملوك حماة » ، أيام الناصر محمد بن قلاوون تكريماً لهم .

(ج) نيابة الغيبة : وهي نادرة ، ولا تكون إلا إذا خرج السلطان ونائبه في غزاة خارج البلاد . حينئذ ينصب أحد كبار الأمراء ، « نائب غيبة » يقوم بالمهام حتى يثوب السلطان .

٢ - الأتابكية : ومعناها إمارة الجند . ويقال لشاغلها « أتابك » ، « وأتابكي » ، « وأتابك العساكر » ، وهي تلي رتبة نيابة السلطنة في الأهمية . وقد تضارعا ، وقد تميزا ، كما سنبينه .

٣ - الحجوبية : ويسمى شاغلها « حاجب الحجاب » . ويختار من أكابر الأمراء المقدمين . وهو حاكم وقاض كبير له أعوان . ويفصل في المنازعات التي تقع بين الجنود والأمراء ، وفي قضايا الدراوين السلطانية . ولمنصبه أهمية كبرى ، حتى قيل إنه يلي نيابة السلطنة في الأهمية . وقد اتسع اختصاصه بتوالي الأيام حتى فصل في المنازعات المدينة ، بل وفي

بعض القضايا الشرعية . والتي تقع بين أفراد الرعية ، لابين الأمراء والجنحفسب . وذلك من باب استردار الأموال من المتخاصمين . وقد وسوس له اتساع الاختصاص وحب المال أن يقضى وفق هواه بغير مراعاة لأحكام الشرع وستحدث عنه في باب القضاء .

٤ — أمير مجلس : ويوكل إليه أمر الأطباء ومن إليهم .

٥ — أمير سلاح : وهو رئيس السلاح دارية من الممالك السلطانية . يوكل إليه الأمر الأسلحة السلطانية ، وحمل السلاح للسلطان في الأوقات الجامعة .

٦ — أمير أخور : يوكل إليه النظر في الاصطبلات السلطانية وخيولها .

٧ — رأس نوبة : يوكل إليه الحكم على الممالك السلطانية ، وكنج جماعهم .

٨ — الاستادار : يوكل إليه النظر في بيوت السلطان جميعها ، والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه ، وينفق على بيوته ومن فيها . ويدبر له ما يحتاج إليه .

٩ — الدوادار : يبلغ رسائل السلطان ، ويقدم إليه المظالم والأخبار ونحوها ، وينظر في المقابلات السلطانية . ويقدم البريد إلى السلطان مع كاتب السر وأمير جاندار ، ويطلب توقيع السلطان على المناشير والرسائل ونحوها .

١٠ — أمير جاندار : يعاون الدوادار وكتاتم السر ، ويستأذن الأمراء في الدخول إلى السلطان ؛ وينظم مواكب السلطان حين سفره ، ويتسلم بعض المغضوب عليهم فيعتقلهم في الزردخانه ، وهي تحت إشرافه .

١١ — الجاشنكير : ينظر في الموائد السلطانية ، مع الاستادار .

١٢ — الخازندار : ينظر في خزائن الأموال السلطانية ، تحت إشراف ناظر الخاص .

١٣ — شاد الشرابخانة . ينظر في المشارب السلطانية وما فيها من فاكهة وحلوى وأشربة .

١٤ — استادار الصحبة : ينظر في المطابخ السلطانية ، ويشرف على الإطعمة وتنظيم الموائد .

١٥ — مقدم الممالك . يشرف على الممالك السلطانية ويحكم فيهم .

١٦ — الزمام : يشرف على تربية الممالك السلطانية .

١٧ — نقيب الجيش : ينظم الجند ويزينهم وقت الرض . ويحضر إلى السلطان أو نائبه من يحتاج إليه من الأمراء وغيرهم .

١٨ — المهمندار : يقابل الرسل والوافدين إلى الأبواب السلطانية ، من داخل البلاد أو خارجها .

١٩ — شاد الدواوين : وهو يُعين الوزير في عمله ، ويستخلص الأموال ونحوها .
 ٢٠ — شاد العماير : يوكل إليه أمر العماير السلطانية ونحوها ، فيبنى أو يحدد .
 ٢١ — والى القاهرة : يقوم بالحفاظة على الأمن في هذه المدينة . وهو بمثابة المحافظ .
 الآن . وللنواحى الأخرى ولاية غيره .

٢٢ — الكاشف : وهو ضرب من حكام الأقاليم .

٢٣ — الوزير : ينظر في الأمور المالية وتحصيل المال وصرف النفقات وتعيين المباشرين . وكانت هذه الوظيفة جليلة الشأن ، وكان صاحبها قريبا من السلطان ، ثم تناقص خطرهما وألغيت حينئذ . ويعاون الوزير أحيانا : شاد الدواوين وناظر الدولة . ويقوم مقام الوزير في عمله . ومستوفى الصحة ، ويعد المراسيم أيوقع عليها السلطان .

٢٤ — ناظر الخاص : وظيفة أحدثها الناصر بن قلاوون لما أبطل الوزارة . وموضوعها : النظر في كل ما يتصل بمال السلطان الخاص . وأصبحت كالوزارة . ولشاغلها أتباع من كتاب ديوان الخاص ، كـ مستوفى الخاص . وناظر خزانة الخاص .
 ٢٥ — ناظر الجيش : وعمله النظر في أمر الإقطاعات بمصر والشام ، والكتابة بالكشف عنها ، ومشاورة السلطان في أمرها ، ويتصل بالنظر في شؤون الماليك السلطانية ، وله أتباع .

٢٦ — المحتسب : ينظر في شؤون القاهرة ، ويراقب الصنائع والعمال والتجار ومن إليهم ، ويراقب استقامتهم ، ويضرب على يد المنحرفين منهم ، وهو شبيه بحكمदार العاصمة .

هذا ، وهناك كثير من الوظائف العامة ، غير ما سلف ، ضربنا الذكر صفحا عنها وعن اختصاصها . وحسبنا ما ذكرناه . ونرى من النافع في هذا المقام ، أن ننوه بهذا الثبت القيم ، الذى سجله ابن إياس في بدائعه في مطلع حوادث عام ٩٠٨ هـ مرة ثم ٩٢٢ هـ مرة أخرى . دون في كل اسماء القائمين بالأمر في الدولة ، والهيئة الحاكمة فيها . مع ذكر وظيفة كل منهم . ونحن هنا ننقل ثبت عام ٩٢٢ هـ ذاكرين الوظائف دون أسماء الشاغلين لها فعلا إذ ذاك . فهى تعين على رسم صورة لأولى الأمر في البلاد ، ومن يعاونهم . ومنهم من ضم وظائفين . وهى بإيجاز :

١ — السلطان ٢ — الخليفة ٣ — قضاة القضاة الأربعة ،

٤ — أمراء مقدمون أرباب وظائف ، وعددهم ستة وعشرون ، منهم من يشغلون

الوظائف الآتية : أمير كبير ، أتابك ، أمير سلاح . أمير مجلس . أمير أخور كبير .
رأس نوبة النوب . حاجب الحجاب . الدوادر الكبير . الأستاذار . كاشف الكشاف
والباقون بلاوظائف .

٥ — نواب البلاد الشامية والحلبية : نائب حلب . نائب طرابلس . نائب حماة . نائب
صفد : نائب غزة . نائب القدس . نائب المكر . ومن النواب من شغل أكثر من نيا به واحدة
٦ — أمراء طبليخانات موظفون : شاد الشراب خانة . الزدر كاش الكبير . تاجر
الماليك . أستاذار الصحة . رأس نوبة ثان . الحاجب الثاني . والى الشرطة . المهندس .
تقيب الجيش . شاد الشون . الترجمان . معلم المعلمين . أمراء رؤوس نوب كثيرين .
قال ابن إياس : وقد تكامل في هذه السنة من الأمراء الطبليخانات والعشرات فوق الثلثمائة أمير .
٧ — كبار المباشرين ، وهم من المتعممين : كاتم السرو ناظر ديوان الإنشاء . نائبه .
ناظر الجيش . مستوفى ديوان الجيوش . ناظر الخاص . ناظر الأوقاف . الوزير . ناظر
الدولة . كاتب الماليك . ناظر الأصبطل . مستوفى ديوان الخاص . ناظر الزردخانه .
مستوفى الزردخانه . ناظر الحسبة . ناظر الأحباس . مستوفى ديوان الجيش الشامي .
المتحدثان في الخزانة الشريفة . المتحدث في وظيفة الزمامية . المتحدث في الديوان المفرد .
البرددار . المتحدث في الشون السلطانية وغيرهم من المباشرين وأعيان الدولة .

٨ — أعيان الخدام الطواشية والخاصكية : في هذه السنة تكاملت الخاصكية ، فبلغت
نحو ألف ومائتي خاصكي من مشتريات السلطان .

وهذا . ونظراً لما لنيابة السلطنة والأناكية والوزارة والقضاء والخلافة من أهمية .
أفردنا لكل منها فصلاً ، يبين أحوالها . وأتبعنا كل فصل ، بترجمة عدد من شغل منصبها .
أما وكتاب السر ، فتحدث عنهم في الجزء الثالث بعون الله .

نِيا بة السلطنة (١)

درجت السلطنة المملوكية منذ نشوئها تقريبا ، على أن يكون لها « نائب سلطنة » . ومنصب « النيابة » أرقى مناصب الدولة جمعاء . ونائب السلطنة في المرتبة الثانية بعد السلطان . وهو أوسع الأسماء نفوذا ، وأكثرهم اختصاصا ، وذلك بحكم منصبه . ويقوم بإنجاز كثير من الأعمال التي تعتبر من اختصاص السلطان . فتعرض على سمعه القضايا المرفوعة إلى السلطان ، فيفصل فيها ، وقد ترسل إلى السلطان طلبا لموافقته . وفي هذه الحالة يكفيه النائب مئونة النظر بنفسه في تلك القضايا .

وينظر النائب في أحوال الجيش ويفقشه . ويخرج أنواعا من الإقطاع ، ويختار لها من يشاء ، ويرشح لمراتب الإمارة بعد مشاورة السلطان . ويعين من يريده للوظائف المختلفة ما عدا ما كان خطير الشأن منها ، كالقضاء والوزارة وكتابة السر ، فإنه يعرض على السلطان من يصلح لها ، وقل ألاّ يجاب . (٢)

والنائب يشاوره كثير من أرباب الدولة ورؤسائها في أمور اختصاصاتهم . ويكتب إليه نواب الأقاليم فيما يكتبون فيه إلى السلطان . ويمتاز عنهم بأنه يلقب « بالنائب انكافل » . وكافل الممالك الإسلامية الشريفة ، ويمشي الأمراء في ركابه . إلى غير ذلك من ضروب الميزة والاختصاص . فهو السلطان الثاني ، واليد العاملة المحركة لشؤون الدولة . وهو - في الغالب - الحاكم الحقيقي في البلاد . وقد يشتد نفوذه ، حتى يطغى على نفوذ السلطان نفسه . ويختار النائب من أوسع الأمراء جاها ، وأشدهم دهاء ، وأفضلهم ذكاء ، وأكثرهم حنكة ودربة . وقد يعين في وظيفته تلك ، خوفا منه أو ترضية له .

وكثيرا ما ترشح النيابة شاغلا لتولى السلطنة . فقد تتقلب الظروف بالسلطان ، ويختفي

١ - راجع ما كتبناه بعد عنها في باب « أنابكية العساكر » .

وراجع كتاب « التعريف » لابن فضل الله تحت عنوان « النواب » . وخطط المقرئ ج ٣ تحت عنوان « دار النيابة » . وصبح الأعشى ج ٤ تحت عنوان « النيابة » . بدائع ابن أبي عمير ج ١ تحت عنوان « النيابة » . وحوادث السنين المذكورة . والسلوك في ٣٨٤ ، ٣٩٠ وحوادث السنين المذكورة .

٢ - هذا مؤدى كلام المقرئ . ويفهم من عبارة القلقشندي أن النائب يعين من يشاء في الوزارة وكتابة السر . وقل ألا يجاب فيمن يعينه

من مسرحه لسبب ما ، أويدعوسبب إلى اختفائه ، وهنا يقفز النائب ويتولى السلطنة مكانه . وقد يوجد من الدواعي ، ما يختفي لأجله نائب السلطنة نفسه . كأن يترأى للسلطان القبض عليه ، أو الحكم بإعدامه أو نقله من منصبه عقابا له . فإذا اختفى خلا منصبه ، وأقيم فيه نائب جديد . لذلك قد يتعدد نواب السلطنة في وقت واحد ، مثل عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فقد شهد جملة من النواب . ويبقى لكل واحد منهم لقبه ، فيقال له «نائب السلطنة» ، وإن كان شاغل المنصب منهم واحدا فقط ، وهو الرجل العامل من بينهم .

وهناك منصب آخر يسامق «النياية» ، ويطلق لها جاها ونفوذا ، وهو «الأتا بسكية» — إمارة الجند — . وكثيرا ما طغى شاغله «الأتا بك» ، بجأه ونفوذه على مالنائب من جاه ونفوذ . وربما جمع أمير بين منصب «الأتا بسكية» ، و«النياية» معا ، فيبلغ بذلك الغاية من الملك والسلطان . ويرجع سبب ذلك — في أغاب الأحوال — إلى شخصيته وإلى نصيبه من الحيلة والذكاء والأعوان .

ومهما يكن من شيء ، فقد تقلبت الأحوال ببناء السلطنة ، طول العصر ، فصادتتها جملة أمور نلخصها فيما يلي :

في ١٣ شوال عام ٦٤٨ هـ استناب الملك المعز الأمير «علاء الدين البندقدار» ، بديار مصر ، لترتيب الأمور وكشف المظالم (١) ، فمهر أول نواب السلطنة بمصر وفي خلال عام ٦٥٠ هـ أمتر الملك المعز أيك عددا من عماليكه ، وجعل مملوكه الأمير سيف الدين «قطز» ، نائبا لسلطنته ، وكل لايه تدبير شئونه (٢) . وكان واسع النفوذ ، أثير! عند سلطانته ، عاونه على تثبيت ملكه ودعم أركانه . ومن ثم توالى نواب السلطنة في كل عهد تقريبا . حتى كان عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وكان نائب سلطنته «طرنطاي» . فقبض عليه بسعاية وزيره «علم الدين سنجر» الشجاعى . واختار من بعده الأمير «بیدرا» عوضا عنه . غير أنه ما لبث أن عزل الوزير الشجاعى المذكور ، وعين مكانه صديقه وصفيه «شمس الدين بن السعلوس» ، وزيرا عام ٦٩٠ هـ . وأطلق يده في شئون المملكة ، حتى صار صاحب الحل والعقد فيها . فطغى نفوذه على نفوذ النائب «بیدرا» ، ومشت الأمراء والقضاة في ركابه ، وقرئت القصص والمظالم عليه ، وفصل فيها برأيه دون أن

يستشير السلطان . وعظم بذلك منصب الوزارة ، وشأى النيابة وغيرها . ولما ملك الناصر محمد بن قلاوون ، تتابع في عهده عدد من نواب السلطنة ، ساءت العلاقات بينهم وبينه ، حتى قرر إلغاء النيابة ، جملة ، كنفا لشر النواب . فتم ذلك عام ٧٣٧ هـ . غير أن هذا المنصب سرعان ما أعيد في عهد ابنه (المنصور) ، واختير لنيابة سلطنته الأمير « طقزدرم » . وذلك في عام ٧٤١ هـ .

ولما كانت سنة ٧٤٢ هـ . ملك الأشرف بكك ، بن الناصر ، وفي عهده جمع الأمير « قوصون » ، بين مناصبي النيابة ، و « الأتابكية » . وعظم أمره واستبد ، وغلب عليه لقب « الأتابكي » . غير أنه ابث كذلك زمنا وجيزا ، ثم قتل ، وخُلع ملكه فانفصل المنصبان . وعين في النيابة الأمير « طشتمر » .

وابثت النيابة حتى كان عهد الناصر حسن بن قلاوون . فألغاها عام ٧٥٥ هـ . كما ألغاها أبوه من قبل . وأنشأ مكانها وظيفة جديدة هي « الإمرة الكبيرة » ، واختار لها الأتابكي « شيخو » العمرى الناصرى ، فهو أول من سمي بأمير كبير . وظل هو والأمير « صرغتمش » ، صاحبي الحول والطول زمنا .

ولما زالت دولة الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ ، عادت نيابة السلطنة إلى الظهور مرة أخرى ، في عهد خلفه المنصور محمد بن حاجي . وعين فيها الأمير « قشتمر المنصورى » . وظلت قائمة حتى عام ٧٧٥ هـ . إذ تولاها الأمير « منجك اليوسفى » ، وجمعها إلى « الأتابكية » ، وأصبح صاحب الحول والطول في أيام الأشرف شعبان ابن حسين ابن الناصر محمد . كما كان « قوصون » من قبل . فلما ولى ابنه علي بعده ، فصل بين المنصبين وعين في النيابة الأمير « أقتمر الصاحبى » الشهير بالحنبل . وفي « الأتابكية » الأمير « طشتمر الحمدي » الشهير باللفاف . إلا أن الأمير « أينبك » البدزى ، نازع « أقتمر » وأمره بالسفر إلى دمشق « نائبا » بها . فسمع وأطاع !

وقبض على « طشتمر » نغلا الجو للأمير « أينبك » . فأسندت إليه « الأتابكية » . واستبد بها بعده الأتابكي « برقوق » قبل سلطنته . فاخفت « النيابة » حينما . حتى أسس « برقوق » دولته الجركسية عام ٧٨٤ هـ ، فاختر لنيابة سلطنته الأمير « سودون الفخرى » الشيخوتى . ويبدو لنا أن النيابة اتضعت عن قبل . فقد وفد إلى مصر المقر السيفى « بيدمر » الخوارزمى نائب الشام زائرا ، فأكرمه السلطان برقوق ، وقدمه في المواقف الرسمية على

نائب سلطنته « سودون » .

وآل أمر النيابة في عهد فرج بن برقوق إلى الأمير «تمراز» . ويبدو لنا أنها عطلت من بعده زمنا طويلا ، واستبد بأمر الدولة الأتابكيون وأخوانهم . حتى كان عهد السلطان «جقمق» عام ٨٤٢ هـ . فعين في أواخر العام المذكور الأتابكي «أقبغا» التمرازی نائبا لسلطنته ، مع الأتابكية ، فعظم أمره .

قال ابن إياس ما ملخصه : « أن أقبغا التمرازی ، صار يحكم بين الناس ، وعلى بابہ رأس نوبة و نقباء . وهو آخر من تولى نيابة السلطنة المصرية . »

هذا . وقد كان لنائب السلطنة ، دار خاصة بالقلعة وتسمى «دار النيابة» ، يقيم فيها اسماع القصص والأحكام : أى لمباشرة عمله . وقد بناها المنصور قلاوون عام ٦٨٧ هـ ، وأول من سكنها «طرطاي» . فلما ألقى ابنه الناصر نيابة السلطنة ، هدم تلك الدار . ثم أعاد النائب «قوصون» بناها ، ولكن لم تكمل ، حتى قبض عليه ، ثم ما زالت حتى أقام بها النائب «آق سنقر» عام ٧٤٣ هـ ، بعد تجديدها . وظل النواب يقيمون فيها ، وبشرفون على الجيوش المصرية منها ، حتى عهد النائب «تمراز» أيام «فرج بن برقوق» ، فهجروها ، ولم يقيم بها .

نواب السلطنة (١)

ولى نيابة السلطنة ، كثير من أمراء الدولة متتابعين . ومنهم من بلغ السلطنة ، ومملك البلاد . مثل : قطز المعزى ، وكتبغا المنصورى ، ولاجين المنصورى . ومنهم من لم يبلغها ، ووقف به جده عند النيابة . ونحن هنا نترجم لعدد من هؤلاء في إيجاز مناسب ، مع ذكر ما عثرنا عليه من سنوات وفاتهم فحسب ، إذ كثير منهم جثث أول سيرته . فمنهم :

١ - علاء الدين إيدكين البندقدار الصالحى ٦٨٤ هـ

أول نواب السلطنة بديار مصر . اختاره الملك المعز أيبك في ١٣ شوال ٦٤٨ هـ . فجلس في دار العدل مع النواب ، وأخذ في ترتيب الأمور . وكشف المظالم . وما زال حتى اختار مكانه مملوكه «قطز» عام ٦٥٠ هـ .

١ - يراجع فهرس سلوك المقرئى في تراجم هؤلاء النواب جميعا . وكذلك بدائع ابن إياس والمنهل الصاقى لأبى المحسن والضوء اللامع للسكاوى ، وغيرها من كتب التراجم .

وهذا الأمير من جملة مما يليك الصالح نجم الدين الأيوبي . كما أن الظاهر بيبرس ، كان من جملة مما يليك هو ، ولذلك نسب إليه فقيـل له : « البندقـاري » .

ولما ساءت العلاقة بين المعز والمماليك البحرية ، وبينه وبين زوجته شجرة الدر ، قبض على عدد من البحرية الصالحة ، ومن بينهم ، « إيدكين » ، واعتقلهم بالجـب بقلعة الجبل عام ٦٥٥ هـ . ثم لما ولي د بيبرس ، السلطنة ، حظى هذا الأمير عنده ، وولى نيابة دمشق زمنا يسيرا ، ثم ولي نيابة حلب ، وشهد عصر الملك السعيد ، واشترك مع الثائرين عليه ، حتى خلعه . وقد مات « إيدكين » عام ٦٨٤ هـ .

« سلوك المقرئى ج ١ ص ٧٣٠ »

٢ — عز الدين « إيدمر » الحلـى ٦٦٧ هـ (١)

ورد ذكره فى سلوك المقرئى ، ويفهم منه أنه كان نائبا للسلطنة فى عهد السلطان « قطز » ، (٢) : فلما ولي د بيبرس ، السلطنة بعد قتل « قطز » ، حفظ « إيدمر » القلعة ، حتى سلمها إلى د بيبرس . وسرعان ما عين د بيبرس الأمير « بيليك » الخازن دار مملوكه ، نائبا للسلطنة ، مكان « إيدمر » عام ٦٥٨ هـ .

وقد اختير « إيدمر » ٦٦٢ هـ ، ليسكون « أتابكا » خاصا الملك السعيد بن بيبرس ، وهو ولي للعهد . غير أنه يبدو لنا أنه احتفظ له بـلقب « نائب السلطنة » ، وأنه كان ذا مكانة رفيعة لدى د بيبرس . وفى أواخر عام ٦٦٤ هـ ، طعنه أحد الجانـدارية بسكين ، فأصابه إصابة بالغة . واساء من أجلها د بيبرس ، أكبر مواساة . وقال : « والله يهون على موت ولدى بركة » ، ولا يموت الحلى .

وفى صفر عام ٦٦٧ هـ اختار « الملك السعيد » — وكان يحكم عوضا عن الده — الأمير بدر الدين « بيليك » الخازن دار بدلا من « الحلـى » . وعقب ذلك خرج « الحلـى » مع السلطان د بيبرس ، إلى بلاد الشام ، فمات هناك بدمشق فى أول شعبان عام ٦٦٧ هـ ، عن نيف وستين سنة . ومن آثاره : أنه جدد الجامع الأزهر عام ٦٦٥ هـ . وأقام به مقصورة ومنبرا جديدين ، وضم إلى أوقافه أوقافا كانت مفضوبة ، وكان سببا فى عودة صلاة الجمعة فيه بعد عطلة منها زمنا طويلا . وقد حج « الحلـى » .

١ — فى التهج السديد ، دعاه مرة « الحلـى » ومرة « الحلـى » : انظر ج ١ ص ٤٨٢ ، ٤٩٠ .

٢ — وهذا يوافق رواية ابن أبى الفضائل فى التهج السديد ج ١ ص ٤٠٨ .

في هذا العام نفسه (١)

« سلوك المقرينى ج ١ ص ٤٣٧ ، ٤٤٥ ، ٤٥٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٤ ، ٥٥٥ ،
٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٧٣ ، ٨٥٠ — « النهج السديد » ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ،
٤٩١ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

٣ — بدر الدين بيليك الخازندار ٦٧٦ هـ

كان مملوكا للظاهر بيبرس ، قبل سلطنته . فلما صار سلطانا ، خلع على مملوكه هذا وأقامه في نيابة سلطنته عام ٦٥٨ هـ . وفوض إليه شئون الدولة ، فصار صاحب الحل والعقد فيها . وخرج مع السلطان مراد إلى بلاد الشام للقتال . ولعله أبعد عن النيابة زمنا ، وحل محله فيها ، « عز الدين لإبدمر الحللى » ، حتى كان عام ٦٦٧ هـ ، إذ اختاره الملك السعيد حينما كان يجلس للحكم عوضا عن والده نائبا له .

ولما مات « بيبرس » في نواحي دمشق ، كان معه « بيليك » ، فسكن خبر موته اثلا يطمع التتار في بلاده في هذه الفترة العصية . وسار إلى مصر ، ومعه محفة السلطان كأنه فيها . حتى بلغ مصر ، فأعلن الناس بوفاة سلطانهم . وأتم سلطنة ابنه « الملك السعيد » ، وبذلك حفظ له العرش . فأقره « الملك السعيد » في نيابته . فلبث قليلا حتى مات عام ٦٧٦ هـ في ربيع الآخر . ويقال إن « الملك السعيد » دس إليه السم خوفا منه . وروى صاحب النهج السديد : أن « بيليك » دخل إلى والدته الملك السعيد ، عقب سلطنته مباشرة ، يعزى بها بوفاة « بيبرس » ، ويهنتها بسلطنة ابنها ، فسقته سكرا وليونا ، أصيب عقبه ومرض . فرشوا طبيبه « عماد الدين النابلى » ، فأهمله فأت . — وقد كان « بيليك » محسنا كثير البر ، عارفا بالتاريخ ، جيد الخط . ومن آثاره : أنه بنى عام ٦٦٥ هـ ، مقصورة جديدة بالجامع الأزهر ، لما جده « عز الدين الحللى » ، ورتب فيه أيضا دروسا في فقه الشافعى ، والحديث ، والقراءات ، وأوقف على ذلك أوقافا كافية . ولما مات حزن الناس عليه ، وكانت جنازته حافلة .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٢ — « السلوك ج ١ ص ٥٥٧ ، ٥٦٧ ،
٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦٤٨ — « النهج السديد ج ١ ص ٤٩١ ، ج ٢ ص ٤٥٣ »

١ — في النهج السديد ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ما يفهم منه أن « إبدمر » كان يطلق عليه « نائب » في حين أن « بيليك » كان نائبا للسلطنة بالفعل .

٤ - شمس الدين آق سنقر الفارقاني ٦٧٦ هـ

اختاره الملك السعيد بن بيارس ، نائبا لسلطنته عقب وفاة « بيليك » ، عام ٦٧٦ هـ .
فلبث قليلا ثم أثار غضب السلطان ، فقبض عليه ، وسجنه بشعر الاسكندرية (١) ثم أمر
بخنقه في العام نفسه ، ودفن في سجنه . - وذكر صاحب النهج السديد : أنه ولي النيابة
عام ٦٧٧ هـ ، فوقع شقاق بينه وبين الخاصكية - حرس السلطان الخاص - فقتلوه في العام المذكور .
« ابن إلياس ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٢ . - النهج السديد ج ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٤١ ،
٤٦٣ - السلوك ج ١ ص ٦٥٠ ، ٧٠٤ . »

٥ - شمس الدين سنقر المظفرى الألفى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة عقب وفاة « آق سنقر » . فرأى الأمور محتلة ، والنظام فاسدا ، بتحكم
الصبيان الجاهلة من الخاصكية ، الذين أخذوا يوغرون صدر السلطان عليه . فطلب إلى
سلطان الملك السعيد ، أن يقيه ، فأقاله . وما مكث إلا قليلا في نيابته . ومات عام ٦٨٠ هـ ،
وهو مسجون - كما قيل - بالإسكندرية .

« النهج ج ١ » ، وسلوك المقرئى (راجع الفهرس .)

٦ - سيف الدين كوندك الساقى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة بعد استقالة « سنقر المظفرى » عام ٦٧٦ هـ . وهو من رجال الخاصكية .
وكان إذ ذاك شابا ذكيا . ومن قبل كان مع سلطانه الملك السعيد فى المكتب صغيرين ،
فانعدت بينهما صلة الود . فلما ولى له نيابة سلطنته ، مكن له تمكينا ، لم يكن لأحد قبله .
ورسم بالآ يوقع لأحد إلا بقبله وعليه ، وقد عاونه فى مهمته الأتابكى قلاوون الألفى .
- وفى عام ٦٧٨ هـ وقعت بينه وبين الخاصكية منازعة ، وكادوا يقتلونه . لولا أن حماه
الأمير « سنقر الأشقر » . وطلبوا إلى السلطان عزله فأمره بالرحيل إلى حلب ، ومنحه
إمرة أربعين . ١. حاول أن يوقع بين السلطان وأمرائه ، - ومنهم « قلاوون » - لينتقم .
فاستشرى الفساد بين الفريقين ، حتى خلع الملك نفسه .

وبعد حين ، ولى السلطنة المنصور « قلاوون » ، فتآمر « كوندك » عليه مع آخرين ،

١ - هذه رواية ابن إلياس . ويفهم من السلوك أنه لم يخرج للإسكندرية ، وأنه مات عام ٦٧٧ هـ .

«وهموا بقتله . فقبض عليه ، وسلم للأمير «حسام الدين طرناى» عام ٦٨٠ هـ ، فضرب عنقه ، وأغرقه في بحيرة طبرية .
«ابن لباس ج ١ ص ١١٣ - النهج السديد ج ٢ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ - السلوك ج ١ ص ٦٨٥ ، ٦٨٦ ،

٧ - عز الدين أبيك الأفرم الصالحى

عينه السلطان بيبرس في أول سلطنته ، أمير جاندار (١) . فسافر في عام ٦٦٠ هـ . بعسكر إلى بلاد الصعيد ، وأوقع بعربانها الثائرين بقوص . وسافر إلى أسوان عام ٦٧٣ هـ مع آخرين لقتال ملك النوبة العايب . بتلك الجهات . - ثم أقيم نائباً للسلطنة في عهد العادل «سلامش» . ولسكن الأمر كان في يد الأتابكي «قلاوون» . فلما ولي «قلاوون» السلطنة ، اختاره نائباً لسلطنته عام ٦٧٨ هـ . فلبث قليلا ، ثم استعفى مدعياً المرض . فأعفاه السلطان ، ورتب له ما يكفيه . واستشاره فيمن يخلفه ، فأشار عليه باختيار الأمير «حسام الدين طرناى» ، فوافق ذلك هوى في نفس السلطان . ولم يلبث أن ندبه مع عدد من الأمراء وجوع من الجنود ، لمحاربة «سنقر الأشقر» الذى هلك بلاد الشام ، وخرج على السلطان . فما زال به حتى أخضعه . واشترك مع السلطان في حرب التتار .

«ابن لباس ج ١ ص ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، والسلوك ج ١ ، .

٨ - حسام الدين طرناى ٦٨٩ هـ

هو طرناى بن عبد الله . كان من ممالك المنصور قلاوون . رباه صغيراً ، وترقى هو في خدمته . حتى تقلد المنصور سلطنة مصر ، فجعله نائب سلطنته ، بعد «الأفرم» الصالحى . وذلك عام ٦٨٧ هـ . وهو أول من سكن «دار النيابة» التى أنشأها المنصور عام ٦٨٧ هـ . وقد بعثه المنصور عام ٦٨٦ هـ . للقبض على الأمير «سنقر الأشقر» ، الذى أعلن بنفسه سلطاناً على بلاد الشام . فما زال به حتى استسلم ، فساقه إلى مصر ،

١ - أمير جاندار : هو الذى يستأذن على الأمراء ليدخلوا الخدمة السلطان . ويقدم البريد إلى السلطان ، مع الدواخار وكتب السر - «صحيح الأعشى ج ٤ ص ٢٠» .

ودفع به بين يدي المنصور .

ولما مات المنصور ، وتولى ابنه الأشرف خليل . دس له الأمير د علم الدين سنجر الشجاعى ، الوزير دسياسة عنده . وكان الأشرف يكره د طرناى ، قبل سلطنته ، لأنه يعرف أعماله وآماله . وقيل للأشرف : إنه يعمل على إفساد مملكته . فقبض عليه عام ٦٨٩ هـ ، فسجنه بالقاهرة ، ثم أمر بخنقه .

وكانت الأمراء قد حذرت من بطش الأشرف خليل ، وراودوه على ألا يعاونه على إتمام سلطنته بعد أبيه ، وأغروه بالقبض عليه . واسكن د طرناى ، كان واثقا من نفسه معتمدا على مهابته ، حرصا على أن يكون وفيما لسيده المنصور ، فلا يغدر بابنه ، فراح ضحية ثقته ووفاته . وأحاط الأشرف بماله ونخفه ، ويقال إنه ترك من ذلك الشيء الكثير . وكانت له مدرسة اشتهرت بالمدرسة الحسامية .

د ابن إياس ج ١ ص ١١٥ إلى ١١٩ ، ١٢٢ - وخطط المقرئى ج ٤ ص ٢٢٨ تحت عنوان «المدرسة الحسامية» - سلوك ج ١ ص ٦٥٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٧١٥ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ .

٩ - بدر الدين بيدرا ٦٩٣ هـ

ولى الوزارة حينما فى عهد قلاوون ، بإشراف القاضى تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الاعز ، وشهد له هذا القاضى عند سلطانه ، بالسداد والحزم واللفظ فى العمل . ثم عزل منها ، ووايها القاضى المذكور . ثم عزل القاضى وأعيد الأمير د بيدرا ، فصار فى أعمالها بمفرده . وكان حينئذ أمير مجلس . ثم رقى إلى الاستادارية مع الوزارة . وظل كذلك إلى آخر عهد المنصور قلاوون ولما آل الملك لابنه الأشرف خليل ، خلع على الأمير د بيدرا ، وجعله نائب سلطنته ، وذلك عام ٦٨٩ هـ ، بعدد طرناى ، . وخرج عام ٦٩١ هـ ، فى حملة من عسكر مصر لقتال سكان جبال كسروان ببلاد الشام ، فأب خاسرا ومرض بسبب ذلك . وكان الأشرف اختار لوزارته صديقه الحميم القاضى د شمس الدين بن السعلوس ، وأطلق يده ، فاستبد بتدبير المملكة ، وأصبح بيده الحل والعقد فيها . وطمح بنفوذه على نفوذ النائب د بيدرا ، وتدخل فيها يعتبر من اختصاصه ، فلم يظهر ذلك غضبا لعله يميل السلطان إليه . ثم إن د ابن السعلوس ، انتن بعض الأخطاء التى

وقع فيها غلبان « بيدرا » ، ودس له عند السلطان ، حتى أحنفه عليه . فأحضره وأغلظ له في القول ، وأنقل عليه في الحديث ، حتى جرح كرامته ، وتوعده بكل سوء . فتجمل الأمير « بيدرا » ، وتلطف به حتى خلص من بين يديه ، وفي نفسه ما فيها من الغيظ والحقد . فأضر له الشر ، وأخذ يدبر هو وأتباعه مؤامرة لاغتياله . وقد سنحت لهم الفرصة المرجوة في يوم السبت ٥ المحرم عام ٦٩٣ هـ ، إذ خرج « الأشرف » ، في إحدى رياضاته بالجيزة ، ولم يكن في صحبته غير أمير واحد . وكان أتباع « بيدرا » يرافقون حركاته وسكناته حتى انفرد ، فجمعوا عليه هجمة صادقة ، ومزقوا جسده شرمزق ، وتركوه جثة هامدة رهن الخلاء .

ثم اتمروا فيما بينهم فيمن يستحق السلطنة ، فاستقر الرأي على سلطنة « بيدرا » . فتلقب بالملك « الأنجد » ، وقيل « الرحيم » . ولكن الخبر شاع وملا البقاع . فهبت بقية الأمراء ، ومعهم المماليك السلطانية ، ووفدوا إلى الجيزة ، وأحاطوا « بيدرا » ومن معه ، فقطعوه بسيوفهم إربا إربا . فانهى أمره بهذه العاقبة ، ولما تم على سلطنته ليلة كاملة . وقد ولى النيابة من بعده « كتبغا » ثم « لاجين » ، وقد صار كل منهما ملكا - كما بينا - .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ » .

١٠ - شمس الدين قرا سنقر المنصوري ٧٢٨ هـ .

هو قرا سنقر بن عبد الله ، الجوكندار المنصوري . اشتراه المنصور قلاوون قبل سلطنته ، ثم ترقى في خدمته ، إلى أن ولاه نيابة حلب عام ٦٨٢ هـ ، (١) . ويقال إنه من أبناء النصارى .

وفي عهد الأشرف خليل عزل من نيابة حلب عام ٦٩١ هـ ، ووفد في عصبة الأمير « بيدرا » ، نائب السلطنة حينذاك ، لقتال سكان جبال كسروان ، فلم يظفروا بطائل . ثم دخل القاهرة ، وانضم إلى « بيدرا » ، ودبر معه مقتل الأشرف خليل . ثم اختفى زمنا . ولما صار الملك إلى « لاجين » ، أقام « قرا سنقر » نائبا لسلطنته عام ٦٩٦ هـ (٢) .

١ - في السلوك ج ١ ص ٨ ٧ أنه ولى نيابة حلب عام ٦٨١ هـ .

٢ - هذا كلام ابن إياس . وفي الدرر : أنه ولى نيابة السلطنة في عهد « كتبغا » . والأول أصح ، لأن نائب « كتبغا » كان « لاجين » الذي وثب من بعده من النيابة إلى العرش .

غير أنه لم يلبث غير أشهر ، ثم فسدت علاقته بالسلطان « لاجين » ، واتهمه بجملة تهم ،
هناك كثرة جباية الأموال بغير حق . وقبض عليه ، فلبث في سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه
في عهد الناصر بن قلاوون . وقدم إلى الناصر ضروبا من المعونة ، فخطى عنده . وولى
عدة نيابات ، منها نيابة الشام عام ٧٠٩ هـ . ثم فسد ما بينه وبين الناصر ، ففر مع جماعة
إلى « خربندا » ملك التتار ، فأعجب به ، وسر بعقله وذكائه ، وحجب إليه الإقامة لديه ،
وزوجه تربية حسناء عالية القدر ، وهي ابنة « قطلوشاه » أحد أمراء التتار الكبار . وقد
توفي في ٢٧ شوال عام ٧٢٨ هـ . وقد كان شجاعا صنيذا غير هياب ، يقصده الطامعون
في جدواه . ومدحه بعض الشعراء ، وكان حسن التدبير راجح العقل . وقد بنى عام ٧٠٠ هـ
مدرسة بالقاهرة عرفت إذ ذاك بالمدرسة القراسنقرية .

« ابن لباس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ - والدرر الكامنة ج ٣ رقم ٦٢٥ - والخطط

ج ٤ ص ٢٣٢ »

١١ - سيف الدين منسكو تمر الحسامي ٦٩٨ هـ

كان مملوكا للسلطان حسام الدين لاجين . فأُنعِمَ عليه في أول سلطنته عام ٦٩٦ هـ بإمارة
مائة وتقدمة ألف ، فصار بذلك من عطاء الأمراء فخامة . ولم ينصرم العام ، حتى أقامه
نائبا لسلطنته بعد قبضه على النائب « قراسنقر » . ولم يكن « منسكو تمر » أهلا لهذا المنصب
الجليل ؛ إذ كان في الأمراء من يفوقه دربة وخبرة ، وأحق منه بالنيابة لكفاءته
وأقدميته . . . وبلغ من عناية السلطان به أن هم مرة بحمله وليا لعهد . كل ذلك أحقد
عليه قلوب الأمراء . وأطلق السلطان يده في شؤون الدولة فعبث بالحقوق وغير
وكان أكبر معاون للسلطان على تنظيم « الروك الحسامي » ، الذي قسم فيه الإقطاعات
قسما جديدا ، عده الأمراء والجنود مجدهم . فأغرى السلطان ببعض الأمراء ، فقبض
على البعض وفر منه البعض . فثارت بذلك فائرة التآمر عليهما معا . وتزعما الأميران
« كرجي » و « طنجي » . فقتل « كرجي » السلطان غيلة في إحدى الليالي ، فاستسلم
« منسكو تمر » على الأثر إلى « طنجي » ، فبعثه إلى جب القلعة بسجينا . فكاد يبطش به من
في الجب من السجناء الذين أرسلهم إليه من قبل . وسرعان ما استدعاه « كرجي » بعد
ساعة ، وذبحه بيده ، وكان ذلك عام ٦٩٨ هـ .

وكان « منكوتمر » ظالماً غشوماً كثير الدس الأمراء ، مستتبداً . فكان عمله هــذا وبالاً عليه . ومن آثاره مدرسته المنكوتمرية ، بحارة بهاء الدين بالقاهرة - كانت - التي أكمل بناءها عام ٦٩٨ هـ .

« ابن إلياس ج ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ - خطط المقرئ ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ وج ٤ ص ٢٣٠ »

١٢ - سيف الدين « سلار » المنصورى ٧١٠ هـ

أصله من التتار الأويراتية ، اشتراه قلاوون قبل سلطنته ، ومنحه لابنه على . نخدمه وخدم بعده الأشرف خليل . وحينما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون عودته الأولى إلى ملكه عام ٦٩٨ هـ ، عقب قتل الملك « لاجين » ، عين الأمير « سلار » نائبا للسلطنة في ذلك العام . فدبر له أمور دولته . وسار في رفقته عام ٦٩٩ هـ ، إلى بلاد الشام لقتال غازان ملك التتار .

ولما وافق سنة ٧٠٧ هـ ، ساءت العلاقات بينه وبين سلطان الناصر ، ودبت عقارب المشاحنات بينهما . وضغط على السلطان في تصرفاته حتى غص السلطان به وبالأنابكى « بيبرس » الجاشنكير ، المذين كانا يدبران له أمر مملكته ، فاستبدا بذلك الأمر من دونه . فعزم الناصر على أن يخلع نفسه من السلطنة ، فرارا من هذين الحاجرين . فأعلن عام ٧٠٨ هـ ، بعزمه على الخروج إلى الحج . وخرج فعلا ، ولكنه تخلف في الكرك ، وخلع نفسه من الملك . فتشاور الأمراء فيمن يولونه . وكانت الرغبة متجهة بمجد إلى اختيار النائب « سلار » ، ولكنه صمم رأيه وأعلن عزمه على عدم قبول هذا المنصب الرفيع ، مع أهليته له . فتمت بذلك المشورة على اختيار الأنابكى « بيبرس » ، فتلقب « بالمظفر » ، وظل « سلار » نائب سلطنة أيضاً في ذلك العهد الجديد .

ازداد نفوذ سلار ، وعلا جاهه وقويت سطوته وظل كذلك زمنا ، حتى تقلبت الأحوال ، واثتمر كثير من الأمراء والجند على خلع « بيبرس » ، والتف عدد منهم حول الناصر بالكرك ، وكان به أمراء الشام بالطاعة . فزحف بأنصاره من الكرك إلى الشام ، وخطب باسمه على منابرهما . ثم أعد العدة الزحف على مصر . فاحتاط الأمير « سلار » لنفسه ، وظهر بعد نظره وقوة حيلته ، في أنه أخذ يزين للمظفر بيبرس أن يخلع نفسه من السلطنة ، ويعلم بطاعته للناصر ، قبل أن يدهمه بجموده . فرضى المظفر مرغما ، وأطاع ، وكانب الناصر بهذه الطاعة ثم فر .

أما «سلار» فإنه لم يظهر عداء للناصر، وأعد العدة لحسن استقباله. فأطلق من في السجون من أمرائه المواليين له، وأغلق خزان المال، واحتفظ بالملك سليما، ريثما يعود الناصر، فيقتله. — هذا إذا استثنينا مانبيه المظفر «بيبرس»، وقت هروبه، من مال وسلاح وتحف وممالك.

عاد الناصر إلى عرشه عودته الثانية عام ٧٠٩ هـ، فتقدم إليه النائب «سلار»، وقبل الأرض بين يديه، وطلب إليه أن يعفيه من مهام منصبه، وأن يسمح له بالإقامة بعيداً عن القاهرة في إقطاعه بجهة «الشوبك». فأعفاه. وبذلك انتهت نيابة سلطنته عام ٧٠٩ هـ، بعد أن قام بها نحو إحدى عشرة سنة. وأقام بالشوبك، وقيل بالكرك.

ورق إلى علم السلطان الناصر بعد زمن أن أخا «سلار»، وأتباع «سلار»، يدبرون مؤامرة لاعتقاله. فقبض على طائفة منهم. ثم حمل «سلار» على العودة إلى القاهرة. فلما حضر بين يديه، دسه في السجن، فبقى به زمناً قليلاً، ثم مات كداحسرة عام ٧١٠ هـ. ولما توفي، حلت تركته إلى الناصر، فضمها إلى ممتلكاته. وقيل إنها كانت مائة بأموال كثيرة وأنواع شتى من التحف النادرة والجواهر الثمينة، مما بعد فذافي بابه. وينسب إلى «سلار» أنواع من الملابس «السلارية»، التي استخدمت طيلة هذا العصر من بعده: وكذلك أنواع أخرى من الأسلحة وأدوات القتال. كما أنه كان كثير البر والتصدق على الفقراء. وقد دفن في المدرسة الجاولية.

«ابن إياس ج ١ من ص ١٣٩ إلى ١٥٦ - القوات ج ١ ص ٢٣٢ - الدرج ٢ رقم ١٩١٣».

١٣ — بكتمر الجوكندار المنصوري ٧١٦ هـ

كان حسن الصلة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون. ولاه إمارة الحاج عام ٧٠٠ هـ، فبذل ضروباً من البر، وشكرت سيرته. وقد أقامه الناصر نائباً لسلطنته عام ٧٠٩ هـ، عقب خروج «سلار» منها. ولكن مالبث حتى فسدت علاقته بالسلطان، فقبض عليه عام ٧١١ هـ، وأودعه السجن بالإسكندرية. ثم نقل إلى الكرك، ويقال إنه قتل بها، عام ٧١٦ هـ، وكان زبناً لئن الجانب كثير الصدقات.

«ابن إياس ج ١ ص ١٥٤، ١٥٧ — الدرج ١ رقم ١٣٠٧».

١٤ - بيبس الدوادار المنصوري ٧٢٥ هـ

أصله من ماليك المنصور . ولاه نيابة الكرك ، ثم عزله الأشرف د خليل ، ورقاه دوادار أكبراً . وقد أرسله الناصر محمد في عام ٧٠٩ هـ في إثر الملك المظفر د بيبس ، الجاشنكير ، لما فر من وجهه ، إلى إخميم . فتلف هو والأمير د بهادر آص ، به ، حتى استرد منه ما نهبه من المال والتحف .

واختاره الناصر نائباً لسلطنته عام ٧١١ هـ . بعد القبض على د بكتمر ، . إلا أنه لم يستمر طويلاً ، بل ساءت فيه ظنون الناصر . فقبض عليه ، وقذف به في السجن عام ٧١٢ هـ . فلبث بسجن الإسكندرية نحو خمس سنين ، ثم شفع فيه النائب د أرغون ، فأطلق عام ٧١٧ هـ . ثم حج عام ٧٢٣ هـ . ومات عام ٧٢٥ هـ ، عن نحو ثمانين عاماً . وقد اشتغل د بيبس ، بالعلم والتاريخ ، ومن مؤلفاته : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، والتحف المملوكية في الدولة التركية .

د ابن إلياس ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٧ - تاريخ آداب اللغة لجورجي زيدان ج ٣ ص ١٨٦ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٠ - الدرر ج رقم ١٣٨٤ ، .

١٥ - أرغون الدوادار الناصري ٧٣١ هـ

اشتراه المنصور د قلاوون ، ، ورباه مع ولده الناصر د محمد ، . فظل في خدمته ، ولارمه . فلما قبض الناصر على نائبه د بيبس ، عام ٧١٢ هـ ، اختار د أرغون ، نائباً . فحسنت سيرته ، ودفع عن الناس كشيذاً من الظلم . وزار مرة منية ابن خصيب ، فخرّب بها كنائس للنصارى ، ومنع استخدام النصارى في ديوانه . وكلفه الناصر عام ٧٢٦ هـ أن يقبض على د مهنا ، العربي الثائر . فتباطأ . فأثار بذلك غضب الناصر ، فقبض عليه . ثم أخرجه نائباً على حلب . فمات بها عام ٧٣١ هـ . وكان ذا دراية بفقّه أبي حنيفة ، وذا عناية بكبرى باقتناء الكتب ، مع الحلم وحب الخير .

د ابن إلياس ج ١ ص ١٥٧ - الدرر ج ١ رقم ٨٧٣ ، .

١٦ - طقز دمر الناصري ٧٤٦ هـ

أصله من بماليك المؤيد صاحب حماة . انصل بالناصر د محمد ، ، فعلت عنده مكاتته .

وزوج ابنتيه لولديه المنصور والصالح . ثم ولى نيابة السلطنة عام ٧٤١ هـ ، في عهد المنصور أبي بكر بن الناصر . ولكن أمر الدولة كان بيد « قوصون » ، أنابكى العصر . قبض « قوصون » على المنصور ثم على نائبه ، ونفاه إلى دمياط . وأصبح « قوصون » ، نائبا وأنابكيا معا . ثم أطلق سراح « طقزدمر » ، وأرسل نائبا على حلب في أول عهد الصالح بن الناصر . ثم نقل إلى نيابة الشام . ثم أُنْصَحَ إلى مصر مريضا ، فأت بها عام ٧٤٦ هـ .

• ابن إياس ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ - الدرر ج ٢ رقم ٢٠٤٢ .

١٧ - سيف الدين « قوصون » . الساقى الناصرى ٧٤٢ هـ

أحد أمراء مصر العظماء . قدم إلى مصر لأول مرة عام ٧١٩ هـ (١) . حينما حضرت إلى مصر خطيبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهى ابنة القان « أزيك » ، صاحب الموصل . حضرت فى ذلك العام ومعها طائفة من الأمراء والخدم والماليك . وكان « قوصون » ، بين هؤلاء الماليك فأعجب الناصر به إعجابا دفعه إلى شرائه . وقيل دفع ثمنه ثمانية آلاف من الدراهم . وقيل ثمانين ألفاً . وقد أعقب توأ . فلم يعيش بين الطباق بالقلعة ، كما عاش غيره من الأمراء . وكان « قوصون » ، يفتخر بذلك - وقد ذكرنا قبلا المفارقة التى وقعت بينه وبين الأنابكى « بكتمر » ، الساقى ، وهى من هذا القبيل .

وقد صادف وجوده ، هوى فى نفس الناصر بن قلاوون ، حتى ركن إليه ، وقدمه فى كثير من الأمور والمهام . ورافقه فى سفره إلى الحجاز للحج عام ٧٣٢ هـ . ثم زوجه من بعد ذلك إحدى بناته (٢) . فكان هذا الزواج إحدى مفاخره ، وقد زادت به منزلته رفعة ، وجاهه علوا ، ونفوذه اتساعا . حتى أضحي قرينا للأنابكى « بكتمر » ، فى المنزلة والجاه والنفوذ ، بل ربما شآء فى ذلك . مع أن « بكتمر » ، هذا كان مدبر شئون الملك الناصر ، وعليه كل اعتماده فى تصريف شؤنه . فلما مات

١ — ذكر فى المخطوط أنه قدم عام ٧٢٠ هـ .

٢ — يفهم من ابن إياس أن هذا الزواج كان عام ٧٢٣ هـ ، وذكر فى الدرر أنه كان عام

« بكتمر » ، خلا الجو الأمير « قوصون » ، وانفسح أمامه المجال ، واتسع الأفق ، وازداد قربا من الناصر ، وأنعم عليه بأسلحة « بكتمر » . فلما انقضت أيام الناصر وتولى ابنه المنصور أبو بكر عام ٧٤١ هـ ، أقيم « قوصون » ، أبا بكا للعساكر . وكان هناك أمير يحقد عليه هو « طاجار » . اشتد بينهما الجفاء ، حتى انقسم الجنود معهما فريقين متعادين . ثم حبب « طاجار » ، إلى السلطان أبي بكر أن يقبض على « قوصون » ، فأوصى السلطان أحد خواصه من الجنود باغتياله . فما كان من الجندي إلا أن أسر الخبز إلى « قوصون » ، فعجل بتدبير « قوصون » مع فئة من الأمراء ، كانت نتيجهما خلع السلطان ، وإقامة أخيه الأشرف علاء الدين كجك مكانه .

حينما تربع « كجك » في دست الملك كان صغير السن ، فكان « قوصون » بجواره كوصى عليه . وهنا بلغ قمة مجده ونهاية سؤده ، فأبرم ونقض ، وحل وربط ، وأمر ونهى ، وجمع إلى الأناطولية نيابة السلطنة عام ٧٤٢ هـ . وأخذ في تجديد دار النيابة ، بعد أن كان قد هدمها الناصر بن قلاوون . قيل : وكان يجلس في داره ، ويمد الأمراء سباطا أعظم من سباط السلطان .

هذه الغاية التي بلغها « قوصون » ، أنارت الحقوق والاضغاث في قلوب منافسيه وأعدائه . ومما أشعل نيران هذه الحقوق أيضا ، أن أصدر أمره بالقبض على من توسم فيهم العصيان من المماليك السلطانية ، ومن كبار الأمراء كالأمر « طشتمر » ، نائب حلب في ذلك الوقت ، وكالأمر « إيدغمش » ، أمير أخور كبير ، وكالأمر « قطبغا » ، الفخرى . فأهاج بذلك على نفسه فتنة لم يقو على درئها . فقد أخذته الأعداء من كل جانب ، واستباحوا داره . وأغروا بها العوام ، فنهبوا من مكنوناتها ما أغناهم دهرأ . فقد كانت مليئة بكتشير من المال والتحف والأسلح والخيل ، وغير ذلك . أما « قوصون » ، فقد احتسى بالقلعة . ورأى بعينه ما يفعله الرعاع بداره ، فلما اشتد الأمر ، أرسل إلى « إيدغمش » ، في طلب الأمان ، فقبض عليه « إيدغمش » ، وسجنه بالزر دخانة ، ثم أرسل في طي الليل إلى سجن الإسكندرية . وأهين أتباعه ، وقتل منهم كثيرين . ثم أعدم « قوصون » ، بالإسكندرية عام ٧٤٢ هـ .

هذه هي نهايته ، بعد أن بلغ من المجد مبلغا عظيما ، حتى هابته الأمراء . قيل إنه لما تزوج ابنة الناصر محمد ، أهدى إليه الأمراء نحو خمسين ألف دينار . وكان كريما

كثير البذل والسخاء . وله مسجد بناحية بركة الفيل بالقاهرة ، وخانقاه بمحمة باب القرافة - كانت - .

« ابن إياس ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، إلى ، ١٧٩ - الخطط ج ٤ ص ١٠٤ -
الدرج ٣ رقم ٦٢٢ ،

١٨ - طشتمر البدرى الساقى ٧٤٣ هـ

كان من عماليك الناصر بن قلاوون . وترقى - حتى بلغ الإمارة . ولاكنه كان غليظ القلب ، شديد البأس . لذلك لم يسترح إليه ضمير الناصر . فقبض عليه عام ٧٢٦ هـ - وقيل عام ٧٢٧ هـ . فشفع فيه بعض الأمراء ، فخل سبيله . ومع هذا ظل مقوياً لدى الناصر . وقد عين نائباً لحلب في عهد المنصور أبي بكر بن الناصر . وفي عهد خلفه الأشرف ، كجك ، ، رغب نائب السلطنة الأتابكي ، قوصون ، في القبض عليه فلم يفلح . وأب عليه ، طشتمر ، بلاد حلب والشام . فلما زال عهدهما ، قدم « طشتمر » إلى مصر . وعين نائباً للسلطنة في عهد الناصر أحمد بن الناصر محمد عام ٧٤٢ هـ ، غير أنه لم يهنأ بهذه النيابة إلا شهراً تقريباً ثم ساءت علاقاته بالسلطان ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة . ثم سافر السلطان أحمد إلى الكرك ، فساق معه « طشتمر » وزمينة « قطلوبغا » فسجننا في قلعتها مدة ، ثم أعدسا عام ٧٤٣ هـ . فكان قتلهما مما عجل بخلع السلطان . ويترأى لنا أن « طشتمر » كان شخصية نادرة مُلْهِيَّة . وقد سماه العوام « حص أخضر » ، لأنه كان يحب أكله . ولهم فيه أغان وأشعار طريفة .

« ابن إياس ج ١ ص ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ - الدر ج ٢ رقم ٢٠١٧ - الخطط ج ٤ ص ٣٤٩ .

١٩ - شمس الدين آق سنقر السلارى ٧٤٧ هـ

كان في جملة عماليك المنصور قلاوون . ثم ضم إلى الأمير « سلار » فنسب إليه . ثم حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فزوجه بابنته . وولى في عهده نيابة صفد وغيرها ، فأحسن الولاية واشترك بعد الناصر في عدة حوادث ، حتى ملك الناصر أحمد بن محمد ، فولاه نيابة السلطنة بدم « طشتمر » . وظل بها في عهد خلفه الصالح إسماعيل عام ٧٤٣ هـ . فخاتم تجريد دار النيابة بالقلعة ، وأعادها إلى سابق مجدها ، وأقام فيها لسماع القصص والشكايات .

غير أنه لم يقيم طويلاً ، حتى تغير قلب السلطان عليه ، فسجنه بالإسكندرية أوائل عام ٧٤٤ هـ . ثم أطلق سراحه بعد زمن . وكان في عداد الثائرين على السلطان شعبان بن الناصر . فلما ملك المظفر حاجي ، قبض على « آق سنقر » ، ثم خنقه في عام ٧٤٧ هـ .
 « ابن أبياس ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٧ — الدرر ج ١ رقم ١٠١٤ — الخطط ج ٣ ص ٣٤٩ ، ج ٤ ص ١٠٧ » .

٢٠ — سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار ٧٤٧ هـ

أصله من سبي الأبلستين . وآل ملكه إلى قلاوون قبل سلطنته . ثم صار أميراً وترقى في الإمارة . وأعجب به الناصر محمد لرجاحة عقله . وولى نيابة السلطنة عام ٧٤٤ هـ بعد القبض على « آق سنقر » ، - ومن أهم ما قام به أن هدم « خزانة البنود » ، التي كانت سجناً في عهد بني أيوب ثم اتخذها بعض الفرنجة داراً للفساد . وبنى مكانها مسجداً . لبث « آل ملك » في نيابته زمناً ، يجلس في دار النيابة للحكم ، حتى مات سلطانه الصالح إسماعيل عام ٧٤٦ هـ ، وتولى مكانه أخوه الكامل شعبان بن الناصر ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة زمناً . ثم أفرج عنه ، وولاه نيابة دمشق فصفد . ثم أوصى بالقبض عليه ثانياً ، فأرسل إلى سجن الإسكندرية عام ٧٤٧ هـ فخنق . وكان يحنح نحو الخير ، وفيه دين وعبادة .

« ابن أبياس ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢١٠ — الخطط ج ٤ ص ١٠٨ — الدرر ج ١ رقم ١٠٦٤ » .

٢١ — أرقطاي القفجني ٧٥٠ هـ

كان من مماليك الأشرف ، وكان ذكياً خبيراً . ولى نيابة حصص عام ٧١٦ هـ ، ثم صفد وغيرها . ولما قبض السلطان الكامل شعبان ، على النائب « آل ملك » ، عينه مكانه في النيابة عام ٧٤٦ (١) . فظل فيها حتى شهد عصر المظفر حاجي . فلما ملك الطائش هذا الملك ، تأمر الأمراء عليه بزعامة « أرقطاي » . ودارت رحى الحرب بين الفريقين . ثم قبض على « حاجي » ، ومضوا به حاسر الرأس إلى « أرقطاي » ، فلقية لقاء كريماً ، وأنف أن يقتله . وأمر بسجنه في القلعة . ولكن أحد الأمراء غدره وخنقه .

١ — ذكر في الدرر أنه ولى نيابة السلطنة لأول مرة في عهد المظفر حاجي .

وملك من بعده الناصر حسن ، تخلف نيابة حلب على د أرقطاي ، عام ٧٤٨ هـ ، ثم نقل إلى دمشق نائباً . ولما كنهه كان مريضاً ، فمات في طريقه إليها عام ٧٥٠ هـ . وسنة ٧٨ سنة . وكان كنيسته أديبا .

د ابن إياس ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ — الدرج ١ رقم ٨٧٧ ،

٢٢ — بينغا أروس الناصري ٧٥٤ هـ

كان خاصكيا في أيام الناصر محمد . ثم كان في عداد الثائرين على المظفر حاجي . وهو الذي غدر به وساقه إلى المقابر في الباب المحروق ، وخنقه هناك ، بدل أن يمضى به إلى سجن القلعة . لهذا علت مكانته عند السلطان الجديد ، وهو الناصر حسن بن الناصر محمد . فأقامه نائباً لسلطنته ٧٤٨ هـ ، عوضاً عن د أرقطاي ، الذي عين نائباً لحلب . ثم ما لبث أن تغير قلب سلطانته عليه ، فسجنه بقلعة الكرك عام ٧٥١ هـ . فلما تخلف الناصر حسن ، وملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ ، أفرج عنه ، وجعله نائباً لحلب ، في ذلك العام . فلبث زمناً ثم أظهر العصيان ، وزحف بجند كشياف إلى بلاد الشام ، ودخل دمشق . وانضم إليه كثير من الأمراء والعربان ، فعات في دمشق فساداً . فخرج إليه الصالح في جيش كبير هزمه هناك هزيمة منكرة ، وقبض على كثير من أعوانه . أما هو فقد فر إلى بلاد التراكمة فأرسل خلفه من قبض عليه في الأبلستين . وقتل عام ٧٥٤ هـ . وهو أبو د منجك اليوسفي ، الآتي ذكره .

د ابن إياس ج ١ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، الدرج ١ رقم ١٣٨٧

٢٣ — أرغون السكامل ٧٥٨ هـ

أصله من ماليك الصالح إسماعيل ، رباه صغيراً ورقاه . وكان جميل الشكل حسن السياسة . وولاه الناصر حسن نيابة حلب . ثم ولي نيابة دمشق . واختاره الصالح صلاح الدين صالح ، نائباً لسلطنته عوضاً عن د بينغا أروس ، عام ٧٥٢ هـ . غير أنه كان قليل الحيلة إزاء الأمير د طاز د الدوادار ، الذي امتد نفوذه ، وأصبح صاحب الحل والعقد في البلاد . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٥٤ هـ (١) . فثبت بها أركان السلطنة .

١ — ذكر ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ ، أن أديبا كان نائباً على الشام عام ٧٥٣ هـ . فقلعه عين فيها ثم نقل إلى حلب — وفي الدرر أنه عين نائباً لحلب عام ٧٥٣ هـ للمرة الثانية . ولم يذكر أنه كان نائب سلطنة مصر .

ولبت بها حتى عين مكانه الأمير « طاز » عام ٧٥٥ هـ وقبض على « أرغون » وسجن بالإسكندرية زمنا . ثم أفرج عنه ، وعاش بالقدس عاطلا ، حتى مات عام ٧٥٨ هـ وهو دون الثلاثين .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠١ — الدرر ج ١ رقم ٨٧٤ ،

٢٤ — سيف الدين قبلاى الناصرى ٧٥٦ هـ

ولى نيابة الكرك ، ثم الحجوبية فى أيام الناصر حسن بالقاهرة . وولى نيابة السلطنة فى أيام الصالح صلاح الدين ، بعد نقل الأمير « أرغون » الكامل ، منها عام ٧٥٣ هـ . ومن بعده شغرت نيابة السلطنة مدة فى عهد الناصر حسن ، حتى عين فيها « قشتمر » وقد مات « قبلاى » عام ٧٥٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦١٧ — الخطط ج ٣ ص ٣٥٦ ،

٢٥ — قشتمر المنصورى ٧٧١ هـ (١)

أقامه السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، نائبا لسلطنته عقب توليته عام ٧٦٢ هـ . ولما انتهى عهده لبت « قشتمر » نائبا لخلفه الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد . وكان نفوذه ضئيلا بجوار « يلبغا العمري » ، أتاك العسكر إذ ذاك . ثم نقل نائبا لصفد عام ٧٦٤ هـ . ثم عاد إلى مصر . وعين فى عهد الأشرف شعبان أيضا ، حاجب الحجاب سنة ٧٦٨ هـ . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٧١ هـ . وفى هذا العام وقعت فتنة بينه وبين الأمير « جبار » آل فضل ، وطوائف العربان . فاشتد القتال بين الفريقين ، فقتل خلاله « قشتمر » . وكان عالما بالعربية حسن الخط .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٩ و ٢٢٥ و ٢٢٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦٣٤ ،

٢٦ — على الماردى ٧٧٢ هـ .

أصله من ماليك صاحب ماردى . وكان يجيد الضرب على العود . اتصل بالناصر محمد بن قلاوون منذ عام ٧٢٨ هـ ، فخطى عنده ، وترقى فى سلك الإمارة . وولى مرارا

بلاد الشام نائبا . فلما خلت نيابة السلطنة في عهد الأشرف شعبان عام ٧٧٠ هـ (١) جعله نائبا . فلبث قرابة عامين ، ثم توفي عام ٧٧٢ هـ . وكان من خيار الأمراء ، كثير البر والصدقات قليل الأذى .

د ابن إياس ج ١ من ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ - الدرر ج ٣ رقم ١٦٠ وج ٤ رقم ٩٩٨ ،
٢٧ -- طشتمر العلاني ٧٨٤ هـ .

لما توفي الأمير على المارديني نائب السلطنة عام ٧٧٢ هـ ، عين الملك الأشرف شعبان ابن حسين ، الأمير د طشتمر العلاني ، نائبا عوضاً عنه . فلبث في النيابة زمناً ولعله هو الذي تولى الأتابكية بعد في عهد المنصور على بن الأشرف . د انظره في الأتابكية ، . ومات عام ٧٧٤ هـ .

د ابن إياس ج ١ ص ٢٢٧ - الدرر ج ٢ رقم ٢٠١٨ ، .

٢٨ -- المقر السيفي لإيدمر الدوادار ٧٧٥ هـ

كان نائبا على حلب ثم طرابلس . فاستدعاه الأشرف شعبان عام ٧٧٥ هـ وجعله أتابك عسكره ونائب سلطنته معا . فلبث كذلك مدة يسيرة ، ثم توفي في العام نفسه ، وقيل عام ٧٧٦ هـ . وكان حسن السياسة عادلا متواضعا ،

د ابن إياس ج ١ ص ٢٢٨ - الدرر ج ١ رقم ١١٢٧ ،

٢٩ -- سيف الدين د منجك اليوسفي ، ٧٧٦ هـ

يعتبر هذا الأمير ، من أفذاذ رجال عصر المماليك ، لكثرة ما شغله من المناصب وعديد ما قام به من الأعمال ، فوق اتصافه بالشجاعة والإقدام . وكان يندبه السلاطين لمهام الأمور ، فيقوم بها بكفاية ودربة وعزم . وقد أتى عليه حين من الدهر كان صاحب الحل والمقد بالديار المصرية .

وكان د منجك اليوسفي ، ، أحد الأمراء الممتازين ، في عهد الملك الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد . فلما اشتدت الفتنة ، بين أخيه المخلوع المسمى الناصر أحمد ، المنفي في الكرك ، واستسلم الناصر لجنود أخيه السلطان ، فقيده ، أرسل السلطان إليه الأمير د منجك اليوسفي ، فقطع رأسه وأحضره إلى القاهرة في علبة ، وذلك في صفر عام

١ — ذكر في الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ أنه عين في نيابة السلطنة عام ٧٦٩ هـ ولكنه استعفى من النيابة بعد قليل ، ثم عين في الأتابكية في نفس العام . انظر ترجمته في الأتابكية .

٧٤٥ هـ . وكان إذ ذاك سلا حداراً .

ولما ثار الأمير ديلغا اليحياوى ، نائب الشام ، فى وجه السلطان الكامل شعبان ، وأظهر العصيان عام ٧٤٧ هـ ، اجتمع رأى الأمراء على أن يوفد السلطان الأمير منجك اليوسفى إلى الشام ، ليتحسس الأخبار ، فتوجه إليها توأ قبل أن يتوجه إليها السلطان بجنوده .

ثم مازال يعملو به الجسد ، حتى عينه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، وزيراً وأستاداً بالديار المصرية بإشارة من أخيه ديلغا أروس ، نائب السلطنة إذ ذاك عام ٧٤٨ هـ ، فنفذ أمور الدولة ودبرها واقتصد من نفقات الممالك مبلغ ستين ألف درهم شهرياً ، وقطع رواتب أخرى . وفى هذا العام انحرف مجرى النيل ، فتآكلت شواطئه وخيف الفرق . فوكل إلى الأمير د منجك ، لإصلاح هذه الشواطئ ، ففرض على كل متجر بمصر والقاهرة ، وعلى كل نخلة بجهة الشرقية ، درهمين من النضة . فاجتمع له من ذلك مال كثير . فاشتري عدة مراكب ، جاب بها الأحجار إلى الشاطئ . لتقويته ضد المياه ، حتى يكسر من حدتها . وما زال جادا فى عمله ، دون نتيجة حاسمة ، حتى زاد طغيان المياه ، وضج الناس بسببه . فأدى فشله فى مهمته إلى اتهامه ، والقبض عليه ومصادرة أمواله ، ثم عزل من الوزارة . ولكن سرعان ما عاد إليها .

وما يذكر أنه وهو فى الوزارة ، أباح فى عام ٧٤٩ هـ للجند ، النزول عن الإقطاع أو المقايضة عليه . فجذبهم ، وبذل كل منهم ، إقطاعه لمن يدفع من العسامة وسواها فى سبيله المال المناسب ، على شرط أن يدفع مبلغ نظير ذلك للوزير .

ويبدو أن د منجك ، كان يسعى إلى المال بطرق عدة ، ويخاذه لنفسه . وعنى بضروب من الاقتصاد لتوفير المال للدولة . غير أنه لم يخل من الشبهة . وأخذت الظنون تتجمع حوله ، والنفوس تتوالب بحقد عليه . وحاول أن يوسع فى اختصاصه ، وأن يضيف وظيفة نظار الحاصل إلى الوزارة ، فاعترضه الأمير شيخو العمرى ، ومنعه . فكان ذلك من جملة أسباب النزاع بين ديلغا أروس ، نائب السلطنة حينذاك . وأخى د منجك . وكان سبباً فى خروج د منجك ، من الوزارة . إلا أنه عاد إليها بعد قليل - كما ذكرنا - .

ولقد زاد موقفه حرجاً ، أمام السلطان حسن ، فقبض عليه عام ٧٥١ هـ ، هو وطائفة من الأمراء ، وبخجنهم فى الإسكندرية وأحاط بماله ومدخره ، فلبث د منجك فى السجن ، حتى ولى الملك "سلطان الصالح بن الناصر محمد" ، فأطلق سراحه عام ٧٥٢ هـ ، وأنعم عليه

بمقدمة ألف ، وأعاد إليه بعض ما أخذ منه . وعرضت له محنة بعد قليل ، اختفى على أثرها . ثم قبض عليه . ثم أطلق عام ٧٥٥ هـ . ثم عاد السلطان حسن إلى العرش ، فأصلحت الظروف بينه وبين «منجك» ، فعيّنه نائباً على طرابلس ، ثم نقل إلى حلب عام ٧٥٩ هـ ، عوضاً عن الأمير «طان» ، الذي قبض عليه ، ولكن الأمير «منجك» ، لم يلبث أن دب الفساد فيما بينه وبين السلطان ، فعول على الاختفاء ، فاختفى عام ٧٦٠ هـ . فعاقب السلطان بعض شيعته ، وأقام الأمير «بيدمر الخوارزمي» ، نائباً لحلب مكانه . ثم آل أمره إلى القبض عليه ، فأشخص إلى السلطان ، فوبخه . ثم ما لبث أن عفا عنه ، ومنحه إمارة أربعين في الشام ، على أن يقيم هناك عاطلاً . فسافر لساعته إلى تلك البلاد . فلبث زمناً . ثم اشترك مع «بيدمر» نائب الشام ضد «يلبغا» العمري منبر الدولة المنصور بن حاجي ، فقبض عليه وسجن زمناً ، حتى نصبه السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، نائباً للشام ، خلفاً للأمير «أزدمر العمري» ، المتوفى ، ذلك عام ٧٧١ هـ (١) . فظل بها حتى توفي المقر السيفي «أيدمر» نائب سلطنة مصر عام ٧٧٥ هـ ، فاستدعاه حينئذ السلطان الأشرف شعبان وأقامه نائباً للسلطنة وأتابك عسكر معا ، فجمع بذلك بين أكبر منصبتين في الدولة . وفوض إليه السلطان ، أمور المملكة في الديار المصرية والشامية ، وجعل من حقه أن يخرج أنواعاً من الإقطاع دون مشورة السلطان . ولا شك أن هذا العهد كان عهد عظمة الأمير «منجك» ، اليوسفي ، إذ أصبح صاحب الأمر في البلاد ومعتمد السلطان . فلبث يكفهما بثونة الرأي والتدبير ، حتى توفي عام ٧٧٦ هـ ، وعمره نحو سبعين سنة . ودفن في الخانقاه التي أنشأها لنفسه في رأس الصوة تجاه «الطلبخانات» السلطانية إذ ذاك . وكان معروفاً بالبر والإحسان وله آثار عده . - وعين من بعده «أقتمر بن عبد الغني» عام ٧٧٨ هـ فلم يلبث إلا قليلاً . وما يذكر أن السلطان «برقوقا» كان من ماليك «منجك» اليوسفي ، حينما كان نائباً على الشام .

• ابن إلياس ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ - وخطط المقرئ ج ٣ ص ٣٥٦ ، ج ٤ ص ١٢٤ -

الدرج ٤ رقم ٩٨٥٠ .

(١) • هذه رواية ابن إلياس ، وذكر المقرئ في الخط ج ٤ ص ١٢٩ ، أنه ولي نيابة دمشق في عام ٧٦٩ هـ .

٣٠ — آقتمر الصاجي

وهو الشهير بالحنبلي . عين نائباً للسلطنة عام ٧٧٨ هـ ، عقب تولية السلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان ، عوضاً عن المقر السيفي « آقتمر بن عبد الغني » الذي عينه الأشرف شعبان نائب ساطنته ، في ذلك العام نفسه ، فلم يمكث بها إلا قليلاً ثم عزل ، ثم عاد كما سنبينه فيما بعد .

أما « آقتمر الصاجي » فإنه وقع نفور ونزاع بينه وبين الأمير « أينبك البدرى » ، وكان قد تزعم نزاعاً وقع بين الأمراء . فأشار « آقتمر » الصاجي على السلطان المنصور علي بالقبض على « أينبك » . ولكن المشورة لم تتم إلى غايتها . واستطاع الأمير « أينبك » البدرى ، أن يهدد الأمير النائب « آقتمر » الصاجي ، وأمره بأن يغادر البلاد توجاً إلى دمشق . وتوعده بالقتل إن توقف عن تنفيذ الأمر . فصدع هذا به . ورحل إلى بلاد الشام في العام نفسه . وأصبح « أينبك » سيد الموقف في مصر ، كما سيتضح في ترجمته . حتى قبض عليه . وفي هذا دليل على ضعف نيابة السلطنة في ذلك الحين .

« ابن إلياس ج ١ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ » .

٣١ — آقتمر بن عبد الغني

كان نائباً على الشام عام ٧٦٨ هـ . ثم عينه الأشرف شعبان حفيد الناصر ، نائباً للسلطنة عام ٧٧٨ هـ ، قبل « آقتمر » الصاجي السابق ذكره ، وذلك وقت خروجه للحج . فلبث في منصبه قليلاً ، ثم عزل في العام نفسه . وقبض عليه وسجن . ولما نفي « آقتمر » الصاجي إلى نيابة دمشق في عهد المنصور علي بن الأشرف شعبان بتهديد الأتابكي « أينبك » البدرى ، أفرج عن « آقتمر بن عبد الغني » وأعيد إلى نيابة السلطنة . فكان ضئيل النفوذ بجوار « أينبك » .

« ابن إلياس ج ١ ص ٢١٧ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٢٤٠ — الدرر ج ١ رقم ١٠٠٨ » .

٣٢ — سودون الفخرى الشيوخوني ٧٩٨ هـ (١)

شغرت نيابة السلطنة ، بعد « آقتمر بن عبد الغني » إذ استبد بالملك في أخريات الدولة

١ — ذكر المقرئ في خطه جزء ٣ تحت عنوان « دار النيابة » قال : « ولم يل النيابة أحد في الأيام الظاهرية » . ولكن ابن إلياس صريح في أن « سودون » ظل زمناً في عهد الظاهر « برقوق » ، وهو نائب سلطنة ، حتى مات .

البحرية الأتابكي « برقوق » . فلما صار سلطانا على مصر عام ٧٨٤ هـ ، وأسر الدولة
الجزكية ، عين في نيابة سلطنته الأمير « سودون » الفخري الشيخوني . وقد وفد على
مصر حينذاك الأمير « بيدمر » الحوارزمي نائب الشام ، فأكرمه « برقوق » وقدمه في
بعض المواقف على « سودون » . وفي ذلك مافيه من اتضاع منزله النيابة .
وقد اشترك « سودون » وبعض الأمراء ، مع « برقوق » ، في الفتنة التي أشعلها ضده .
« يلبغا » الناصري ، والتي أدت إلى اختفائه ، وعودة الصالح أمير حاج إلى السلطنة عام
٧٩١ هـ . وقبض على « سودون » وسجن في دمياط . ثم أفرج عنه بعد قليل . ولما عاد
« برقوق » إلى السلطنة عام ٧٩٢ هـ ، أعاد « سودون » إلى نيابة سلطنته . فظل يشغلها
في كنفه حتى توفي عام ٧٩٨ هـ . وقد كانت له يد طول في عودة « برقوق » إلى عرشه .
« ابن أبياس ج ١ ص ٢٦٠ و ٢٧٣ و ٢٧٥ و ٢٧٩ و ٢٨٤ و ٢٨٦ و ٢٩١ و ٢٩١ و ٢٩٥ و ٢٠٦ »

٣٣ — تمرز

ذكره المقرئ ، وقال إن الناصر فرج بن برقوق أقامه في نيابة السلطنة ، فلم
يسكن دار النيابة ، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ، وهو غير تمرز
الأتابكي في عهد قايتباي .

« الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ »

٣٤ — أقبغا التمرزي

أحد الأمراء الذين اعتمد عليهم السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق . إذ خلع عليه عام
٨٤٢ هـ إمرة سلاح ، بعد أن كان أمير مجلس . وظل يتقدم في عليا المناصب لديه ، حتى
عين في العام المذكور أتابكيا ونائبا للسلطنة معا . وهو آخر الثواب .
قال عنه ابن أبياس : « صار يحكم بين الناس ، وعلى بابه رأس نوبة ونقباء . وهو
آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية » .

ولما ثار نائب الشام « إينال الحكي » وخرج عن طاعة السلطان ، أرسل مكانه
الأمير « أقبغا التمرزي » نائبا على الشام . وبنقله من النيابة بمصر ، انتهى عهده .

« ابن أبياس ج ١ ص ٢٧٠ و ٢٥٠ »

أتابكية العسكر

روى القلقشندي (١) في صبح الأعشى ، قال : « الأتابكية ، ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر . قال السلطان عماد الدين في « تاريخه » : وأصله « أطابك » ، ومعناه الوالد الأمير . وأول من ألقب بذلك نظام الدولة وزير الملك شاه بن أب أرسلان السلجوقي ، حين فوض إليه ملك شاه ، تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة ، ولقبه بألقاب ، منها هذا . وقيل : أطابك ، معناه « أمير أب » ، والمراد أبو الأمراء - وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب السكافل . وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى . وغايته رفعة المحل وعلو المقام ، .

ويفهم من حديثه هذا أن « الأتابك » هو أبو الأمراء . أى مقدمهم جميعا . وأن لقبه هذا - في العصر المملوكي - لقب شرف فحسب . وأنه ليس لديه عمل جدى - بحكم لقبه - يشترك به في إدارة شئون الدولة .

ولكننا نشعر - وقد قرأنا تاريخ هذا العصر - أن الأتابكية كانت من أهم مناصب الدولة وألقابها . وأن « الأتابك » كان يشترك باستمرار في شئون الدولة ، ويديرها ، وأنه كان يندب لحل كثير من مشاكلها . وأنه كان فيصلا في المعقد من أمورها . وأنه كان - في الغالب - كبير قوادها ، والمقدم على رأس جندها ، والمشار إليه المذكور في حروبها . بل كثيرا ما بذ « الأتابك » نائب السلطنة ، وغض من شأنه .

وأهل « الأتابكية » كان الملحوظ فيها عند بدء إنشائها ، أن تكون لقب شرف ولكن الأتابكيين في العصر المملوكي لم يقفوا عند هذا الحد . بل برزوا بروزا واضحا ، وكثيرا ما كان « الأتابك » محورا للدولة تدور حوله . والواقع أن الدولة عرفت « الأتابكية » منذ عرفت « النيابة » تقريبا . فقطز المعزى - وهو ثاني نواب السلطنة - كان أيضا أول الأتابكية ، وذلك في عهد المنصور على بن المعز أبيك ، جامعا بين الرتبين ، ولما صار سلطانا اختار للأتابكية الأمير فارس الدين « أقطاي » المستعرب ، ووكل إليه مع الوزير تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور

الدولة (١). ولم يحدث في أى عهد من عهود سلاطين المماليك ، أن شغل « الأتابكية » ، أمير لم يسكن أهلا لها . أو كان دون نائب السلطنة مهابة ومكانة ، وشجاعة وإقداما وجاها وعصبية ، وتدخلًا في أمور الدولة . بل ربما كان « الأتابك » ، أقرب مجلسا إلى السلطان . وكثيرا ما رشحت « الأتابكية » ، شاغلها لولاية السلطنة . وولى السلطنة سلاطين كانوا من قبل « أتابكة » . ولما خلع الناصر محمد بن قلاوون في المرة الثانية ، وقع الاختيار على سلطنة « الأتابكى » ، بيبرس الجاشنكير ، مع وجود « نائب السلطنة » ، الأمير سارار .

وقد تقلبت ظروف الزمان بنيابة السلطنة — كما بينا — ، فأغيت أكثر من مرة ، وظلت شاغرة حتى تنوى أمرها ، ثم لما عادت ، عادت أضعف مما كانت عليه . ولما شغلها « أقبغا » ، التمرأى عام ٨٤٢ هـ ، ثم فارقها ، كان ذلك آخر عهد الدولة بها . في حين أن « الأتابكية » ، منذ نشأت في الدولة ، لازمتها ، حتى انتهت معها . ولم تحتف إلا لمحات يسيرة ، كما وقع في عهد قلاوون وابنه خليل ، وكما وقع في عهد العادل « طومان باى » ، عام ٩٠٦ هـ ، بعد أن قتل « أتابكية » « قوصروه » ، فإنه لم يعين بدلا منه ، حتى أخذ الغورى بزمام السلطنة . فأقام في « الأتابكية » ، الأمير « قيت الرجبى » . وفي الوقت الذى كان يخلو من « نيابة السلطنة » كان « الأتابك » مرجع السلطان وسنده ومستشار . كالآتابكى الأمير الكبير « شيخو » العمرى ، في عهد الناصر حسن . وحدث في ظروف كثيرة ، أن ضخم نفوذ « الأتابك » ، حتى صار المتصرف الوحيد في شئون الدولة . - روى ابن إياس في ترجمة المظفر قطز قال : « إنه خلع على الأمير بيبرس ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض إليه جميع أمور الدولة » . - وفي عهد المنصور بن حاجى ، عادت « نيابة السلطنة » بعد إلغائها زمنا ، فعين فيها المقر السيفى « قشتمر » المنصورى ، ولكنه كان ضعيف الكلمة قليل الجاه يازاء « أتابكى » ، عصره ، المقر السيفى « يلبغا » العمرى الناصرى ، إذ كان هو مدبر شئون الدولة دون سواه . - وفي عهد الغورى ، كان « أتابكيه » مرجعه في ضبط الأمور ، ولم تكن هناك « نيابة سلطنة » . والأمثلة وفيرة .

وقد تسمو منزلة أمير ليس « نائبا ولا أتابكيا » ، ويمده السلطان بثقته ، ويطلب

مشورته ، ويطلق يده ، فيضخم نفوذه ويخمل من عداه من الأمراء ، سواء في ذلك « النائب و الأتابكي » . ومن الأمثلة على ذلك : القاضي المقرزيني « عبد الباسط » ابن القرشي : كان ناظر الجيوش في عهد « برسباي » ، ولكنه ظل صاحب الرأي في دولته زمنًا . - والجمالي « يوسف » ، ناظر الخاص في عهد « إينال » ، كان مدبر مملكته . - والأمير « أقبردي » الدوادار ، ضخم نفوذه في أخريات عصر « قايتباي » ، حتى صار صاحب الحل والعقد . - والأمير « كرتباي » الأحر ، عين في عهد الناصر ابن قايتباي عام ٩٠١ هـ ، وزيراً وأستاداراً وكاشف كشاف ، وصار صاحب الأمر في الدولة . وقد ظل « كرتباي » هذا زمنًا في أوائل عهد الناصر المذكور ، حتى وقعت فتنة اختفى على أثرها . وظهر شخص آخر مكانه ، وهو خال السلطان ، ويدعى « قانصوه » ، فعينه السلطان في « شادية الشرابخانة » . واجتمعت فيه ثقة الملك ، وأصبح بيده الحل والعقد بمصر ، مع وجود « الأتابكي » « تراز » . ثم اختير « قانصوه » هذا للسلطنة مع وجود الأتابكي « أزيك بن ططخ » .

ومن طغى نفوذه على نفوذ أتابكي عصره : الأمير « طومان باي » الدوادار الذي ملك بعد باسم العادل ، كان دواداراً ، وأستاداراً ، ووزيراً ، وكاشف كشاف ، في عهد « جان بلاط » عام ٩٠٦ هـ ، وكان صاحب الرأي في الأمور ، مع وجود الأتابكي « ثاني بك الجمالي » .

هذا . ويبدو أن لقب « الأتابكي » كان يلزم صاحبه - ولو بعدت به الأحوال عن شئون السلطان - أكثر مما كان لقب « النيابة » يلزم صاحبه . كما يبدو أنه إذا جمع أمير بين لقبى الأتابكي والنائب ، برز لقبه الأول وبقي ، أكثر من الثانى .

ومن جمع بين الرتبتين : « قطز » و « قوصون » و « منجك اليوسفي » :

ومن حظى بالسلطنة من الأتابكية : الظاهر « بيبرس » ، كان أتابكياً في عهد قطز (١) . والمنصور قلاوون ، وكان أتابكياً في عهد العادل سلامش . والظاهر « برقوق » ، كان أتابكياً في عهد الصالح أمير حاج . والمؤيد شمينج كان أتابكياً في عهد السلطان الخليفة العباسى . والظاهر جقمق كان أتابكياً في عهد العزيز

١ - روى ابن لإس أن بيبرس كان أتابكياً من بدء عهد قطز ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ وفى السلوك أن « فارس الدين أقطاي المستعرب » هو الذى كان أتابكياً منذ أول عهد قطز : ج ١ ص ٤٠٥

ابن برسبای . وغيرهم كثيرون .

الأنابكية (١)

ولى الأنابكية عدد كبير من الأمراء متتابعين ، وبلغ منهم السلطنة كثيرون . أما من لم يبلغها ، فنحاول هنا أن نثبت له ترجمة مناسبة أيضا ، ذاكرين ما عثرنا عليه من سترات الوفاة . فمنهم :

١ — فارس الدين أقطای المستعرب

ويعرف بالصغير . أحد أمراء الدولة البحرية . اختير أنابكيا في أول عهد المنصور على بن المعز أيبك عام ٦٥٥ (١) . ولكن الحل والعقد كان لذاك ، بيد نائب السلطنة الأمير قطز ، فلما ولى قطز السلطنة ، أقر « أقطای » أنابكيا كما هو ، عام ٦٥٧ هـ . وفوض إليه أمر عسكره ، واستخدمهم ، وسائر أمور الدولة ، بمعاونة الصاحب « زين الدين يعقوب » .

وقد اشترك « أقطای » مع سلطانه « قطز » عام ٦٥٧ هـ ، في غزو التتار ببلاد الشام ، وهزمهم في موقعي « عين جالوت » و « بيسان » . — غير أنه يبدو لنا أنه ضلح مع المتآمرين على سلطانه ، بزعامة « بيبرس » . فقتلوه على مقربة من أرض الصالحية . وكان « أقطای » أول من بايع « بيبرس » بالسلطنة فجعله بيبرس أنابكيا لعسكره — كما كان — عام ٦٥٨ هـ . ولكنه كان أقل نفوذا من نائب سلطنته الأمير « بيليك » الخازندار « مملوك » « بيبرس » ومحل ثقته .

وفي عام ٦٦٢ هـ . اتهم النصارى بإضرار الخرائق في أرجاء القاهرة ، فأمر السلطان « بيبرس » بأن يجمعوا ويحرقوا . فشفع فيهم « أقطای » ، ففُرض عليهم غرم مالى ، بدلا من العقوبة ، مع إلزامهم لإصلاح ما أتلّفوه من الدور .

وهذا الأمير غير « فارس الدين أقطای » رأس المماليك البحرية ، الذى قتله الملك المعز أيبك عام ٦٥٢ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٨ ، ١٠٤ — سلوك المقرئى ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤١٨ ،

١ — راجع فهرس السلوك للمقرئى .

٢ — رواية ابن إياس ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ تدل على أن « أقطای » بلغ الأنابكية لأول مرة فى عهد بيبرس عام ٦٥٨ هـ . رواية السلوك ج ١ ص ٤٠٥ تدل على أنه بلغها منذ عهد المنصور بن المعز عام ٦٥٥ هـ .

٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٥٣٢ ، ٥٥٦ ، ٥٧٣ - النج السديد ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٩٥ ، ٥٣٤ - ج ٢ ص ٤١٢ ، ٤١٧ .

٢ - بكتمر الساقى ٧٣٣ هـ

ولى الأتابكية بعد ، أقطاي ، أتابكيون وصلوا إلى منصب السلطنة مثل المنصور قلاوون . وشغرت الأتابكية حينما (١) ، وما زالت حتى ولها « بكتمر الساقى » فى عهد الناصر محمد بن قلاوون .

وقد ذكره ابن إنباس فقال ما ملخصه : لما خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الحجاز حاجا للمرة الثالثة عام ٧٣٢ هـ . خرج بصحبته عدد من الأمراء ، من بينهم الأمير « بكتمر الساقى » الأتابكى ، هو وولده الأمير أحمد . فلما قضوا حجهم ورجعوا ، مرض الأتابكى « بكتمر » فى أثناء الطريق . فلما وصل إلى « عيون القصب » نقل عليه المرض فأت هناك ، ودفن فى اللاحية نفسها يوم ثانى المحرم عام ٧٣٣ هـ . ثم مرض ابنه ، وتوفى على أثره ودفن « بنجل » . وبعد مدة نقلت جثتهما إلى القاهرة حيث دفنتا فى الحائقاء التى أنشأها « بكتمر » بالقرافة الصغرى بالقرب من جبل المقطم ، (٢) .

وكان « بكتمر » من « مالك المظفر بيرس الجاشنكير » ، ثم انتقل ملكه إلى الناصر محمد ابن قلاوون ، فخطى عنده وجعله ساقيا . وما زال يترقى ، حتى صار أتابك عسكره . وكان مقربا منه كثير الجلوس إليه . وكان الناصر كثيرا ما يقيم بدار « بكتمر » ، ثم صاهره ، فعلا بذلك جده واتسع جاهه . حتى صار الملك لا يبرم أمر أدون استشارته ، ولا يهدى إليه نفيس دون أن يقسم له منه . فكثير ما له وزاد دخله غير أن هذا الحظ الذى واثاه على يدي الملك نفسه أغراه به ، حتى قيل إنه أجل أن ينتزع سلطانه من كرسية ، ويستوى بنفسه عليه . فبادر الناصر إلى مناجزته ، فذس له - كما قيل - من سقاه هو وابنه السم ، فماتا - كما تقدم - ترك « بكتمر » من النفائس ما لاحصر له . وقد كان وافر العقل زائد الحرمة كليس الحديث وقورا محسنا . وهو الذى تلاهى مع الأمير « قوصون » وتفائرا ،

١ - ذكر فى السلوك أن الأمير « بكتاش » كان أتابكا فى عهد لاجين .

٢ - روى فى الدرر السكامة أن ابن بكتمر مات قبله بثلاثة أيام ، ويفهم من حديثه أن الناصر محمد بن قلاوون له دخل فى موتها . وأن موت بكتمر كان فى أوائل عام ٧٣٦ هـ .

فخزّه « قوصون » ، لأنه لم يكن مثل « بكتمر » ، من عاش في طباق القلعة . وقد أشرنا إلى هذه المفاخرة آنفا في باب « أصل الممالك » : وكان موتة فوزا « لقوصون » ، إذ ترق واستولى على جميع الأسلحة التي خلفها « بكتمر » ، وقد قومت بنحو ستمائة ألف دينار .
« ابن إياس جزء ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ - الدرر ج ١ رقم ١٠٣٨ »

٣ - « سيف الدين شيخو العمرى » ٧٥٨ هـ

من ممالك الناصر محمد بن قلاوون ، ظهر في أيامه وأيام أبنائه ، وحظى عند المظفر حاجى بن الناصر ، ولما اشتدت الفتنة بين هذا السلطان وبين أمراءه عام ٧٤٨ هـ بسبب طيشه وتهوره في معاملتهم ، ورأى أنهم على أهبة الاستعداد للإيقاع به ، رأى أن يوسط بينه وبينهم هذا الأمير « شيخو العمرى » . فاجتمع بهم ليتفهم رأيهم . فطلبوا إليه أن ينزل السلطان عن كرسيه . فبلغ الأمير « شيخو » هذه المقالة إلى السلطان فأبى . وانتهى الأمر بقتله وزوال ملكه . ثم مالبت أمر « شيخو » أن علا . وأخذ نجمه يصعد في أول سلطنة الناصر حسن ، فولاه نيابة دمشق . غير أنه سرعان ما غضب عليه ، فسبب بسبب ذلك إلى السجن بقلعة دمشق ، ومنها أرسل إلى بيحان الإسكندرية عام ٧٥١ هـ ، ثم أفرج عنه في عهد الملك الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ . ومن ثم أصبح من خاصة رجاله ، حتى إنه رحل معه في جملة الأمراء إلى بلاد الشام عام ٧٥٣ هـ ، وقتلوا بعض الأمراء الخارجين في فتنة « يلبغا أروس » ، وقبضوا على كثير منهم ثم عادوا . وفي عام ٧٥٤ هـ ، اشترك مع بعض الأمراء بقيادة السلطان المذكور ، وأدبوا عربان الصعيد الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان بقيادة شيخهم « ابن الأحذب » ، غير أنه مالبت أن تزعم حركة ائتمار على هذا السلطان ، كانت نيتها أن خلع من عرشه ، وأعيد مكانه الملك الناصر حسن بن الناصر محمد عام ٧٥٥ هـ . فلما تمت عودته إلى السلطنة ، كان طبيعيا أن يقرب إليه الأمير « شيخو » ، فصارا نائبا على عسكره . وألغيت نيابة السلطنة ، وأقيمت مكانها « إمارة كبيرة » يسمى شاعلها « أميراً كبيراً » . وأول من شغلها هو « شيخو العمرى » . وبذلك اجتمعت فيه الكلمة ، وصارت بيده مقاليد الأمور . وعظمت مكانته وكثر حساده ومنافسوه ، ومنهم الوزير « منجك اليوسفى » . وكثرت أمواله ، حتى قيل له : « قارون عصره وعزير مصره » . واستطاع في عام ٧٥٦ هـ ، أن ينشئ مسجده المشهور وخانقاه بحى الصليبية الطولونية . وأنشأ بها حمامين وربوعا

وحوانيت ، ونظم فيها دروسا تلقى عقب صلاة العصر من كل يوم ، وأقام فيها عدداً من الصوفية . وكان المدرس الذى يلقى بهادروسة شيخ الإسلام أكمل الدين الحنفي من جلة الأحناف فى عصره . وأجرى أرزاقا على هؤلاء الصوفية وأوقف على ذلك كله أوقافا واسعة . ثم إنه فى عام ٧٥٨ هـ . اغتاله د قطلوقچاه ، (١) السلجدار أحد المماليك السلطانية والذى يمت بصلة إلى د منجك اليوسفى ، وهو فى الإيوان يوم موكب ، فضربه بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات ، فوقع مغشيا عليه ، وحمل إلى بيته ، ثم توفى بعد أيام ، ودفن فى الخانقاه الشيخونية التى أنشأها . وكانت جنازته حافلة ويومه مشهودا ، وكثر حزن الناس عليه ، لما له من الفضل الكثير والأبداى البيض ، أما قاتله فقد قبض عليه ، واعترف أنه اندفع إلى فعلته الشنعاء ، لأن الأتابكى لم ينصفه فى مظالبة رفعها إليه . وقد أمر السلطان بتسميره والطواف به ، ثم قتله على مشهد من ممالك الأتابكى د شيخو . وبهذه المناسبة نذكر أن الأمير د شيخو ، كان أحسد الذين عنوا بجلب المماليك وشراهم وتربيتهم ، حتى بلغت عدده مائكة سبعمائة مملوك .

د ابن إياس . ج ١ . ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، إلى ٢٠٥ ،

— خطط ج ٤ ص ١١٣ — درج ٢ رقم ١٩٥٠ .

٤ — يلبغا العمرى الناصرى الكبير ٧٦٨ هـ

كان هذا الأمير من ممالك السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد . وفى سنة ٧٦٠ هـ ، أنعم هذا السلطان على مملوكه د يلبغا ، بإقطاع واسع ، هو إقطاع الأمير د تنكربغا الماردىنى ، أحد الأمراء المقدمين ، والمتوفى فى السنة المذكورة . وصار د يلبغا ، أمير مجاس من ذلك الحين . وأعتبر هذه السنة بدءا للجد السعيد الذى صادف الأمير د يلبغا . فما زال نجمه فى الصعود ، حتى أصبح من خيرة المقربين لدى السلطان حسن . ولكن ذلك حزن فى نفوس أعدائه . فشوا بالسعاية والدس بين د يلبغا وسلطانة . وزينوا للسلطان ضرورة مناجزته قبل عدوانه . فما كان من السلطان حسن . إلا أن هم بالفتك بمملوكه ، إثر ليال قضاه السلطان فى لهو ولعب ومرح ، بين خيام أنيقة ، ضربت لذلك فى شط الجزيرة . وكان د يلبغا ، إذ ذاك أحد الذين أقاموا فى الخيام مع السلطان هناك ، وسمروا معه . فلما أحس د يلبغا ، من السلطان بقرب غدره ، زایل خيمته فى نفس الليلة التى لجأ السلطان فيها ، وهى ليلة الأربعاء ٩ جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ . وبذلك نجا من الفتك به . وفى

الوقت نفسه كان « يلبغا » قد دبر لسلطانه كميناً برز له في خلال عودته ، ف وقعت بينه وبين جند السلطان موقعة قاسية ، انكسرها فيها السلطان ، وفر تحت جناح الطلام هارباً إلى القلعة . فلما أسفر الصباح كان الأمير « يلبغا » قد جمع جموع جنده ، وحاصر السلطان في القلعة . ففر منها ثم قبض عليه ، فسجنه « يلبغا » ، وقيل إنه خذّته ورماه في البحر ، لأنه لم يعثر له على أثر من بعد ؛ ولم يدفن في مدينته داخل القبة التي أنشأها لذلك ، ولما تم ذلك كله أصبح « يلبغا » ، بعد أن هزم سلطانه وسيدته ، صاحب السكينة والأمر والنهي . ولهذا سرعان ما اختاره السلطان الجديد ، وهو الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي أتابكا لعسكره ، في تلك السنة - ٧٦٢ هـ . . وأصبح القائم بتدبير الأمور في المملكة . وفي السنة التالية تزوج « يلبغا » ، بخوندطولوز ، زوجة أستاذه الملك الناصر حسن وبلغ من نفوذ « يلبغا » ، أن خلع الملك المنصور من السلطة عام ٧٦٤ هـ ، وقبض عليه وسجنه في دور الحرم بالقلعة ، محتفظاً به للظرواى وولى مكانه الملك الأنشرف شعبان أبا المعالي ابن حسين بن الناصر محمد . وظل « يلبغا » ، أتابكياً وأميراً كبيراً أيضاً . وطمح نفوذه على من عده من الأمراء ، والإسكندر نائب السلطنة وقشتمر المنصورى وساعده على هذا الطغيان ، أن كان السلطان الأنشرف شعبان في سن صغيرة ودون البلوغ .

وفي عام ٧٦٧ هـ واجهه الأتابكى « يلبغا » ، فتنة شديدة نزعمها ضده الأمير « طنبغا الطويل » وكان هذا الأمير بنة أمير سلاح . فاستصدر « يلبغا » مرسوم سلطانيا « طنبغا » ، بأن يكون نائباً على الشام . فرفض أن يطيع المرسوم ، وجمع جموعه لمقابلة جنود السلطان وأتابكيه معا . فقتلوا الفريقان في ناحية « قبة القصر » ، فانكسرت جنود يلبغا وفر هارباً . وكادت الهزيمة تنم عليه ، لولا أنه كان قد أكن لأعدائه كميناً فجأهم في عودتهم وكسره شركرة ، وقبض على الأمراء المتمرعين في هذه الحركة ومنهم « طنبغا » ، وسيدتوا في الإسار بين يدي « يلبغا » . فأرسلوا تحت جناح الليل إلى السجن بشعر الإسكندرية . ثم فرقت رتبهم وإقطاعهم على رجال جدد . وعظمت بذلك منزلة « يلبغا » ، حتى كان الأمراء الكبار يسعون إليه بالهدايا النفيسة .

ومن أجل أعمال « يلبغا » أن رسم في عام ٧٦٧ هـ ، بإنشاء عمارة بحرية ترسل إلى الشواطىء لسكى تؤدب الفرنجة المغيرين عليها ، وتمنع هجومهم وعيبتهم على هذه البلاد . وقد احتفل بإنزالها إلى النيل احتفالا شامخا .

وبينما كان الاحتفال على أتمه إذ كانت المؤامرات تحاك للفتك بالأنابكي و يلبغا ، .
 فبينما كان في شط الجزيرة مع السلطان ، إذ شعر بوثوب بعض مماليكه عليه ، لأنه ضرب
 أحدهم وقطع أنفه . ولكنه استطاع أن يفر وهو منزى بزى فلاح . ولما بلغ القاهرة
 جمع حوله عدداً من الأمراء والجند ، ووقفوا في الصباح تجاه الجزيرة ، ووقف إزاءهم في
 الشاطئ . الآخر الممالك الثائرون عليه ، وقد أغروا السلطان وأرغموه على أن يقف بين
 صفة وفهم . وظل القتال دائراً بين الفريقين . - ومن الاحتياطات التي اتخذها و يلبغا ،
 أن أعلن خلع السلطان الأشرف شعبان ، وباع هو ومن معه أخاه أنوك ، ولقبوه
 بالملك المنصور ، ونادوا باسمه في أرجاء القاهرة . وكذلك أمر الملاحين في النيل بأن
 يمنعوا عن نقل الفريق الآخر إلى شاطئ القاهرة . - ولكن أحدهم التوية استدرجه
 سلطان شعبان ، فنقله هو وجموع من جنوده إلى الشاطئ المذكور . ومن ثم صعد إلى
 مقره بالقلعة . فتسامع الناس بصعوده ، وتراجع عدد من الملتفين حول و يلبغا ، عن
 نصرته . فقت ذلك في عنده ، ونكص عائداً إلى بيته بناحية السكباش في أسوأ حال .
 ولاقى من العوام شرورا كثيرة في أثناء عرذته . ثم إن السلطان الأشرف شعبان أرسل
 إليه من قبض عليه وسجنه . غير أن مماليكه الثائرين أخرجوه من السجن عنوة وأذاقوه
 ألوانا من العذاب ، وتقدم إليه أحدهم واسمه و قراتمر ، وضربه بسيفه ضربة أطاحت
 برأسه عن جثته . ثم مثلوا بها شتمثيل ، وبعد لآى دفنوه في مقبرة عند الباب المحروق .
 وكان قتله ليلة الأحد ٩ ربيع الثاني عام ٧٦٨ هـ . وهكذا كانت خاتمة و يلبغا العمرى ،
 بعد أن شهد من العز والجاه الشيء الكثير ، واقتنى من الممالك ما يزيد عن ثلاثة آلاف
 مملوك . غير أنه على ما يظهر كان سىء المعاملة . وقال ابن إيباس : إنه كان سفاكاً للدماء .
 ولا أدل على خيائته وعدم وفائه من أنه غدر أستاذه الناصر حسنا وتزوج زوجته من
 بعده . - و يلبغا ، هذا غير يلبغا الناصرى الذى ظهر فى عهد برقوق وثار عليه . أما
 المترجم هنا فقد كان برقوق أحد مماليكه .

و ابن إيباس ج ١ من ص ٢٠٧ إلى ٢١٩ - الدر ج ٤ رقم ١٢١٨ ،

٥ - المقر السيفى استدمر الناصرى ٧٦٩ هـ

أحد أفذاذ هذا العصر . وقد عينه السلطان الأشرف شعبان ، أنابك الحساكر ،
 عوضاً عن و يلبغا ، العمرى ، بعد مقتله عام ٧٦٨ هـ . فسكن هذا الأمير حيث كان

يسكن الأتابكي « يلبغا » والتف حوله عدد كبير من الممالك « يلبغا » وتشبه به في رواجه وغدوه وعظيم جاهه ، حتى حسده كثير من الأمراء . وما زال الحسد يأكل قلوبهم ويستفزها ، حتى ثاروا ثورة جاحشة ، وطلبوا إلى السلطان أن يسلمهم الأتابكي « استدر » ليفتكوا به . ولكن « استدر » كان قد استطاع أن يضم إليه عددا كبيرا من أمراء وجنود ، ودمع الثائرين عليه دمه قاسية ، ففر منهم من فر ، وانكسر في النهاية منهم من انكسر . ثم استطاع أن يقبض على كثير منهم ، ومن بينهم الأمير « الجاي اليوسفي » ، والأمير « يلبغا آص » ، والأمير « أرغون شاه » ، وغيرهم ، وسبقوا جميعا إلى سجن الإسكندرية . خلال عام ٧٦٨ هـ أيضا . فظهرت حاشية السلطان مؤقتا من بذور الفساد . وكان هؤلاء الأمراء يدعون أن « استدر » يسعى بالفساد والنم بينهم وبين السلطان . والظاهر أن نفس « استدر » لم تكن مخلصه للسلطان ، وأنه وقع تحت تأثير ممالك « يلبغا » الذين جربوا لذة الفن . فقد روود مرة بأن يخلع السلطان ويقوم هو ملكا على البلاد . ولكنه أي . ولعل الفرصة لم تكن واثمة بعد ، وهو في أول سني أتابكيته . ولذلك سرعان ما أعد الأمر عدته في عام ٧٧٠ هـ ، بعد أن قبض على خمسة من كبار الأمراء بضغط من ممالك « يلبغا » وساقهم إلى السجن . ثم هم بالقبض على السلطان . ومن سوء حظه أن كان ممالك « يلبغا » قد عاثوا في الأرض فسادا ، وأذاقوا كثيرا من الناس سوء العذاب . فكرهوهم وتمنوا زوالهم . وما هي إلا أن نشبت الحرب الأهلية بين جنود (استدر) اليلغاويين وبين جنود السلطان شعبان ، حتى انضم إلى جانبه السلطان عدد ضخم من العوام ، ومعهم المقاليع والحجارة ، انتقاما من هؤلاء الممالك . فكسروهم شركسة . وهرب « استدر » . ثم قبض عليه بعد أن قتل العوام عددا كبيرا من ممالك « يلبغا » . ومن سوء تصرف السلطان شعبان أن سمع لمن تقدم إليه شافعا في « استدر » ، فأطلق سراحه وجعله في حراسة ابن عمته الأمير « خليل بن قوصون » . فما كان من الرجلين إلا أن تعاهدا على الانتقاص على السلطان . وجهدا حتى اجتمع حولهما عدد ضخم من الأمراء ، والجنود . وشعر السلطان بدنو الوثبة عليه وأوجس خيفة . ولكن جنوده ومن انضم إليهم من العوام ، شتتوا شمل المتآمرين في موقعة مروعة ، قتل فيها عدد كبير من ممالك « يلبغا » ونفي عدد آخر ، وقبض على « استدر » و « خليل » وغيرهما ، وسبقوا إلى سجن الإسكندرية

وأمر السلطان بالإفراج عن كثير من سجنهم «استدمر» ومن بينهم الأمير «يلبغا آص» الذى أسندت إليه الأتابكية من بعد .

« ابن إياس ج ١ من ص ١١٩ إلى ص ٢٢٤ ، الدرر ج ١ رقم ٩٧٢ (١) »

٦ — « يلبغا آص المنصورى » : ٧٧٠ هـ

أحد الأمراء الذين ظهرُوا في عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد قلاوون . ولما أسندت الأتابكية إلى «استدمر» الناصر ، كان الأمير «يلبغا آص» ، في جملة الأمراء الناقين عليه ، والذين جرت بينهم وبينه فتن ووقائع عدة ، كان من نتائجها أن قبض عليه مع آخرين وأودعوا في السجن عام ٧٦٨ هـ ، بغير الإسكندرية . ولما وقعت فتنة «استدمر» بينه وبين السلطان وقبض في النهاية عليه ، رسم السلطان بالإفراج عن أعداء «استدمر» ، فخرجوا من السجن وفي جملتهم «يلبغا آص» المنصورى عام ٧٧٠ هـ . فأسند إليه السلطان منصب الأتابكية . غير أنه لم يحسن سياسته تجاه السلطان ، إذ تحقق أنه يهيم بالانقضاء عليه . فتناجزه السلطان وقبض عليه ، وأعادته إلى السجن ، هو وبعض المتآمرين معه ، ومنهم الأمير «ماكتمر الشيخونى» . ثم قتله في ذلك العام — وذكر في الدرر أنه قتل قبل ذلك .

وذكر في الدرر أيضا أن الأشرف شعبان عين في الأتابكية بعده «استدمر» ثم «طقتمر» النظامى ، ثم «ماكتمر» المحمدى و «يلبغا» المنصورى معا . ثم «منكلى بغا» الآتى ذكره .

« ابن إياس ج ١ حوادث عام ٧٦٨-٧٧٠ هـ - الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ ترجمة منكلى بغا الآتى »

٧ - منكلى بغا الشمسى ٧٧٤ هـ

أحد أماليك الناصر حسن . ولى نيابة الشام زمنا في أول حكم الأشرف شعبان من عام ٧٦٤ هـ . ثم زار مصر عام ٧٦٨ هـ . بأمر السلطان ، وقدم إليه وإلى الأمراء هدايا نفيسة . فنقله إلى نيابة حلب ، وجعلها أرفع من نيابة الشام . ولما قبض على «يلبغا آص» ، توالى من بعده عدد من الأتابكة ، ثم ولى الأتابكية «منكلى بغا» عام ٧٦٩ هـ . فظل بها حتى توفى عام ٧٧٤ هـ . وذكر في الدرر أنه ولى نيابة السلطنة بمصر عام ٧٦٩ هـ . ثم

استغنى منها . وبعد قليل ولى الأتابكية .

وقد كان من أمثال الأمراء . وقد تزوج السلطان « برقوق » ابنته عام ٧٧٨ هـ وهى ابنة أخت الأشرف شعبان حميد الناصر . وهو غير « منكلى بغا » الشمسى ، الذى ظهر فى عهد الماويد شميخ .

« ابن لياس ج ١ ص ٢١٦-٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ - الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ » .

٨ - سيف الدين الجاى اليوسفى ٧٧٥ هـ

هو الجاى بن عبدالله اليوسفى ، أحد البارزين فى عهد الأشرف شعبان حميد الناصر بن قلاوون . ويمتاز بأنه تزوج أم هذا السلطان وهى « خوندبركة » ، وله عليه فضل رعايته صغيرا . غير أنه حينما أسندت الأتابكية إلى « أستدر » ، الناصرى عام ٧٦٨ هـ ، كان الأمير « الجاى » فى عداد منائيه ، الذين ثاروا فى وجهه . ولكن « أستدر » استطاع أن يقبض عليه وعليهم ، بعسـد قتال عنيف استغرق نصف يوم . وأرسلهم مقيدين إلى سجن الإسكندرية . فلبث « الجاى » فى السجن حتى قامت الفتنة والقتال بين « أستدر » ومعه عماليك « يلبغا العمرى » ، وبين أنصار السلطان وانتهى الأمر بالقبض على « أستدر » وسجنه . فرسم السلطان بالإفراج عن كثير من سجنهم الأتابكى « أستدر » ، ومنهم الأمير « الجاى اليوسفى » . وسرعان ما عينه السلطان ، أمير سلاح عوضا عن الأمير « أزدمر » العامرى الناصرى الخازندار ، وذلك عام ٧٧٠ هـ . وفى عام ٧٧٤ هـ ، لما توفى الأتابكى « منكلى بغا » الشمسى استدعى السلطان الأشرف الأمير « الجاى اليوسفى » وأسند إليه منصب الأتابكية . وهذه السنة بالذات ، توفيت زوجة « الجاى » وهى أم السلطان الأشرف . ويظهر أن هذا كان بداية النحس لهذا الأتابكى ، فإنه ما لبث فى أوائل عام ٧٧٥ هـ ، أن سـولت له نفسه أن يشق عصا الطاعة على سلطانه . وقيل أن سبب ذلك خلاف وقع بينهما على ميراث الأم المتوفاة . فوقع بين أنصار الاثنين معارك فادحة ، عرض السلطان أنهاءها عليه أن يكون نائبا على حماة ، ولكن الأتابكى « الجاى » رفض هذا العرض . فكنيا به جده ، وتنهزم هزيمة منكرة ، وفر هاربا أمام جنود السلطان نحو شبرا . ثم أيقن أنهم لا شك لاحقوه ، فرمى بنفسه وجواده إلى النيل فغرق . ثم أخرجت جثته ، ودفن بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وذلك يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ٧٧٥ هـ . وقد كان مهيبا كثير الصدقات . وقد أنشأ مدرسة عام ٧٦٨ هـ وزودها

بجذانة كتب ، ورتب فيها دروسا - وثلوكه « جر كس » هو الذى قتل بيده السلطان .
شعبان المذكور عام ٧٧٨ هـ .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ - خطط ج ٤ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

٩ - المقر السيفى (إيدمر) ٧٧٥ هـ

كان نائبا على طرابلس عام ٧٧٥ هـ . فاستدعاه السلطان الأشرف شعبان فى هذا العام ، وأسعد إليه الأناطكية ، بعد غرق الأناطكي « الجاى اليوسفى » ويظهر أن السلطان ضم إليه معها نيابة السلطنة . فقد ذكر ابن إياس أن « إيدمر » أقام فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ، ثم توفى عام ٧٧٥ هـ . ولعل ما يرجح ذلك أن الأناطكي الذى خلفه ، انضمت إليه النيابة أيضا ، وهو الأوير « منجك اليوسفى » . وقد ذكر ذاعنه كلمة فى نواب السلطنة لهذا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٨ - الدرر ج ١ رقم ١١٢٧ »

١٠ - المقر السبى « أرغون شاه » الأشرفى :

صار أناتكيا بعد « إيدمر » و « منجك اليوسفى » فى عهد السلطان الأشرف شعبان . وقد صحبه فى خروجه إلى الحج عام ٧٧٨ هـ ولما عصاهم الجنود ، وانشق عليهم عدد من الأمراء فى الطريق ، ووقع بين الفريقين معارك دامية ، فرسلطان وفرمعه الأناطكي « أرغون شاه » ، ودخلا القاهرة محتفين . ولكن أمراء القاهرة كانوا قد أعلموا بالعصيان أيضا وأقاموا ابن السلطان الأشرف مسلكا عليهم وهو المسمى « عاليا » فأنت ترى أن ظروف هذا الأناطكي قد ساءت إلى أبعد مدى .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ،

١١ - الأمير طشتمر المحمدى

وهو الشهير باللقاب كان أمير عشيرة ، فأقاهه السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان أناتكيا مباشرة عام ٧٧١ هـ . عرضا عن « أرغون شاه » ، وأنعم عليه بممتلكاته أيضا ، وذلك إثر ثورة عنيفة خلع فيها السلطان الأشرف نفسه ثم قتل . وتولى مكانه ابنة على المذكور . ولبت « طشتمر » بمنصبه هذا قرابة ثلاثة شهور ونصف ، ثم عزله ونفى إلى القدس عاطلا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣١ ، ٢٤٠ »

١٢ — الأمير «أينبك» البدرى

ظهر هذا الأمير واشتد جاهه وذاع صيته ، فى عهد الملك الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، واستعان فى سبيل ظهوره ، بسلسلة من المؤامرات على سلطانه ، وعلى أنداده من الأمراء . وسنحت له الفرصة ، حينما خرج السلطان الأشرف شعبان ، إلى الحج عام ٧٧٨ هـ فاشترك فى ثورة تزعمها الأمير «طشتمر» المحمدى المعروف باللفاف . وكان مقرها القاهرة . وادعى الثوار أن السلطان شعبان . قد قتل فى العقبة . واستدعوا ابنه الأمير عليا ، وملاكوه على البلاد ولقبوه بالمنصور . ولما تم لهم هذا الأمر ، زادت مكانة الأمير «أينبك» . واستطاع أن يثمر على البيت الذى اختبأ فيه السلطان الأشرف شعبان بالقاهرة ، إذ فر من ممالكه الثائرين عليه بالعقبة ، وعاد مخفيا إلى القاهرة ، هو وأتابكيه «أرغون شاه» . ولما قبض عليه الأمير «أينبك» ، شدد عليه فى السؤال ، حتى اعترف بأموال وذخائر عدة . ثم أسلمه إلى بعض أعدائه ، فقتلوه أشد قتلة . واكتسب «أينبك» بذلك مكانة جديدة ، وصار أمير آخور كبيرا : وبلغ من جرأته أن دس منوما «بنجا» لأحد منافسيه من الأمراء وهو الأمير المقر السيفى «قرطاي» الطازى رأس نوبة النوب فى ذلك الوقت . وأرثار فتنة ضد السلطان وكثير من أمرائه ، حتى اضطر نائب السلطنة إذ ذاك وهو الأمير «آقتمر» الحنبلى ، أن يتقدم إلى السلطان المنصور على وبطلب إليه أن يقبض على الأمير «أينبك» البدرى . ولكنه كان قد استشرى شره ، وكثر معاونوه والمتعصبون له والطامعون فى جاهه . فلم يجد مانعا لديه من أن يتهدد نائب السلطنة وأن يتوعده وأرسل إليه — وكان قد سار نحو المطرية — أن يخرج منها توا إلى دمشق ، وأن يكون نائبا على الشام . فلم يستطع نائب السلطنة أن يخالفه ، وسار إلى دمشق من المطرية . فخلا الجو فى الدولة من كثير من منافسى «أينبك» فكان طبيعيا أن يخلع عليه السلطان مرتبة أتابكية عسكرية ، وذلك فى أواخر شهر صفر من عام ٧٧٩ هـ . بعد القبض على الأتابكى «طشتمر المحمدى» اللفاف . ويظهر أن من سوء حظ هذا الأمير ، أن تجمع عليه فى بلاد الشام كثير من أعدائه ومن ضحايا اعتدائه . ومع أنه أصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد المصرية ، يتصرف فى أمورها حسب مشيئته حتى إنه خلع الخليفة المتوكل على الله من الخلافة ، وولى مكانه ابن عمه زكريا ابن إبراهيم ، ولقبه بالمستعصم بالله ، وفرق ممالكه الأخصاء ، فأسكن

بعضهم في مدرسة السلطان حسن ، والبعض الآخر في مدرسة الأشرف شعبان . أقول : مع كل ذلك ، لم يستطع القضاء على جميع أعدائه في داخل القاهرة . وقد ثار عليه نواب البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة ، فجهز لهم جيشا خرج به إلى بلاد الشام ومعه السلطان المنصور على محمولا في محفة — وكان لا يزال صغير السن — وذلك في ١٩ ربيع الأول من عام ٧٧٩ هـ . ولكن الجيش ما عتم بعد خروجه من القاهرة ، ووصله إلى بلبيس أن وقعت في صفوفه الفتنة ، وتاق بعض من فيه إلى أن يفتك بالأمير وقطلو فجاءه أخى الأتابكي « أيدبك » ، وكان في طليعة الجند . فلما أحس الأمير « أيدبك » ، وأخوه بالخطر ، فرا قافلين إلى القاهرة حاملين معهما السلطان . فانتشر الخبر في أرجاء القاهرة ، وتشجع الجبناء ، وتحفز الكثير من الأمراء والجند إلى القضاء على الأتابكي « أيدبك » ، فجمع كل من الفريقين جموعه ، وتلاقيا في ناحية الرميطة ، واقتتلا قتالا شديدا . حتى انكسر الأمير وقطلو فجاءه أخوه « أيدبك » . وقبض عليه . ففر الأتابكي « أيدبك » ، واختفى زمناً . وذلك كله في يوم الاثنين ٣ ربيع الثاني من عام ٧٧٩ هـ . وفي الأحد التالي ظهر « أيدبك » في مكان في كوم الجارج ، فأرسل إليه الأمير « يلبغا الناصري » . — أحد أولى الأمر في ذلك الوقت — من قبض عليه . وأرسل مقيدا إلى سجن الإسكندرية ومعه عدد من المتعصبين له . فقال فيه الشاعر الشيخ شهاب الدين العطار المصري :

من بعد عز قد ذل أيدبك وانحط بعد السمو من فتك

وراح يبكي الدماء منفردا والناس لا يعرفون أين بكى

واقى في سجنه ألوانا شتى من التعذيب . وهو صاحب الدرب الذي في « السبع سقايات » .

« ابن أبياس ج ١ من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٤٢ »

١٣ — المقرر السيفي وطشتمر العلائي ، ٧٨٤ هـ

كان نائبا على الشام . عينه في نيابته السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان في أول ولايته الملك : وكان تعيينه في يوم الاثنين ٧ ذي القعدة سنة ٧٧٨ هـ . فسافر في ذلك اليوم من القاهرة إلى مقر وظيفته . ويظهر أنه كان وقورا جليل الشأن . لأن السلطان المذكور أرسل إليه يطلبه إلى القاهرة بعد زوال أتابكية « أيدبك » ، البدرى . فلما حضر خرج السلطان إلى لقائه مع سائر الأمراء ، وأصعده إلى القلعة ومنحه مرتبة الأتابكية . وقد استقدم معه من ديار الشام طائفة من الأمراء من عصابته ، فأكرم عليه السلطان

يرتب وألقاب عدة . وكان له عدد من المماليك ، وقعت فتنة بينهم وبين ممالك الأمير «الزبني بركة» الجوباني كان فيها القضاء عليهم وعلى سيدهم . إذ وقع بين الفريقين قتال عنيف في الرملة . فلما طال أمر هذا القتال ، صعد الأتابكي «طشتمر» إلى باب السلسلة ، ولقي الأمير آخور برقوقا - الذي صار سلطانا فيما بعد - ويبدو أن غرض «طشتمر» أن يتوسل إلى برقوق ليفض هذا النزاع الدائرة رجا . ولكن «برقوقا» كان كبير المطامع ، فانتهاز هذه الفرصة ، وقبض على «طشتمر» وأرسله إلى السجن بثغر الأسكندرية ، وذلك كله في أخريات العام ٧٧٩هـ ، وبذلك انتهت أتابكية «طشتمر» ، وعين مكانه برقوق ، الذي ظل في الأتابكية ، حتى صار سلطانا على البلاد المصرية . — ولعل «طشتمر» هذا هو الذي كان نائب سلطنة بمصر عام ٧٧٢هـ . في عهد الأشرف شعبان بن حسين . ولعله هو الذي مات عام ٧٨٤هـ .

«ابن إلباس ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، — الدرر ج ١ رقم ٢٠١٨ ،

١٤ — المقر السيفي «إيتمش البجاشي» (١) ، الجركسي ٨٠٢هـ

ظلت الأتابكية بيد برقوق العثماني ، بعد القبض على «طشتمر» آخر عام ٧٧٩هـ . حتى صار برقوق سلطانا على مصر عام ٧٨٤هـ . فأقام في الأتابكية أحد أتباعه وهو الأمير «إيتمش البجاشي» . وكان قد ظهر قبل ذلك في عدة حوادث هامة . فقد حاول الأمير «بركة الجوباني» أن يوقع الشر والفتنة بينه وبين الأتابكي «برقوق» عام ٧٨١هـ ، في عهد الملك المنصور على . فقد أرسل الأمير «بركة» إلى «برقوق» في الأربعماء ١٧ صفر من العام المذكور ، يخبره أن الأمير «إيتمش» ألبس مالهيك آلة حرب ، واستعد للوثوب على برقوق . ولكن انضح أن الخبر عار عن الصحة ، وانتهى أمر هذه الدسيسة ، بأن تدخل بين هؤلاء الأمراء شيخان هما الشيخ «أكل الدين الحنفي» ، والشيخ «أمين الدين الخلوقي» ، وأتموا بينهم الصلح . فهدأت الفتنة حينما .

واشترك الأمير «إيتمش» بمالهيك مع عدد آخر من الأمراء بمالهيكهم ، في إطفاء الحريق الهائل الذي شب بظاهر باب زويلة ، عند باب دار التفاح ، واتصل لهيبه بكثبان من النواحي المجاورة . وأوصل إليها التلف والدمار . وذلك في ٢٥ من ذي الحجة سنة ٧٧٩هـ . وفي أخريات تلك السنة أنعم السلطان المنصور على الأمير «إيتمش» بإجارة

أخورية كبيرة عوضا عن «برقوق» الذى صار حينئذ أنابكيا . وانعقدت المودة بين الاثنين حتى أن «إيتمش» عاون «برقوقا» وهو أنابكى على عصابة «إينال اليوسنى» الحاقدين عليه . إذ انحاز «برقوق» إلى دار «إيتمش» ففحه السلاح والماليك وقاتلا معا حتى هرب عدوهما وذلك فى شعبان عام ٧٨٠ هـ .

واشترك كذلك فى إطفاء فتنة عربان البحيرة ، التى طمت وعمت عام ٧٨١ هـ . فقد تناهت الأخبار إلى القاهرة ، بأنه قد تجمع نحو خمسة آلاف من هؤلاء العربان وأغاروا على مدينة منهور ، بزعامة أحدهم «بدر بن سلام» . ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وألحقوا التلف ببلاد أخرى غيرها . فأرسل الأنابكى «برقوق» حملة تأديبية عليهم ، بقيادة ثمانية من كبار الأمراء ، كان الأمير «إيتمش» فى عدادهم ، وقد نجحت هذه الحملة فى مهمتها .

ولما آل الملك إلى «برقوق» عام ٧٨٤ هـ ، جعل الأمير «إيتمش البجاشى» أنابكيا للعسكر . فكان بذلك أول الأنابكة فى دولة الجراكسة . وأصبح عنذاً قويا يعتمد عليه السلطان «برقوق» . وقد كان فيمن خرج عن طاعته الأمير «يلبغا الناصرى» ، وكان حينئذ نائبا عن السلطان فى حلب . وكان عصيانه فى أوائل ٧٩١ هـ ، والتف حوله بعض أمراء البلاد الشامية وما والاها . فلم يجد السلطان بدا من أن يرسل على هؤلاء حملة عسكرية ، بكل إليها أمر تأديبهم . فكان الأنابكى «إيتمش البجاشى» أحد أمراء هذه الحملة . إلا أنها حينما بلغت مدينة دمشق . رأت «يلبغا» قد ملك الشام وقلعتها . وتلاقى الفريقان المتعاديان فى ظاهر دمشق ، فانكسر عسكر السلطان ، وهرب من أمرائه من هرب وأسر من أسر . وكان نصيب «إيتمش» من هذا كله أن أسر وسجن بقعة دمشق ، وذلك فى ٢١ ربيع الثانى عام ٧٩١ هـ ، فظل فى سجنه زمنا . أما يلبغا فقد استطاع الزحف إلى القاهرة . وكانت النتيجة أن نزل السلطان برقوق عن عرشه . وعاد إلى السلطنة الملك الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان . فانهت بذلك أنابكية إيتمش ، إذ عُنِى «يلبغا الناصرى» مكانه فى الأنابكية فى هذه الدولة الجديدة .

ظل «إيتمش» بعد ذلك منكور الاسم غير مذكور . حتى جرت الأيام مجرى جد بدا وعاد السلطان برقوق مرة ثانية إلى مملكته . فكان طبيعيا أن يعيد «إيتمش» إلى الأنابكية . غير أن ذلك لم يتم إلا عام ٨٠٠ هـ ، إذ كان يشغل الأنابكية آخرون بالتوالى ، قذفت بهم الأيام إليها بعد سجن «إيتمش» . ومع ذلك لم يفتأ «إيتمش» قبل أن يلى الأنابكية للمرة

الثانية ، يعاون السلطان ويشارك في شئون الدولة . فمن ذلك أنه اشترك مع بعض الأمراء في دفع عدوان الأتابكي « منطاش » عن مدينة دمشق عام ٧٩٢ هـ إذ كان ثائرا ضد السلطان « برقوق » ، ثم عاد « إيتمش » هو وجماعته من الأمراء ، إلى القاهرة بعد مطاردة « منطاش » ، وذلك عام ٧٩٣ هـ . وتوسط بين ممالك الطباقي وبين الأمير « جمال الدين محمود » الأستادار ، إذ ثاروا عليه - بسبب تصرفاته معهم - ثورة كادت تودي به ، لولا أن تدخل الأتابكي « إيتمش » في الأمر هو ومماليكه ، وكف عنه عدوان المعتدين ، ثم صالح الطرفين . وما زال هذا حاله حتى عادت إليه الأتابكية - كما قلنا - عام ٨٠٠ هـ . وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان « برقوق » . ولقد حدث في السبت ١٢ ذى العقدة من عام ٨٠٠ هـ أن لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الأتابكي « إيتمش » ، فغلبه السلطان فهم الأتابكي « إيتمش » بعمل وليلة من ماله ، فدعه السلطان وقام هو بعمل الليلة نيابة عنه ، فكانت ليلة فاخرة جمعت ما لذ وطاب ، والتأم فيها شمل كثير من الأمراء وغيرهم .

ما زال « إيتمش » مقربا من « برقوق » حتى مرض « برقوق » مرض الموت . فجعله في عداد الأوصياء على أولاده وماله وأوقافه . وتوفي ، وورث الملك من بعده ابنه « زين الدين فرج » ، عام ٨٠١ هـ . فثبت « إيتمش » في منصبه ومنحه أيضاً لقب أمير أخور كبير فظل صاحب حول وطول . وكان السلطان فرج صغير السن إذ ذاك ، فاستمد الأتابكي « إيتمش » من صغره سلطة ونفوذاً ، وتصرف في كثير من أمور الدولة ، وسكن بباب السلسلة . وأخذ يضرب على يد من يعصيه . فقبض فيمن قبض عليه ، على الأمير « سودون » أمير أخور كبير ، وهو أحد أقرباء « برقوق » وأحد الواجدين على « إيتمش » فقيده وسجنه بشفر الإسكندرية . وقبض كذلك على الأمير « تراز » الناصري و « تمر با » المنجكي وغيرهما فقيدهم وأرسلهم إلى السجن بشفر الإسكندرية . ثم قبض على الأمير « يلبغا » الأحمدي الأستادار ، وألحقه بهم وهكذا . وأصبح بذلك مسيطرا على شئون الدولة . متصرفا فيها ، تغدق عليه الإنعامات من الملك وما أن بلغ سن الرشد ، حتى حدثت « إيتمش » نفسه أمارة ، بالثورة والانقضاض على السلطان . فجمع مماليكه وأعدهم للحرب في يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ ، وانضم إليه عدد من الأمراء . واجتمع إلى السلطان كثير من الأمراء والمماليك ، وتقاتل

الغريقان بباب السلسلة قتالا عنيفاً ، حتى انسكس « إيتمش » وهرب نحو قبة النصر ، وخسر في هذه المعركة خسارة كبرى إذ نهبت ممتلكاته وزايله أنصاره . وكانت ثورته تلك وبالا على مدينة القاهرة ، وكاد يعم بسببها الفساد والنهب . — سم إن الأتابكي « إيتمش » ، فر إلى بلاد الشام هو ومن لف لفه من الأمراء ، فبلغوا دمشق يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ ، فقبولوا هناك بحفاوة بالغة ، إذ كان نائب الشام حينئذ من الذين شقوا عصا الطاعة على سلطنة فرج ، وهو الأمير « تنم » . فاجتمع شمل هؤلاء معا وقويت شوكتهم ، وانضم إليهم نائب حلب ونائب حماة ونائب صفد ونائب طرابلس ، وكاد الأمير « تنم » يكون سلطانا على بلاد الشام . إلا أن السلطان فرجا خرج بحملة عسكرية كبيرة ، لتأديب هؤلاء العصاة . فلما بلغ الشام انحاز إلى جانبه عدد من الثوار ، وحل الضعف في صفوف أعدائه ، فمر الأتابكي « إيتمش » ومعه « تنم » نائب الشام وكثير معهم . فرغب السلطان في صاحبهم فأبوا . فتابعهم بجنوده حيثما حلوا وأوقع بهم في موقعة كبيرة بمكان يقال له : الحبطين . وانتهى أمر الأتابكي « إيتمش » بالقبض عليه هو و« تنم » وغيرهما ، فعمدوا وحبسوا بقلعة دمشق ، حتى أمر السلطان بقتلهم فقتلوا . قتل إذن الأتابكي « إيتمش البجاشي » ذبحا ببرج الحمام بقلعة دمشق . وأرسل رأسه مع رءوس غيره ، فطيف به في أرجاء القاهرة ، ثم عاق على باب زويلة . وبهذا انتهت حياة ذلك الرجل في شعبان سنة ٨٠٢ هـ .

د ابن اياس ج ١ ص ٢٤٣ إلى ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٧ إلى ٣٢٠ ، ٣٢٢ إلى ٣٢٤ . — الضوء ج ٢ رقم ١٠٥٩ ،

١٥ — المقر السيفي « يلبغا الناصري » ٧٩٣ هـ

و « يلبغا » الناصري هذا كان من أتباع « يلبغا » العمري الناصري الكبير مملوك الناصر حسن المذكور سابقا . وقد بدأ نجم « يلبغا » الناصري يتألق في عهد الملك المنصور على ابن الأشرف ، فكان أمير سلاح . وحياته كحياة أنداده من الأمراء ، عبارة عن سلسلة من الحوادث والمؤامرات والمغامرات التي يخوض عابرا مقامرا ، فلعله يكون فيها من الفائزين . كان « يلبغا » في عداد الأمراء الذين دافعوا عن الأشرف شعبان ، ضد النائين عليه حينما خرج للحج عام ٧٧٨ هـ ثم فر ، ثم اشترك عام ٧٧٩ هـ في فتنة شعواء ، تزعمها الأمير

«برقوق» العثماني - السلطان برقوق فيما بعد - والأمير «بركة» الجوباني وغيرهما ، وذلك في عهد السلطان المنصور علي بن الأشرف فقاتلوا عدداً آثراً من الأمراء المعادين لهم فانتصروا عليهم وسجنوهم بشعر الإسكندرية . وأقام الأمير «يلبغا الناصري» من ذلك الوقت يحكم في باب السلسلة بين الناس ، نحو سبعة أيام ، منفرداً في ذلك عن صحابته من أهل قنّته ، خفّزهم هذا إلى مناجزته . فهجم عليه الأمير «برقوق» العثماني والأمير بركة الجوباني ، في وقت الظهيرة ، وأنزلوه إلى بيته مرغماً . ومن ذلك الوقت دبت عقارب الحسد والحقد بين الأمير «يلبغا» الناصري وبين الأمير «برقوق» العثماني . وظل ذلك بينهما مساجلة ، ولا سيما بعد أن بلغ «برقوق» منصب الأتابكية ثم السلطنة ، فلما رقي «برقوق» إلى الأتابكية أخريات عام ٧٧٩ هـ ، قبض على «يلبغا» وقيدته وأرسله إلى السجن بشعر الإسكندرية ، ونزع منه لقبه وإقطاعه طبعاً ، وأعطى لسواه ، وهو الأمير «إيغال» اليوسفي . ويظهر أنه أطلق سراحه بعد قليل ، لأنه ما لبث أن ظهر في ميدان الفتنة التي اندلعت لحيها ، بين الأتابكي «برقوق» والأمير بركة الجوباني . إذ كون الأمير «بركة» فرقتين لحرب «برقوق» ، إحداهما كان فيها الأمير «يلبغا الناصري» ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٧٨١ هـ . فتصدى لهذه الفرقة المذكورة الأمير «إيتمش» البجاسي ، فاندحرت أمامه وغلبت على أمرها ، وكذلك كان نصيب الفرقة الأخرى .

ويظهر أن فتن هذا الأمير ، هدأت حيناً ، لانه استطاع أن يعين نائباً لحلب . غير أنه ما لبث أن عاد إلى قنّته ، بعدما اعتلى «برقوق» كرسي المملكة المصرية . فقد بلغه في سنة ٧٨٧ هـ ، أن «يلبغا الناصري» نائب حلب ، متواطئ مع الأمير «سولي» ابن ذي الغادر أمير التركان ، وأنهما قد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان «برقوق» صدق هذا الخبر ، أرسل إلى «يلبغا» الأمير «بهادر» المنجكي الاستادار ، يستقدمه إلى السلطان ، فقدم معه . فلما بلغا غرة قبض عليه وقيدته ، وأرسله إلى سجن نجر الإسكندرية . وعين الأمير «سودون» المظفري نائباً على حلب مكانه . وأرسل الأمير «جمال الدين محمود» شاد الدواوين ، إلى حلب لمصادرة ممتلكات «يلبغا» . ولبث «يلبغا» في السجن زمناً مغضوباً عليه . ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى نيابة حلب . وكان قد انتقل إلى سجن دمياط عام ٧٨٨ هـ . بأمر السلطان وظل فيه بغير قيد . فاستقدمه السلطان برقوق في شهر شعبان من سنة ٧٨٩ هـ . وأكرمه وخلع عليه وأعاد ، إلى نيابته . فنشطت دسائسه واثماراته

من جديد ، وأساء إلى الأمير « سودون » المظفرى نائب حلب من قبله عام ٧٩١ هـ ،
 فخرج عن طاعة السلطان ، وقتل عددا من المماليك ، وقبض على عدد من الأمراء .
 فذهب السلطان « برقوق » للقضاء على هذه الفتنة . وكان يريد في الظاهر الإصلاح بين
 « يلبغا » وبين « سودون » المظفرى ، وأوصى في الباطن بالقبض على « يلبغا » . وكان
 رسوله في ذلك الأمير « تملكتم » . وكانت هناك صيحة وصدافة أكيدة بين « تملكتم »
 و « يلبغا » . فهبأ « يلبغا » كنيذا « لسودون » ، فقتله وهو قادم بدعوة منه للصلح . ثم
 أظهر « يلبغا » عصيانه للسلطان ، والتف حوله بعض الجند والأمراء ، ومن بينهم
 « تمرغا » الأفضلى المسمى « منطاش » الذى كان مملوكا « لبرقوق » ثم نقم عليه . ثم
 صار من بعد أنا بكيا - كما سيأتى - . فعزله السلطان من وظيفته ، وجهاز جيشا لمكافئته .
 ولكن « يلبغا » كان قد زاد شره ، وامتدت فتنته حتى عمت بلاد الشام . فلما وصلت
 حملة السلطان إلى الشام ، احتربت مع عدوها فانكسرت وأسر بعض أمرائها ، ومن
 بينهم الأتابكى « إيتمش » البجاسى . وفر الباقيون . اشتد بذلك أزر « يلبغا » وزحف
 بجنود من التراكمة والعربان على البلاد الشامية ومنها إلى البلاد المصرية ، حتى قارب
 الصالحية قبلها . فاضطرب السلطان « برقوق » لذلك ، وأخذ يستعد لملاقاة عدوه . غير
 أن عددا من الأمراء غدر بالسلطان وهجره وانحاز إلى « يلبغا » ، ففت ذلك في عضده
 ورأى ضعفه لإزاء خصمه ، فأرسل إليه يعرض التنازل عن العرش ، لقاء أن يؤمنه
 على نفسه . فأمنه « يلبغا » ، واختفى « برقوق » ، وزالت سلطنته ، وتولاها من بعده الملك
 الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان ، للمرة الثانية عام ٧٩١ هـ . وكان طبيعيا أن
 يكون « يلبغا الناصرى » أتابكى العسكر فى هذه الدولة بدل إيتمش . ابتسم الزمان
 لهذا الأمير ، وأصبح صاحب الحول والطول فى البلاد . فاتجهت عنايته أولا إلى القبض
 على عدوه السلطان برقوق ، فأطلقت المذاذاة عليه فى القاهرة ، وهدد من يكون محتبثا فى داره
 بأشنع العقوبات ، حتى دل على مكانه دليل . فقبض عليه وأرسله مسجونا مقيدا بقلعة
 الكرك فأكرمه زائنها يومئذ الأمير حسام الدين السكجنى .

ظن « يلبغا » الناصرى ، أن الدهر قد صفا له ، وأن وجه الأيام قد راق . وأن ميدان
 المنافسة قد خلا من المنافسين . غير أن الظروف خطأت هذا الظن . فإنه سرعان ما وقع

بينه وبين صديقه « منطاش » خلف شديد ، ودبت بينهما عقارب الفتن والحسد . فنهيا « منطاش » للبطش بصديقه يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ٧٩١ هـ ، وكما يدين الفتى يدان . جمع منطاش مما ايكة ، ولبسوا ثوب الحرب وأعدوا عدتها في ذلك اليوم واقترحوا باب السلسلة والتف حولهم عدد عظيم من العوام والعبدان ، واجتمع إليهم مما ليك « برقوق » وغيرهم من الموتورين . وكان « يلبغا » قد استعد للقاء هؤلاء الثائرين . وتلاقى الجمعان في الرميّة . فاستجر القتال بينهما ، واستخدمت فيه شتى وسائله . وظل يومين حتى غلب الأتابكي « يلبغا » على أمره ، وفرت تحت جناح الليل هو وبعض عصابته . ويمموا شطر بلاد الشام . غير أنه ما وصل إلى بلبس ، حتى قبض عليه هو وصحابته . وسبقوا إلى القاهرة . ومن ثم قيد وسجن بشعر الإسكندرية . وبذلك انتهت أتابكيتته ، وتولاها من بعده « منطاش » .

ظل « يلبغا » مقيما في سجنه حتى وقعت الواقعة بين الأتابكي « منطاش » وبين السلطان « برقوق » المخلوع ، وكان من نتائجها أن زال شبح « منطاش » من مسرح السياسة المصرية ، وعادت سلطنة « برقوق » مرة أخرى عام ٧٩٢ هـ . فرأى « برقوق » أن يستصني « يلبغا » ويذهب ما في قلبه من وجد عليه . فرسم بالإفراج عنه ، ومنحه لقب أمير سلاح . وأهل الذي دفع « برقوقا » إلى ذلك ، أن لها عدوا مشتركا هو « منطاش » . ولذلك ما لبث السلطان « برقوق » حتى استخدم « يلبغا » في مطاردة « منطاش » . الذي فر وأخذ يعيث قسادا في بلاد الشام . فرحل « يلبغا » إلى دمشق وأوقع هو وغيره من الأمراء بجنود « منطاش » والمنحازين إلى صفوفه . وصدف أن قتل نائب الشام حينئذ ، فأرسل السلطان « برقوق » تقليدا إلى « يلبغا » وعينه نائبا على الشام ليتمكن له من مكافئة منطاش ودفع شره . وقد أبلى « يلبغا » في هذه السبيل بعض البلاء . غير أنه كان لا يزال يضمر الشر ، ويتربص الفرص للعودة إلى السكيد لبرقوق . ولم يكن يمنعه من ذلك إلا وجود منطاش في أطراف بلاد الشام ، ومعاودته مناوشتهم الفينة بعد الفينة ، فأحب « يلبغا » أن يعمل على إبعاد « منطاش » حتى يخلو له جو المكيدة . فأوعز إلى الأمير سالم الدوكاري أمير التركان ، أن يغري منطاش على الحرب إلى بلاد الروم . وكان برقوق في ذلك الوقت ، قد زحف بجند كثيف إلى البلاد الشامية ، ليظهرها من « منطاش » وعقبه . فأطلعه أمير التركان المذكور ، على مراسلة « يلبغا » وأثماره ووجهة

نظره . فلم يحمّد السلطان « برقوق » بدا من القبض على « يلبغا » ومن لف لفه من الأمراء ، وسجنهم بقلعة حلب ثم أمر بقتلهم جميعا فقتلوا . وانهت بهذا حياة « يلبغا الناصرى » وذلك فى عام ٧٩٣ هـ .

« ابن لىاس ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ — الدور ج ٤ رقم ١٢١٩ » .

١٦ - « تمر بغا الأفضلى ، المعروف بمنطاش الأشرفى ٧٩٥ هـ

كان أولامن ممالك الأشرف شعبان فنسب إليه . ثم فى سنة ٧٨٧ هـ اشتراه السلطان « برقوق » ، وهو أخو الأمير تمر باى الدر داشى ولبث فى رق برقوق مدة حتى رباه ثم أعتق ، ونفحه بخيل وقاش وعينه جدارا . هذا هو « منطاش » الذى ابتلى به السلطان برقوق فى عداد من ابتلى بهم من الثائرين عليه والخارجين على طاعته ، والذى أفلق باله زمنا ليس با قليل . وما ذلك إلا لأنه كان يضم بين جنبيه كمية من الشرور والطمع كافية لأن تجعل حياته سلسلة من الكفاح .

كان « منطاش » شجاعا باسلا ، إلا أنه جنوح إلى الفساد ، فضربه سيده برقوق سم نفاه إلى بلاد الشام ، فظل يعمث فسادا فى أرجائها ملتصبا ساعة الانتقام من سيده . فحانت له ساعة الانتقام المرجوة حينما ثار فى وجهه الأمير يلبغا الناصرى ، وقت أن كان نائبا على حلب وحدثته نفسه بالعصيان ومزاحمة السلطان والغدر به . وتهيأت أسباب النصرة ليلبغا ومن معه وفى جملتهم « منطاش » فقد زحف على مصر زحفا لم يجد معه السلطان برقوق بدا من النزول عن عرشه والاختفاء عن العيون . وبذا عادت السلطنة إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان عام ٧٩١ هـ . وصار يلبغا أنابك مسكركه .

أماء منطاش « فقد أصبح قسيما ليلبغا فى هذا الجاه العريض الذى باغى ، بل وأصبح أحد الخاقدين عليه ؛ بل أصبح أول هؤلاء الخاقدين . فلماذا تكون الأباكية وجاهها ليلبغا وحده ؟

ظهرت هذه الروح لدى « منطاش » ، ومتى خبثت نفسا الصديقين تحفزا للشر واستمر الخلاف . ولهذا سرعان ما وقع الخلاف بين « منطاش » ويلبغا ، وملأت صدرهما الحقود والأطاع . فلم يجد « منطاش » بدا من مناجزة نده لجمع ممالكه وزودهم بضروب من

السلح ، وعاونهم عديد كبير من العوام والعبيد وكثير من ممالك الأشرف شعبان والظاهر برقوق ومن لف لفهم من الموتورين من يلبغا . وذلك فى يوم الاثنين ١٦ شعبان عام ٧٩١ هـ . وترامى الفريقان واحتالا فى القتال وأسباب النصر ، حتى انهم جمع يلبغا وولى الأدبار . ففر تحت ستر الليل هو وعدد كبير من الأمراء إلى بلاد الشام ، ولكنه قبض عليه فى بلبس وأعيد إلى يد « منطاش » فسجنه بغير الإسكندرية وأمر « منطاش » بالإفراج عن كثير من الأمراء الذين سجنهم يلبغا ومن بينهم المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ، كان .

بهذا الانتصار وثب « منطاش » إلى مرتبة الأتابكية ، وصار مصدر الأمر فى هذه البلاد بجوار سلطانها أمير حاج .

أحب « منطاش » بعد ذلك أن يخلى الميدان من كل منافسيه . فأراد البدء بالسلطان برقوق سيده القديم وعدوه الحالى ، والمسجون بقلعة السكر . فاستصدر « منطاش » من السلطان أمير حاج مرسوماً شريعافاً أرسله إلى نائب السكر يأمره بقتل الملك الظاهر برقوق . وكان برقوق قد استعفى جماعة من رجال السكر وحراس قلعتها . فقتلوا الرسول الذى يحمل المرسوم ، وهموا بقتل نائب السكر نفسه فاستجار ببرقوق لخباء . وأخذ نفوذ برقوق يتسع ويزداد فى السكر حتى ملك قلعتها وأخذ يعد العدة للإغارة على الشام ثم مصر فاضطرب « منطاش » أيماء اضطراب ، ومالت نفسه الحيرة ، وأخذ يستعد للظروف . غير أن برقوقا كان قد انضم إلى جيشه أناس كثيرون أغار بهم على بلاد الشام وملسكها . وانساق كثير من أمرائها إلى الانضواء تحت رايته . ففت ذلك فى ع ضد « منطاش » ، وحاول أن يستعين على برقوق بفتوى دينية . فعرض على الخليفة والقضاة الأربعة سؤالاً نصه : « ما تقول السادة العلماء فى رجل خلع الخليفة وسجنه وقيده من غير موجب لذلك . وقتل رجلاً شريعافاً فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين . » - فامتنعوا من الإجابة حتى يجيب شيخ الإسلام سراج الدين الباتنى . فأجاب بقوله : « إذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربه فهو خارجى » . وتوالى العلماء والقضاة يكتفون من بعده ... والمتبادر إلى الذهن أن « منطاش » أراد أن يكتسب الرأى العام ضد برقوق ، ويذكر الناس ببعض أعماله السيئة التى وقعت منه فى أول دولته . - غير أن ذلك كله لم يجد

تفعلا ، فإن برقوقا تغلب على كل الصعاب التي اعترضته في سبيل امتلاك الشام ، وإن كان قد لقي بها ضروبا من الإرهاق والعنت . فلم يسع « منطاش » إلا أن يجهز حملة كشفية الجند يسير في طلعتها هو وسلطانها أمير حاج . وأخذت هذه الحملة في المسير نحو الشام منذ الإثنين ١٧ من ذى الحجة سنة ٧٩١ هـ ، وكادت جزودها ترفض الخروج لما نال بعضهم من أذى « منطاش » وسوء تصرفه . - تلاقي الفريقان في البلاد الشامية وظل النصر والهزيمة يتناوبان كل فريق ، والوقائع تترى بينهما ، حتى انكسر عسكر « منطاش » وولوا الأديار . وبينما أخذ السلطان برقوق يزحف بجنوده للاستحواذ على مصر ، إذ ظل « منطاش » شريدا في الديار الشامية . وبلغ برقوق مصر وصعد إلى مقر الحكم بالقاهرة يوم الأربعاء ١٥ صفر سنة ٧٩٢ هـ وخلع السلطان أمير حاج . ودالت دولة « منطاش » حتى قال فيه بعض الزجالة :

من الكرك جانا الظاهر وجب معو أسد الغابة
ودولتك يا أمير منطاش ما كانت إلا كذابة

كانت هذه الخاتمة التي انتهى بها أمر « منطاش » ، حافظا له إلى أن يهب نفسه للشر والعمى والفساد ، وأن يعيش عيشة الفتاك المشردين ليكهن شوكة حادة تؤلم جنب دولة السلطان برقوق . لذلك ما عتمت الأخبار أن جاءت بوثوب « منطاش » على مدينة دمشق ، وبموافقة عوامها له على تسليمها إليه فهبت لصدده عنها عدة من الأمراء من بينهم إيتشمس البجاسي وبلغغا الناصري الأناطليان من قبله ، فأوقعوا به واقعة هائلة ثم تراجع الفريقان . وبعد قليل كر « منطاش » بعصابته على مدينة عينتاب ، واستطاع نائبا بعد جهد أن يشقت شمله ، فهرب إلى ضفاف الفرات . . . وفي سنة ٧٩٣ هـ التفت حوله عدد كبير من الزنجان والعربان وبعض الأمراء ، حتى توالى الأخبار بأنه قد ملك حماة وحمص وبعليبك ، وسالمه أهلها . وأخذ في حصار الشام ونجأ دمشق ونهب أسواقها ومتاجرها ، واصطبلاتها . فلم يجذ السلطان برقوق مندوحة عن السفر لملاقاته والقضاء عليه وعلى شروره . فخرج سنة ٧٩٣ هـ إلى الشام في جند كثيف ومعه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء إلا قليلا منهم . فبلغ دمشق وأقام بها زمنا ثم يعم شطر حلب ، وقبض على عدد من الأمراء الذين يضمرون له سوء ومن بينهم بلغغا الناصري الذي لم يخلص في مكافئة « منطاش » ، ثم قتلهم . وأخذ في تطهير البلاد الشامية والحلبية من

فساد « منطاش » . وكان هذا لا يفتأ يختلس الفرص للسكر على مدن الشام وحلب ثم يتردد إلى ضفاف الفرات . فكانت السلطان برقوق الأمير نعيم بن جبار يطعمه في جائزة فريدة إن هو قبض على « منطاش » . وكان السلطان قد عاد إلى الديار المصرية قبيل سنة ٧٩٤ هـ ولم يظفر بالقبض على « منطاش » . ثم إن نعيم المذكور كان قد صاهر « منطاش » ، فلما اتفق مع أبي يزيد الدوادار نيابة عن برقوق على أن يقبض على « منطاش » ، احتال عليه حتى أوقعه في أسره وأرسله مخفورا إلى نائب حلب ، فأرسل السلطان إليه الأمير طولو بن على شاه ليحضره إليه . فأخذ هذا الأمير في التحقيق معه ليظفر منه بما غصبه من البلاد . إلا أن « منطاش » كان قد أصاب نفسه بخنجر كان في حوزته فدخل في دور الزرع . فقطع الأمير طولو رأسه وطيف به في كل مدينة ، حتى بلغ القاهرة فعاق على باب زويله ... وفرح السلطان بذلك فرحا لا مزيد عليه . وبهذا ختمت حياة هذا الأمير وكان ذلك ٧٩٥ هـ .

« ابن إلياس ج ١ ص ٢٦٢ إلى ٢٩٩ — تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٨٧ ، ٤٩٧
٥٠٤ — الدرج ٤ رقم ٩٩٥ » .

١٧ — إينال اليوسفي ٧٩٤ هـ

كان المقر السيفي « إينال اليوسفي » هو الذي وقع عليه اختيار السلطان برقوق لبسند إليه منصب أتابكية عسكره عقب عودته إلى سلطنته واندحار الأتابك السابق تبرغا الأفضلي المعروف بمنطاش وتم ذلك في أوائل سنة ٧٩٢ هـ .
ولقد تقلب « إينال » في مناصب شتى قبل بلوغه هذه الرتبة الجليلة . فقد كان إلى سنة ٧٩١ هـ ، أتابك العساكر بدمشق في عهد ساطنة برقوق الأولى . وكان الأمير يلبغا الناصري حينئذ نائبا على حاب فهدرت منه بادرة عصيان تحقها السلطان برقوق . فخلعه من نيابته وأسندها إلى « إينال » : غير أن يلبغا كانت قد اشتدت فتنته وزحف بجنود جمعها إلى مصر ، واستطاع أن يزيل ملك برقوق ويعيد الملك الصالح أمير حاج إلى عرشه . فحرم إينال نيابة حلب ، وأسندت في العهد الجديد إلى المقر السيفي كشيخا الحموي وسجن إينال في قلعة صفد . -- فلما عاد برقوق إلى نشاطه وزحف من السكر إلى الشام ، اضطربت أمورها وآنر المتآمرين ، وانضم المنضمون إلى صفوف برقوق . وكان من

أثر ذلك أن أطلق سراح الأمير إينال اليوسفى بواسطة دوا دار نائب صفد المدعو يلبغا السالمى . وقد كان هذا من ممالك برقوق ، فانفق مع حاجب صفد ونائب قلعته على الإفراج عن « إينال » . وبمجرد خروجه تزعم حركة العصيان ضد الأنا بىكى « منطاش » وسلطانه أمير حاج . فكان ذلك نصرا جديدا لبرقوق . واستطاع « إينال » أن يمتلك صفد وقلعته ومخازنها ، وأن يكون قوة فعالة فى الوصول إلى النصر الذى يرجوه برقوق . وسار « إينال » بجانب برقوق حتى كتب له النصر على عدوه « منطاش » ، وعاد إلى سلطنته ، فأسند الأنا بىكى إليه .

ومن عجيب الأمور أن « إينال » هذا كان فى يوم ماعدوا نائرا على برقوق . وذلك فى عام ٧٨٠ هـ . فى عهد سلطنة المنصور على . فقد اتفق فى يوم الاثنين ٢٤ شعبان من ذلك العام أن سار برقوق — وهو أنا بىكى لمّا يُرَقَّ إلى السلطنة — نحو المطرية ، فاجتمع الأمير « إينال اليوسفى » — وكان إذ ذاك أمير سلاح — هذه الفرصة ، وجمع ماله إلى ولبسوا لباس الحرب ويمموا جهة الرملة . وانضم إليه عدد من الأمراء والمماليك السلطانية وأحدثوا فتنة هائلة ، فخطموا باب السلسلة وأغاروا على مستودعات الأسلحة الخاصة بالأنا بىكى برقوق . وذلك كله حسدا لبرقوق ، ورغبة فى التخفيض من شوكمته والتقليل من جاهه . ولولا أن أسرع برقوق بالعودة ، ولولا أن عاونه فى محنته الأمير ليمش البجاشى ، فنهج ماله إلى كية هائلة من الأسلحة ، ولولا أن كان الأمير برقة الجوبانى غائبا فى مزارعه بالبحيرة ، وهو صديق حميم للأمير « إينال اليوسفى » ، أقول لولا ذلك ، لوقع لبرقوق مالا تحمد عابه . ولكنه استطاع مع هذه الظروف أن يقضى على خصمه ، وأن يقبض عليه هو وأعوانه وأن يبعث بهم مصفدين فى الأغلال إلى سجن الإسكندرية . وقد قال الشاعر المصرى ابن العطار فى ذلك :

قد ألبس الله برقوقا مهالبة نهار الاثنين فى عز وتمكين

وراح إينال مع سودون وانكسرا وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

ومن عجيب الأمور أيضا أن برقوقا — وهو أنا بىكى — كان السبب فى ترقية الأمير « إينال اليوسفى » إلى أمير سلاح بدل يلبغا الناصرئ الذى قبض عليه ، وذلك فى أخريات عام ٧٧٩ هـ . فكان جزؤه منه الثورة والفتنة .

ومهما يكن من أمر ، فتمت لامت الظروف بينهما وأصبح برقوق ساطانا ، وأصبح

« إينال ، أتاك عسكره . غير أنه — على ما يبدو — وقع منه ما كان سببا في غضب السلطان عليه ، ولذلك أبعدته عن منصبه ، وأقام مكانه الأمير كمشبغا الحموي . وقد توفي حوالي عام ٧٩٤ هـ ، أو في هذا العام .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ — خطط ج ٤ ص ٢٥٢ — درج ارقم ١١٣٥ ،

١٨ — كمشبغا الحموي ٨٠١ هـ

من مماليك ابن صاحب حماة ، قدمه للناصر حسن . ترقى حتى كان نائبا على حلب في عهد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان . وذلك في أول عودته إلى الملك عام ٧٩١ هـ . وكان الأتابكي حينئذ « منطش » . وكان برقوق مسجوناً بقلعة السكر ، ثم بدأ « برقوق » يستعيد سلطانه ويزحف بعصابته من السكر إلى الشام ، بعد أن استولى على السكر . فضلع الأمير « كمشبغا » مع « برقوق » ، وأعلن العصيان بحلب ، شأنه في ذلك شأن كثير غيره ، من أمراء البلاد الشامية والحلبية . وقد قدم « كمشبغا » إلى « برقوق » في ذلك الوقت عدة مساعدات متنوعة إبان دخوله دمشق ، وأصاب « برقوق » في ذلك الوقت هزيمة مؤكدة ، فهرب هو والأمير « كمشبغا » ، ورحل هذا إلى حلب وأقام فيها حصونا ، استعدادا للظروف . إلا أن أهالي حلب كانوا قد أصابهم ضيق بسبب تصرفات نائبيهم « كمشبغا » فانتهزوا فيه فرصة ، حينما أرسل « منطش » بعض عصابته ، بزعامه شخص يدعى « تمان تمر » الأشرفي لامتلاك حلب باسم « منطش » ، فانضم أهل حلب إلى هؤلاء المغيرين ، أما الأمير « كمشبغا » ، فقد أقام مع جنوده في بعض الأبراج الحصينة ، وظل الفريقان يتراميان ثلاثة أشهر ، حتى كتب النصر للأمير « كمشبغا » . وانكسرت أمامه عصابة « منطش » ، رولوا الأدبار . فأخذ « كمشبغا » يستعيد نفوذه في المدينة ، وعكف على إصلاح ما تهدم منها ، وزاد على مجانيها ومراقبها ما سمحت له الظروف .

وكان « برقوق » قد استعاد سلطانه في البلاد الشامية والحلبية في تلك الأثناء ، وزحف بجنوده على مصر ، واسترد عرشه فيها . وبذلك وحده استطاع « كمشبغا » أن يسترد نفوذه في حلب ، ويقوم بهذه الضروب من الإصلاح . — وفي عام ٧٩٣ هـ وفد الأمير « كمشبغا » إلى مصر ، وحظى بمقابلة « برقوق » ، وأطلععه على ما يضمرة ويظهره التركان والعربان من العصيان والخروج عن الطاعة ، معاونة منهم « لمنطش » ، الشاثر ضد السلطان .

فأعد السلطان الأمر عدته . وأقام « كشيغا » من ذلك الحين في القاهرة بجوار السلطان .
إذ كان يرتاح إلى مشورته . — ولما خرج « برقوق » بجنوده في الاثنين ٢٢ شعبان من
عام ٧٩٣ هـ ، إلى بلاد الشام للقضاء على « منطاش » وعقبه ، أقام الأمير « كشيغا الحموي »
نائب غيبة عنه بمصر حتى يعود ، مفضلاً إياه بذلك على نائب سلطنته ، المقر السيفي
« سودون » الفخري . فكان ذلك مرشحاً له للوصول إلى مرتبة الأتابكية . فما إن انتهت
أنابكية « إينال اليوسفي » حتى أسند السلطان هذه المرتبة الجاييلة إلى الأمير « كشيغا الحموي » .
ظلت أمورهذا الأمير تجري له باسعد ، حتى كانت سنة ٨٠٠ هـ ، فحدث منه ما استاء له
قلب السلطان « برقوق » فخلعه من منصبه ، وقبض عليه وقيده ، وأرسله مسجوناً إلى
نغر الإسكندرية . فظل في سجنه سنتين إلا قليلاً . ثم توفاه الله في أخريات عام ٨٠١ هـ ،
وهو في السجن المذكور . وأعيدت الأتابكية من بعده إلى الأمير « إيتمش » البجاسي .
« ابن إياس ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ ،
٣١٩ ، — الضوء ج ٦ رقم ٧٩٣ » .

١٩ — « بيبرس » الركني ٨١١ هـ

كان « بيبرس » هـذا دوادارا كبيراً في عام ٨٠٠ هـ في عهد السلطان « برقوق » ،
وهو قريبه . وأبلى بلاء محموداً إلى جانبه في الثورة التي شنها ضده الأمير « علي باي »
والأمير « يلبغا » الأخمدى الاستادار . وهو الذي قبض على « علي باي » وهو مخنئ ،
وصعد به إلى القلعة وألقى به بين يدي « برقوق » ، فأمر بسجنه .

ظل « بيبرس » دوادارا كبيراً ، إلى أن توفي « برقوق » . وقبل وفاته جعله في
عداد أوصيائه على أملاكه وأوقافه . وفي دولة السلطان « فرج بن برقوق » ثبت
« بيبرس » في دوادارته الكبرى كما كان . — ولما وقعت الفتنة بين الناصر « فرج »
والأتابكي « إيتمش » البجاسي ، انحاز « بيبرس » إلى جانب السلطان . فكان أحد
الأمراء الذين دفعوا عنه وكسروا جنود « إيتمش » ، وأبلى في ذلك البلاء الحسن . لما
فر الأتابكي « إيتمش » إلى دمشق ، اختار السلطان الأمير « بيبرس » الدوادار مكانه
في الأتابكية ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٨٠٢ هـ .

من ذلك الحين أصبح الأمير « بيبرس » مقرباً لدى السلطان ، مرعياً الكلمة لديه .
وتدحى أن قبض السلطان على بعض كبار الموظفين ، للتحقيق معهم في أموال

بددوها ، وكاد يبطش بهم لولا أن شفع فيهم لديه الأتابكي « بيبرس » ، فأطلق السلطان سراحهم .

ولما وقعت فتنة الأمير « تنم » نائب الشام ، وخرج السلطان « فرج » لمحاربتة ، أناب عنه في غيبته الأتابكي « بيبرس » ، وذلك في شهر رجب من عام ٨٠٢ هـ . ولما زاد خطر التتار وزعيمهم « تيمورلنك » ببلاد الشام ، واضطر السلطان « فرج » أن يسير لقتاله وأعد الأمر عدته ، كان الأتابكي « بيبرس » الركني في مقدمة من سار بجانبيه إلى هذا القتال ، وقد بدأ خروج هذه الحملة في ٣ ربيع الثاني سنة ٨٠٣ هـ . لكنهم لم يحققوا ما أعدت له تماما ، إذ استشرى من بعده عودتها خطر « تيمورلنك » ، على بلاد الشام وما والاها .

ويظهر أن الأيام وغيرها ، لم تدع « بيبرس » ينعم باستمرار بمنزله السامية لدى السلطان « فرج » . إذ أنه قرب إليه الأمير « نوروز » ، الحافظي في ذلك العام ، وجعله « شير الدولة » ومدير المملكة ، ففظم جاهه ونفدت كلمته . ثم تزوج « نوروز » ، أخت الملك الناصر فرج عام ٨٠٤ هـ ، فكان ذلك بمثابة تثبيت لمنزلته . فأنى الأتابكي « بيبرس » أن ينافسه ؟ ... لذلك رأى السلامة في أن يصادقه . فبقى مرعى الكلمة لدى « نوروز » .

ولما هبت على السلطان فتنة الأمير « جكم » ، العوضى و « نوروز » ، الحافظي ، اشترك الأتابكي « بيبرس » ، في إطفائها بنحو ألف مملوك ، وذلك في شوال عام ٨٠٤ هـ . وخسر الأمير « نوروز » ، بهذه الفتنة مركزه السامي لدى السلطان فحاول الأتابكي « بيبرس » أن يصلح ذات بينهما ، فوعده السلطان خيرا ، وأسرى نفسه غدرا . فقد وعده أنه إذا أتاه بالأمير « نوروز » ، يصفح عنه ويمنحه نيابة ما . فلما طلع به إليه منحه نيابة الشام ، واسكن « نوروز » ، مالبث حين سار أن قبض عليه ، وقيد وأرسل إلى سجن الإسكندرية . - فكان ذلك مثارا للجزع الأتابكي « بيبرس » ، وحنقه على السلطان ، لأنه لم يبر له بوعده وبدت النفرة بينهما . ولهذا أمره في سنة ٨٠٥ هـ أن يرسل منقيا إلى دمياط ، هو وأسرته ويقيم بها . وكاد يتم رحيله ، لولا أن تدخل كل الأمراء المقدمين في الأمر ، وشفعوا له لدى السلطان . فأبطل أمره إليه بالرحيل ، ومنحه رضاه . غير أن ذلك لم يستصف قلب « بيبرس » ، على السلطان ، فقد أخذ يكيد له كيدها ، ويوغر صدور الأمراء

عليه ، حتى أصبح في كل مكان عليه نقمة بادية فلم يجد بدا من اعتزال السلطنة ، والاختفاء عنها عام ٨٠٨ هـ .

تولى السلطنة بعد « فرج » أخوه المنصور « عبد العزيز » ، فعلت منزلة الأتابكي « بيبرس » عنده ، وأقره في منصبه . فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية . إلا أن ذلك كان ماثراً لغضب بعض الأمراء وحقدهم عليه ، ولا سيما الأمير « يشبك » الشعباني . فانقسمت القوى فرقتين ، وأخذت كل فرقة تأكيد للأخرى ، حتى وقعت الحرب بينهما ، فكانت عتبي « بيبرس » الانكسار . وزالت دولة مملكة المنصور « عبد العزيز » ، وعاد « فرج » إلى عرشه مره أخرى . وكل ذلك قد استغرق شهرين وعشرة أيام من العام نفسه . فلما عاد السلطان « فرج » إلى عرشه ، قبض على الأتابكي « بيبرس » ، وسأقه مقيدا إلى سجن الإسكندرية ، وانتهى بذلك عهد أتابكيته . وقد قتل عام ٨١١ هـ . وتولى الأتابكية من بعده الأمير « تغرى بردى » .

« ابن إياس ج ١ ص ٨٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ إلى ٣٥٠ — الضوء ج ٣ رقم ١٠١ »

٢٠ — تغرى بردى بن يشبغا ٨١٥ هـ

كان نائبا لحلب عام ٧٩٦ هـ ، عينه في هذه النيابة السلطان برقوق . فظل فيها قرابة أربع سنوات . وفي سنة ٨٠٠ هـ استقدمه ، وأنزله في منزلة الأمير « طاز » وخلع عليه ، وجعله أمير سلاح . وظل في مرتبته هذه ، حتى انتهى عهد « برقوق » وبدأ عهد ابنه « فرج » ، فأقره فيها : — ولما ثار الأتابكي « إيتمش » في وجه السلطان « فرج » سنة ٨٠٢ هـ انجاز « تغرى بردى » إلى جانب الأتابكي وأبلى في ذلك بلاء حسنا . غير أنهما دحرا وفراهما ومن معهما إلى الشام ، فخلع « تغرى بردى » من إمرته . حتى أنه لم ينجه هربه من وجه السلطان . فقد اقتنى أثر الهاربين الأمير « جكم » العوضى ، وقبض على « إيتمش » و « تغرى » وغيرهما ، وسجن « تغرى » في قلعة دمشق ، فكث مسجوناً ردحا من الزمن ، حتى ثارت ثائرة « تيمورلنك » على أملاك السلطان ، واضطر إلى الخروج إلى الشام لحربه في ربيع الثاني عام ٨٠٣ هـ . فخلع على الأمير « تغرى بردى » . عند ما وصل إلى غزة ، وجعله نائبا على الشام . غير أنه مالبث غير قليل ، ثم عاد مع السلطان « فرج » إلى مصر ، في جمادى الآخرة من العام المذكور ، دون أن يقوما هما

ومن معهما بعمل حاسم ضد تيمورلنك ، وبقى « تغرى بردى » فى مصر ، فعين السلطان الأمير « سودون » قريبه نائبا على الشام مكان « تغرى بردى » . غير أن « سودون » هذا ما لبث أن وقع فى أسر « تيمورلنك » . ولذلك أعاد السلطان « تغرى بردى » إلى نيابة الشام عوضا عن « سودون » . وذلك بعد زمن يسير وفى العام نفسه . وفى أوائل عام ٨٠٤ هـ نقلت تصرفات الأمير « تغرى » على أهل دمشق ، فتربصوا به الدوائر ، ورجعوه ، ونجى نفسه بالفرار من وجههم إلى نائب حلب . فلما علم السلطان « فرج » هذا الخبر خلع على المقر السيفى « أقبغا الجمالى » وقلده نيابة الشام عوضا عن « تغرى » . فعاد هذا بعد زمن إلى القاهرة . ولما فسد ما بين الأتابكى « بيبرس » والسلطان « فرج » واختفى السلطان « فرج » ، وملك أخوه « عبد العزيز » ، ثم عاد « فرج » إلى العرش عام ٨٠٨ هـ ، قبض على الأتابكى « بيبرس » وعين مكانه فى الأتابكية الأمير « تغرى بردى » . فأخذ من ذلك الوقت ببذل النصيحة والإرشاد للسلطان « فرج » . ولكن هذا كان مستبدا إلى حد أن ناصح أنابكيه ذهب هباء . فقد نهاه كثيرا عن بطشه بما إليك أبيه برقوق ، ولكنه لم يستمع إلى نهيته . وتخاص من ناصحه بأن أمر بأن يكون نائبا على الشام مرة جديدة . وذلك فى أوائل عام ٨١٢ هـ . وهكذا انتهت مهمته فى هذا المنصب بعد أن سلخ فيه نحو أربع سنوات ، لم يستطع فيها أن يبسط نفوذه كما بسط سواه من أنداده . وبعد « فرج » ملك الخليفة المستعين ، وكان أنابيكه المؤيد شيخا . وسرعان ما انفرد المؤيد شيخ إلى السلطنة . فظهر فى عهده الأتابكى « قرقاس الشعبانى » . ثم « الطنبغا القرشى » .

ذكر السخارى أنه توفى سنة ٨١٥ هـ ، وهو نائب على دمشق . - وهو والد المؤرخ أبى المحاسن صاحب النجوم الزاهرة .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٤٣١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٣٨ . »

٣١ - الطنبغا القرشى ٨٢٤ هـ

من إليك الظاهر برقوق . ضلع منع يشبك ثم شيخ . حتى كان أنابيكيا فى عهد الملك المؤيد شيخ المتوفى عام ٨٢٤ هـ . فلما توفى ، ملك من بعده ابنه المظفر « أحمد » . وكان « الطنبغا القرشى » غائبا حينئذ فى البلاد الشامية ، على رأس حملة لتأديب البصادة

من النواب . فاستبد بالامر دونه الأمير « ططر » وكان أمير مجاس . وانهز الفرصة لصغر سن الملك ، وأصبح مدبر المملكة ، واعداء بأنه سيستمر كذلك حتى يعود « الطنبغا القرشي » من الشام . غير أن « الطنبغا » لسوء حظه ، علم بتغير هذه الأحوال ، فحدثه نفسه بالعصيان . فأعلنه وهو في البلاد الشامية ، وملك دمشق وقلعتها وحصنها ، وجمع ما استطاع من العربان وغيرهم ، وانتظر اللقاء إذا أحد حدثه نفسه بالقتال . فكانت هذه فرصة صالحة للأمير « ططر » ، إذ وثب إلى منصب الأتابكية ، ومنها وثب بعد قليل إلى رتبة السلطنة . —

استعد « ططر » لقتال « الطنبغا » وخرج من مصر ومعه جنده وأمرأؤه وملسكه الصغير محمود لاني محفة . فما بلغوا الشام حتى ارتفعت مفاصل « الطنبغا » ، وأعلن بالطاعة للسلطان . غير أن « ططر » قبض عليه ثم أمر بخنقه ، وهذا كله في عام ٨٢٤ هـ . ولم يعين أتابك غيره في عهد السلطان « ططر » حتى مات ، ثم عين في الأتابكية « جاني بك الصوفي » في عصر ابنه . « ابن إياس ج ٢ ص ١٠ ، ١١ — الضوء جزء ٢ رقم ١٠٢٥ . »

٢٢ - جاني بك الصوفي ٨٢٤ هـ (١)

بعد زوال الأتابكي « الطنبغا القرشي » ، لم يعين في الأتابكية أحد في عهد الملك « ططر » ، إذ كان عهدا قصيرا الأمد . فلما تولى ابن ططر ، وهو الملك الصالح « محمد » ، أقام في أتابكية عسكريه الأمير « جاني بك الصوفي » وجعله مدبر مملكته ، إذ كان هو صغير السن . وذلك في أواخر عام ٨٢٤ هـ . فصار الأمير « جاني » ، من ذلك الوقت ، صاحب الحل والعقد في البلاد . فأثار ذلك حفيظة غيره من الأمراء . فوقع بينهم الفتن : وكان على رأس الحاقدين الأمير « برسبای » الدقائي - الذي صار سلطانا بعد - فاستطاع « برسبای » أن يقبض على عدوه « جاني » وأرسله إلى السجن بالإسكندرية . وانتهت بذلك أتابكيته وكأنها لم تكن . بل انتهت أيضا سلطنة الملك الصالح « محمد ابن ططر » . ووثب إلى السلطنة الأمير « برسبای » نفسه في ربيع الثاني من عام ٨٢٥ هـ . وظل الأمير « جاني بك » مسجوناً حتى عام ٨٣٠ هـ ، فأدخل إليه مبرد ، تغلب به على قيده ، فكسره وهرب . فاضطرب الملك « برسبای » لهذا الحادث ، وعذب كثيراً

من الناس بسببه ، دون أن يذنبوا ، اعتقادا منه أنهم قد أخفوه لديهم . وما زال الأمر كذلك ، حتى نعى إلى السلطان أن « جاني بك الصوفي » قد فر إلى بلاد التركان فهدأت نفسه . — وفي سنة ٨٣٥ هـ . وفد إلى القاهرة بعض النزاكمة ومعه رأس الأتابكي « جاني بك » ، ليحظوا لدى السلطان بهذه الفعلة الشنيعة . فأمر بأن يطاف بالرأس في القاهرة ، ثم علق باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم في مiazza جامع الحاكم ...

« ابن إياس ج ٢ ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩ — الضوء ج ٣ رقم ٢٣٠ . »

٢٣ — جقي الشعباني ٨٢٩ هـ .

أصله من ممالك الظاهر « برقوق » . ترقى في عهد الناصر « فرج » ، حتى صار من الأمراء المتقدمين . وانضم « نوروز » ، و « شيخ » ، في ثورتها بالشام . فلما ملك المؤيد شيخ مصر ، جعله حاجب الحجاب . ثم غضب عليه وحبسه بالإسكندرية ، ثم أطلقه السلطان « ططر » وحظي عنده ، فراقه . وما زال حتى كانت سنة ٨٢٧ هـ ، في عهد « برسبای » ، فاختير أتابكا ، واستمر في الأتابكية حتى مات ٨٢٩ هـ . فنزل السلطان وصلى عليه مع المصلين . وكان « قشجق » أميرا جليلا معظما ، ماهرا في ركوب الخيل وفنون الفروسية . وولى الأتابكية بعده « يشبك الأعرج » .

« الضوء ج ٦ رقم ٧٠٢ »

٢٤ — يشبك الساقى المعروف بالأعرج ٨٣١ هـ

أصله من ممالك الظاهر « برقوق » . كان خاصسكيا في أيامه . واشترك مع « يشبك » الشعباني في حروبه ووقائعه . فجرح جراحا بليغة أصيب على أثرها بالأعرج . وبلغ مرتبة الإمارة في عهد الناصر « فرج » ، وانضم بعد مدة مع « نوروز » ، الحافظي ، فأرسله إلى حلب ليحفظ قلعتها . ولما استتب الملك للمؤيد شيخ ، غضب عليه ونفاه إلى مكة ، بعد أن ظل من أتباعه زمنا . ثم اتصل بالسلطان « ططر » قبل سلطنته ، ولبث في خدمته مدة ، ثم ترقى على يديه بعد أن أصبح سلطانا . وقد عظم أمر « يشبك » في عهد الأشرف « برسبای » ، فاختاره أتابكا لعسكر دمد « جقي » الشعباني . فلث حتى مات عام ٨٢١ هـ . وما يذكر أن الملك الصالح « محمد بن ططر » ، تزوج ابنته . فلما مات عنها تزوجها

الأشرف د برسباى . . وكان « يشبك » يحب الخير ويكثر من العبادة .

د ابن لياس ج ٢ ص ١٤ ، ٢٢ — الضوء ج ١ رقم ١٠٨٨ .

٢٥ — د بيبغا المظفرى ، ٨٣٣ هـ

لعله هو أيضاً أحد الأتابكة الذين ظهروا فى عهد الملك المؤيد « شيخ » المحمودى .
لأنه وقت أن تغلب الأمير برسباى الدقاقى على سلطنة الملك الصالح محمد بن ططر و أتابكة
جانى بك الصوفى ، كان هناك أتابك آخر على قيد الحياة وهو « بيبغا المظفرى » . لذلك
اشتور الأمراء عام ٨٢٥ هـ فى ربيع الآخر فيمن يولونه السلطنة : أيولون الأتابك
« بيبغا » أم يولون برسباى ؟ . . . وقد كان برسباى لى ذلك الوقت دودار كبيراً .
فتقدم « بيبغا المظفرى » وأثر بالسلطنة زميله « برسباى » . والحق أنه ما فعل إلا ما تقضى
به الحكمة . لأن « برسباى » كان ذاقوة وشكيمة حادة حينئذ فلا يبعد — إن قبل « بيبغا »
السلطنة — أن يقفر عليه فى الغد ويتزعما منه . فقدمها إليه من أهون سبيل وآمن طريق ،
وضمن لنفسه أن يبقى أتابك عسكر فى هذه الدولة . وقد تم له ما أراد . فقد منحه برسباى
بعد سلطنته هذه المرتبة . أو بالأحرى استبقاه فيها ، ويوصف « بيبغا » هذا بأنه طلق
اللسان شديد العارضة لا يعرف من العربية إلا قليلها ، حاد الطبع سىء الخلق . فحالت هذه
المؤهلات دون بلوغه منصب السلطنة . ولم يرشحه لها الجند . وما يذكر هنا أن
« بيبغا » ظل قايل الحيلة ضيق السطوة أمام السلطان د برسباى ومن يثق فيهم من الأمراء .
إذ صار فى أول عهده صاحب الحل والعقد فى مصر المقر « الزينى عبد الباسط بن القرشى
خليل » ناظر الجيوش المنصورة . ثم صار بعده مملوك برسباى الأمير « جانى بك » وهو
الذى اجترأ على أتابك العصر « بيبغا » المظفرى فنفاه إلى الإسكندرية دون علم
السلطان . — وذكر السخاوى فى الضوء أن « بيبغا » توفى عام ٨٣٣ هـ .

د ابن لياس ج ٣ ص ١٥ إلى ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ — الضوء ج ٣ رقم ١٠٦ .

٢٦ — سودون الظاهرى ٨٤١ هـ

يبدو لنا أنه كان أتابكياً فى عهد « برسباى » بعد « بيبغا » المظفرى . واسمه سودون
ابن عبد الرحمن ، وأصله من : اليك الظاهر برقوق . وكان من خاصكيتة . ثم ترقى فى عهد
الناصر فرج فصار من الأمراء المقدمين . ثم ولى نيابة غزة ، ثم ولى نيابة طرابلس

في عهد المؤيد شيخ . وما زال حتى اختاره الأشرف « برسباي » للدوا دارية الكبرى ، ثم لنيابة الشام عام ٨٢٧ هـ عوضا عن تنبك البجاسي . ثم نقل إلى مصر أتابكيا . ثم تقاعد بعد مدة وأرسل إلى دمياط . فأت بها عام ٨٤١ هـ . وكان جليلا شجاعا حسن السياسة . وله مدرسة بخانقاه سرياقوس ، أوقف عليها أوقافا .
« الضوء ج ٣ رقم ١٠٤٨ ،

قرقاس الشعباني ٨٤٣ (١) هـ

أصله من ماليك الظاهر « برقوق » . ثم ملكه ابنه الناصر « فرج » ، فأعتقه وجعله خاصكيا . ورقى دوادارا صغيرا في عهد المؤيد شيخ . وما زال يرقى ، حتى صار حاجب الحجاب . ثم نقل إلى نيابة حلب بعد قصره . ثم اختاره السلطان الظاهر « جقمق » أتابكا لمسكره في عام ٨٤٢ هـ ، ومنحه الإمرة الكبيرة . وكان « قرقاس » يطمع في السلطنة ، فأحب أن يحتال على سلطانه « جقمق » ، ويقبض عليه وهما يلعبان الكرة ، ثم يعلن بنفسه سلطانا ، غير أنه لم يستطع ولم تجز حيلته . ووقعت النفرة بين الرجلين ، ودارت رحى الحرب بين فريقيهما جهة الرملة . فانهزم « قرقاس » وهرب . ثم أرسل إلى السلطان يطلب الأمان ، فأمنه . فصعد عنده ، فقبض عليه وقيده وأرسله إلى سجن الإسكندرية . وذلك عام ٨٤٢ هـ . ثم استطاع « جقمق » أن يثبت عليه كفرا ، وحكم عليه به قاضى قضاة المالكية « شمس الدين البساطي » ، فضربت عنقه في السجن عام ٨٤٣ هـ .
وقد عين في الأتابكية من بعده الأمير « أقبغا » التمرأزي ، وهو الذي جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وكان آخر نوابها وقد ذكرناه في النواب : ثم ظهر بعد « أقبغا » الأمير يشبك السودوني .

« ابن إياس ج ٢ ص ٨ ، ٢٤ إلى ٢٧ — الضوء ج ٦ رقم ٧٢٩ ،

٢٨ — يشبك السودوني ٨٤٩ هـ

ظهر هذا الأمير في عهد السلطان « فرج بن برقوق » . وانحاز إلى جانب سلطانه في الفتنة التي شنها ضده الأمير « جكم » العوضي عام ٨٠٤ هـ . وكانت له يد في نصره السلطان عليه وقت قتاله . ثم حسن اتصاله بالسلطان « ططر » . وما زال نجمه في صعود حتى

(١) يفهم من رواية السخاوي في الضوء أنه قتل عام ٨٤٢ هـ

صار في عهد الملك الظاهر د جقمق ، العلاني أمير مجلس ، بعد أن لبث حاجب الحجاب زمنا . وفي سنة ٨٤٣ هـ نقل د أقبغا ، التمرزي الأتابكي في عهد د جقمق ، إلى نيابة الشام ، ووقع اختيار هذا السلطان على الأمير د يشبك السودوني ، ، فرقاه إلى الأتابكية عوضا عن د أقبغا ، التمرزي . وكان د يشبك ، قبيل العام المذكور قد غاون السلطان جقمق ضد الأتابكي د قرقاس ، الشعباني الثائر في وجهه . وما زال د يشبك ، أتابكيا حتى توفي في عهد جقمق أيضا عام ٨٤٩ هـ . فتولى الأتابكية بعده إينال العلاني ، الذي ملك البلاد بعد ذلك عام ٨٥٧ هـ ، وتلقب بالملك الأشرف . وذلك بعد خلع المنصور بن جقمق . وابن إياس ج ١ ص ٣٤٥ ، ج ٢ ص ٢٥ إلى ٢٩ — الضوء ج ١٠ رقم ١٠٨٩ .

٢٩ — ثاني بك البرديكي الظاهري ٨٦٢ هـ

أصله من ممالك الظاهر برقوق . وكان من الخاصة في عهد المؤيد شيخ ، وظل يسترق حتى بلغ الأتابكية في عهد إينال . وكان إينال العلاني الأتابكي ، لما بلغ مرتبة السلطنة عام ٨٥٧ هـ ، أقام في الأتابكية بدلا من نفسه ابنه المقتراشهابي أحمد — وهو الذي صار سلطانا بعد أبيه — فتذمر الأمراء من ذلك . فأسرع السلطان إينال بخلع ابنه من الأتابكية ومنحها للأمير د ثاني بك البرديكي ، . الظاهري . فلبث في الأتابكية خلال سلطنة إينال . ولما تولى السلطنة ابنه الشهابي أحمد عام ٨٦٥ هـ ، أقام في الأتابكية الأمير خشقدم . وهو الذي صار سلطانا على مصر ، على أثر انكسار الملك المؤيد أحمد أمام الثوار من المماليك في العام المذكور . فلما بلغ خشقدم منصب السلطنة منح الأتابكية للقر سيفي جرباش الحمدي المعروف بسكرت . هذا وكان د ثاني بك ، أو د تنبك ، رجلا وقورا متدينا لينا . ومات في عام ٨٦٢ هـ بمقاربا التسعين .

د ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ — الضوء ج ٣ رقم ١٧٣ في د تنبك ، .

٣٠ — جرباش الجركسي الحمدي المعروف بسكرت ٨٧٧ هـ

تنقل هذا الأمير في ثلاثة أنواع من الإمارة : اثنين في عهد سلطان واحد وهو السلطان د إينال ، العلاني . وهذه الإمارات هي : إمارة الآخورية الكبرى ، رقي إليها في نقول عهد إينال عام ٨٥٧ هـ . وفي أواخر عام ٨٦١ هـ . رقي إلى أمير مجلس . ثم ارتقى

في عهد الملك المؤيد أحمد بن إينال إلى أمير سلاح ، عوضا عن الأمير و خشقدم ، الذي ارتقى إلى الأتابكية . وذلك عام ٨٦٥ هـ . ولما آلت السلطة إلى الأتابكي خشقدم ، خلع على الأمير « جرباش المحمدي » ، ورفاه إلى الأتابكية عوضا عنه ، عام ٨٦٥ هـ أيضا . غير أنه اسوء حظه انساق في أوائل عام ٨٦٦ هـ (١) إلى الاندماج في الثورة التي شنها المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف برسباي - ضد السلطان خشقدم فإن هذا السلطان قبض في مستهل العام المذكور على كثير من أمراء هؤلاء المماليك . فثاروا في وجهه وبحثوا عن متزعم يرأس حركتهم ، فوقع اختيارهم على الأتابكي « جرباش المحمدي » . فتصدروا إليه ، وكان قد اختفى عن عيونهم في تربة الظاهر برقوق ، فما إن التقوا به حتى سلوا سيوفهم وأرغموه على الركوب معهم ، ونشروا فوق رأسه أعلاما سلطانية ودخلوا به مدينة القاهرة من باب النصر . وكانوا يرمون إلى سلطنته وخلع الملك خشقدم ، ولذلك لقبوه بالملك الناصر . فما كان من مماليك خشقدم إلا أن أوقعوا بهم . ثم تطف خشقدم واستقدم إليه الأتابكي « جرباش » بوساطة الأمير « جاني بك » المعروف بنائب جدة ، وهو الذي تحيل عليه حتى أصعده إلى السلطان بالقاعة . ثم أوقعوا بالمماليك الأشرفية حتى شقتوا شملهم وقبضوا على بعض متزعميهم . أما هذا الأتابكي فقد كانت الحادثة آخر عهده بالأتابكية إذ خلع منها . ثم قبض عليه وسجن بدمياط فلبث بها زمنا حتى آلت السلطنة إلى الأشرف قايتباي ، فسعى بعض الأمراء لديه الإفراج عن هذا الأتابكي ، فأفرج عنه في رمضان عام ٨٧٦ هـ (٢) وسمح له بالإقامة في القاهرة عاطلا ، فبلغ القاهرة في آخريات العام المذكور : فما إن حضر حتى صعد إلى السلطان للأشرف بمقابلته فلقمه لقاء حسنا وأكرمه . ثم عاش بعد ذلك زمنا متبطلا بالقاهرة ، حتى وافته منيته في رمضان ٨٧٧ هـ مناهزا سن التسعين . وأصله من مماليك الناصر فرج بن برقوق . وقد تزوج بخوند شتمراء بنت هذا السلطان ، وقد ولدت له ابنة الناصري محمد . وقد توفي هذا الولد وأمه بعد قليل . وقد اشتهر بكثرة كثرة الشعر . وولى الأتابكية بعده الأمير قائم التاجر .

١ — روى في الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٥٢ في ترجمة « تمارز » الشمسى أن هذه الثورة كانت عام ٨٦٩ هـ .

٢ — هذه رواية ابن إلياس . ويفهم من السخاوي أن السلطان « خشقدم » هو الذي عفا عنه واستقدمه إلى القاهرة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ،
٢١٤ ، ٢١٥ — الضوء ج ٣ رقم ٢٧٠ . »

٣١ — قائم التاجر المؤيدى ٨٧١ هـ

وهو ابن صفر خجاء الجركسى المعروف بالتاجر . اشتراه المؤيد شميخ ثم أعتقه وجعله من المماليك السلطانية ثم من الخاصكية . وظل يترقى ، حتى كان أمير مجلس فى أول عهد السلطان الظاهر خشقدم . ولما انساق الأتابكى جرباش المحمدى فى ثورة المماليك الأشرفية ضد السلطان خشقدم ، كما تقدم فى ترجمته عام ٨٦٥ هـ ، ظهر نجم الأمير « قائم » ، وولى الأتابكية بعده . ثم ساد علاقته بالسلطان بعض الجفاء ، ولكن ذلك لم يدم . لأنه فى عام ٨٧٠ هـ ، أقام حفلا عظيما للسلطان خشقدم ، شهده جمع من الأمراء والمماليك الجند ، وقام فيه اللاعبون بألعابهم حتى عم السرور جميع المشاهدين . وما زال الأتابكى « قائم » فى منصبه ، حتى وافته المنية فى أوائل سنة ٨٧١ هـ ، إذ مات فجأة . وقيل إنه مات مسموما . وكان كثير المال ساعيا فى الخير معيناً على قضاء الحاجج ، وقد ولى الأتابكية من بعده على التوالى « بلباى » المؤيدى ، ثم تربيغا الرومى ، ثم قايتباى المحمودى . وقد صار كل منهم سلطانا على التعاقب . فلما ولى قايتباى السلطنة ، اختار لنيابته الأمير جاني بك قلقسىر .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ — الضوء ج ٦ رقم ٦٩٥ »

٣٢ — جاني بك قلقسىر الأشرفى ٨٨٣ هـ

أصله من ممالك الأشرف برسباى . وأخذ فى الترقى حتى صار حاجب الحجاب فى عهد خشقدم وأرسله هو وخمسة أمراء فى تجريدة إلى البحيرة . ثم هو وأزبك ابن ططخ إلى العقبة لتأديب عربانها أوائل سنة ٨٧٢ هـ . وقد وصل إلى مرتبة الأتابكية فى أول عهد السلطان الأشرف قايتباى المحمودى عام ٨٧٢ هـ . فلما خلعه السلطان عليه ، نزل من القلعة إلى منزله فى موكب حافل . ولما أخذ السلطان « قايتباى » فى إعداد حملة عسكرية ، يودب بها الشاه « سوار » بن دغاادر ملك الألبستين ، الثائر فى وجهه ، والزاحف على بلاد السلطان ، كان الأتابكى « جاني بك قلقسىر » فى مقدمة أمراء هذه الحملة ، فى يوم الاثنين ١٢ شعبان سنة ٨٧٢ هـ . ثم جاءت أخبار فى شهر ذى القعدة من هذه السنة ،

بأن عسكرها كسر كسرة شليمة ، وأسر الأتابكي «جاني بك قلقسير» ، وقتل جماعة من الأمراء والجند كثيرة . وعادت البقية الباقية منها في حالة يرثى لها . وكانت هذه الكسرة في يوم الاثنين ٧ من ذى القعدة . ثم إن «سوارا» سجن الأتابكي «جاني بك قلقسير» في جب ، فلبث فيه أياما ثم أطلق سراحه . ولكن هذا الأسر كان سببا في زوال منصب الأتابكية منه ، إذ وهبه السلطان للأمير «أزبك بن ططخ» . فكأن الأتابكي «جاني بك قلقسير» لم يمكث في منصبه هذا سوى شهرين تقريبا .

ولما أطلق سراحه رحل إلى حلب مكرما . وكان إطلاق سراحه ضربا من السياسة ، اتبعه «سوار» وأراد من ذلك ، أن يكون سفيرا بينه وبين السلطان للصلح . فلبث «جاني بك» زمنا في حلب ، إلى أن تهيأ للرحيل إلى مصر . ويظهر أن السلطان كان قد شك في نواياه . ولذلك أرسل إليه يستبقيه في حلب . غير أن أمر الاستبقاء لم يصل إلى حلب ، إلا بعد أن فارقها «جاني بك» في طريقه إلى مصر . وحضر في جمادى الأولى من سنة ٨٧٤ هـ . فصعد إلى القلعة ، وتشرف بلاء السلطان الأشرف ، فقام له وعائقه وأكرمه ، وخلع عليه وأهدى إليه . ثم بعد أيام منحه لقب أمير سلاح ؛ لأنه كان اللقب الشاغر في ذلك الحين . ولكنه أقل من مرتبته التي يستحقها . ومع ذلك فقد بقيت له حرمة . فتاب على الأتابكي «أزبك بن ططخ» في فتح السد في العام المذكور ، لغيا به عن القاهرة في ذلك الحين . وتدخل — عام ٨٧٧ هـ وفي شهر المحرم منه — بين الأتابكي «أزبك» والأمير «تغرى بردى ططر» بسبب نزاع شب بينهما . ولبث بمصر مرعى الجانب موفور الكرامة ، حتى رأى السلطان الأشرف قايتباي أن يجرّد حملة تأديبية إلى حسن الطويل «ملك العرافين» بسبب إغاراته على بلاد السلطان . فجهز هذه الحملة في جمادى الآخرة عام ٨٧٧ هـ . وكان الأمير «جاني بك قلقسير» على رأس الأمراء بها . فسارت إلى حلب مسرعة . ثم ألحقها بحملة أخرى . وفي خلال إقامة «جاني بك» بالشام أرسل السلطان إليه خلعة ، وأمره بأن يبقى نائبا في الشام عرضا عن نائبها المتوفى ، وهو برقوق الناصري الظاهري . وذلك في شوال من العام المذكور . فظل «جاني بك» في هذه النيابة زمنا طويلا ، وتولاها بجدارة وكفاءة . وفي ربيع الأول من سنة ٨٨١ هـ أرسل هدية إلى السلطان الأشرف ، كان في جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب وأنواع ثمن من المنسوجات الثمينة . وما زال «جاني بك قلقسير» في هذه النيابة ، حتى وافته منيته

حتى شهر ذى الحجة عام ٨٨٣ هـ . بعد أن تولى مناصب عليا شتى . وكان معروفا بالشجاعة والفروسية والكفاية التامة لما يعهد إليه من الأعمال .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، إلى ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٦ ، ١٨٥ — الضوء ج ٣ رقم ٢١٩ . »

٢٣ — أذربك بن ططخ ٩٠٤ هـ

أحد أجلاء الأمراء ، وذوى الأثر والاسم الباقى منهم . وكان ميدان ظهوره عصر السلطان الأشرف قايتباى . ولبت فى الأتابكية بمصر ثلاثين عاما . قام بها بما بمهارة وقدرة . وهو منشئ الأتابكية ، وتتلخص سيرته فيما يلى :

يقال إن أصله من الممالك الكتاتية ، الذين اشتراهم السلطان الأشرف « برسباى » ، وقد جلبه إليه الخواجا « ططخ » من بلاد جركس وكان مراهما ، فاشتراه « برسباى » عام ٨٤١ هـ . قيل : ثم تحول ماسكة إلى بيت المال . فاشتراه منه الملك الظاهر « جقمق » وأعتقه ثم رقاها ساقيا فأمر عشرة فى عام ٨٥٢ هـ بدلا من تمرار البسكتمرى المصارع ، ثم جعله من رؤوس النواب . وزوجه ابنته من مطلقته « خوند مغلى » ابنة ناصر الدين ابن البارزى . — وتزوج أختها عام ٨٧٠ هـ بعد وفاة زوجها . وفى أوائل عهد الأشرف إينال كان خازندارا كبيرا . ثم إنه كان فى عداد الأمراء الذين سخط عليهم هذا السلطان ، لأنه انتزع السلطنة من الملك عثمان بن جقمق . وكان الأمير « أذربك » منجازا — ولا شك — إليه مع المنجازين . لذلك لما تم أمر « إينال » العلائى فى السلطنة قبض على عدد من الأمراء كان من بينهم الأمير « أذربك بن ططخ » ، وذلك عام ٨٥٧ هـ . وسجن الجميع مقيدى بسجن الإسكندرية ثم نقل إلى صفد ، ثم أطلق سراحه بعد حين عام ٨٥٨ هـ . وأرسل إلى القدس عاطلا . ثم عاد بوساطة زوجته والجمالى ناظر الخاص عام ٨٦١ هـ وتقلبت به الأحوال حتى صار رأس نوبة النوب فى عهد الظاهر « خشقدم » . ثم غضب عليه « خشقدم » فنفى مع تمرغا الظاهرى — الذى ملك بعد — بسجن الإسكندرية ، حتى شفع فيها الإتابكى قائم التاجر ، فأفرج عنهم بعد ٣ أيام . ثم اختير فى عام ٨٧٢ هـ ، لى يخرج إلى العقبة هو والأمير جاني بك فلقسير بسبب فساد عربانها . فقام بهذه المهمة . ثم عاد بعد

وفاة الملك « خشقدم » ، وقيام سلطنة الظاهر « بلباي » . فكان في صحبته نحو ستين من العربان أسرى في الأغلال فأمر « بلباي » بقتلهم فقتلوا . واتضح أن « أربك » قد بلغ في رحلته هذه إلى الأزم .

وما حان عصر الأشرف « قايتباي » ، حتى أخذ نجم الأمير « أربك بن ططخ » ، في الصعود . فعين نائباً على الشام — وقيل عين على الشام قبل ذلك — . وفي ذلك الحين — أعني في عام ٨٧٢ هـ — قامت فتنة الشاه « سوار » ملك الألبستين ضد السلطان فجرد له حملة عسكرية قادها أتابكيه « دجاني بك قلسقير » ، وكان نصيبها الفشل وأسرفاندها . فخلا بذلك منصب الأتابكية بمصر ، فتمنحه السلطان قايتباي الأمير « أربك بن ططخ » واستقدمه من الشام على وجه السرعة ليتولاه .

وما يذكر هنا أن « أربك » كان قد اشترك في الحملة ضد « سوار » ، وانهمزم مع المنهزمين ، وعاد إلى حلب جريحاً لا مال معه ولا سلاح ولا جند . فلما أسند إليه السلطان منصب الأتابكية وواقفه الرسل بذلك في المحرم عام ٨٧٣ هـ ، زم رحله وبعث شطر مصر ، فبلغها في صفر من هذا العام . فظل في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة من عام ٨٧٣ هـ إلى عام ٩٠٤ هـ ، وهو مثال العمل الدائب والجهد المستمر . ما عدا نحو عامين قضاهما في مكة .

خرج في سنة ٨٧٣ هـ إلى البحيرة ، ليطفى فتنة عربانها ، فأقام بها ردحاً من الزمن ثم عاد في رجب . وفي خلال غيبته — وكان السلطان قد أرسل حملة أولى لتأديب « سوار » — هم بتجهيز الحملة الثانية ، فاختار أتابكيه « أربك » ليكون قائد جندها . فلما عاد « أربك » ، أظهر إلباهه عن قيادتها . بسبب قلة ما أعطى من المال خاصة به ، وبسبب نفوره من مماليك السلطان . فما زال « قايتباي » يتلطف به حتى أجابه إلى السفر ، وقبل ما أعطى من المال . فخرج بجنده في شعبان من العام نفسه ، وودعه السلطان قبيل رحيله . وقد ذكرنا أن « أربك » كان قد تزوج بأخت الملك المنصور « عثمان » وهي بنت الظاهر « جقمق » . لذلك كانت له مكانة متميزة بين الأمراء .

أما الحملة التأديبية التي قادها ضد « سوار » فقد كان نصيبها الفشل والانكسار ، فأقام بعدها بحلب مدة ، ثم عاد بمن بقي من الأمراء والعسكر ، وفي صحبته شاه « بضاع » أخو سوار ، الذي انتزع منه سوار بلاده فقلبيهم السلطان لقاء حسناً . وكانت عودة « أربك » في رمضان عام ٨٧٤ هـ . وفي أخريات عام ٨٧٦ هـ ، دعاه السلطان مع عدد من الأمراء

على رأس تجريدة لتأديب عرب الشرقية ، من بنى حرام وبني وائل ، الذين زاد عبثهم ، وجفروا في اعتدائهم على الناس ، حتى وصلوا إلى أحياء من القاهرة نفسها ، ونهبوا كثيرا من المتاجر والأقشعة . فرحل إليهم « أذربك » ، ومن معه من الأمراء . ثم إنه عاد إلى القاهرة بعد عدة أيام ، ومعه بعض الأسرى فسجنوا بسجن المقشرة . أما الأمراء الآخرون فقد بقوا زمنا آخر في الشرقية ، للقضاء على فتنة هؤلاء العربان . وقد عاود الأتابكي « أذربك » الذهاب إلى الشرقية ، ثم عاد ومعه عدد آخر من الأسرى مصنفين في الأغلل . وذلك في صفر سنة ٨٧٧ هـ .

وظل الأتابكي « أذربك » يقوم بمهام كثيرة مما تحتاج إليه الدولة : سيااسة أو إدارة أو بناء أو غير ذلك . فكان هو المقدم عند كسر السد نيابة عن السلطان وكان يصحبه كثيرا في حفلاته الرياضية . ويعمل على الصلح بينه وبين مماليكه السلطانية ، إن بدا منهم له عصيان . أو بين بعض الأمراء والبعض الآخر أو يتوسط لدى السلطان شفيعا لبعض المذنبين . أو يقوم بتهدئة فتنة يثيرها بعض الأمراء أو الجند . أو يستشير السلطان في الأمور الهامة . وهكذا . وفي هذا كله دلائل على ما كان له من علو الجاه ، نافذة الكلمة ومسموع الرأي .

وفي شهر رجب من عام ٨٨٠ هـ ، رحل السلطان الأشرف قايتباي إلى القدس فصحبه الأتابكي « أذربك » ، فدبرا هناك ما اقتضى التدبير ، وعادا في شعبان هما ومن معهما . وفي ذى القعدة من نفس العام ، رحل رحلة أخرى بصحبة السلطان أيضا لزيارة الغيوم ، فزارا هناك طاحونا تدور بالماء أنشأها خاير بك بن حديد أحد أمراء مصر .

إنشاء الأذربكية

وفي العام المذكور « ٨٨٠ هـ » بدأ الأتابكي « أذربك » إنشاء الأذربكية ، وقد أورد ابن لباس وصفا شائقا لها ، نجمله فيما يأتي . قال : « كانت أرض الأذربكية خربة ممتلئة بكثب من الرماد ، ينبت بها بعض أشجار السنط والأثل ، وبها أضرحة بعض الأولياء . وتناولها بعض المصلحين بضروب من الإصلاح ، فأجرى إليها الماء ، بوساطة خلجان تمتد من النيل ، وأنشأ بها المناظر والبساتين ، وما شابه ذلك . ثم عفى الزمان أثرها وعادت إلى خرابها ، وتناقص عمرانها . وما زال هذا أمرها ، حتى سكن الأتابكي « أذربك » ،

على مقربة ولم تكن أرضها ملسكاً له ، وإنما كانت من أملاك الدولة ما يخرج منها من ثمار يعود على الناس ولسكن ، الأتابكي « أزيك » رأى أن يجرى إليها أسباب الحياة ، ويمد لها ضروب العمران ، فاستخار الله وأنفق عليها نحواً من مائتي ألف دينار . فهدأ أرضها بواسطة المحارث ، وأنشأ مأخذاً جماله ، ثم حفر بركة وجعل شواطئها ، وأجرى إليها الماء بواسطة خلجان . وبنى فوقها القناطر ، ونشروها المقاعد ، وأحاطها بالبساتين وشاد العمار والربوع والحمامات والقاعات والطواحين والأفران ، وضروباً كثيرة من مرافق الحياة . حتى غدت الأزبكية أحد منازل القاهرة . وتكسر سدود خلجانها كل عام في حفل ، يحضره الأمراء والأعيان ، ويجتمع فيه الناس لمشاهدة اللهو والسمر . ومما أنشأه فيها مسجد كبير . وقد وهب السلطان أرض هذه الأزبكية ، الأتابكي « أزيك » بعد تمام هذه الجهود في إنشائها . وقال السخاوي في الضوء : إنه ابتنى بها جامعاً عظيماً ، قرر به صوفية ومدرسين وقرّاء ، وزوده بجزانة كتب .

وفي أخريات عام ٨٨٣ هـ ، عهد إليه السلطان ببناء قناطر في ناحية الحيزة . وقد تم بناؤها في شعبان عام ٨٨٥ هـ فنحى السلطان هدايا قيمة . وفي جمادى الأولى من عام ٨٨٤ هـ سافر في صحبة السلطان الأشرف إلى الإسكندرية لتفقد شئونها . وكان سفرهما بطريق النيل ومعهما عدة من الأمراء والجنود . وشاهدوا البرج الذي أنشأه السلطان بها . وعاد الجميع في أخريات الشهر المذكور . ولما سافر السلطان الأشرف إلى الحج عام ٨٨٤ هـ ، كان الأتابكي « أزيك » هو صاحب الحل والعقد بالديار المصرية مدة غيبته ودارنه الأمير « يشبك » الدوادار . ولما عاد السلطان من حجه فرّق أنواعاً من الهدايا على الأمراء . وابتدأ في ذلك بالأتابكي « أزيك » .

وفي عام ٨٨٥ هـ قتل الأمير « يشبك » الدوادار في معركة حامية وقعت بينه وبين « بابندر » أحد نواب يعة وب بن حسن الطويل ملك العراقيين . وكان يشبك قد خرج في جند كثيف من مصر بأمر السلطان ، في طلب الثائرين على مملكاته ، لاسيما « سيف » أمير آل فضل قتل نائب حماة . فكان حينه في ذلك الحروب . وبأنه زامه انتشرت الفوضى في البلاد الشامية والحلبية ، حتى خاف السلطان عاقبتها . فأرسل إليها توما ، الأتابكي « أزيك » لإعادة الأمن إليها في عدد كثيف من الأمراء والجنود . وفوض إليه أمر البلاد الشامية والحلبية ، ووكل إليه حق العزل والولاية في كل مناصبها كما يشاء . فبلغ

« أذربك » في ذلك الوقت ماشاء ، من عظمة وعلو جاء . ولما وصل إلى حلب ، وجد أن الفتنة قد ركبت . فأرسل رسولا إلى « يعقوب » بن حسن الطويل ملك العراقيين ، تلطف معه ليطلق من عنده من أسرى المصريين ، فأطلقهم وعادوا مع رسوله إلى حلب . فكان ذلك نصرا مبينا للأتابكي « أذربك » وظل هناك يدبر أمر الملك ويثبت قاعدته . ثم عزم على العودة إلى مصر ، فبلغها في شوال سنة ٨٨٦ هـ ، ودخل القاهرة في موكب حافل .

وفي شوال عام ٨٩٠ هـ خرج الأتابكي « أذربك » على رأس حملة عسكرية كبرى لتأديب جنود ملك الترك العثمانيين ، العائدين بأطراف بلاد السلطان ، ولتأديب « على دولات » الثائر ضد السلطان أيضاً . فأوقع « أذربك » بأعداء السلطان ، وعاد ومعه منهم جم غفير ، مصفدين في الأغلال . ولولا عصيان جنده له مرات عدة بسبب الإنفاق عليهم ، لكان له شأن أعظم مما وقع وكانت عودته حافلة في ذي القعدة عام ٨٩١ هـ فوهب له السلطان خلعا سنية .

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٩٢ هـ ، تم عقد زواج الأمير « قانصوه خمسمائة » — وهو الذي كاد يكون سلطانا على مصر عام ٩٠٢ هـ — على ابنة الأتابكي « أذربك » من ابنة الظاهر جقمق ، وذلك بمجامع القلعة وبحضور الفضاة الأربعة وأعيان الناس . وقد أهدى السلطان لإيهم . وفي شهر رجب التالي تمت ليلة زفافهما في الأزرابية . وكان لقانصوه ، ركب حافل ، تقدمته الأمراء بالملابس الفاخرة والخاصكية بالشموع . وحمل الأناث من الأزرابية إلى قناطر السباع حيث بيت « قانصوه » نحو أربعمائة حمال . ويقال إن ثمنه نحو مائتي ألف دينار . — وهذا كله دليل على ما بلغه الأتابكي « أذربك » ، من علوجاه واتساع ثروة . — هذا وقد توفيت هذه العروس في جمادى الآخرة عام ٨٩٧ هـ وبعدها بأيام توفيت أختها بركا . —

وفي هذه الأثناء ازداد عبث الأتراك العثمانيين بأطراف الدولة ، فجرد عليهم الأشرف قايتباي حملة عسكرية كبرى ، فافت الحملة الأولى ، بل فاقت ما سبقتها من الحملات . وكان على رأسها الأتابكي « أذربك » ومعه طائفة كبيرة من عظماء الأمراء من بينهم صهره « قانصوه خمسمائة » . وأنفقت عليها نفقات طائلة وخرجت هذه الحملة من القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وقد أبليت بلاء حسنا في مكافئة العثمانيين ، وغنمت

منهم الغنائم وأسرت الأسرى ، وساقوهم إلى مصر . وقد عاد الأتابكي « أذربك » ، من حربه تلك ، في صفر سنة ٨٩٤ هـ . فكان لعودته وقع عظيم في نفوس الناس . وقد خرج إلى حلب مرة أخرى لمثل الغرض السابق ، فكان خروجه بحملته الجديدة في ١٥ ربيع الثاني عام ٨٩٥ هـ . وأبلاوا بعض البلاء في محاربة العثمانيين ، ثم دبت فيهم الفتن فعادوا إلى القاهرة . وكان رجوع الأتابكي « أذربك » من حربه تلك في مستهل المحرم سنة ٨٩٦ هـ . وهذه آخر تجاريدته إلى البلاد الحلبية .

وقد تفرغ الأتابكي « أذربك » ، بعد ذلك لأعمال البناء والتعمير سواء ما اتجهت إليه رغبة السلطان أو ما اتجهت إليه رغبته . من ذلك ما أمر به في جمادى الآخرة سنة ٨٩٩ هـ من تجديد عمارة المدرسة المنصورية التي بدهلين البيمارستان ، وضرب على الفسقية التي بها قبة ، وجدد بها منبرا ، وأقام خطبة . وهذه أعمال حاولها من قبله الأتابكي « إيتشمش » البجاسي في دولة الناصر فرج ، فتعذرت عليه بسبب قتوى بعض العلماء ، بدعوى مخالفتها لأشروط الواقع . ولكن « أذربك » تغلب على مثل هذه الفتاوى . وما يذكر هنا أن الأتابكي « تمرز » قد أبطل الخطبة منها بعد خلع « أذربك » ، من الأتابكية . فلما قتل « تمرز » ، وأعيد « أذربك » ، إلى الأتابكية أعاد الخطبة إليها مرة ثانية ، فاستمرت بها زمنا طويلا .

ومما يذكر أنه منذ توليه منصب الأتابكية ، كان المقدم في فتح السد كل عام . ولم يفتتحه سواء إلا إذا كان غائبا في تجريدة خارج مصر . ثم إنه فتح السد في ذى القعدة سنة ٩٠٠ هـ ، وكانت هذه آخر مرة له في فتحه .

وفي يوم الخميس مستهل ذى الحجة من عام ٩٠٠ هـ ، بدأت حادثة فتنة تزعمها « قانصوه خسمائة » ، وانحاز إليه الأتابكي « أذربك » لأنه صهره . وسببها أن بعض المماليك نهب دار الأمير « قانصوه خسمائة » في أثناء تغيبه ليلة عيد الفطر بإقطاعه . ففهم أن الذي ساقهم عليه هو الأمير « أقبردى » الدوادار ، لعداوة قديمة بينهما . فجمع حوله عددا ضخما من الأمراء والجنود ، ولبسوا آلة الحرب ، واجتمعوا بالأزبكية عند الأتابكي « أذربك » ، فما كان من السلطان الأشرف إلا أن نادى الجنود إلى الاستعداد للقتال ، ففتت في ساعد أنصار « قانصوه » ، و « أذربك » ، وتفرقوا واختفى منهم من اختفى . ففرد « قانصوه » ، واختفى . وكان ذلك انتصارا كبيرا لعدوه « أقبردى » ، الدوادار .

وعصا بته . أما « أذبك » فقد استقدمه السلطان إليه بالقلعة ، وأمره بالإقامة بها في قاعة البحر ، خوفاً عليه من المماليك الجلبان أن يقتلوه . فلبث أسبوعاً ، ثم خرج مع السلطان في صلاة الجمعة فتحفز له كثير من المماليك وهموا بالبطش به ، ولكن السلطان حماه . فرأى « أذبك » أنه لم تعد تطيب له الإقامة بمصر ، وسط هذه العاصفة الهوجاء ، التي هبت ضده على حين غفلة . واستأذن السلطان في أن يقيم بمكة المكرمة ، فأذن له . فزايـل القاهرة في ركب غير حافل في ٨ ذى الحجة من العام المذكور . وانتهت بذلك أتابكـيته الأولى ، بعد أن مضى فيها نحواً من سبع عشرة سنة ، بلغ فيها من العز والجاه ، ما رنت إليه عيون الكـثيرين من العـطاء ولم يبلغوه . ثم زايـله كل شـيء من زايـلة فجائية لأسباب نافهة . تقلبت الأحوال ، بعد أن غادر الأتابكي « أذبك » مسرح السياسة المصرية وترك الأتابكـية . فتوفي الأشرف قايتباي وملك ابنه الناصر محمد . وبلغ « قانصوه خـمسة » منصب الأتابكـية ، ثم زايـل فـعادت إلى « تـمراز » واشتدت الفتنة بين « قانصوه » وأقبردى . وأعلن « قانصوه » بنفسه ملكاً على مصر ، ثم فشل في حركته وأدت ثورته هذه إلى اختفائه . ثم ظل « تـمراز » في الأتابكـية حتى قتله بعض المماليك في أخريات سنة ٩٠٢ هـ . وفي عام ٩٠٣ هـ ، شعر جميع الأمراء بحاجتهم إلى أتابكي قدير ، واتفق رأيهم على استدعاء الأتابكي « أذبك » من مكة ، ليلى منصب الأتابكـية بمصر للمرة الثانية . فكتب السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، مرسوماً بذلك في أوائل العام المذكور . فعاد « أذبك » إلى القاهرة في يوم الخميس ٢٢ ربيع الأول من العام نفسه ، فـنـجـه السلطان الناصر منصب الأتابكـية ثانية . وكانت مدة غيابه بمكة نحو سنتين وثلاثة أشهر . غير أنه في هذه المرة لم يعد له من الجاه أو الكلمة المسموعة أو الشفاعة المقبولة ما كان له في المرة الأولى . ومع ذلك كان له أثر لا بأس به في تهدئة الفتن وفض المؤامرات ، التي كل يقوم بها المماليك ضد السلطان الناصر محمد بن قايتباي .

ولما قتل هذا السلطان في ١٥ ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، اضطرب الأمر على الأمراء وخاروا فيمن يولونه السلطنة ، واتجهت رغبة بعضهم إلى سلطنة الأتابكي « أذبك » ، وفازضوه فعلاً في ذلك ، فأبى إباء شديداً ، وأقسم ألا يكون سلطاناً . وإلا يذهب إلى مكة ويجاور فيها كما كان . ولعله خاف عاقبة السلطنة ، إذ رأى حولها كثيراً من الذئاب الراغبة فيها والطامعة في نوالها . فربأ بنفسه عن مـاويها ومؤامراتها . قالت

السلطنة إلى الأمير « قانصوه بن قانصوه » خال الناصر ، وظل « أربك » مستمرا في أتابكيتته ، إلى أن توفي في عهد السلطان قانصوه المذكور . وكانت وفاته في يوم الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ .

وبذلك انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر . ويقال إنه كان إلى جانب نفوذه وجاهه ، يشوبه كبر وبطش . ومع ذلك فهو يعتبر أحد المصلحين المنشئين . والغازين الناشئين . لواء مصر في الربوع الأخرى . وقيل إنه ترك من ورائه مالا طائلا . وقد دفن بترية . أساتذه الملك الظاهر جقمق ، وله ابن يدعى شرف الدين يحيى أقام في حماة زمنا طويلا ثم عاد لمصر . وتولى الأتابكية من بعده الأمير جيلن بلاط وهو الذي بلغ رتبة السلطنة فيما بعد . وفي الفترة التي هاجر فيها « أربك » إلى مكة أسندت الأتابكية إلى « تمران » ثم « قانصوه خمسمائة كما ذكرنا » .

« ابن إلياس ج ٢ ص ٣٥ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، إلى ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، إلى ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ إلى ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ج ٣ ص ٧٧ — الضوء اللامع ج ٢ رقم ٨٤٤ » .

٣٤ — الأمير « تمران الشمسي » ، ٩٠٢ هـ

قدم إلى مصر مع جالبيه عام ٨٣٦ هـ ، ثم صار من ممالك الأشرف برسباي . لنا يقال له الأشرف نسبة إليه ، ويقال له أيضا العزيز نسبة للعزيز بن الأشرف برسباي فهو معتقه . ثم أعانته على حياته الحرة . وعين جندارا . وفي عهد الأشرف إينال صار خاصكيا فساقيًا ثم أمير عشرة . وفي عهد الظاهر خشدقدم انضم مع الأتابكي « جرباش كرت » ، المحمدى ضد سلطانه ، وذلك عام ٨٦٩ هـ . فاستحق النفي إلى دمياط . وفي عهد الظاهر تمر بفا عاد إلى القاهرة سنة ٨٧٢ هـ . وفي عهد الأشرف قايتباي علا نجمه واتصل بالسلطان ، إذ اتضح أنه أحد أقاربه — قيل إنه ابن أخته — . لهذا رفاه إلى مقدم ألف . وسافر

مع الحملة ضد «سوار» ثم صار رأس نوبة كبيراً ، ثم أمير سلاح ، وولى أمر البحيرة فحصدت سيرته ، ورأس حملة ضد «على دولات» ، فبلى بلاء حسناً . ولما انحاز الأتابكي «أزيك» إلى زوج ابنته الأمير «قانسوه خسمائة» ، في فتنته ضد السلطان الأشرف والامير «أفردى» ، انحاز «تمراز» إلى السلطان . وكان من نتيجة ذلك ما ذكرنا من نفي الأتابكي «أزيك» إلى مكة ، بخلاف منصب الأتابكية فوهبه السلطان للأمير «تمراز» وكان ذلك في يوم الاثنين مستهل صفر عام ٩٠١ هـ . وبعد ذلك بأيام عينه السلطان أيضا اظرا على البيارستان المنصوري .

وفي شهر ذى القعدة عام ٩٠١ هـ . أيضا ، اعترى المرض السلطان الأشرف . فانتهر المرصعة الأتابكي «تمراز» ، وخاطبه في أن يخلع نفسه من الملك ليتولاه ابنه محمد ، فلم يطاوعه السلطان ولم يرد عليه جوابا . فاستعصم منه ابن السلطان وهم بتوليته . وأشيع حينذاك أن الأتابكي «تمراز» يرشح نفسه للسلطنة . فغضب جماعة من الأمراء من بينهم «قانسوه خسمائة» و «كرتباي الأحمر» ، وحمى غضبهم ودفعهم إلى قتاله . ثم قبضوا عليه ، وقيدوه بقسوة ، وبعثوا به إلى سجن الإسكندرية .

توفي الملك الأشرف قايتباي ، عقب ذلك بأيام قليلة ، وتولى أريكه الملك ابنه الناصر محمد ، فمنح الأتابكية «قانسوه خسمائة» . وهو الذي دبر ثورة ضد الأشرف قايتباي من قبل . فلما لبث هذه المرة حتى دبر مؤامرة وثورة جديدين ، ضد سلطانه الناصر محمد ابن قايتباي ، وأعلن بنفسه سلطانا على البلاد . ولكن هذه الحركات كانت عاقبتها الفشل التام ، فاخفى «قانسوه خسمائة» ، وخلا منه منصب الأتابكية ، وذلك في جمادى الأولى عام ٩٠٢ هـ ، فرأى السلطان الناصر بن قايتباي ، أن يفرج عن الأتابكي «تمراز» ، ويعيده إلى منصبه . فأصدر مرسومه إليه بذلك في مستهل جمادى الآخرة من العام المذكور . ومن الغريب أن «قانسوه» لما اختفى قيل إن الأمير «قانسوه» الشامي ، وهو من عصبته ، توجه مع آخرين إلى الإسكندرية ليقتل «تمراز» في سجنه ، مستعينا في ذلك بنائب الإسكندرية ، لأنه أخو «قانسوه خسمائة» . ولكن خاب مسعاه ، إذ لجأه في الطريق هو ومن معه جماعة من العربان أثنوا فيهم ، وقبضوا على «قانسوه» الشامي . وأودعوه بسجن الإسكندرية حيث كان «تمراز» ..

وفي الشهر المذكور عاد «تمراز» إلى القاهرة ، فلقبه السلطان لقاء كريما ، وأعاده

إلى الأتابكية . غير أنه مالبث غير قليل ، حتى شعر بحركة ضده ، يقوم بها ممالك « قانصوه خمسمائة » ، وغايتها قتله . فأمره السلطان بأن يقيم بالقلاعة ، محافظة على حياته . فأقام في الجامع الصغير ، داخل « الحوش » السلطاني عدة أيام ، ثم ظهر « قانصوه خمسمائة » وحاول إضرام فتنة جديدة ، فاستطاع « تمرز » ، حينئذ أن يترك مكانه ، ويسير وفي ركبه جماعات عدة من الممالك الجلبان الحانقين على « قانصوه » ليقضوا عليه ، وكان متحصنا بالأزبكية في منازل صهره أزبك ، فلما شعر « قانصوه » بدنوهم ، لاذهو ومن معه بالفرار . وبعد ذلك سمح السلطان للأتابكية « تمرز » ، بأن يعود إلى داره .

ويبدو لنا من تتبع سيرة حياته هنا ، أن نفوذه صار متقلصا ، وأن هناك من أمراء عصره من أصبح له نفوذ فوق نفوذه ، وجاه فوق جاهه ، وعصية فوق عصيته . لذلك لم يكن غريبا منه أن ينضم إلى الأمير « أقبردي » الدوادار ، حينما قام بثور ضد « قانصوه » خال الملك الناصر محمد بن قايتهباي في عام ٥٩٠٢ هـ في شهر ذي القعدة ، وقاتله قتالا عنيفا استمر إلى أواخر ذي الحجة . فلما انكسر وهزم ، فر إلى بلاد الشام هو وعصابته . أما الأتابكي « تمرز » ، فقد كان قبيل ذلك مربضا ، فلم يشعر بانكسار « أقبردي » حليفه في حينه . فأرسل « أقبردي » إليه يستدعيه للهرب معه ، فأبطأ عليه ، فتركه ويمم إلى بلاد الشام . وبقى « تمرز » بمصر ، فقبض عليه واقتيد إلى القلاعة . وبينما هو في طريقه لقيه عدد من ممالك أعدائه فجزوارأسه ومثلوا به ، والذي تقدم لقتله منهم ملوك يدعى « بردبك » الأشقر من أرادلهم . ثم دفن في تربة الأشرف قايتباي . وكانت قتلته في ذي الحجة عام ٥٩٠٢ هـ . وكان أميرادينا مهيبا كثير البر . توفي في العقد الثامن في عمره . وكان له طمع في الساطنة حتى كان إذا سأله أحد إنجاز وعنه ، أو تعلق به بأمل ، صابره ويقول « اصبر علينا حتى يحجي وقتها » ، وكان متوددا للعلماء برا بالفقراء . وقد تزوج عدة مرات : تزوج « ملاكباي » ابنة قرقاس فماتت عام ٨٧٩ هـ . فتزوج ابنة الملك المنصور ابن الظاهر جقمق بـ « بكر » ، فولدت له بدتالم تعيش طويلا ، ثم ماتت زوجها هذه ، فتزوج عام ٨٨٧ هـ ابنة الأمير « جانم » ، الأشرفي نائب الشام بـ « بكر » ، فولدت له .

« ابن إلباس ج ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، إلى ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ . — الضوء ج ٣ رقم ١٥٢ . »

٢٥ - قانصوه خمسمائة الأشرفى بن طراباى ٩٠٢ هـ

أمير من عظماء الأمراء ، ومن ذوى الأطناع الكبرى . حدثته نفسه بانزعاع السلطنة من صاحبها . فأنزعاعها ثلاثة أيام ، وتلقب بالملك الأشرف . ولكن سلطنته لم تكن إلا كرويا الحالم . ويقال إن أصله من المماليك الكتائبية ، الذين ابتاعهم الملك الظاهر خشدقدم . ثم آل ملكه إلى الأشرف قايتباى فأعتقه فيمن أعتق . ومن ثم ظل يتقلب فى مناصب الدولة حتى بلغ أرقاها . وقد اختير أميراً للركب الأول للحاج عام ٧٨٧ هـ . وهو أحد المواعين ، إشعال نار الفتنة والاثثار ، وأحد الذين رموا بأنفسهم فى محيط الحروب الأهلية ، التى جرت بين المماليك فى خلال دواتهم الثانية ، ليصل من وراء ذلك إلى ما تصبو إليه نفسه من أمل .

ويبدو أنه كان محبا للنزاع والشغب منذ نشأته ، حتى مع جيرانه الأدنى . فقد حدث فى عام ٨٨٣ هـ ، وفى شهر ربيع الأول منه ، أنه أنشأ بعض الأبنية فى جهة قناطر السباع بالقاهرة ، فاقطع فى سبيل ذلك بعض أشجار جاره ، وفتح فى ناحيته بابا بغير حق ، مما اضطر هذا الجار ، وهو المدعو الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار ، إلى شكايته إلى السلطان الأشرف قايتباى ، فانتصف له منه ، مع أن « قانصوه » كان فى ذلك الحين من أخصاء السلطان .

وفى ربيع الأول من عام ٨٨٤ هـ ، منحه السلطان الأشرف قايتباى الدوايرية الثانية . وفى الشهر نفسه أصلى الأمير « يشبك » الدواير الكبرى بين « قانصوه خمسمائة » والأمير « جانم » الشرفى ، إذ كانت بين الاثنين وحشة وجفاء ، وقد جمع بينهما فى وليمة حافلة . وفى شهر المحرم عام ٨٨٦ هـ قفز الأمير « قانصوه » من الدوايرية الثانية إلى الأمير آخورية الكبرى . وبين الوظيفتين مراحل شتى . وهكذا علا نجمه وسعد جده وبدأ يكون من عظماء الأمراء .

ولما خرج الأتابكى « أربك بن ططخ » عام ٨٩٠ هـ فى شهر شوال ، لقتال « على دولات » وتحت قيادته حملة عسكرية كبرى ، كان « قانصوه خمسمائة » أحد كبار أمرائها . وقد نجحت هذه الحملة نجاحا نسبياً ، كما بينا فيما سبق . ويقال إن كتيبة « قانصوه » كانت رائدة الملبس والسلاح والمظهر ، ويقال إنه أنفق فى إعدادها نحواً من ثمانين ألف دينار .

وبدأت سنة ٨٩٢ هـ ، بالغلاء والاضطراب ، وثوران المماليك ، ولا سيما الجلبان ، فانقسموا فرقتين : إحداهما مع قانصوه ، والثانية مع الأمير « أقبردى » الدوادر . وهو الذى ابتلى « قانصوه » بعداوته ومنافسته له . وقد حظى « قانصوه » فوق اختصاص الأشرف به ، بزواجه من بنت أتابكى العصر الأمير « أزبك » ، وحفيدة الملك الظاهر « جقمق » . وتم العقد فى جمادى الآخرة عام ٨٩٢ هـ ، بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وعظماء الناس ، وأهدى إليهم السلطان بعض الهدايا المناسبة . وبعد أيام تمت ليلة زفاف العروسين ، على أروع ما يكون زفاف فى ذلك الحين . وركب « قانصوه » فى جبهة من الأمراء والخاصية ، والشموع فى أيديهم . إلى آخر ما ذكرنا فى ترجمة « أزبك » . وهذه العروس قد توفيت بعد زواجها بنحو خمس سنوات ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٧ هـ .

ولما زاد عبث العثمانيين بأطراف البلاد ، رأى السلطان الأشرف أن يجرى عليهم حملة أخرى . فكانت بقيادة الأتابكى « أزبك » وصحبه فيها أيضا الأمير « قانصوه » صهره . وخرجت الحملة تقصد البلاد الشامية والحلبية فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وخرج « قانصوه » فى ركب حافل كالركب السابق فى الحملة الأولى ، وأبلى الحملة بلاء حسنا فى مكافحة الأعداء ، وعادت فى صفر عام ٨٩٤ هـ .

وفى شهر ذى الحجة سنة ٨٩٦ هـ ، اختلف الأمير « قانصوه » والأمير « أقبردى » الدوادر بسبب نوتى . فكان ذلك بدءاً للزراع المستحكم والمنافسة الدموية بين هذين الأميرين ، مما كان ذا أثر بارز فى حياتهما .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٩٨ هـ ، عين « قانصوه » أمير حج فى ركب المحمل . فخرج بركبه فى شوال من العام نفسه باحتمال مهيب . وعاد من مكة فى المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يلهج أحد بالشثناء عليه ، فقد بدرت منه — على ما قيل — بوادر آذت الناس ، وأخذ من بعضهم جمالهم ، وترك بعضهم فى « ينبع » حين عودته ، فقاموا لذلك . ولعل هذا كان بدء نخس هذا الأمير . فإنه ما لبث حين مرض السلطان الأشرف عام ٩٠٠ هـ ، أن قيل له ما يؤخذ منه إن « قانصوه » اجتراً على مقام السلطنة ، ولذلك منعه السلطان من الدخول عليه أثناء مرضه . وهذا دليل على كثرة أعدائه ، وفى ليلة عيد الفطر من العام المذكور ، رحل « قانصوه » إلى إقطاعه ، فانتهزت طائفة

من الممالك المعادية له ، هذه الفرصة ، واقتحموا داره ونهبوا ما فيها ، وأحرقوا أغلب نواحيها . فلما عاد قانصوه ، وعلم ما حل بداره إبان غيابه ، ملأ قلبه الشر على عدائه ، وعزم على تأديبهم ، وأخذ في تدبير الأمر لذلك . فلما كان يوم الخميس مستهل ذى الحجة ، جمع قانصوه عصابته من أمراء وممالك سلطانية ، وشرعوا أسلحتهم ، وتجمعوا بالآزبكية حول بيت الأتابكي « أزبك » صهر قانصوه ، حيث انضم إليهم الأتابكي نفسه . فاضطر السلطان الأشرف قايتباي إلى مقابلتهم بالشدّة ، خوف استطارة هذه الفتنة . فكانت عاقبتهم الانكسار والهزيمة . - وما يذكر أن الأمير « أقبردى » الدوادار كان أحد قائدى عسكر السلطان . ولذلك تعد هزيمة قانصوه ، هذا نصرة له . وكانت هذه أولى الهزائم التى منى بها « قانصوه » على الرغم من تدبيره وسياسته وشجاعته . وبعد هذه الهزيمة اختفى ، وقبض على كثير من عصابته .

ظل الأمير « قانصوه » محتفيا نحو تسعة أشهر . ثم ظهر وصعد إلى القلعة ، فلقبه السلطان لقاء حسنا . ولكنه خشى عليه أن يفتك به الجند إذا رأوه . فاحتال السلطان على الجند ، بأن ألبس « قانصوه » ثوبا بعلبكيّا - مما يكفى فيه الموتى عادة - دلالة على استسلامه . ومن العجب أنه نزل إلى داره ، يصحبه الأتابكي الجديد « تمرز » الشمسى والأمير « أقبردى » الدوادار عدوه اللدود . . .

غير أن فئة كبيرة من الممالك الجلبان من عصابة « قانصوه » ، سرعان ما أثارَت فتنة فى ذى القعدة عام ٩٠١ هـ وشرعت سلاحها وذهبت إلى جهة الرميّة ، وحاصرت « أقبردى » الدوادار ، وأحرقوا بعض الدور . فاخفى « أقبردى » ومرض السلطان « قايتباي » بسبب هذه الفتنة ، وهم الأتابكي « تمرز » ، بأن يعلن بنفسه سلطانا ، أو يملك ابن قايتباي . وهكذا كانت فتنة المالك « قانصوه » ، سببا فى اضطراب الأمور وانشعاب الأهواء . فلما علم قانصوه ، بما عول عليه الأتابكي « تمرز » دهمه بخنوده ومعه الأمير « كرتباي » الآخر ، وقبضا عليه وقيده وأرسله إلى سجن الإسكندرية . ونهبت دور الأمير « أقبردى » ، ومن لبّ ألفه من عصابته . وكانت النتيجة بعد ذلك أن اشتور الأمراء فيمن يولونه السلطنة ، وذلك لأن السلطان اشتد عليه المرض ، ودخل فى دور النزع ، فاتفقوا على تولية ابنه الملك الناصر محمد . وقد تمت توليته ، وتوفى

أبوه بعد قليل . وكان هذا في الشهر المذكور .

كان طبيعياً أن يكون الأمير « قانصوه » ، صاحب الحال والعقد في هذه الدولة الناصرية الجديدة ، فنحى السلطان الناصر بن قايقباى منصب الأتابكية والإمارة الكبرى ، عقب توليه مهام السلطنة .

وكم كان يكون سعيداً مجدوداً لو قنع بما بلغه من المناصب الممتازة ، ولم يتطلع إلى ما فوقها من مرتبة السلطنة ...! ولكن لعله قد خدع، صغرسن سلطانه الجديد ، فقد ولى الملك في الرابعة عشرة من عمره . وسرعان ما دبت الأهواء والخطرة في نفس « قانصوه » ، وسولت له أن يتمتع عن أن يصلى مع السلطان صلاة عيد النحر في العام المذكور ، أو صلاة الجمعة ، ثم أخذ في تطهير القاهرة من ممالك الأمير « أقبردى » الدوادار ، فشتتهم في أماكن عدة . وعاون صديقه « كرتباى » الأحمر ، فأستندت إليه وظائف عدة ، منها الوزارة والاستاذارية ، وكشف الكشاف وغير ذلك . ووفق يبحث عن مكان عدوه « أقبردى » ، فهاجمت جنده عدة دور وجوامع وزوايا بسبب ذلك . ثم اتضح أن « أقبردى » ، قد فر إلى غزة . وأخذ في تدبيع أنصار « أقبردى » ، حتى اضطروا إلى الاختفاء خوفاً من سطوته ... فما يصنع السلطان إزاء هذه الحالة الشاذة ، واستفحال شأن أتابكيه « قانصوه » ؟ ... حاول أن يصلح ذات البين ، فآمن من استخفى من عصبية « أقبردى » وصالحهم على « قانصوه » . غير أن هذا كان قد أصر في نفسه على المكيدة ، ودبر من وراء الستار أمراً خطيراً ، فإنه استضاف بعض أتباع « أقبردى » ، وبينما هم في مأدبته وفي داره ، إذدهمهم الجند وقبضوا عليهم ، وساقوهم إلى النيل ، وأغرقوهم - كما قيل - .

وفي ليلة الأربعاء ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٠٢ هـ اجتمع « قانصوه » ، بأتباعه من أمراء وجنود ، وتهيئوا لسلطنته في الغد . وفي صباح الأربعاء المذكور ، استقدموا الخليفة والقضاة ، واجتمع عدد كبير من أمراء وعسكر ، واحتمل الجميع على الخليفة ، حتى خلع السلطان الناصر محمد بن قايقباى ، وأعلن « بقانصوه » سلطاناً على البلاد . وتلقب بالملك الأشرف ...! وكادت سلطنته تقع عند جميع الناس موقع القبول ، ويضمن لها البقاء . لولا أن الملك الأشرف « قانصوه » لم يحتط للمستقبل ، واشتط في معاملة أعدائه ، وأمر بالقبض على الملك الناصر ، فهاجم لذلك عدد كبير من ممالك

أبيه ، يترعمهم الأمير « قانصوه » خال الملك الناصر ، وقاوموا « قانصوه » خمسة « مقاومة كبيرة . فتبادل الفريقان القتال حتى أريق دماء كثيرة . وآلت العاقبة بالهزيمة على « قانصوه » خمسة . فآثر الهرب والاختفاء في مستهل جمادى الآخرة ، ولم يمس على سلطنته سوى ثلاثة أيام ! وعادت السلطنة بذلك إلى صاحبيها الملك الناصر بن قايكباي .

كانت القاهرة في خلال هذه الفتنة التي قام بها « قانصوه » ، مسرحا للفوضى والنهب والسلب ، نحو أسبوعين . وباختفائه انتهت أنا بكية . فأسست عندها السلطان الناصر إلى الأمير « تراز » الشمسي للمرة الثانية ، واستقدمه من سجنه بالإسكندرية .

وفي ١٨ جمادى الآخرة من العام نفسه أي ٥٩٠٢ هـ ، ظهر « قانصوه » بعد اختفائه ، فتسامعت به عصابته ، فيممت شطره ، والتفت حوله في درب المرسيمة عند قناطر السباع . فسار بهم إلى الأنا بكية ، ليبيت ليلة ثم يستأنف هجومه في الصباح . ولكن هذه الليلة بددت أحلامه ، فقد انقض من حوله جمعه شيئا فشيئا في الصباح ولم يقيموا معه . فلما وقع ذلك رأى « قانصوه » شبح الهزيمة مثالا أمام عينيه هو ومن معه ، وتسامعوا بقدوم المماليك الجلبان لقتالهم ، فأثروا الفرار من وجههم وتوجهوا نحو غزة ، فنقوا في طريقهم الأمير « أقبردى » — وكان مختفيا فارا من وجه « قانصوه » فأوقعوا به وبين معه ، وكادوا يفتككون بهم ، لولا أن جاءتهم نجدة من غزة على حين غفلة ، فانكسروا أمامها شر كسرة . وهذه رابع هزيمة تصيب أميرنا « قانصوه » خمسة . ويقال إن « قانصوه » قبض عليه إذ ذك وقتل وأرسل رأسه إلى القاهرة مع غيره من الرؤوس . ولبث الناس في شك من أمر قتله . ومع ذلك كله فقد كانت واقعة مع « أقبردى » آخر العهد به .

وكان « قانصوه » أميرا جليل الشأن كبير الأطماع ، شجاعا وافر العقل محبا للبناء ، شيد بعض الدور والأبراج بالأنا بكية وبقناطر السباع .

وقد تولى الأنا بكية من بعده « تراز » الشمسي . ثم عاد إليها « أزيك » بن ططخ صهر « قانصوه » . ثم « جان بلاط » الذي ولى السلطنة بعد زمن . وكان أنا بكيا في عهد الظاهر « قانصوه » . ثم اعتلى السلطنة بعده ، فأسند الأنا بكية إلى الأمير « قوصروه » نائب الشام حينذاك . ولكن « قوصروه » أعلن بالعصيان ولم يلب الأمر . فظلت

الأنابكية شاعرة مدة يسيرة . ثم أسندها السلطان « جان بلاط » إلى الأمير « تاني بك الجمالي » .
 « ابن إلباس ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٣٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ إلى
 ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٧ - الضوء ج ٦ رقم ٦٨٣ .
 ٣٦ - تاني بك الجمالي الظاهري ٩٠٨ هـ

أصل هذا الأمير من « ماليك الظاهر » جقمق ، وقد برز في عهد الناصر « محمد بن قايتهاي » ، فكان نظام الملك وأمير سلاح . وكان في جملة من انضم إلى الأمير « قانصوه » خمسمائة ، في ثوراته المتعددة ، وقاتل معه ضد الأمير « أقبردى الدوادر » . واختفى أكثر من مرة ، على أثر الهزائم المتوالية التي منوا بها . وظهر أخيرا في عهد الناصر ابن قايتهاي ، أيضا ، واختير أميراً لركب المحمل عام ٩٠٣ هـ . ولما ولي ساطنة مصر الأشرف « جان بلاط » عام ٩٠٥ ، حفظ منصب الأنابكية لنائب الشام « قصروه » . غير أن « قصروه » امتنع بالشام وأعان السلطان بالعصيان - كما نوهنا - فأسند أنابكية عسكره إلى الأمير « تاني بك الجمالي » ، وذلك في المحرم عام ٩٠٦ هـ .

وما يجدر ذكره هنا ، أن الأمير « طومان باي » بن قانصوه ، كان في ذلك الحين أمير سلاح ودوادرا كبيرا ووزيرا وأستادارا وكاشف كشاف ، جمع بذلك بين وظائف عدة من أهم وظائف الدولة . ففوى أمره ، واشتد ناصره ، وأصبح صاحب الحل والعقد في البلاد . وغض من شأن الأنابكي « تاني بك الجمالي » . و« طومان باي » هذا ، هو الذي ملك البلاد فيما بعد ، وتلقب بالعاذل بعد قتال طاحن مع السلطان « جان بلاط » ، فإن « جان بلاط » أرسله على رأس حملة إلى بلاد الشام ، لإخضاع نائبها العاصي « قصروه » . فاتحد مع « قصروه » ، وأعلن بنفسه سلطانا ، وزحف بجنوده من الشام على مصر ، فخاربه سلطانها « جان بلاط » . وكان في جملة الأمراء الذي انحازوا إلى السلطان الأنابكي « تاني بك الجمالي » . غير أنهم انهزموا وفر منهم كثيرون ، وفي عدادهم « تاني بك » ، واختفى ولم يعثر له على أثر . وكان ذلك في عام ٩٠٦ هـ في جمادى الآخرة . ولما ثارت ثائرة الجند والأمراء ضد العاذل « طومان باي » ، وانتهت بهزيمته واختفائه ، ظهر « تاني بك » ، وانضم إلى الأمراء النافرين ، ومنهم « قيت الرجي » ، و« مصر باي » ، و« طراباي » ، وغيرهم ، في منزل « قانصوه » خمسمائة ، بتناط السباع .

وكان « قانصوه » ما زال محتفيا — فتم الاتفاق على سلطنة الأتابكي « تاني بك » . وكادت تتم سلطنته ويبيع ، لولا أن الجند لم يرتضوه . فعدل عنه إلى الأمير « قانصوه الغورى » ، فولى السلطنة . فتبص على « تاني بك » ونفاه إلى مكة . فسافر صحبة الحاج في شوال عام ٩٠٦ هـ . وظل هناك زمنا . وقيل إن « الجازاني » العربي الناصر بمكة ، عبث « بتاني بك » عام ٩٠٨ هـ ، وطلب منه مالا ، فاعتذر . فعاقبه عتابا فاحشا حتى مات وأخذ ماله .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ — ج ٤ ص ٦ ، ٧ ، ٤٨ — والضوء ج ٣ رقم ١٧٥ » .
٣٧ — قصروه نائب الشام ٩٠٦ هـ

اشتراه الملك الأشرف « تايتهاي » وظل حتى أعتق . وأخذ طريقه إلى عليا المناصب ، حتى تولى نيابة حلب في عهد الملك الظاهر « قانصوه بن قانصوه » سنة ٩٠٤ هـ . ويظهر أنه كان أحد المغرمين بالمعصيان ، فإنه ما لبث حين دخل الشام في طريقه إلى حلب ، أن استولى قوة واقتدارا على أموال الأمير « كرتباي » الأحمر ، وكانت نحو من ٦٧ ألف دينار ، بدون أن يستأذن السلطان — جاء هذا الخبر إلى القاهرة في شهر جمادى الأولى من العام المذكور ، وعلم به السلطان « قانصوه » فغضب ، وأوفد إلى قصروه من يأمره برد المال ، فلم يأبه لهذا الأمر ، واعتذر بأعذار واهية . — وظل « قانصوه » في نيابة حلب ، حتى انتقل الأمير « جان بلاط » — السلطان فيما بعد — من نيابة الشام إلى الأتابكية بمصر — فانتقل الأمير « قانصوه » إلى نيابة الشام عوضا عنه ، في ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ . غير أنه ما لبث أن عاد إلى عصيانه ، فأعلمته في رمضان عام ٩٠٥ هـ . وقد كان هذا العمل من جانب « قانصوه » من أهم الأسباب التي أودت بملك السلطان « قانصوه » . فإنه أخذ في إخصاعه ، فبعث إليه رسولا وهو « أقباي الطويل » يطلب إليه أن يكف عصيانه ، وأن يترك قعة الشام لغائبها — وكان قد استولى عليها — وفي نظير ذلك لا يؤاخذ السلطان بما قدمت يداه . ولكنه أصر وتمادى في المعصيان . فأعد السلطان له حملة تؤديه ، وهم بالمسير بنفسه إليه . ولكن كانت القلوب قد تغيرت عليه ، والنفوس تحفزت للوثوب ضده — وكان هناك الأمير « طومان باي » — الذي ملك فيما بعد — وبنيه وبين « قانصوه » علاقة وطيدة . فقاد طومان باي الثورة ضد السلطان « قانصوه » ، وما زال

به حتى أزال دوائه ، ومسلّك من بعده الأتابكي « جان بلاط » . فلما استولى هذا على عرشه ، طلب إلى الأمير « قصروه » نائب الشام أن يتولى منصب الأتابكية بمصر ، وذلك في ذى الحجة عام ٩٠٥ هـ . ولكن « قصروه » ظل على عصيانه القديم وامتنع عن قبول هذا المنصب السامى — ولعله كان متواطئاً في الخفاء مع الأمير « طومان باى » ، نفسه ... فمات « طومان باى » حين بلغ الشام أن أعلن بنفسه سلطاناً ، ودخل في طاعته الأمير « قصروه » ، وعاونه أكبر معاونته . وزحفاً معاً بجنودهما من الشام على البلاد المصرية ، فأدخلوا العرب والهلع في قلب سلطانها « جان بلاط » ، ووقعت بين الفريقين مواقع يطول شرحها ، كان « قصروه » من أكبر الأيدي العاملة فيها ، الساعين إلى إنجاحها . قيل إنه كان هو وممايكة يشتغلون في حفر الخنادق ، التي استندعتهم خطتهم الحربية ، ويعملون ويعمل معهم بيده ، ويحمل الأثربة بنفسه .

فلما تم النصر « لطومان باى » وأصبح ملكاً على الديار المصرية ، وقبض على « جان بلاط » واختفى أتابكيه « ثانى بك الجبالى » وذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ ، أسند منصب الأتابكية بمصر ، إلى عضده الأكبر ومعينه الأمين الأمير « قصروه » . ونهجه جملة من الثياب الفخمة النفيسة ، وقدم إليه ألواناً من الشكر والاحتفال ، جزاء له على ما قام به من معاونته ، في سبيل الوصول إلى السلطنة .

ويظهر أن الزمن أراد أن ينتقم من الأمير « قصروه » لدسائسه السابقة ، ومؤامراته على سلاطينه ، وعصيانه لهم عصياناً متكرراً ، كان له أثر كبير في انتقال السلطنة من رجل إلى آخر . وكان هذا الانتقام — وما أشده وأقساه — على يد صديقه وصفيه وسلطان الجديد « طومان باى » . فإنه لم يمض على تنصيبه في الأتابكية ، وسكناه في دار « أربك » بالأزبكية ، وإفاضة أسباب الجاه عليه ، غير أيام ، حتى بطش به « طومان باى » بطشة قاسية . وكان « قصروه » قد اعتاد أن يبيت بالقلمة ، ليلة الاثنين والخميس . وفي ليلة الخميس مستهل رجب من العام نفسه — ٩٠٦ هـ — تناول طعام العشاء مع السلطان بالقلمة ، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث . وبينما كان « قصروه » آمناً مطمئناً إلى محدثه إذ كان هذا الحديث قد أعد للأمر عدته ، ودبر مكيدته ، ثم فجأه بتوليه : « إن قلبه خائف منه » . ثم أمر بعض جنوده بالقبض عليه ، فنزع من مجلسه نزعا ، وألقى به في غيابة السجون بجوار الدهيشة ، ثم خنق بعد عدة أيام ثم دفن في تربة الصاحب « خشقدم » الزمام قريبا من حوش العرب . وهكذا انتهت حياة

أحد أبطال الأمراء الماضلين المغامرين في سبيل النفوذ والجاه والسلطان . وكانت قتلة «قصروده» وغدر «طومان باي» به ، من أهم الأسباب التي نفرت قلوب الناس من هذا السلطان ، فتداعى ملكه بعد قليل وانهار صرحه .

ويوصف «قصروده» بالكرم والشجاعة والعفة ، ومات في نحو الخمسين من عمره ، وقد لاحظ فيه علامات المشيب .

ولما توفي «قصروده» لم يعين مكانه في الأناطكية أمير آخر . وأشيع أن السلطان طومان باي يرغب في إسنادها إلى أحد خواصه المسمى الأمير فان بردى الدوادار الثاني . غير أنه اختار الأمير طراباي الشرفي رأس نوبة النرب لمراعاة الأناطكية مؤقتا ريثما يعين فيها أمير بصفة نهائية . ولكن زالت دولة «طومان باي» ، وبدأت دولة الغوري فأسندت الأناطكية إلى الأمير قيت ارچي .

ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ إلى ٣٩٠ .

٣٨ - قيت ارچي (١)

ظلت الأناطكية شاغرة منذ وفاة الأمير «قصروده» ووكل أمرها مؤقتا إلى الأمير «طراباي» الشرفي رأس نوبة النوب . ثم انتهت على ذلك دولة السلطان «طومان باي» ابن قانصوه . وتربع السلطان «الغوري» على عرش هذه البلاد ، فاختار لأناطكيته الأمير «قيت ارچي» ، وذلك في عام ٩٠٦ هـ .

وقد كان الأمير «قيت» أحد الخاضعين في عهد السلطان الأشرف «قايتباي» فمنحه هذا السلطان إمارة عشرة في المحرم سنة ٨٩٦ هـ ، ومن ذلك الحين أخذ يدرج في مدارج ارقى ، حتى صار واليا على القاهرة في شهر رجب عام ٨٩٧ هـ ، في عهد قايتباي . وذلك عقب وفاة واليا «قيت الساقى» .

ولما ثار الأمير قانصوه خسمائة ثورته الجاححة ضد السلطان قايتباي والأمير أقردي الدوادار سنة ٩٠٠ هـ ، انحاز إليه الأمير «قيت» فيمن انحاز من الأمراء . فلما انهزم قانصوه قبض على كثير من عصابته ، ومن بينهم الأمير «قيت» . وولى الحكم ابنه

الاصراع عام ٩٠١ هـ. فأطلق سراح « قيت » هو وغيره من عصابة « قانصو وخمسائة » ، وأنعم عليه ورفاه أميراً مقدماً - وكان « قانصو وخمسائة » في ذلك الوقت قد صار أتابكي عصره فلا غرابة أن كان « قيت » أحد رجاله المقربين ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . وقد انضم إليه في ثورته ضد السلطان الناصر « محمد بن قايتباي » ، غير أن عاقبتهم في هذه المرة أيضاً كانت المزيمة . فاخفى « قيت » بين من اختفى ، وظل حتى عاد إلى الظهور بعد عيد النحر بقليل دام ٩٠٢ هـ ، وذلك على أثر انهزام الأمير أقبردى والوادر في ثورته ضد السلطان محمد بن قايتباي وخاله الأمير قانصو . وقد عاون « قيت » في إتمام هزيمة أقبردى ونصرة السلطان ، لذلك منحه منصب حاجب الحجاب في المحرم سنة ٩٠٣ هـ . وفي ربيع الأول من تلك السنة بعثه السلطان مع قانصو البرجى وقانصو الغورى من الأمراء على رأس تجريدة إلى بلاد الشام ، لتأديب أقبردى والقبض عليه . وذلك لأنه على أثر هزيمته فر إلى الشام ، وطلق بعثت هناك فساداً . فمزالوا بأقبردى حتى أجملوه إلى حلب ، فطارده أهلها حتى فر إلى بلاد التركان ، وعاد « قيت » إلى مصر وقد انعقدت بينه وبين قانصو الغورى أواصر الصداقة والمودة .

ولما تواترت الأخبار بما يقوم به عرب غزاة بالبحيرة ، من ضروب العبث والفساد ، جردت عليهم حملة كان « قيت » ، أحد أمرائها . وقد خفت عليهم يوم عيد الفطر عام ٩٠٤ هـ ، في عهد السلطان قانصو بن قانصو ، ولكن هذه الحملة كان نصيبها الفشل والخذلان .

وفي ذى القعدة سنة ٩٠٥ هـ ، خلع السلطان الظاهر قانصو على الأمير « قيت » نيابة طرابلس عوضاً عن « بلباي » المؤيدى . غير أن نيابته هذه لم تتم ، وذلك لأن دولة الظاهر قانصو كانت قد آلت إلى الزوال ، واثارت عليه « طومانباي » و « جان بلاط » فاخفى . وآلت السلطنة إلى الأتابكي جان بلاط فأعيد « قيت » ، إلى منصب حاجب الحجاب بالقاهرة ، ولم يسافر إلى طرابلس .

وفي ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . رأى السلطان جان بلاط أن يبعث إلى بلاد الشام حملة عسكرية لتأديب الأمير قصروه نائبها الخارج عن الطاعة . وكانت الحملة بقيادة طومانباي الدوار ، وكان « قيت » من أمرائها . وقد خرجت الحملة من مصر في ربيع الثانى من العام نفسه ، وهى التى آل أمرها إلى أن أعلن طومانباي بنفسه ملكاً ،

وزحف بجنوده أولئك على مصر ، وانتزع سلطنتها من ملكها جان بلاط . فلما تم أمر طومان باي بإشام فرق المناصب والألقاب مقدماً على من عاونته من الأمراء ، ووعده كلا منهم بمنصب أو نائب ، فكان نصيب « قيت » أن عين أمير سلاح عوضاً عن طومان باي نفسه . وزحف بالجميع على مصر ، فما زال « قيت » يعاونه هو وغيره ، حتى تمت السلطنة بمصراطومان باي . فبرحينئذ بوعدة ونال الأمير « قيت الرحبي » إمارة سلاح . ثم إن السلطان طومان باي أخذ في مءاملة أمرائه بتسوية وشدة وظلم . فقتل أنابكويه قصره ، ثم عول على القبض على قانصوه الغوري وزميله « قيت الرحبي » . فأرسل في طلبهما في إحدى ليالي شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، لحضور حفلة اختتام البخاري بالقلعة ، وكانا قد أحسا بترب غدر السلطان بهما ؛ فلم يحضرا . فكان ذلك مثاراً لنزاع شديد بين السلطان المذكور وأمرائه ، أدى في النهاية إلى اختفائه وأيلولة السلطنة إلى « قانصوه الغوري » . وعلى إثر سلطنته أسند منصب الأنابكويه إلى زميله وصديقه « قيت الرحبي » . وكان هذا أمراً طبيعياً . فلقد كان الأمير « قيت » في مقدمة الأمراء الذي تعصبوا لقانصوه الغوري ودعوه إلى أن يلي منصب السلطنة الرفيع هذه البلاد . ولما تم أمر « قيت » في الأنابكويه ، أصبح صاحب الحل والعقد في مصر وصاحب الكلمة والمشورة . وكان هناك الأمير « مصر باي » ، الدوادار الكبير ، وكان ذا مكانة ممتازة لدى الأشرف الغوري . فكان بذلك منافساً خطراً للأمير « قيت » . غير أن الأيام سرعان ما أفسدت علاقة الأمير « مصر باي » بالسلطان الغوري . فأدى ذلك إلى القبض عليه ثم سجنه ، ثم هربه ثم قتله بعد ذلك . وبموته خلا الميدان للأمير « قيت » . وواتته الظروف واستبد بكلمته ورأيه ، واتفق يبدو بين الناس بمظهر الأبهة والعظمة ، ولا سيما في حفلات فتح السد . فبدأ الناس ينفرون منه ، وخاصة حينما فرض عليهم بعض الضرائب الملاحقة ، وجباها منهم بلا رحمة ولا إشفاق . حتى أقدم بعضهم على الوقوف له في الطرقات ورجمه . ومع ذلك لم يتزعزع مركزه لدى السلطان .

وفي عام ٩٠٨ هـ أسند إليه « الغوري » إمارة ركب الحمل وجنوده بعدد من الجنود ، وأوصاه بالقضاء على قننة « الجازاني » وأخيه الشريف « بركات » أمير مكة إذ عثا في العام المنصرم بركب الحجاج . وقد أبلى « قيت » بلاء حسناً في هذه الناحية ، ففر « الجازاني » من وجهه بعد أن غلب على أمره . ووقع أخوه « بركات » أسيراً في يديه .

فساقه أمامه إلى القاهرة ، ودفعه بين يدي السلطان ، ففرح بذلك ، وفرض عليه أتاوة باهظة . واستبقاه سجيناً في بيت «قيت» نفسه .

ثم إن هذا السجين ما لبث أن فر من سجنه ، فكان فراره مثار شخاء طويلة بين الأمير «قيت الرحبي» وبين أحد الأمراء الكبار وهو «قرقاس بن ولي الدين» وكان حينذاك أمير سلاح . وقد اتهمه «قرقاس» بأنه هو الذي تواطأ على هربه وتسبب فيه . وقد تدخل السلطان بينهما وأصلح ما فسد من أمرهما ، ولكن من ذلك الحين تغير قلب السلطان على الأتابكي «قيت» ، وساورته نفسه بالبطش به ، حتى كان شهر رجب سنة ٩١٠ هـ ، فأمر بالقبض عليه . وكان قد اتضح له أن «قيت» تحذنه نفسه بالسلطنة ، ويهيء الظروف لبلوغها والوثوب على سلطانه ، وأنه كاتب في هذا الشأن بعض الأمراء فعلا . — فلما سيق إلى السلطان أعلنه بما قدمت يداه ، ووبخه توبيخاً جارحاً ثم دفعه في السجن وصادر أمواله وجميع ما يملك . ووجد أنه يمتلك كثيراً من المال وضروباً عدة من الأسلحة ، ثم أخرج إلى الإسكندرية ليوضع في سجنها . فأرسل مخفوراً في مركب وفي معيته أميران وخمسون مملوكاً سلطانياً — ويظهر أنه لقي جزاءه عادلاً . فقد كان — كما قال ابن إياس — ظالماً غشوماً كثير الصلف والأذى قليل الخير . فلبث في السجن زمناً بالإسكندرية . ثم قيل إنه نقل بأمر من السلطان «الغوري» إلى سجن دمياط في ذي القعدة عام ٩١٢ هـ — وتولى الأتابكية بعده الأمير قرقاس بن ولي الدين .

«ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٩٠، ٣٠٧، ٣٢٦، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٥٦»

٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٩٥ — وج ٤ حوادث السنين المذكورة — وج ٣ ص ٨٥ .

٣٩ — قرقاس بن ولي الدين ٩١٦ هـ

أصل هذا الأمير من أئمة الأشراف قايتباي ، وأعتقه وتولى مناصب هامة في الدولة ونيابات عدة ، بعضها في زمن قايتباي نفسه . من ذلك أنه في شهر ربيع الآخر عام ٨٩٦ هـ . أرسله السلطان المذكور إلى دمشق وكل إليه جباية بعض الأموال وهي ضرائب الأملاك عن خمسة أشهر ، وذلك بعد أن كان قد بلغ مرتبة أمير أخورثان . وقد بدت من «قرقاس» في دمشق مساوئ عدة وألحق بالناس ضروباً من الظلم والأذى والقسوة حتى جى منهم هذه الأموال .

وفي ذى الحجة سنة ٥٩٠١ هـ ، أنعم السلطان الناصر محمد بن قايتهاي عليه بتقدمة ألف . وفي سنة ٥٩٠٢ هـ عين أميراً للحج . ولما قامت فتنة الأمير أقبردى الدوادار ضد السلطان الناصر وخاله الأمير قانصوه وزحف بجموعه على القاهرة وامتد القتال بين الطرفين ، انحاز « قرقاس » إلى جانب أمراء السلطان وظهر بعد اختفائه ، إذ كان من قبل قد انحاز إلى جانب الأمير قانصوه خسمائة الذى وقعت العداوة بينه وبين أقبردى وأصدى كل منهما للآخر . وكان « قرقاس » فى نفسه حقد منذ زمن بعيد على الأمير أقبردى ، لذلك انضم إلى جانب عدوه قانصوه خسمائة . ولكن أقبردى تغلب على قانصوه خسمائة وهزم جموعه فأكسر واختفى . فاخفى على أثر ذلك الأمير « قرقاس » أيضاً . فلما تقلبت الأحوال وظهرت عداوة أنبردى لخال السلطان الناصر وهو الأمير قانصوه ، وكان صاحب الحل والربط فى البلاد فى ذلك الحين ، ظهر « قرقاس » هو وكثير من اختفى من عصابة قانصوه خسمائة وانحازوا إلى جانب قانصوه ، ومنهم تانى بك الجالى وقيت الرجبى وقانصوه المحمودى وجان بلاط بن يشبك الذى ملك فيما بعد . . وكان ظهور هذه الطائفة وانضمامها إلى قانصوه خال الناصر سبباً فى غلبته لأقبردى وانتصارهم جميعاً عليه .

وفى شوال من سنة ٥٩٠٣ هـ خلع السلطان الناصر على الأمير « قرقاس » ومنحه لقب رأس نوبة كبير عوضاً عن جان بلاط الغورى لوفاته . وظل فى هذه المرتبة حتى انقضت دولة الناصر وبلك خاله الظاهر قانصوه أبو سعيد .

وفى شوال فى يوم عيد الفطر من عام ٥٩٠٤ هـ ، تواترت الأخبار بشوران عرب عزالة على كاشف البحيرة ، فرأى السلطان الظاهر قانصوه أن يعززه بتجريدة من أمرائه وجنوده . فبعث على رأسها « قرقاس » وقيت الرجبى وغيرهما ، وكان العرب المذكورون يقدونوا بجمعة المعيصرة بناحية طرا ، فاربين من البحيرة . فلاقاهم الأمراء والجنود هناك ، ولكن العرب تغلبوا عليهم وأوقعوا بهم إيقاعاً قاسياً وقتلوا عدداً كبيراً من جنودهم وغلبتهم ، وكان نصيب الأمير « قرقاس » أن أصيب بجرح فى وجهه . وقد حفزت السلطان هذه الكسرة على أن يرسل إليهم عدداً ضخماً من الجنود أوقعت بهم يوشنتت شملهم وردتهم على أعقابهم .

وفى العام السالف الذكر عين « قرقاس » أميراً لركب المحمل . فخرج على رأس مركبه فى شوال وعاد فى المحرم عام ٥٩٠٥ هـ . وقد كان للأمير « قرقاس » يد محودة فى

معاونة الركب الغزوى في التخلص من العربان الذين اعتدوا عليه بالقرب من الشرفة . ولولاه لفتكوا بهذا الركب فتكا ذريعا ، وبالركب الاول المصرى ايضا ، وكان أميره - الناصرى محمد بن خاص بك .

وبعد قليل في خلال هذا العام عين الظاهر قانصوه الأمير « قرقاس » نائبا على حلب ، فظل في هذا المنصب حتى دالت دولة الظاهر وتملك الأشرف جان بلاط . - وكان إلى هذا الحين لم يسافر إلى حلب لتسلم مهام وظيفته - . حتى كان مستهل ربيع الآخرة من عام ٩٠٦ هـ ، فخرج من القاهرة إلى حلب لولاية أمرها . فلبث بها مدة حتى تمت مؤامرة الدوادار طومان باى مع نائب الشام حينئذ ، وهو الأمير قصروه . على انتزاع السلطنة من جان بلاط . وكان طومان باى قد أرسله جان بلاط سلطان مصر إلى الشام على رأس تجريدة كبرى لقمع عصيان قصروه . فتم تواطؤهما هناك وأعلن طومان باى بنفسه سلطانا على الشام ، وزحف على مصر . هنا كان « قرقاس » نائب حلب في جانب السلطان جان بلاط ومن عصابته ، فقبض عليه طومان باى وسجنه مع كثير من الأمراء في قلعة دمشق . هنا افترق الصديقان وأعنى بهما « قرقاس » وقيت الرحى ، فقد أصبح قيت من عصابة طومان باى . وربما كان لهذا التفرق أثر فيما حدث بينهما فيما بعد .

ظل « قرقاس » في السجن حتى دالت دولة طومان باى . وورق إلى عرش البلاد الأشرف الغورى . فأهلق سراحه وعاد إلى مصر ، وحظى عند هذا السلطان . وصار أمير سلاح يركن إليه السلطان في مهام كثيرة . حتى تغير قلب الغورى على أنابكية قيت الرحى وقبض عليه عام ٩١٠ هـ وكان قد وقعت شجاء بين قيت و « قرقاس » بسبب فرار السجنين بركات أخى الجازانى من أمراء مكة ، وكان مسجوناً في دار قيت . فلما تم كل ذلك خلا الجو للأمير « قرقاس » ، وأسند إليه السلطان منصب الأنابكية بعد سجن قيت . فأصبح صاحب الحل والعقد في البلاد المصرية ، وشارك السلطان في تدبير أمور الدولة ، وناب عنه ففتح الخليج .

وقيل إنه في ربيع الأول سنة ٩١٢ هـ ، طلع من الحراقة التي عند المقياس بعد حفلة وفاء النيل فشر خازن داره على رأسه خفائف الذهب والفضة ، فتكاثر الناس عليه ليلتقطوها ، فجعل به الفرس ، فقبضه في البحر ، فأعانه النوتية وأخذوه من الفرق ، وخرج

إلى الشاطئ مبلل الثياب . وقيل إن فرسه قد غرق . أما هو فأصيب في رجله .
وكان يتفقد شئون الدولة ، فسافر مراراً إلى نواحي الشرقية والغربية والصعيد ،
ومرة إلى الإسكندرية نيابة عن السلطان الغورى لمشاهدة التحصينات الجديدة بها . وظل
هذا شأن « قرقاس » ، حتى وافاه أجله المحتوم في يوم ٢٣ رمضان سنة ٩١٦ هـ . فرجت
القاهرة لموته . وكانت جنازته حافلة ، سار فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء والمباشرون
والأعيان . وبين يديه الكفارة من الخبز والتمر والغنم . وصلى عليه في جامع السلطان
حسن . وفصل السلطان نعشه وهو في المصلى وبكاه بكاه كثيراً ، وحمل بنفسه نعشه
ومشى به خطوات تكريماً له ، ثم تلقفه منه الأمراء ، ودفن في تربته بالصحرَاء بجوار
تربة الأشرف إينال . قيل : وكان ابن الجانب كثير التواضع . أمضى في الأتابكية ست
سنين وشهرين لإلا سبعة أيام . وترك أربعة أبناء ، ونحوها من سبعين ألف دينار
سوى الحلى والعبيد . وظلت الأتابكية شاغرة من بعده نحواً من أربعة شهور ، ثم عين
فيها الأمير دولاباى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ — وج ٤ في التواريخ المذكورة بالترجمة ،

٤ . — دولاباى بن أركايس الساقى ٩١٧ هـ .

هو ثالث الأتابكية في عهد الغورى ، وقد عين في هذا المنصب بعد وفاة الأتابكى
قرقاس بن ولى الدين بنحو أربعة شهور ، ظلت فيها الأتابكية خالية من شاغلها . وكان
تعيينه في أوائل عام ٩١٧ هـ لسكنته لم يعيش بعد ذلك سوى خمسة عشر يوماً ، ثم توفي
في ٢٥ صفر من العام المذكور .

ويتلخص تاريخ حياته في أنه كان من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وطفق
بقلب في الوظائف حتى كانت ٩٠٢ هـ في أوائل عهد الناصر محمد بن قايتباى . فعين في
شهر المحرم نائباً على ألبيرة ، فخرج إليها بعد زمن يسير . ثم نقل منها إلى نيابة حلب .
وفي عهد الأشرف جان بلاط ، أظهر قصره نائب الشام عصياناً ، فرشح السلطان المذكور
الأمير « دولاباى » ، نائب حلب ليتولى نيابة الشام بدلاً من قصره .

ولكن قصره كان قد انضم إليه أو أنه انضم إلى طومان باى الدوادار الذى أرسله
السلطان جان بلاط لتأديبه بالشام ، فأعلن بنفسه سلطاناً على البلاد الشامية وانحاز إليه

قاصروه وكذلك الأمير «دولات باى» نائب ، حلب ، وزحف معهم إلى مصر ، ونزل في جامع شيخو . ولما اعتلى طومان باى عرش البلاد واستتب له الأمر أسند إلى «دولات باى» نيابة الشام وذلك سنة ٩٠٥ هـ في شهر رجب .

ولما صارت السلطنة إلى الأشرف الغورى عاد «دولات باى» إلى مصر ومنح لقب أمير سلاح . وثار المماليك الجلبان مرة وهموا بأن يعلنوا به سلطانا على البلاد بدلا من الغورى ، ولكنهم تحيل في التخلص منهم وفر بنفسه إلى السلطان . ثم عين في الأناطكية بعد وفاة قرقساق كما ذكرنا ، في ١٠ صفر سنة ٩١٧ هـ ، فلبث فيها خمسة عشر يوم ، ثم توفى ، فكانت جنازته حافلة وصلى السلطان عليه ، ودفن في تربة العادل طومان باى . قيل : وكان أميراً جليلاً جميل الصورة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر . مات وله من العمر أربعون عاماً ، فكثير حزن الناس عليه ، وكان لين الجانب قليل الأذى . — وتولى الأناطكية من بعده الأمير سودون العجمى .

د ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، إلى ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ — وج ٤ في ترجمة الغورى وفي التواريخ المبينة في الترجمة .

٤١ — سودون العجمى ٩٢٢ هـ

من الأجله الذين ولوا هذا المنصب الجليل في الديار المصرية ، ولاقى خاتمته وزالت حياته بزوال الدولة : أعنى دولة المماليك .

ويعرف هذا الأمير بسودون بن جاني بك ويشتهر بالعجمى . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وتقلب في مناصب عدة حتى بلغ من مناصب الدولة أعلاها ، واشترك في أهم الحوادث العامة المصرية التى تتعلق بسياسة الدولة . ونشير هنا إلى بعض ما ذكرنا ، فنقول :

إن قايتباى عينه في استدارية الصحبة في ربيع الثانى سنة ٩٠١ هـ .

ولما ثارت ثائرة الأمير أقبردى الدوادر في عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عام ٩٠٢ هـ ضد خاله قانصوه . انضم الأمير «سودون العجمى» إلى فريق السلطان وأبلى بلاء حسناً في الدفاع عن القلعة هو وجماعة من الأمراء ، حتى ارتد عنها أقبردى وأصابته الهزيمة . وفي عام ٩٠٤ هـ أرسل في عداد حملة تأديبية للقضاء على أقبردى أيضاً ، الذى ثار ببلاد الشام وعجب بها ، وكان على رأس الحملة تانى بك الجمالى .

ولما كان ٩٠٥ هـ وكان شهر ربيع الأول ، عينه السلطان جان بلاط أميراً للحج بركب المحمل في ذلك العام . ولما عاد كان من حزب جان بلاط ضد طومان باي الذي ملك بيلاد الشام . لذلك منحه السلطان جان بلاط منصب رأس نوبة كبرى عوضاً عن قاصوه الغورى الذى أعلن عصيانه وانضم إلى طومان باي . غير أن دولة جان بلاط سرعان ما ولت ، وأعقبها دولة طومان باي ، فلم يكن الأمير « سودون » فيها من الأمر شئ . وأغضب الظن أنه سجن في ذلك العهد . وقد أعطيت إمارته ، وهى رأس نوبة كبرى للأمير طراباي الشريفي الذى وكل إليه التكلم في أمور الأتابكية . وقتاً حينما قتل السلطان طومان باي أتابكيه قصره عام ٩٠٥ هـ . وفي دولة الغورى كان الأمير « سودون » أحد الأمراء العظام الذين يستند إليهم السلطان في تدبير شئون الدولة . وظل كذلك حتى توفي الأتابكي في صفر عام ٩١٧ هـ . فرأى السلطان الغورى أن يسند هذا المنصب إلى الأمير « سودون العجمي » ، فتم ذلك في ٢٧ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ . وصار يد السلطان في كل شئ ونائباعنه في أمور كثيرة ، ومصاحباً له في تنقلاته وأعماله . ومن ذلك توجهه معه إلى الجيزة ومنها إلى الفيوم في شهر صفر عام ٩٢٢ هـ . اتفق أحوالها . وسائر في صحبته أيضاً إلى البلاد الشامية والخلبية في يوم السبت متتصف ربيع الثاني من نفس العام . وقد خرجا معاً وعسكرا في الريدانية في جيش كثيف جداً للقاء العثمانيين الزاحفين على بلاد الساطان ومملكت مصر . وهو اللقاء الذى كان فيه الطامة عليهما معاً ، وعلى البلاد جميعاً وانتهى بدخول العثمانيين هذه البلاد . وكان خروج الأمير « سودون » هو وأتباعه من الريدانية في يوم الجمعة ٢١ من ربيع الثاني المذكور .

ولما التقى الجمعان في « مرج دابق » في شهر رجب من العام نفسه ، قيل إن الأمير « سودون العجمي » الأتابكي كان أول من برز للقتال ، وعاونته نائب الشام الأمير سيباي ومعهم المماليك القرانصة ، فهزموا جنود العثمانيين هزيمة منكرة ، وأسروا منهم كثيراً من الأسرى وغنموا منهم غنائم لا تحصى . ولولا ديب الخلاف بين فرق هذا الجيش العظيم وظهور الحياة في بعض أمرائه ، لانتصر الغورى وجنوده وأمرؤه ، ولكن لمصر شأن غير هذا الشأن . وقد كانت النتيجة الأولى لهذا التخاذل الشنيع والفرقة التي وقعت بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان أن قتل الأتابكي الشجاع الأمير « سودون العجمي » ، عند أول كرة جديدة للعثمانيين على عسكر مصر . وكذلك قتل سيباي ، فكان

قتلها نذير سوء للجيش المصرى ، إذ توالى عليه الهزائم حتى سحق وقتل سلطانه .
 فى ميدان الدفاع عن مصر وعن حريتها وتمليكاتها قتل الأمير « سودون » بجانب
 سلطانه . ولما بلغ خبره مصر ، حزن عليه الناس واشتد عليه عويل ذويه . وهـ كذا
 قضى عليه بعد أن شغل مناصب عدة ومنح ألقاباً مختلفة . منها : أمير مجلس وأمير سلاح .
 وقام بالأتا بسكية نحو خمس سنوات ، وأظهر ضروبا من القدرة والسياسة والشجاعة .
 قيل : وكان أميراً ديناً خيراً ابن الجانب .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٩٠ — وفى ج ٤
 فى سياق ترجمة الغورى وفى التواريخ التى أوردناها — وفى ج ٣ ص ٢ ، ١٣ ، ٢٥ ،
 ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ . »

٤٢ — سودون الشهابى الدوادار ٩٢٣ هـ

عينه السلطان طومان باى الأشرف أتابكياً على الديار المصرية بعد مقتل سودون
 العجمى فى مرج دابق . وذلك عام ٩٢٢ هـ فى يوم الخميس ٢٠ رمضان بعد سلطنته مباشرة .
 وكان « سودون » هذا أدير ومقدما ، ورأس نوبة النوب فى عهد الغورى . وقد خرج
 معه فى عداد أمرائه إلى قتال العثمانيين بحلب ، فلما تمت الهزيمة فى مرج دابق ، عاد
 « سودون » فى جملة العائدين من الأمراء ، وكان قد طمع فى أن يكون سلطانا . ولكنه
 لما وصل إلى القاهرة وجد أن طومان باى قد اعتلى السلطنة ، فتألم لذلك ، ولكنه ما
 عثم أن ولى له الأتابكية . وقا تل معه العثمانيين وسلطانهم « سلجا » باليدانية ، وجرح
 إذ ذاك جرحا بالغا ، وقيل أنكسر فخذه ، فاخفى فى بعض الحقول . وقد قبض عليه
 بعض العربان — إثر الهزيمة — وأتى به بين يدى السلطان سليم فوجده قد جرح وكسر
 فخذه وكاد يموت ، فوبخه ، وأمر فطيف به على ظهر حمار فسات على ظهره ، وذلك فى
 أول المحرم عام ٩٢٣ هـ . وهو آخر أتابكية مصر .

« ابن إياس ج ٥ ص ٣٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ . »

أفئداز من رجال العصر (١)

تحدثنا فيما سلف عن النيابة والآنابكية ، وهما أهم مناصب الدولة التي يليها رجال السيف — عدا السلطنة — وترجمنا لعدد من رجالهما . وكنا نود أن نتبع كل منصب سواهما ونذكر تقلبات الحوادث به ، ونترجم لعدد من رجاله — ممن لم يبلغوا النيابة ولا الآنابكية — ولكن هذا ضرب من البحث عسير ، وبخاصة لتقلب الرجال في شتى المناصب ، وعدم قصر الرجل على منصب واحد . لذلك آثرنا أن نترجم لعدد من هؤلاء الرجال ، تحت العنوان المتقدم ، مرتبين حسب عصور ظهورهم ووفياتهم ، جهد الطاقة . ونكتبهم بحديث عن الوزارة وتراجم للوزراء .

١ — سيف الدين طغجي الأشرف في ٦٩٨ هـ

كان من ممالك الأشرف خليل ، وارتقى في سلم الإمارة ، حتى أصبح في عداد البارزين . فلما قتل أستاذه الأشرف ، قاد «طغجي» مماليكه الأشرفية وانتقم له ، وقتل قاتله بيدرا وظل «طغجي» حتى كان عهد السلطان لاجين : فنج عام ٦٩٧ هـ ، وكان نائب السلطنة حينذاك الأمير منكوتر ، لا يستريح إلى تصرفاته ، فأخرجه إلى طرابلس نائباً ، فسخط «طغجي» واستعفى من هذا المنصب ، ولم يسافر ، فأبى منكوتر . وكان يضمر في نفسه القبض على «كرجي» ، أخى «طغجي» ، فدب الشر بين الفريقين . ودبر «طغجي» وأخوه ، مؤامرة لاعتقال السلطان لاجين . فقتل . وقتل بعده منكوتر . وأمل «طغجي» في أن يقفز إلى السلطنة ، ويقر أخاه في نيابته . وكاد يتم ذلك ، لولا أن الأمير بكاش الفخري أمير سلاح ، كان قد خرج في غزاة ، فترشوا حتى يحضر ، فلما حضر لقيه «طغجي» بعد لآي . وأسفر اللقاء عن قتل «طغجي» ، وذلك عام ٦٩٨ هـ ، بعد أيام من مقتل لاجين .

«خطط ج ٤ ص ٢٤٦ — سلوك ج ١»

١ — في الدرر لابن حجر ، والضوء للسخاوي ، وغيرها من كتب التراجم ، وفي ثنابا بدائع ابن أبياس ، وسلوك المقرئى وخططه ، كثيرون من هؤلاء الأفئداز ، فليرجع إليها من شاء التوسع . ويلاحظ أن بعضهم لم يكن في أصل منشئه من الممالك .

٢ — علاء الدين طبرس الخازندارى ٧١٩ هـ

هو ابن عبد الله الوزيرى. كان مملوكا للأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة. ثم ملكه بيدرا . ثم أعتق بعد مدة ، وترقى . وحظى عند السلطان لاجين قبل سلطنته . فلما تقلدها . ولى « طبرس » نقابة الجيوش بمصر عام ٦٩٧ هـ ، فحسنت سيرته فيها ، وحدث إدارته . وبنى جامعا و خانقاه ومدرسة بجوار الأزهر ، ورتب فيها درسا للشافعية . وتمت عمارتها فى سنة ٧٠٩ هـ . وأوقف عليها . ومات فى عام ٧١٩ هـ ، ودفن بمدرسته بجوار الأزهر .

« خطط ج ٤ ص ٢٢٤ — الدر ج ٢ رقم ٢٠٥٤ » .

٣ — آقوش الأفرم الجركسى ٧٢٠ هـ

أصله من ممالك قلاوون ، ثم كان نائبا للشام فى عصر محمد بن قلاوون . وثبت فى منصبه فى عهد المظفر بيبرس عام ٧٠٩ هـ ثم خلع لما عاد الناصر ، وأتاب مكانه الأمير كراى المنصورى . فلما استبد كراى ، عزله وأعاد « آقوش » . ولم يابث أن خلعه ثانياً عام ٧١٢ هـ ، وأحل محله الأمير تنكز الحسامى ، وحاول الناصر محمد أن يقبض عليه ، ففر إلى خرنبدا ملك التتار وأقام بهمدان حتى مات عام ٧٢٠ هـ ، وكان فارسا بطلا عاقلا جوادا خيرا محبا للعلماء .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٢ ، ١٥٧ — الدر ج ١ رقم ١٠٢٤ » .

٤ — عز الدين إيدمر الخطيرى (١) ٧٣٧ هـ

كان مملوكا للأمير شرف الدين أوجد بن الخطيرى . ثم انتقل ملكه إلى الناصر ابن قلاوون . فرقه حتى أصبح من أمراء الألوف — مقدم ألف — وعظم أمره ، وقربه الناصر إليه ، حتى كان يبيت معه بالقلعة . وكان كثير الفخر مزواجا كريما . مات فى مستهل رجب عام ٧٣٧ هـ ، ودفن بترتة خارج باب النصر . ومن آثاره جامع بيولاقي ، الذى بناه عام ٧٣٧ هـ كذلك ، وجملة ورتب به درسا للشافعية ، وزوده بخزانة كتب جليلة . ووقف عليه أوقافا .

« خطط ج ٤ ص ١١١ — الدر ج ١ رقم ١١٢٦ » .

(١) ذكر الخطيرى ، فى الخطط بالخاء والطاء . وفى الدرر بالخاء والطاء .

٥ - بدر الدين التركاني ٧٣٨ هـ

وهو الأمير محمد بن نحر الدين حيسى التركاني . ولده الناصر بن قلاوون شادا للدواوين . وكانت الدولة حينذاك بغير وزير ، فاستقل بتدبيرها أعواما . سم نهر منه ناظر الدولة كريم الدين الصغير ، فدبر الأمر لدى الناصر ، حتى أخرجه إلى طرابلس شادا للدواوين أيضا . ثم عاد إلى القاهرة بعد سنتين . فولى كشف الوجه البحرى ، ثم منح أمير طبلخانا . وما زال حتى مات عام ٧٣٨ هـ . وله جامع فى المقس .
• خطط ج ٤ ص ١١٣ - الدر ج ٤ رقم ٣٤٦ •

٦ - سيف الدين تنكز الحسامى ٧٤٠ هـ

جلبه إلى مصر الخواجا علاء الدين السيواسى ، فاشتره الأمير حسام الدين لاجين . سم صار من خاصكية الناصر بن قلاوون . وظهر نجمه فى سلطنته الثالثة . وقد أسند إليه هذا السلطان نيابة الشام عام ٧١٢ هـ عوضا عن الأمير آقوش الأفرم . وقيل إن السلطان حينئذ جعل نيابة الشام أرقى وأسمى من نيابة حلب . وقد كان العكس قبل ذلك . وظل « تنكز » زمنا طويلا فى هذه النيابة .
وفى سنة ٧١٥ هـ وردت إلى مصر أخبار حملة أعدها « تنكز » وسار بها إلى ملطية فحاصر أهلها ومن بها من الأرمن حتى طلبوا منه الأمان ، وسلبت إليه فى ٢٢ محرم من تلك السنة .

وفى سنة ٧٣٤ هـ وفد الأمير « تنكز » من بلاد الشام على مصر ، وزار السلطان كمعاداته فى كل عام ، إذ كان يزوره فى كل عام مرة ومعه نفائس الهدايا ، فلما جاء فى العام المذكور ، أنزله السلطان فى الميدان الكبير عند البركة الناصرية إذ ذاك ، وبالغ فى إكرامه وتعظيمه . وكان هذا آخر لقاء بينهما . وبعد أن أقام مكرما عدة أيام بارح القاهرة إلى الشام مزودا بالخلع القيمة من السلطان الناصر محمد ، ونزل من النذعة فى موكب حافل . وبلغ بذلك أوج عزه .

وكان سبب عزه هذا رضا السلطان الناصر محمد عنه ، إذ كان تنكز من مائيكه - كما ذكرنا - فجعله خاصكيا ثم أمير عشرة ثم أمير طبلخانا ثم مقدم ألف ، وهكذا رقا حتى عينه فى نيابة الشام ، فظل فيها نحو ٢٨ سنة ، حتى عظمت مهابته وزاد ثراؤه

وزايل منصبه بحنكة وقدرة وعدالة . وربما كان هذا هو السبب الذي أثار حقد الأمراء عليه . فسعى بعضهم بالنميمة بينه وبين السلطان الناصر ، فتمير عليه قابله ، فأمر باستقدامه سنة ٧٤٠ هـ . وبعث إليه الرسل تلو الرسل ، فكان من سوء حظه أن عصا الأوامر ورفض المجيء . وأبطأ ، حتى اضطر السلطان إلى أن يسوق عليه تجريدة ، ويسيرها إلى بلاد الشام . فقبضت عليه ، وقيد . وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة . وحملت نفائسه وأمواله ، وكانت كثيرة بينها الذهب والفضة والياقوت واللؤلؤ والحلى الثمينة ، حملت هذه كلها إلى خزائن السلطان . وصادر السلطان بتملكاته ، وقيل : إنه كان يمتلك من الضياع بمصر والشام ما دخله مائة ألف دينار كل عام . ثم سجن بشفر الإسكندرية ، فظل به مقيداً أربعين يوماً . ثم أمر السلطان بحنقه . ثم نقل إلى دهش ودفن في مدرسته إلى أنشأها بها ، وتم نقله في أواخر سنة ٧٤٠ هـ . وقيل في فوات الوفيات إنه نقل عام ٧٤٤ هـ — وفي ذلك يقول صلاح الدين الصفدى :

في نقل تنكز سر أراد الله ربه
أنى به نحو أرض يحبها ونحوه

كما يذكر أنه جد الملك الصالح صلاح الدين حفيد قلاوون — لأمه خوند قطلوبك .
« ابن أبياس ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧١ . إلى ١٧٣ ، ١٩٤ — الدرر ج ١ رقم ١٤٢٤ — فوات الوفيات ج ١ ص ١١٧ . »

٧ — علاء الدين أقبعا الناصرى ٧٤٤ هـ

يعرف « بأقبعا (١) عبء الواحد » ، كان استداراً للناصر محمد بن قلاوون . وهو من مشريانه ، رقه شادا للعائر ، ثم استدارا في عام ٧٣٢ هـ ، فعظم جاهه واتسعت دائرة نفوذه ، وكان مثالا للنشاط . فلما مات الناصر ، قبض عليه ابنة المنصور عام ٧٤٣ هـ وصادر أمواله وتملكاته . وكانت له ثروة ضخمة . وادعى بعضهم عليه بمال لدى السلطان ، فهدد إن لم يفهم حقهم ، فوفى لهم . وكان الملك المنصور يحقد على « أقبعا » قبل سلطنته لأنه رد شفاعة مرة ، إلا أن مدبر دولته الأمير قوصون كانت له عناية « بأقبعا » . فخفف عنه بعض ما أراد له السلطان من تعذيب . فلما زالت دولة المنصور وقام في الملك

أخوه الأشرف بكك ، وكان قوصون صاحب الأمر في دولته. أطلق سراح «أقبعاء» ، وجعله في عداد أمراء الشام . فاتهم بعد حين بانضمامه إلى الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد ، لما قام بقتلته بالسكر — وهو منفي بها — ضد أخيه السلطان علاء الدين إسماعيل بن الناصر محمد . فقبض على «أقبعاء» وحمل من دمشق إلى الإسكندرية وقتل بها عام ٥٧٤٤هـ . وكان به ظلم وطمع وكبر . وأنشأ مدرسته الأقبعاوية بجوار الأزهر .

«خطط ج ٤ ص ٢٢٥ الدرر ج ١ رقم ١٠٠١» .

٨ — علم الدين سنجر الجاولي ٥٧٤٥هـ

هو سنجر بن عبد الله ، كان مملوكا للأمير جاولي (١) ، أيام الظاهر بيبرس . وانتقل مملوكا إلى بيت قلاوون ، وأخذ طريقه إلى التقدم ، حتى حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فجعله نائبا عن غزاة عام ٧١١هـ ، ووسع اختصاصه . ثم وقع بينه وبين الأمير تنكز نائب الشام نزاع بسبب دار ، فشكاه إلى الناصر ، فقبض عليه عام ٧٢٠هـ . وظل معتقلا نحو ثمان سنوات ، ثم أفرج عنه . ثم أرسله السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ، نائبا على حماة ، ثم نقل إلى غزاة بعد قليل ، ثم عاد القاهرة وولى نظرا لما رستان ، ثم خرج نائبا على طرابلس ، وكان في جملة المبعوثين لإطفاء فتنة السلطان أحمد بن الناصر المنفي بالسكر . ومات بمصر في ٩ رمضان سنة ٧٤٥هـ ، ودفن بمدرسته التي أنشأها بجوار السككش عام ٧٢٣هـ . وكان على معرفة بمذهب الشافعي ، وروى وصنف وأفتى أخيراً وشرح مسند الشافعي . وكان ذا خبرة بأمور السياسة والملك .

«خطط ج ٤ ص ٢٤٧ — الدرر ج ٢ رقم ١٨٧٧»

٩ — علاء الدين بن زنبور (٢) ٧٥٤هـ

هو صاحب علام الدين ، واسمه عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم . ويشتهر بابن زنبور . وهو ممن تقلبوا في مناصب الدولة . وكان قد عظم أمره ، ونمت أمواله نموا عظيما ، وزادت مقتنياته زيادة واسعة ، واجتمع له من الوظائف ما لم يجتمع لغيره ، فكان وزيرا وناظر الجيوش . وناظر الخواص . فقوى بأسه ، وزها بنفسه على الناس . وقد غضب عليه السلطان الصالح صلاح الدين عام ٧٥٣هـ ، بعد ما بلغ منزلة وجاها

١ — قال في الدرر : اسم جاول — بلاء ياء

٢ — ذكر في الخطط وفي الدرر أنه : علم الدين

دالين . وبطش به بطشه كبرى . وصادر مملكاته ، ونفاه إلى قوص . فلبث بها حتى مات ، وبها دفن ، في ١٧ من ذى القعدة عام ٧٥٤ هـ . وقيل في الدرر عام ٧٥٥ هـ .

وقد أحصيت أمواله ومقتنياته ، ففازت العد والحصر . وكان لديه من كل غال ونفيس ، حتى قيل : إنه أربى على ما كان عند الخلفاء من ذلك . نذكر على سبيل المثال : آلاف من قطع الأقمشة الصوفية والحريية ، وستين قنطارا من الأواني الذهبية والفضية ، وقنطارين من صناديق الياقوت والماس وحببات اللؤلؤ ، وستائة ألف دينار من الذهب ، وثلاثين أردبا من الفضة ، وآلاف من الخيول والبغال والجمال ، ومئات من العبيد والماليك جوارى وغلمانا . وبضائع مخزونة تقدر بأربعمائة ألف دينار . وستائة مركب ، ومائتي بستان وحقل ، وآلاف أربعمائة ساقية ، وآلاف من زروس الضأن والأبقار . وأربع نسوة ، ومائتي سرية . وكان له لدى الداس شيء كثير .

نقول : إن كان يبدو شيء من المباغة فيما ذكر ، فهو يدل — على كل حال — على ما كان لدى هذا الرجل من ضروب المال . ويشعرنا بأن طرق جمعها والاستحواذ عليها لم تكن طرقا طبيعية .

وابن لباس ج ١ ص ١٩٧ . ١٩٨ — فوات الوفيات ج ٢ خطط ج ٣ — الدرر ج ٢ رقم ٢١٠٢ .

١٠ — سيف الدين صرغتمش الناصري ٧٦١ هـ

جلب هذا الأمير رقيقا إلى مصر سنة ٧٣٧ هـ ، فاشتراه الناصر بن قلاوون . وقد برز في عهد الصالح صلاح الدين ، ثم في عهد أخيه الناصر حسن . وقد سافر في عداد الأمراء الذين صحبوا الصالح المذكور إلى البلاد الشامية لقنال الأمير ببيغا أروس ، سنة ٧٥٣ هـ . فتغلبوا عليه وعادوا لمصر .

وفي عام ٧٥٤ هـ ثارت قبائل عربية كثيرة ببلاد الصعيد ، والتفوا حول شيخ قبيلة عرك ، واسمه الأحذب ، وألحقوا بذلك البلاد خسائر كثيرة . فخرج الصالح ليقاتلهم بنفسه ومعه جمع من أمرائه وجنده ، كان في مقدمتهم الأمير «صرغتمش» فأوقعوا بهم ، وأخذوا فيهم .

ولما دالت دولة الصالح ، وعاد الناصر حسن إلى عرشه سنة ٧٥٥ هـ ، ظل «صرغتمش»

صاحب الحل والعقد في البلاد ، مع الأتابكي شيوخو ، وإن كانت رتبته رأس نوبة النوب . غير أن ذلك لم يطل ، فقد قتل شيخو سنة ٧٥٨ هـ ، وانفرد « صرغتمش » بالأمير ، وأصبح مرجع السلطان في كل شيء ، وكانت بينه وبين الأمير « طاز » — نائب حلب إذ ذاك — عداوة . فأنهز الفرصة وأمر بالقبض عليه — دون علم السلطان ، وسجنه بالإسكندرية . وأخذ يستبد بشئون الدولة ، ويولى ويعزل من يشاء ، فثقل أمره على السلطان سنة ٧٦١ هـ وخشى منه . وأشار عليه بعض الأمراء بأن يبادر بالقبض عليه قبل أن يدبر للسلطان أمراً . فقبض عليه في رمضان من العام المذكور ، وهو في موكبه بالإيوان . فاحتاج مائيكه — وكانوا نحو ثمانمائة — فقتلوا أسلحتهم واستعدوا للقتال في الرميعة . فوثبت عليهم الجنود السلطانية ، فكسروا شوكتهم ، فتفرقوا ولم يبق قائمة . وانتهز كثير من العامة هذه الفرصة ، وهجموا على بيوت « صرغتمش » ومنازل أتباعه ، فنهبوا ما فيها .

وقيد « صرغتمش » وأرسل إلى سجن الإسكندرية ، فأقام نحواً من ثلاثة شهور ثم خنق . وقد كان مليح الصورة يقرأ القرآن ، ويشارك في الفقه . غير أنه كانت به شراسة ، وقد اقتنى مالا كثيراً . وقيل كان موته سنة ٧٥٩ هـ .

وما يذكر أنه جد المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، لأمه خوند سعادات .

« ابن إياس ج ١ من ص ١٩٦ إلى ٢٠٨ — وج ٢ ص ١٠ — خطط ج ٤ ص ٢٥٧ — الدرر ج ٢ رقم ١٩٧٨ ،

١١ — طاز الدوادار ٧٦٣ هـ

أحد الأمراء البارزين . وكان أحد الستة الذين كان بيدهم أمر الدولة في عهد المظفر حاجي . ثم اتسع جاهه وعلا نجمه في عهد السلطنة الأولى للناصر حسن . وعمن أناروا الفتنة عليه سنة ٧٥٢ هـ ، وتزعّم المؤامرة ضده لخلعه . فجمع عدداً من الأمراء والجنود في ١٧ جمادى الآخرة في السنة المذكورة ، وقبضوا على السلطان حسن وسجنوه بالقلعة ، وأقاموا أخاه الملك الصالح سلطاناً على البلاد . بذلك أصبح الأمير « طاز » صاحب الحل والعقد ، يدبر شئون البلاد كما يشاء ، يأمر الملك فيطيع . فكان ذلك من العوامل التي أحقدت نفوس الأمراء عليه ، وغيرت قلوبهم . فوقعت المشاحنات واحتدم القتال بين الفريقين . فاستطاع الأمير « طاز » والسلطان الصالح أن يشتتا شمل أعدائهما

وأن يقبضا على زعمائهم ويدعاهم السجن ، غير أن الأمير « طاز » لم يبلغ مرتبة الأناكية ولا نيابة السلطنة على الرغم من تضخم نفوذه . ثم جدله أمر جديد ، وهو تضخم نفوذ أميرين من كبار الأمراء هما : شيخوا العمرى وصرغتمش الناصرى . فكان ذلك مشارا لخوفه ؛ بل لمحنته فيما بعد ، على يد صرغتمش . وكان الأمير شيخو يعرف ما فى نفس صرغتمش ضد الأمير « طاز » ، ويعرف أنه يحارل الجرش به ، فكان يقعه ويرجعه عن بلوغ غايته . — وقد انتهز هذان الأميران الفرصة حينما توجه الأمير « طاز » إلى بلاد البحيرة للصيد ، وقبضا هما وأتباعهما على السلطان الصالح ، وأودعا السجن وخلعاه ، وقررا عودة السلطان الناصر حسن المخلوع ، وذلك عام ٧٥٥ هـ . ولما تم لهم ما أرادوا ، وعاد الأمير « طاز » من رياضته ، قبضوا عليه وقيده وأرسلوه إلى السجن . فأقام فيه أياما حتى شفّع فيه بعض الأمراء ، فأطلق سبيله . وعينه السلطان حسن نائبا لحلب . فظل فى هذا المنصب حتى توفى الأناكى شيخو . وخلا جو البلاد الأمير صرغتمش . فانتز الفرصة وأمر بالقبض على الأمير « طاز » ، نائب حلب من غير علم السلطان ، وذلك عام ٧٥٩ هـ . فأرسل إلى مصر وسجن بشعر الإسكندرية . فلبث زمنا ثم أطلق - راحه . ومات بدمشق عام ٧٦٣ هـ ، وهو منق . وكان شجاعا محبا للعلماء .

وابن إياس ج ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١ إلى ٢٠٣ ، ٢٠٥ - الدرر ج ٢ رقم ١٩٩٨ - خطط ج ٣ ،

١٢ - أزدمر العمرى ٧٧١ هـ

هو الأمير أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالحازندار وأبى ذقن ، جد والد المؤرخ ابن إياس المصرى صاحب بدائع الزهور . كان أمير سلاح فى بدء عهد سلطنة الأشرف زين الدين شعبان حفيد الناصر محمد . ثم إن هذا السلطان نقله نائبا لطارابلس فى أول حكمه سنة ٧٦٤ هـ . وفى عام ٧٧٠ هـ كان مقبلا بمصر . وكان بينه وبين عماليك يلبغا عدا ، فأرغموا الأناكى استدمر على القبض عليه ، فسجنه حتى رسم بالإفراج عنه فى أوائل عام ٧٧١ هـ . وولاه السلطان نيابة الشام عوضا عن الأمير على الماردىنى ، فلما وصل فى سفرة نحو الشام إلى العريش ، مرض هناك وعاد إلى القاهرة . فلبث مدة مريضا ثم توفى . ودفن بالترافة الصغرى بالقرب من زاوية الشيخ أبى العباس البصير رضى الله عنه . وكان الأمير أزدمر جليلا دينيا خيرا له بر معروف وآثار . أنشأ سيلا بطرابلس

وخانا بحلب وأوقف على الحرمین . وتولى أربع نيابات هي : حلب ودارابلس والشام وصدق .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ »

١٣ - بيدمر الخوارزمي

وهو نائب الشام في عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وأتابكيه برقوق . وفي سنة ٧٨١ هـ شق عضدا الطاعة بدمشق ، وخرج على السلطان فقبض عليه جندها ، وسير إلى القاهرة . فسجن في دمياط . فظل بها ، حتى ملك السلطان الصالح أمير حاج ، فرسم بالإفراج عنه عام ٧٨٣ هـ ، وأعادته إلى نيابة الشام . فظل بها مرعى الجانب حتى كانت سنة ٧٨٦ هـ ، وكانت السلطنة قد آلت إلى برقوق . فحضر الأمير والمقرر السيفي « بيدمر » الخوارزمي ليزور السلطان برقوق وقدم إليه هدايا نفيسة ، فأكرمه السلطان وأعلى مكانته وقدمه على نائب سلطنته سودون الفخرى . وأقام زمنا في القاهرة ثم عاد إلى الشام .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ - الدرر ج ١ رقم ١٣٩٣ »

١٤ - جمال الدين محمود الأستاذار ٧٩٩ هـ

أحد عظماء الأمراء المصريين الذين شهدوا ضروبا من نعيم الحياة وترفها . واقتنوا النفيس من متاعها ، وأحاطوا بأنفسهم بصنوف من الملاذ ، قيل : كانت عادة رؤساء مصر اقتناء الجوارى المغنيات ، يغنين لهم ليلا في وقت مرح وسرور . وآخر من فعل ذلك منهم الأمير جمال الدين محمود الأستاذار .

ويعرف هذا الأمير بابن علي الظاهري . وقد عينه في الأستاذارية السلطان برقوق العثماني في يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول عام ٧٩٢ هـ . وقد جعله أستاذار العالية ، وناظر الخواص الشريفة ومشييرا للدولة ، فزادت عظمته ونفذت كلمته ، وهيبته سطوته وكان له ولد هو الناصري محمد ، وقد عينه السلطان برقوق نائبا لشرف الإسكندرية في عام ٧٩٤ هـ .

ويظهر أن هذه المكانة التي نالها الأمير جمال الدين أحققت بعض المايك عليه . ولعله أيضا كان يسير في عمله على غير رغبتهم ، ولا سيما باليالك الطباقي بالقلعة . ولهذا

أنهزوا فرصة نزوله من القلعة في يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى عام ٧٩٤ هـ - بعد تأدية خدمته للسلطان ، ورجوه ، فهرب منهم فسحبوه إلى الرميثة ، وآذوه هناك إيذاء شديدا هو وبعض الموظفين ، فتدخل في الأمر الأمير لا يتمش البجاسى بماليكه واستنقذهم منهم . وبعد مدة اصطلى الطرفان .

وما زال الأمير محمود في عز وترف وثراء ، حتى غضب عليه السلطان برقوق لبعض هفواته - واهله رغب من وراء ذلك أن يستولى على مقتنياته من مال وجوهر وجوار . وكان هذا الغضب سنة ٧٩٨ هـ . وفي يوم السبت ٦ صفر من هـ - هذا العام أرسل إليه طواشيا يدعى شاهين الحسنى الجرار ، فجمع ابنه محمدا ونساءه وسراريه وسجنهم . وهم بالقبض على الأمير جمال الدين محمود نفسه ، والكنه اختفى . فكان ذلك آخر عهده بالاستدارة ، إذ عين السلطان فيها الأمير قطلوبك العلاني . - وبعد زمن وجيز أخذ السلطان في تفتيش ما يملك الأمير جمال الدين ، والبحث عما يفتنى ، ويجمع كل ما يعثر عليه من نفائسه . فجمع من ذلك كله صنوفا تجل عن الحصر . منها على ما روى : سبعة أزيار كبار وزلعتان مملوءة فضة ودرهم . وجرتان من الذهب و٣٦ ألف من دينار في مكان ، ٢٠٠ ألف دينار في مكان آخر ، و٣٠ ألف دينار في غيرهما . ووجد له عند آخرين من الناس وبعض ماليكه ما مجموعه نحو خمسمائة ألف دينار . هـ - هذا عدا الجواهر والحلى والأقشة والخيول والماليك والجواري والضياع والمراكب والطواشية والغلال . قال ابن إياس : « وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب علاء الدين بن زنبور » . وقد ذكرناه في هذا الباب في رقم ٩ .

وقد صادر السلطان برقوق كل هذه الممتلكات واحتازها لنفسه - ثم قبض على الأمير جمال الدين محمود في كوم الجارح ، فسجن هو وابنه في خزانة شمائل - مكان جامع المؤيد الآن - فلبثا زمنا في سجنهما حتى كانت سنة ٧٩٩ هـ ، فتوفي هذا الأمير وهو في سجنه . ثم دفن في مدرسته التي أنشأها خارج باب زويلة .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ إلى ٣٠٧ - تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٩٧ - خطط ج ٤ ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ » .

١٥ - تم الحسنى ٨٠٢ هـ

هو نائب الشام في العهد الثاني لسلطنة الملك برقوق . وقد حضر إلى مصر سنة ٧٩٩ هـ ،

الزيارة السلطان برقوق . فلما بلغ السلطان قدومه إلى الريدانية نزل من القلعة ولاقاه ، وخلق عليه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية . فقدم « تنم » إلى السلطان هدايا ضخمة نفيسة جدا ، ما بين ممالك وجوار ودنانير وأسلحة ، ومصحف ذهبي ، وجواهر مينة ، وأقشة فاخرة ، وفاكهة متنوعة ، وسكر وحلوى شامية . وقد أقام له السلطان وليمة حافلة في برج الجزيرة ، وأقام أياما ثم عاد إلى الشام . ظل تنم الحسن في منصبه حتى آلت السلطنة إلى الملك فرج بن برقوق ، فشق عليه عصا الطاعة في سنة ٨٠٢ هـ . وأطلق من في سجون قلعة دمشق من الأمراء . وفي الوقت نفسه كان الأتابكي إيتمش البجاسي قد ثار في القاهرة ضد سلطانه فرج ، وكانت بين الفريقين وقائع ودماء ، فر على إثرها إيتمش إلى الشام هو وعصبته من الأمراء . فلقبهم « تنم » الحسن نائبها خير لقاء ، وقدم إليهم كل معونة من مال وسلاح وخيل وزاد . وانضم إليهم في عصيانهم نائب حلب وحماة وصفد وطرابلس ، وعدد ضخم من الجند والعربان . وأصبح الأمير « تنم » شبيها بالملوك في بلاد الشام ، يركب كركوبهم وينزل كنز ولهم . وتحرك « تنم » لقتال السلطان فرج ؛ فخف إليه فرج في جند عظيم وتلاقوا على مقربة من غزة . ولكن بعض أنصار « تنم » انضم إلى جانب السلطان فرج . فقت بذلك في عضده وعول على الفرار . ففر هو والأتابكي إيتمش البجاسي وعدد من عصبته إلى الرملة بمصر ، وتركوا السلطان بغزة . ثم إن السلطان فرجا أرسل إليهم قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي والأمير ناصر الدين بن الرماح ليصالحهم ، فأبوا وعولوا على القتال . فعاد إليهم السلطان ووقعت بين الفريقين معركة حامية في مكان يقال له « الحبطين » في يوم السبت ١٢ رجب عام ٨٠٢ هـ ، فانكسر « تنم » وهرب إيتمش إلى الشام . ولكن السلطان تمكن من القبض عليهما وسجنهما . وقد قبض على « تنم » وصودرت أملاكه . وعاد السلطان إلى دمشق وأمامه « تنم » نائبا وهو مقيد راكب على كدش . وظل « تنم » في سجنه حتى خنق بأمر السلطان فرج بعد أيام في نفس السنة .

« ابن أبي عمير » ج ١ ص ٣٠٦ ، ٣١٩ ، إلى ٣٣٤ - الضوء ج ٣ رقم ١٨٣ ،

١٦ - نوروز الحافظي ٨١٧ هـ

أحد الأمراء العظام ، وقد أخذ يترقى حتى كان رأس نوبة النوب في عهد السلطان فرج بن برقوق . وكان من قبل مسجونا بشعر الإسكندرية لاشتراكه في عدة مؤامرات

فأطلق السلطان فرج سراحه وخلع عليه هذا اللقب في سنة ٨٠٢ هـ . وقد أقام نوروز قبة على فسقية الحانقاه الشيخونية حينئذ ولم يكن لها قبة . وقد صحب سلطانه فرجا في قتاله ملك التتار تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . فكان أحد الأمراء الستة المقدمين في الطليعة ، وهم الأتابكي بيبرس الركنى وبسكتمر ونوروز وأقبای الطرناى الحاجب وإينال باى بن قجاس ويلبغا الناصرى . وقد كانت عاقبتهم الانكسار . - ثم إن نوروز علت مكانته لدى السلطان فرج ، حتى أصبح في عداد من يثق بهم ويكل إليهم مهام دولته . وقد عينه مشيرا للدولة ومدبراً للمملكة ، وقد دعمت مكانته لديه بأن تزوج من أخته وذلك سنة ٨٠٤ هـ . وهى بنت السلطان برقوق ، ودخل بها « نوروز » في ٢٠ محرم من تلك السنة . وكان لهما حفل عظيم . وفي تلك السنة ثارت فتنة « نوروز » الحافظى والأميرجكم العوضى وغيرهما من الأمراء ضد السلطان . ومن التف حوله من الأمراء . وأدى ذلك إلى شوب ثورة أهلية بين جنود الفريقين . ثم عمل السلطان والقضاة على إطفاء الفتنة ومصالحة الأمراء . وفود الأمراء المتعادون إلى حضرة السلطان ، وقبلوا به الأرض ونماخوا أمامه . ولكن هذا التراضى كان على حقد ودخل . فإنهم ماعتموا أن آثاروها فتنة جديدة وحربا شعواء . فاضطر السلطان ومن معه من الأمراء إلى تتبع الثائرين وقتالهم ، فالتصر عليهم في جهة بركة الحبش وأسر جماعة منهم وفر الباقيون . ومن بين الفارين الأميران جكم العوضى و « نوروز » الحافظى . وفروا إلى الجزيرة حيث مكشوا ثلاثة أيام . ثم فارقه « نوروز » إلى القاهرة وطرق باب الأتابكى بيبرس الركنى ، ورجاه أن يشفع له عند السلطان فشفع وقدم إليه فرضى عنه السلطان فرج لأنه صهره ، وخلع عليه نيابة الشام . فأخذ في الرحيل إليها ، فلما بلغ مخيمة الريدانية ، بعث السلطان في إثره من قيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية . فظل « نوروز » في سجنه حتى عام ٨١٠ هـ . فأفرج عنه السلطان فرج . وكان قد خلع ثم عاد إلى سلطنته . ولما أطلق سراح « نوروز » عينه نائبا للشام في ذلك العام . وكذلك أفرج عن الأميرجكم العوضى ، وكان مسجوناً . وعينه نائبا لحلب . وبجرد وصول كل منهما إلى مقر عمله أعان بالعصيان وأعان جكم بنفسه سلطانا على حلب ، وتلقب بالملك العادل . ولكنه سرعان ما اعتدى عليه معتد فقتله فسكنى السلطان شره . وبقي أمامه « نوروز » . وكان « نوروز » قد جمع حوله عددا من الأمراء والجنود منهم الأمير شميخ الحمودى - وهو الذى صار سلطانا على مصر فيما بعد وتلقب بالمؤيد - وكان إذ ذاك

نائب طرابلس . ولما قوى أمرهما في الشام سار الملك فرج لقتالهما في عام ٨١١ هـ فتلاقوا بجهة تعرف بالسعيدية . فانكسر السلطان وتبعه الأمير « نوروز » وشيخ في فراره إلى القاهرة ، ولكن السلطان استطاع بها لقاءهما فكسرها فمربا إلى الشام ثانية مهزومين . ثم راسلها الملك ومنح نيابة الشام الأمير شيخ . وأمر « نوروز » بالإقامة في القدس عاطلا . ولكن على الرغم من هذا كله فقد بقي لهذين الأميرين نفوذ عظيم في بلاد الشام حتى استطاعا قطع اسم الملك الناصر فرج من الخطبة بدمشق وتوابعها ، واجتمع حولها عدد ضخم من الأمراء والجنود . وذلك عام ٨١٣ هـ ، ٨١٤ هـ . فعول السلطان على قتالها ثانية . فدخل بلاد الشام بعسكر كثيف عام ٨١٥ هـ ، ولكنه انكسر كسرة شنيعة بجهة تعرف باللجون ، وقبض عليه وقتل . وكان هذا النصر سببا لرفعة الأمير « نوروز » الحافظي وشيخ الحمودى . وانفعا معا على تولية السلطان أبى الفضل العباس محمد المتوكل العباسى ، وهو الخليفة القائم في ذلك الحين والمكتب بالمستعين بالله . اتفقا على ذلك تفاديا للخلاف بينهما . وكذلك اتفقا على أن يكون شيخ الحمودى هو الأتابك . وأن يكون « نوروز » نائبا على بلاد الشام . فظل هذا الوضع أشهرا ثم تغلب الطمع على شيخ الحمودى ونزع السلطنة من المستعين بالله ، وتسمن ذروتها عام ٨١٥ هـ . فكان ذلك سببا لغضب نوروز فامتنع عن طاعته ببلاد الشام . ولكن السلطان المؤيد شيخنا أعاد لإخضاعه عدته . فلما استتب له الملك رجع إلى الشام في عام ٨١٧ هـ . فحاصر « نوروز » بدمشق حصارا قويا حتى سلم له « نوروز » فقطع رأسه بقلعة دمشق وأرسله إلى القاهرة فعلق على باب زويله ثلاثة أيام . ثم دفن وانتهت بذلك حياته وجهاده الطويل .

د ابن أبياس ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ - ج ٢ ص ٣ ، ٤ الضوء ج ١٠ رقم ٨٧١ .

١٧ - حكم العوضى ٨١٠ هـ

أصله من عماليك برقوق ، ومن الأمراء الذين برزوا أيضا في عصر السلطان فرج ابنه . وكان وجودهم من أسباب توجيه الحوادث إلى نواح معينة . وقد اشترك « ج.كم » في الثورة الأهلية التي وقعت عام ٨٠٤ هـ . فزعم هو وعدد من الأمراء المماليك السلطانية ضد الأمير « يشبك » الشعباني الدوادار . وما زالوا به حتى هزموه وفر من وجههم كما سنبين في ترجمته الآتية . فلما هدأت الفتنة خلع السلطان على الأمير « ج.كم »

العوضى ، وجعله دوا دارا كبيرا عوضا عن يشبك الشعبانى . فعظمت مكانته وهيبته منزله وأصبح مصدر خوف يخشاه بعض الأمراء ، حتى السلطان نفسه . ويظهر أنه كان يبدئ الغطسة والكبر ويضمير الشر ، وعرفوا هم عنه هذا ، فخافوه وترهبوا به الدوائر . — وما لبث « جكم » العوضى أن انضم إلى نوروز الحافطى وغيره فى فتنة ضد السلطان فرج عام ٨٠٤ هـ . ثم صالحهم السلطان . وعقيب ذلك أرسل خلعة إلى أخى « جكم » وهو المسمى قانبای العلائى ، ورسم له بالتوجه إلى حلب نائبا عن السلطان فيها . وكان ذلك على غير رغبة من « جكم » ، فعظم عليه الأمر وعاود الفتنة مرة أخرى ، وانحاز إلى جانبه عدد ضخم من الأمراء والماليك . ولكن السلطان فرجا استطاع أن يقضى على مجموعهم ، فهرب زعمائهم ومن بينهم الأمير « جكم » العوضى والأمير نوروز الحافطى . فساروا نحو الميمون ثم الجيزة . أما نوروز فبعد ثلاثة أيام وفد على السلطان كما بنا ثم كان نصيبه السجن . وأما « جكم » العوضى فإنه أرسل إلى السلطان يطلب إليه الإذن له بالمسير إلى دمياط ، والإقامة بها دون سجن ، فسمح له بذلك ، واستقدمه أولا إلى القاهرة . فلما قدم قيد هو ومن معه وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية . فظل « جكم » مسجوناً . ودالت السلطنة الأولى لفرج وأعقبه أخوه ، ثم عاد فرج إلى عرشه فى عام ٨٠٨ هـ . ولما كانت سنة ٨١٠ هـ صدر أمره بالإفراج عن « جكم » ونوروز . وأتاب نوروزاً فى الشام وأتاب « جكم » فى حلب . فلما لبثا بعد توجههما أن ناراً وأظها العصيان . أما « جكم » فإنه أعلن بنفسه سلطاناً على حلب وتلقب بالملك العادل . وأصبح صاحب الحل والربط فى البلاد الحلبية ، وجزء كبير من البلاد الشامية . فضاقت الأرض على رحبها أمام الملك الناصر فرج ، وعول على الانتقام من هذا الخارج عليه . ولكن ما عثم أن كفى مشؤته ، فقد خرج على حكم « جكم » أحد أولاد قرا يوسف التركمانى ، فهب « جكم » للقائه ، والتقى عسكرهما ، فقتل « جكم » وقت المعركة ولم يعثر له على أثر وذلك سنة ٨١٠ هـ . وقيل سنة ٨٠٩ هـ . وكان مهيبا يحب العلماء وبسمع الشعر .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، الضوء

ج ٣ رقم ٢٩٢ . »

١٨ — يشبك الشعباني الدوادار (١) ٨١٦ هـ

من علا نجمهم في عهد السلطان فرج بن برقوق ، ومن اعتمد عليهم هذا السلطان في تدبير أمور دولته . وقد منحه في سنة ٨٠٣ هـ لقب دوادار كبير ومشير المملوك ، وشارك نوروز الحافظي في القيام بالأعمال . غير أنه ما لبث إلا ريثا انغمس في فتنة ضد بعض المماليك السلطانية وكبار الأمراء واشترك معه فيها الأميران قطلو بغا السركي ، وأقبای الحازندار . ووقعت بين الفريقين معارك عدة وتدخل بينهما السلطان . غير أن العاقبة كانت انهزام « يشبك » وطائفته ، وفراره واختفاؤه في تربة خوند سمرا تجاه باب جامع قوصون خارج باب القرافة إذ ذاك . وقد نهب العوام بيته وبيوت تابعيه . ثم عرف مكانه فقبض عليه . وأرسل إلى سجن الإسكندرية ، فظل حتى عام ٨٠٤ هـ ، ثم أمر السلطان فرج بالإفراج عنه ثم خلع عليه وأعاد دوادارا كبيرا كما كان . ومع ذلك هم بعض المماليك بالبطش به فاستطاع الهرب منهم ، وقد عاقبهم السلطان بضربهم بالمقارع ، وأشهرهم في القاهرة ، فحصدت قتلهم بعض الخوذة . وهكذا ظل الأمير « يشبك » يعيش تحت حماية السلطان فرج ، حتى دالت سلطنته الأولى وخلفه في السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز بن برقوق . وكان متزعم حركة هذا الانقلاب الأتابكي ببيرس الركني ، فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية فغض هذا من منزلة الأمير « يشبك » الشعباني الدوادار . وود لو عاد فرج إلى سلطنته ، وكان قد اختبأ لدى المقر السعدى لإبراهيم بن غراب . فلما شعر ابن غراب بهذه الرغبة تجيش في نفس « يشبك » ، أخبره بمكان فرج ، ودبر حركة اظهروه . ثم أعلنوا به ، فانحاز إلى جانبهم عدد من الجند والأمراء ، فوقع القتال بين هؤلاء وبين من التف حول السلطان المنصور ، فانتصر فريق « يشبك » وعادت السلطنة إلى فرج سنة ٨٠٨ هـ ، وعادت سطوة الأمير « يشبك » إلى سابق عهدها . وبعد حين نفر منه السلطان ، فقبض عليه هو والأمير شيخ وسجنهما في قلعة دمشق ، ففرا ، فقتعهما نوروز وقتل « يشبك » سنة ٨١٦ هـ ، وأرسل رأسه إلى الناصر . فطيف به ، وعلق أياها . وكان « يشبك » . أميراً جليلاً كريماً وقوراً .

« ابن لباس ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ — الضوء ج ١٠ رقم ١٠٩٠ . »

١٩ — جاني بك مملوك الأشرف برسبای ٨٣١ هـ .

قال عنه ابن إياس ما ملخصه : لما دخلت سنة ٨٢٧ هـ . فيها تزايدت عظمة الأمير « جاني بك » مملوك الملك الأشرف برسبای وصار أمير طبلخاناه ودوادارا ثانياً . واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التي بالقرب من المنجكية . ومما يحكى عنه أنه نفي الأتابكي بيبيغا المظفرى إلى نهر الإسكندرية من غير علم السلطان . فلما علم السلطان بذلك لم يقل له : لآى شىء فعلت ذلك . وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر . وكان الأمراء المقدمون ينزلون معه من القنعة إلى بيته الذى بالقرب من سوق الجوارى . ولم يزل جاني بك على ذلك حتى خشى منه الملك الأشرف أن يثب عليه ، فأشيع أنه دس له السم ، فاستمر عايلاً ملازماً الفراش حتى مات في أثناء دولة أستاذه . ولو عاش لوثب على أستاذه وتسلطان . — ومات في نحو الخامسة والعشرين .

١ ابن إياس ج ٢ ص ١٧ — الضوء ج ٣ رقم ٢١٦ .

٢٠ — عبد الباسط بن القرشى خليل ٨٥٣ هـ

هو زين الدين . اشتهر هذا القاضى في عصر السلطان الأشرف برسبای . وقد كان من أتباع الملك المؤيد شيخ المحمودى ، فقربه برسبای فيمن قرب من أتباع شيخ . وجعله في عام ٨٢٥ هـ ناظر الجيوش المنصورة . واتسع جاهه وبسط نفوذه ، حتى قيل إنه أصبح صاحب الحل والعقد في عصر برسبای ، لا يرم أمراً ولا ينقضه إلا بعد مشورته . وقد أطلق عليه لقب « عظيم الدولة » . — وبظهر أنه لم يزاخه في نفوذه هذا سوى مملوك برسبای ، وهو الأمير جاني بك ، إذ فاق نفوذه نفوذ كل أمير سواه . — وما زال الزينى عبد الباسط في نعمة من الجاه وبسطة من النفوذ ، حتى تقلبت الأيام وآلت السلطنة إلى ابن برسبای ثم إلى الظاهر جقمق العلأى ، فغضب على الزينى عبد الباسط عام ٨٤٤ هـ ، وصادر أملاكه وصنى موارده وأمواله وأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ونفاه إلى مكة ثم نقله إلى الشام . ولما كانت سنة ٨٤٨ هـ أعاده إلى مصر وأكرمه وأقام بلا عمل ، حسن الصلة بالناس وبالسُلطان . حتى توفى في ٦ شوال من تلك السنة . وكان كثير الخير والبر ، أنشأ عدة مدارس في مصر ، وبيت ، المقدس والمدينة ، ومكة ، وكان يرسل الأعطيات للفقراء

الحجاج في كل موسم . وقد تزوج الملك الظاهر جقمق ابنة هذا القاضي بعد وفاته .
وذكر في الضوء وفاته سنة ٨٥٤ هـ .

د ابن إلياس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ — الضوء ج ٤ رقم ٤٨١ .

٢١ — جاني بك الظاهري الجركسي الدوادار ٨٦٧ هـ

أصله مملوك لجو باش الحمدي الناصري الأتابك . وانتقل مملوكا إلى الظاهر جقمق قبل سلطنته ، فأعتقه . فلما ولي السلطنة جعله خاصكيا . وولاه نظر الكائنات وشادية جدة في عام ٨٤٩ هـ . فنهض بما وكل إليه نهوضا محمودا . وظهرت كفاءته السلطانية ، فعظم عنده ، ومن ثم عظم جاهه ، وقوى نفوذه — وصار يقال له « نائب جده » . ورقي أستاذارا في عهد جقمق ، وأعني من الاستاذارية في عهد إينال ، ليتفرغ للأعمال جدة . وزيد في إقطاعه ، فأثرى ، وابتنى تربيته الجميلة خارج باب القرافة ، وبها مدرسة وكتاب الأيتام ، وحوض وبستان عظيم وبركة ، وغير ذلك . وأصبح مهيبا ، وكتبه الملوک ، وأهدى إليه . وأسندت إليه الدوادارية في عهد خشقدم ، فصار مدبر الدولة وبلغ أوجه — وكان حسن السياسة كيسا محسنا — ثم قتله المماليك الجلبان في بعض أسفاره عام ٨٦٧ هـ ، ودفن بتريته .

« الضوء ج ٣ رقم ٢٣٥ »

٢٢ — برد بك الأشرفي ٨٦٨ هـ

كان مملوكا للأشرف إينال . فرباه وأعتقه . وزوجه ابنته الكبرى . رقا دوادارا ثالثا . ولما زال به يرقيه حتى صار دوادارا كبيرا . فزادت عظمته ونفدت كلمته ، وأطيع أمره . فلما ملك خشقدم صادره وأحاط بماله ، ونفاه إلى مكة . ثم أمر له بالعودة بعد حين فعاد ، ولكنه قتل في الطريق بيد بعض القطار من الأعراب . ثم دفن بخليص . ثم نقل إلى مكة .

« الضوء جزء ٣ رقم ٢٠ »

٢٣ — العلائي علي بن محمد الأهناسي الأستاذار ٨٧٠ هـ

كان في أول أمره يشتغل « برددارا » لدى الأستاذار زين الدين الحلبي . ثم انتقل إلى الأستاذارية عند المقر الشهابي أحمد بن الملك الأشرف إينال . فلما اختفى زين الدين

الخلبي عام ٨٥٧ هـ . دسعى ابن الأهناسى ، لدى إينال فى تولى الاستدارية الكبرى ؛ فتم له ذلك فى العام المذكور . فأخذ جاهه فى الازدياد . ثم ظهر زين الدين الخلبي فى أوائل المحرم عام ٨٥٨ هـ . وشفع فيه لدى السلطان ، فرضى عنه ، وأعادته إلى منصبه وخلع منه « ابن الأهناسى » . وفى عام ٨٦٠ هـ عين فى الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج بن النحال . فعظم أمره ثانية . ثم خلع منها فى عهد خشقدم عام ٨٦٦ هـ ، ثم أعيد فى عام ٨٦٨ هـ إليها ومعها نظارة الخاص . ثم جدد له من العوامل ما دفعه على الاختفاء . ولكن قبض عليه وسجن وصودر ، ونفى إلى مكة ، فمات بها سنة ٨٧٠ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٩ »

٢٤ — الاستادار زين الدين الخلبي ٨٧٤ هـ

أصله من الأزمن . واسمه يحيى بن عبد الرزاق الأرمنى . وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان . وقد ارتقى إلى الاستدارية فى عهد السلطان الظاهر جقمق العلائى : وكان هذا السلطان يعتمد عليه فى كثير من مهامه ، فنفذت كلمته وعلت سطوته . قيل : ولم يحيى من بعده من يضاهيه فى منصبه نفوذاً وسطوة وعواجا . وذلك منذ عام ٨٤٩ هـ . فلما زالت دولة جقمق وابنه ابتداء عهد نحسه وأقول نجمه . وكان قد فارق هذا المنصب فأعادته إليه الأشرف إينال على كره منه . غير أنه ضاق بأعبائه فاخفى عام ٨٥٧ هـ . فعين السلطان مكانه فى الاستدارية العلائى بن الأهناسى . ثم رسم السلطان بنفقيه إلى القدس . وذلك فى صفر عام ٨٥٨ هـ . فبمجرد أن خرج متوجها إلى القدس بعث إليه السلطان من قبض عليه عند سبيل ابن قايمار ، وقتلته وجاء أن يجد معه مالا ، فلم يجد إلا ثلثمائة دينار ونثارا من الفضة . وكان قد وشى به إلى السلطان أن معه مالا جمعه . ثم أمر السلطان بإعادته إلى القاهرة . ثم أدخلوه إلى القلعة ومنها إلى البحرة وسجن . وفى يومه هذا حضر إليه السلطان المعاصير وعصره وآذاه لكي يعترف بما يدخره من المال ، فلم يعترف وطلب إلى السلطان أن يبيع أوقافه ويأخذ منها ما يريد من المال . فحمل هذا الطلب عنه ناظر الخاص ، فأمر بإحضاره بين يدي السلطان ، فضربه نحواً من خمسمائة عصا . ثم شفّع فيه الأمير تمرّاز الدوادار الثانى ، فقبل السلطان شفاعته وخلع عليه وأعادته إلى الاستدارية وصرف عنها العلائى على بن الأهناسى . ثم ضم إليه منصب كاشف الكشاف بالوجهين القبلى

والبجری . فانتعش حاله بعض الانتعاش . حدث هذا كله في شهر صفر من عام ٨٤٨ هـ . وفي ذى القعدة من السنة نفسها غضب عليه السلطان مرة أخرى وضربه ضرباً مبرحاً ، وتسلبه منه الجالى يوسف ناظر الخاص ، فسيجنه لديه حتى يورد ما فرض عليه السلطان من غُرم مالى . ويتبادر للذهن أن سبب كل ذلك كره السلطان له من زمان بعيد ، كرهها أوجد السبيل إلى الوشاة ، فزينوا للسلطان أن هذا الرجل يربح من وظيفته الكثير من المال فعليه أن يودى جانباً منه للسلطان . فلما سجن ظل زمناً ، ثم نفاه السلطان إلى القدس فلبث هناك حتى رجب عام ٨٥٩ هـ . فعاد بصحبة الأمير بردبك صهر السلطان ، فرضى عنه ورد إليه منصبه . فلبث فيه حتى شهر جمادى الآخرة عام ٨٦٠ هـ ، فغضب عليه مرة أخرى بحجة أنه تأخر في تهيئة الطعام اللازم للقصر وجنوده . وضرب ضرباً مبرحاً وكبل بالحديد وسجن . وولى مكانه الوزير سعد الدين فرج بن النحال . وبعد زمن استخلص منه عشرة آلاف دينار ، ونفاه في شهر شعبان من السنة نفسها إلى المدينة المشرفة . فسار إليها بطريق البحر . فلبث زمناً بها . ثم أمر فعاد إلى القاهرة بلا عمل . وظل أمره لدى السلطان ما بين غضب ورضا ، حتى كان عام ٨٧٤ هـ وكان شهر ربيع الأول فثارت ثورة السلطان ضده مرة أخيرة وقبض عليه وأحضر بين يديه ، فأسمعه من الكلام قارصه ، وأذاقه من الضرب أقساه وأمره . ولبت يعذبه هكذا يوماً بعد يوم ، مسجوناً بالبرج بالقلعة حتى مات في يوم وهو بالبرج . فأخبر السلطان بذلك ، فلم يصدق الخبر حتى جرى به إليه ميتاً ، فكشف عن وجهه ورقعه برجله ! ثم أمر بحمله . فغسل وكفن ودفن . وهكذا انتهت حياته المريرة . وقد أنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع ومدارس ، وكان مولده قبيل عام ٨٠٠ هـ .

د ابن إياس ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٤ إلى ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٤ - الضوء ج ١٠

رقم ٩٨٣

٢٥ — بردبك البجيمقدار ٨٧٥ هـ

كان نائباً للشام . وكان يعرف ببردبك الفارسي الظاهري . ويعرف أيضاً بالآقرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهرية . وكان أمير عشرة في دولة أستاذة الظاهر جقمق ، ثم رقى أمير طبلخاناه ، ثم رأس نوبة ثانياً في دولة الأشرف إينال . ثم صار مقدم ألف . وحج أمير يحمل غير مأمرة . ثم ولى حاجب الحجاب . ثم صار نائب حلب

في دولة الظاهر خشقدم . ثم قبض عليه وحمل إلى القدس عاطلا . ثم أعيد إلى نياية حلب . ثم نقل نائباً للشام فوايها مرتين ومات بها . وكان أسيراً عند سوار ، وهو نائب حلب وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم . وقاسى شدائد ومحن . ومات في عام ٨٧٥ هـ هذا ، وقد قيل إن أبا بكر بن علي دوادار هو الذي دس السم لأستاذه برد بك . ومع ذلك فقد توفي قبله بأيام ١ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢٤ ، » .

٢٦ - برقوق الناصري ٨٧٧ هـ

قال عنه ابن إياس ما يلي : « وفي شوال - أي عام ٨٧٧ هـ - جاءت الأخبار ب وفاة برقوق الناصري الظاهري نائب الشام . وكان أصله من ممالك الظاهر جقمق ، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب ، عارفاً بأنواع الفروسية في فنون لعب الرمح والرمية بالنشاب . وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشرايخا ، ثم مقدمة ألف ، ثم نياية الشام . ومات بها . وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما حضر سيفه ، أظهر السلطان الحزن والبكاء ونأسف عليه . وكان عنده بمنزلة الأخ ، ثم أمر بإحضار أولاده وعياله إلى القاهرة . ثم رسم بنقل جثته إلى القاهرة ليُدفن في تربته التي بباب القرافة . وكان لبرقوق برو معروف . وهو الذي أنشأ القبة على ضريح العارف بالله الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضي عنه . هذا وقد عينه قايتباي في نياية الشام بعد وفاة نائبها برد بك بالجمقدار في صفر عام ٨٧٥ هـ ، وارتقى إليها في مدة وجيزة . هذا . ومما يذكر أن الأمير برقوقاً حينما كان نائباً ببلاد الشام انضم سنة ٨٧٥ هـ هو وعسكره إلى الحملة المصرية المرسلّة لتأديب الشاه سوار بقيادة الأمير يشبك الدوادار : فلما قبض يشبك على سوار . كان قد وعده بالأسان . فلما دخل عليه سوار رحب به . ثم لما هم بالانصراف أمره بالمرور على نائب الشام « برقوق » ، وكانا قد اتفقا على القبض عليه . فلما دخل على « برقوق » سأله مراراً بتهكم : من أنت ؟ . . . وهو يجيبه : أنا سوار . ثم أمر جنوده فوضعوا في يديه الحديد وفي عنقه .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٤٢ الضوء ج ٢ رقم ٤٩ ، » .

٢٧ - إينال الأشقر البجاوي ٨٧٩ هـ

قال فيه ابن إياس ما يلي : « وفيه - أي في شعبان عام ٨٧٩ هـ - توفي إينال الأشقر

البجاوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميراً جليلاً شجاعاً بطلاً . وكان ظالماً غشوماً عسوفاً كثير الإسراف على نفسه . وكان عنده كرم زائد مع اتضاع . وأصله من ممالك الظاهر جعقم . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير ، وإميرية سلاح . وغير ذلك من الوظائف . وكان فى آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جدا ، - وقد توفى فى عهد الأشرف قايتباى ، .
ابن إياس جزء ٢ ص ١٥٥ .

٢٨ جاني بك الأشقر الدوادار ٨٨٠ هـ

قال عنه ابن إياس « وفيه - أى فى شعبان سنة ٨٨٠ - توفى جاني بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان - أى قايتباى - وكان رئيساً حشماً عارفاً سيوساً - أى حسن السياسة - توجه إلى الحجاز أمير حاج غير مأمرة . وكان مقرباً عند السلطان وكان أصله من ممالك قاني باى فرفور . وانصل بخدمة جماعة من الأمراء ثم خدم الأشرف قايتباى من حين كان أمير طبلخانة إلى أن بقى سلطاناً ، فأنعم عليه السلطان بأمرية عشرة . وكان فى سعة من المال » .

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٦٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٧ » .

٣٩ - القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ٨٨٢ هـ

قال فيه ابن إياس ما ملخصه : « وفيه - أى فى ربيع الآخر عام ٨٨٢ هـ - كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاكر بن ماجد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيساً حشماً وجيهاً عند الملوك والسلاطين . وكان ذا تواضع للناس قاطبة . مشتغلاً بالعلم . ومولده فى سنة سبعين وسبعمائة . وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى . وكان وكان نادرة فى بنى الجيعان ، . - وقال فيه السخاوى إنه أكبر أشقائه الخمسة . ولد بالقاهرة ونشأ بها وتدرّب بأبيه وجده وغيرهما فى الخدمة بالمباشرة وغيرها إلى أن نهر . ثم استقر بعد أبيه فى كتابة الجيش ثم فى الخزانة . وكان براً بالفقراء والصالحين . وكان هو وإخوته أصحاب الحل والعقد فى الدولة فى حقيقة الأمر - توفى بمنزله ببركة الرطلى .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٧٤ - الضوء ج ٣ رقم ١١١٧ » .

٣٠ - الأمير جانم الشربقي ٨٨٤ هـ

من أقرباء السلطان الأشرف قايتباي ، وقد رقى إلى رتبة الإمارة بسرعة حتى بلغها وهو دون العشرين . وقد كان من قبل مملوكا في الطباقي بالقاهرة ثم خاصكيا ، فأمر عشرة ثم ناظر الجوالي ثم شاد الشرايخانة . ثم عين مقدم ألف . وتزوج بأخت زوجة سلطانه قايتباي فعظمت حرمة . وكان زفافه من الحفلات الممتازة التي شهدتها القاهرة ، زينت له الشوارع وعلقت له القناديل وأوقدت له الشموع ومشى في ركابه الأمراء الكبار ، وأمسك الأمير يشبك الدودار والأمير أزدمر الطويل حاجب الحجاب بعنان فرسه على عظمتهما .

واكسبه سرعان ما توفي في ربيع الثاني عام ٨٨٤ هـ ، ومرض قبيل وفاته وتورمت قدماه . ولما مات دفن في جنازة رائعة بسبيل المؤمنين . وحزن عليه قايتباي حزنا شديدا حتى أقام عزاءه ثلاثة أيام بالقلعة . وقيل إنه أمر النوادر بالدق واللطم عليه وهو ينظر إليهن - هذا وقد سرت إذ ذاك إشاعة مؤداها أن الأمير يشبك الدودار هو الذي دس له السم في الطعام فقتله . وقد تفاقمت هذه الإشاعة حتى خاف مغبتها ونبا به المقام في القاهرة فرضى أخيراً أن يسافر على رأس الحملة المصرية لقتال سيف أمير آل فضل فكان فيها حنقه .

هذا وقد كان الأمير جانم الشربقي جليل القدر وافر العقل جميل الصورة محبوبا من الناس . - وقد تزوجت زوجته من بعده بالأمير أقبردي الدودار سنة ٨٨٧ هـ .
« ابن إياس جزء ٢ ص ١٨٧ ، ٢١٢ الضوء اللامع ج ٣ رقم ٢٥٦ ، » .

٣١ - يشبك بن مهدى الدودار ٨٨٥ هـ

يعرف بالصغير . أصله مملوك للسلطان الظاهر جقمق ومن مشربياته . وقد رقى حتى صار دودارا في عهد السلطان قايتباي . وكان أبيض اللون مستدير الوجه أشهل العينين أشقر للحية طويل القامة مليء الجسم . شجاعا هماما مكافأ كثير الأطلاع . ولما بلغ الدودارية الكبرى زاد جاهه وعظمت مهابته ، وأصبح نافذ الكلمة في البلاد ومكان ثقة السلطان ، يستخدمه في مهام أهوره . وفي ربيع الأول من سنة ٨٧٣ هـ خلع عليه السلطان خلعة كنخلعة الأتابكي ، وأسند إليه منصب الوزارة مضافا للدودارية . ففسا يشبك على طائفة من الفقهاء والمعلمين بإذن السلطان وقطع عنهم مرتباتهم من الأتعمة ، وحاول

استرداد بعض ما أخذوه فيما مضى . ولقى عدد من هؤلاء عنتاً شديداً وجوراً وقسوة . ثم إنه سافر إلى الوجه القبلى ليطبق ثورة للعربان هناك ، فنهب بلادهم وأسر عدداً من نساءهم . فكان ذلك سبباً فى ثورتهم مرة أخرى بعد عودته . وكان يشبك إذا ما تولى أمر إنسان عليه غرم ألح فى عذابه حتى يستخلص منه المال . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله أعجب به السلطان ؛ إذ ملأ خزانته بالأموال . ولهذا ما جاء شهر شعبان سنة ٨٧٣ هـ حتى ضم إليه السلطان منصب الأستاذية فضلاً عن الدوادرية والوزارة وكشوفية الكشاف . وكان قد ضمها إليه منذ قليل . وبهذا كله أصبح ذا جاه عريض ، وعظم اسمه وعلاصيته وهيبته . وهو من القلائل الذين اجتمعت لهم أمثال هذه المناصب الرئيسية الكبرى . وهو مع ما اشتهر به من الظلم والضغط على ذرى الغرامات المالية ، كيان يقدم بعض ضروب الإحسان . فمن ذلك المغسل الذى أنشأه بالقرب من مدرسة السلطان حسن فى العام المذكور بمناسبة ما تفشى فى القاهرة من الطوابع ، فصارت الموتى تحمل إليه ، وهناك يكفنون ويخرجون ، وبدفنون على نفقته .

وفى سنة ٨٧٤ هـ خرج الأمير يشبك فى شهر المحرم إلى الوجه القبلى ليجمع غلة العام ، ثم عاد بعد قليل . ثم توجه إلى البحيرة لإخضاع بعض عربانها الثائرين ، وهم عربان لبيد ، وبعد قليل بعث إلى السلطان يطلب نجدة ، فبعث إليه بعدد من الأمراء والجنود وعلى رأسهم الأتابكى أذربك . ثم عادوا بعد قليل .

وفى هذا العام ، عام ٥٨٧ عاد الحجاج مجهودين مسكودين لقلة الماء وموت الإبل ، فبعث إليهم الأمير يشبك ب زاد وماء معونة لهم .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة ٨٧٥ هـ ، أعد السلطان تجريدة كشيعة الجند ليرسلها إلى سوار الخارج على الدولة ، والذى أغار على أملاكها الشامية والحلبية ، وهو التركانى ملك الأبلستين . وقد أسند قيادتها إلى الأمير يشبك الدوادر وعبارنه عدد من كبار الأمراء . وقد خرجت هذه التجريدة فى شوال من العام المذكور ، وقد فوض السلطان إلى يشبك أمر البلاد الحلبية والشامية . وجعل له حق التولية والعزل فى مناصبها كما يرى . وزوده بخمسمائة علامة بيضاء موقعة بإمضاء السلطان ليكتب فيها ما يشاء من الأوامر والتعيينات . فخرج ركبته حينذاك على خير ما يخرج عليه ركب أمير وقائد . وتجهل جنده وزودوا بالخيول والسلاح والخياب . وقد زاره السلطان فى وطاقه مرتين

حتى عيب عليه ذلك ١ ..

وكان الأمير « يشبك » متزوجا من خوند ابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إبنال ، فولدت له في ذى القعدة - بعد خروجه بقليل في حملته هذه - ولد اسمه منصورا . وقد توفيت هذه الزوجة في أخريات سنة ٨٨٣ هـ ثم تزوج بعد زواجه منها بزمان ، بأخت الأمير قانصوه خمسمائة .

وقد التقى الأمير « يشبك » بعدئذ بعذره سوار على نهر جيحون وكسره شركرة . ففر سوار من أمامه إلى قلعة زمنطور وتحصن بها . فقتبعه « يشبك » وحاصره أشد المحاصرة ، واستخدم المدافع في رمي هذه القلعة . — وظل السلطان يمدد بالأموال والنفقة ليتم له النصر . فلما رأى سوار عين الغلب أرسل إلى « يشبك » يفاضه في الصاح وعرض عليه أن يكون نائبا عن السلطان في قلعة درندة ، وأن يبعث بولده إلى السلطان ويبدد مفااتيح القلعة دلالة على خضوعه . فأرسل « يشبك » إلى السلطان يستشير في الأمر . فأبى السلطان إلا أن يحضر سوار بنفسه إلى القاهرة . فلما بلغ هذا الخبر سمع سوار ، خاف وعرض على الأمير « يشبك » أن يؤمنه على نفسه وأولاده ، وأن يقيم بهم بقاعة زمنطور . فبعث الأمير « يشبك » يستشير السلطان في ذلك ثانيا . ويظهر أن السلطان أبى أيضا في هذه المرة . بدليل أن الأمير « يشبك » ضيق الخناق على سوار حتى استسلم فقبض عليه . وروى خبر ذلك إلى القاهرة في المحرم سنة ٨٧٧ هـ . — وقد أمّر الأمير « يشبك » أخا سوار المسمى « شاه بضاع » مكان أخيه على إمارة الإبلستين مع خضوعه للسلطان . ثم لما استتب له الأمر وطهر البلاد من الخارجين على السلطان ، عاد إلى مصر مارا بالشام وغزة ومعه الشاه سوار مأسورا مقيدا في الحديد . وبلغ القاهرة بجنده وأسراه في الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ . وقد السلطان والأمراء والناس خير لقاء ، وزينت نواحي عدة من القاهرة . أما سوار فقد أعدم . — وهذه أول حملة خرج فيها الأمير « يشبك » .

لم يلبث الأمير « يشبك » الدود في القاهرة إلا نحو شهرين . فلما كان شهر جمادى الآخرة من نفس السنة . بلغ السلطان أخبار عن حسن الطويل المغير على أملاك الدولة وتهديده شاه بضاع أمير الإبلستين الخاضع للسلطان . فلم يجد بدا من أن يجرّد عليه حملة قوية تقدمها طليعة سبقتها بأسفر . أما الحملة نفسها فكان قدئدها الأمير « يشبك » .

خرج بحملته في الشهر نفسه وكانت أكثر من ألفي جندي . فبلغ بهم حلب . وكانت بها الشاه حسن الطويل صاحب العراقين ليطلق من بها من الأسرى نظير أن يطلق هو ماله من الأسرى . فأبى الأمير « يشبك » وعول على منازلته . وبدأ مذاوشته فاستعان حسن الطويل بأمراء الفرنجة وكاتبهم لذلك . فلم يأبه لهذا الأمير « يشبك » وزحف على البيرة ، وأجلى عنها جنود حسن الطويل بعد معركة عنيفة . فسلمت البلاد الحلبية من شرهم . ثم عاد الأمير « يشبك » بتجريدته إلى مصر . وكان وصوله إلى القاهرة في يوم من أيام رمضان سنة ٨٧٨ هـ . — وهذه ثاني حملة خرج فيها الأمير « يشبك » .

بلغ الأمير « يشبك » بعد ذلك منزلة عالية ، كان من أثرها ومن أثر تصرفاته السيئة مع بعض الناس ، أن أوغرت صدور كثيرين عليه . فلما وجد أن الظروف قد نبت به عول على الاستقالة من عمله . فعرض الأمر على السلطان في شوال من السنة نفسها ، فقبل منه السلطان استعفاه من الأستادارية والوزارة . لكنه استتمله زمنا ثم قبله بعد — وبقيت في يده الدوادارية . وقد طمع فيه بعض المماليك الجلبان فنهبوا بيته ومخازنه ، وطعموا في قتله ففر منهم إلى الجيزة . أما السلطان فإنه غضب على هؤلاء المماليك وعاقب بعضهم عقابا قاسيا . ثم هدأت هذه الفتنة بعد زمن يسير فعاد « يشبك » من مخبئه إلى القاهرة . — غير أن هؤلاء المماليك أضروا الشر « يشبك » ، فبدأ دخلت سنة ٨٧٩ هـ ، وما حان شهر ربيع الأول ، وما حانت ليلة الخميس ١٠ منه حتى ثارت ثورة المماليك الجلبان المذكورين . وقصدوا قتل هذا الأمير وهو في داره . فعلم السلطان هذا النبا فحاول قمعهم بالقوة ، ثم لاينهم ، وبعث بعضهم إلى الأمير « يشبك » لمصالحته فقبلوا يده واعتذروا له ، فرضى عنهم وزال ما في نفسه . — غير أنهم لم يكونوا مخلصين في اعتذارهم ، وشارلوا السكيد له مرة أخرى . ثم إنه كثر منافسوه والحاقدون عليه ، حتى إنه اشتد الجفاء بينه وبين خشدقدم الأحمدي الطواشي الوزير . فأعلن « يشبك » عزل نفسه من الدوادارية أيضا وأغلق بابيه . وذلك في شهر رجب عام ٨٧٩ هـ . فلما لطف به عدد من الأمراء من بينهم الأمير الكبير أربك بن ططخ الأيبكي ، حتى صعد معهم إلى القلعة للملاقة السلطان ، فطمأن خاطره وأصلح ما بينه وبين الوزير ، وقبل خشدقدم يده . ثم وقع في شعبان من العام المذكور عدا و جفاء بين الأمير « يشبك » وكاتب سر السلطان ، فشكا « يشبك » إليه فانتصف له منه بعض الانتصاف .

وفي شوال عام ٨٧٩ هـ أيضا اضطربت أحوال الشرقية بسبب عيث العربان من بني حرام وبني وائل بها . فأرسل لهم السلطان الأمير « يشبك » الدوادار ، فخرج لتأديبهم نوا . وعاد من مهمته بمسد قليل . - وكاد يخرج في حملة أعدها السلطان قايتباي لتأديب حسن الطويل ملك العراقيين لبغية على جند حذب ، وذلك في ربيع الآخر عام ٨٨٠ هـ لولا أنها أوقفت ، بسبب عودة هذا المعتدى إلى بلاده . - وفي جمادى الآخرة من العام نفسه ، سافر السلطان سفرته الثانية إلى دمياط فكان في مقدمة من صحبه الأمير « يشبك » الدوادار . - وفي رجب من العام نفسه خرج السلطان على غرة إلى زيارة بيت المقدس فكان « يشبك » من مصاحبيه أيضا في خروجه ، ثم عاد معه في شعبان . - وفي ذى القعدة من العام نفسه سافر السلطان إلى الفيوم سفره الثاني فصحبه « يشبك » مع عدد من الأمراء والجنود ، لمشاهدة الطاحون المائية والبستان اللذين أنشأهما هناك خير بك بن حديد . وفي صفر عام ٨٨١ هـ خرج الأمير « يشبك » إلى الوجه القملى لتأديب بعض الثائرين .

وفي شهر رجب من العام نفسه وقع شجار بينه وبين الأمير خير بك ابن حديد خرجت عن طور الكلام إلى الملاكمة وقد لسمه « يشبك » فأطار غطاء رأسه . وكاد يقع مالا تحمده عقباه ، لولا تدخل بعض الأمراء لفض شجارهما . ومع ذلك فقد عمرت قلوبهما هما وأتباعهما بالعداوة والبغضاء وكان لذلك أسوأ الأثر من بعد .

وفي صفر عام ٨٨٢ هـ أخذ الأمير « يشبك » في توسيع وتجميل بعض الطرقات والأسواق ، فوضع مشروعا استغرق تنفيذه زمنا طويلا . ونزعت بسببه ملكية بعض المنازل والربوع ، فتألم أهلها لما لحقهم من ظلم بسبب ذلك . ومع هذا فإن الأمير « يشبك » يشكر إقيامه بهذا العمل الجليل ، إذ فيه ما فيه من نظام وراحة وصحة .

وفي الشهر نفسه وكل إلى « يشبك » تعذيب برهان الدين النابلسي وكيل بيت المال لكثرة جوره وما سلبه من المال . وقد عذبه تعذيبا شديدا ، قيل ضربه نحو ألفين وستمائة عصا ، وخلع أضراسه ودقها في رأسه . وكانت النتيجة أنه مات بسبب هذه العقوبة .

وفي ربيع الأول من هذا العام ، سافر السلطان مرة أخرى إلى الإسكندرية ، واستصحب معه عددا من الأمراء كان منهم الأمير « يشبك » .

وفي رمضان أشيع أن السلطان - وكان إذ ذاك في حلب زائرا - مات هناك فاضطربت

القاهرة . وعلم الأمير « يشبك » أن بردبك جيش - أحد الأمراء - يدبر ثورة لمصلحة جانبك الفقيه أمير سلاح ليجعله سلطانا . فاستقدمه « يشبك » وحقق معه فأنكر ، ثم قامت عليه البينة فعذبه الأمير « يشبك » تعذيبا شديدا حتى أشرف على الهلاك ، ثم نفاه إلى الواح ، ثم نفاه السلطان بعد زمن إلى القدس ، فتوفي بعد قليل سنة ٨٨٣ هـ .

وفي أخريات عام ٨٨٢ هـ خرج الأمير « يشبك » لتأديب بعض العربان الثائرين في بلاد الصعيد ، ولإزالة الفتن الواقعة بينهم . ثم عاد في جمادى الأولى سنة ٨٨٣ هـ ، ومعه رموس الفتنة مصنفين في الأغلال . فأُنعم عليه السلطان بهدايا قيمة ، وحُكم على أسراه بالإعدام ، ومن بينهم أحمد بن عمر الهواري أحد رؤساء العربان ،

وفي رجب سنة ٨٨٣ هـ أعيد الأمير « يشبك » إلى منصب الاستدارية وعزل منه تاج الدين بن المقسى . - وكان الأمير « يشبك » ، كما رأينا ، قد عادت له منزلته وسطوته وأصبح مهيب الجانب نافذ الكلمة . وفي شوال سنة ٨٨٣ هـ في أول يوم منه خلع السلطان عليه مناصب مختلفة فصار أستاذارا ودوادارا وكشافا وبدبرا للملكة وغير ذلك مما لم يجتمع لغيره . وصار أيضاً متجدا على ثغر دمياط . ولذلك رحل في أوائل سنة ٨٨٤ هـ إليها وقام بضروب من الإصلاح في ميناها . ومد سلسلة من حديد زنتها ٢٥٠ قنطاراً ، كانت موجودة في الزمن الماضي ، لجدها « يشبك » ، فأفادت في تحصين الثغر من يعشون به من الفرنجة .

وفي ربيع الآخر سنة ٨٨٤ هـ توفي الأمير جانم الشربني صهر السلطان ، زوج أخته . فاتهم الناس الأمير « يشبك » بأنه دس له السم في الطعام . وتحفزت الممالك الجلبان للوثوب عليه وإيذائه وقله ، فأسكتهم عنه السلطان ، فسكنوا إلى حين . أما « يشبك » ، نفسه فقد أوجس خيفة ، وامتنع زمنا عن الطلوع إلى القلعة ، وقد زادت حملة الناس عليه .

ما زال الأمير « يشبك » مرموق المكانة يصحب السلطان في سفره أنا ، وبلغاه من سفره أنا آخر ، ويمدله الموائد الحافلة احتفاء به مرة ، ويعاونه مرة أخرى . ويصلح بين هذا الأمير وذاك ، ويشدد ويقسو في تعذيب بعض المتهمين الموكول أمرهم إليه . ويقيم بعض العماثر ، ويقوم بضروب من الإصلاح ، ويتعرض مرة لفضب الجلبان وسوء فعلهم .

ما زال كذلك حتى كان شهر ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ فعينه السلطان للخروج على رأس تجريدة عظيمة إلى حماة بسبب اعتداء سيف أمير آل فضل على الأمير أزدمر

نائب السلطان في حماة قتله . فكانت خروجه تلك آخر عهد القاهرة به : — وقد رغب الأمير « يشبك » إلى السلطان أن يكون على رأس هذه الحملة ليفر من الالاسنة الحادة التي كانت تلوك سهرته ، وتنسب إليه قتل جاثم الشريفي ، ليفر من بطش الجلجلمان المتحفرين إليه والمهدين له . وقد خرج ورحل من القاهرة في ربيع الثاني ، فبلغ حلب بعد الشام ، وجمع منهما جنودا عدة ، وما زال حتى اجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل . فعب بهم نهر الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، متعبا أثر سيف أمير آل فضل . وكان حاكمها بابتدر نائبا عن يعقوب بك بن حسن الطويل . فشدد الأمير « يشبك » عليها الحصار . وحاول حاكمها بابتدر أن يهدى من هذا الحصار وتعهد بإمسك الأمير سيف وتسلميه ، فرفض « يشبك » . ويظهر أنه كانت له نية في احتلال العراق . فما كان من بابتدر إلا أن برز له بعسكره ، فدارت الدائرة على الأمير « يشبك » ومن معه من الجنود ، وأسر هو وعدد من الأمراء المصاحبين له ، وقتل عدد كثيف من جنوده . فأقام في الأسر نحو ثلاثة أيام ثم جز رأسه في اليوم الرابع ، وبعث به إلى الملك يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقيين . وكان قتله في أواخر رمضان عام ٨٨٥ هـ بمدينة الرها ، وفي سن السادسة والخمسين . وقد وصلت جثته إلى القاهرة في ذي القعدة عام ٨٨٥ هـ ، ودفنت في تربته عند زاربة كمنبوش .

هكذا انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر وأصحاب المطامع الجاحدة فيه ، وذوى النفوذ والأثر في سيره . وقد رأينا في سيرته بعض سمائاته وحسناته . وهو من الأمراء الذين أغرموا بالبناء والتشييد فكانت له عدة قصور وقباب منها قبة بالمطرية ، وأخرى بالحسينية . وله مبرات عدة ، ومعاونات جملة للحجاج وغير الحجاج . ومما يروى عنه حكاية ملخصها : أنه وجد يوما شيخا يتزيا بزي فلاح ، ومعه قطة على كتفه يسير في الصباح الباكر . فتفكك معه الأمير « يشبك » وسأله عما يحمل . فقال له : بيض ، جثث لا يبيعه وأشتري بسمه خبزا لأولادي لأن معي ثلاث بنات . فرق له قلب « يشبك » . وسأله كم بيضة معه ؟ . فقال : عشرون . فأخذها منه وأعطاها عشرين ديناراً ، هذا وقد كان السلطان الأشرف جان بلاط الذي ملك في عام ٩٠٥ هـ البلاد المصرية ، أحد عماليك الأمير « يشبك » اشتراه باله ، وعلبه وأهداه إلى السلطان قايتباي .

د ابن إياس ج ٢ من ص ٩٤ إلى ٢٠٢ — وص ٣٧٠ الضوء ج ١٠ رقم ١٠٧٧ .

ملحوظة :

يوجد بدار الكتب المصرية مؤلف في تاريخ هذا الأمير وأخبار رحلته إلى آسيا الصغرى ، وهو مصور تصويراً شمسياً عن نسخة خطية بالقسطنطينية ، وتحت رقم ٢٥٩٢ تاريخ .

٣٢ - قانصوه اليحياءى ٩٠٢ هـ

قال عنه ابن إياس : أصله من مماليك السيفي جقمق . وكان لا بأس به . تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الإسكندرية ونيابة صفد ونيابة طرابلس ونيابة حلب ونيابة الشام . وجرت عليه شدائد ومحن . وأسر عند يعقوب بك بن حسن الطويل - ملك العراقيين - في كائنه يشبك الدوادار مع بابندر . ونفى إلى القدس . ثم تولى بعد ذلك نيابة الشام ، ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل الأمراء وأعظمهم قدرا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٢ »

٣٣ - أبو البقاء بن الجيعان ٩٠٢ هـ

هو أبو البقاء القاضي محمد بن يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وهو من نوابع هذه الأسرة ، ومن ظهوروا في عصر قايتباى . وعرف بالأدب وحب العلم وحلاوة اللسان وحسن السياسة وطيب المعشر . وتقلب في مناصب عديدة كاستيفاء الجيش . وقد قتله بعض أشرار المماليك غيلة ، وهو يسير إلى عمله بعد أن أدى صلاة الفجر ، ويعتبر أحد رؤساء عصره . وله منشآت عدة ، منها الراوية الحمراء وقرر بها خطبة . ومنها حوض ورباط ، وقصور ومناظر ، وحولها أرض مزروعة مخصصة كانت ملهى للناس زمنا في أيام فيضان النيل . - وقد مات مناهزا الستين . - وله مؤلفات .

« راجع باب الحركة العلمية جزء ٢ من كتابنا هذا . »

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٣ » .

٣٤ - أقبر دى الدوادار بن على باى ٩٠٤ هـ

أحد عظماء الأمراء ذوى الهمة الوثابة والعزم الماضى ، والأطلاع الحافزة . كان من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق ، وظهر أنه قريب السلطان المذكور . ومن ثم أخذ طريقه إلى عليا المناصب ورفيعات الرتب في زمن هذا السلطان بكفاءة وجدارة . فكان

أحد أقطاب سياسة عصره ومن لهم في شئون الدولة يد فعالة مدبرة موجهة . ونافس بعض ذوى الرياسة من الأمراء ، فكان الصراع بينهم عنيفا وسجالا .
ومن المناصب التى تولاها : إمرة سلاح ، والدوادرية الكبيرة ، والاستادارية والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة . وقد تزوج بأخت زوجة السلطان قايتباى ، وهى التى كانت زوجة من قبل الأمير جانم الشربى المتوفى عنها عام ٨٨٤ هـ .
فتزوجها أقبردى عام ٨٨٧ هـ .

وقد رقى إلى الدوادرية الكبرى فى عهد السلطان الأشرف قايتباى عقب وفاة يشبك ابن مهدى الدوادر عام ٨٨٥ هـ . ومنذ ذلك الحين والمنافسة بينه وبين قرنائه لا تنقضى ، والفتن لا تنتهى . وقبل ذلك وقعت فتنة فى ربيع الآخر سنة ٨٨٢ هـ بين مالميك ومالميك أزدمر نائب حلب وتقاتلوا بالرميلة زمنا ، وانضم إلى مالميك أقبردى بعض المالميك السلطانية . ثم سكنت الفتنة وهدأ القتال .

وفى شهر ذى القعدة من العام المذكور أضاف إليه السلطان منصب الوزارة وثبته فيه ، وكان من قبل منتدبا للعمل فيه فقط . وبعد قليل كاد المالميك الجلبان يسيثون إليه بسبب تأخر نفقتهم ، فاضطر إلى الامتناع عن الذهاب إلى مقر عمله بالقلعة عدة أيام . ثم قصدت جماعة منهم إلى منزله ولطفوا معه وسألوه الوساطة لدى السلطان ليقدم إليهم نفقته المقررة . وكان قد امتنع عن تقديمها أقله ما لديه من المال - فقبل « أقبردى » هذه الوساطة ، واكتسب بذلك جانباً منهم ، ولكن السلطان لم يستجب له ، فكان ذلك سبباً لا تسمع فتنة المالميك الجلبان . ثم خفت وطأتها قليلا ، إذ قدم السلطان لهم بعض النفقة . ولكنها سرعان ما نشطت ودخلتها عوامل جديدة فى أوائل عام ٨٩٢ هـ وانقسم الجلبان فرقتين فرقة مع الأمير قانصوه خسمانة ، وأخرى مع الأمير « أقبردى » الدوادر . وكان قانصوه خسمانة من منافسى « أقبردى » من الخافدين عليه . وقد أوردنا فى ترجمة قانصوه خسمانة ضروبا من النزاع بينهما .

وفى نفس العام ٨٩٢ هـ سار أقبردى إلى الوجه القبلى مرة أخرى بسبب ثورة العرب الأحامدة ، فقتل منهم مالا يحصى ، وأسر عددا من النساء والأولاد وساقهم إلى مصر حيث باعهم أرقاء ، وعذب جماعة منهم . وقد عاد بعد أن طهر منهم بلاد الصعيد . وكانت عودته فى شهر رمضان من العام المذكور . وكان قد سافر قبل جمادى الأولى .

ولما وفي النيل في عام ٨٩٣ هـ أنيب الأمير ، أقبردى ، لفتح السد من السلطان .
وقد كان أنابكيه « أذربك » غائبا عن البلاد في الحرب بالبلاد الخلبية - وهذه هي السنة
الوحيدة التي ناب فيها « أقبردى » في فتح السد .

وفي عام ٨٩٥ هـ ندب لتأديب عرب البحيرة ، فأدى مهمته وعاد في شهر جمادى
الآخرة من العام المذكور . ثم عاد إليهم بعد قليل لنفس الغرض ، لما ابت حتى
سار في شهر ذى القعدة إلى جهة نابلس لأداء بعض المهام ، ثم عاد بعد قليل . وكان قد
ذهب إليها مرة أخرى قبل هذه ومعه كاتب السر لجمع بعض الضرائب المقررة . ثم ذهب
مرة ثالثة في أوائل عام ٨٩٨ هـ .

وفي ذى الحجة عام ٨٩٦ هـ ابتدأت الفتنة بين « أقبردى » وقانصوه خمسمائة بسبب نوتى ،
واستعرت بينهما زناطويل . وفي تلك السنة حجّت زوجته وهي أخت زوجة قايتباى .
وفي ذى القعدة عام ٨٩٧ هـ ، خلع عليه السلطان وعينه في منصب الاستادارية فضلا
عن الدوادارية والوزارة .

وفي يوم العيد الأصغر عام ٩٠٠ هـ ثارت عصابة « أقبردى » من المماليك الجلبان ،
وهجموا على دار قانصوه خمسمائة ونهوا ما فيها وخرّبوها وأحرقوا جوانبها . فكان ذلك
سببا مباشرا لاشتباك الطرفين في قتال مستمر ، وكان قانصوه إذ ذاك غائبا في إقطاعه عن
القاهرة . ولما عاد علم بالواقع ، فزاد حنقه وسخطه وحقدّه ، وأضرّ هو وشيعته في
نفوسهم السكيد لأقبردى وشيعته ، فلما كان يوم الخميس أول ذى الحجة عام ٩٠٠ هـ ،
ركب قانصوه هو وجماعته أفراسهم وتقلدوا سلاحهم واجتمع جمعهم في الأربكية ،
وخيف أن تكون ثورتهم ضد السلطان . - حينئذ شط السلطان ومعه الأمير « أقبردى »
وجمعا جموعا من الأمراء والمماليك السلطانية ، فانفض كثير من المماليك السلطانية الملتفة
حول قانصوه فتخاذل واختفى . وكانت هذه نصره باهرة لأقبردى .

وما حان شهر ربيع الأول عام ٩٠١ هـ حتى ظهر « لأقبردى » عدو جديد ، وهو
الأمير قرقاس بن ولى الدين أمير أحرار ذلك ، وأخذت عداوتهم في الزيادة من ذلك
الحين . وفي شوال من نفس العام وقعت الوحشة بين أقبردى وبين صديقه جان بلاط
بسبب منصب الأخورية الكبرى ، إذ رشح جان بلاط نفسه له ، فوقف في سبيله
« أقبردى » ، وانزعه من السلطان لصديقه شادبك الخوخ . ثم ظهر قانصوه خمسمائة بعد

اختفائه ، وكان السلطان يرغب في ظهوره ، فاسترضى مقدما كثيرا من المماليك بالمال حتى لا يقابلوا قانصوه بالسوء . إذا ظهر : فكان عمله هذا نذيرا للامير د أقبردى ، فأخذ حذره من الحوادث منذ ذلك الحين . ولما ظهر قانصوه لفيه السلطان خير لقاء . فرجحت بذلك كفته على كفة د أقبردى ، واجتمع عديد من المماليك الجلبان ومن أتباع قانصوه وحاصروا د أقبردى ، وعانوا في الأرض فسادا . ولكن د أقبردى ، كان قد أعد العدة للاختفاء من داره فاقبضهما أعداؤه ونهبوا ما فيها . وقد قوى أمر قانصوه وأتباعه ، وحسم السلطان ومرض فلم يستطع كبح جماح الثائرين . ودخل في دور النزاع ، فخلعه قانصوه وولى ابنه الناصر في ذى القعدة عام ٩٠١ هـ . بعد أن حمل الأمراء والقضاة والخليفة على ذلك . فأصبح في الدولة الجديدة صاحب الحول والطول كما بينا فيما سبق .

لم يجد د أقبردى ، بدا من الرحيل عن مصر ، وقد نبا به المقام فيها . وآلت الدولة فيها إلى عدوه قانصوه . فخرج إلى غزة محتفيا . ومن غزة إلى البلاد الشامية . وبلغت أخباره أسماع الأمراء في مصر ، وكان قد أهمهم أمره . فكتبوا إليه أمانا يخدعونه به حتى يهرب إلى البلاد فيقبضوا عليه . فأرسلوا إليه أمانهم هذا بإمضاء السلطان الجديد في ربيع الثاني عام ٩٠٢ هـ . وصنعوا خدعة أخرى في القاهرة للقبض على أتباعه المختفين ، ومنهم شادبك الخوخ أمير أخور كبير . فأمنهم حتى ظهر وأخذهم قانصوه . وكان قد صار أتابكيا . وأضافهم في منزله فأنخدعوا وذهبوا إليه وهناك قبض عليهم وسبقوا إلى النيل وأغرقوا فيه .

كادت تكون سلطة قانصوه قد استتبعت بعد أن استراح من عدوه د أقبردى ، وأتباعه . ولكنه طمع في الملك فحرك لنفسه أعداء جددا كلفوه متكالفة شديدة حتى هزموه . فقد حل القضاة والخليفة على خلع الناصر والمناذاة به هو سلطانا . فظل في مأساة ثلاثة أيام . ثم هب له حال الناصر وهو قانصوه بن قانصوه وهزمه هزيمة منكرة ، اختفى على أثرها ، ونفرق عنه أتباعه .

أما د أقبردى . فإن السلطان الناصر كتب إليه يطلب منه الحضور إلى القاهرة . وتم ذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٢ هـ ، وتوجه إليه بمرسوم السلطان رسول خاص هو جاني باي . وكان د أقبردى ، مقبلا لدى أقباي نائب غزة . وقيل إن قانصوه خسمائة لما

اختفى في غزة ليقتال هناك « أقبردى » بجبهة خان يونس قربها ، وكان « أقبردى » قد خرج من غزة متجهها نحو الديار المصرية ، دهمه قانصوه خسمائة بعصا بته في الطريق ، وكاد يفتك به ، لولا أن أقباى نائب غزة سمع الخبر وعجل بنجدة وهو مزمر مع اللحاق به للسفر إلى مصر معه ، ومعهما عديد من الأمراء والجنود . فوقع بين الطرفين معركة حامية انهزم على أثرها قانصوه ، ولم يعلم له خبر من بعدها ، وقيل إنه فر ، وقيل إنه قتل أثناءها . أما « أقبردى » فقد فرح بهذا النصر والقضاء المبرم على عدوه ، وقبض على كثير من أتباعه ونسكل بهم . وقد فرح أيضا السلطان الناصر بن قايتباى لهذا النصر المفاجئ .

بلغ « أقبردى » القاهرة في يوم الأحد ١٤ رجب ٩٠٢ هـ بعد فراره منها في أخبارات العام السالف ٩٠١ هـ . فلقبته القاهرة خير لقاء . ومعه عديد من الأسرى ودرس القتل . ولم ينتض شهر رجب المذكور حتى خلع السلطان الناصر عليه لقبين كبيرين هما أمير سلاح ودرار كبير . وأصبح في يده الدواديرية الكبرى والأستادارية والوزارة وكشف الكشاف وإمرة سلاح . فبلغ بذلك كله حد التخمرة في المناصب والرتب فلم يعد لجديد منها مكان لديه وأصبح شبيها بالأمير بشبك المهدي الدواير — انظر رقم ٣١ — ووصل بذلك إلى أوج عزه ومجده .

كاد يكون « أقبردى » هادى البال ناعم القلب بما جاده الزمان . غير أن بقايا عصابة قانصوه خسمائة من عماليك وأمرام ، ادخرت له في نفسها البغض والحقد ، وعولت على الانتقام منه في أية صورة . فلم تر بأسا من أن تنضم إلى قانصوه بن قانصوه خال الملك الناصر ، وتكون حوله عصابة قرية ، ثم توغر صدره على الأمير « أقبردى » وتظهره في ثوب المنافس الذى يجب القضاء عليه . وقد نجحت فكرتهم وحياتهم ، وشعر بذلك الأمير « أقبردى » ، فأنكش في نفسه وضاق صدره ، ورأى كلمته وهي تزول رويدا رويدا ، بل أصبح يتوجس خيفة في كل آن حذر الغدر والبطش به . وهكذا انقلبت الحال ، وأصبح « أقبردى » بعوقفه هذا قريب الشبه بموقف قانصوه خسمائة من الملك الناصر وخاله قانصوه بن قانصوه — فأخذ يعد العدة ويجمع إليه الأنصار . ثم وقعت بين الطرفين موقعة قاسية في يوم السبت ٤ رمضان عام ٩٠٢ هـ انهزم فيها « أقبردى » وعصابته ، فهرب في جنح الليل إلى بلاد الصعيد وهرب مع الأمير « أقباى » نائب غزة

صديقه ، وبعد قليل بعث إليه السلطان الناصر يسترضيه ، فعاد إلى القاهرة في أخريات شهر ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ . وقد قابله عديد الأمراء والجند بالجيزة مقابلة حافلة ، وكأنما تناسوا ما كان من الجيوع ، وصفا له الزمان لحمة من لحاته . ثم هم قانصوه خال السلطان بالذهاب للقائه أثناء قدومه ، فزين له قراء السوء عاقبة هذا اللقاء وأن « أقبردى » ربما قبض عليه بالجيزة . لذلك امتنع من الذهاب . فانقسم حينئذ الجنود والأمراء فرقا ثلاثا : واحدة مع أقبردى . وواحدة مع قانصوه بن قانصوه ، وهم عصابة قانصوه خمسمائة وأعداء « أقبردى » . وفرقة مع السلطان الناصر . وكان ممن انضم إلى أعداء « أقبردى » الأمير كرتباى الأحمر ، وقبل دخوله القاهرة اعتدت طائفة من المالك على منزله ونهبوا بعض نفائسه . ثم دخل القاهرة في جمع كثير من الأمراء والجند ، وكأنه يزحف عليها لافتتاحها . - قال ابن إياس هنا ماملخصه :

« إن « أقبردى » لو أراد امتلاك القلعة في ذلك اليوم منهزما هذه الفرصة لامتلكها ولتغير له وجه الزمن العبوس » .

ولكن بعض أصدقائه أشار عليه بالنزول إلى داره أولا ، ليرى ما حدث بها ثم بعد العدة لما يبدو له عمله . فكانت فترة نزوله بمثابة ركود في حركته فرقت عنه بعض الأتباع ، وفترت من حماسة آخرين .

أصبحت القاهرة منذ دخول « أقبردى » إليها مسرحا للقتال والمناوشة بين أتباع الطرفين ، ووقع بسبب ذلك ضروب من الفوضى . غير أن كل طرف أخذ يعدد عدته لموقعة فاصلة يقضى فيها على خصمه . وأنفق الأمير « أقبردى » على أتباعه نحو مائة ألف دينار من ماله . وجمع السلاح وأجده منه الكثير . ثم وقعت الواقعة في يوم عيد النحر ، واستمر القتال واستمر أياما . ثم إن فريقا من جند « أقبردى » خانه وانفصل عنه ، ففت ذلك في عضده ، وانكسر في أخريات ذى الحجة من هذا العام « ٩٠٢ هـ » . فترك القاهرة هو وجماعة من أتباعه ويهم شطر بلاد الشام ، عابثا بما يمر به من البلدان . وكانت هذه آخر مرة يغادر فيها القاهرة ، فلم يعد إليها بعد . - ولما بلغ مدينة غزة استولى عليها ، فرأى الأمراء في مصر أن يبعثوا في إثره تجريدة تكفي أذاه عن ممتلكات الدولة . إذ أنه حارل انتزاع بلاد الشام وحاصرها نحو شهرين ، فدافع عنها أمراؤها وجندها ، ففر إلى حلب فلم يستطع الاستيلاء عليها ، على الرغم من انضمام نائبيها إليه ،

فقر ولما به وجماعتهم ما إلى «على دولات» ببلاد التركان . وقد أرسلت التجريدة لأثر ذلك ،
وتقدمها الأمير كرتباى الأحمر نائباً على بلاد الشام . وقد تبعت هذه التجريدة أثر
«أقبردى» حتى قابلته هو وعصابتة في جهة «عيقتاب» وهزمته هزيمة منكرة . فقر
«أقبردى» مغلوباً . ومن ثم عادت التجريدة إلى مصر فعاد هو إلى عبته بالبلاد الحلبية .
كل هذا وقع من «أقبردى» ، وظل الملك الناصر بمعنى بأمره ويود لو أنه عاد ليضرب
به المستبدين المتعاليين عليه مثل قانصوه خاله وكرتباى الأحمر نائب الشام وغيرهما ،
لذلك هم بالسفر إلى الشام وحلب في تجريدة بدعوى قتال «أقبردى» ، ومن ثم يضمه إلى
جانبه ويعود به إلى مصر . فكانت هذه الفكرة سبباً في فتنة سرت بلهيهما بين الأمراء ثم
سكنت قليلاً . ودُبرّت مؤامرة لاغتيال الساطن فنجحت ، وتيج عنها أن آلت السلطنة
إلى خاله قانصوه بن قانصوه . وبذلك فقد «أقبردى» كل أمل في الرجوع إلى مصر .
غير أن «أقبردى» لم تخف وطأته على بلاد حلب والشام . فرأى الأمراء أن يعيّن
نائباً للسلطان في طرابلس ، ورسم السلطان بهذا في رمضان عام ٩٠٤ هـ . وقد بلغ هذا
التقليد إلى «أقبردى» وصوّل في حلب . وأخذ يعد العدة للسفر إلى مقر نيابته طرابلس
في شوال من العام المذكور . غير أنه مالبث غير قليل . ثم توفي في ذى القعدة من العام
نفسه وهو في حلب ، بعد هذه الحياة الطويلة المليئة بضروب الكفاح والنزاع وقبل
اعتزته وهو في حلب آفة جلدية قضت عليه . فدفن في ضريح سعد الأنصارى ، ثم نقلت
جثته إلى القاهرة في أواخر صفر سنة ٩٠٥ هـ ، ودفن بترابته التي أنشأها بالصحرَاء .
وله من العمر أقل من ٥٠ سنة . وبما يذكر أن ابنة الأمير «أقبردى» ، تزوجها الأمير
طومان باى الدوادار الذى ملك البلاد بعد الغورى .

«ابن إياس ج ٢ من ص ٢١٢ إلى ٣٦٢ — ج ٣ ص ١٠٥ — الضوء ج ٢

رقم ١٠٠٢ .

٣٥ — كرتباى الأحمر بن مصطفى ٩٠٤ هـ

من أمراء عهد قايتباى ، وكان أول بروزه في المسرح السياسى والميدان العملى
في عام ٨٩٠ هـ . إذ أسند إليه السلطان المذكور عدة من الوظائف منها حجوية الحجاب
بطارابس ، ونظر جيشها . ثم انتقل إلى نيابة صفد . ثم تنقلت إليه الأيام حتى سنة ٩٠١ هـ
فاندس في الفتنة المشتعلة بين قانصوه وخمبائه وأقبردى الدوادار . وكان من أنصار

قائصوه في حوادث السنة المذكورة . وعاونوه على خلع السلطان الأشرف قابچاي وتولية ابنه الناصر محمد . ومن هنا أصبح كل منهما ذا حظ كبير وسطوة هائلة . وصار بيدهما جميع أمور السلطنة ، أما قانصوه فأصبح أتابكيا . وأما « كرتبای » فقد صار وزيراً وأستاداراً وكاشف كشف ومقدم ألف . وقد أجرى في هذه الآونة ضرباً من العدل بين الناس ولرافقة بهم . فأبطل نظارة الأوقاف لأنها كانت مصدر إرهاب وجور . وأبطل ضرباً من المكوس . وحجر على الرسل والنقباء في القضاء . — ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصف فضة ، وهكذا . — وكان تعيينه في الوزارة في شهر ذي الحجة سنة ٩٠١ هـ .

وقد اشتط « كرتبای » في تتبع أنصار أقبردى والتنكيل بهم ، فشتت شملهم في أرجاء البلاد وفرق جموعهم . وقتش رحل أقبای الطويل نائب غزة إذ ذاك وهو متوجه إلى مقر عمله ، خشاة أن يكون قد أخفى أقبردى معه . وقد قام بالفتيش بأمره وأمر قانصوه ، والى الشرطة . فلم يجدوه ، مع أنه كان محتفياً عنده . وعذب شمس الدين الفرنجى إمام أقبردى ، وهكذا .

ثم إنه اشتط أيضاً بمعاملة الملك الناصر بن قابچاي لصغر سنه وكثرة طوره وجنوحه إلى اللعب . فحجر عليه ووكل به أربعة من الخاصكية يمنعونه الاختلاط بسواه من الصبية ، ومن التصرف في الأمور . فكان ذلك سبباً في حنق الملك عليه وكرهه إياه . وأدى ذلك إلى اضطراب الأمور . فحدث قانصوه خمسائة بالسلطنة . وعاونوه وتمت بيعته وخلع الملك الناصر . غير أن ذلك لم يدم إلا نحو ثلاثة أيام ، ثم قاومهم الناصر بهمة خاله قانصوه بن قانصوه ، فتمخضوا واختفى قانصوه خمسائة بعد عراق كبير . أما « كرتبای » فإنه رحل إلى المطربة للاستيلاء على ما فيها من الخيول ، ثم فر قانصوه إلى الشام ، ووقعت بينه وبين أقبردى مناوشات أدت إلى هزيمة قانصوه وعدم العثور عليه ، فكان هذا آخر العهد به . كما بينا . أما « كرتبای » فإنه اختفى منذ ذلك الحين وخلع من مناصبه وأسندت إلى سواه . وبما زاد الطين بلة أن الأمير أقبردى كان قد عاد إلى القاهرة وعادت إليه مناصبه ، فلم يعد يثبت عيش ولا مقام في مصر للأمير « كرتبای » . غير أن الظروف دارت دورتها والتأمت عصاة قانصوه خمسائة حول خال الناصر قانصوه ابن قانصوه المناوى لأقبردى ، وعصايته ، ولما بدأ القتال بين الفريقين ظهر « كرتبای »

الأحرر وانضم إلى الشيعة قانصوه بن قانصوه ، فزادوا به قوة وتماسكا ، وهزموا أقبردى ، ففر إلى بلاد الشام . وبذلك صفا الجو مرة أخرى « كرتباى » . فأخذ في تدبيع أنصار أقبردى مرة أخرى قتلا وتشتيقا . تم كل هذا في عام ٩٠٢ هـ .

وفي المحرم عام ٩٠٣ هـ رقى « كرتباى » إلى أمير سلاح . ولكن يظهر أنه أحس بكرهه الملك الناصر له . ولم يعد هو يستطيع ردا لهذه الكراهية ، ولا بدله من الأعضاء المرير عليها . فاستقال من مناصبه . قرأى الملك أن يعينه في منصب بعيد عن مصر ، فاختار له نيابة الشام ، لكي يعد هناك العدة ويعد للتجريدة المرسله للقضاء على أقبردى . فسافر بعد قليل إلى بلاد الشام . فأبلى هناك في حرب أقبردى بلاء حسنا . وطارده هو ومن معه . ثم عاد إلى الشام فاستولى على قلعتها وطردها نائبا ونصب نفسه نائبا لها أيضا دون إذن من السلطان . فبعث إليه السلطان عتابا رسميا مع أحد رسله ، فعاد من لدنه دون طائل . فكان هذا بمثابة الخروج عن طاعة السلطان . ثم دبرت لهذا السلطان مؤامرة عاجله الموت فيها . فلم يستطع القصاص من هذا الخارج . وآلت السلطنة إلى خاله قانصوه بن قانصوه . وبينما الأمور آخذة في الاستتباب لهذا السلطان الجديد إذوافت الأخبار بموت « كرتباى » الأحرر ، وقيل حينئذ إن الملك الناصر كان قد دس عليه من وضع له السم فقتل عليه . وكان موته في ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ إلى ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ إلى ٣٣٦ ، ٣٤٠ إلى ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ » .

٣٦ — أربك الیوسفی ٩٠٤ هـ

أحد رجال عصر قايتباى . وكان أولا من ممالیک الظاهر جقمق ثم أعتق . وعرف بأربك الخازندار ، لأنه تولى منصب الخازندارية الکبرى أول حياته العملية الرسمية . ثم أخذ يسير صعودا في سلم الرقى حتى صار أميرا مقدما ، واختير لإمارة ركب الحمل عام ٨٨٧ هـ ولم تحمد سيرته . ثم عينه قايتباى رأس نوبة كبير عوضا عن تغرى بردى ططر المتوفى . وكان تعيينه في شهر ربيع الثاني عام ٨٩٤ هـ . وفي شهر صفر عام ٨٩٨ هـ ندب لتأديب الثائرين في بلاد البحيرة ، فكان على رأس تجريدة تضم عددا من أمراء العشرات والجنود ، فأدى مهمته وعاد بعد قليل .

وفي ربيع الأول عام ٨٩٩ هـ توفيت زوجته . وهي إحدى قريبات الملك الظاهر جقمق ، وكانت من قبله متزوجة بالأمير تميم المؤيدى نائب الشام .

وفي شهر صفر في يوم الاثنين أول عام ٩٠١ هـ ، رقى الأمير أربك اليوسفى إلى أمير سلاح عوضاً عن تانى بك الجمالى . وفي ذى الحجة من العام نفسه ، بعد أن آلت السلطنة إلى الناصر محمد بن قايىباى ، ظهر الأمير « أربك » منه بتقديم ألف . غير أنه في رجب عام ٩٠٢ هـ ، ساءت علاقته بالسلطان المذكور فرسم بنفيه . ويظهر أنه انضم حينئذ إلى حزب قانصوه خمسائة ، فلما انهزم واختفى اختفى أنصاره ومنهم أربك اليوسفى . ثم ظهر من اختفائه في ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ ، حينما اشتد النزاع بين أقبردى وقانصوه ابن قانصوه ، فانضم إلى هذا الأخير في جملة من انضم من عمالة قانصوه خمسائة . فلما تغلبوا على أقبردى واستتب لهم الأمر ، كان من نصيب الأمير « أربك » أن رقى إلى مقدم ألف وأعطى لقب مشير المملكة في المحرم عام ٩٠٣ هـ . غير أنه كل قد شاخ وهرم وكبرت سنه حتى أصبح لا يقوى على العمل . حتى إن السلطان الظاهر قانصوه ابن قانصوه لم يجد بداً من أن ينزع منه تقدمته ويهبها لغيره ، فأنعى بها على الأمير أزدمر ابن على باى في جمادى الأولى عام ٩٠٤ هـ . فأصبح عاطلاً دون عمل ، فلما لبث بعد هذا إلا رمضان من نفس العام ثم توفى . فصلى عليه السلطان قانصوه ودفن بمدرسته التي أنشأها . وكان ابن الجانب دمك الاخلاق ومات وقد نيف على الثمانين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ - الضو . ج ٢ رقم ٨٤٧ » .

٣٧ - أقباى الطويل ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : « وفيه - أى في جمادى الآخرة سنة ٩٠٥ هـ - جاءت الأخبار من القدس بوفاة « أقباى الطويل » الذى كان نائب غزة . ثم بقى رأس نوبة كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انكسر وخرج من مصر وآل أمره إلى أن أقام بالقدس بطالاً حتى مات . وكان أصله من ممالك الأشرف قايىباى . وقيل إنه مات مسموماً . وكان شجاعاً بطلاً ، وجرى عليه شذائد وعجن وقاسى ما لا خير فيه بسبب صحبته لأقبردى الدوادار . وهو الذى كان سبباً في نعرته على قانصوه خمسائة في الواقعة بخان يونس

الذى بقرب غزة . وهو غير أقبای الطویل الذى ظهر فى عهد الأشرف الغورى .
ملحوظة : اقرأ ترجمة أقبردى الدوادار ففیهما ذكر لأقبای الطویل .

• ابن إیاس ج ٢ ص ٣٦٣ - الضوء ج ٢ رقم ٩٩٤ •

٣٨ - الأمير تانى بك قرا ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إیاس : وفى شعبان فى يوم السبت سادسه - عام ٩٠٥ هـ - جاءت
الأخبار من القدس بقتل « الأمير تانى بك قرا » . وكان مقبلاً بالقدس . وكان من
عصبة أقبردى وفر معه . فلما استقر بالقدس توجهت المراسیم بخنقه ، غرق وهو بين
أولاده وعياله . وكانوا توجهوا إليه . وكان فله فى يوم الأحد ثانى عشر من رجب ،
ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار بوفاة أسف عليه الكثير من الناس . وكان
أميراً جليلاً رئيساً حشماً ابن الجانب قليل الأذى كثير الخير . ومن آثاره السبیل
والصهریج الذى أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم تجاه الرملة ، وصرف على ذلك
من ماله مالا له صورة ، فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبیل والصهریج للسلطان قايتباى ،
فصار ذلك يعرف بسبیل السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى أنشأه بجوار
بيته عند خوخة القردى . وكان أصله من ممالك الأشرف إينال ورقى فى دولة الأشرف
قايتباى . وتولى عدة وظائف منها : تاجر الممالك والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم
ألف ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس . ووقع له
من الشدائد والمحن ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار . وفر مع أقبردى إلى
ألبيرة وعدى الفرات . وكان موصوفاً بالفروسية والشجاعة . ومات وله من العمر زيادة
عن ستين سنة . .

• ابن إیاس ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ •

٣٩ - مصر باى الدوادار ٩٠٧ هـ

أصله من ممالك الأشرف قايتباى ، ثم أعتقه . ودفعت به الأقدار حق عين فى عهد
السلطان جان بلاط درادارا كبيراً فى جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ . ولما نار طومان باى
ضد الأشرف جان بلاط وأعلن بنفسه سلطاناً على الشام وأخذ فى الزحف على مصر ،
كان « مصر باى » الدوادار من حزب جان بلاط ، وانضم إليه وحارب فى صفوفه .

وكان نصيبه أن أزيل من فوق فرسه ، ففر ونجا بنفسه واختفى . وتم الملك للعاذل طومان باى . ثم دبر د مصر باى ، مؤامرة لاغتيال العادل وإزالته من كرسيه ، وانضم إليه الأمير قيت الرحى والأمراء خشكلى البيسى وجان بردى الغزالى وغيرهم من أعداء العادل . وكانت النتيجة خلعهم من عرشه واختيار الغورى للجلوس عليه ، فماد بذلك د مصر باى ، إلى دوا داريته الكبرى . غير أنه ما لبث أن غضب عليه السلطان الغورى فقبض عليه فى يوم الثلاثاء ١٢ محرم عام ٩٠٧ هـ . بعد مشورة الأمراء ، وقيل كان هذا القبض بدون سبب وبذلك خلع من منصبه وعين فيه سواه . ثم سجن بشعر الإسكندرية . ولكنه سرعان ما احتال حتى فر من سجنه . وقيل دس له بعض أتباعه مبردا كسر به قيده وفر ودخل القاهرة . ولعل الأمراء اشتموا منه رائحة أطماع وأهواء ، خافوا على أنفسهم مغبتها . فنصحوا للسلطان بالقبض عليه فأطاعهم . وكان ما كان من سجنه ثم فراره . فلما بلغت أخبار هـذا الفرار أسماع الأمراء اضطربوا ، وأخذوا إلى القاهرة يفجأ المنازل والمحال باحثاً عنه فلم يعثر عليه . أما د مصر باى ، فإنه جمع بعض أتباعه من المماليك ، وأراد أن يفجأ بهم عدداً من أعدائه من الأمراء ليقتلهم ، والتبس لذلك فرصة نزولهم بعد تناول الفطور مع السلطان بالقلعة ليلة الإثنين ١٢ رمضان سنة ٩٠٧ هـ . وقد انجلت حركته هذه عن تشلت أتباعه ، وعن قتله هو فى صباح الليلة المذكورة : أعنى يوم الاثنين .

د ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٥ — د ج ٤ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٦ ،

إلى ، ٢٨ .

٤ . — المقر الشهابى أحمد بن العيني ٩٠٩ هـ .

ظهر فى عهد السلطان الظاهر خشقدم . وهو من كبار الأعيان ورؤساء الأمراء . وهو حفيد السلطان خشقدم . أمه ربيعة هـذا السلطان ، وأبوه عبد الرحيم بن قاضى القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفى . توفيت أمه فى أوائل سنة ٨٦٧ هـ . وكانت لها جنازة حافلة . وفى عام ٨٦٩ هـ . عينه السلطان أميراً للحج ، وأنعم عليه بتقدمة ألف . فسافر فى أخريات العام أميراً للحمل ، ومعه الأمير بشبك الفقيه أميراً للركب الأول . وحببت معه خوند الأحمدية زوجة السلطان خشقدم . وقد كان د المقر الشهابى أحمد بن

العينى» فى هذه الحجة مثالا لأبناء الملوك وعظماء الرجال . فتمد كانت له مهابة وجلال ، وخرج بركبه فى أوجل زينة . وكان رحله محلى بأنواع الجواهر والياواقيت والذهب ، وحوله عدد من الأمراء والمباشرين . ثم عاد من مكة فى أوائل عام ٨٧٠ هـ . وفى عام ٨٧١ هـ ، خلع عليه السلطان وجعله أمير آخور كبيراً عوضاً عن لمبائى المؤيدى . ووثق به ووكل إليه كثيراً من شئنه ، حتى صار صاحب الحل والعقد فى الديار المصرية . وأنشأ حينذاك قصره العظيم المطل على البحر بملشية المهرانى — جهة القسطنطينية — فلما كملت عمارته شرفه السلطان بالزيارة فى حفل عظيم — ولما دالت دولة خشدقدم وخلفه فى الملك السلطان الظاهر بدلاى المؤيدى خلع على الأمير « أحمد بن العينى » لقب أمير مجلس عوضاً عن تمر بغا الذى صار أنابكياً ، وذلك فى أول ما كبه عام ٨٧٢ هـ فى شهر ربيع الأول . فلما ارتقى « ابن العينى » إلى هذه المرتبة تحول من منزله إلى بيت جاني بك — نائب جده — المطل على الخليج وسكن به . وسرعان ما آلت السلطنة إلى تمر بغا نفسه ، وهو الملك الظاهر أبو سعيد الظاهرى عام ٨٧٢ هـ . فى شهر جمادى الأولى . وهنا وقعت فتنة كثيرة وتولى السلطنة فى الواقع ثلاثة من السلاطين هم : تمرغا وخير بك والأنابكى قايتباى . ثم كانت الغلبة والنصرة لقايتباى . فكان لا بد له من أن يفجأ أعداءه بالقبض عليهم . وكان من بينهم « المقر الشهابى أحمد بن العينى » ، فسجن بالقلعة مقيداً ومعه خير بك الذى سلطن نفسه . ثم نقلا بعد قليل إلى مكان بالقرب من القصر الكبير بالقلعة . ثم فرض على كل منهما غرث مالى كبير . وكان نصيب « ابن العينى » . أن فرض عليه نحو مائتى ألف دينار ، خلا ما يدخره من النقائس والسلاح . — وقد بدأ بذلك نجم « ابن العينى » فى الأقول . فإنه لم يستطع أن يفي بما فُرض عليه فاستحضره السلطان قايتباى فى أحد أيام شعبان عام ٨٧٢ هـ . بين يديه فى الدهشية وأسمعه من الكلام قارصه وبطحه على الأرض وضربه بيده عشرين عصاً تقريباً حتى أدماه فأغشى عليه . وشفع فيه بعض الأمراء فتركة . وأعيد إلى طبقة الزمام ، فأقام بها أياماً ، ثم تسلمه الدوادار الكبير يشبك بن مهدى فاعقله فى داره ، حتى يؤدى ما فرض عليه من الغرم المال . وقد انهمز بعض الرعايا فرصة يؤسه ونحسه ونهبوا داره وما فيها من نقائس تقدر بنحو خمسين ألف دينار ، مع أنه رشح مرة للسلطنة . وكان فى جاه عريض وكلمة نافذة ، حتى كان يطلق عليه « زين مصر » . — ثم إنه أدى بعض ما فرض عليه من

المال وأطلق سراحه ، وقد توسط له الأمير يشبك الدوادار والتزم « ابن العيني » أن يورد كل شهر عشرين ألف دينار . ولكن سرعان ما قبض عليه ثانياً حتى يؤدي ما تبقى . فأداه . وحينئذ رضى عنه السلطان فخلع عليه وأطلق سراحه ، فلبث من ذلك الحين بلا عمل . واسكنه حسن الصلة بالسلطان مختاراً للسلامة والعافية عن الكيفاح والجلاد . فلان له السلطان وتعصب له في بعض قضاياها التي لم ينفذ الحكم فيها بعض قضاة الشرع فوبخهم وعزلهم .

واتهم « ابن العيني » فرصة ختان ابن السلطان في شهر رجب سنة ٨٩٥ هـ ، وأهدى إليه تحفة ثمينة وهي طست وإبريق من الذهب زنتهما ستانة مثقال ومعهما هدايا أخرى ، فكانت هدية من خير ما أهدى إلى السلطان . ثم تقدم « ابن العيني » في طلب طليعة الأمراء الذين احتفلوا بركب ابن السلطان فكان مسكاً بزمام جواده . وله ابن يقال « محمد بن العيني » كان ذا عظمة وجاه كأبيه ، واسكنه تونى في حياة أبيه ، فأدركه القنوطوا اختار مكة للإقامة فيها ، فسلخ فيها نحو ست سنين حتى نت سلطنة الغورى ، وحدثت بيلاد الحجاز فتنة الجازانى وذبح الأتابكى قيمت الرجبى لإطفائها ، فأمره الغورى أن يستصحب في عودته « الشهاب بن أحمد العيني » مكبلاً في الحديد ، فوجده قد مات بالمدينة بعد أن فر من وجه الجازانى . وقد ذبح بالبقيع وذلك عام ٩٠٩ هـ .

« ابن إلباس » ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ إلى ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ إلى ٩٤ ، ١٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٧٢ ، ٣٥٢ ، - ج ٤ ص ٥٧ حوادث ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ .

٤١ - علاء الدين علي بن أبي الجود ٩٠٩ هـ

من رجال عصر الغورى . قيل إن أصله سموى من الصليبية . وإن أباه كان نجاراً يقال له « المعلم حسن » . ثم تعشق صناعة الحلويات وسمى نفسه « أبا الجود » . وأقام زمناً طويلاً يبيع الحلوى بباب حمام شينخو . فلما مات خلفه ابنه على في صناعته . قيل « وكان يقبى المشبك بيده في رمضان » . ثم اتصل بالأستاذ « تغرى » دى . فاتخذة بردداراً - حافظ الثياب - ثم اتصل بالاعادل طومان باى قبل سلطنته فاتخذة أيضاً بردداراً . ثم اتصل بالأشرف الغورى قبل سلطنته فاتخذة بردداراً أيضاً . فلما آلت إليه السلطنة استبقه بردداراً كذلك ، وحظى عنده فزاد جاهه ونفذت كلمته . ثم وكل إليه هذا السلطان النظر في الأوقاف مندوباً ثم نبته

تمائيا فيه في جمادى الأولى سنة ٩٠٨ هـ ، فزادت عظمته وتشبه بالأمراء ولبس الطوق وركب الخيل واحتذى بالأخفاف والمهاميز ، حتى عد من بين رؤساء مصر . وضمت إليه وظائف أخرى منها وكالة بيت المال ثم الوزارة ، والأستادارية ، وديوان الخاص وغير ذلك . قال ابن إياس : « فاجتمعت فيه السكمة وتصرف في أمر المملكة بما يختار » . وقد قرر عليه السلطان الغورى مبالغ اثني عشر ألف دينار ينفقها شهريا على الجوامك ، ويجمعها من أبواب المظالم التي ينظر فيها . فاضطر إلى ان يعتسف الناس ويجور عليهم ويصادر منهم ليجمع ما طلب منه من المال ، واشتط في عسفه وجوره وسوء حكمه بين المتخاصمين ، حتى ساءت سمعته وكرهه الناس بعد أن كانوا يعظمونه ، ولا أدل على تعظيمهم إياه من أن القاهرة ازدانت له في ليلة ختان ابنه في ذى القعدة سنة ٩٠٧ هـ . فلما زاد ظلمه وكثرت الشكاية منه غضب عليه السلطان وقبض عليه وصادر ماله واحتجز نساءه وحاشيته . واصله إلى برداره بركات بن موسى ، ليعاقبه ويستخلص منه مالا قرر عليه ، فضرب ضرباً مبرحا وعذب . ثم نقل إلى بيت الوالى ، فقيده حتى أدى بما عليه من المال المقرر . غير أن السلطان رسم بشنقه يوم الاثنين ٢٣ المحرم سنة ٩٠٩ هـ ، فشنق على باب زويلة ، واستمر معلقاً هناك ثلاثة أيام ثم دفن . واحتاز السلطان ما وجد له من المال .

« ترجمته في ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٧ - وج ٤ ص ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٤ إلى ٤٧ ،

٥٠٠ ، ٥٥٠ » .

٤٢ — الأمير طراباى الشريفي ٩١٧ هـ

ترجم له ابن إياس فقال ما ملخصه : في يوم الجمعة ٦ المحرم سنة ٩١٧ هـ كانت وفاة الأمير « طراباى الشريفي » رأس نوبة النوب ، وكان أصله من بماليك الأشرف قايتباى ، فهو من معانيقه ، وولى من الوظائف السنية المدوادية الثانية . ثم بقى رأس نوبة النوب في دولة الأشرف جان بلاط عوضا عن قرقاس بن ولى الدين الذى ولى الأتابكية فيما بعد . وكانت وفاة الأمير « طراباى » في ليلة الجمعة ودفن صليحة يوم الجمعة . وكانت جنازته مشهودة . ونزل السلطان وصلى عليه في سبيل المؤمنين . وأخرجت قدامه كنفارة ونبت على بابه . ودقت عليه زوجته بالطارات في العزاء . وكانت مدة انتطاعه بهذا المعارض نحو شهر . وكان له بمصر جريمة وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة ، لم تقع لأحد

من الأمراء في عصرنا غيره . وقد اعتراه ورم في رجله وركبته . فرجت لموته القاهرة . وفرح بذلك غالب الناس . فإنه كان صارما عسوقا شديد البأس زائد الفسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من أنواع المظالم بالديار المصرية ، لم تقع من غيره من الأمراء فيما تقدم . وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفسده .

وكان من أول أمره في عز وذا شهامة لم ينكب مرة ولم ينف مرة . ومات في نحو السبعين . واتضح أن له أموالا طائلة وخيلا وجمالا وسلاحا ، فاستولى السلطان الغوري على ذلك كله . وكان بينه وبين الأتابكي قرقاس بن ولي الدين في الموت ثلاثة أشهر واثنا عشر يوما . أه

وقد نال الأمير « طراباي الشريف » لقب أمير أخور رابع ، في شهر ذي الحجة سنة ٩٠١ هـ ، في عهد الناصر محمد بن قايماي . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الثانية وذلك في أوائل سنة ٩٠٣ هـ . ثم إلى الدوادارية الثانية في ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ ، وفي شوال من العام المذكور ثار العرب في البحيرة وزاد عبثهم وفروا إلى المعصرة ، فأرسل إليهم السلطان قانصوه تجريدة لتأديبهم كان من بين أمرائها الأمير « طراباي الشريف » فأصيب بجرح خطير شفي منه بعد حين . ثم كان رسولا لهذا السلطان بعثه إلى الأمير طومان باي الدوادار ، وكان قد أعلن عصيانه بالجيزة في ذي القعدة من نفس العام ، فلم يلبح في وفادته . وكان عصيان طومان باي سببا في ضياع ملك قانصوه وأيلولة الملك إلى الأشرف « جان بلاط » . فعاد طومان باي عصيانه وأعلن بنفسه ملكا على بلاد الشام وتلقب بالعدل . ويظهر أن « طراباي » انضم إلى شيعته في الخفاء بدليل أن جان بلاط هم بالقبض على طراباي مرة ومنعه نحو ساعة من الخروج من القلعة ثم أطلقه .

ومع ذلك ثبت معه « الأمير طراباي » الشريف أثناء زحف العادل طومان باي على القاهرة ، إلا أنه لم يلبث إلا ريثما شعر « جان بلاط » بالهزيمة ودخل إلى دور الحریم بالقاهرة فأبطأ زمنا انتهزه الأمير « طراباي » وحمل النجاة والترس السلطانيين وهما علامة السلطنة وفر بهما إلى العادل « طومان باي » ، وأشاع أن الأشرف « جان بلاط » فر من القلعة . فكان هذا العمل من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة « جان بلاط » ونصرة « طومان باي » ، فألت إليه السلطنة فلما استتب له الملك خلع على الأمير « طراباي »

وعينه رأس نوبة كبير في رجب عام ٩٠٦ هـ. وبعد أيام رسم هذا السلطان الأمير « طراباي » بأن يحمل أعباء الأتابكية مندوبا ريثما يعين فيها أميرا آخر . فقام بهذه المهمة . ثم عاون به بعض المعاونة في الثورة التي شبت ضده وأفلحت في خلعه فألت السلطنة حينئذ إلى الأشرف الغورى .

وفي ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ سار على رأس جماعة من المماليك السلطانية لإطفاء ثوران عرب الشرقية والغربية . وظل يقوم بمثل هذه الأعمال حتى وافاه أجله ، وينسب إليه بعض الظلم والجور كما بينا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٥ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، إلى ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ - ج ٤ ص ١٧ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٥١ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ٢٠٨ » .

٤٣ — خاير بك الخازندار ٩٢٠ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤاده : « في يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير « خاير بيك الخازندار » الكبير أحد الأمراء المقدمين وصهر السلطان ، زوج أخته قديما . فأخرجت جنازته من بيته الذى عند الجامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه إلى سبيل المؤمنين ، فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته حافلة ومشيت فيها القضاة والأمراء المقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان . ودفن في تربته التى أنشأها بالصحراء . وكان أصله من مماليك الظاهر خشة دم . وكان متزوجا بأخته السلطان قانصوه الغورى من حين كان جدارا . فلما ملك الغورى أنعم عليه بإمرة عشرة . ثم عين خازندارا كبيرا ثم أمينا للسلطان على خزائن الأموال وغيرها . وأصبح ذا مشورة مرعية لدى السلطان ، وذا أثر في تدبير أمور المملكة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف فاتسج جاهه . وأصبح من أقرب المقرين لدى السلطان . ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة ، وله من المال والجمال والخيل والبغال والقماش والسلاح شيء كثير . »

« ابن إياس ج ٤ ص ٣٦٤ ، ٣٩٧ ، إلى ، ٣٩٩ » .

٤٤ — قانى باي قرا ٩٢١ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤاده : « في يوم الجمعة سادس وعشرين من هذا الشهر — ربيع الأول عام ٩٢١ هـ — كانت وفاة الأمير قانى باي قرا ، أمير آخور كبير الذى كان

باش العسكر المتوجه إلى حلب . وكان موته بغتة ، ومرض خمسة أيام فقط ؛ حتى قيل إنه مات مسموما من بعض أخصائه . وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ثم أعتقه وأعطاه خيلا وقاشا . ثم صار جامدارا فسلحدارا . ثم أمير عشرة في سنة ٨٩٨ هـ . ثم عينه نائباً في صهيون وقيل إنه سعى لهذه النيابة بمال ، وتوسط له فيها الأمير « أربك الخازندار » . ثم نقل إلى حلب فظل بها زمنا يسيرا ثم نقل إلى مصر وأنعم عليه بمقدم ألف في دولة الناصر « محمد بن قايتباى » . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الكبرى في عهد الناصر في المحرم عام ٩٠٣ هـ بعد قتل كرتباى الأحمر ، فظل في منصبه هذا حتى توفى . أى مسكك به نحواً من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميراً جليلاً في سعة من المال . ووجد له بعد موته شيء من المال كثير . ومن آثاره : جامع تجاه سوق الخيل . وجامع قريب من المهارة بجوار البركة الناصرية . وكان أسمر اللون طويل القامة وكزه المشيب . ومات وله نحو استين سنة . واشتهر بالفروسية والشجاعة ولعب الرمح حتى كان يلقب بقانى باى الرماح . ولاكنه كثيراً ما أساء إلى الناس في معاملتهم ، واتى منه أهل الشام وحلب ظالماً كثيراً حينما كان قائداً للتجريدة المرسلة إليهما . وكذلك كثيراً ما بطش بالفلاحين والعربان حينما كان يوجه إلى تأديبهم .

وأقامت له زوجته جنازة حافلة ومعزى حاراً دام ثلاثة أيام بالندب والدف . وزوجته تلك بنت الأمير « يشبك بن مهدي الدوادار . وبما يذكر أيضاً أن ابنة قانى باى تزوجت عام ٩٢٢ هـ الأمير الماس وكان أمير عشرة يوم دخوله بها . واحتفل بعمره أمراء المملكة .

« ابن لياس ج ٢ ص ٣٨٣ — ، ج ٤ من ص ٤٥٠ إلى ٤٥٣ — ، ج ٣

ص ١٠ ، ...

٤٥ - جان بردى الغزالى ٩٢٧ هـ

أحد كبار الأمراء الذين أثروا بسياساتهم وأعمالهم في مجرى التاريخ المصرى ، ووجهوه إلى نواحي خاصة ، ويعمدن أبطال عصر الأشرف الغورى . ويلخص تاريخ حياته فيما يلى : كان من ممالك الأشرف قايتباى ثم أعتق . وعين شادا في ضيعة الاستادار تغرى بردى في الشرقية ، وهى المسماة « منية غزال » فنسب إليها . ثم رقى جداراً ،

ثم كان كاشفا للشرقية منذ عصر الملك الأشرف قايتباى إلى عصر قانصوه بن قانصوه .
 وفى شعبان عام ٩٠٤ هـ غضب عليه السلطان المذكور لبعض هفواته ، وأمر بإعدامه
 لولا شفاعة بعض الناس فيه . وفى عهد الأشرف جان بلاط أنعم عليه برأس نوبة ثان
 فى شهر جمادى الأولى عام ٩٠٦ هـ ، وانضم « جان بردى الغزالى » إلى جانب هذا
 السلطان ضد مناوئيه طومان باى المتملك ببلاد الشام ، والزاحف بجنوده على مصر .
 غير أنه ما لبث حين رأى جنود العادل طومان باى يتصرفون شيئا فشيئا أن زایل
 سلطانه بالقلعة ، وانضم إلى خصمه العادل هو وآخرون ، منهم خير بك الكاشف ،
 وذلك يوم السبت ١٨ من شهر جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ . وقد انتصر العادل طومان
 باى فى النهاية ، وأصبح سلطانا على البلاد المصرية . فلما تم أمره أخذ يطهر البلاد
 من يشعر منهم بالمنافسة ، وكان فى مقدمتهم الأمير قصروه نائب الشام الذى عاونه أكبر
 معاونه فى الاستيلاء على مصر ، فقبض عليه وخنقه ثم قبض على أنصاره ، وكان منهم
 « جان بردى الغزالى » كاشف الشرقية ورأس نوبة ثان . فسجن ، ثم نفي بعد قليل إلى
 قوص . غير أنه اختفى بعد قليل ، حتى قامت قيامة بعض الأمراء على السلطان العادل
 بزعامه قيت الرجبى ومصر باى ، فى شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، فظهر « جان بردى » ،
 وانضم إلى صفوف الثوار ضد العادل فى تلك الثورة التى أودت به ، وكانت عاقبتها أيلولة
 الملك إلى الأشرف الغورى . فعين « جان بردى » فى الحسبة ، يوم السبت ٦ شوال سنة
 ٩٠٦ هـ عوضا عن قرقاس المقرئ ، ثم اختفى « جان بردى » لبعض الأسباب ، ثم ظهر ،
 ثم عين بعد زمن فى شهر جمادى الأولى عام ٩٠٧ هـ . فى حجوبة الحجاب بحلب ، فخرج
 إليها بعد زمن يسير ، ثم انتقل بعد مدة إلى نيابة صفد عام ٩١٧ هـ . وكان قد وفد على
 مصر بناء على دعوة من السلطان الغورى فى ربيع الآخر عام ٩١٦ هـ . فأقام بمصر
 أياما . وفى عام ٩١٧ هـ وقع بينه وبين الأمير سيباى نائب الشام شجار وجفاء ، فأرسل
 السلطان الغورى فى يوم الاثنين ١٦ المحرم فى ذلك العام رسولا من قبله ، من الخاصكية
 اسمه طومان باى ليسافر إلى الشام ، ويقوم بمهمة الصلح بين الأميرين . وبعد مدة انتقل
 « جان بردى الغزالى » إلى نيابة حماة عام ٩١٨ هـ ، فظل بها زمنا طويلا إلى آخر العصر .
 وفى عام ٩٢٢ هـ رحل السلطان الغورى فى جيشه الكشيف إلى البلاد الشامية والحلبية
 لملاقاة العثمانيين ، فر على حماة فقتلها بها نائبها « جان بردى الغزالى » خير لقاء وأولم

له الولائم الحافلة . ثم زحف السلطان وتلاقى بالعثمانيين ، ولم يكن « جان بردى الغزالى » أحد الأمراء اراحفين معه ، وظل فى نيابته ، وقيل إنه أظهر الهزيمة ففت ذلك فى عضد السلطان . وكانت النتيجة هزيمة السلطان وضياعه فى مرج دابق . وانضحت خيانة خاير بك نائب حلب ؛ إذ فر منهزما من تلقاء نفسه أمام العثمانيين ، ففت فى عضد الجيش المصرى . أما « جان بردى » فإنه عمل على تعويق الجنود المصريين عن عودتهم إلى مصر . ثم إنه عاد إلى مصر مع بعض العائدين بعد الهزيمة فى يوم الخميس ١٣ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، فرشحه السلطان الجديد طومان باى لنيابة الشام . ووقع بين الأمراء خلاف وشجار بشأن الوظائف . ومن ذلك ما وقع بين « جان بردى الغزالى » وبين الأمير علان الدوادر الثانى . ولا شك أن هذا الطمع وعدم القدرة على حسمه من أهم أسباب الهزيمة إذ به تفرقت القلوب .

وأخذ السلطان طومان باى فى جمع جيش جديد للملافاة العثمانيين بالشام ، واختار لقيادته الأمير « جان بردى الغزالى » . ثم تم تعيينه لنيابة الشام ، فى يوم الخميس ٢٠ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، وأطلق عليه منذ ذلك الحين لقب « ملك الأمراء » ، وهو لقب كثير إطلاقه فى أخريات العصر . وفى أوائل شوال أخذ فى أسباب الخروج بتجريدته إلى بلاد الشام ، وبعد لآى استطاع الأمير « جان بردى الغزالى » أن يخرج بهذه التجربة المفككة . ثم أخذت بقاياها تلحق به شيئا فشيئا ، وأخذ فى مضايقة العثمانيين بنواحي غزة ، ولكن تم انكسارهم أمام عدوهم فى الأحد ٢٤ ذى القعدة ، وذلك بسبب تفرق قلوب الأمراء والجنود ، وتداعبهم وتكاسلهم عن اللحاق بأمرهم حتى اضطر إلى أن يجمع عددا من العربان هناك يستعين بهم فى قتاله ، ولكنه لقي العثمانيين فى فئة قليلة ، فانهزموا هزيمة منكرة بالقرب من « بيسان » وقتل عديد من أمرائهم وجنودهم . وقيل إن « جان بردى » نفسه جرح . ونهب ما معهم . وقد سلم من الموت من عجل بالهرب والفرار ولعل هذه الهزيمة كانت جزاء من برنامج الغزالى المتفق عليه مع العثمانيين - وعاد « جان بردى الغزالى » من هذه الهزيمة النكراء ، هو وفلول جيشه ، فدخل القاهرة فى يوم الاثنين ٥ من ذى الحجة عام ٩٢٢ هـ وبعد قليل اشترك مرة أخرى فى قتال العثمانيين مع سلطانه طومان باى حيث عسكروا فى الريدانية ، فلما تمت الهزيمة أيضا على الجيوش المصرية ، هرب « جان بردى الغزالى » ومعه عدد من المماليك ، قيل إنهم

هربوا إلى مكة ، وقيل إلى غزة . ثم تبين فيما بعد أنه لما انهمز وقتما لحظت موضوعه رسمها مع السلطان سليم شاه العثماني . فكانت خطته هذه أو خيائته تلك سببا لهزيمة جيش مصر ، ولذلك سرعان ما عاد واتصل بالسلطان سليم ودخل إلى القاهرة في يوم الثلاثاء ١٨ المحرم عام ٩٢٣ هـ ، يحمل منشورا من سلطانهم بأمانه له ، ثم قابله في وطاقه ، ومنذ ذلك الحين انضم في وضع النهار إلى أعاء البلاد ومحتليها ، وأصبح شواظ نار على أهلها وسكانها .

فقد حدث أنه في يوم الإثنين ١٦ صفر عام ٩٢٣ هـ ، ثار عربان الشرقية ووقفوا في طريق العثمانيين الزاحفين يتسقطون ما معهم من جمال وخيول وسلاح وينهبونهم ويقتلون منهم ، فأرسل إليهم السلطان سليم نحو ألف وخمسمائة جندي عثماني بقيادة الأمير « جان بردى الغزالي » فعاث بهم فسادا في بلاد الشرقية ، وقتل من عربانها وأسروسي ونهب ، وباع بعد ذلك ما نهبه وما سباه من نساء وبناات حتى بيعت البنات بأربع أشرفيات . — وهكذا أصبح « جان بردى الغزالي » والأمير خاير بك الخائنان رجلا السلطان سليم اللذين ساعداه على احتلال مصر بخيائتهما . ولما استتب الأمر للعثمانيين بمصر عينه السلطان سليم ، نائبا عنه ببلاد الشام ، وجعل له حق التصرف في حماة وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والكرك ، فأصبحت في يده البلاد الشامية والطرابلسية . فخرج إليها حينما خرج السلطان سليم من مصر إلى بلاده في يوم الخميس ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ . وبقي خاير بك « ملك الأمراء » نائبا عنه في مصر . — وأصبح كل منهما يلقب بملك الأمراء .

واستقر « جان بردى الغزالي » نائبا عن السلطان سليم ببلاد الشام وأصبح له حق التصرف في شئونها . وقد طهرها من بعض العربان الثائرين بها . وخصوصا ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبتاع وغيرها بنواحي دمشق . وهو أحد المتعصبين برؤوسهم . وفي شهر صفر عام ٩٢٥ هـ ، بلغه أن الأعراب استولوا في الطريق على أموال ركب الحج الشامي في أثناء عودته من بلاد الحجاز ، ومنعوه من المسير ، فذهب « جان بردى » تورا ووقع بهم وأعاد إلى الركب غنائمه وأمواله بعد أن غنم من الأعراب الشيء الكثير . — واشتط « جان بردى » بعد ذلك في معاملة عربان بلاد الشام فجز في هذا الشهر رؤوس أربعة من كبار مشايخهم ، فكان ذلك سببا

في اضطراب جبل الأمن وهبوب الثورة عليه في جبل نابلس حينئذ من الدهر . — وقد أبلى « جان بردى الغزالي » بلاء حسنا في دفع الفرنجة العاشرين بسواحل الشام في عام ٩٢٦ هـ ، إذ قهرهم بعد أن أثنى فيهم وأسر وغنم . وأخذ في تثبيت مركزه في بلاد الشام حتى أصبح بمثابة ملك عليها . فلما آل ملك بني عثمان إلى سليمان القانوني بن سليم في عام ٩٢٦ هـ ، حدثته نفسه بالسلطنة على بلاد الشام والرحف منها على البلاد المصرية . وتوترات أخباره بمصر ، فقبل أطاعه الجند ونادوا به سلطانا على بلاد الشام وأقبوه بالأشرف وخطب باسمه على منابرها ، وضربت السكة باسمه أيضا ، وأرسل هو لخاير بك ليكون ملسكا على مصر ويبقى هو ملسكا على الشام إلى الفرات ، ليطرد العثمانيين . وأخذ خاير بك الأمراء ونائب العثمانيين بمصر يحصنها ويعد عدته ، وأرسل فأعلم السلطان سليمان بما كان من أمر « جان بردى الغزالي » ، بذلك اعتبر خارجا وعاصيا للسلطان العثماني ، وذلك في ذي القعدة عام ٩٢٦ هـ . وقيل إنه حاصر حلب محاصرة شديدة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها . ولما زاد عبثه ببلاد حلب وسواها وترتب على ذلك قطع الصلة بين الشام ومصر نحو ثلاثة شهور ، جرد عليه السلطان سليمان القانوني جيشا لإخضاعه . فتمت عليه الهزيمة في ربيع الأول عام ٩٢٧ هـ . وقبض عليه وجز رأسه وأرسل إلى استانبول . وكانت هذه هي نهاية هذا الأمير .

« ابن أبياس ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ — وج ٤ ص ٦ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٨٧ ، ٢١٠ — وج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٨ إلى ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، إلى ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ — السكواكب السائرة ١ ص ١٩٨ . »

٤٦ — خاير بك بن بلباي ٩٢٨ هـ

هو المعروف بملك الأمراء والذي اشتهر أخى قانصوه البرجي . وهو أحد عظام أمراء الجراكسة ، وقد بلغ من الجاه والمجد والسيادة حدا يقبض عليه ، وتقلبت به ظروف حياة جادة حتى بلغ بحيلته عليها ما لم يبلغه سواه ، وحتى أتى عليه حين من الدهر كان نائبا على مصر ، شديدا بالسلطان منه بالأمير ، ولكنه مع الأسف لم يسلك إلى مجده .

سليلا مشرفا ، بل استخدم أخس ضروب الحيلة ، وسلك أرباً المسالك وأحط السبل . حتى ليصبح اعتباره وصمة عار في تاريخ الجراكسة ، وثغرة ألم في تاريخ مصر . ولا بدع في هذا الوصف ، وما بالك بمن خان عهده وسلطانته وأتمته وغدر بهم جميعا غدرا لم يكونوا يتوقعونه منه ، فإنه كان لإحدى نواحيهم المأمونة فأتوا منها . وصعد على أكف هذه الخيانة والغدر في سلم الرقي والجاه والمجد الزائف حتى أشرف منه على الغاية ...

وهو جركسى الجنس . وأبوه اسمه بلباى الجركسى ، وله ثلاثة إخوة عاشوا في كنف مصر ونعيمها زمنا طويلا ، منهم خضر بك . ومنهم جان بلاط وكان مقدم ألف ، ومات مطعوناً في عهد الناصر بن قايتباى ، ومنهم قانصوه البرجى المعروف بالمحمدى ، ارتقى حتى بلغ نيابة الشام في عهد الغورى .

أما د خاير بك ، الذى نحن بصده - وهو أخوهم - فإنه كان من ممالك الأشرف قايتباى ، وعاش في الطباق زمنا . وكان من الممالك السلطانية ، ثم أعتقه سيده ، وعينه جدارا ، فخاصكيا ، ثم صار أمير عشرة في دولة الناصر بن قايتباى عام ٩٠١ هـ ، ثم أمير طبلخاناة ، ثم بعثه هذا السلطان رسولا من قبله إلى ملك العثمانيين في رجب سنة ٩٠٣ هـ . فرحب به وأكرمه ، ثم قتل الناصر ، ولا يزال د خاير بك ، لدى ملك العثمانيين . وبلغهما الخبر فاقبل ملك العثمانيين على د خاير بك ، وقسا عليه وأسمعه قارص الكلام فعاد من لدنه في ١١ شعبان عام ٩٠٤ هـ ، في عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه . ولما آل الملك إلى الأشرف جان بلاط أنعم عليه ببقعة ألف ، ثم عينه مع تجريدة تسافر إلى بلاد الشام بسبب عصيان الأمير قصرود وانضمام طومان باى إليه ، فخرج في ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . فكان نصيبه القبض عليه هناك وسجنه بقلعة دمشق مع كثير من الأمراء ، فلما تم الملك للعادل طومان باى بعث مرسوما إلى الشام بالإفراج عن د خاير بك . فبلغ القاهرة في آخريات شهر رجب عام ٩٠٦ هـ ، فأنعم عليه ببقعة ألف كما كان في عهد جان بلاط ، ولعلها ترضية له لىكسب جانبه ، ومع ذلك ثارت ثورة الأمراء على العادل وكان د خاير بك « من الثائرين معهم ، وفرعان ما آلت السلطنة إلى الأشرف الغورى بواسطة هؤلاء الأمراء ، ومنذ ذلك الحين أخذ نجم د خاير بك ، فى الصعود . ففى يوم الخميس ١٤ المحرم عام ٩٠٧ هـ ، أنعم عليه السلطان الغورى وعينه حاجب الحجاب ، وفى ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ ، سافر إلى الصعيد لتهذبة ثوران العربان هناك ،

وظل يقوم بمثل هذه المهام حتى توفي أخوه قانصوه البرجى الشهير بالمحمدى نائب الشام فترتب على موته عدة تمقلات ، ومنها انتقال الأمير «خاير بك» نائبا على حلب؛ فخرج إليها فى حفل حاشد فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٠ هـ ، فظل فى هذه النيابة أمدا طويلا ، حتى حدث النزاع بين سلطان مصر الأشرف الغورى وبين سلطان العثمانيين الملك سليم الأول ، وخرج الغورى سنة ٩٢٢ هـ ، للقاء خصمه فى الديار الشامية والحلبية ، فكان الأمير «خاير بك بن بلباى» نائب حلب قائد ميسرة الجيش المصرى ، وقد لاقى سلطانه خيرا لقاء ساعة دخوله مدينة حلب وحمل بنفسه على رأس السلطان القبة والجلالة ...

ولما التقى الجيشان فى «مرج دابق» ، وكادت الهزيمة تتم على العثمانيين ويكتسب النصر لجيش مصر ، انسёл الأمير «خاير بك» نائب حلب مظهرا الهزيمة وترك ميسرة الجيش ، فوقع الاضطراب فى الحملة كلها وأقدم العثمانيون فزقوها شذرا مندر ، وضاع الغورى ، وتمهد السبيل بذلك لغزو مصر نفسها واحتلالها ، كل ذلك بسبب ما أظهره «خاير بك» من هزيمة هى جزء من برنامج منظم متفق عليه بينه وبين العثمانيين لحيانة سلطانه وبلاده . ولما ولى منزه ما يمم شطر حماة ومهد السبيل بها وبحلب للعثمانيين . فلما ملك السلطان سليم مدينة حلب وفد عليه نائبا الجليل «خاير بك» فجعله أحد أمرائه وخلع زى الجراكسة ولبس زى التراكمة . وما أجمل ما شبهه به ابن إياس المؤرخ إذ قال : وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله ، وملك هو لاکو ، ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : أنت ما فيك خير لأستاذك ، فما يكون فيك الخير لى - وربما يقع ولخاير بك ، مثل ذلك .

ولكن - مع الأسف - كان السلطان سليم أكيس وأبعد نظرا من هو لاکو . لأنه اصطنع هذا الحادث إلى أقصى حد ، وأسبغ عليه رضاه ليحكم بوساطته بلاده ، ويكفل بقاءها فى يده . وقد كان .

وقد دخل «خاير بك» هذا مع العثمانيين وقت زحفهم على مصر . فلما تم لهم الأمر ، عينه سلطانهم سائبا نائبا عنه بمصر ، وقد تم تعيينه فى يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ . ودفع إليه خانم الملك ، وفضله على يونس باشا أحد أتباعه . فظل يحكم هذه البلاد باسم العثمانيين حتى توفي . وقد وطد دعائم الحكم العثمانى فشنق ونفى وشرذ وصادر وأخلص للعثمانيين أكثر من إخلاصه لمصر ، ولقب بملك الأمراء . وشهد عصر سليمان القانونى .

وظل يقوم في خلال نيابته برسوم الملك وما تقتضيه ظروف الحكم من احتفال بكسوة، وفتح اسد ورعاية الحفل، وإطعام لثورة، وتصريف لأمور، ومنح رتب وتواية موظفين، وغير ذلك - وقد أخذ السلطان سليم معه في عودته إلى عاصمته ابن الأمير «خاير بك» رهينة في يده حتى لا يبعث من بعده بشيء، وقد توفي بعد زمن.

وما يذكر أن «خاير بك» عرض في يوم الأحد ١٦ شوال سنة ٩٢٣ هـ، بذحية مشية المهمراني بالفسطاط سفنا محملة قمحا وشعيرا فيها نحو ثلاثين ألف أردب مرسله من مصر إلى السلطان سليم. وما يذكر أيضا أن جان بردي الغزالي الخائن الثاني وشريك «خاير بك»، والمعين نائباً على بلاد الشام من قبل العثمانيين، حدثته نفسه بعد زمن بالعصيان وأرسل إلى «خاير بك» نائب مصر، وأخبره الخبر طالباً إليه أن يتعاونوا معاً في التغلب على العثمانيين وفي أن يكون هو ملكاً على الشام، ويبقى «خاير بك» ملكاً على مصر. فما كان من «خاير بك» إلا أن بعث إلى الملك سليمان القانوني، فأعد له العدة وجرد عليه جيشاً أباده سنة ٩٢٧ هـ، كما أشرنا...

وفي شهر ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ. أصيب الأمير «خاير بك» ملك الأمراء بمرض شديد زادت شدته يوماً بعد يوم حتى فلبج رحليس بوله وغائظه لما أصابه من ورم. فلما شعر بثقل مرضه وأحس بأنه مرض الموت أعتق جميع غلمانته وجواريه وأخرج عشرة آلاف أردب من القمح تفرق على مجاوري الأزهر وغيره من المزارات وغيرهم من الفقراء. وأطلق عدداً من المساجين، وقدم ضروبا كثيرة من الإحسان تكفيرا عما جنت يده، فكان كما قال عنه ابن إياس المؤرخ: «لم يعرف الله إلا وهو تحت الحمل». وقد وافاه أجله المحتوم في يوم الأحد ١٤ من ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ بعد أن ناب في مصر عن العثمانيين خمس سنوات وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً.

وينسب إليه ابن إياس أنه كان جباراً عنيدا سفاكاً للدماء مناعاً للخير مسرعاً إلى الشر، كثير الحيلة والمكر، واستخدم الأقباط وأذل لهم المسلمين وكره العلماء وطلبة العلم. ومهما يكن من شيء فحسبه خيانة بلاده عارا ومذمة، وهو آخر الجراكسة الذين حكموا مصر.

وقد وجد له بعد موته مال كثير وجمال وخيول وأقشة وأواني، وقد بيعت ممتلكاته من بعده على يد الحكام الذين تولوا بعده موته.

ملحوظة : خاير بك هذا ، غير خاير بك بن إينال الذى اشتغل كاشفا للغربية
 زمنا ، وغير خاير بك سلطان ليلة ، د أى الذى ملك ليلة واحدة قبل الأشرف قايتباى ،
 وغير خاير بك الخازندار الذى ترجم له رقم ٤٣ فى هذا الباب . وغير خاير بك المعار .
 ابن لياس ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩١ - ج ٤ ص ٣ ،
 ١٨ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٢٣ ، ٢٠٦ ، ٢٨٥ - ج ٣ ص ٣ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ،
 ٥١ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ، ومن ص ١٣١ إلى ٣٢٢ - السكواكب
 السائرة ج ١

٤٧ — الزينى بركات بن موسى المحتسب

هو القاضى « زين الدين بركات بن موسى » الذى ظل محتسبا للقاهرة زمنا طويلا فى
 عهد السلطان الغورى وبعده فى عهد الاحتلال العثمانى ، وأصل أبيه من العرب وتسمى
 أمه عنقا ، وأول ظهوره أن كان ركابا للملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، ثم عين
 برددار لدى السلطان الغورى بعد ابن أبى الجود ، ومن ثم أخذ اسمه فى الذيوع . وقد
 وكل إليه السلطان الغورى عقاب ابن أبى الجود واستخلاص ما قرر عليه من المال . ثم
 عينه فى شعبان سنة ٩١٠ هـ ، فى حسبة القاهرة فدخل فى زمرة الأعيان والرؤساء ، وأخذ
 يجرور ويشتمط فى معاملته الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وظل سادرا فى جوره هذا حتى
 غضب عليه السلطان وعزله من الحسبة والبردارية وعن جميع الوظائف التى تولى أمرها ،
 وقيل إنها كانت ست عشرة جهة ، منها نظارة خانقاه سرياقوس ، وولاية جهات البرلس .
 وكان عزله فى رمضان سنة ٩١٤ هـ ، ثم رضى عنه السلطان نعد حين وأعادته إلى حسبة
 القاهرة فى ذى القعدة من نفسه العام . وعلا نفوذه مرة ثانية ، ثم نذبه السلطان ليقوم
 مقام الأتابكى ريثما يعين أتابكى جديد ، وذلك بعد وفاة الأتابكى قرقاس سنة ٩١٦ هـ .
 فظل مندوبا حتى عين دولات باى فى الأتابكى

ظل « الزينى بركات » متمعا برضا السلطان وبالجاه العريض حتى وقع شجار بينه وبين
 الوزير الجمالى يوسف البدرى بحضرة السلطان ، ولم يرع للسلطان حرمة ، وأخش فى
 الإساءة إلى الجمالى على مسمع من السلطان ، فحق عليه وقبض عليه وأسلمه إلى ألماس
 الدوادار لمعاقبته ومحاسبته ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ ، فاستمر فى السجن
 ثمانية أيام ، ثم أفرج عنه ورضى عنه السلطان وأعادته إلى وظيفته ، فنزل من لدنه بالقلعة

في موكب حائل وازدانت له القاهرة وأوقدت له في نواحيها الشموع والقناديل ولقيه الناس بالطبل والزغاريد .

وبعد زمن أشرك السلطان معه في بعض وظائف غير الحسبة ، رجلا آخر يسمى أحمد بن الصائغ ، كان موظفا لديه ، فلم يلبث أن وقعت بينهما منازعة في ربيع الثاني سنة ٩٢٠ هـ ، وراود ابن الصائغ المذكور السلطان بثلاثين ألف دينار ليحله محل « الزيني بركات » ، فنهزه السلطان ولم يوافقته .

وفي جمادى الأولى سنة ٩٢٠ هـ ؛ ضم إليه السلطان استمдарية الذخيرة . وفي صفر سنة ٩٢١ هـ ، استخلص منه السلطان ١٥ ألف دينار ، وقد عظم جاهه وظل كذلك حتى سنة ٩٢٢ هـ ، وحينئذ كثرت شكاية المماليك والناس منه بسبب ما جمعه منهم من الأموال المقررة واشتراطه في الجمع حتى ألحق بهم البوار ، ولاسيما أنهم كانوا في زمن ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا كان عسفه أحد أسبابه .. وطلبوا إلى السلطان عزله وتسليمه لم يقتلوه . فرضى أولا ، ثم رفض ، فزاد حنقهم . وهدده جماعة من المماليك بالقتل نفثى السلطان عليه وعزله من الحسبة وأسند إليه نظارة الذخيرة الشريفة في يوم الخميس ٩ صفر سنة ٩٢٢ هـ ، وظلت وظيفة الحسبة من بعده شاغرة إلى أواسط ربيع الأول ، ثم عين فيها « ما مای الصغير » بموك الغورى . وهكذا خرج « الزيني بركات » من حسبة القاهرة بعد أن وليها هذه المرة نحو إحدى عشرة سنة .

غير أن الغورى حينما زحف بمحلمته على البلاد الشامية والحلبية لملاقاة العثمانيين ، وخلف على البلاد الأمير طومان باى نائب غيبة ، أضاف الحسبة من جديد إلى « بركات ابن موسى » عوضا عن « ما مای » المسافرين معه في الحملة ، حتى يعود . ولم يكتف بذلك ، بل أضاف إليه وظائف عدة حتى صار مختصا بكثير من أمور السلطنة حتى يعود . فصار من ذلك الحين صاحب الحل والعقد في البلاد جميعها ، وأصبح طومان باى لا يبرم أمرا إلا بعد مشورته وعاونته معاونة جدية في أمور المملكة وضبط الأسعار منعا للغلو الفاحش ، وما زال حتى زالت دولة الغورى وآلت السلطنة إلى الأشرف طومان باى آخر ملوك الجراكسة . فبقى « زين الدين بركات » في وظيفته ، إلى أن وقعت بينه وبين الشيخ أبى السعود الجارحى حادثة عجيبة تملخص في أن القاضى « زين الدين بركات » ظلم رجلا يدعى الجلود ، فشكاه إلى الشيخ أبى السعود ، فبعث الشيخ أبو السعود إلى القاضى

« زين الدين » رسالة خاصة بهذا الرجل وأساء فيها الكلام عنه وسفهمه . فلم يعرها القاضي .
 « زين الدين » التفاته ، فما كان من الشيخ أبى السعود إلا أن استقدمه إليه . وكان من
 غفلة ابن موسى أن قدم إليه في وكره بسكوم الجارح وحوله أعوانه وأتباعه . فلما بلغه
 واجبه بجراح القول وقارص تنسيب . فحق منه القاضي وزايل مجلسه ، فما كان من
 الشيخ المذكور إلا أن أمر أتباعه بصفع القاضي على رأسه بالنعال ، فصفعوه حتى كاد
 يهلك ، وقبضوا عليه فسلبه الشيخ إلى والى القاهرة الأمير علان ، وقال له : ضعه في الحديد
 وشاور في أمره وأخبره الخبر . السلطان نفعل الأمير علان ذلك ! فرد عليه السلطان بأن
 يخبر الشيخ أن يحكم فيه حكمه ! فكان جواب الشيخ أن يشهر الناضى ثم يشقق دلى باب
 زويلة ، ففعلوا . . . ! ولكن لما هموا بشنقه عاودوا الشيخ في أمره وقالوا إن عليه مالا
 للسلطان ، فإذا شقق ضاع هذا المال . وهناعفا عنه الشيخ ابني بما عليه من المال للسلطان !
 أقول إن هذا تدخل سىء من هذا الشيخ في أمر القاضي ، وإساءة تصرف من
 السلطان ، بأن يجعل لمثل هذا الشيخ أمرا في الملك وشأنا بين الموظفين وحكما على الجناة .
 ولكن الحق أن الفوضى إذ ذاك كانت ضاربة وهذه الحادثة إحدى مظاهرها . — ولعل
 عجبتنا يزول حينما نقول إن هذا السلطان نفسه وهو طومان باى لم يتول السلطنة إلا بعد
 استشارة الشيخ الجارحى واجتماع الأمراء لديه كما بينا في الباب الخاص بوراة السلطنة
 ونظام الحكم . — ومع ذلك فقد ذكر ابن إياس أن الناس أنكبوا تدخل الشيخ في
 مثل هذه الأمور .

ظل القاضي « بركات » بعد عفو الشيخ عنه مسجوناً لدى والى القاهرة . فانتهم
 « شهاب الدين أحمد بن الصائغ » — وكان حاقدا على القاضي « بركات » منذ خصامه
 معه في عهد « الغورى » — هذه الفرصة وقدم نفسه لرافعته مبدىا أنه يستطيع أن
 يثبت عليه مائة ألف دينار إذا حاسبه . فما كان من القاضي « بركات » إلا أن ادعى هو
 أيضا أنه يستطيع أن يثبت على ابن الصائغ مائتي ألف دينار إذا حاسبه . فقبض على
 على ابن الصائغ أيضا حتى يحاسب كل منهما الآخر ! ثم — أسبهما والى معا وضرب
 القاضي عشرين عصا حتى وع . بأن ابني بما قرو عليه من المال وقدره عشرون ألف دينار .
 وضرب ابن الصائغ أكثر من أربع مائة عصا حتى أشرف على الهلاك وأشيع بين الناس
 أنه مات .

أطلق سراح القاضى «بركات» بعد قليل . ورجا السلطان أن يعيد إليه وظائفه فلم يجب له رجاءه ، وذلك فى يوم السبت ٢٠ شوال عام ٩٢٢ هـ . وهم السلطان بإعادته إلى وظائفه من بعد ، لولا أنه لم يف بكل ما فرض عليه من المال ، وأزمت السلطان حاجته إلى مال ، فعاد إلى الضغط على ابن موسى وأمثاله من فرضت عليهم غرامات ، ثم هدأت هذه الغضبة وأعادته إلى الحسبة فى أوائل عام ٩٢٣ هـ . ثم وكل إليه جهات المحلة . سم زحف العثمانيون على مصر واحتلوها وقتلوا طومان باى ساطانها . فإذا كان موقف « الزينى » ، «بركات» هنا ؟ ...

بقى القاضى « زين الدين » محتسبا للقاهرة كما كان فى عهد الجراكسة . وقد خلع عليه ملك الأمراء «خاير بك» نائب العثمانيين فى مصر ، فى شهر شعبان عام ٩٢٣ هـ وجعله مدير المملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصورى وناظر الذخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف حتى قيل إنه صار حاكم البلد الحقيقى . وكان هو الذى يركب فى موكب الاحتفال برؤيا رمضان كل عام وحوله المصائب وحملته المشاعل فى أبهة وعظمة ...

وفى يوم السبت ١٥ ربيع الأول عام ٩٢٤ هـ عين القاضى « زين الدين » أميرا لركب الحمل الشريف ، وكان من قبله لا يليه ولا يؤمر عليه إلا أمير من المقدمين . وبهذه المناسبة خلع عليه ملك الأمراء «خاير بك» خذمة ونزل من لدنه من القلعة فى موكب حافل جدا . ثم احتفل بركبه فى يوم الخميس ليلة الجمعة ١٩ رمضان من العام المذكور وكان ركبا شائقا .

وقد ضمت إليه الاستدارية فى شوال من هذا العام أيضا — وفى يوم السبت ١٨ شوال عام ٩٢٤ هـ ، خرج ركب الحمل ومعه أميره القاضى « زين الدين بركات » ابن موسى قاصدا إلى بلاد الحجاز . وقد أصيب الحجاج فى إمرته هذه بضروب من الأذى ما بين غلاء وموت « جمال » وعبث عربان قطعوا عليهم الطريق فى العودة . وقد عاونهم «خاير بك» نائب مصر بجملته من الجند بعث بهم إليهم فى الطريق . وكان وصوله بركبه إلى بركة الحاج عائدا ، فى يوم الأحد ٢٨ المحرم عام ٩٢٥ هـ . ولم يصب الركب المصرى بمثل ما أصيب به الركب الشامى . وذلك بهمة القاضى «بركات» . ولذلك شكره «خاير بك» .

وفي شهر جمادى الأولى عام ٩٢٥ هـ خرج القاضى « بركات » إلى ناحية الصعيد لجمع بعض الضرائب وعاد بعد خمسة أشهر . ولكن حدثت في غيابه ثورة على من قام مقامه ، إذ عيث بالأعمال عبثا أدى إلى غلوا الأسعار ، فهاج الناس وماجوا ورجبوا إلى ملك الأمراء أن يعين فى الحسبة رجلا خيرا بأحوالها ريشما يعود « الزينى بركات » من الصعيد . فاضطر إلى تعيين القاضى « عبد العظيم » . من هذا يمكن الاستنباط أنه كان قواما للسوق ونظاما للأسعار . وكثيرا ما تدخل فى مسألة النقد وتعديله حسب مقتضيات الأحوال .

ظل القاضى « بركات » يقوم بما تحتمه عليه وظائفه ، ويصحب النائب فى ترحله أحيانا ، ويستقبل القاصدين أحيانا أخرى ، ويقوم برسوم مختلفة تقتضيها ظروفه وعمله ، كما ترسيم على بعض المحكوم عليهم ، أو ضمان من لا شبهة فيه عنده وهكذا . وترامت عليه الوظائف والمراكز ، ومن ذلك أن قرر فى التحدث على جهات الشرقية كلها من المطرية إلى دمياط ملتزما بأن يدفع على ثلاثة أقساط مبلغ أربعمئة ألف دينار فى كل عام ، فأصبح من ذلك الحين تدفع إلى بابه ظلمات تلك الناحية ، وذلك فى يوم الخميس ١٦ شعبان عام ٩٢٨ هـ . فزاد دخله ونما ماله وعظم جاهه .

ثم مات «خاير بك» نائب مصر وتولى النيابة بعده سنان باشا التركى ، فثبت القاضى « زين الدين » فى مناصبه بعد قلق واضطراب عليها ، ولعله مات بعد قليل .

ابن إياس ج ٤ فى التواريخ المذكورة ، ج ٣

الوزارة^(١)

الوزارة بمعنى المعاونة وشد الأزر ، عرفتھا الدول الإسلامية ، منذ مطلع حياتھا وكان للخلفاء وزراء يعاونونهم في تنظيم الأمور وتدير المال وترتيب الجيوش ، ونحو ذلك من الشؤون . ولكن لم يطلق على أحدهم كلمة « وزير » إطلاقا محدودا بها باختصاصاته وديوانه . ولم تصر « الوزارة » منصبا بارزا معروفا بين مناصب الدولة إلا منذ أوائل العصر العباسي .

وأول من أطلق عليه لقب « وزير » هو : « أبو سلة حفص بن سليمان الخلال » ، وزير الخليفة السفاح ، أول خلفاء الدولة العباسية . وكان يقال لأبي سلة : وزير آل محمد . وكان الوزير حينذاك يوكل إليه - غالبا - كل شؤون الدولة ، يصرفها كيف شاء ، فيولى ويعزل ، ويبرم وينقض . فكانت منزلته لهذا ، من المهابة بمكان عظيم . وكان يختار من التائبين في الرأي والبيان والعلم .

وقد نهج هذا النهج ملوك الفاطميين في مصر ، منذ خلافة العزيز بالله ، إذ اتخذ « أبا الفرج يعقوب بن كلس » ، وزيرا له . وكان يعقوب يهوديا وأسلم . وفوض إليه العزيز جميع أمور مملكته . ودرج القواطم على هذه السنة - إلا قليلا - وأنسخ نفوذ وزراءهم ، وطعنوا في أخريات دولتهم ، حتى تلقبوا بألقاب الملوك .

واتخذ الفاطميون أحيانا ، وزراء هم من غير المسلمين ؛ ومن مسالمة القبط ، واليهود ومن الرافضة . فأبطل ذلك في الدولة الأيوبية ، إذ اتخذ الوزراء من العلماء والمنشئين . وفي مقدمة وزراء الأيوبيين منشئ مصر الكبير ، القاضي الفاضل محي الدين عبد الرحيم البيهقي .

ليست الوزارة إذن جديدة طارئة في العصر المملوكي . واقتد درجت هذه الدولة على اصطلاح منذ أول نشوئها . وجعلوا الوزارة منصبا بارزا بين مناصبها العليا . غير

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، وهو فصل ممتع في هذا الموضوع ، عدد فيه وزراء الدولة الإسلامية ووزراء العصر المملوكي حتى أيامه . وراجع كذلك صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢٨ وخطط المقريري ج ٢ تحت عنوان « ذكر دار الوزارة والكبرى » .

أن اختصاصها قد ضاق ، ومقامها قد اضمحل بالقياس إلى غابر أيامها . وذلك لإنشاء نيابة السلطنة والأتابكية وغيرهما من المناصب الرئيسية الكبرى ، ففضت هذه المناصب من مكانة الوزارة وتوزعت فيما بينها الكثير من اختصاصاتها . وأصبح أمر الوزارة مقصورا - غالبا - على الشؤون المالية وضبطها إيرادا وإنفاقا ، وفرض الضرائب التي يراها الوزير ضرورية وجبايتها ، والنظر في أمور الجيش . وللوزير معاونون أشرنا إليهم في مناصب الدولة .

وقد ينصب في الوزارة رجل بارز الشخصية ذو خطوة لدى السلطان ، فيستمد من ذلك نفوذا يوسع به اختصاصاته حتى يطفئ على سواه . ومن الأمثلة على ذلك الوزير شمس الدين بن السعلوس ، وزير الأشرف خليل بن قلاوون . فإن سلطانه أطلق يده في شئون دولته ، حتى أصبح فيها كل شيء ، وكأنه السلطان أو نائبه . وأصبح القضاء والأمراء يقفون على أعتابه ، ويمشون في ركابه .

كأنه قد يوكل إلى الوزير أحيانا - وبخاصة إذا كان من أرباب السيوف - أن يطفئ ثورة ما ، أو يقضى على فتنة . ومن الأمثلة على ذلك ، الوزير الأمير سنقر الأعسر ، فإنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، خرج في عام ٧٠٠هـ ، في عدد كبير من الممالك السلطانية لإطفاء ثورة العربان بالوجه القبلي ، ممن منعوا الخراج ، فأوقع بهم ، وأرغمهم على دفعه . واختير الوزراء في أول دولة المماليك ، من أصحاب العلم والقلم ، كما كان الشأن في عهد الأيوبيين ، ثم اختيروا من رجال السيف الأمراء .

ومما يذكر أن الناصر محمد بن قلاوون ، ألغى الوزارة في عام (٧٢٩هـ) ، ووزع اختصاصها بين ثلاثة مناصب هي : ناظر المال ومعه شاد الدواوين لتحصيل المال وصرف النفقات . وناظر الخاص - وقد استحدثت حينذاك - لتدبير الأمور العامة ، وتعيين المباشرين . وكتائب السر ، للتوقيف في دار العدل فيما كان يوقع فيه الوزير سواء من تلقاء نفسه أم بعد مشاورة السلطان .

وكان سبب إلغائها أن الأمير مغلطاي الجمالي - وكان وزيرا وأستادارا حينذاك - لم يحسن التصرف في شئونها . وكان له أيضا أعداء يكيدون له عند السلطان الناصر .

وبرهونه بضعفه في التحصيل ، ويرمون أحد معاونيه ، وهو مجد الدين بن لفيفة (١) بالاستيلاء على بعض الأموال غيلة . فألغاه ، وقصر الأمير مغلطاي على الاستدارية . ثم بعد وفاة الناصر عادت الوزارة إلى الظهور مرة أخرى . قال القلقشندي :

« واقتصرت على ما كانت عليه من التوقيع على القصص بدار العدل وغيرها » .

ومرت على الوزارة ظروف خلت فيها من شاعليها ، ومن الأمثلة لذلك ، الفترة التي تلت وفاة الوزير موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة القبطي في عام ٧٥٥ هـ ، فظلت عاطلة حتى عام ٧٥٨ هـ ، فولياها الأمير قشتمر .

هذا ، وكما نودللو اتسع المقام لاستيعاب تراجم الوزراء في هذا العصر . لكننا نقصر على من سنوردهم ، من اشترى أمرهم في الوزارة ، ذاكرين أن من بين الوزراء - والأمراء منهم بخاصة - من أوردنا ترجمته في الباب السابق ، لتقلبه - في وظائف شتى غير الوزارة . ومنهم من سيرد في باب القضاة .

ومن نوردهم هنا مرتبون حسب عصور ظهورهم ووفياتهم ، غالبا .

ونشير في هذا المقام إلى الفصل الممتع الذي عقده السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، فقد أورد فيه نبئا قيما بأسماء وزراء الدول الإسلامية ، ووزراء العصر المملوكي ، مع بيان سنوات توليتهم وعزلهم .

الوزراء

١ — هبة الله بن صاعد الفائزي ٦٥٥ هـ

هو شرف الدين أبو سعيد ، هبة الله بن صاعد الفائزي ، وينعت بالأسعد . كان وزيرا للملك المعز أيك ، فهو أول وزراء العصر المملوكي . وأصله من الأقباط . ثم أسلم . ولما تولى الوزارة أحدث ضرائب ومظالم كثيرة كان صلاح الدين الأيوبي قد أبطأها ، فنقم عليه الناس . ولما قتل المعز ، ظل « الأسعد » ، وزيرا لابنه المنصور وكان صغيرا ، ولكن نقل عنه أنه قال عن سلطانه هذا ما يشعر بعدم رضاه عنه لصغر سنه ، وأنه يود أن يملك غيره ، فقبض عليه ثم قتل ، وذلك عام ٦٥٥ هـ . ذكر المقرئ في السلوك قال :

١ — ذكر المقرئ في خطه في ترجمة مغلطاي الجمالي وقال أن اسمه المجد بن لفيفة .

« وفيها - أى سنة ٦٥٥ هـ - دخل الصارم أحر عينه الصالحى بجماعة ، فقتلوا الوزير الفائزى فى جمادى الأولى . . قال ابن واصل حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا ، قال :

دخلت على شرف الدين الفائزى وهو معتقل ، فسألتنى أن أتحدث فى إطلاقه ، بحكم أن يحمل فى كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك ؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام السنة ، وللى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى . فلم يلتفت بماليك المعزلى ذلك ، وعجلوا بهلاكه وخنقوه . وحمل إلى القرافة ودفن بها .

وقد ولى الوزارة بعده القاضى بدر الدين السنجارى ثم القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ، ونذكرهما فى باب القضاة . ثم الصاحب يعقوب بن الزبير الآبى .

« ابن لياس ج ١ ص ٩٣ - السلوك ج ١ ص ٣٧٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ - حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر وزراء مصر . »

٢ - زين الدين يعقوب بن الزبير ٦٦٨ هـ

هو الصاحب يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير . ولى الوزارة فى ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ فى أول عهد الملك المظفر قطز ، بعد عزل القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز . وقد ظل « زين الدين » فى الوزارة حتى عزله الظاهر بيبرس فى ربيع الآخر سنة ٦٥٩ هـ ، وقبض عليه . ولى الوزارة بعده بهاء الدين بن حنا . وذكر ابن لياس أن ابن الزبير ولى الوزارة بعد الفائزى مباشرة .

وكانت بين الوزير « زين الدين يعقوب » وبين بنى حنا عداوة . وعنه سلبوا الوزارة . قال المقرئى فى خططه ما نصه : « ومن غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير ، الذى كان بنو حنا يعادونه وعنه أخذوا الوزارة ، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستائه ، بالسجن ، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء ، ولم يشيع جنازته أحد من الناس ، مراعاة للصاحب ابن حنا . وكان نحر الدين هذا - أى ابن حنا المذكور - يتزه فى أيام الربيع بمنية القائد ، وقد نصبت له الخيام ، وأقيمت المطابخ ، وبين يديه المطربون . فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير ، وأنه أخرج إلى المقابر ، من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس . فسر بذلك ولم يتمالك نفسه ، وأمر المطربين

فغنوه ، ثم قام على رجلبيه ورأس هو وسائر من حضر ، وأظهر من الفرح والخلاعة ما خرج به عن الحد . وخلع على البشير بموت المذكور خلعا سنينة . . . فلم يمس على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر ، ومات في حادى عشر شعبان من السنة المذكورة . ففجع به أبوه (١) .

« خطط ج ٤ ص ٩٠ تحت « جامع دير الطين » - سلوك ج ١ ص ٤١٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٧ » - ابن إلياس ج ١ ص ٩٣ .

٣ - بهاء الدين بن حنا المصرى ٦٧٧ هـ

هو « صاحب بهاء الدين » أبو الحسن ، واسمه على بن سديد الدين محمد بن سليم . وهو أحد رجال الدهر حزما ودرما ، ورأيا ودهاء ، وخبرة وتصرفا . وقد تقلب في كتابة الدواوين زمنا ، حتى بلغ منصب الوزارة . وذلك في عهد الظاهر بيبرس يوم ٨ ربيع الأول عام ٦٥٩ هـ ، بعد القبض على « صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير » . وقد وزر من بعده لابنه الملك السعيد كذلك .

ولما وزر لبيبرس ، فوض إليه تدبير المملكة ، فقام بأعبائها بمهارة وحسنة وعدالة مع سعة صدر وعفة وذكاء . وكان بيبرس يثق فيه ثقة مطلقة ويعظمه . وقد حاول بعض الأمراء أن يوقع بينهما ليقصيه عن الوزارة فلم يفلح . وقد جهد في جمع الأموال للظاهر ، واستحداث الضرائب ، واشتط في معاقبة المتأخرين في دفعها . حتى مات بعضهم من العقوبة .

و « بهاء الدين » رأس أسرة مجيدة ، خدم كثير من أفرادها الدولة ردحا من الزمان . وكانوا أهل ثروة وجاه وكرم ، وأدب وعلم ودين . وكان له ولدان هما « صاحب نحر الدين » ، و « صاحب زين الدين » ، فرزى بهما ، فعوضه الله خيراني أبنائهما . وما منهم إلا عالم فاضل ورئيس كامل .

وكان « بهاء الدين » حريصا على أصدقائه ، معوانا لهم ، كريما سمح اليدين يقصده الشعراء بالمديح أحياء ، فينالون من عطائه الجزيل ، ومن مدحه الرشيد الفارقي قال :

١ - « صاحب نحر الدين بن حنا هذا : هو والد « صاحب تاج الدين » الآتى ذكره في الوزراء كذلك ، وقد روى أن نحر الدين نائب عن والده في الوزارة زمنا . وترجمته في الخطط ج ٤ ص ٩٠ تحت جامع دير الطين .

وقائل قال لى نبه لنا عمرا فقلت : إن عليا قد نبه لى
مالى إذا كنت محتاجا إلى عمر من حاجة فليتم حسبي انتباه على
ومدحه سعد الدين بن مروان الفاروق فتال :

يحم عليا فهو بحر الندى وزاده فى المضلع المعضل
غرفته بحر على مجذب ووفده مفض إلى مفضل
يسرع لمن سيل نداء وهل أسرع من سيل أتى من عل
وكان يستعين على تسمير ماله وتكثيره بالتجارة فاستعين بذلك على جزالة العطاء .
وقد قام بإصلاحات وإنشاءات عدة . فسهر على بناء جامع الظاهر بالحسينية ، وهو
الذى أتم بناؤه عام ٦٦٧ هـ . وأنشأ مدرسة لنفسه عام ٦٥٤ هـ ، بزقاق القناديل بمصر
- مصر القديمة - .

وقد ولد بمصر أرباعاً ٦٠٣ هـ ، وتوفى فى ليلة الجمعة مستهل ذى الحجة عام ٦٧٧ هـ
- وقيل فى ذى القعدة - ودفن بترابته بقرافة مصر .

وقد ولى الوزارة بعده القاضى برهان الدين الحضر السنجارى ، ونذكره فى باب
القضاة . ثم وليها بعده نحر الدين بن لقمان المنشىء ، ثم نجم الدين الأصفونى . ثم الأمير
علم الدين الشجاعى ، وهو الآتى .

« خطط ج ٤ ص ٩٢ ، ٢٠٣ - قوات الوفيات ج ٢ ص ٩٥ - سلوك ج ١ ص
٤٤٧ ، ٦٥١ . »

٤ — علم الدين سنجر الشجاعى ٦٩٣ هـ

أصله من ممالك المنصور قلاوون ، ثم أعقب . ولما آلت السلطنة إلى المنصور
أنعم على طائفة من ممالكه بإمرات وتقادم ، ومنهم « سنجر الشجاعى » ، فأصبح مقدم
ألف ، عام ٦٧٨ هـ .

ولما خرج المنصور إلى حلب لرد التتار والفرنجية ، استخلف على البلاد ابنه الملك
الصالح ، وأقام معه الأمير « سنجر الشجاعى » لاستخراج الأموال وتدير شئون المملكة ،
وذلك عام ٦٧٩ هـ فكان بمثابة وزير له ، وبعد هذا العام استخدمه السلطان فى أمور
شتى ، وظل مدبراً للمملكة ، حتى كانت سنة ٦٨٢ هـ ، فابتنى السلطان مستشفى المشهور ،
وبجانبه قبة ومدرسته بجهة بين القصرين بالقاهرة . وقد عهد بعمارة البناء إلى الأمير

« سنجر الشجاعى » ، فقام بما عهد لآليه خير قيام .

فلما كانت سنة ٦٨٥ هـ غضب السلطان على مملوكه « سنجر » وقبض عليه وصادر ماله وعذبه وخلعه من الوزارة ، وولى فيها مكانه مملوكا يدرا . ويبدو لنا أنه عاد فرضى عنه ، إذ روى المقرئى فى سلوكه ، ما يفهم منه أن السلطان المنصور استخدمه عام ٦٨٦ هـ لبعض شئون مملكته وأطلق عليه لقب « مدبر الدولة » .

وقد أبان المقرئى فى سلوكه سبب غضب السلطان على الأمير « سنجر » ، وذلك أنه باع للفرنجية من سلاح السلطان ورماحه وذخائره شيئا كثيرا . فسعى بعض المطلعين على جلية الأمر إلى السلطان فأخبره فغضب . وقد احتج « الشجاعى » بأنه باع العتيق من السلاح بما لا يصلح ، وبأنه إنما باعه إشعارا للفرنجية أن لدى السلطان من السلاح شيئا كثيرا ، حتى إنه يستطيع الاستغناء عن بعضه ... ١ ولكن قيل له : إن الفرنجية ربما فسرت هذا بحاجة السلطان إلى المال ... ١

ومهما يكن من شيء فقد عزل « الشجاعى » من الوزارة فى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٦٧٨ هـ ، وأعل هذه العزلة والغضبة معاهما اللتان أشار إليهما ابن إياس فيما سبق ، وأنهما كانتا عام ٦٨٥ هـ .

سجن « الشجاعى » حتى ٩ ربيع الآخر عام ٦٨٧ هـ ، ثم أطلق بعد أن أخذ منه خمسة وستون ألف دينار ، سوى ما صودر من ممتلكاته . ثم عين متحدثا فى الأموال بدمشق بجار على الناس ، حتى فر منه بعضهم .

ولما آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، أعاد الشجاعى إلى الوزارة فى أول سلطنته ، فبدأ عمله بأن قام بمصادرة أموال الأمير طرناى نائب السلطنة ، الذى قتل بأمر الأشرف خليل ، وقبض على نسائه وجواريه وحاشيته وعذبهن ، واستخلص منهم أموالا طائلة . فعظم شأن « الشجاعى » ، حتى نذبه السلطان لأعمال نيابة السلطنة ريثما يختار لها أميرا . ولم يكتب له تسليم بالوزارة أو النيابة ، فظل حتى عين الأمير « يدرا » نائبا ، واقصر أمره هو على الوزارة .

ثم استقدم الأشرف خليل صديقه ، وصفيه شمس الدين بن السعلوس من مكة ، فقدم فى أوائل عام ٦٩٠ هـ . فأسند إليه الوزارة ، وعزل منها « الشجاعى » . ومع ذلك أخذ « الشجاعى » ، بعد قليل ، يعود إلى الاشتراك فى شئون الدولة .

فاشترك مع السلطان في حصار عكا ، ثم ولى نائباً على دمشق ، وزيد في راتبه وإقطاعه واختصاصه ، وقام هناك بجملة أعمال حربية باهرة . ثم عزل من نيابة دمشق في ٦ شوال عام ٦٩١ هـ فتألم لذلك .

قتل الأشرف بعد حين ، وولى السلطنة أخوه الناصر محمد ، وكان صغير السن ، فاختر لوزارته الأمير « علم الدين سنجر الشجاعى » مرة جديدة ، في المحرم سنة ٦٩٣ هـ . ولكنه أخذ يستبد ، مخدوعاً بصغر سن السلطان ، وعاقب ابن السعلوس وزير الأشرف خليل ، وأخذ في تدبير مؤامرة لخلع السلطان والسكيد لكبار الأمراء ومنهم الأمير كتيبة المنصورى . وجمع بعض أتباعه ليغضبهم أعداءه ، فلم تفلح مؤامراته ، وهزم وفر . ثم طلب الأمان فلم يؤمنوه . فدخل على السلطان الناصر في دور الحرم ، وأغلظ له في القول . فعرض عليه السلطان أن يكون نائباً في حلب — وقيل في قلعة الشام — فرفض ، وأحس غلبان السلطان منه الشر ، فأمسكوه وقيدوه ، وأرسلوه إلى البرج بالقلعة . ليسجن . فلقبه به بعض أعدائه من المماليك البرجية ، فقتلوه وجزوا رأسه ، وبعثوا به إلى الأمير كتيبة .

بذلك انطفأت فتنته ، وتشتت أنصاره ، وختمت حياته . وطيف برأسه بالقاهرة . ومثل به شر تمثيل ، وكانت قتله في صفر عام ٩٦٣ هـ .

ونشير هنا إلى أن « الشجاعى » لما عزل من الوزارة في عهد قلاوون ، وإليه الأدب بيدرا . ثم صار بيدرا نائب سلطنة ، وقد مرت ترجمته في نوابها .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، إلى ١٣٢ » ، ١٧٤ — السلوك ج ١ ،

٥ — شمس الدين بن السعلوس (١) التتوخى ٦٩٣ هـ

هو القاضى والصاحب ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن أبي الرجا ابن السعلوس التتوخى . قيل : إنه كان تاجراً في دمشق ، وولى الحسبة بها زمناً ، منذ رمضان عام ٦٨٧ هـ . ثم وفد على مصر في بعض السنين . وكان يكتب خطاً جيداً ، فاستطاع الاتصال بالأشرف خليل ، وهو أمير في عهد سلطنة أبيه المنصور قلاوون ، فاتخذة ناظراً لديوانه . وكان يقوم له ببعض الأعمال التجارية في البلاد الشامية ، فيرجع من

١ — هكذا في ابن إياس وضبط في السلوك « السعلوس » بتقديم اللام على العين وفتح السين .

ورائها الكثير من المال . لذلك ازداد قربا من الأشرف وأصبح محبوبا عنده ، وعلمت منزلته لديه ، حتى صار كاستشار خاص له في جميع أعماله وتصرفاته . تخاف منه المنصور على ولده ، وخشى أن يكون ذا أثر سيء فيه ، ووشى به لإليه الأمير طر نظامي ، فضربه المنصور ونفاه إلى مكة ، فأقام بها حتى توفي المنصور .

آلت السلطنة حينذاك إلى الأشرف خليل ، فرسم توا « لابن السعلوس » بالعودة إلى مصر . وكتب إليه بخطه على مرسومه يقول : « يا شقيق ، جد السير جاء الخير » (١) . عاد القاضي « شمس الدين بن السعلوس » إلى مصر في ١٣ المحرم عام ٦٩٠ هـ . وقيل في السلوك : في عاشوراء - فأُسندت إليه الوزارة ، وفوضت إليه شئون المملكة ، فعملت مهابته وهيبته سطوته ونفذت كلمته . وأصبح يسير في ركابه الأمراء والموظفون والمماليك ، بل والقضاة الشرعيون . فإذا اجتمعوا بيابه يدخل عليه حاجبه ويقول : « أعز الله مولانا صاحب قدا كتمل الموكب » فيخرج للركوب من داره أو إليها .

واتسعت أعمال الوزارة في عهده ، حتى طغت على نيابة السلطنة نفسها ، وحتى كانت الظلامات المرفوعة إلى السلطان تقرأ على الوزير ويمضى فيها أمره بغير مشورة السلطان . غير أن « ابن السعلوس » كان سريعا إلى السوء والدس ، فأفسد ما بين نفسه وبين كثيرين من رجال المملكة ، كالأمير بيدرا والقاضي تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز (٢) . ونسب إلى هذا القاضي الكفر ، فدفع إلى السجن بسبب ذلك ، واثبت يكيد له حتى اتضحت براءته فأطلق .

وقد أساء ابن السعلوس — بلاريب — إلى نفسه وإلى مملكته بهذه التصرفات الخرقاء ، حتى جلب للملك الأذى . وذلك أن السلطان الأشرف خليلا ، أراد في عام ٦٩٣ هـ الرحيل إلى الاسكندرية . فسبقه إليها وزيره هذا ليمهد لاستقباله بها . فاختلف هناك مع غلبان نائب السلطنة حينذاك وهو الأمير بيدرا — وكان بينهما حقد خفي — وبعث بتفاصيل الخلاف إلى سلطانه فأضمر هذا الشر الأمير بيدرا واستقدمه بين يديه ووجهه وهم بالقبض عليه ، فترفق به بيدرا ، ورق أمامه حتى أطلقه ، ثم أخذ بعد إطلاقه يدبر مؤامرة لاعتقال هذا السلطان ، وقد نجحت مؤامره ، وقتل الأشرف

١ — وفي السلوك أنه كتب « يا شقيق ، بأوجه الخير ، عجل السير ، فقد ملكنا »

٢ — فصلنا ما وقع بين السعلوس وبين القاضي تقي الدين في ترجمته في باب القضاة .

وزالت دولته في العام المذكور .

ومن غريب ما روى عن « ابن السعلوس » أن خبر مقتل سلطانه وافاه وهو بالإسكندرية ، فعاد إلى القاهرة ، واستأنف نشاطه السابق وركب من داره إلى ديوانه بالقلعة ، وهو على عادته من الزهو والكبر ، غير عابٍ بما جرى ولا متخذ لنفسه الحيلة . فعجب الناس منه وقال له أحد خاصته : « الرأي أن تختفي حتى تسكن الفتنة » . فقال : « هذا لا نفعله ولا نرضاه لعامل من عمالنا ، فكيف نختاره لأنفسنا ؟ »

ثم آلت السلطنة إلى أخى المتوفى ، وهو الناصر محمد ، فاختار لوزارته الأمير سنجر الشجاعى . فسرعان ما جهد في القبض على « ابن السعلوس » وأسلمه إلى أحد الخاقدين عليه ، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى شاد الصحنه . فطالبه بأموال وضربه في مرة ألف عصا ومائة ، وعاقبه وعذبه . ثم تناوله رجل آخر فعذبه كذلك واستخلص منه مالا كثيرا . وما زال حتى مات . وكان موته في يوم الأحد ١٥ صفر عام ٦٩٣ هـ . قيل : ضرب بعد موته ثلاث عشرة مفرقة . . ودفن بالقرافة واستحوذ الشجاعى على ماله وأذى أولاده ونسائه وحاشيته . وزال بذلك كله عزه وجاهه ، بعد ما لقي ضروبا من الهوان والذلة .

وما يذكر أن الأمير سنقر الأعسر — الذى ولى الوزارة بعد حين — تزوج بنت الوزير ابن السعلوس في جمادى الأولى عام ٦٩١ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، إلى ١٣٠ — السلوك ج ١ » .

٦ — تاج الدين بن حنّا ٧٠٧ هـ

هو صاحب تاج الدين بن صاحب نحر الدين بن صاحب بهاء الدين بن حنا واسمه محمد بن محمد بن علي محمد بن سليم . وقد مر ذكر جده بهاء الدين . ونوهنا بأبيه في ترجمة صاحب يعقوب .

وهو فرع من تلك الأسرة المصرية المجيدة — أسرة ابن حنا — . قال المقرئى عنه في الخطط : « وانتهت إليه رياسة عصره ، وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم وشاكلة حسنة وبزة فاخرة إلى الغاية . وكان يتناهى في المطاعم والملابس والمناكح . ويجود بالصدقات الكثيرة مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح والمبالغة في اعتقادهم . ونال في الدنيا من العز والجاه ما لم يره جده صاحب الكبير بهاء الدين » .

وكان « تاج الدين » حسن الترتيب في منزله منظما بحيث تقضى له مآربه ومآرب ضيوفه دون أن يتكلف إشارة ما ، وكان كريما يقصده الشعراء فيجزل لهم العطاء . مدحه الشهاب محمود والسراج الوراق وابن دانيال .

وقد تقلد « تاج الدين » الوزارة بعد مقتل الوزير سنجر الشجاعى ، وذلك في صفر عام ٦٩٣ هـ . فلبث بها أكثر من عام إلى جمادى الأولى عام ٦٩٤ هـ ، ولم يوفق في أعمالها ، فصرف عنها . وولاهها من بعده نحر الدين عثمان بن الخليل ، قال المقرئى في الخطط : « لما تقلد الوزير صاحب نحر الدين بن الخليل الوزارة سار من قذمة الجبل وعليه تشریف الوزارة إلى بيت الصاحب تاج الدين ، وقبل يده وجلس بين يديه ، ثم انصرف إلى داره » .

وقد دعى لتقلد الوزارة مرة أخرى بعد زمن ، ولكنه لم يفلح كذلك فعزل . وقد سلم مرة للشجاعى ليعاقبه فها به ولم يضربه غير مقرعة واحدة على قيصره . وقد ولد « تاج الدين » في ٧ شعبان عام ٦٤٠ هـ ومات في ٤ جمادى الآخرة عام ٧٠٧ هـ ودفن في مدافن أسرته بالقرافة . وكان على شيء من العلم والأدب وينظم الشعر . ومن آثاره رباط الآثار بالقرب من بركة الحبش ، عمره ولكنه لم يكمل في حياته . وجامع دير الطين . وقد اشترى بعض الآثار النبوية بستين ألف درهم فضة . « خطط ج ٤ تحت عنوان « رباط الآثار » . سلوك ج ١ ص ٨٠٢ - الدرر ج ٤ رقم ٥٤٨ »

٧ — شمس الدين سنقر الأعسر ٧٠٩ هـ

أصله مملوك الأمير عز الدين لإيدمر الظاهرى نائب الشام . ترقى في عهد قلاوون حتى كان أستاذارا في دمشق ، ثم أضيفت إليه وظيفة شدد الدواوين بدمشق أيضا في جمادى الثانية عام ٦٨٣ هـ فأخذ طريقه إلى الرفعة من ذلك الحين . وكان يقوم للسلطان المنصور بخدمات جليلة . لذلك استقدمه إلى مصر في ربيع الأول عام ٦٨٩ هـ وأبقى إليه تعليماته الخاصة بحجى الأموال . وقلده أمور الحصون بكل البلاد الشامية والسواحل . وكذلك ديوان الجيش ، فاتسع نطاق عمله وقوى نفوذه .

ثم آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، وكان حادأ على هذا الأمير ، فاستقدمه إلى مصر عام ٦٨٩ هـ ، وأمر بضربه ومصادرة أمواله وعزله من وظائفه . وبعد حين ، وفي عام ٦٩٠ هـ أعيد إلى شدد الدواوين بدمشق ثانيا .

وفي عام ٦٩١ هـ وفي منتصف إجمادى الأولى منه تزوج هذا الأمير بنت الوزير الخطير صديق الأشرف خليل ، وأعنى به صاحب شمس الدين بن السعلوس ، على صداق جملة ألف وخمسمائة دينار ، معجله خمسمائة . وكانت هذه الزيجة - بلاريب - من أسباب تقدم الأمير « سنقر الأعسر » لدى الأشرف .

ثم قتل الأشرف ، وولى السلطنة أخوه محمد ثم العادل كتبغا . فظل الأمير « سنقر » شادا للدواوين بدمشق . ولكنه ما لبث أن قبض عليه للحسابته ، وذلك في شوال عام ٦٩٥ هـ ، وأسلم الوزير نغر الدين بن الخليل ، فاستخلص منه مالا ، وعزل من منصبه . ولما آلت السلطنة إلى المنصور لاجين المنصوري ، استخدمه لبعض شؤنه . وكانت صلته به حسنة . وقد بعثه في أول سلطنته رسولا إلى دمشق وأمرائها ليجمع الناس حول سلطنته - وقد كان السلطان السابق كتبغا المنصوري مقبلا هناك - فاستطاع « سنقر » أن يجمع له الأمر ، حتى دانت له بلاد الشام وأعلن في دمشق - وقد دخلها « سنقر » في صفر عام ٦٩٦ هـ وتلقاه أهلها بالترحاب - أن من له مظلة ، فعليه بباب الأمير « سنقر الأعسر » .

ظل « سنقر » في دمشق نحو أربعة شهور ، ثم استقدمه المنصور لاجين في رجب . وقد عظمت مهابته وعلت كلبته وأصبح أحد الرؤساء المخوفين . وقلده لاجين منصب الوزارة ، وأفاض عليه رضا كثيرا .

ولعل ما بلغه « سنقر الأعسر » من عظمة ونفوذ أغراه بشيء خفي أضمره في نفسه ، كان وبالاعليه ، فإنه حدث أن أصيب السلطان لاجين بسكر في يده من جراء وقوعه من فوق جواده وهو يلعب الكرة . وأراد المجبرون كسر بعض عظامه للتوفيق بين سائر العظام . تخاف السلطان وأظهر رهبة وجزعا ، وذلك بحضور وزيره « الأعسر » ، فما كان منه إلا أنه ادعى أنه وقع له مثل هذا الحادث ، وأنه كسرت عظامه بآلة حديدية ، لما طلب إليه ذلك . وشعر الملك باستخفاف وزيره به ، فأضمر له الشر في نفسه . ثم سرعان ما قبض عليه في ذى الحجة عام ٦٩٦ هـ ، فلم يذمم طويلا . ولم يول السلطان أحدا بعده حتى ربيع الآخر عام ٦٩٧ هـ فأُسند الوزارة إلى عدو « الأعسر » وهو الوزير صاحب نغر الدين بن الخليل . فضيق الحصار على « الأعسر » وصاغر متمسكاته ، وكاد لأتباعه وأرعي « الأعسر » في جب القلعة مسجوناً .

قتل لاجين وآلت السلطنة إلى الناصر محمد ثانية ، فأفرج عن « الأعرس » في جمادى الأولى عام ٦٩٨ هـ . وبعد قليل أعاده إلى الوزارة فعاد إلى سابق عظمته وكبره ، ونشاطه .

وأخذ يقوم ببعض المهام ، ومن ذلك خروجه عام ٧٠٠ هـ في مئات من المماليك السلطانية إلى الوجه القبلي لإطفاء ثورة العربان العابثين به والممانعين الخراج ، لما وجدوا الدولة مشغولة بحركات غازان ملك التتار ، فأوقع بهم الأمير « سنقر » وقتل منهم عددا كبيرا ، وصادر كثيرا من خيولهم وجمالهم وسلاحهم وأذلهم وأرغمهم على دفع الخراج . ظل الأمير « شمس الدين سنقر الأعرس » سادرا في غلوائه ، قاسيا في معاملة غيره ، مشتطا في عقوباته ، لابسا ثوب كبره وتيهه ، حتى ثقل على نفوس الأمراء . وهموا بإخراجه من الوزارة — وكان السلطان صغير السن استبد بملكه الأميران بيبرس وسار — ثم رأوا إرسال « سنقر » إلى القلاع الشامية ليتفقد أحوالها ويصلح شأنها ويفتش مافيها من رجال وعتاد ومال . فسافر إليهما توا في أخريات عام ٧٠٠ هـ وعين مكانه في الوزارة الأمير عز الدين أيبك البغدادى في المحرم عام ٧٠١ هـ .

عاد « سنقر » إلى مصر بعد قليل ، فظل بعيدا عن الوزارة ، مستعانا في بعض المهام . وقد عاون النائب سار في ترميم الجامع الأزهر عام ٧٠٢ هـ ، وحج معه عام ٧٠٣ هـ ، وأسدى ألوانا من الإحسان . وقد توفى عام ٧٠٩ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٧٤ — السلوك ج ١ — الدرج ٢ رقم ١٩٠٥ » .

٨ — بكتمر الحاجب المنصورى ٧٢٨ هـ

هو الأمير سيف الدين « بكتمر » ظهر بدمشق في نيابة الأفرم . فكان أمير أخور ، ثم ولى شد الدواوين ، ثم الحجوبية . وكان واسع الجاه نافذ الكلمة ، فلما زحف الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى دمشق ، حظى عنده « بكتمر » وعاد معه إلى مصر فعيّنه نائبا لغزة عام ٧١٠ هـ .

لم يلبث « بكتمر » هذا في غزة إلا قليلا ، ثم استدعاه الناصر ، وقلده الوزارة في العام نفسه عوضا عن صاحب نحر الدين بن الخليل . فلبث بها حتى سنة ٧١٥ هـ ، إذ قبض عليه الناصر ، واعمقه نحو سنة ونصف ، وأخذ من ماله شيئا كثيرا . ثم أفرج

عنه ، ومنحه نيابة صفد سنة ٧١٦ هـ ، فابت بها شهورا ، ثم عاد لمصر ، وقد قوى أمره ، وأصبح من المقدمين لدى الناصر ، باستشيرته في مهامه لما لديه من خبرة ودراية وحسن سياسة ، وصبر على عمله .

وتزوج « بكتمر » بنت الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب السكر ، واقتنى مالا كثيرا ثم زوج ابنته لخازن داره واسمه سيف الدين بخشي .

وحدث أن سرق من خزانته مال ، وأنهى خبر السرقة إلى الناصر ، فعاقب كثيرا من الناس بسبب ذلك . غير أن « بكتمر » كان له أعداء يحقدون عليه ويكيدون له ، ومنهم الوزير مغطاي الجمالي والأمير بكتمر الساقى ، والقاضى نضر الدين ناظر الجيش . فسدوا إلى والى القاهرة أن يتهاون فى ضبط هذه السرقة نكايه فى « بكتمر » ، ثم ادعوا لدى الناصر أن خازن داره سيف الدين بخشي ، يقول عن اللصوص إنه متفق معهم ، فعاقب خازن داره . لذلك اغتم « بكتمر » وملسكه الحزن ، فمات ليومه سنة ٧٢٨ هـ .

« الخطط ج ٣ ص ١٠٣ تحت عنوان دار الحاجب » — الدرر ج ١ رقم ١٣٠٦ .

٩ — مغطاي الجمالي ٧٣٢ هـ

هو الأمير علاء الدين « مغطاي » بن عبد الله الجمالي . من ممالك الناصر محمد ابن قلاوون . رقاہ أميراً ، وهو شاب . وحظى عنده وتقدم . ونسبه الناصر فى كثير من خصوصياته . وجعله أمير الركب المحمل عام ٧١٨ هـ . ثم رقاہ أستاذاراً .

وفى يوم الخميس ٨ رمضان عام ٧٢٤ هـ ، قلده الوزارة عوضاً عن صاحب أمين الملك ابن الغنام . ولكنه اتهم بأنه أضاع أوضاع المملكة وفرط فى أموال المسلمين وفى الجيش . وأنه يجهل الأحكام . فشدد السلطان عليه النكير ، ونسب لمعونه ناظر الدولة وناظر الخواص . وهى وظيفة جدت حينذاك . ثم انتهى الأمر بإلغاء الوزارة جملة ، وتوزيع اختصاصاتها ، وذلك عام ٧٢٩ هـ . — وقيل عام ٧٢٨ هـ .

واقصر « مغطاي » على الاستاذية . وكان له أعداء يدسون له ويحملون عليه لدى السلطان . وبخاصة لأنه قدم صديقه مجد الدين محمد بن لعبية (١) ، وكان ناظر الدولة والصحة والبيوت . وترك حبال الأمور فى يديه ، فسار وفق هواه . — وهم السلطان بمصادرة أموال « مغطاي » فتوسط له الأمير بكتمر الساقى ، فمفا عنه .

وذهب «مغلطاي» إلى الحجاز حاجا ، ثم عاد فتوفي بعقبة أيلة في الأحد ١٧ المحرم .
عام ٧٣٢ هـ (١) . وحمل إلى القاهرة ودفن بالخانقاه التي أنشأها بجوار درب راشد
بالقاهرة عام ٧٣٠ هـ ، والتي جعلها مدرسة للحنفية .
«الخطط ج ٤ ص ٢٣٨ تحت عنوان «المدرسة الجمالية» - والدرج ٤ رقم .
٩٦٤ - والسلوك ج ١ ، .

١٠ — الجناب الناصري محمد بن الحسام الصتري (٢) ٧٩٤ هـ .
من وزراء برقوق . ولى الوزارة خلفا للقاضي سعد الدين البقرى عام ٧٩٢ هـ .
ثم توفي عام ٧٩٤ هـ .
«ابن إياس ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ .

١١ — موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش ٧٩٦ هـ
من وزراء عهد برقوق . اشتهر بناظر الجيوش ، إذ أنه تردد على هذه الوظيفة
مرارا . وقد عينه فيها برقوق سنة ٧٨٦ هـ بعد القاضي تقي الدين بن محب التيمي . ثم
غضب عليه عام ٧٨٨ هـ ، وضربه مائة وخمسين عصا . وفصله من وظيفته ، وعين مكانه
القاضي كريم الدين بن مكانس .
ثم خلع برقوق ، وولى السلطنة «أمير حاج» ثم عاد برقوق بعد قليل ، ويبدو لنا أن
القاضي «موفق الدين» أسندت إليه نظارة الجيوش حينذاك . وأضيفت منها الوزارة .
لذا قال عنه ابن إياس : «إن السلطان برقوقا استقر به ناظرا للجيوش ، ووزيرا بالديار
المصرية على عادته . وذلك لما عاد إلى سلطنته سنة ٧٩٣ هـ .

ثم فصل «موفق الدين» من الوزارة ، وعين فيها القاضي سعد الدين البقرى .
ونصب «موفق الدين» مستوفيا للدولة بعد فصله . ثم مستوفيا على جميع أرباب الوظائف
بالديوان المفرد - غير الأمراء - وسمى وزير الوزراء . فلبث مدة يسيرة كذلك ، ثم
توفي عام ٧٩٦ هـ .

«ابن إياس ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ .

١ — فى الدرر : أنه توفي سنة ٧٣٠ هـ .

٢ — ذكره فى الخطط فى سياق الحديث عن «دار ابن البقرى» ج ٣ ، فقال اسمه : الأمير ناصى
الدين محمد بن الحسام الصفدى .

١٢ — محمد بن رجب بن كلبك ٧٩٨ هـ .

هو الجناب الناصرى محمد بن رجب بن كلبك - وقال المقرئى : « ابن كلفت » .
نشأ بالقاهرة محمود السيرة وشغل جملة من الوظائف السنية . إلى أن اختاره الظاهر
برقوق وزيرا في ١٤ ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ عوضا عن سعد الدين البقرى . وقال
المقرئى : « عوضا عن موفق الدين أبى الفرج » . فباشروا الوزارة بمهابة ، ودبر المملوك
بمحنة ودراية ، واستعان في عمله بعدد من المباشرين الذين كانوا وزراء . وأنعم عليه
بأمره عشرين فارسا في ٦ ربيع الثانى عام ٧٩٧ هـ . فلبث حتى مات بعد مرض طويل في
صفر عام ٧٩٨ هـ وهو وزير . وكانت جنازته حافلة .

« الخطط ج ٣ تحت عنوان « دار ابن رجب » - وابن لياس ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

١٣ — سعد الدين البقرى ٧٩٩ هـ

هو الوزير صاحب سعد الله بن البقرى ، ابن أخت القاضى شمس الدين شاكر
ابن غزىل البقرى . كان نصرانيا فأسلم . وقيل إنه كان يظهر الإسلام ويبطن
النصرانية .

كان من كتاب الدواوين ؛ بارعا في رسوم الكتابة الديوانية . وقد تقلب في
وظائفها ، حتى اختاره الظاهر برقوق لنظر الديوان المفرد ونظر الخاص ، عوضا
عن صاحب كرم الدين عبد الكريم بن مكائس في رمضان عام ٧٨٣ هـ . ثم عزل وأحيط
بماله ، وأخذ ما في داره من الأواني والثياب والمال والحلى والجوارى وغير ذلك ،
وحمل إلى القلعة ، وضرب وأهين .

ثم لما عاد برقوق إلى عرشه ، قلده الوزارة في ١٧ ربيع الآخر عام ٧٩٢ هـ ، عوضا
عن موفق الدين أبى الفرج . ثم عزل في رمضان ، وأحيط بداره مرة أخرى .
ثم ولى الوزارة الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقرى - أو الصفدى - فى ذى
الحجة ، فاستخدم عددا من الوزراء المفصولين عن الوزارة ، فى وظائف الوزارة المرعية ،
كنظر الدولة ، ونظر البيوت ، واستيفاء الدولة ، فكان نصيب « ابن البقرى » نظر
البيوت . فكان يتم فى يدى ابن الحسام ، مع أن ابن الحسام كان دوايره فيما سبق
وبعد قليل قبض ابن الحسام عليه وألزمه غراما ماليا كبيرا . ثم بعد قليل عاد
« ابن البقرى » إلى الوزارة . وما زال هذا شأنه . إلى الوزارة ثم يفصل عنها ، ثم

يختار لغيرها أو يعود إليها . ويؤذى في سبيلها . إلى أن كان يوم ٤ رجب سنة ٧٩٨ هـ ، فأعيد إلى الوزارة ، وكانت هذه آخر عرذاته إليها . لاذصرف عنها وقبض عليه ، في ٤ ربيع الأول عام ٧٩٩ هـ وصادر جميع ما يملك ، وسبق مهينا على ملاء من الناس ، إلى دار ابن الطبلأوى ، حيث سجن ، ثم خنق ليلة ٤ جمادى الآخرة عام ٧٩٩ هـ .
وما يذكر أن له ابنا يدعى تاج الدين عبدالله ، ولى الوزارة من بعد ، ونظر الخاص ، وعوقب ومات تحت العقوبة .

« الخطط ج ٣ تحت عنوان دار ابن البقرى — ابن إياس ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ » .

١٤ — مبارك شاه الظاهرى ٨٠٢ هـ

من وزراء برقوق . وقد عين هذا الأمير في الوزارة عام ٧٩٨ هـ ، بعد الناصرى محمد بن رجب بن كلبك . ثم خلع في العام نفسه ، وخلفه سعد الدين بن البقرى . ثم آلت السلطنة إلى فرج بن برقوق عام ٨٠١ هـ ، فأقام الأمير « مبارك شاه ، أستاذارا . فكث أقل من شهر ، واستعفى ثم إن السلطان فرجا غضب على جماعة من أمرائه ، فذبحهم في بلاد الشام عام ٨٠٢ هـ ، وكان من عدادهم الأمير « مبارك شاه ، (١) .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٤ إلى ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ — الضوء ج ٦ رقم ٨٢٢ .

١٥ — الجناب الركنى عمر بن قايماز ٨٠٩ هـ

من وزراء برقوق أيضا . عين في الوزارة خلفا للناصرى محمد بن الحسام الصقرى بعد وفاته عام ٧٩٤ هـ . وعزل في العام نفسه . وخلفه القاضى تاج الدين بن أبى شاكر ومات « ابن قايماز ، في رجب عام ٨٠٩ هـ . ذكره الضوء في « عمر قايماز » . وترجمه بإيجاز ، ولم يذكر الوزارة فيما ولى . فلعله هو .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣١٦ — الضوء ج ٦ رقم ٣٥٩ .

١٦ — سعد الدين القبطى ٨١٨ هـ

هو ابراهيم بن بركة ، سعد الدين القبطى المصرى الوزير . ويعرف بالبشيرى . لماشب خدم في بيت ناظر الدولة التقي بن المحب . ثم تمقل في خدم الأمراء ، حتى ولى الوزارة .

ثم قبض عليه في الدولة المؤيدية عام ٨١٦ هـ . ثم لزم منزله حتى مات سنة ٨١٨ هـ في صفر
وكان رئيسا ذا مهابة حسن الإسلام .
« الضوء ج ١ ص ٣٣ » .

١٧ — تاج الدين بن أبي شاكر ٨١٩ هـ

هو عبد الوهاب بن عبد الله ، عين في الوزارة خلفا لعمر بن قايماز بعد عزله
سنة ٧٩٤ هـ في عهد برقوق . ولما آلت السلطنة إلى الناصر فرج بن برقوق ، اختاره وزيرا
له في أول سلطنته سنة ٨٠١ هـ . وبعد زمن يسير أضيفت إليه الاستادارية ، بعد أن
استعفى منها مبارك شاه . وفي العام نفسه عزل من منصبه . وعين مكانه في الوزارة
الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر الحسني بن قطينة ، وفي الاستادارية الأمير يلغا
السالمى .

وقد عاد « تاج الدين » إلى الوزارة مرة أخرى في المحرم سنة ٨١٩ هـ ، ثم مات في
ذي القعدة من السنة نفسها وهو من مسالمة القبط .
« ابن لباس ج ١ ص ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣١٨ — حسن المحاضرة ج ٢ باب « ذكر
وزراء مصر ، — الضوء ج ٥ رقم ٣٨٤ » .

١٨ — أمين الدين بن الهيصم ٨٥٩ هـ

من وزراء عصر برسباى وابنه ، ووزر كذلك لجمقمق . واسمه ابراهيم بن عبد الغنى
ابن ابراهيم القبطى . وقيل كان ينسب إلى المقوقس صاحب مصر .
كان ناظر الدولة من سنة ٨٢٨ هـ . ثم عينه برسباى في الوزارة سنة ٨٣٨ هـ (١) ،
عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات ثم عزل ثم عاد بعد مدة . وفي سنة ٨٥٣ هـ . في عهد
الملك جمقمق ، أصيبت البلاد بغلاء شديد وقحط بالغ ، ولم يستطع الوزير « أمين الدين
ابن الهيصم » ، أو سواه من المستوفين والمباشرين ، أن يخففوا عن الشعب ما يعانيه من
آلام القحط ومشاق الغلاء . ولا أن يقدموا إلى الممالك حاجياتهم المرعية . لذلك قاسى
الشعب حينذاك من أذى الممالك شيئا كثيرا .

وفي عام ٨٥٧ هـ ، في عهد الأشرف إينال . اختفى الوزير « ابن الهيصم » ، فخلعت

١ — ذكر في الضوء : أنه ولي الوزارة عام ٨٣٧ هـ ، وبه شيء من الخلاف في التواريخ الأخرى .

الوزارة على سعد الدين فرج بن النحال كاتب الممالك . وبعد زمن ظهر « ابن الهيصم » فأعيد إلى الوزارة ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٨٥٨ هـ . ثم اختفى ثانيا ، فعاد ابن النحال إلى الوزارة . وذلك في رمضان من العام نفسه . وما حان مستهل ربيع الآخر عام ٨٥٩ هـ (١) ، حتى أعلنت وفاة « ابن الهيصم » . وكان حنفي المذهب محبا للعلم والعلماء . « ابن إياس ج ٢ ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ إلى ٤٨ — طبقات الشافعية — الضوء ج ١ ص ٦٨ » .

١٩ — سعد الدين فرج بن ماجد النحال ٨٦٥ هـ

أصل هذا الرجل من أقباط مصر . ورقى ، حتى عد في جملة رؤسائها . وكان كاتبا للعماليك في عهد الأشرف إنيال ، فلما اختفى الوزير أمين الدين بن الهيصم ، عين مكانه في الوزارة عام ٨٥٧ هـ ثم عزل في جمادى الأولى عام ٨٥٨ هـ ، وأعيد ابن الهيصم ثم أعيد « سعد الدين فرج » مرة أخرى ، لاختفاء ابن الهيصم في العام نفسه ، وظل حتى عام ٨٦٠ هـ . وفي صفر منه ، ثار عليه وعلى بعض المباشرين ، طائفة من الممالك الجلبان ، ونهبوا داره ، فاخفى ، وتوارى عن أنظارهم . وذلك لأنه لم يؤد ما فرض لهم من الطعام تمام الأداء . وظل متواريا حتى هدأت الحالة ، فظهر في ربيع الأول وظل متقلدا الوزارة . وفي جمادى الآخرة من السنة نفسها نقل من الوزارة إلى الاستادارية . ثم توفي في جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٧ — الضوء ج ٦

رقم ٥٧٠ » .

٢٠ — الشمس محمد الببائوى ٨٧٠ هـ

كان ناظر دولة . وفي سنة ٨٦٩ هـ ، انتقل الوزير مجد الدين بن البقرى إلى الاستادارية . فشغرت الوزارة حينما ، إلى أن اختار لها السلطان خشقدم ، الصاحب « شمس الدين محمد الببائوى » . قيل : كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقيل : إنه كان طباحا وكان من متعبدى توريد اللحم . ويبدو أنه أحسن اتصاله بالسلطان المذكور ، حتى أسند إليه هذا المنصب الجليل . وقيل : فاشمأز الناس من هذا التعيين ، وانحطت

الوزارة في نظرهم ، وإن كان قد قام بأعماله خير قيام . وقيل : كان ثقیل الظل ثقیل النطق . ولكن زادته ثقة السلطان به مهابة لدى الناس وإجلالا ، وسكن بين العظماء ببركة الرطلی .

وفي يوم الأربعاء ٢٨٠٠ من ذی الحجة سنة ٨٧٠ هـ ، نزل في مركب ، وتوجه ناحية قناطر بنی منجا ، ثم رجع ، فما بلغ فم خلیج الزربية ، حتى انقلب به المركب ، ففرق ولم تظهر جثته .

ابن إياس ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٦ .

٢١ — شرف الدين يحيى بن صنيعة ٨٨٢ هـ

أصله من أقباط مصر . ولاء الظاهر خشدتم الوزارة سنة ٨٦٦ هـ ، لما عزل وزيره الأهناسي . ثم عاد ابن الأهناسي إلى الوزارة ، وعزل « ابن صنيعة » ، سنة ٨٦٨ هـ . وعاد فقتلها سنة ٨٧٠ هـ بعد أن غرق الوزير ابن البباوى . ثم عزل ، وعين مكانه الزينى قاسم شغيتة . وعاش « ابن صنيعة » إلى المحرم سنة ٨٨٢ هـ ، وتوفى في الشهر المذكور ، بعد أن ولى الوزارة مرات عدة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٩١ — الضوء ج ١٠ رقم ١٠٦١ .

٢٢ — مجد الدين بن البقرى ٨٩٣ هـ

هو صاحب مجد الدين شاكر بن علم الدين بن البقرى ، وأصله من الأقباط . عين في الاستادارية في جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ ، في عهد أحمد بن إينال ، وذلك عوضا عن منصور بن الصفي . وهذه أول مرة بلى فيها صاحب « مجد الدين » وظيفة من وظائف الدولة السامية . فلبث فيها مدة ثم عزل . وفي عهد خشدتم عاد إلى الاستادارية سنة ٨٦٦ هـ ، عوضا عن الأمير زين الدين يحيى الاستادار .

وفي سنة ٨٦٨ هـ عين في الوزارة ، خلفا لعلاء الدين بن الأهناسي الذي اختفى ، ثم ما لبث أن قبض على هذا المختفى ، وسجنه ، وصادر أمواله ، واستخلص منه مائة ألف دينار ، ونفاه إلى مكة .

وفي سنة ٨٦٩ هـ اختفى زين الدين الاستادار ، فقتل « مجد الدين البقرى » من الوزارة إلى الاستادارية مرة أخرى . وظلت الوزارة شاغرة من بعده زمنا ، حتى

عين فيها الشمس محمد البيارى ناظر الدولة .

وظل « ابن البقرى » حتى عهد قايتباى ، فألت الوزارة والاستادارية معا وغيرهما ، إلى الأمير يشبك الدوادار سنة ٨٧٣ هـ فى شهر شعبان . فقبض على « ابن البقرى » ، واستخلص منه خمسة آلاف دينار .

ولما خرج الأمير يشبك الدوادار للقتال فى بلاد حلب ، وهو القتال الذى مات فيه ، عين « مجد الدين البقرى » فى الاستادارية . ولكن ما لبث أن قبض عليه فى ذى الحجة سنة ٨٨٥ هـ ، ليؤدى حسابا عما كان بيده من الأعمال والأموال . وعزل من منصبه ، وعين مكانه تغرى بردى بن بلباى الظاهرى ، خازن دار الأمير يشبك الدوادار . وقد حاسبه السلطان بحاسبة عسيرة ، وآذاه وقسا عليه ، إذ كرهه لشماته بالأمير . يشبك بمناسبة ما جرى له من المحن فى قتاله . وسجن « ابن البقرى » بالمقشرة ، فلبث نحو ست سنوات ؛ حتى أودى أهله وأولاده : وكانت خاتمة مطافه أن حكم عليه السلطان بالإعدام فى ربيع الأول سنة ٨٩٣ هـ ، فانتهت بذلك حياته . ودفن فى تربة ابن عمه يحيى .

« ابن لإياس ج ٢ ص ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤٩ . »

٢٣ — زين الدين قاسم المعروف بشغيته ٩٠٠ هـ

هو صاحب زين الدين قاسم بن أحمد القرافى القاهرى ، ويعرف بشغيته . ويقال إن هذا صاحب كان خبازا ، ثم اشتغل صيرفا للحجم . ومن هنا اتصل بالصاحب الشمس بن البياوى . واتصل بوظائف الدولة . فلما غرق ابن البياوى سنة ٨٧٠ هـ - وكان وزيرا - عين مكانه صاحب « الزينى قاسم شغيته » . واشترك معه فى أعمالها شخص آخر يقال له عبد القادر الطويل ، وكان ناظر الدولة ثم انفرد بأعمالها « الزينى قاسم » . فقام بها خير قيام ، وأصبح فى عداد رؤساء البلاد .

وفى شعبان سنة ٨٧٢ هـ ، اختفى « الزينى قاسم » - ويبدو أن قايتباى - السلطان حينذاك - كان يضغط على مباشريه لإذ ذلك ، ففر هذا الوزير من وجهه فندب للوزارة عبد القادر الطويل ناظر الدولة . وبعد قليل أسندت إلى صاحب شمس الدين محمد

والد علاء الدين بن الأهناسى .

ظهر « زين الدين قاسم » ، بعد قليل ، ورضى عنه السلطان . ولما أسند إليه نظر الدولة فى ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ . فعاون إذ ذاك الأمير يشبك الدوادار الذى كان ذا وظائف عدة .

ظل « الزينى قاسم » فى نظر الدولة حتى شعبان سنة ٨٧٥ هـ ، فعزل وفرض عليه غرم مالى . ثم عاد إلى تقلد هذا المنصب فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، مضافا إليه الحسبة فى ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ . ثم أسندت إليه الوزارة .

ثم حدث ما دفعه على الاختفاء ، فلبث محتفيا حتى شوال سنة ٨٨٧ هـ . فظهر ، وأنعم عليه السلطان وعينه ناظر الدولة عوضا عن موفق الدين بن الحصى الأسلى . ثم أضيفت إليه الوزارة مرة أخرى فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٩ هـ . وفى ذى القعدة سنة ٨٩١ هـ عزل من وظيفتيه ، وقبض عليه وسجن ، وحوسب حسابا عسيرا عن أمواله ووظائفه ، وما زال بين ولاية وعزل ومصادرة حتى مات فى سجنه فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ . وكان كفئا فى عمله ، سديدا فى رأيه .

« ابن لياس ج ٢ ص ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ - الضوء ج ٦ رقم ٦٠٩ ،

٢٤ - خشقدم الأحمدي ٨٩٤ هـ

هو الأمير صاحب خشقدم الأحمدي ، الطواشى الزمام أصله من ماليك جقمق . ثم عد من رجال عصر قايتباي . وقد أنعم عليه هذا السلطان برتبة رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالى فى شوال سنة ٨٧٣ هـ . ولما استقال الأمير يشبك الدوادار من الوزارة فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، أسندت إلى الأمير « خشقدم » . وحاول الامتناع عن قبولها خوفا من أذاها ، وبكى ، فلم يأبه السلطان لبكائه ، فقبلها مرغما . ثم أضيفت إليه فى ربيع الأول عام ٨٨٢ هـ ، الحازندارية الكبرى : والزمامية ، عوضا عن جوهر النوروزى ، فعظم أمره واتسع جاهه .

وفى عام ٨٨٤ هـ اختير أميراً لركب المحمل ، فخرج من القاهرة فى حفل حاشد وقد حج معه السلطان هذا العام ، وساس أمور الحج خير سياسة ، فنهج الناس بالثناء عليه ، والدعاء له .

وفي رمضان عام ٨٨٧ هـ سافر إلى الوجه القبلي بسبب الحصاد ، فلما عاد ، كان السلطان قد تغير قلبه عليه ، فاعتقله ليؤدى حسابا عما لديه من الأموال . ثم صرف عن الوزارة ، وعين مكانه فيها الجمالى يوسف بن الزرايرى كاشف البهنا ، وذلك في ربيع الآخر عام ٨٨٩ هـ .

وعادت إليه الوزارة والحازندارية بعد زمن ، ثم ما لبث أن غضب عليه السلطان قايتباى مرة أخرى عام ٨٩٤ هـ في شهر المحرم ، وقبض عليه وهم بضربه . ثم إنه رحل بعد حين إلى سواكن ؛ وهناك توفى سنة ٨٩٤ هـ وكان معروفا بالقسوة وحب الشر .

د ابن لياس ج ٢ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ - الضوء ج ٣ رقم ٦٨٢ .
٢٥ - الجمالى يوسف البدرى ٩٢٥ هـ .

من وزراء عصر الأشرف الغورى . وكانت له عنده منزلة سنوية . يشهد لذلك أنه في سنة ٩١٨ هـ ، وقعت مشادة بينه وبين الزينى بركات بن موسى المحتسب ، على مسمع من السلطان المذكور ، وأساء إليه الزينى بحضرة السلطان . فغضب السلطان على الزينى وأساء إليه ، ثم سجنه أياما . وحاسبه حسابا عسيرا .

وأصله من ماليك الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، قدمه الأشرف قايتباى . ثم سلك طريقه إلى الرقى وعاليا المناصب ، حتى صار محتسبا للقاهرة . عينه الغورى في هذه الوظيفة في ١٧ رمضان سنة ٩١٤ هـ ، عوضا عن الزينى بركات بن موسى . ثم عزل في ذى القعدة من العام نفسه ، وعاد الزينى بركات إلى منصبه .

وفي يوم الاثنين ٥ صفر سنة ٩١٦ هـ ، أسند إليه الغورى منصب الوزارة ، خلفا لثغرى برمى ، لانقصائه عنها . فظل في هذا المنصب زمنا طويلا . وزاول أعماله فيه بهمة ونشاط وكفاءة وسداد .

وفي جمادى الأولى سنة ٩١٧ هـ ، ثارت ضده طائفة المماليك الجلبان ، لتراخيه في تقديم اللحم المخصص لهم ، وهموا بقتله ، فاقتبأ منهم ريثما هدأت فتنتهم .

غير أن السلطان الغورى غضب عليه بعد مدة ، فقبض عليه ، حتى يؤدى عن عمله حسابا . ثم أعاده إلى منصبه في يوم الخميس ١٣ رجب سنة ٩٢١ هـ . بعد أن كتب صكا

على نفسه للسلطان بمبلغ خمسة وستين ألف دينار ، التزم بسدادها هو وناظر الدولة القاضى شرف الدين الصغير .

وثار المماليك ثورة عنيفة فى شوال سنة ٩٢١ هـ ؛ ولم يطيعوا سلطانهم ، بل آذوه بسبب أجورهم المتأخرة ، وروايتهم من اللحم ، التى لم تفرق فى مواعيدها . وطلبوا إليه عزل جماعة من مباشريه ، ومن بينهم الجمالى يوسف البدرى ، وزيره . ثم سويت أمور هذه الفتنة ، بشروط منها : عزل « البدرى » .

حانت سنة ٩٢٢ هـ ، والوزاره شاغرة ، إذ لم يعين فيها أحد . و « البدرى » كان قد اختفى لبان الفتنة . فنودى عليه ، وطلب منه الظهور ، ووعد بالأمان . فظهر فى يوم الثلاثاء ٩ المحرم ، فأعيد إلى الوزارة ، ولكن فى ٤ شعبان من السنة المذكورة .

ثم آلت السلطنة إلى الأشرف طومان باى ، بعد مقتل الغورى ، فى مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ . فظل « البدرى » فى الوزارة ، ويبدو أنه أضيف إليه كشف البحيرة ، لأنه نزع منه بعد ، وضم إلى حاجب الحجاب الأمير طقطباى فى شوال سنة ٩٢٣ هـ .

ويبدو لنا أنه خلع من الوزارة بعد قليل . إذ قال ابن إياس ما نصه :
« فى يوم الخميس ١٠ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ - خلع السلطان على الأمير يوسف البدرى » الذى كان وزيراً ، وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال عوضاً عن بركات ابن موسى .

ولما زحف السلطان سليم على مصر ، وامتلكها وفد عليه الأمير « يوسف البدرى » ، فى أوائل سنة ٩٢٣ هـ ، فأمنه ، وعينه متحدثاً على جهات الغربية .

وفى يوم الخميس ٥ ذى القعدة من العام المذكور أعاده ملك الأمراء خير بك نائب العثمانيين فى مصر ، إلى الوزارة مرة أخرى ، وخلع عليه خلعا بهذه المناسبة . وظل متمتعاً بثقة ملك الأمراء ، حتى صدر منه ما أحقده عليه فقبض عليه فى شعبان سنة ٩٢٤ هـ . وسجنه ، واعتقل زوجته وأولاده وغلبانه وحاشيته ، وفرض عليه غراماً مالياً ضخماً ذهب فى سداده جميع ما يمتلكه من مال وجوهر وأثاث .

ظل « البدرى » فى معتقله نحو شهرين ، ثم أمر بالرحيل إلى الآستانة منفياً ، فرحل فى شوال سنة ٩٢٤ هـ . — وطائفة من المباشرين . نفاهم ملك الأمراء خير بك . فسكنوا الحزن عليهم وعم الألم وعلا العويل بين أولادهم وأهلهم .

وبينما كانت السفن تخرج بهم عباب اليم إذ لقيهم طائفة من الفرنجة فاحتربوا مع حراسهم من جنود الغنمانيين، ففرقت سفينة « البدوي » خلال الاحتراب، قرب جزيرة إقريطش « كريد ». وبلغت أخبارهم القاهرة في صفر سنة ٩٢٥ هـ. وبهذه المناسبة ختمت حياة أحد أبطال هذا العصر. وهو آخر وزرائه.

د ابن لباس ج ٤ ص ١٤٤، ١٤٦، ١٥٠، ١٨١، ٢٣٥، ٤٣٥، ٤٦٧، ٣٨٣،
و ج ٣ ص ٤، ٥، ٩٦، ٣٣، ٦١، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٩٩، ١٣٢، ٤٤٢، ١٧٢،
١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٩.

تم بحمد الله

قسم الأول من الجزء الأول من كتاب :
« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي »

تأليفه القسم الثاني من الجزء الأول وأوله باب الخلافة العباسية الثانية

كشاف بأعلام المجلد الأول

(١)

أبو البقاء بن الجيعان ، محمد بن يحيى

ابن شاكر ، : ٢١١

أبو بكر بن علي الدوادار : ٢٠٢

أبو بكر محمد بن قلاوون ، سيف الدين

الملك المنصور ، : ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٨ ،

٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٦ ،

أبو بكر ، المعتضد الخليفة العباسي ، :

٦ ، ٣٧ ،

أبو السعود الجارحي ، الشيخ ، : ٧٣ ،

٢٢٧ ، ٢٣٨

أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال :

أبو العباس البصير : ١٩٠

أبو العساكر : ٦

أبو الفداء إسماعيل ، المؤيد صاحب

حماة ، : ٣٤ ، ١٠٣ ، ١٤٢ ،

أبو الفداء إسماعيل ، الصالح بن الناصر

محمد ، : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١١٠ ، ١٨٧ ،

أبو الفرج يعقوب بن كاس : ٢٤٠

أبو القاسم أوفوجور : ٦ ، ٧ ،

أبو المسك كافور الأخشيدى : ٦

أبو المعالي محمد ، الملك السعيد ، : ٣٨

أبو موسى : ٦

أبو النضر شيخ الممودى ، الملك المؤيد ،

انظر شيخنا .

آق سنقر السلارى ، شمس الدين ، :

٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

آق سنقر الفارقاى ، شمس الدين ، : ٩٦

آقوش الأفرم الجركسى : ١٨٤ ، ١٨٥

آل ملك الجوكندار ، الحاج سيف

الدين ، : ١٠٧

ابراهيم بن بركة ، سعد الدين

القبلى ، : ٢٥٧

ابراهيم بن عبد الغنى ، أمين الدين

ابن الهيصم ، : ٢٥٨

ابراهيم بن غراب : ١٩٧

أبسماتيك الأول : ٣

أبسماتيك الثالث : ٣

ابن الأحذب : ١٢٠ ، ١٨٨

ابن الأهناسى : انظر ، العلاق ،

ابن دانيال ، شمس الدين ،

ابن زنبور ، علاء الدين عبد الله ، :

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢

ابن السلوس ، شمس الدين ، : ٣٠ ،

٩١ ، ٩٨

ابن مالك النحوى ، جمال الدين ، : ٢٧

ابن مطروح : ٢٠

أبو يزيد الدوادار : ١٤٠
 الأحذب وشيخ قبيلة عرك : ١٨٨
 أحمد بن اسنغا : ١٦٥
 أحمد بن إبنال والملك المؤيد : ٥٠
 ٥١ ، ٧١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٩٩
 ٢٠٦ ، ٢١٧
 أحمد بن شيخ والملك المظفر : ١٤٦
 ١٨٩
 أحمد بن الصانع : ٢٢٧ ، ٢٣٨
 أحمد بن طولون : ٦ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٦٧
 أحمد بن عمر الحسن بن قطينة وشهاب الدين : ٢٥٨
 أحمد بن عمر الهواري : ٢٠٩
 أحمد بن العيني والشهابي : ٢٢٢ ، ٢٢٣
 ٢٢٤
 أحمد بن محمد بن قلاوون الناصر ابن الناصر : ٣٥ ، ١٠٦ ، ١١٠
 ١٨٧
 أحس : ٢ ، ٣
 أرغون الدوادار الناصري و نائب السلطنة : ١٠٣
 أرغون شاه الأشرفي و نائب دمشق : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٣٧
 أرغون شاه تتر : ١٢٤
 أرغون الكامل : ١٠٧ ، ١٠٩
 أرقطاي الففجقي : ١٠٧ ، ١٠٨
 أزمك بن خلطخ و الأنايكي : ١٦ ، ٥٣

٥٤ ، ١١٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٤
 ١٥٥ إلى ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
 ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧
 أزمك خان و ملك التتار : ٦٠
 أزمك لقان و صاحب الموصل : ١٠٤
 أزمك اليوسفي الخازندار : ٢١٩ ، ٢٢٠
 أزمدر بن علي باي : ٢٢٠
 أزمدر الطويل : ٢٠٤
 أزمدر العامري التتار صري الخازندار : ١٢٦
 أزمدر العمري : ١١٢ ، ١٩٠
 أزمدر و نائب حلب : ٢١٠
 أزمدر الناصري : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
 ١٩٠
 أسد الدين شيركوه : ٨
 الأسعد و شرف الدين هبة الله بن صاعد الفانزي : ٢٤٣ ، ٢٤٤
 الإسكندر المقدوني : ٤
 اسماعيل بن محمد و الملك الصالح بن الناصر انظر أبا الفداء .
 اسماعيل الصفوي و الشاه : ٦٠
 الأشرف إبنال العلائي و الملك : ٥٠
 ١١٧ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣
 ١٧٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٢٢
 الأشرف برسباي و الملك : ١٥ ، ٤٨
 ٥٣ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ١١٧ ، ١٤٧ ، ١٤٩
 ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٢
 ١٨٩ ، ١٩٨

١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٨ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،

٢١٧ ، إلى ٢٢٣

الأشرف بكك بن الناصر محمد «الملك» .

٣٥ ، ٧٠ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٨٦ .

الأشرف يوسف الأيوبي ، الملك

مظفر الدين : ٢٤

أقبای الخازندار : ١٩٧

أقبای الطرنطای الحاجب : ١٩٤

أقبای الطویل ، نائب غزة : ١٧١ ،

٢١٨ ، ٢٢٠ .

أقبردی الدوادار : ٥٦ ، ١١٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،

٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، إلى ٢٢١

أقبای المرازى : ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ،

١٥٠ ، ١٥١ .

أقبای الجمالی : ١٤٦

أقبای الناصري «علام الدين» : ١٨٦ ،

١٨٧

أقتمر بن عبد الغنى : ١١٢ ، ١١٣ ،

أقتمر الصاحبی الشهير بالحنبلی : ٩٢ ،

١١٣ ، ١٢٨ ،

أقطای ، فارس الدين ، المستعرب :

٢٢ ، ١١٨ ، ١١٩

الأشرف جان بلاط «الملك» : ٥٧ ،

٧١ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،

٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١

الأشرف خليل بن قلاوون «الملك» :

٣٠ ، ٣١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١٨٣ ،

الأشرف شعبان بن حسين «الملك» :

٣٩ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٩٠ ،

الأشرف طومان باي «الملك» : ٦٢ ،

٦٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٨٢ ،

٢١٧

الأشرف قانصوه الغوري «الملك» :

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٨٠ ،

٨٢ ، ٨٥ ، ١١٦ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤

الأشرف قايتباي «الملك» : ١٥ ،

١٦ ، ١٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

٥٥ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

١١٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ،

إبدغمش : ١٠٥
 إبدكر البندقدار «علاء الدين» :
 ، ١٤ ، ٢٦ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٣ ،
 ، ٩٥ ، ٩٤
 إيدمر الحلى : انظر عز الدين :
 إيدمر الخطيرى «عز الدين» : ١٨٤
 إيدمر الدوادار : ١١٠ ،
 إيدمر الظاهرى «عز الدين» :
 إيدمر «المقر السيفى» : ١٢٧
 إينال الأشقر البجوى : ٢٠٢ ،
 ، ٢٠٣
 إينال باى بن قجماس : ١٩٤
 إينال الجسكى : ١١٤ ،
 إينال العلاقى «الملك» . . . انظر
 الأشرف .
 إينال اليوسفى : ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ، ١٤٢
 أيفيك البدرى : ٤٠ ، ٩٢ ، ١١٣ ،
 ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

ب

بأبندر : ١٥٨ ، ٢١٠ ،
 بايزيد «ملك العثمانيين» : ٤٤
 بدر الدين بن سلام : ١٣١ ،
 بدر الدين بيدرا «نائب السلطنة» :
 ، ٣٠ ، ٣١ ، ٩١ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٨٣ ،
 ، ١٨٤
 بدر الدين بيليك الخازندار «نائب

أقوش نائب الكرك «جمال الدين» :
 أكمل الدين الحنفى : ١٣٠ ،
 أمير حاج بن شعبان «الملك الصالح» :
 ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٩ ، ١١٤ ، ١١٧ ،
 ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩١ ،
 ، ٢٠٣
 أمينجيب الثالث : ٢
 أمين الدين بن الهيصم : انظر إبراهيم
 ابن عبد الغنى :
 أمين الدين الخلقى : ١٣٠
 أمينمحت : ٢
 أنوك بن حسين : ٣٩ ، ١٢٣
 أوجد بن الخطيرى «شرف الدين» :
 : ١٨٤
 أوكتافيوس : ٤
 أيبك الأفرم «الصلحى» «عز الدين» :
 : ٩٧
 أيبك البغدادى «عز الدين» :
 أيبك الجاشنكير «عز الدين الملك
 المعز» : ١٠ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٧٧ ،
 ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٤ ،
 إيتشمش البجاسى الجرکسى : ٤٤ ، ٤٥ ،
 ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،
 ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٩٢ ،
 ، ١٩٣

برهان الدين الحضر السنجارى : ٢٤٤
 برهان الدين الغالبسى : ٢٠٨
 بضاع شاه أخو سوار : ١٥٦ ، ٥٠٦
 بطليموس الأول : ٤
 بغنخى : ٣
 بكباك د بقبق : ٦
 بكتاش الفخرى : ١٨٢
 بكتمر الحاجب المنصورى « سيف
 الدين » : ١٥
 بكتمر الجور كندار المنصورى
 الساقى : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤
 ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٩٤
 بلباى الرشيدى : ٧٧
 بلباى المؤيدى د الملك الظاهر : ٥٢
 ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ٢٢٣
 بلباى المؤيدى د غير الملك الظاهرى :
 ، ١٧٤ ، ٢٢٣
 بهاء الدين بن حنا د على بن سيد
 الدين محمد : ٢٤٤ إلى ٢٥٠ ، ٢٥١
 بهاء الدين قراقوش الظاهرى : ٢٥٠
 بهادر آص : ١٠٣
 بهادر المنجكى : ١٣٤
 بيبس البندقدارى د ركن الدين الملك
 الظاهر : ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩
 ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٧ ، ٦٨
 ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧
 ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٨٧

السلطنة : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ، ١٨٤
 بدر الدين التركانى : ١٨٥
 بدر الدين السنجارى :
 برد بك الاشرفى : ١٩٩ ، ٢٠٠
 برد بك الاشقر : ١٦٤
 برد بك الجمقدار : ٢٠١ ، ٢٠٢
 برد بك جيش : ٢٠٩
 برسمای الدقاقى د الملك ، انظر
 الاشرف
 برقوق ، الملك الظاهر : ١٥ ، ٤٠
 ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
 ، ٤٨ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨١
 ، ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٠
 ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥
 ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥
 ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ١٩٢
 ، ١٩٣ ، ١٩٤ :
 برقوق الناصرى الظاهرى : ١٦ ،
 ، ٢٠٢
 بركات بن موسى د الزينى :
 بركات الشريف العربى : ١٧٥
 بركة الجوبانى د الزينى : ١٣٠ ،
 ، ١٤١
 برهان الدين بن حنا : ٢٤٤

بيبرس الجاشنكير د ركن الدين الملك
المظفر ، : ٣٢ ، ٣٣ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١١٩ ،
١٨٤ ،
بيبرس الدوادار المنصوري : ٤٥ ،
١٠٣ ،
بيبرس الركني : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
بيغا أروس د نائب حلب ، : ٣٧ ،
١٠٨ ، ١١١ ، ١٨٨ ،
بيغا المظفرى : ١٤٩ ، ١٨٩ ،
بيدرا نائب السلطنة د انظر بدر
الدين ،
بيليك الخازندار د نائب السلطنة ،
انظر بدر الدين
بيدرا الخوارزمي د نائب الشام ، :
٩٢ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٩١ ،
ت
تاج الدين بن أبي شاكر : ٢٥٨
تاج الدين بن حناء محمد بن محمد ، : ٢٥٠
تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز : ٢٤٤
تاج الدين المقسى : ٢٠٩
تاني بك البردبكي الظاهري : ١٥١ ،
تاني بك الجمالي الظاهري : ٧١ ،
١١٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٠ ،
تاني بك قرا : ٢٢١

تحتمس الأول : ٢
تحتمس الثالث : ٢
تغري بردى الاستادار : ١٤٥ ،
٢٢٤ ،
تغري بردى بن بلبان الظاهري :
تغري بردى بن يشبغا : ١٤٥ ،
١٤٦ ،
تغري بردى ططر : ١٥٤ ، ٢١٩ ،
تقي الدين بن محب التيمي :
تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز :
٩٨ ،
تلكتمر : ١٣٥ ،
تمان تمر الأشرقي : ١٤٢ ،
تمراز البكتمرى المصارع : ١٥٥ ،
تمراز الدوادار : ١١٤ ،
تمراز الشمسي د الأتابكي ، : ١١٧ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،
تمراز د نائب السلطنة ، : ٦٧ ، ٩٣ ،
تمراز الناصري : ١٣٢ ،
تمرباي الدمرداشي : ١٣٧ ،
تمربغا الأفضلي د منطاش الأشرقي :
٤٣ ، ٤٤ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
١٤٢ ،
تمربغا الرومي د الملك الظاهر ، :
١٥ ، ١٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٥٣ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ،
جاني بك الظاهري « نائب جديده » :
١٥٢ ، ١٩٩ ،
جاني بك الفقيه : ٢٠٩ ،
جاني بك قلمتسير الاشرفي ١٥٣ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
جاني بك مملوك برسباي : ١٩٨ ،
جاولي « الامير » : ١٨٧ ،
الجاى اليوسفي « سيف الدين » :
١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
جبار آل فضل : ١٠٩ ،
جبيغا « نائب طرابلس » : ٣٧ ،
جرباش المحمدى المعروف بكركت :
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ،
١٩٩ ، ١٢٦ ،
جرباش مملوك الجاى اليوسفي :
جركس مملوك شعيبان : ١٢٧ ،
جعفر الصادق : ٧ ،
جتمق العالقي « الملك الظاهر » : ٤٩ ،
٥٠ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٩٣ ، ١١٤ ،
١١٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ،
١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ،
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣٠٤ ، ٢١١ ،
حكم العوضى : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
جمال الدين أقوش « نائب الكرك » :
جمال الدين محمود الأستاذار : ١٣٢ ،

١٦٢ ، ٢٢٣ ،
تمربغا الظاهري : ١٥٥ ،
تمربغا المنجكي : ١٢٢ ،
تذك البجاسي : ١٥٠ ،
تذكزغا المارديني : ١٢١ ،
تذكز الحسامي « سيف الدين » :
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
نعم الحسنى « نائب الشام » : ١٣٣ ،
١٤٤ ، ١٩٢ ،
نعم المؤيدى « نائب الشام » : ٤٤ ،
٤٥ ، ٢٢٠ ،
نوران شاه « الملك المعظم » : ٩ ،
١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ،
تيمورلنك : ٤٤ ، ٤٥ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٩٤ ،

ج

الجازاني : ١٧١ ، ١٧٥ ،
جان بلاط الخورى : ١٧٧ ،
جان بلاط « الملك » ، انظر الاشرف .
جان بردى العزالي : ٦٢ ، ٢٢٣ ،
جانم الاشرفي « نائب الشام » : ١٦٤ ،
جانم الشربيني : ١٦٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ،
جانم « نائب الشام » : ٥١ ، ٧١ ،
جاني باي : ٢١٤ ،
جاني بك الاشقر الدوادار : ٢٠٣ ،
جاني بك الصوفي : ٤٨ ، ١٤٧ ،

حسن الطويل ، ملك العراقيين ، :
٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
حسين الكردي : ٥٩ ، ٦٠ ،
حصن الدين ثعلب ، الشريف ، :
٢٤ ،
حمزة بن المتوكل على الله ، الخليفة
القائم بأمر الله : ٥٠ ،

خ

خاير بك بن بلباي ، ملك الأمراء ، :
٦٢ ،
خاير بك بن حديد : ١٥٧ ، ٢٠٨ ،
خاير بك الخزندار : ٢٢٧ ،
خاير بك الكاشف : ٢٢٩ ،
خرنبا ملك التتار : ١٠٠ ، ١٨٤ ،
خشقدم الآسود الطواشي الوزير :
٢٠٧ ،
خشقدم الزمام : ١٧١ ،
خشقدم الملك الظاهر : ٥٠ ، ٥١ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ،
١٧٢ ، ٢٠٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
خشقدم البيسقي : ٧١ ،
خشقدم البيسقي : ٢٢٢ ،
خليل بن قلاوون ، الملك ، انظر
الاشرف .
خليل بن قوصون : ١٢٤ ،

١٣٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
الجمالي يوسف البدرى : ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،
الجمالي يوسف ناظر الخصاص : ١١٧ ،
١٥٥ ، ٢٠١ ،
جوهرة التركاني الشبكي : ١٧ ،
جوهرة الصقلي : ٧ ،

ح

حاجي بن الناصر محمد ، الملك المظفر :
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
١٢٠ ، ١٨٩ ،
الحاكم بأمر الله "قاطمي" : ٨ ،
حارحور : ٣ ،
حسام الدين طرنتاي ، نائب
السلطنة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٩١ ،
٩٧ ، ٩٨ ،
حسام الدين الكنجكي : ١٣٥ ،
حسام الدين لاجين ، الملك المنصور :
١٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٨٣ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ،
حسن بن محمد ، الملك الناصر بن
الناصر : ١٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
٧٠ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
١١١ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ،
١٤٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
٢٠٥ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ،

زين الدين يعقوب بن الزبيره صاحب ،

١١٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥

الزيني بركات بن موسى المحدثب ، انظر
بركات ، :

الزيني عبد الباسط بن القرشي خليل :

١١٧ ، ١٤٩ ، ١٩٨ ،

زين الدين قاسم المعروف بشغينة :

٢٦١ ٢٦٢

س

سالم الدوكاري أمير التركان : ١٣٦ ،

سراج الدين البلقيني : ١٣٨ ،

سراج الدين الوراق : ٢٥١

سعد الدين البقري : ٢٥٥ ، ٢٥٦

سعد الدين بن مروان الفارقي : ٢٤٦

سعد الدين « فرج بن النجال » : ٢٠٠ ،

٢٠١ ،

سعد الدين القبطي : « انظر إبراهيم
ابن بركة .

السعيد محمد بركة بن بيبرس ، الملك .:

٢٨ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

سلار ، سيف الدين ، نائب السلطنة :

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٦ ،

سلامش ، سيف الدين الملك العادل

ابن بيبرس ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٩٧ ،

١١٧ ،

سليمان القانوني ، ملك العثمانيين : ٢٣٢

سليم الأول ، ملك العثمانيين : ٦٠ ،

خارويه : ٦

خوند الاحمدية « زوجة السلطان

خشقدم : ٢٢٢

خوند بركة « أم الاشراف شعبان ، :

١٢٦ ،

خوند سعادات « بنت صرغمش وأم

المظفر أحمد ، : ١٨٩

خوند سمرا : ١٩٧ ،

خوند شقراء « بنت الناصر فرج ، :

١٥٢ ،

خوند طولوز : ١٢٢

خوند قطلو ملك : ١٨٦

خوند مغلي « بنت اناصري البارزي ، :

١٥٥ ،

خير بك الدوادار : ٥٢ ، ٢٢٣ ،

د

دولات باي « نائب حلب ، : ١٧٩ ،

١٨٠ ،

ر

الرشيدي الفارقي : ٢٤٥

رئيس الثاني : ٢

ركن الدين بيبرس البندقداري « الملك

الظاهر ، انظر بيبرس .

ركن الدين بيبرس الجاشنكير « الملك

المظفر ، انظر بيبرس .

ز

زين الدين يحيى الحلبي الاستادار :

٦١ ، ٦٣ ، ١٨٢ ،

سنجر الجاولى « علم الدين » : ١٨٧ ،
سنجر الحلبي : ٢٦
سنجر الشجاعى « علم الدين » : ٣١ ،
٩٨ ،

سنقر الاشقر « شمس الدين » : ٢٩ ،
٩٧ ، ٩٦
سنقر الأعسر : ٢٤٢ ، ٢٥١ إلى ٢٥٣
سنقر الرومى : ٧٧ ،
سنقر المظفرى الألبى « شمس الدين » :
٩٦ ،

سوار ملك الأبلستين : ٥٣ ، ٦٠ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ،
٢٠٢ ، ٢٠٦ ،

سودون الشهابى الدوادار : ١٨٢ ،
سودون الظاهرى : ١٤٩ ،
سودون العجمى : ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٢ ،

سودون الفخرى الشيخونى : ٩٢ ،
٩٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٨ ،
١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٩١ ،

سودون المظفرى : ١٣٤ ، ١٣٥ ،
سولى بن ذى القادر أمير التركمان :
١٣٤ :

سيباى « نائب الشام » : ١٨١ ،
سيتى الأول : ٢

سيزو ستريس : ٢

سيف أمير آل فضل : ١٥٨ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ،

سيف الدين أبو بكر بن محمد : انظر
« الملك المنصور » ،

سيف الدين الأيوبى « الملك العادل » :
سيف الدين بخشى : ٢٦
سيف الدين برقوق « الظاهر » ، انظر
برقوقا .

سيف الدين تنكز الحسامى ١٨٤ إلى ١٨٩
سيف الدين الجاى اليوسفى : انظر
الجاى .

سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار :
١٠٧ ،

سيف الدين سلاى « نائب السلطنة »
انظر سلاى .

سيف الدين سلامش بن بيبىرس « الملك
العادل » ، انظر سلامش .

سيف الدين شيخو العمرى الناصرى :
١٦ ، ٣٧ ، ٩٢ ، ١١١ ، ١١٦ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

سيف الدين صرغتمش الناصرى :
انظر صرغتمش

سيف الدين طغجى الأشرفى : ١٠٠ ،
١٨٣ ،

سيف الدين قبلابى الناصرى : ١٠٩ ،
سيف الدين قطز « الملك المظفر » ،

شرف الدين أوحد بن الخطيرى :
انظر أوحد .

شرف الدين يحيى بن صنيعة : ٢٦٠
شرف الدين هبة الله بن صاعد
الفائزى : ٢٤٤ ، ٢٤٥

شرف الدين يحيى بن أربك : ١٦٢ ،
الشريف حصن الدين ثعلب : ٢٤
شعبان بن حسين « الملك » انظر
الأشرف .

شعبان بن محمد « الملك الكامل » :
٣٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ،

شمس الدين آق سنقر السالارى : انظر
آق سنقر .

شمس الدين آق سنقر الفارقانى : انظر
آق سنقر .

شمس الدين بن دانيال : انظر ابن
دانيال

شمس الدين بن السعلوس : انظر ابن
السعلوس

شمس الدين البياوى ومحمد : ٢٥٩ ، ٢٦٠
شمس الدين البساطى : ١٥٠ ،

شمس الدين سنقر المظفرى الألفى :
انظر سنقر .

شمس الدين شاكر بن غزىل البقرى : ٢٥٦
شمس الدين الفرنوى : ٢١٨ ،

شمس الدين قرا سنقر الجوكندار
المنصبرى : ٩٩ ،

شهاب الدين بن قطيمة : انظر أحمد

انظر قطار المعزى .

سيف الدين قوصون . الأتابكى
والنائب : ١٥ ، ٣٥ ، ٧٠ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

سيف الدين منجك اليوسفى : ٦٦ ،
٩٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٧ ،

سيف الدين منكوتمر الحسامى . نائب
السلطنة : ٢٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٨٣ ،
سيف الدين كوندك الساقى : ٩٦ ،

ش

شادبك أبازا الإينالى الأشرى : ١٦ ،
شادبك الخوخ : ٢١٣ ،

شاكر بن البترى ، مجد الدين بن علم
الدين : ٢٦٠ ،

شاكر بن الجيعان ، علم الدين :
٢٠٣ ،

الشاه إسماعيل الصفوى : انظر
إسماعيل :

الشاه بضاع أخوسوار : انظر بضاع
شاهين الحسنى الجمدار : ١٩٢ ،

شجره لدر ، الملكة : ١٠ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٤ ،

شهاب الدين أحمد بن الناصر ، الملك
الناصر : انظر أحمد .

شهاب الدين العطار المصرى الشاعر :
١٢٩ .

الشهابى محمود : ٢٥٠

الشهابى أحمد بن أسدغا الطيار : ١٦٥
الشهابى أحمد بن العيني : انظر أحمد .

شيخ المحمودى ، الملك المؤيد :
١٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،

٨٢ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ،
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩٤ ،

١٩٨

شيخو العمري الناصرى : انظر سيم
الدين .

شيدشق : ٣

ص

الصالح أمير حاج بن شعبان ، الملك :
انظر أمير حاج .

الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد
، الملك : ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٤ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٢٠ ،
١٤٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٠ .

الصلاح علاء الدين أبو الفداء إسماعيل
ابن الناصر : انظر أبا الفداء .

الصلاح ناصر الدين محمد بن ططر
، الملك : ٤٨ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ .

الصلاح نجم الدين الأيوبي ، الملك :

١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ،

٩٤

صبيح الماطمى ، المعظمى ، الطواشى :
٢٠ .

صدر الدين المناوى ، القاضى :
١٩٣ .

صرغتمش الناصرى : سيف الدين ،
٣٨ ، ٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٩٠ .

صفرخجا الجركسى : ١٥٣ ،

صلاح الدين الأيوبي : ٨ ، ٩ ، ١٣ ،

صلاح الدين خليل بن قلاوون ، الملك :
انظر الأشرف .

صلاح الدين الصالح بن الناصر محمد
، الملك ، انظر الصالح .

صلاح الدين الصفدى : ١٨٦ ،

ط

طاجار : ١٠٥ .

طاز الدوادار : ٣٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١١٢ ، ١٤٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

طراباى الشريفى : ١٧٠ ، ١٧٣ .

طنطاى نائب السلطنة : انظر حسام
الدين .

طشتمر البىدرى الساقى ، نائب

١٨٤ ،

ظ

الظاهر برقوق و الملك : : اظـ
برقوق .

الظاهر بلباي المؤيدى أبو النصر
و الملك : : انظر بلباي .

الظاهر بپرس و الملك : : انظر
بپرس .

الظاهر تمرغا و الملك : : انظر تمرغا
الظاهر جقمق العلائى و الملك : : انظر
جقمق .

الظاهر خشقدم و الملك : : انظر
خشقدم .

الظاهر ططر و الملك : : انظر ططر .

الظاهر قانصوه بن قانصوه و الملك : :
٥٦ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ،

١١٧ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٧٤ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ،

ع

العادل بن بپرس و الملك سيف
الدين : : انظر سلامش .

العادل سيف الدين الأيوبى و الملك : :
١٨ ،

العادل طومان باى و الملك : : انظر
طومان باى .

السلطنة : : ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
طشتمر العلائى : : ١١٠ ، ١٢٩ ،
١٣٠ .

طشتمر المحمدى الشهير باللفاف :
٩٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

ططخ باجر الرقيق : : ١٥٥ ،
ططر و الملك الظاهر : : ٤٧ ، ٤٨ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

طغجى الأشرفى : انظر سيف الدين .
طقتمر النظامى : : ١٢٥ ،

طقزدمر الناصرى و نائب السلطنة :
٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

طقطباى حاجب الحجاب : : ٢٦٤
طلانغ بن رزىك : : ٨

طنبغا الطويل : : ١٢٢ .
الطنبغا القرشى : : ٤٧ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ،

طولون بن على شاه : : ١٤٠ .
طومان باى و الملك : : انظر

الأشرف .

طومان باى و الملك ، العادل : : ٥٦ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
٢٢٢ ،

طيرس الخازندارى و علاء الدين : :

عز الدين بن مسافر تاجر الرقيق : ١٦ ، ٤

٤٢ ، ٦٦ .

عز الدين بن برقوق ، عبد العزيز

الملك المنصور ، : ٤٥ ، ٤٦

عز الدين بن عبد السلام : انظر

عبد العزيز .

عز الدين أبيك الأرم الصالحى ٩٧

عز الدين أبيك ، الملك المعز ، :

انظر أبيك .

عز الدين أبيك البغدادى : ٢٥٣

عز الدين لإيدمر الحلى : ٩٤ ، ٩٥ ، ٤

١١٢ .

عز الدين لإيدمر الخطيرى : ١٦٧ ، ١٧٧

عز الدين لإيدمر الظاهرى : ٢٥١

العزير يوسف بن برسباى ، الملك ، :

٤٩ ، ٦٦ ، ١١٨ ،

علام الدين آق سقمر : ١٧ ، ٢٩ ،

علام الدين بن أبى الجود ، على ، :

٢٢٤ .

علام الدين بن زنبور : انظر ابن

زنبور :

علام الدين أبو الفداء إسماعيل بن الناصر :

انظر الصالح .

علام الدين أقبا ، الناصرى : ، انظر

أقبا .

علام الدين لإيدكن البندقدار : انظر

إيدكن .

العاذل كتيبغا ، الملك ، : ١٧ ، ٣١ ،

٢٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٢ ، ٩٩ .

العاذل العالمى : ٨

عبد الباسط بن القرشى خليل : انظر

الزبى .

عبد الرحمن بن بنت الأعز : انظر

نقى الدين .

عبد الرحيم بن محمود العيني : ٢٢٢

عبد الرحيم البيسانى ، القاضى الفاضل ، :

١٠ ،

عبد العزيز بن عبد السلام ، عز الدين ، :

١٦ ، ٢٧ ، ٧٥ .

عبد العزيز الانصارى : ٧٠ .

عبد العزيز بن برقوق ، الملك المنصور

عز الدين ، : ٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٩٧ .

عبد القادر الطويل : ٢٦١

عبد الله بن تاج الدين ، علام الدين

ابن زنبور ، : انظر ابن زنبور

عبد الله الوزيرى : ١٨٤ ،

عبد الله يحيى الزوى : ٢٧

عبد الوهاب بن عبد الله ، انظر تاج

الدين بن شاكر ، :

عبد الوهاب بن بنت الأعز : انظر

تاج الدين

عثمان بن جقمق ، الملك المنصور ، :

١٥ ، ١٦ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٦٤ .

علاء الدين الديراي « تاجر الرقيز »

١٨٥

علاء الدين طيبرس الخزنداري :

انظر طيبرس .

علاء الدين بك بن الناصر « الملك » :

انظر الأشرف .

العلاء بن الأهناسي « علي بن محمد » :

١٩٩ ، ٢٠٠ .

العلاء بن إينال اليوسفي « علي » :

٦٦ .

علاء والي القاهرة : ٧٣ ،

علم الدين سنجر الجاولي : ١٨٧ ،

علم الدين سنجر الشجاعى : ٣٠ ،

٩١ .

علم الدين شاكر بن الجيعان : ٢٠٢ ، ٢٠١

علي باي : ١٤٣ .

علي بن أبي الجود « انظر علاء

الدين » :

علي بن أبي طالب : ٧ .

علي بن إينال اليوسفي : انظر

« العلاء » .

علي بن سعيد الدين محمد : « انظر بهاء

الدين بن حنا » .

علي بن شمعون « الملك المنصور » :

٤٠ ، ٤٢ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٤١ ، ١٩١

علي بن محمد الأهناسي : « انظر

العلاء »

علي بن المعز أبيك « الملك المنصور

نور الدين » : ٢٤ ، ٢٥ ، ٦٨ ،

١١٥ ، ١١٨ ،

علي باي :

علي ذرلات أخوسوار : ٥٤ ،

١٥٩ ، ١٦٣ ، ٢١٧ ،

علي المارديني : ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٩٠ .

العلاء الضائع : ١٤ ، ٢٦ .

عماد الدين زنكي : ٨٠ ، ٨٤ .

عماد الدين النابلسي « الطيب » : ٩٥ .

عمر بن الخطاب : ٥

عمر بن العارض : ٢٠٢ .

عمرو بن العاص : ٥٠ .

عمر بن قايمار : ٢٥٦ ، ٢٥٧

غ

غازان ملك التتار : ٣٢ ، ١٠١ .

ف

الفائز الفاطمي : ٨

فارس الدين أقطاي : انظر أقطاي

فارس الدين أقطاي المستعرب : انظر

أقطاي .

فاطمة الزهراء : ٧

١٥٥ .
 قاني باي فرفور : ٢٠٣ .
 قايتباي و الملك ، انظر الاشرف .
 قبلاي الناصري : انظر سيف الدين .
 قجق الشعباني : ١٤٨ .
 قرا تيمر : ١٢٣ .
 قرا سنقر المنصوري : انظر شمس الدين .
 قراقوس الظاهري : انظر بهاء الدين .
 قرا ملك : ٤٨ .
 قرطاي الطازي : ١٢٨ .
 قرقاس بن ولي الدين : ١٧٦ إلى
 ١٧٩ ، ٢١٣ .
 قرقاش الشعباني : ٤٩ ، ١٤٦ ،
 ١٥٠ ، ١٥١ .
 قرقاش المقرئ .
 قشتمر المنصوري : ٩٢ ، ١٠٩ ،
 ١١٦ ، ١٢٢ .
 قصروه نائب الشام : ٥٧ ، ١١٦ ،
 ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
 ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
 ١٨٠ .
 قطر الندى : ٦ .
 قطر المعزى سيف الدين و الملك
 المظفر : ١٥ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
 ٦٨ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .

قصر الدين بن لقمان القاضي : ٩ ، ٢٠ .
 فرج بن برقوق : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٦ ،
 ٨١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ،
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ .
 فرج بن النحال سعد الدين : انظر
 سعد الدين .

ق

قاسم شغيته : انظر زين الدين .
 القاضي الفاضل : انظر عبد الرحيم .
 قانصوه البرجي : ١٧٤ .
 قانصوه بن قانصوه و الملك : انظر
 الظاهر .
 قانصوه خنساء و الأتابكي : ٥٥ ،
 ٧١ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،
 ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ .
 قانصوه الشامي : ١٦٣ .
 قانصوه الغوري : انظر الاشرف .
 قانصوه المحمودي : ١٧٧ .
 قانصوه اليحياوي : ٢١١ .
 قان بردي الدوادار : ١٧٣ .
 قانباي العلائي : ١٩٦ .
 قائم التاجر المؤيدي : ١٥٢ ، ١٥٣ .

كرای المنصوری : ١٨٤ .
 كرتبای الأحمر : ١١٧ ، ١٦٣ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ .
 كرجی : ١٠٠ ، ١٨٣ .
 كريم الدين الصغير : ١٨٥ .
 كزل تاجر الوقيق : ٦٦ .
 كليوترا : ٤ .

كشيفا الحموي : ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .
 كوندك الساقى انظر سيف الدين .

ل

لاجين الملك المنصور : انظر حسام الدين
 لويس التاسع ملك فرنسا : ١٨٠ ، ٩ ،
 ١٩ ، ٢٠ .

م

المؤيد أبو الفداء إسماعيل صاحب
 حاة : انظر أبا الفداء .
 المؤيد أحمد بن إنيال : الملك ، انظر
 أحمد .
 المؤيد شيخ المحمودى : الملك ، انظر
 شيخا .

المتوكل على الله العباسى : ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ .
 مجد الدين بن البقرى : انظر شاكران .
 مجد الدين بن لفيته : انظر شاكران .

قطبجا بن بلبان الجو كندار : ٨٠ .
 قطبجا علا الدين : ٨٠ .
 قطبغا الفخرى : ١٠٥ ، ١٠٦ .
 قطوبغا السكركى : ١٩٧ .
 قطوبك الملاى : ١٩٢ .
 قطوشاه : ١٠٠ .
 قطوبغا : أخو أينبك : ١٢٩ .
 قطوبغا السلحدار : ١٢١ .
 قفجى نائب الشام : ٣٢ .

قلاوون : الملك المنصور : ١٧ ،
 ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ،
 ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٣ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ،
 ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢١٦ ،
 ١١٧ ، ١١٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ .

قبيز : ٣

قوضون : الأتابكى والنائب : انظر
 سيف الدين .
 قيت الرجبى : ١١٢ ، ١٧٠ ، ٩٧٣ ،
 ١٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .
 قيت الساقى : ١٧٣ .

ك

الكامل شعبان بن الناصر محمد
 : الملك ، انظر سيف الدين .
 كتبغا : الملك العادل : انظر العادل .
 كجك بن الناصر محمد : الملك ، انظر
 الأشرف .

محمد بن محمد « تاج الدين بن حنا »
انظر تاج الدين .

محمد بن يحيى بن شاذلي : انظر
أبا البقاء .

محمد بركة خان و الملك السعيد بن
بيبرس ، انظر السعيد .

محمد و الناصر بن جمال الدين بن
الاستادار .

محمد نور الدين بن زركي : ٨ ،
٨٤ .

محيي الدين عبد الرحيم : القاضي الفاضل
انظر عبد الرحيم .

المستضيء العباسي .

المستقيم بالله العباسي : ١٢٨ .

المستعين العباسي : ١٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٦٨ ، ١١٧ ، ١٤٦ ، ١٩٥ .

المستنصر بالله الفاطمي : ٧ .

المستكفي بالله العباسي : ٣٧ .

مسعود الأيوبي : ٢٤ .

مصر باي الدوادار : ٥٩ ، ١٧٥ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ .

المظفر أحمد بن شيخ و الملك ، انظر
جم .

المظفر بيبرس الجاشنكير و الملك ،
انظر بيبرس .

المظفر حاجي بن الناصر و الملك ،
انظر حاجي .

المظفر صاحب حماة : ٧٠ .

محمد البيباوي و شمس الدين ، انظر
شمس الدين .

محمد بن بكتمر : ٨٠ .

محمد بن حاجي و الملك المنصور بن المظفر ،
٣٨ ، ٣٩ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،

١١٦ ، ١٢٢ .

محمد بن ططر و الملك الصالح ناصر
الدين : انظر الصالح .

محمد طنج : ٦ .

محمد بن صاحب حماة و المنصور بن
المظفر ، ٧٠ .

محمد بن العيني : ٢٢٤ .

محمد بن قايتباي و الملك الناصر ، :

١٥ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٨٢ ،

١١٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .

محمد بن قلاوون و الملك الناصر ، :

١٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٦ ،

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،

٨٥ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢٨ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٨٨ .

المنصور قلاوون ، الملك ، انظر
قلاوون .

المنصور محمد بن المظفر صاحب حماء :
انظر محمدا .

المنصور محمد بن حاجي ، الملك ، :
انظر محمدا .

منطاش الأشرقي : انظر تمرغا
الأفضلي .

منفتاح : ٢ .
منكلي بغا الشمسي : ١٢٥ ، ١٢٦ .

منكوتمر الحسامي نائب السلطنة : انظر
سيف الدين .

موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش .
موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة

القبطي الوزير :
مهنا أمير العرب : ١٥٣ .

مينا : ١

ن

الناصر أحمد بن الناصر محمد ، شهاب
الدين الملك ، انظر احمد .

الناصر الأيوبي ، الملك ، .
الناصر حسين بن الناصر محمد : انظر

حسنا .
ناصر الدين بن الحنفى ، شيخ العرب ، :

ناصر الدين بن الرماح : ١٩٣ .
الناصر فرج بن برقوق ، الملك ، انظر

فرجاً .

المظفر قطز المعزى : انظر قطز .
المظفر يوسف الأيوبي ، الملك ، انظر

الأشرف .
المعتضد العباسي ، أبو بكر الخليفة ،

انظر أبا بكر .
المعز أيك ، الملك ، انظر أيك .

المعز لدين الله الفاطمي : ٧ .
المعظم توران شاه ، الملك ،

انظر توران شاه .
مغلطاي الجمالي :

ملكباي بنت قرقاس : ١٦٤ .
ملكستمر الشيخوني : ١٢٥ .

ملكستمر المحمدي : ١٢٥ .
ملكشاه بن ألب أرسلان : ١١٥ .

منجك اليوسفي : انظر سيف الدين
المنصور أبو بكر بن الناصر : انظر

با بكر .
المنصور حسام الدين لاجين ، الملك ،

انظر سيف الدين .
المنصور عبد العزيز بن برقوق

، الملك ، انظر عبد العزيز .
المنصور عثمان بن جقمق ، الملك ،

انظر عثمان .
المنصور علي بن الأشرف : انظر

عليا .
المنصور علي بن أيك ، نور الدين

ابن المعز ، الملك ، انظر عليا .

الناصر محمد بن قايتباي «الملك» انظر محمدا .
الناصر محمد بن قلاوون «الملك»
انظر محمدا .
الناصرى بن البارزى : ١٥٥ .
الناصرى محمد بن خاص بك : ١٧٨ .
الناصرى محمد بن فرج الناصر :
الناصرى محمد بن محمود جمال الدين
الاستادار :
نجم الدين الاصفوفى :
نجم الدين الايوبى «الملك الصالح»
انظر الصالح .
نظام الدولة : ١١٥ .
نعير بن جبار : ١٤٠ .
نور الدين على بن أيبك المعز «الملك
المنصور» : انظر عليا .
نور الدين محمود بن زنكى : انظر محمودا .
نوروز الخاقطى : ٤٦ ، ٤٧ ، ١٤٤ ،
١٤٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٧ .
و
الوليد بن عبد الملك : ٦ .
هـ
هولاكو : ٢٥ .
ى
يحيى الاستادار : انظر زين الدين .
يشبك الدوادار : ٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، إلى ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

يشبك الساقى المعروف بالأعرج : ١٤٨ .
يشبك السورى : ١٥٠ ، ١٥١ .
يشبك الشعبانى الدوادار : ٤٥ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ .
يشبك الفقيه : ٢٢٢ .
يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ .
يعقوب بن كلس «أبو الفرج» .
يعقوب صاحب زين الدين بن الزبير :
يلبغا آص المنصورى : ١٢٤ ، ١٢٥ .
يلبغا الاحمد الاستادار : ١٣٣ .
يلبغا أروس : ١١١ ، ١٢٠ .
يلبغا السالمى : ١٤١ .
يلبغا العمري الناصرى «ملوك الناصر
حسن ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٦
٨١ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
١٩٠ ، ١٩٤ .
يلبغا الناصرى نائب حلب : ٤٣ ،
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ .
يلبغا اليحياوى : ١١١ .
يوسف بن برسباي «الملك» انظر العزيز .
يوسف الايوبى مظفر الدين «الملك» .
يوسف البدرى : انظر الجمالى .
يوسف ناظر الخااص : انظر الجمالى .

فهرس القسم الأول من الجزء الأول

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠	مقدمة الكتاب	٣١	العاذل كسبغا المنصوري
١	نظرة سريعة في تاريخ مصر	٣٢	المنصور حسام الدين لاجين
١	من الفراعنة إلى المماليك : تمهيد.	٣٢	العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون
١	مصر الفرعونية	٣٣	المظفر ركن الدين بيبرس
٤	مصر من عهد الإسكندر الى فتح العرب	٣٤	العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون
٥	مصر من فتح العرب حتى قيام دولة المماليك	٣٥	المنصور سيف الدين أبو بكر
١١	مصر في عهد المماليك ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ	٣٥	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد
١٢	أصل المماليك	٣٥	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد
١٨	انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك	٣٦	الصالح علاء الدين اسماعيل
٢٢	حولنا المماليك : الدولة البحرية	٣٦	الدكامل شعبان بن الناصر محمد
٦٤٨ هـ - ٧٨١ هـ		٣٦	المظفر حاجي بن الناصر محمد
٢٣	الملك المعز عز الدين أيك	٣٧	الناصر أبر المحاسن حسن بن الناصر محمد
٢٤	المنصور نور الدين بن المعز	٣٧	الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد
٢٥	المظفر سيف الدين قطز	٣٨	عودة الناصر حسن بن الناصر محمد
٢٦	الظاهر ركن الدين بيبرس	٣٨	المنصور محمد بن المظفر حاجي
٢٨	السعيد أبو المعالي محمد	٣٩	الأشرف شعبان بن حسين .
٢٨	العاذل سيف الدين سلامش	٤٠	المنصور علي بن شعبان
٢٩	المنصور سيف الدين قلاوون	٤٠	الصالح أمير حاج بن شعبان
٣٠	الأشرف صلاح الدين خليل		
٣١	الناصر محمد بن قلاوون		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٦	الظاهر قانصوه بن قانصوه	٤١	دولة المماليك الجركسية
٥٧	الأشرف جان بلاط بن يشبك	٤٢	الظاهر برقوق العثماني
٥٧	العادل طومان باي	٤٣	عودة الصالح أمير حاج بن شعبان
٥٨	الأشرف قانصوه الغوري	٤٣	عودة الظاهر برقوق العثماني
٦٢	الملك الأشرف أبو النصر	٤٤	الناصر فرج بن برقوق
	طومان باي	٤٥	المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق
٦٣	تعقيب		
٦٥	السلطنة ونظام الحكم	٤٦	عودة الناصر فرج بن برقوق
٧٦	ثقافة المماليك وتربيتهم	٤٦	سلطنة الخليفة المستعين بالله لعباسي
٨٤	الرتب والمناصب الهامة في الدولة	٤٧	المؤيد أبو النصر شيخ محمودي
٩٠	نيابة السلطنة	٤٧	المظفر أبو السادات أحمد بن المؤيد شيخ
٩٣	نواب السلطنة	٤٨	الظاهر ططر
٩٣	علاء الدين إبدكن البندقدار	٤٨	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر
٩٤	عز الدين إيدمر الحلي	٤٨	الملك الأشرف برسباي
٩٥	بدر الدين بيليك الخازندار	٤٩	الملك العزيز يوسف بن برسباي
٩٦	شمس الدين آق سنقر الفارقاني	٤٩	الظاهر جقمق العلائي
٩٦	شمس الدين سنقر المظفري الألفي	٥٠	المنصور عثمان بن جقمق
٩٦	سيف الدين كوندك الساق	٥٠	الأشرف إينال العلائي
٥٧	عز الدين أيك الأفرم الصالحى	٥٠	المؤيد أحمد بن إينال
٩٧	حسام الدين طرناي	٥١	الظاهر خشدقدم الناصري
٩٨	بدر الدين بيدرا	٥٢	الظاهر أبو النصر بلباي
٩٩	شمس الدين قراسنقر المنصوري	٥٢	الظاهر أبو سعيد تمرغا الناصري
١٠٠	سيف الدين منسكوتمر الحسامي	٥٢	الأشرف أبو النصر قايتباي
١٠١	سيف الدين سلاز المنصوري	٥٥	الناصر محمد بن قايتباي
١٠٢	بيكستمر الجوكندار المنصوري		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٣	بيبرس الدوادار المنصوري	١١٨	فارس الدين أقطاي المستعرب
١٠٣	أرغون الدوادار الناصري	١١٩	بكشتمر الساقى
١٠٣	طقز دمر الناصري	١٢٠	سيف الدين شيخو العمرى
١٠٤	سيف الدين قوصون الساقى	١٢١	يلبغا العمرى الناصري الكبير
	الناصري	١٢٣	المقر الصيفى استدمر الناصري
١٠٦	طشتمر البدرى الساقى	١٢٥	يلبغا آص المنصوري
١٠٦	شمس الدين آق سنقر السلارى	١٢٥	منكلى بغا الشمسى
١٠٧	سيف الدين الحاج آل ملك	١٢٦	سيف الدين الجاى اليوسفى
	الجوكنندار	١٢٧	المقر السيفى إيدمر
١٠٧	أرقطاي القفجقى	١٢٧	المقر السيفى أرغون شاه الأشرقى
١٠٨	ببغا أروس الناصري	١٢٧	الأمير طشتمر المحمدى
١٠٨	أرغون السكاملى	١٢٨	المقر أيزبك البدرى
١٠٩	سيف الدين قبلای الناصري	١٢٩	المقر السيفى طشتمر العلائى
١٠٩	قشتمر المنصوري	١٣٠	المقر السيفى إيتمش البجاشى
١٠٩	على الماردینى		الجرکسى
١١٠	طشتمر العلائى	١٣٣	المقر السيفى يلبغا الناصري
١١٠	المقر السيفى إيدمر الدوادار	١٣٧	تمر بغا الأفضلى المعروف بمنطاش
١١٠	سيف الدين منحك اليوسفى		الأشرقى
١١٣	آقتمر الصاجى	١٤٠	إينال اليوسفى
١١٣	آقتمر بن عبد الغنى	١٤٢	كشيبغا الجوى
١١٣	سودون الفخرى الشيوخونى	١٤٣	بيبرس الركنى
١١٤	تمراز	١٤٥	نغرى بردى بن يشبغا
١١٤	أقبغا التمرزى	١٤٦	الطنبغا القرشى
١١٥	أنا بكية العسكر	١٤٧	جائى بك الصرى
١١٨	الأنابكية	١٤٨	قجق الشعبانى

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٨	يشبك الساقى المعروف بالأعرج	١٨٤	آقوش الأفرم الجركسى
١٤٩	بيضا المظفرى	١٨٤	عز الدين إيدمر الخطيرى
١٤٩	سردون الظاهرى	١٨٥	بدالدين التركانى
٢٥٠	قرقاس الشعبانى	١٨٥	سيف الدين تنكز الحسامى
١٥٠	يشبك السودونى	١٨٦	علاء الدين أقبغا الناصرى
١٥١	تافى بك البردبكى الظاهرى	١٨٧	علم الرين سنجر الجاوى
١٥١	جوباش الجركسى المحمدى	١٨٧	علاء الدين بن زنبور
	المعروف بكرت	١٧٨	سيف الدين صرغتمش الناصرى
١٥٣	قائم التاجر المؤيدى	١٨٩	طاز الدوادار
١٥٣	جانى بك قلقسير الأشرفى	١٩٠	أزدمر العمرى
١٥٥	أزبك بن ططخ	١٩١	بيدمر الخوارزمى
١٥٧	إنشاء الأذربكية	١٩١	جمال الدين محمود الامتادار
١٦٢	الأمير تميز الشمسى	١٩٢	تم الحسنى
١٦٥	قانسوه خمسمائة الأشرفى بن	١٩٣	نوردوز الحافظى
	طراباى	١٩٥	جسكم العوضى
١٧٠	تافى بك الجمالى الظاهرى	١٩٧	يشبك الشعبانى الدوادار
١٧١	قصوره نائب الشام	١٩٨	عبد الباسط بن القرشى خليل
١٧٣	قيت الرجبى	١٩٩	جانى بك الظاهرى الجركسى
١٧٦	قرقاس بن ولى الدين		الدوادار
١٧٩	دولات باى من بن أركاس	١٩٩	برد بك الأشرفى
١٨٠	سودون العجمى	١٩٩	العلائى على بن محمد الأهناسى
١٨٢	سودون الشهبانى الدوادار		الامتادار
١٨٣	أفداز من رجال العصر	٢٠٠	الامتادار زين الدين الحلبي
١٨٠	سيف الدين طنجى الأشرفى	٢٠١	برد بك البجمقدار
١٨٤	علاء الدين طيبرس الخازندارى	٢٠٢	برقوق الناصرى

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٠٢	لمينال الأشقر البجاوى	٢٤٤	زين الدين يعقوب بن الزبير
٢٠٣	القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان	٢٤٥	بهاء مدين بن حنا المصرى
٢٠٤	الأمير جاثم الشربى	٢٤٦	علم الدين منجر الشجاعى
٢٠٤	يشبك بن مهدى الدوادار	٢٤٨	شمس الدين بن السعلوس "تموخى"
٢١١	قانسوه اليحياوى	٢٥٠	تاج الدين بن حنا
٢١١	أبو البقاء بن الجيعان	٢٥١	شمس الدين سنقر الأسر
٢١١	أقردى الدوادار بن على باى	٢٥٣	بسكرتمر الحاجب المنصورى
٢١٧	كرتباى الأحمر بن مصطفى	٢٥٤	مغلطاي الجمالى
٢١٩	أزبك اليوسفى	٢٥٥	الجناب الناصرى محمد بن الحسام
٢٢٠	أقبای الطويل		الصقرى
٢٣١	الأمير تانى بك قرا	٢٥٥	موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش
٢٣١	مصر باى الداودار	٢٥٦	محمد بن رجب بن كلبك
٢٢٢	المقر الشهابى أحمد بن العيى	٢٥٧	مبارك شاه الظاهرى
٢٢٤	علاء الدين على بن أبى الجود	٢٥٧	الجباب الركبى عمر بن قايماز
٢٢٥	الأمير صرا باى الشربى	٢٥٧	سعد الدين القبطى
٢٢٧	خاير بك الخازندار	٢٥٨	ناج الدين بن أبى شاكر
٢٢٧	قانى باى قرا	٢٥٨	أمين الدين بن الهيمضم
٢٢٨	جان بردى الغزالى	٢٥٩	سعد الدين فرج بن ماجد النحال
٢٢٢	خاير بك بن بلباى	٢٥٩	الشمس محمد البجاوى
٢٣٦	الزبى بزكت بن موسى المحتسب	٢٦٠	شرف الدين يحيى بن صايعة
٢٣٩	الوزارة	٢٦٠	مجد الدين بن البقرى
٢٤٣	الوزراء	٢٦١	زين الدين قاسم المعروف بشغيمته
٢٤٣	هبة الله بن صاعد الفائزى	٢٦١	خشقدم الاحدى
		٢٩٣	الجمالى يوسف البدرى

عصر الأئمة الإمامية ونشأته العلمي والأدبي

تأليف الدكتور

محمود زور سليم

رئيس قسم الأدب بكلية الدراسات العربية — جامعة الأزهر

المجلد الثاني

وهو القسم الثاني من الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م

وَالرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ

شائع الجيش - كنيسة الأرمن

مراجع القسم الثاني من الجزء الأول

أثبتنا في صدر القسم الأول من هذا الجزء عددا من مراجعه، ذاكرين الكتاب والطبعة التي اعتمدنا عليها . وهذه المراجع هي نفسها مراجع القسم الثاني أيضا ، ونزيد عليها ما يلي :

- ١ - تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي . طبع بالمطبعة المنيرية عام ١٣٥١ هـ
- ٢ - المختصر لأبي الفداء طبع الآستانة عام ١٢٨٦ هـ
- ٣ - تحفة الأحباب للسخاوي على هامش نفح الطيب ، طبع المطبعة الأزهرية بالقاهرة عام ١٣٠٤ هـ
- ٤ - الفوائد البهية للكنوزى الهندى طبع الهند سنة ١٩٢٣ م
- ٥ - الطالع السعيد للإدفعوى طبع مطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ
- ٦ - رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٧ - نهاية الأرب للنويرى طبع دار الكتب المصرية .
- ٨ - تاريخ ابن الوردي وتتممة المختصر، طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ.
- ٩ - تقويم النيل لأمين باشا سامى طبع مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٦ هـ.
- ١٠ - النجوم الزاهرة لأبي المحاسن بن تغرى بردى طبع دار الكتب المصرية.
- ١١ - عجائب المقدور في أخبار تيمور ، لشهاب الدين أحمد بن عربشاه. طبع المطبعة العثمانية بباب الشعرية بمصر عام ١٣٠٥ هـ .
- ١٢ - إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقرئى . طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠ م .
- ١٣ - المدخل لابن الحاج. طبع المطبعة المصرية بالأزهر عام ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وبعد فهذه هي الطبعة الثانية للمجلد الثاني من كتاب عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، وهو القسم الثانى من جزئه الأول . ويتضمن هذا المجلد خلاصات فى ضروب من الأحوال الاجتماعية فى مصر تلقى أضواء على نواح من حياة المجتمع المصرى فى عصر المماليك .

وقد راجعنا هذه الطبعة وصححنا ما كان من خطأ ، وأكملنا ما كان من نقص ، وزودناها بما ينبغى أن تزود به من الجديد الضرورى ، والله نسأل أن ينفع بها القراء .

مقدمة الطبعة الاولى

حمد الله على ما أولاه ، وشكر آله على ما أنعم به وأسداه ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه أولى النبل والفضل ، وذوى الأدب اللباب والعلم والجزل .

وبعد فقد أعان الله على إظهار القسم الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب الجامع عصر سلاطين الممالك ونتاجه العلمى والأدبى . وقد لمس القارىء الكريم فيه - بلاريب - ما استنفد من جهد ، وما احتاج إليه من مشقة ، وما استغرق من زمن ، وما بذل فيه من عناية .

وها نحن أولاء نصدر قسمه الثانى ، مستمدين من الله فى الإرادة قوة ، وفى العزيمة مضاء ، وفى الهمة توثبا ، وفى النشاط جدة ، راجين منه سبحانه ، أن يلهم السداد فى كل خطوة ، ويهب الصواب فى كل مرحلة ، وأن يهيئ السبيل لنجاز هذه الموسوعة وإظهارها للناس متتابعة فى عهد قريب .

وهذا القسم - الذى نقدمه - يتم سابقه ، ويتألف منهما الجزء الأول ، الذى خصصناه للموجزات التاريخية وتراجم بعض الرجال المتصلين بموضوعاتها .

ويرى القارىء فى هذا القسم - على غرار سابقه - عدة من نواحي الحياة فى العصر المذكور . الحديث عنها قد يوضح غامضا ، ويحلى مبهما ، أو يركز حائراً ويسكن قلقاً ، أو يكشف الغطاء عن مخبوء ، أو يلم الشعث من متفرق . وفى خلال هذا وذاك طرف من القول محمود ، وملح من الحديث . معجبة فريدة .

وقد بدأناه بفصل عن الخلافة العباسية الثانية ، وتراجم خلفائها . ثم أتبعناه

بفصل آخر عن القضاء وأحواله ، مع تراجم رجاله ، من أول العصر إلى آخره . ثم بفصول أخرى عن الحمل والحج والفيضان والرسول والقصاده السفراء ، والهدايا . وتحدثنا في فصل طويل عن حسنات العصر ومساوئه ، وركزنا في هذا الفصل جملا من الحديث عن بعض نواحي الحياة في سياسة العصر وإدارة الدولة وأتجاهاتها . فتحدثنا في إجمال ووضوح معاً ، عن حروب الممالك مع التتار ومع الفرنجة ، وعن استقلال البلاد في عهدهم ، وعن التعليم وسياسته ، وعن الجيش والسجون والثورات الداخلية ، وغير ذلك . ويرى القارىء في ثنايا هذا الفصل ألوانا من الرأى جديدة نافعة .

وأتبعنا الفصل المذكور بحديث عن التقاليد والعادات المرعية في الحياة الرسمية وغير الرسمية ، وأثبتنا نصوصاً مأثورة ، وحكايات مروية تنطق بلسانها ، وتكلم معبرة وشاهدة بنفسها ، عما كان في العصر من مزاج واتجاه ، تاركين للقارىء أحيانا أن يستنبط من بعضها ما يشاء ، ويصل بنفسه منها إلى ما يريد .

وحرصنا في كل ما ذكرناه على ذكر مرجعه وسنده - كدأبنا - معونة لمن شاء التثبت والتزيد . وقد يرى القارىء أننا أكثرنا من أبواب الجزء الأول ، دون أن نستقصى جميع المسائل في كل باب ، وقد نوهنا في مقدمة الكتاب بالقسم الأول بأن الاستقصاء لم يكن غاية من غاياتنا ، فتركناه لظروف أخرى أو لباحثين آخرين . وإنما أكثرنا في الأبواب انضغ بذلك عدة لبنات متواضعة في بناء بحوث جديدة ، نرجو أن تصلح كل لبنة منها لإقامة صرح من البحث مفيد .

واقه نسال أن يهب التوفيق والسداد ، ويهdy إلى سبيل الرشاد ، لنؤدى لآمتنا المصرية الكريمة بعض ما يجب علينا إزاءها ؟

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخلافة العباسية الثانية (١)

لما اكتسح التتار ملك العراق، وأسقطوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وعاثوا في أرجائها فسادا، وضموا مملكتهم إلى مملكتهم، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي آخر خلفائها ، وولى عهده ، فزالت بزوالها الخلافة العباسية الأولى، ومثلوا بعلماؤها وأحرقوا كتبها، كان لذلك أثر بالغ، وصدى بعيد المدى، في مدينة القاهرة والبلاد المصرية ، التي كانت قد أصبحت تحيا تحت سيطرة سلاطين ممالكها . وهم مسلمون هالهم ما لقي الدين والعلم وأهلها ، على يد التتار ببغداد . وخشوا أن يصيبهم مثل ما أصاب القوم فيها . فتهبشوا للقائهم خيريته ، وأعدوا العدة لقتالهم أحسن إعداد . ثم وقعت بين الفريقين وقائع عدة ، كان النصر فيها سجالا . وانتصر سلاطين مصر في بعضها انتصارا حاسما .

آلت تركة بغداد بذلك إلى القاهرة ، وحملت مصر من الأعباء ما كان يحمله العراق . وصارت عاصمتها ومدنها الكبرى موئلا للعلوم الدين واللغة ، وملجأ لذويها ، يفدون إليها من شتى الممالك والأمصار ، أو ينشئون في أقيائها ، فيجدون في كنف ملوكها وأهلها ، مراحا خصباً وظلا ظليلا . وأصبحت القاهرة من ذلك الحين مركزا للعلوم الإسلامية والعربية .

وكما آلت هذه العلوم والمعارف إلى مصر ، وآلت إليها أعباء حماية المسلمين

(١) مرجع هذا الباب : تاريخ الخلفاء ، وحسن المحاضرة ج ٢ ، كلاهما للجلال السيوطي . وبدائع ابن أبياس ، وسلوك القريري في حوادث الأعوام ٦٥٣ هـ ، ٦٦٠ هـ ونهج ابن أبي الفضائل . ومختصر أنى الفداء ، وصبح الأعشى ج ٢ ، وتاريخ ابن خلدون ٣ ص ٤٤٠ تحت عنوان « فصل عن الخلفاء العباسيين بمصر » .

وبلادهم من أعدائهم ، آلت إليها كذلك الخلافة الزائلة من بغداد ، فجددت نفسها ولبست بها ثوبا من الحياة قشيبا . ووجد سلاطين المماليك في تجديد هذا شرعية لمكانهم من الملك ، ومكملا لمظهرهم الإسلامى ، وسبيلا إلى جمع قلوب الخاصة والعامة من المسلمين في سائر الأقطار حولهم . فيدعمون بذلك عرشهم ، ويثبتون سلطانهم . لذلك عاونوا معاونة كبرى على إنشائها واستمرارها .

فمنذ عصر الملك الظاهر بيبرس - في سنة ٦٥٩ هـ - أنشئ منصب خلافة إسلامية في مصر ، مركزه القاهرة . وأصبح أحد مناصب الدولة الرئيسية . وظل كذلك حتى آخر العصر الذى نحن بصدده - سنة ٩٢٣ هـ - أى نحو ثلاثة قرون .

وتوالى على هذا المنصب ، ستة عشر ، أو سبعة عشر خليفة من سلالة العباسيين . أولهم الإمام المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسى الهاشمى . وآخرهم الإمام المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن الخليفة المستمسك بالله يعقوب . وبعض المؤرخين يسقط المستنصر بالله - أول الخلفاء - من عدادهم . ويعتبر أولهم هو الذى وليه ، وهو الحاكم بأمر الله .

وتسمى كل منهم بأمير المؤمنين . وتوالوا على هذا المنصب بطريق الوراثة . وأعنى توريث الولد عن أبيه أو قريبه من العصب . ولم تخرج الخلافة عن أسرة الحاكم بأمر الله ، ثانى هؤلاء الخلفاء . غير أن هذا كان منوطا إلى حد كبير بإرادة السلطان . فقد يعهد الخليفة إلى ابنه ، ثم لا يقر السلطان هذا العهد ، ويختار رجلا غيره من الأسرة نفسها ، ينصبه خليفة ، كما وقع في عهد الناصر بن قلاوون - كما سياتى - .

وبلغت الفترة التى خلت فيها الدنيا من الخلافة الإسلامية نحو ثلاث سنوات ونصف من زوال خلافة بغداد في صفر عام ٦٥٦ هـ إلى انشاء الخلافة الثانية بمصر في رجب عام ٦٥٩ هـ .

وصاحب الفكرة في إنشائها ، هو - بلا ريب - الظاهر بيبرس . فلما نفذت فكرته ، واستقرت دعائمها ، أصبحت حالة مرعية وسنة متبعة .

و خلاصة ما رواه المقرئى فى سلوكه - فى حوادث عام ٦٥٩ هـ - بصدد
إنشاء ما يلى ، قال :

وفىها^(١) - أى سنة ٦٥٩ هـ - سار الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر
أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضى بالله العباسى . . . مع جماعة
من العرب بنى مهنا ، يريد دمشق . وكان قد فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة
المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة . ثم أراد أن يلحق بالملك
الظاهر بيبرس بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين إيدكن البندقدار ،
والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق : بأنه ورد إلى الغوطة رجل
ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر . وهو عم
المستعصم وأخو المستنصر . ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين
فارسا^(٢) . وأن الأمير سيف الدين قلعج البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين .
وقال هؤلاء يحصل المقصود .

فكتب السلطان إلى النواب بالقيام فى خدمته ، وتعظيم حرمة . وأن
يسير معه حجاب من دمشق ، فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر . فخرج
السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع^(٣) شهر رجب إلى لقائه^(٤) ومعه الوزير
الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء
وجميع العسكر ، وجمهور أعيان القاهرة ومصر ، ومعظم الناس من اليهود
والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة ، والنصارى بالإنجيل . فسار السلطان به
إلى باب النصر ودخل إلى القاهرة ، وقد لبس الشعار العباسى . وخرج الناس إلى
رؤيته . وكان من أعظم أيام القاهرة . وشق القصبة إلى باب زويلة ، وصعد قلعة
الجبل وهو راكب . فأنزل فى مكان جليل قدهى له بها ، وبالع السلطان فى
إكرامه وإقامة ناموسه .

(١) كان ذلك فى شهر رجب من عام ٦٥٩ هـ . (٢) قبل عشر من بنى مهارش .

(٣) فى ابن لياس : يوم الاثنين ١٩ رجب وفى حسن المحاضرة ٢ منه (٤) قبل : خرج السلطان
إلى لقائه بالطرية ، وعادا معا إلى القاهرة .

« فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره ، - أى ١٣ رجب - حضر قاضى القضاة ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ، والأمراء ومقدمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس ، وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فثلثوا كلهم بحضرة الأمير أحمد ، وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسي ولا طراحة ، ولا مسند ، وشهد العربان وخادم من البغادرة ، بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين . وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى ، نائب الحكم بمصر . والفقيه علم الدين محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق . والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب الدين الحرانى ، وسديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة . وأبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى التزمتى : أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر - فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم ، وأبجل على نفسه بالشبوت ، وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم ، حتى تم الإيجال والحكم . »

« فلما تم ذلك ، كان أول من بايعه القاضى تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان وبايع أمير المؤمنين المستنصر أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها فى مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار الدولة (١) . »

« فلما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله ، السلطان الملك الظاهر البلاد

(١) وهكذا قال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولكنه قال فى حسن المحاضرة ، كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ثم السلطان الظاهر ببيرس ثم القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ثم الأمراء . . . أخ وروى السبكي فى طبقاته فى سياق ترجمة الشيخ عز الدين أن الملك الظاهر لم يبايع واحدا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدم الشيخ عز الدين للبايعه . .

الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم . وكتب في الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك ، أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبي القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما ، انتهى .

ومما يذكر أن الخليفة المستنصر بالله ، خطب خطبة منبرية في جامع القلعة ، في يوم الجمعة التالي ليوم بيعته - ١٧ رجب - وذكر في خطبته شرف بني العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وحض على الجهاد .

هذا وقد ذكر السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » أن السلطان رتب للخليفة أتابكا وأستادارا وشرابيا ، وخازندارا ، وحاجبا ، وعين له خزانة ، وجملة ممالك ، ومائة فرس وثلاثين بغلا ، وعشرة قطارات جمال إلى أمثال ذلك .

تمت إذاً بيعة الخليفة ، وأصبح مصدرا للولايات الشرعية ، وكان لابد للملك الظاهر من أن يبايعه الخليفة ويقلده عرشه ، حتى تصبح ولايته شرعية . وقد رأينا في حفلة مبايعة الخليفة ، كيف بايع بدوره الملك الظاهر وولاه الأمور في بلاد المسلمين مبايعة سريعة عقب الانتهاء من مبايعته هو . - وفي يوم ٤ شعبان من السنة نفسها أقيمت حفلة مبايعة رائعة ، قلد فيها الخليفة الملك الظاهر عرش البلاد وألبسه بيده خلعة سوداء ، وعمامة سوداء ؛ وطوقا من الذهب في عنقه وقيدا من الذهب في رجله ، وفوض إليه الأمور في البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه من بلاد الكفر وسماه « قسم أمير المؤمنين » .

ولا ندرى بالضبط ما هي الدوافع التي دفعت الملك الظاهر بيبرس إلى أن يعجل بتجهيز هذا الخليفة بمال ورجال ويشخصه لقتال التتار واسترداد بغداد وبلاد العراق منهم . وأشخصه وحده ولم يرحل معه . . ربما كان ذلك نتيجة لإلحاح هذا الخليفة على السلطان بتعجيل الغزو ، ليسترد بلاده وبلاد أجداده ، أولئك يظهر السلطان للملأ صدق نيته وصفاء طويته لنصرة الإسلام والمسلمين ،

أو ليكون هذا الخليفة وجيشه بمثابة الطليعة لجيوش السلطان ، فإن أصابوا غنا تبعوهم ، وإلا تريثوا . وقد يكون السلطان أحس بروح من الحماسة الإسلامية تسرى في نفوس المسلمين جميعا بمناسبة تنصيب هذا الخليفة ، فخشى أن يلتفوا حوله ويجتمعوا إليه دونه ، فتفلت من يديه أزمة الأمور ، وهو إنما نصبه ليكون صنما يعمل باسمه وليس له من الأمر شيء ، فدفعه دفعا إلى قتال التتار ، منهزا رغبته في هذا القتال ، وهو يعلم أنه إنما يدفع به إلى أتون محرق .

ومهما يكن من شيء ، فقد سار هذا الخليفة إلى قتال التتار وخرج في ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ ، مجهزا بكل ما يحتاج إليه ، وسار معه الظاهر بيبرس إلى دمشق (١) ثم عاد إلى القاهرة ولقى التتار بقيادة مقدمهم قرابغا ، جيش الخليفة ، على مقربة من دهيت ، فدحروه ، وفر منه من فر ، ولم يعثر للخليفة على أثر ، قيل إنه قتل في المعركة في ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا في طائفة من العرب ، فمات لديهم .

كان فقد هذا الخليفة ، مجددا لمشكاة الخلافة مرة أخرى ، وقد انتهز الفرصة رجل آخر اسمه أحمد ، قال إنه من أمراء العباسيين ، وإنه كان في عداد جنود المستنصر بالله ، وأنه استطاع أن يفر بنفسه من القتل . وقدم إلى مصر فلقبه الظاهر بيبرس . وأعيد تمثيل الرواية السابقة ، فأقيمت حفلة لمبايعته بالخلافة بعد ثبوت نسبه ثم بايع السلطان بالسلطنة وتلقب بالحاكم بأمر الله . ويعتبره بعض المؤرخين أول الخلفاء بمصر ويغضون النظر عن سابقه المستنصر . ومن سلالاته جميع من ولى الخلافة بمصر من بعده .

كان وفود الحاكم بأمر الله إلى مصر في ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ ، ولبث بها مكرما حتى ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ ، وفي هذا اليوم تمت مبايعته ، ثم كتبت بيعته إلى الآفاق ليخطب له ، وتكتسب السكة باسمه .

(١) هذه رواية القرينى والسيوطى ، وذكر ابن أياس أنه سار معه إلى المطرية ثم عاد (ج ٢

ويلاحظ أن الظاهر بيبرس تريت هذه المرة في مبايعة هذا الخليفة الثاني . ولم يجعل إليها كما عجل في الأولى . فقد بقي الحاكم بأمر الله نحو ستة شهور مقبياً بغير مبايعة بعد قدومه إلى مصر ، ولعل مرجع هذا التريث رغبته في التثبت من مقتل المستنصر ، أو رغبته في اتخاذ الآهبة لسكبج جماح الخليفة - فيما بعد - إذا أحاط به ما يدفعه إلى الجموح ، والتطلع إلى الاستئثار بشيء من الأمر . ولذلك قال السيوطي في حسن المحاضرة ، بعدما تمت مبايعة الحاكم بأمر الله ، ما نصه :

« ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده في القلعة وعنده حريمه وخدمه وغلمانة موسعا عليه في النفقات والكساوى ، يتردد إليه العلماء والقراء على أكل ما يكون من أنواع الإكرام ، وملاحظة جانب الإجلال والمهابة ، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ، ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر . واستمرت الخلافة من ذلك الحين قائمة ، حتى زالت بزوال الدولة .

والخلافة العباسية المصرية قريبة الشبه بالخلافة العباسية البغدادية في طورها الثاني - أى منذ عام ٣٣٤ هـ - تقريبا ، ومنذ احتل البويهيون بغداد وأصبحوا فيها أهل الأمر والنهى ، وأصبح خلفاؤها لاحول لهم ولا قوة . يقدم إليهم الطعام والشراب ، ولهم مرتب من المال يكفيهم حسب مقتضيات الأحوال .

كذلك فعل سلاطين مصر مع خلفائهم ، وهم في الواقع ذوو نعمتهم . وكان الخلفاء لا يملكون إزاء السلاطين حولا ولا طولا ، وتلك هى السياسة التى وضع قواعدها ، ودعمها ، الظاهر بيبرس كأمير . فعاشوا كالأسرى قد هيئت لهم الدور ، ورتبت الأجور ، وقدمت الأطعمة والأشربة والكسبى ، وما إلى ذلك من مطالب الحياة ليضمنوا عيشا رغدا هادئا صامتا ، وليسبغوا على من حولهم ألوان الرضا ، ويبذلوه كلما طلب إليهم بذله . وهل كانوا يملكون سواه ؟ وإذا ما خطر لأحدهم ما يفضب السلطان ، عرض نفسه للسجن أو النفى أو نحوهما .

كان من العجيب أن يفيض خليفة من هؤلاء ، أسباب الولاية على غيره ، ويسبغ السلطة على من يرشح لها ، ولكن هذا هو الوضع الذى كان مرعيا ،

والسنة التي كانت متبعة ، ومع أنه قيل : إن فاقده الشيء لا يعطيه ، كان الخليفة الذى لا يملك ملكا ولا يعتلى عرشا ، يمنح الملك ، ويعلى العرش ! وهو الضعيف المغمور ، والدعى المنكور ، الذى لا يملك من أمر نفسه شيئا ، ولكنه كان يؤمر فيصدع بالأمر . فهو ذو سلطة شكلية اسمية فحسب ، أما صاحب السلطة الفعلية الحقيقية فهو السلطان .

وأعتقد أن هذا الوضع - وإن سلم من الناحية الشكلية - لا تبدو فيه روح الإسلام ولا سياسته ، وما هو إلا ضرب من خداع السلاطين ، ونفاق الخاصة وتمويه أولى الأمر ليهرؤا أنظار العامة .

وقد اتبع فى اعتلاء منصب الخلافة طريق الوراثة - كما ذكرنا - ولكن أمره كان منوطا برغبة السلطان ، فهو الذى يبت فى الرجل الذى يبايع بالخلافة . ولو عهد الخليفة إلى ولده مثلا .

وقد حدث فى عهد الناصر محمد بن قلاوون من - عام ٧٤١ هـ - أن الخليفة المستكنى بالله أبا الربيع سليمان - أمير المؤمنين إذ ذاك - عهد بالخلافة من بعده ، إلى ولده أحمد وسجل عهده ، وشهد عليه أربعون شاهدا . ولكن الناصر لم يمض هذا العهد ، ولم يرضه ولم يحزه . فلما مات الخليفة المذكور دعا السلطان ابن أخيه المسمى إبراهيم ، وعهد إليه بالخلافة على الرغم من معارضة بعض الناس فى ذلك ، فلم يكثرث السلطان ، وأنفذ عزمه وصار إبراهيم هذا هو الخليفة . ولقب بالوائق بالله .

ولما مات الناصر وخلفه ابنه المنصور أبو بكر ، عقد مجلسا للنظر فى أمر الخلافة ، كانت نتيجة عزل الوائق بالله إبراهيم وتولية أحمد بن المستكنى بالله ، وتلقيبه بالحاكم بأمر الله .

ومما وقع أيضا أن الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله محمدا ، خلع بناء على رغبة الأمير إينك البدرى مدير الدولة فى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف عام ٧٧٩ هـ . وولى مكانه ابن عمه زكريا بن إبراهيم من غير عهد ولا مبايعة ،

ولقب بالمستعصم بالله . فلبث في خلافته نحو خمسة عشر يوما ، ثم خلع وأعيد المتوكل على الله .

وكذلك خلع المتوكل على الله مرة ثانية ، في عهد الظاهر برقوق - عام ٧٨٥ هـ - وسجن وأجبر الناس على خلافة عمر أخى زكريا بن ابراهيم ، ولقب بالوائق بالله .

وهكذا ترى أن منصب الخلافة كان أدنى شها بأى منصب آخر من مناصب الأمراء وأمثالهم ، ورهنا بإرادة السلطان .

وكان أهم عمل يتولاه الخليفة ، مبايعة السلطان الجديد بالسلطنة ، وتفويض أمور المسلمين إليه . وكان بعض ملوك المسلمين في الأقطار النائية يرسلون إلى مصر يستمنحون خليفتهما أمرا بولايتهم لتكون شرعية . وقد روى ابن إياس من ذلك (ج ٢ ص ١٣١ ، مانعه .

وفي جمادى الآخرة - أى عام ٨٧٦ هـ في عهد قايتباى - قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين . وأحضر على يده هدية إلى السلطان ، وإلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على إقليم الهند ، عوضا عن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل .

وحقا لم تكن سلطنة السلطان تتم إلا بمبايعة الخليفة له . ولكن الخليفة كان لا يستطيع أن يمتنع عن هذه المبايعة ، متى تمت مشورة الأمراء ، ووقع اختيارهم على شخص الملك الجديد . وفي عام ٩٠٦ هـ أعلن طومان باى بنفسه سلطانا في بلاد الشام ، وتلقب بالعاذل ، وتم ذلك بغير حاجة إلى موافقة خليفة أو بيعة . غير أنه لما زحف على مصر وامتلكها ، أجريت له مراسيم التولية كالمعتاد ، وتمت مبايعة الخليفة له .

كان للخليفة بجوار هذا أعمال إضافية تافهة بالقياس إلى ما ينبغي لمنصبه من جلال . وذلك كنظر مشهد نفيسة أحيانا ، وكالركوب مع السلطان أحيانا (م ٢ ممالك)

أخرى في طليعة تجريدة . وذلك من باب الدعاية فحسب لا اشتراكا في القتال ، كما كان يصاحبه يوم حفل ، أو يستقبله يوم أوبة من قتال أو حج ، أو رحلة أو نحو ذلك . ويستدعى أحيانا لشهود مجلس منعقد للنظر في تقرير حرب أو فرض ضريبة . ويستدعى لمجرد الشهود فحسب لا لإبداء الرأي . وقد يطلب إليه تخليف الأمراء على المصحف الشريف ، على ألا يخونوا السلطان ، وقد يستخدم استخداما أدبيا لإطفاء ثورة أو تهدئة فتنة . وهكذا .

ولا ندرى أ هل كان له من الأمر شيء في سماع القصص والمظالم . ١ نقول ذلك لمناسبة ما قرأناه في سيرة الخليفة المستسكن بالله - الأول - على عهد الناصر بن قلاوون ، إذ قيل : إن السلطان المذكور غضب على الخليفة المستسكن لأنه رفعت إليه قصة وعليها خط الخليفة : « يحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل ، . فشق عليه ذلك ، ونفاه إلى قوص ، (١) .

وكان الخليفة بين هذا وذاك ، يقدم إلى السلطان التهانئ مع الفضة ، بمناسبة عيد أو موسم . وقد تأبى الناصر محمد بن قايتباي - عام ٩٠٢ هـ - على الخليفة المتوكل على الله ، حينما قدم إليه يهنئه ، فلم يقابله ، وبعث إليه من شكره وصرفه .

ولم أجد في سيرة أحد الخلفاء ، من كان له سطوة أو نفوذ . بل لم يصل واحد منهم إلى مثل ما كان للشيخ أبي السعود الجارحي - مثلا - من نفوذ فإن الشيخ المذكور كان ذا مكانة عالية ، ورأى مسموع . وقد لجأ إليه الأمراء حينما اجتمعوا على ترشيح طومان باي للسلطنة عام ٩٢٢ هـ ، وأبأها طومان باي ، فتدخل الشيخ بينهم فرضيها . وهذا الشيخ من الصوفية .

وقد عبث الزمان مرة في عام ٨١٥ هـ ١ بعد مقتل فرج بن برقوق ، إذ انحصر أمر السلطنة بين أميرين كبيرين هما شيخ الحمودى ، ونوروز الحافظى ، فرأيا حسما

للنزاع بينهما أن يوليا السلطنة خليفة عصره المستعين بالله أبا الفضل ، على أن يكون الأمير شيخ أنابكيا له ، والأمير نوروز نائبا عنه في الشام . فأصبح المستعين بالله العباسي خليفة وسلطانا معا ، فجمع بذلك بين السلطين الدينية والزمنية . هبطت عليه إذا سعادة مفاجئة ، لم تهبط على غيره من الخلفاء . ولكنه كان يعرف أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن هذا الوضع شاذ لا يلتئم مع سياق عصره ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون ريبة من ريب الزمان ، وأنها سخابة ستتكشف عن حوادث قد تطيح به وبخلافته وسلطنته ، وأن هؤلاء الأمراء من الأتراك أو الجراكسة لن يتركوا هذا العرش لدخيل مثله ! فامتنع عن قبول السلطنة امتناعا شديدا ، خوفا من عواقبها . فقال له الأمير نوروز : لا تخف أنا ظهرك لا يصيبك إلا ما يصيب رقبتي ، فرضى بعد لآي مشترطا لذلك شروطا عدة ، هي في دخيلتها مثار السخرية الشديدة ، والإشفاق الشديد . منها أن يحتفظ له بمنصب الخلافة ، حتى إذا ما خلع من السلطنة ، استمر في خلافته على حاله الأول . . . فأجابوه إلى ذلك . غير أنه لم يلبث في السلطنة إلا نحو ستة أشهر لم يكن له خلالها من الأمر شيء - مع أنه السلطان - ثم وثب عليه أنابكيه الأمير شيخ وخلعه من السلطنة ، واستقر فيها مكانه بدعوى أن المملكة في حاجة إلى سلطان تركي ، له سطوة يجمع بها أهل الفساد ، وتصلح الأحوال على يده (١) ! وقد بايعه الخليفة المستعين بالله بالسلطنة . . . وقنع هو بخلافته ومع ذلك فسرعان ما خلع من خلافته وولى مكانه أخوه المعتضد بالله .

وقد وقعت حادثة مماثلة تقريبا قبل الحادثة التي رويناهما ، غير أنها لم تصل إلى حدودها ، وذلك سنة ٧٥٨ هـ بعد مقتل الأشرف شعبان حفيد قلاوون . إذ طلب عدد من الأمراء إلى خليفة ذلك الزمان ، وهو المتوكل على الله محمد ، أن يتبوا العرش مكان المقتول ، فامتنع وصمم على الامتناع ، قانعا بمنصبه المتواضع .

(١) راجع ابن أبي عمير ج ١ ص ٣٥٨ تحت عنوان ذكر سلطنة الخليفة المستعين بالله .

ومن طريق ما يذكر أن الخليفة المتوكل على الله أبا العز بن يعقوب ،
أسند في عام ٩٠٢ هـ ، إلى صديقه « جلال الدين السيوطي » ، وظيفة قاض كبير
على جميع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء ، فلما علم هذا الخبر احتج
عليه القضاة واستخفوا عقله ، وأنكروا هذه الوظيفة ، وأنكروا هم وذوو
السلطان أن يكون للخليفة حق تولية شخص ما . وأعلموه أنه لا يملك هذا
التعيين ..! فصرعان ما اعتذر واسترد الوظيفة من السيوطي ، واحتج بأن السيوطي
هو الذي زين ما فعل وأوهمه أن له حق التعيين ^(١) . وقال عن نفسه : إيش
كنت أنا ، ! وقيل إن هذه الوظيفة لم يلها إلا القاضي تاج الدين بن بنت الأعز
في عهد الأيوبيين .

ولعل هذا الخطأ من الخليفة دليل على الجهل . وقد كان كثير من هؤلاء
الخلفاء جهلاء ، أو على الأقل ذوى بضاعة من العلم هزيلة ، بل لقد رشع رجل
من هؤلاء العباسيين نفسه للخلافة - واسمه خليل - وكما ابن عم الخليفة القائم
حينذاك وهو المستمسك بالله يعقوب ، وذلك عام ٩١٤ هـ في عهد الغوري ^(٢) وجهد
في سبيل بلوغها ، حتى بذل كثيرا من المال ، فعيده منافسه - وهو ابن المستمسك
بالله - بأنه لا يحسن قراءة الفاتحة وأنه لا تصح خلفه الصلاة . ! وكان خليل هذا
أثخن لا يحسن النطق بالراء . فاختره الغوري فتعثر في قراءة الفاتحة . ! فأبعد عن
الخلافة بعد رسوبه في الاختبار . ولو قد اجتازه لأصبح للخلافة أهلا ... !

ومما يذكر بصدد هؤلاء الخلفاء أن أكثرهم من أم فارسية أو تركية
أو حبشية وقليل منهم الهاشمي الأيوبي مثل المستمسك بالله يعقوب أبي الصبر
ابن عبد العزيز .

ومما يذكر أيضا أنه إذا اختير خليفة ، كتبت له تولية ، يدبجها كاتب سر
السلطان وتتل في حفل المبايعة ، وتكون عبارة عن خطبة أدبية رائعة بأسلوب

(١) ابن أبياس ج ٢ ص ٣٠٧ في سياق حوادث عام ٩٠٢ هـ .

(٢) راجع ابن أبياس ج ٤ حوادث السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ .

أهل العصر (١) .

ومهما يكن من شيء ، فقد لبثت الخلافة في مصر قائمة ، إلى أن احتلها العثمانيون عام ٨٩٢٢ هـ ، ١٤٩٣ م ، فحمل السلطان سليم - فيما حمل - أثناء خروجه من مصر إلى بلاده ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، وهو المتوكل على الله الثالث . - وهناك في القسطنطينية تسمى سلاطين العثمانيين بأمراء المؤمنين وخلفاء رب العالمين ، إن طوعا أو كرها . وبذلك انتقلت الخلافة الإسلامية من الجنس العربي والسلالة الهاشمية إلى الجنس التركي وسلالة آل عثمان ، فلبثت فيهم زهاء أربعة قرون ومركزها القسطنطينية عوضا عن القاهرة . حتى قضى عليها السكاليون القضاء المبرم في سنة ١٩٢٣ م ، ومنذ تلك السنة والعالم الإسلامي يعيش بغير خلافة .

ونلاحظ أن مصر شهدت خلافة أخرى ، غير الخلافة العباسية الثانية ، وأعني بها الخلافة الفاطمية ، وهي بالرغم مما بها من مأخذ ، أنه شأننا وأسمى حياة وأشرف موضعا . وإن لم يعترف بها بعض المؤرخين . ونورد فيما يلي تراجم يسيرة لخلفاء هذه الفترة .

الخلفاء العباسيون في مصر

١ - المستنصر بالله ٦٦٠ هـ

هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله بن الخليفة المستنصر بالله العباسي الهاشمي^(١). كان أسمر اللون وأمه حبشية ، وهو أول من بويع بالخلافة في مصر ، كان معتقلا ببغداد منذ سقوطها على يد التتار ، ثم أطلق أوفر ، فقدم إلى مصر مع جماعة من الأعراب ، منهم الأمير ناصر الدين منها ، لعله يجد فيها كنفها رجبا بجوار ملكها الظاهر بيبرس فبلغ القاهرة في ٢٢^(٢) رجب عام ٦٥٩ هـ ، فخرج الظاهر للقائه واحتفل بقدومه احتفالا شائعا ، ولقيه الناس بالقاهرة على اختلاف نحلهم وأديانهم ومراتبهم لقاء باهرا .

ثم عقد الظاهر مجلسا لمبايعته بالخلافة في ١٣ رجب - تصدره الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وتقدمه قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وشهده السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة وتقدم الشهود فأثبتوا نسبه . فبايعه الشيخ عز الدين ثم القاضي تاج الدين ، ثم بايعه السلطان فالأمراء فالخضور^(٣) . وكتبت الرسائل باسم السلطان إلى الآفاق لأخذ البيعة له من أهلها ، وأقب بالمستنصر بالله ، ودعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه مشاركا السلطان .

وقد قام الخليفة بدوره ، بمبايعة السلطان بيبرس - في ٤ شعبان - وقلده السلطنة وفوض إليه أمور البلاد الإسلامية وما يفتتحه ، وأقبه - بقسم أمير المؤمنين ، وألبسه جبة وعمامة سوداوين ، وطوقا وقيدا من الذهب وقلده سيفا . ورتب السلطان للخليفة أتابكا وأستادارا وشرابيا وخازندارا وحاجبا وكاتبا ،

(١) راجع ما كتب عنه في الفصل السابق وقال في السلوك إنه أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله العباسي .

(٢) قال ابن إياس إن قدومه كان في الاثنين ١٩ رجب عام ٦٥٩ هـ .

(٣) وقيل بايعه أولا القاضي تاج الدين فالسلطان فالشيخ عز الدين فالأمراء الخ .

وعين له خزانة وجملة ممالك . ومائة فرس وثلاثين بغلا وعشرة قطارات جمال ، إلى أمثال ذلك .

سكن الخليفة المستنصر بالله بقلعة الجبل . وفي يوم الجمعة خطب بالناس وصلى بحضور السلطان ، ثم جهزه السلطان بعد زمن قليل بجند وسلاح ومال ، وسار إلى قتال التتار . ورحل معه السلطان إلى دمشق ، فدخلها يوم الاثنين ٧ ذى العقدة عام ٦٥٩ هـ . - وقيل إلى المطرية - ثم عاد السلطان . فزحف الخليفة بمن معه ، فلقبهم التتار بقيادة مقدمهم « قرايغا » في ناحية الأنبار ، فهزموهم هزيمة منكرة . وفر منهم من فر ، وقتل من قتل ، ولم يعلم للخليفة خبر . قيل إنه قتل بالمعركة في جهة « هيت » في ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا في طائفة من العربان ، ثم توفي لديهم . وهكذا ذهبت خلافة بعد أقل من ستة أشهر - وبعض المؤرخين لا يعتبرونه أول الخلفاء ويسقطونه من عدادهم .

« ابن أبياس ج ١ ص ١٠٠ إلى ١٠٢ - وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ ، إلى ٥٢ - وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٤ - سلوك المقريري ج ١ حوادث عام ٦٥٩ هـ ٦٦٠ هـ - وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١٦ » .

٢ - الحاكم بأمر الله « الأول » ، ٧٠١ هـ

هو الإمام أحمد الحاكم بأمر الله أبو العباس بن الأمير أبي علي الحسن التقي ابن الأمير علي بن الأمير أبي بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله العباسي . يقال إنه أقيم خليفة من قبل في مدينة حلب ، ولقب بالحاكم أيضا . ثم يقال إنه كان ممن انضم إلى جند الخليفة المستنصر بالله أثناء قتاله مع التتار . منظويا تحت لوائه هو وأهل حلب . فلما انهزم الخليفة وفقد ، فر الأمير أحمد المذكور وسار إلى الرحبة ونزل إلى عيسى بن مهنا أحد الأمراء بها . فكاتب هذا فيه الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر ، فبعث إليه يستقدمه فقدم إلى القاهرة ومعه ابنه سليمان^(١) وعدد

(١) في صبح الأعشى أن الحاكم بأمر الله وفد على مصر وهو ابن خمسة عشر سنة وهذا غريب فقد كان يحارب مع المستنصر قبل قدومه إلى مصر وقدم ومعه ابنه . وذكر أيضا أنه قدم عام ٦٥٩ هـ . وأن مبايعته كانت سنة ٦٦٦ هـ .

من تابعيه . فبلغها في ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ . فلقية السلطان لقاء حسنا ، وأنزله بقلعة الجبل . وظل بلا مبايعة إلى آخر العام المذكور . وفي يوم الخميس ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ عقد له السلطان مجلسا كالذى عقده من قبل للخليفة المستنصر بالله . وأثبت نسبه بين يدى القضاة والأمراء ، وبايعوه جميعا بالخلافة وبايعه الناس من بعدهم . ثم لقبوه بالحاكم بأمر الله ، ثم بايع هو بدوره السلطان وفوض إليه أمور المسلمين . وخطب بين يدى السلطان فى الجمعة التالية ، خطبة منبرية طلية حض فيها على الجهاد وصلى به .

أقام الحاكم بأمر الله فى مصر وسكن مناظر السكش التى أنشأها الأمير أحمد ابن طولون وهى مطلة على النيل ، ثم تحول عنها بعد زمن إلى قلعة الجبل فى زمن الأشرف خليل . وفى زمن لاجين عاد إلى مناظر السكش ثانيا ، ورتب له ما يكفيه هو وأهله وأمر بالصعود إلى القلعة فى مستهل كل شهر إيمىء السلطان به .

وقد ضربت السكة باسمه واسم السلطان بيبرس ودعى لها على المنابر وبعد زمن خاف الظاهر عاقبة هذا الأمر ، فنقل الخليفة عنده فى القلعة هو وأهله وحاشيته كالمسجون ، ثم أسقط اسمه من النقود وأبقاه فى خطبة الجمعة .

وقد عاش هذا الخليفة فى منصبه زمنا طويلا يقرب من أربعين عاما . وشهد عددا من ملوك مصر فى ذلك الحين ، منهم ابننا بيبرس والمنصور قلاوون وابناه خليل ومحمد ، والمنصور لاجين . ويعتبره بعض المؤرخين أول خلفاء العباسيين فى مصر . لأنه هو وابنه سليمان ينتمى إليهم جميع خلفاء العباسيين بها .

وقد شهد هذا الخليفة أحداثا عدة ، أطول المدة التى أقامها . وكان يتردد على الخطابة المنبرية يوم الجمعة بين يدى السلطان من آن لآخر ، وقد كان سفيرا بين الأمراء الشائرين والسلطان الملك السعيد بن بيبرس ، وكانت نتيجة سفارته خلع السلطان وتولية أخيه .

وكان - بعامة - غير مطلق التصرف مضيقا على حريته خصوصا فى عهد بيبرس . وفى عهد الأشرف خليل نال بعض الحرية ، ورتبه هذا السلطان خطيبا بجامع

القلعة . ومن العجيب أنه خطب أول خطبة له بعد ترتيبه هذا يوم الجمعة ١٤ شوال عام ٦٩٠ هـ وتلا نفس الخطبة التي تلاها من قبل في زمن بيبرس أى منذ نحو ثلاثين سنة . ووضع مكان اسم بيبرس اسم الأشرف خليل - وهذه الخطبة كانت من إنشاء شرف الدين أحد كتّاب عصر بيبرس - . وفي عهد السلطان لاجين أبيح له التصرف والاختلاط بالناس والركوب مع السلطان ، وعاونه هذا السلطان على الحج عام ٦٩٧ هـ فأعطاه بهذه المناسبة سبعمائة ألف درهم .

وقد توفي في عهد الناصر محمد بن قلاوون في سلطنة الثانية ، بعد أن عهد بالخلافة لابنه سليمان . وكانت وفاته في جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ في ليلة الجمعة ١٨ من الشهر ، ودفن بمشهد السيدة نفيسة في قبة خاصة .

« ابن إياس ج ١ ص ١٠٢ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ - سلوك المقرئ ج ١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١٧ - والدرج ١ رقم ٢٣٢ » .

٢ - المستكفي بالله « الأول » ٧٤١ هـ

وهو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد الخليفة السابق . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه . وقد أقر هذا العهد السلطان الناصر بن قلاوون سلطان هذا الحين ، بعد أن سأل قاضى القضاة تقي الدين بن دقيق العيد عن صلاحه للخلافة لصغر سنه إذ كان دون العشرين إذ ذاك ، فأجابه بصلاحه لها . وكان ذلك بعد وفاة أبيه . فلما أقر له السلطان بالخلافة ببيع ودعى له على المنابر بعد موت أبيه بثلاثة أيام في جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ . وكان ابن أخيه إبراهيم وهو أسن منه ينازعه الخلافة ولكنها تمت لسليمان . فلما ببيع أشهد على نفسه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوضه إليه . ومن ثم نقش اسمه على السكة مع اسم السلطان وحسنت صلتها ، وسكن زمنا في مناظر الكباش ثم رسم السلطان له بعد قليل أن ينتقل بأهله جميعاً إلى القلعة ، وأجرى عليهم الرواتب الكافية . وإلى هذا الخليفة تنسب خلفاء بنى العباس بمصر .

ورخرج مع السلطان في عام ٧٠٢ هـ إلى بلاد الشام لقتال التتار ، ثم عادا إلى القاهرة في شوال من ذلك العام منتصرين . وظلت صلته بالسلطان على خير ما تكون حتى سعى السعاة بينهما ووشى الوشاة فغضب عليه السلطان الناصر محمد . وقيل إن سبب غضبه أن الخليفة كتب على إحدى القصص الخاصة بالسلطان : « ليحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل » ، فشق عليه ذلك وأضمرها له في نفسه . وكان ذلك عام ٧٣٦ هـ ، فرسم له أن ينتقل من القلعة إلى مناظر السكيش ثانيا . ثم نفاء إلى قوص هو وأهله في ذى الحجة عام ٧٣٧ هـ . وقيل أوائل عام ٧٣٨ هـ - فسافر الخليفة إليها ولبث بها منفيا حتى توفي . وقد ألم الناس لهذا أشد الألم - وكانت وفاته في شعبان سنة ٧٤١ هـ - وقيل سنة ٧٤٠ هـ . وكان مولده في منتصف المحرم عام ٦٨٤ هـ . وقيل ولد عام ٦٨٣ هـ .

وقد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد ، وأشهد على هذا العهد أربعين عدلا . فلم يقره الناصر وولى مكانه ابن أخى المستكفي المدعو إبراهيم .

وكان المستكفي مشغولا بالعلم محبا للألعاب الرياضية مجالسا للعلماء والأدباء مشاركا لهم في كلامهم .

• ابن إياس ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ - سلوك المقرئ ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤ إلى ٥٨ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢١ ج ٢ - الدر الكامنة لابن حجر ج ٢ رقم ١٨٢٨ ، ٤ .

٤ - الوائق بالله ، الأول ، ٧٤٨ هـ

اسمه إبراهيم بن محمد الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ابن أخى المستكفي الخليفة السابق .

كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد عهد أولا إلى ابنه محمد وأقبه المستمسك بالله . فمات في حياة والده ، فعهد الحاكم إلى إبراهيم ابن ابنه محمد ، ثم شهد فيه أمورا مردولة دعتة إلى العدول عن العهد إليه ، ثم عهد إلى ابنه الثاني وهو المستكفي بالله

سليمان . فاغتاز إبراهيم وحاول منازعة عمه المستكني بالله وقت ولايته ، وزاحمه ، فلم يلتفت إليه السلطان الناصر وولى المستكني .

ثم غضب الناصر على المستكني فنفاه هو وأولاده وأهله إلى قوص - كما مر في ترجمته - وامتد غضبه عليه إلى أنه لم يقر عهده إلى ابنه أحمد ، واستدعى ابن أخيه إبراهيم المذكور وبايعه ، ودفع الناس إلى مبايعته . على الرغم من نصح كثيرين له بعدم بيعته - وكان من ناصحيه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة - فلم يأبه الناصر لـ كل أوائله . فتمت بيعته إبراهيم وسمى الوائق بالله ، بعد أن لبث منصب الخلافة شاغرا زمنا . وتمت هذه البيعة في رمضان عام ٧٤١ هـ . وهو العام الذى مات فيه الناصر محمد بن قلاوون .

وقيل إن الناصر ندم بعد ذلك على تولية هذا الخليفة . ولذلك أوصى قبيل وفاته بخلعه وتولية ابن المستكني وهو أحمد . فلما ولى الملك ابنه أبو بكر المنصور نفذ وصية والده وعقد مجلسا لذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ هـ . وطلب الخليفة الوائق بالله إبراهيم وأحمد ابن الخليفة المستكني وبين يديه القضاة وحقق المسألة ووازن بينهما ، وراجع عهد المستكني بالله إلى ابنه أحمد ، ثم خلع إبراهيم وولى مكانه أحمد ، ولقبوه بالحاكم بأمر الله كلقب جده .

وكانت مدة خلافة الوائق بالله عدة شهور . ومات فى ٤ شعبان سنة ٧٤٨ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٧٠ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - سلوك المقرئى ج ١ - تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٢٤ - الدرر لابن حجر ج ١ رقم ١٤٧ » .

٥ - الحاكم بأمر الله « الثانى » ، ٧٥٤ هـ

لقب بلقب جده وهو أبو العباس أحمد بن المستكني بالله بن الحاكم بأمر الله . لما مات أبوه عام ٧٤١ هـ كان قد عهد إليه بالخلافة وهو منفي بقوص وأشهد على

عمده أربعين رجلا عدلا ، وسجل العهد لدى قاضى قوص ، ولكنه لما مات لم يأبه الناصر محمد بعده لابنه أحمد ، وولى مكانه إبراهيم الوائى بالله - كما مر بيانه - فلما ندم الناصر على تولية إبراهيم ، ثم أوصى بإعادة الأمر إلى أحمد ثم مات ، عقد الملك المنصور أبو بكر مجلسا من القضاة ، ونفذ وصية أبيه وأقر عهد المستكفى بالله إلى ابنه أحمد وبايعه الخلافة بعد أن خلع الوائى بالله وبايعه الناس قاطبة ، وكان ذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ هـ ولقبوه بالحاكم بأمر الله .

ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٣ ، وكذلك ابن خلدون فى العبر ج ٣ ص ٥٤٠ ، إن هذا الخليفة ولى الخلافة زمنا يسيرا قبيل الوائى ودعى له على المنابر فى أواخر شوال عام ٧٤٠ هـ ، ، يقصد السنة التى مات فيها المستكفى بالله إذ يعتبرها سنة ٧٤٠ هـ ، ، ثم لم يرض الناصر بذلك واختار بدلا منه إبراهيم الوائى بالله .

ويقول السيوطى فى حسن المحاضرة عن الحافظ ابن حجر - وهكذا قال ابن حجر فى الدرر ونقله أيضا السيوطى فى تاريخ الخلفاء : إن هذا الخليفة لقب أولا بالمستنصر بالله ثم غير لقبه ، ولقبه القلقشندى بالمستعصم بالله . وقد توفى هذا الخليفة فى عهد الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٤ هـ بعد أن شهد عدة من الملوك . وقيل فى حسن المحاضرة إنه مات بالطاعون فى منتصف عام ٧٥٣ هـ . وفى صبح الأعشى أنه مات سنة ٧٤٨ هـ ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده . وكانت مدة خلافته نحو ثلاث عشرة سنة . وقد ولى بعده أخوه .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٠٠ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ - وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ - والدرر الكامنة لابن حجر ج ١ رقم ٣٨٤ . »

٦ - المعتضد بالله ، الأول ، ٧٦٣ هـ

وهو أبو الفتح أبو بكر بن الخليفة المستكفى بالله وأخو الخليفة السابق الحاكم

بأمر الله ، مات أخوه ولم يعهد لأحد بالخلافة فوق الاختيار على أبي بكر هذا ،
واقب بالمعتضد بالله وذلك في ١٧ شعبان عام ٧٤٨ هـ ، على رأى القلقشندي ، وعام
٧٥٤ هـ كما يقول ابن اياس ، وعام ٧٥٣ هـ كما يقول السيوطي .

وقد أسند إليه نظر مشهد السيدة نفيسة ، ثم توفي ليلة الأربعاء ١٨ جمادى
الأولى عام ٧٦٣ هـ وكانت مدة خلافته نحو عشر سنوات ، وعهد بالخلافة بعده
لابنه فتقلدها واقب بالمتوكل على الله .

« ابن اياس ج ١ ص ١٠٠ ، ٢١١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ - حسن المحاضرة ج ٢
ص ٦٥ - تاريخ الحفاء ص ٣٣٣ » .

٧ - المتوكل على الله ، الأول ، ٨٠٨ هـ

وهو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الخليفة المعتضد بالله ، بويع بالخلافة بعد
أبيه بعهد منه في جمادى الأولى عام ٧٦٣ هـ في عهد الملك المنصور محمد بن المظفر
ابن الناصر بن قلاوون .

ظل في دست الخلافة إلى سنة ٧٧٨ هـ ، وفي هذه السنة خرج مع السلطان
الأشرف شعبان قاصدين حج بيت الله الحرام وهناك في العقبة وقع تخاذل
وعدوان بين الأمراء أدى في النهاية إلى قتل الأشرف شعبان . هناك عرض عليه
بعض الأمراء منصب السلطنة تخاف من عواقبها ، وسمم على عدم قبولها ، فوقع
الاختيار على المنصور على بن الأشرف شعبان ، فصار سلطانا وهو في سن السابعة
تقريبا . ثم استبد بملكه الأتابكي أيوبك البدرى و صار مدبر دولته ، فجرت بينه
وبين الخليفة المتوكل حوادث أدت إلى كراهية شديدة وحقد عظيم . فما كان
من البدرى إلا أن خلع الخليفة المتوكل عنوة عام ٧٧٩ هـ . وأقام مكانه خليفة
جديدا هو زكريا بن الخليفة ابراهيم الواثق بالله واقبه بالمعتصم بالله وقيل
المستعصم بالله .

خلع المتوكل إذن من منصبه - غير أن الأمراء لم يرتضوا هذا التغيير الجائر ،
ولم يبايعوا ولم يبايع الناس هذا الخليفة الجديد ، حتى وجد الأتابكي أيوبك البدرى

أنه لا بد من عودة المتوكل إلى منصبه ، فأعاده بعد خلع دام نحو خمسة عشر يوما أو عشرين . وهكذا خلع أيضا المعتصم بالله .

سافر الخليفة المتوكل في نفس العام وهو عام ٧٧٩ هـ ، مع السلطان المنصور على في تجريدته إلى بلاد الشام . غير أنهما اضطررا إلى العودة إلى القاهرة بعد بلوغهما بلبس لفتنة قاصمه شبت بين الأمراء حينئذ .

وعاش هذا الخليفة حتى شهد أول دولة الجراكسة وعهد منشئها وهو السلطان برقوق بن آنص العثماني . وما بدأت سنة ٨٨٥ هـ حتى نفي إلى السلطان برقوق أن الخليفة يريد أن يستبد بالملك دونه وأنه يرأسل الأمراء والعربان بذلك وأنه يدبر مؤامرة لاغتياله . فخذ عليه وجمع القضاة ليفتوه في شأنه فتوى تتفق وهواه . فلم يظفر منهم بشيء . فاستخار الله وأعلن خلعاه عنوة في رجب عام ٧٨٥ هـ وقبض عليه وسجنه بالقلعة في البرج . وهكذا خلع للمرة الثانية .

استقدم السلطان برقوق بعد ذلك عمر بن الخليفة إبراهيم الوائلي بالله وأخا زكريا الخليفة المعتصم بالله ، رولاه الخلافة ولقبه بالوائلي بالله كلفب أبيه إبراهيم . وفي ذى القعدة من نفس العام أطلق سراح المتوكل وأنزله إلى داره مكرما . ومهما يكن من شيء فإن المتوكل قاسى ضروبا من الضغط والأذى بعد ذلك كانت تملأها الظروف على السلطان . حتى إنه في سنة ٧٩١ هـ أمر نائب القلعة بأن يضيق الخناق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، ويبقيه بالبرج مقيدا ، وذلك بمناسبة اضطراب الأمور في السنة المذكورة .

وفي تلك الأثناء كان الخليفة الجديد الوائلي بالله عمر قد توفي عام ٧٨٨ هـ فأُسندت الخلافة إلى أخيه الخليفة الأسبق ، وأعني به المعتصم بالله زكريا بن إبراهيم . فظل حتى عام ٧٩١ هـ وهنا اتجهت نفس برقوق من جديد إلى الخليفة المتوكل . فاستقدمه من سجنه بعد قبوعه فيه نحو ست سنوات ، فنزع منه قيده وقدم إليه المذكرة وندم إليه على ما فرط منه في حقّه . وأعاده إلى الخلافة بعد أن خلع منها المعتصم بالله زكريا الذي عاش بعد ذلك حتى توفي عام ٨٠١ هـ مخلوعا .

عادت الخلافة إذن إلى المتوكل على الله . وهذه ثالث مرة يتبوأ فيها منصبه . وبعد قليل زال برقوق من السلطنة ، وأسندت إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعيبان المرة الثانية وذلك عام ٧٩١ هـ ، فتنفس المتوكل الصعداء . وانضم إلى عصاة السلطان الجديد ، وهموا باستصدار فتوى بكفر برقوق لخلعه الخليفة المتوكل واضطهاده . واقتله البريء في الشهر الحرام . وكان برقوق قد أخذ نجمة في الظهور مرة أخرى بناحية الشام ، حتى خرج السلطان الصالح للقائه وقتاله في بلاد الشام ، وخرج معه الخليفة المتوكل عام ٧٩١ هـ ، إلا أنهما شعرا بالهزيمة فقرا في أوائل عام ٧٩٢ هـ ، بعد انكسارهما أمامه . غير أن الملك الصالح فضل الانسحاب من السلطنة ، فخلع نفسه وعادت السلطنة إلى برقوق ، فتولاها مرة أخرى ، وشهد المتوكل على هذا الخلع وهذه التولية . . ودخل المتوكل في ركاب برقوق وهو عائد من الشام إلى مصر .

ولما كانت ثورة منطاش ضد برقوق في بلاد الشام و حلب عام ٧٩٣ هـ خرج ، إليه برقوق في حملة كثيفة ، وكان في ركابه هنا أيضا خليفتنا المتوكل على الله ، وخرج معه كذلك لقتال التتار في عام ٧٩٦ هـ وهكذا .

ثم زالت دولة برقوق بموته ، وتولى ابنه الناصر فرج عام ٨٠١ هـ فبايعه المتوكل على الله ، وأقره هو أيضا على خلافته . وكان أحد أعضاء المجلس المنعقد في نفس السنة من القضاة والعلماء والأمراء للتشاور في أمر العثمانيين واعتدائهم على بلاد السلطان . وقرر هذا المجلس محاربتهم . ولكن هذه المحاربة لم تتم ، لنكوص العثمانيين عن أعمالهم العدائية . ثم إن المتوكل خرج إلى الشام ضمن حملة ، لتأديب الأمير تتم نائب الشام ، الخارج على السلطان عام ٨٠٢ هـ . ثم خرج معه أيضا في حملته على تيمورلنك ملك التتار عام ٨٠٤ هـ ، ثم عاد معه على حين غفلة في يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة من العام المذكور .

شهد هذا الخليفة أحداثا كثيرة هامة وتقلبات عدة . ثم توفي في أول السلطنة الثانية لفرج بن برقوق عام ٨٠٨ هـ ليلة الثلاثاء ٢٨ رجب بعد أن قضى في خلافته

نحواً من خمسة وأربعين سنة . ودفن بمشهد السيدة نفيسة . وتولى الخلافة خمسة من أولاده وهم داود وسليمان وحمزة ويوسف والعباس . وينسب إليه البر وحب الخير وفعل الجليل وبذل الصدقة . كما أنه أول من أثرى من خلفاء بني العباس في مصر . ورزق أولاداً عدة . وقيل إن بايزيد ملك العثمانيين التمس منه تقليداً بملك الروم فقلده .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ - وحسن المحاضرة جزء ٢ من ٦٥ إلى ٦٨ - صبح الأعشى جزء ٣ من ٢٦٦ ، ٢٦٨ - تاريخ الخلفاء من ٣٣٣ . »

٨ - المستعصم بالله : ٨٠١ هـ

وسماه السيوطي في حسن المحاضرة « المعتصم بالله » . وفي تاريخ الخلفاء « المستعصم » ، وهو أبو يحيى نجم الدين زكريا بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم . - وبیت إبراهيم هذا كثير أما نافس بيت المستعصم بالله ، في الخلافة .

وقد ولي المستعصم بالله زكريا أمرها في عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان . أسندها إليه أتابكيه الأمير أيبك البدرى عام ٧٧٩ هـ ، حينما حقد هذا الأمير على خليفة العصر المتوكل على الله محمد ابن المعتضد ، فخلعه عنوة ، ونصب مكانه زكريا . فظل في الخلافة بلا مبايعة نحو أسبوعين ثم اضطر أيبك أن يعيد المتوكل ، ويخلع زكريا .

ظل زكريا بعد ذلك زمناً حتى وقع النفور بين المتوكل المذكور وبين السلطان برقوق ، فخلعه وقيده وسجنه ، ثم استدعى عمر أخا زكريا وولاه الخلافة فلبث بها حتى توفي عام ٧٨٨ هـ ، فاستدعى على إثره أخاه زكريا وولاه الخلافة ولقب المستعصم بالله كما كان . فظل في الخلافة حتى عام ٧٩١ هـ . ثم بدا لبرقوق أن يعيد المتوكل فخلع زكريا في ذلك العام . وهذه ثانی مرة يخلع فيها . فظل مخلوعاً حتى

توفي ع ٨٠١ هـ في شهر جمادى الأولى . وقال عنه السخارى « كان عاميا صرفا » .
« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٦٥ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ — صبح
الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ — تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ ، — الضوء ج ٣ رقم ٨٨٩ » .

٩ - الواصل بالله « الثاني » ٧٨٨ هـ

وهو أبو حفص عمر بن الخليفة الواصل بالله إبراهيم . وأخو الخليفة السابق
المستعصم بالله زكريا . دعاه برقوق لتسلم مهام الخلافة بعد أن خلع منها المتوكل
على الله في رجب عام ٧٨٥ هـ ، فبقي بها حتى سنة ٧٨٨ هـ . ثم توفي في شوال من
العام المذكور . قال ابن إياس : إن برقوقا عزله قبيل وفاته : فعلى هذا رأى
يكون الواصل قد مات معزولا . وقد خلفه أخوه زكريا ثم المتوكل ثم ابن المتوكل
وهو الخليفة المستعين بالله .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٦٥ — صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ — حسن المحاضرة
ج ٢ ص ٦٧ » .

١٠ - المستعين بالله « الخليفة والسلطان » ٨٣٣ هـ

هو أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله محمد . وأمه أم ولد تركية اسمها
خانون . ولى الخلافة بعد موت أبيه بعهد منه ، وكانت ولايته في رجب عام ٨٠٨ هـ
في عهد السلطنة الثانية لفرج بن برقوق . وقد كان أبوه المتوكل قد عهد إلى ابنه
الأول المسمى أحمد ، ولقبه المعتمد على الله . ثم عدل عنه إلى ابنه الثاني أبي الفضل
العباس المذكور .

ولما ولى الخلافة شهد أحداثا كبرى ومر بظروف متقلبة . وشهد من العز
والهوان ضرورا . فهو في هذا شبيه بأبيه المتوكل على الله محمد .

ظل يقوم بالمراسم التقليدية لمنصبه حتى كانت سنة ٨١٤ هـ . في هذه السنة شق
عصا الطاعة على السلطان فرج الأميران شيخ المحمودى ونوروز الحافظى . وتحصنا
في بلاد الشام . وهناك قويت شوكتهما . فجرد عليهما السلطان الناصر فرج جيشا
تحرك به في نفس العام إلى بلاد الشام ، وسار صحبته الخليفة العباس المستعين بالله
(م ٣ - ممالك)

ولكن كانت العاقبة وخيمة على السلطان ، فانكسر ثم قبض عليه ثم قتل عام ٨١٥ هـ . وفي هذه الأثناء انضم عدد كبير من معه إلى المنتصرين وهما شيخ ونوروز ، فاشتور الجميع في الأمر ، وفكروا فيمن يلى السلطنة . وكانت قد انحسرت بين هذين الأميرين فحسب . فخوفا من وقوع النزاع بينهما ، ودرءا للتباغض ، استقر رأيهما ورأى من معهما على أن يكون الخليفة المستعين هو السلطان .

خشى المستعين مغبة الأمر فامتنع عن قبول السلطنة ، واسكنهما ألعاليه وقدم إليه نوروز من الموائيق وعمود الأمان مالم يجد معه بدا من القبول . واشترط شروطا كثيرة كان في عدادها أن يحتفظ بمنصب الخلافة ، وأنه إذا خلع من السلطنة يوما ما فإنه يعود إلى ذلك المنصب كما كان ، فرضوا بشروطه .

أصبح المستعين بالله خليفة وسلطانا معا على البلاد المصرية والشامية والحلبية وما يتبعها وذلك عام ٨١٥ هـ . وفوض البلاد الشامية من غزة إلى الفرات للأمير نوروز الحافظي ، وفوض أتابكية مصر للأمير شيخ المحمودى وجعله مدير المملكة ونظام الملك . وعاد الجميع معه إلى مصر في ركب عظيم وحفاوة باهرة وهناك الشعراء ، وكان في جملة مهنثيه ابن حجر العسقلاني القاضى والعالم والأديب الشاعر ، بقصبة عصماء أولها .

الملك فينا ثابت الأساس بالمستعين العادل العباسى

رجعت مكانة آل عم المصطفى محلها من بعد طول تناسى

سكن الخليفة السلطان بالقلعة . وظل يصرف أمور الدولة . ولكن الواقع أن الذى كان يصرفها من الوجهة العملية هو الأتابكى شيخ رطل يضيق الخناق على خليفته السلطان ويستأثر بكل الأعمال ، حتى ضاق المستعين بالله ذرعا به .

كان ذلك كله بمثابة تمهيد من الأتابكى شيخ ليستولى على السلطنة ، وقد نفذ هذه الرغبة فعلا فى مستهل شعبان عام ٨١٥ هـ ، أى بعد ماضى نحو ستة شهور على سلطنة المستعين بالله ، وتلقب بالمؤيد .

كانت حجة الملك المؤيد شيخ أن الأحوال فسدت وأن أهل السوء اجترءوا ،

وأصبح الحال يتطلب سلطاناً تركياً يجمع أهل الفساد . ١ فخلع الخليفة من السلطنة واستولى هو عليها .

أراد الخليفة المستعين بالله أن يعود إلى منصبه ويفرغ له كما كان أولاً ، فأبى عليه المؤيد وتركه بالقلعة سجيناً ، فظل بها حتى ذى الحجة عام ٨١٦ هـ . ثم خلع من الخلافة أيضاً ، وقد عوون على خلعه منها بفتوى شرعية من الشيخ جلال الدين البلقيني أحد قضاة الشافعية . ويقول السيوطي إنه كان في نفس البلقيني من الخليفة شيء ١ إذ عزله من القضاء في مستهل سلطنته فأضمرها له في نفسه .

فلما خلع من الخلافة ، استدعى أخوه المسمى داود فبويع بها ولقب بالمعتضد بالله . أما المستعين بالله فإنه أرسل إلى سجن الإسكندرية بعد أن سجن بالقلعة مدة فلبث في السجن سنين طويلة ، حتى ولي الملك الأشرف (١) برسباي عام ٨٢٥ هـ . فكان في جملة مآثره إخراج هذا السجين وإطلاق حريته ، وأسكنه بعض الدور بالإسكندرية . فزاول التجارة بها حتى كان عام ٨٣٣ هـ . فمات بطاعونه في يوم الأربعاء ٢١ جمادى الآخرة ، وقد كتبت عنه كلمة بين سلاطين الدولة الجركسية .

١ ابن إياس ج ١ ص ٣٥١ ، إلى ٣٥٩ - ج ٢ ص ٣ ، ١٣ ، ١٩ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٧ - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٧٠ .

١١ - المعتضد بالله ، الثاني ، ٨٤٥ هـ

وهو أبو الفتح داود بن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة المستعين بالله ، وأمه أم ولد تركية يقال لها كزل . ولي الخلافة في عهد الملك المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥ هـ : عقب خلع أخيه المستعين بالله منها . وظل يقوم بمراسم الخلافة من مبايعة سلطان ونهضة آخر في موسم أو عيد ورحيل مع ملك في تجريدة إلى بلاد الشام ، وغير ذلك من ضروب الأعمال المنوطة به .

ويقال إنه بعد موت المؤيد شيخ ، عارض في تولية ابنه المظفر أحمد لصغر

(١) هذه رواية ابن إياس ، وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ، أن الذي أطلقه هو الظاهر ططر ، وأذن له في الحجى إلى القاهرة ، ولكنه اختار الإسكندرية .

سنه إذ كان في نحو سنة وثمانية أشهر . ولما وجد إجماعا من الممالك المؤيدية على توليته ، رضى مكرها على أن يكون الأمير ططر - وهو من هو في ذلك الحين - مدبر المملوك ونظامها . وأرجح أن هذه الشجاعة وافته من الأمير ططر نفسه ، ولابد أن يكون هو الموعز إليه بالمعارضة ، لأن فيها منفعة له .

ولما شق الأتابكي الطنبغا عصا الطاعة على هذا السلطان الصغير هو ومدبر مملكته ، سارع إليه الأمير ططر وحمل معه السلطان والخليفة والقضاة . وهزمه عام ٨٢٤هـ ، ثم خلع المظفر أحمد ، وتسلم عرشه بنفسه . وبايعه الخليفة ، ومن معه في دمشق ،

ثم شهد هذا الخليفة عصر ططر وابنه وعهد الأشرف برسبای وابنه وعصر جقمق العلائی . وما يذكر أنه حدث سوء تفاهم بين برسبای وبين قرا ملك أحد ملوك التركان عام ٨٣٦هـ ، فخرج من مصر في ذلك العام لملاقاته على الفرات وتأديبه ، فصحبه الخليفة المعتضد بالله فيمن صحبه .

وقد توفي هذا الخليفة في سنة ٨٤٥هـ في يوم الأحد ٤ ربيع الأول ، منهاز السبعين ، وقيل في سن ٦٣ سنة . وينسب إليه حب الخير وكثرة البر والميل إلى العلماء وحب مجالستهم والاستفادة من فضلهم . وقد خلفه أخوه سليمان بن المتوكل على الله

ابن إياس ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٨ - ج ٢ ص ٤٠٤ ، ١٠١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ - وحين المحاضرة ج ٢ ص ٧١ - وتاريخ الخلفاء ص ٣٣٨ - الضوء ج ٣ رقم ٨٠٥

١٢ - المستكني بالله « الثاني » ٨٥٤هـ

وهو أبو الربيع سليمان بن الخليفة المتوكل على الله محمد . وأخو الخليفة السالف ، وهو المعتضد بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨٤٥هـ ، بعهد منه كتبه له صديقه والد جلال الدين السيوطي .

وقد كان المستكني رضى السيرة حسن العشرة ، كثير العبادة كثير التلاوة ، ورعا صالحا . وقد توفي آخر ذى الحجة عام ٨٥٤هـ ، وقال ابن إياس : في يوم الجمعة ٢ المحرم عام ٨٥٥هـ ، بعد خلافة دامت نحو عشر سنوات . ومات بغير أن يعهد

إلى أحد بالخلافة ، وكانت وفاته في عهد السلطان جقمق العلأى الذى كان يبجله ،
فنزى وصلى عليه وشيع جنازته ، وقيل حمل نعشه مسافة . وتولى بعده أخوه حمزة ،
ولقب بالقائم بأمر الله . وما يذكر أن ابنة هذا الخليفة وهى آمنة ، تزوجها الخليفة
المتوكل على الله عبدالعزيز فولدت له ابنة يعقوب الذى ولى الخلافة بعد أبيه بعدمه
وتلقب بالمستمسك بالله عام ٥٩٠٣ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ - حسن المحاضرة ص ٧١ ج ٢ - تاريخ الخلفاء
ص ٣٤٠ - الضوء ج ٣ رقم ١٠١٥ »

١٣ - القائم بأمر الله ٥٨٦٣

وهو أبو البقاء حمزة ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة السالف ،
وهو المستكنى بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٥٨٥٥ بغير عهده ،
بل وقع عليه اختيار السلطان جقمق وحاشيته ، ولقبوه بالقائم بأمر الله .

وشهد عهد ثلاثة من الملوك هم جقمق وابنه وإينال العلأى .

وما يذكر أنه خلع الملك المنصور بن جقمق عام ٥٨٥٧ بناء على طلب أتاكبيه
إينال ، ثم ارتقى إينال العرش فبايعه الخليفة حمزة ، وكان من أكبر معاضديه على
نيل السلطنة ، إذ أن المنصور لم يكن قد انهزم فى صراعه مع أتاكبيه ، فقت
خلع الخليفة له فى عضده ، ولما ملك إينال أنعم على الخليفة القائم بأمر الله بإقطاع
واسع النطاق ومال وخيل وقماش .

ثم دارت الأيام دورتها واثارت ثائرة الممالك على إينال نفسه ٥٨٥٩ ، فضلع
معهم الخليفة القائم بأمر الله آملا أن يحتاز لنفسه غنمة جديدة من وراء ذلك ،
حتى قيل إنه طمع فى السلطنة ، ثم إن الممالك أخفقوا فى حركتهم ، ومن ثم أسقط
فى يد الخليفة وأوجس خيفة من السلطان ، وما لبث أن استقدمه السلطان إليه ،
ووجهه على سوء عمله ، فما كان من الخليفة إلا أن خلع نفسه وخلع السلطان معا ،
ولكن القاضى علم الدين البلقينى أفتى السلطان بأن عمل الخليفة ينطبق عليه هو دون
السلطان ، إذ بدأ بخلع نفسه فأصبح لا يملك خلع سواه ... !

فبذلك ثبت الملك إينال في السلطنة رغم أنف الخليفة وأفتاء علم الدين البلقيني بأنه يجوز له خلع الخليفة نخلعه في مجلس عقد لذلك وشهد عليه الحاضرون ، وقبض عليه وقذف به في البجرة بالقلعة مسجوناً ، فلبث بها أياماً وذلك عام ٨٥٩هـ . ثم سيق إلى الإسكندرية فسجن فيها ولبث في سجنه حتى توفي عام ٨٦٣هـ ودفن في مقبرة شقيقه المستعين بالله . وقد دامت خلافته نحو أربع سنوات ونصف . وخلفه في منصبه عام ٨٥٩هـ أخوه يوسف .

« ابن أبيس ج ١ ص ٣٥١ ، ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٢ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ - وتاريخ الخلفاء ص ٢٤١ - الضوء ج ٣ رقم ٦٣٩ . »

١٤ - المستنجد بالله ٨٨٤هـ

واسمه أبو المحاسن الجمالي يوسف ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، بويع بالخلافة في عهد الملك إينال عام ٨٥٩هـ في يوم الخميس ١٣ رجب ، وذلك بعد القبض على أخيه الخليفة السابق حمزة القائم بأمر الله . وكان مصاهراً قاضي القضاة علم الدين البلقيني ، وينسب البعض تحمسه البلقيني في خلع الخليفة القائم بأمر الله إلى هذه المصاهرة وإلى رغبته في أن يكون صهره يوسف هو الخليفة مكان أخيه . فتم له ما أراد ، ولبث يوسف هذا وهو الملقب بالمستنجد بالله في منصبه زمناً طويلاً يقدر بنحو ٢٥ سنة .

وشهد بقية عهد إينال وعهد ابنه المؤيد ، وأيام خشقدم وبلبای وتمرغا وقايتباي . وقد توفي في عهد هذا السلطان يوم السبت ٢٤ المحرم عام ٨٨٤هـ بعد مرضه بالفالج نحو عامين ، وقد بلغ التسعين أو جاوزها . وقد كان إينال قد أقطعه قرية إنابة فأخرجها عنه قايتباي وأقطعها أحد الأمراء .

وما يذكر أنه كان أحد أعضاء المجلس الذي عقده الأشرف قايتباي عام ٨٧٢هـ للنظر في أموال الأرقاف المرصودة على المساجد ، ومحاولة الاستيلاء على جزء منها معارضة للسلطان على تجهيز الجنود بما يحتاجون إليه في الحرب من سلاح وغيره ، وكان رأى الخليفة الرضا والموافقة على رأى السلطان ، وهو الاستيلاء

على جزء من المال . ولولا معارضة شيخ الإسلام أمين الدين الأقصراني في ذلك لنفذ هذا الرأي .

ومما يذكر أيضا أن هذا الخليفة هو الذي بعث إليه الملك غياث الدين صاحب بلاد الهند رسولا يطلب إليه تقليدا بولايته ، وذلك عام ٨٧٦ هـ . فبعث إليه التقليد المطلوب .

ومما يذكر كذلك أنه سكن بالقلعة بعد أن سكن بمنازل إخوته زمنا . ولما مات لم يعقب ولدا ذكرا ، وأنجب بنت واحدة تسمى ست الخلفاء ، كان الأمير خشكدي السيفي قد عقد عليها ، ثم فسخ العقد .

وقد وليه في الخلافة عبد العزيز ابن أخيه يعقوب بن المتوكل على الله بعهد منه .

« ابن اياس ج ٢ ص ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ — تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ — الضوء ج ١٠ رقم ١٢٤٧ .

١٥ — المتوكل على الله ، الثاني ، ٩٠٣ هـ

واسمه أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله محمد ، وهو ابن أخي الخليفة السابق ولم يل أبوه الخلافة . بويغ بالخلافة في عهد قايتباي بعد وفاة عمه المستنجد بالله في الاثنين ٢٦ المحرم عام ٨٨٤ هـ ، بعهد منه . ولم يكن إذ ذاك بين بني العباس بمصر من يصلح للخلافة سواه . وكان عمه موسى موجودا ، ولمكنه لم يكن كفئا للخلافة ، وقد مات موسى هذا عام ٨٩١ هـ

أراد أن يلقب بالمستعز بالله ، ثم لم يقع الاتفاق على هذا اللقب الأخير . وسكن بالقلعة بالحوش .

كان هذا الخليفة صديقا لجلال الدين السيوطي ، فأسند إليه في سنة ٩٠٢ هـ وظيفة غير معروفة في الدولة ، إذ جعله قاضيا على جميع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء في سائر ممالك الإسلام . قيل إن هذه الوظيفة كانت قد أسندت حينما إلى تاج الدين بن بنت الأعز في دولة الأيوبيين . وكان لهذا التعيين

رنة ألم وضجر ونقد مرير لدى قضاة الشرع ، ولدى السلطان . ورموا الخليفة بأنه استخف بالسلطان لصغر سنه . وقد كان السلطان هو ابن قايتباى . وما زالوا به ينكرون عليه حق التولية ، وأنه لاحل له ولا ربط بجوار السلطان ، حتى اضطر إلى سحب الوظيفة من السيوطى ، وتقديم ضروب الاعتذار عما صدر منه قائلاً إنه إنما فعل ذلك بناء على اقتراح السيوطى نفسه ! . وانتهت المسألة بعد أن كادت تكون فتنة للناس !

وقد صدرت من الخليفة المتوكل على الله فعلة أخرى فى نفس السنة ، إذ اشترك فى خلع الملك الناصر بن قايتباى ، وضلع من الأتابكى قانصوه خمسمائة ، وبايعة بالسلطنة فلم يلبث قانصوه بها سوى ثلاثة أيام ثم غلب ، وعاد الملك إلى صاحبه وهو الناصر بن قايتباى ، فعاد الخليفة وبايعة بالسلطنة . وهذا الخليفة صعد القلعة ، عام ٩٠٢ هـ - بنى الناصر بن قايتباى بعيد الفطر ، فلم يقابله السلطان وأرسل إليه من يشكره ويصرفه .

توفى هذا الخليفة فى يوم الخميس آخر المحرم سنة ٩٠٣ هـ بعد أن مرض زمناً فى أخريات عام ٩٠٢ هـ . وينسب إليه الاشتغال بالعلم والأدب ودماثة الخلق ، وتوفى وله من العمر نحو ٨٤ سنة ، ومدة خلافته نحو ١٩ سنة . وتولاها من بعده ابنه يعقوب يعهد منه .

وعما يذكر فى تاريخ المتوكل أنه فى عهد قايتباى وفى سنة ٨٩٩ هـ ، شبت نار قاسية فى القلعة فألحقت بها وبجواصلها تلفاً بالغاً . فقيل للسلطان إن النار اندلعت من مطبخ الخليفة المتوكل - وكان يسكن القلعة - فرسم له توا يخلصه سكنه بها والنزول إلى المدينة ليختار له بها سكناً فسكن فى قاعة مجاورة لمشهد السيدة نفيسة ، وظل كذلك حتى عام ٩٠٢ هـ ، فسكن عهد الناصر بن قايتباى ، فرسم له بالعودة إلى سكنى القلعة كما كان ، فعاد فى تلك السنة . وهذا الخليفة هو الذى ألف له السيوطى كتابيه فى تاريخ بنى العباس أولها « كتاب الأساس فى فضل بنى العباس » ، ثانيهما « كتاب رفع العباس عن بنى العباس » .

• ابن إياس ج ٢ ص ١٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ - تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ - الضوء ج ٤ رقم ٢٦١١ .

١٦ - المستمسك بالله ٩٢٧ هـ

وهو شرف الدين أبو الصبر يعقوب بن الخليفة السابق المتوكل على الله عبد العزيز ، وهو هاشمي الأبوين . قال ابن إياس : لم يل الخلافة من هو هاشمي الأبوين غير أربعة من بني هاشم وهم الإمام على كرم الله وجهه ، وكانت أمه هاشمية ، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ورحمه ، وأمهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ثم محمد الأمين بن زبيدة وكانت أمهم هاشمية . ثم يعقوب بن عبد العزيز وأمهم هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفي بالله أبي الربيع سليمان . فهؤلاء الأربعة هاشميو الأبوين وغيرهم من الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحبش وغير ذلك .

بعد أن مات أبوه في عهد الناصر بن قايقباى عام ٩٠٣ هـ اختير للخلافة في المحرم من ذلك العام ، وكان أبوه قد عهد إليه بها ، فأقر الناصر هذا العهد ، وزاحمه لدى السلطان على الخلافة ابن عم له يدعى خليلا ، فلم يأبه له السلطان . وتلقب بالمستمسك بالله . واكتفى القاضي الشافعى بعهد أبيه إليه عن المبايعة ، فتمت بذلك خلافته ، وهو فى سن الخمسين تقريبا وقد وخطه المشيب . وقد شهد هذا الخليفة عددا من السلاطين ، وتمت بيعتهم بالسلطنة على يديه وهم : قانصوه ابن قانصوه وجان بلاط والعاذل طومان باى والأشرف الغورى والأشرف طومان باى . كما عاصر جملة من الحوادث الرائعة . وامتد به الأجل حتى رأى احتلال العثمانيين لبلاده . وابنه المتوكل على الله هو آخر خلفاء بني العباس فى مصر .

ويلاحظ تاريخ المستمسك بالله يعقوب فيما يلى : كان يسكن بالمدينة حتى رسم له الأشرف جان بلاط بأن ينتقل إلى القلعة ، فانتقل وذلك عام ٩٠٥ هـ . ولما ملك طومان بلاد الشام ، وتلقب بالعاذل ، دان له أهلها وبايعوه ودعوا له على منابرها

ولم يحتاج إلى مبايعة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، لأنه كان بمصر مع سلطانها جان بلاط . غير أنه سرعان ما بايع العادل لمساتم له النصر على جان بلاط ، ولاننسى أن هذه المبايعات رسوم تقليدية فحسب لا تغير من جوهر الواقع شيئاً ، ولا أثر لها فيه . ١

ولما تمت السلطنة للعادل طومان - عام ٦٠٩ هـ - خلع على الخليفة بعض خلعه ، وبعد قليل في مستهل رمضان رسم له بترك القلعة ، والسكنى بداره بالمدينة ثم زالت دولة العادل وآلت السلطنة إلى الأشرف الغورى .

ساير الخليفة المستمسك بالله العصر الجديد بنفس المهمة والنشاط الذين ساير بهما العصور السالفة ، فبايع السلطان الغورى الجديد ، واشترك في حفلة تنصيبه وقام الأمراء بين يديه مرات بالحلف على المصحف إخلاصاً للسلطان .

وأصيب بضعف في عينيه ، فغيره ^(١) بذلك خليل ابن عمه الذى زاحمه من قبل فى منصب الخلافة ، فلم يظفر بطائل حينئذ . فعاد الكرة فى يوم السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ ووقع بينهما تشاجر بمجلس السلطان والقضاة . فقال خليل للخليفة يعقوب : أنت ولايتك ما تصلح فإنك أعمى ، فقام إليه الناصرى محمد ابن الخليفة ، وقال له : وأنت ما تصلح خلفك صلاة ، لأنك ما تحسن قراءة الفاتحة - وكان خليل أثنى لا يحسن النطق بحرف الراء - فألزمه السلطان الغورى بأن يقرأ بحضرة القضاة فلما قرأ لم يحسن ثم سكوت ولم يكمل الفاتحة . وربما كان هذا التشاجر والاختبار والدفاع بسبب هم السلطان بتعيين خليفة آخر جديد بدل المستمسك بالله يعقوب لضعف عينيه . فانفض ذلك المجلس المعقود على أن يكون الناصرى محمد ابن المستمسك بالله هو الخليفة . وقد عاد المجلس فعلاً إلى الانعقاد فى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، أى بعد يومين ، وقرّر الخليفة خلع نفسه من الخلافة عاهداً

(١) ذكر ابن اياس خليلاً هذا وقال عنه مرة انه ابن عم يعقوب (ج ٢ ص ٣٣٤) ومرة ابن عم ابيه (ج ٤ حوادث ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ) .

إلى ابنه المذكور ، فأقر الغورى هذا العهد ، ووافق القضاة والأمراء ، وزايل الخليفة المستمسك بالله المجلس مكرما . وانتهت بذلك خلافته بعد نحو إحدى عشرة سنة ونصف .

من ذلك الحين ظل الخليفة المذكور قابعا في داره ، قليل الاختلاط بالناس ، محتفيا عن الأنظار ، حتى أذن له السلطان بالخروج والظهور في يوم الخميس ١٥ من ذى الحجة عام ٩١٧ هـ فركب ثاني يوم ، وهو الجمعة ، للصلاة وزيارة المقابر . وظل مرعى الجانب من السلطان الغورى ، حتى خرج في تجريدته المشهورة إلى بلاد الشام للقاء السلطان سليم عام ٩٢٢ هـ ، وخرج معه الخليفة المتوكل على الله ، ثم مات الغورى ، وأسر المتوكل . فاستدعى حينئذ الخليفة أبو الصبر يعقوب المستمسك بالله للقيام بمراسيم الخلافة عوضا عن ابنه ، بصفة مؤقتة ليبايع السلطان الجديد طومان باى ، وأظهر هو توكيلا مطلقا كتب له ابنه المتوكل لينوب عنه في أمور الخلافة ، فأقر القضاة هذا التوكيل ، وهكذا عاد إلى الخلافة في عام ٩٢٢ هـ .

ثم زالت عنه صفة الخلافة حينما عاد ابنه المتوكل في ركاب العثمانيين ، وبعد عودته معهم إلى بلادهم لم تبق للخليفة منزلة رسمية مرعية .

وقد توفى المستمسك بالله في عهد ملك الأمراء خاير بك يوم الخميس ١٩ ربيع الآخر عام ٩٢٧ هـ . ودفن بمشهد السيدة نفيسة ، وينسب إليه الصلاح وحسن الدين وحب الخير والتواضع .

« ابن اياس ج ص ٣٥١ - ج ٢ ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٤٤ و ٣٥٠ و ٣٦١ و ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٣ و ٣٨٠ و ٣٨٧ و ٣٩٤ - ج ٤ في التواريخ المذكورة من عام ٩٠٦ هـ إلى ٩٢٢ هـ - وج ٥ في التواريخ المذكورة » .

١٧ - المتوكل على الله « الثالث »

وهو آخر خلفاء بنى العباس بمصر . واسمه أبو عبد الله الناصر محمد بن الخليفة المستمسك بالله يعقوب . ولى الخلافة بعد تنازل أبيه عنها وبعهد منه إليه . وزاحمه فيها خليل ابن عم أبيه كزاحم أباه من قبل ، ولكنه لم ينتصر عليهما . ولى الخلافة

فى عهد الغورى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، وبإيعامه السلطان والقضاة ونزل إلى داره فى موكب عظيم ، وقيل إنه بذل فى سبيل الوصول إلى الخلافة ١٢ ألف دينار . ! ولولا ذلك لكان نصيبه النفى من القاهرة وإحلال خليل من أحمه محله .

ظل المتوكل على الله محمد ، يقوم بمراسيم منصبه من تهنئة واستقبال وتحليف وغير ذلك . حتى أذنت سنة ٩٢٢ هـ وتحرك العثمانيون ضد مصر وممتلكاتها . فخرج الخليفة المتوكل فى عداد من خرج مع السلطان الغورى ، وأراد السلطان على أن يجهز نفسه من ماله كما أراد القضاة على ذلك . ولكنه لم يستطع ، وبعدلأى ومفاوضة أرسل السلطان إليه ألف دينار وكانت عادة الخلفاء من قبل إذا خرجوا فى حرب مع السلطان أن تكون نفقة خروجهم جميعها من مال السلطان . ولما خرج ركب الخليفة كان أمامه طبل وزمر . . . وعلى رأسه عمامة بغدادية بعذبتين . . وعلى جسده قباء بعلبكي مطرز بحرير أسود . . . واختصر ضروبا من التجميل كان يتبعها الخلفاء السابقون فى مثل هذه المناسبات . وذلك نظراً للضنك المالى الذى كانت البلاد وأعيانها تعانيه .

ثم سار الجميع إلى الشام . وهناك كانت الهزيمة فى « مرج دابق » ، وفقد سلطان مصر الغورى . وأسر السلطان سليم عددا كبيرا من مرافقيه ، ووفد عليه عدد آخر . فكان الخليفة المتوكل فى عداد من وفد عليه . وقيل إن السلطان سلبها سألته عن أصله . فقال : من بغداد ! فقال له : نعيدكم إلى بغداد كما كنتم ! - ولما هم الخليفة بالانصراف أحسن إليه السلطان سليم ، وخلع عليه خلعاً ثميناً من ملابس . وسيره إلى حلب وأمره بالإقامة بها . وكل به من يحرسه ويمنعه الحرب ! . فظل بها هو والقضاة المصريون الثلاثة الذين وفدوا على السلطان سليم معه . وقام مقامه بمصر دأبوه يعقوب . ظل فى الأسر حتى زحف العثمانيون على مصر فاحتملوه معهم هو والقضاة الثلاثة . ثم أرسلوهم سفراء إلى القاهرة قبيل دخولهم فيها ، هم وطائفة من وزراءهم وجنودهم ، طلائع لدخول سلطانهم ، وبشروا الناس بالآمن والعدل المنتظرين على يد العثمانيين . . .

وأضنى السلطان سليم على الخليفة المتوكل ضرباً من الثقة والنفوذ ، حتى عظم أمره وهيبته سطوته وقبلت شفاعته . وأصبحت داره مابجاً لذوى الحاجة سادة وغير سادة . وكانت هذه بلا شك سياسة حازمة من السلطان سليم ليخمدع الناس عن رغباته الخفية ، ويفهم المصريين حبه للدين وخوفه على رجاله . ثم هى وسيلة لإدخال الطمأنينة فى نفس المتوكل ، حتى يثق بالسلطان سليم ، وحينئذ يسهل على السلطان أن يتخذ منه إكافاً إلى غايته ، وأن يمتطيه حتى النهاية . ثم أمره بعد قليل بالمسير إلى القسطنطينية فى عداد من أمروا بذلك .

وفى يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى عام ٩٢٣ هـ ، خرج الخليفة المتوكل على الله محمد ، ومعه عدد من أقاربه للسفر إلى القسطنطينية . فغادر القاهرة فى ذلك اليوم . ولبت فى جهة بولاق إلى الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى المذكورة . ثم برحها إلى رشيد ومنها إلى عاصمة بنى عثمان . وبسفره انقطعت سلسلة الخلافة من مصر ، وانتهت أيامها .

وقيل إن السلطان سليماً نفاه بعد ذلك إلى مكان بعيد عن استانبول . وضيق عليه الخناق . وقيل إنه قهر على أن يتنازل عن الخلافة للسلطان سليم . وقيل إنه لم يقهره ، وإنما تسمى سلاطين العثمانيين بأمراء المؤمنين وتلقبوا بالخلفاء . وقد انتقلت بذلك الخلافة من العباسيين إلى آل عثمان .

ومما يذكر أنه بسفر الخليفة المتوكل انقطع عنه نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان هو ومن قبله من الخلفاء ينالون من وراء هذا المنظر المال الكثير والخير الوفير . وعاد المتوكل بأخرة إلى مصر ومات بها .

« ابن إياس ج ٤ ، هـ فى التواريخ المذكورة - نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة »

القضاء

على الرغم من أن النظام الإدارى فى ذلك العصر ، قد اقتضى تحويل مناصب البلاد تقريبا ، إلى مناصب عسكرية ، اختيار لشغلها عدد من الأمراء أرباب السيف ، كان لابد من أن تترك مناصب القضاء والكتابة وما إليها ، لى يلىها أهل العلم ورجال الدين ، وذو الخبرة باللغة العربية وإنشائها ، من نابتة البلاد ومنقفيها . وذلك لأن الأمراء لا يستطيعون بفطرتهم ونشأتهم وظروف حياتهم ، أن يقرموا بها أقله خبرتهم بأحكامها ، ولضعف تجارتهم فيها ، ولانصرافهم عنها إلى غيرها من المهام العسكرية .

وقد يكون فى مقدم ، الأسباب التى دفعتهم إلى ترك القضاء لعلماء الدين : أنهم مسلمون ، وأن سلاطينهم نصبوا أنفسهم حماة للإسلام ، وذادة عن أهله . فكان لابد لهم من أن يشجعوا رجال الإسلام ويبلوهم ، ويستشيروهم ويسترشدوا برأيهم عند الحاجة إليه ، مقتدين بمن سلف من الملوك قبلهم . وفى ذلك كسب عظيم لجانب هذه الطبقة من أبناء البلاد ، وهى أكثر أبنائها ثقافة ، وأنبغها فقها ، وأقواها حجة ، وأشدّها تأثيرا . ثم فى ذلك مافيه من إيهام العامة - إن حقا وإن باطلا - أن سلاطينهم وأمرأهم ، يغارون على دينهم ، ويحرصون على تنفيذ قوانينه وتعاليمه ، فيظفرون منهم بالإعجاب والطاعة .

وكان التعليم فى ذلك الحين نوعين :

الأول: مقصور على طائفة الممالك ، يساقون إليه دون استثناء ، وبربون على النمط الموضوع له ، فى أماكن خاصة بهم ، وقوام هذا النوع يسير من الكتابة والقراءة ، وآيات من القرآن الكريم ، وفروض الدين . وعناية كبرى بالرياضة البدنية من جرى وقفز وسباحة ورمى أطواق ، وغير ذلك . واهتمام بالترينات

العسكرية من ركوب الخيل ، والسكر بها والفر ، ورمى الشباب ، وجر الرماح ،
وسل السيوف ، إلى غير ذلك . وقد عقدنا لهذا النوع من التعليم فصلا مستقلا
فيما مر .

الثاني : مباح لمن يشاء من أبناء الشعب الآخرين في مصر والشام وسواهما من
بلاد المسلمين . لا يساق إليه أحد دون رغبته ومشيتته . وأما كنه المساجد التي
كانت في ذلك الحين ، كالجوامع ، تدرس بها شتى المواد . وأهم ما كان يدرس بها
علوم الدين ومذاهبه الأربعة ، وعلوم اللغة . وقليل من العلوم الأخرى . وسنفرد
له فصلا في الجزء الثاني من كتابنا هذا .

وقد نبغ كثير من أبناء البلاد ، الذين تثقفوا بهذا النوع الثاني من التعليم ، في
الفقه ، والحديث رواية وشرحا ، والتفسير ، والنحو والكتابة ، وما شاكل ذلك من
علوم الدين وفنون اللغة العربية ، فاختر السلاطين من بينهم . ومن النابغين فيهم ،
من احتاجوا إليهم ، في مناصب القضاء والكتابة . وما إليهما .
ويحسن بنا - بهذه المناسبة - أن نشير إلى أمرين .

الأول أن المتعلمين من أهل الدين واللغة ، كانت لهم عناية بالغة . بأن ينسبوا
إلى المذهب الديني الذي اختاروه ونبغوا فيه ، وكل منهم حريص على أن يضيف إلى
اسمه في النهاية كلمة . الشافعي ، أو الحنفي ، أو المالكي ، أو الحنبلي ، حتى أصبحت
نسبة كل منهم إلى مذهبه لصيقة باسمه لا تفارقه ، وصارت إحدى مميزاته .

الثاني ، أن القضاء لم يكن يطلق عليه لفظ شرعي ، إلا نادرا . لأنه لم يكن في
البلاد قضاء غير شرعي ، فلم تكن هناك حاجة إلى تمييزه غير أن القضاة كان يقال لهم
أحيانا « قضاة الشرع » ، لما لكلمة « الشرع » في بعض المواقف من تأثير ومعنى خاص .
وفي الحق كان القضاء « شرعيا » ، وفي أيدي قضاة الشرع . غير أنه كان
بجانبهم شخصان آخران يقضيان في المنازعات ، وهما السلطان ، وحاجب الحجاب
ويحسن بنا أن نشير بكلمة إلى كل منهما لأهميته القضائية .

السلطان وجلوسه للقضاء

السلطان ولى الأمر الشرعى فى البلاد . يقضى فيها باسمه ، ويستمد منه قضاء المملكة قوتهم القانونية ، التى بها يحكمون بين الناس .

وكان من المستطاع أن يترك السلاطين أمر الفصل فى القضايا والخصومات ، لمن نصبوهم من رجال الشرع فى مناصب القضاء ، إلا فى القضايا العليا ذات الصبغة الهامة فلا مانع من أن ينظروا فيها نظراً أخيراً ، يفصلون به فيها نهائياً . وفى ذلك ما فيه من الثقة برجال القضاء وفيه أيضاً ما فيه من توزيع الاختصاص ، وعدم شغل السلطان بما يستطيع أحد رعاياه أن يشتغل به . ولكن سلاطين الممالك ، أرادوا أن يتشبهوا بالسلف الصالح ، وبقيادة الأمة فى بداية أمرها وحدائدها بالإسلام وذلك بتفقد أحوال الرعية ، والنظر فى مطلبات الأمة ، ونشر العدل بين ربوعها (١) ليسكون لهم من وراء ذلك ذكرى حسنة وصيت جميل .

فعل السلاطين ذلك ، على الرغم من اتساع الدولة ، وكثرة دواوينها ، وتشابك أمورها وتشعبها ، ووفرة موظفيها ، وقيام قضائها . فعلموا ذلك على الرغم من الفارق البعيد بينهم وبين السلف الصالح ، فى فقه الإسلام والعلم بأصول أحكامه . ولهذا ، لم يجدوا بدا من اصطحاب القضاء أنفسهم معهم ، إذا ما جلسوا مجلس القضاء . ولهذا أيضاً ، لم يجدوا بدا من أن لا يواظبوا على هذه العادة الحميدة . فكان جلوسهم للقضاء بين الناس متقطعاً حسب المشيئة والهوى . بل من السلاطين من هجر هذه العادة ، ولم يجعلها من تقاليده . ومنهم من أناب عنه نائب سلطنته لأداء هذه المهمة .

وعن جلس من السلاطين للقضاء : السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل ابن قلاوون (٢) وأخوه الناصر محمد . ومن نواب السلطنة : الأمير عز الدين إيدمر

(١) راجع خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٣٦ تحت عنوان « ذكر النظر فى المظالم »

(٢) عن سلوك المقرئى ج ١ ص ٥٠٣ ، ٧٧٢ - الخطط ج ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٨

الحلى^(١)، عن الظاهر بيهرس، والأمير سلال المنصوري عن الناصر بن قلاوون. فإذا ما استوى أحدهم على منصة القضاء، قدمت إليه الخصومات على اختلاف أنواعها، سواء أكانت جنائية أم مدنية، أو من قضايا الأحوال الشخصية، فيستشير فيها قضاة الشرع، ويحكم بما يملكه عليه رأيه، بعد هذه الاستشارة، وهو لا يخرج عن الأخذ بها غالباً.

ومن الممتع أن نثبت هنا وصف جلوس السلطان للقضاء في دار العدل. وكان للسلطان فيها منصة. قال السيوطي^(٢):

قال ابن فضل الله: «إذا جلس السلطان للمظالم، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ثم الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر في الحسبة، ويجلس عن يساره كاتب السر وقدامه ناظر الجيش، وجماعة من الموقعين، تكلمة حلقة دائرة. وإن كان ثم وزير من أرباب الأفلام، كان بينه وبين كاتب السر. وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف، ويقف من وراء السلطان. صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجدارية والخاصكية. ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً، من يمنة ويسرة، ذوو السن من أكابر أمراء المثين، وهم أمراء المشورة. ويلهم من درنهم من أكابر الأمراء، وأرباب الوظائف وقوفاً، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان، الحجاب والداوادرية، لإحضار قصص الناس، وإحضار المساكين، وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه.»

(١) السلوك ج ١ ص ٥٥٠

(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٢ بعنوان «ذكر جلوس السلطان في دار العدل المظالم» وقد ورد نفس النص ييسر من التفصيل في خطط المقرئ ج ٣ ص ٣٣٩ تحت عنوان «ذكر خدمة الايوان المعروف بدار العدل». وورد كذلك في صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٤ تحت عنوان «هيئة في جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم».

قال : « وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس ، إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس » .

وقد عقب القلقشندي في صبح الأعشى على ذلك بما يفهم منه أن تعديلا طفيفا دخل على هذا النظام ، وأهم ما فيه جلوس القاضى الشافعى والمالكى عن يمين السلطان ، والحنفى والحنبل عن يساره (١)

وبما يذكر أن دار العدل بناها الظاهر بيبرس وجلس فيها للفصل فى الشكايات عام ٦٦٢ هـ ، وتعرف بدار العدل القديمة ، ثم هجرت حينما لما بنى المنصور قلاوون بدلا منها « الإيوان » ، ثم هدمت جملة فى عهد ابنه الناصر محمد (٢) . وحل محلها « الإيوان » ، وجملة الناصر المذكور وجلس فيه للقضاء والنظر فى المظالم يومى الاثنين والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعده . حتى ملك برقوق ، فاستبدل به الاصطبل السلطانى يجلس فيه للحكم بين الناس يومى الأحد والأربعاء . ثم استبدل بهما السبت والثلاثاء وأضاف إليهما يوم الجمعة .

هذا وقد كان للسلطان وحده الحق فى مصادرة أملاك المتهمين كبارا وصغارا دون اللجوء إلى حكم قضائى . فإذا ما اتهم لديه إنسان ما ، من الأمراء أو المباشرين أو غيرهم ، أمر فوراً - إذا أراد - بالقبض عليه والإحاطة بماله من مال وعقار ونحوهما ، وضمه إلى الخزانة الشريفة ... ولهذا الحالة أمثلة كثيرة لا عدد لها يراها القارىء فيما مر من سير رجال العصر .

وكان السلطان كذلك يتدخل فى أحكام قضاة الشرع أنفسهم ، ويعنفهم أحيانا إذا لم يقضوا بحكم يرضيه - ومن الأمثلة على ذلك ، مارواه ابن إياس (٣) فى سياق حديثه عن السلطان الغورى ، قال :

(١) صبح الأعمى ج ٤ ص ٤٥ بالعنوان السابق .

(٢) خطط القرينى ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ص ٣٣٥ تحت عنوان

« الإيوان » ص ٣٣٨ فى نهاية « ذكر النظر فى المظالم » .

(٣) البدائع ج ٤ حوادث صفر سنة ٩١٧ هـ .

« فى صفر - أى عام ٩١٧ هـ - صعد الخليفة إلى القلعة ليهنىء بالشهر ، وكذلك القضاة الأربعة فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين الحلبي غاية المقت من السلطان ، وكاد يبطش به ، وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوقائع بما اعترض عليه فى ذلك ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ولم يقبل له عذرا ، وخط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين بن الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا .

ويبدو لنا أن السلطان كانت تقدم إليه القصص من جميع الأنواع ، حتى التافه منها ، فكثير عددها وأرهقته كثرتها ، حتى اضطر إلى تحويلها إلى المختصين . ويدلنا على ذلك ما رواه ابن إياس ، قال ما نصه (١) :

« وفيه - أى فى شهر ربيع الأول عام ٨٧٦ هـ - نودى من قبل السلطان بأن لا يشكو أحد أحدًا للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فإذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان حتى إن امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطئ جارية فى ملكه ، فما أطاقت زوجته الغيرة ، وشكته للسلطان بقصة .

حاجب الحجاب

قد أشرنا من قبل إلى شىء من اختصاص هذا الحاجب (٢) . ويعرف منصبه بالحجوبية ، ويعرف هو بحاجب الحجاب ، أو الحاجب الأكبر ، وذلك لأن له أعوانا يساعدونه فى أداء عمله . ويعتبر منصبه من أهم مناصب المملكة ، وقد لا يسمو عليه - من الناحية العملية - غير نائب السلطنة .

وقد أنشئ هذا المنصب ، ليشغله أحد أمراء الدولة العظماء . وكان عمله فى بادئ أمره الفصل فى الخصومات المدنية ، وفى جميع ضروب النزاع التى تقع بين

(١) البدائع ج ٢ ص ١٢٩ فى سياق ترجمة قايتباى ، وفى سنة ٨٧٦ هـ

(٢) راجع ما ذكرناه عنه فى هذا الكتاب - وراجع مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠ فى نهاية فصل فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما .

الجنود الممالك فحسب ، فينصف ضعيفهم من قويمهم ، ويضرب على يد ظالمهم لظلمهم ، ولم يتعد اختصاصه هذه الدائرة .

غير أن أحكامه لم تكن دائماً مقتبسة من أحكام الدين الإسلامي ، بل كان يمزج فيها بين رأيه الشخصي وبعض القوانين السابقة المرعية عند أمم أخرى غير إسلامية مثل التتار القدماء .

وكلن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق - على ما رواه المقرئ (١) - قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه « ياسة » ، ونقشه في صفائح من الفولاذ وجعله شريعة لقومه . فالأزموه بعده . وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض . فصار « الياسة » حكماً بتاتياً في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه .

ومن جملة ما شرعه جنكيز خان في « الياسة » - على ما رواه المقرئ كذلك - أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن . وغير المحصن ومن لاط قتل : ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين اثنين وهما يتخاضمان وأعان أحدهما على الآخر ، قتل . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخر فيها ، فإنه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل . وأن الحيوان تكشف قوائمه وبشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد حرف أهل مصر كلمة « ياسة » إلى « سياسة » ، وأدخلوا عليها الألف واللام فصارت « السياسة » . ثم قال المقرئ عن ملوك مصر وأمرائها وعساكرها في دولة الممالك ما نصه :

« وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة

(١) راجع المخطوط ج ٣ من ٣٥٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة » .

المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الردىء وفوضوا لقاضى القضاة ، كل ما يتعلق بالأمور الدينية ، من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك .

واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادات جنكيز خان ، والاعتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويمهم ، وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى « الياسه » .

وجعلوا إليه مع ذلك ، النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ، عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب . وكانت من أجل القواعد وأفضلها ، حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى ، فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ، ليصير لهم فى ذلك سيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه .

وكان - مع ذلك - يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور . هذا وستر الحياء يومئذ مسدول وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب ، فلا يكاد أحد أن يزيع عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء . إن لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل . ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ما شاء ، وتعدت - منذ عهد الخن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة - الحجاب ، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس .

وكان أول حكم الحجاب - على ما رواه المقرئى أيضا - فى جمادى الأولى سنة ٧٤٦ هـ ، فى عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون . وأول الحجاب هو الأمير سيف الدين بيغوا . وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة ونحوهم بالأعمال . وأقيم الأمير رسلان بصل ، حاجبا معه يعاونه .

وكان أول قضاء الحجاب بما في السياسة ، من الأحكام عام ٨٧٥٣ . في عهد الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون . إذ رسم الأمير سيف الدين جرجي الحاجب ، أن يتحدث في أرباب الديوان ويفصل بينهم وبين غرماهم ، وكان هذا من اختصاص قضاة الشرع .

وكان سبب ذلك ، أن تجارا من العجم شكوا إلى السلطان بدار العدل - إذ ذاك - أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لكثرة ما ظلمهم التتار ، وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع ، وأكلوا أثمانها . فاثبتوا أمام القاضي الحنفى إعراسهم وأودعوا سجنه . وقد أفلس بعضهم ولم يستفيدوا هم من وراء سجنهم شيئا . فرسم السلطان الصالح للأمير سيف الدين الحاجب بأن يخرج هؤلاء الغرما من السجن ، وأن يعمل على استخلاص الديون منهم ، وأنكر السلطان على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمدنيين .

فأخرج الحاجب غرما التجار من السجن ، وعاقبهم ، حتى أخذ التجار أموالهم منهم شيئا بعد شيء . قال المقرئى : « وتمكن الحجاب حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا » .

وبعد نقل اختصاص النظر فى الديون ، والفصل فيها بغير طريق الشرع ، تعديا على الشرع . ونزعا لاختصاص القاضى الشرعى ، وتضييقاً لنفوذه ، وإضافة للفصل بين الناس فى بعض منازعاتهم إلى الجاجب ، بعد أن كان عمله مقصورا على الجود . وقد تدخل الحجاب من بعد فى كثير من اختصاص قضاة الشرع . وصار للحاجب أعوان . وكان له من قوة نشأته وعظمته رتبته ، وقرب مكانته من السلطان معين على توسيع دائرة نفوذه ، واستشراء شره ، وضخامة اختصاصه . ومسعف على جمع المال والثراء على حساب المتنازعين .

هذا إلى أن كثيرا ما كان الأمراء الآخرون ، يتدخلون فى القضاء كأنما كانوا - إلى جوار أنهم سلطة تنفيذية - سلطة قضائية كذلك ، تفصل فى المنازعات ،

ولهم في ذلك أعوان ونقباء . وما يدلنا على ذلك ، ما رواه ابن إياس في سياق تاريخ الغورى قال ما نصه :

« لما اشتد أمر الطاعون وفشا ، أمر - أى السلطان - الأمراء بأن يبطلوا النقباء من أبوابهم ، وألا أحد يشكو إلا من طريق الشرع الشريف ، وقد فعل ذلك قربى إلى الله وزانى ، حتى يدرأ البلاء عن البلاد .

ويبدو لنا أيضا أن بعض علماء الشرع ، ممن أهلتهم كفاءتهم العلمية للفتوى ، كانوا يتصدون للفصل فى المنازعات بين الناس ، وبين من يلجأ إليهم للفصل فى منازعته ، وشيئ بهذا فى عصرنا الحديث ، المجالس العرفية التى يفصل فيها بعض ذوى رأى من العلماء والأعيان ، ويسرى حكمهم على المتخاصمين . ويبدو لنا كذلك أن من بين قضاة الشرع من كان يتناول أجراً على قضائه ، ومنهم من كان يقضى بالمجان . ويفهم هذا من عبارات كثيرة ترد على ألسنة مؤرخى العصر ، ومن ذلك ما ذكره السخاوى فى الضوء اللامع - ج ١ ص ٢٠ - فى ترجمة عز الدين الحنبلى وهو أحمد بن إبراهيم بن نصر الله . إذ قال فى سياقها ما نصه : « وصار يقضى فيما يقصد به فى بيته مجانا . ثم تركه جملة ، أى ترك القضاء .

القضاء الشرعى

اتبعت مصر فى عصر المماليك . كثيرا من النظم الإدارية التى كانت متبعة فى عصر الأيوبيين ، ومن بينها النظام القضاى . وقد أسس الأيوبيون دولتهم على أنقاض الدولة الفاطمية الشيعية ، وكانوا سنيين يتبعون المذهب الشافعى ، فعملوا على نشره فى البلاد ، وقضوا به فى الأحكام ، وجهدوا فى محو آثار المذهب الشيعى .

ويعتبر رجال الشافعية البلاد المصرية من مناطق نفوذهم ، فعودة قضائهم إليهم فى عهد الأيوبيين إعطاء الأمور لأربابها ، ورجوع للمياه إلى مجاريها .

وكان القضاء - - - - - إذ ذاك - مقسما إلى دائرتين ، الأولى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، والثانية قضاء مصر - - - - - القسطنطينية والوجه القبلى . وبعين فى كل دائرة

قاض واحد . وقد تجمع الدائرتان لقاض واحد (١) .

وقد جرى المالك على هذا النظام في أول عهدهم بالدولة ، فكان بالبلاد حيناً قاضيان ، وحيناً قاض واحد ، وهونادر . ومن اجتمع له قضاء هصر كله بدر الدين السنجاري في عهد المعز بن أبيك ، وتاج الدين بن بنت الأعز في عهد الظاهر بيبرس . ثم تعدد القضاة كما سيأتى .

والقاضى فى دائرته هو المتصرف الوحيد فى شئون القضاء ، وتعرض عليه جميع القضايا على اختلاف أنواعها سواء أكانت جنائية أم مدنية أو زوجية . ويدخل فى اختصاصه النظر فى عقود الزواج والبيع والإجارة والوصية ونظر الأوقاف ورعاية بيت المال ، والعناية بشئون الصلاة والزكاة والصوم ، وما إلى ذلك من شئون الدين (٢) . وهو يقضى فى كل أولئك حسبما يرتئيه فقهه وعلمه وذكاؤه .

ويبدو لنا أن القاضى - حينذاك وقبل عام ٦٦٣ هـ - كان إليه الفصل فى جميع قضايا دائرته مما يدخل فى اختصاصه ، وليس له من الأعوان إلا من دعت إليهم الضرورة ، بغير تدخل من أحد هؤلاء الأعوان فى شئون القضاء . ومع ذلك كان القاضى يلقب بقاضى القضاء . ولعله نظر فى ذلك إلى نوابه .

يفهم ذلك من عبارات المؤرخين ونعوتهم للقضاة قبل عام ٦٦٣ هـ ، فمثلاً قال المقرئى فى سلوكه - ج ١ ص ٤٤٨ - مانصه : « فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فوض قضاء القضاء بديار هصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز » . وقال فى ص ٤٧٢ : « وفى ثالث رمضان عزل السلطان قاضى القضاء برهان الدين السنجاري » ، وذلك كان عام ٦٦٠ هـ .

(١) فى ابن إياس ج ١ ص ١٠٣ أنه كان فى الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعى - وفى صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ أن الأمر فى الأول كان مقصوراً على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان .
(٢) راجع ما سبق فى حاجب الحجاب ، والمخطط ج ٢ ص ٣٥٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة » و صبح الأهمى ج ٤ ص ٣٤ ،

غير أنه لما ولي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، قضاء الديار المصرية جميعها . وكان متشدداً في أحكامه - ومن شأن هذا التشدد أن يوجه الأحكام وجهة خاصة ، أو أن يؤجل وقت الفصل فيها أو يوغر صدر البعض ممن لا يستريح إلى الفصل بمذهب الشافعي ، أو نحو ذلك - رأى السلطان الظاهر بيبرس في عام ٦٦٠ هـ أن يستنوب القاضي تاج الدين بن بنت الأعز عنه ثلاثة قضاة ، واحداً من كل مذهب . وقد قال المقرئ في ذلك ما يلي بالنص (١) .

« وفي ثالث شهر رمضان - أي عام ٦٦٠ هـ - عزل السلطان قاضي القضاة برهان الدين السنجاري ، عن قضاء مصر والوجه القبلي ، وأعاد قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها . وكان متشدداً في أحكامه ، فرسم له في ذى القعدة أن يستنوب عنه مدرسي المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم في الحكم عنه ، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت . فجلس القاضي صدر الدين سليمان الحنفي ، والقاضي شرف الدين السبكي المالكي ، والقاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي ، في أول ذى القعدة ، وحكموا بين الناس بمذاهبهم . »

ويفهم من ذلك أن قاضي القضاة تاج الدين ، استناب ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الأخرى غير مذهبه . ولم يستنوب شافعيًا . وأن كلا منهم يسمى « نائب حكم » . غير أن المقرئ عاد في موضع آخر ، فقال مانصه (٢) :

« وفيها - أي في سنة ٦٦٠ هـ - أمر بتنصيب أربعة قضاة نواباً لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، فاستناب حنفياً ومالكيًا وشافعيًا . ولم يجد من يستنوبه من الحنابلة ، فولى عاقداً حنبلياً . »

ويفهم من ذلك أن قاضي القضاة استناب أربعة لا ثلاثة ، وأن بينهم قاضياً شافعيًا ، وأن رابعهم الحنبلي كان عاقداً لا نائباً ، والعائد أقل مرتبة من القاضي ،

(١) السلوك ج ١ ص ٤٢٢ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٥٠١ .

وهو الذى يتولى تحرير العقود ، كالبيع والآنكحة .

وذكر السبكي فى طبقاته ، ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة (١) ما يوافق المقرئى فى نصه الأول ، حيث قال :

« سئل تاج الدين - أى ابن بنت الأعز - فى أمر ، فامتنع من الدخول فيه . فقيل له : مر نائبك الحنفى ، وكان القاضى وهو الشافعى ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة فامتنع من ذلك أيضا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد أناب قاضى القضاة عنه نوابا يحكمون بمذاهبهم ، وكان ذلك منذ عام ٦٦٠ هـ . فكان هذا الحادث تمهيدا للحادث الأكبر التالى وهو تعدد القضاة .

ولعل بعض فقهاء المذاهب الثلاثة - عدا الشافعى - كان بهم تطلع إلى القضاة ومناصبه ، وبفسهم شيء من استئثار فقهاء الشافعية بها . ومن لطيف ما نسوقه بهذه المناسبة ، ما رواه المقرئى فى مطلع عام ٦٦٢ هـ . حيث قال ما نصه (٢) .

« استفتى السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة محتومة مع خادم أسود ، تتضمن مرافعة (٣) فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، لأنه ماجل الحنابلة نصيبا فى المدرسة التى أنشأها بجوار قبة الملك الصالح ، ولأولى حنبليا قاضيا . وذكر أشياء فادحة فيه ، فبعث السلطان بها إلى الشيخ ، فأقسم أنه ما جرى منه شيء ، وإنما هذا الخادم طرده من خدمته . فقال له السلطان : « ولو شتمتني أنت فى حل » . وأمر فضرب الخادم مائة عصا . »

هذا وقد لبث نظام النواب الثلاثة أو الأربعة مرعيا ، حتى كانت سنة ٦٦٣ هـ ، فتعدد فيها القضاة .

(١) الطباقات ج ٥ ص ١٣٤ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٣ ، والمخطط ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » .

(٣) المرافعة الشكوى وإقامة الدعوى .

تعدد القضاة

كان نظام النواب تمهيدا واضحا لتعدد القضاة ، وقد أدى إلى الحادئين معا ، ما نسب إلى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز من شدة في أحكامه ، ومن امتناعه ، حينما عن الفصل إلا بمذهبه ، وحينما عن أن يأمر أحد نوابه للفصل في بعض المسائل بمذهبه . وكثير من الناس من يغص بمثل موقف هذا القاضى المتشدد النزبه ، وتقف شدته ونزاهته حينما عقبه في سبيل تنفيذ بعض الرغبات ، وتلبيتها . ثم لعل هذه الرغبات تجد ملبيا لها ومنفذا ومتسعا في المذاهب الأخرى ، غير الشافعى . ثم إن هذا القاضى كان لا يقبل شهادة كبار الأمراء ^(١) . ولعله كان في ريبة من أمر عتقهم ،

ولقد حنق بعض الأمراء فعلا ، على القاضى المذكور ، فوسوسوا إلى السلطان الظاهر ببيرس أن يعدد القضاة ، وأن يقيم من كل مذهب قاضيا ، يحكم بين الناس بأحكام مذهبه .

ويروى في هذا المقام ، الفصة التالية . وهى من الأسباب المباشرة التى أدت إلى هذا التعدد ^(٢) ، قال المقرئى فى السلوك :

« كان الأمير جمال الدين أيدغدى العزى ، يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . ويضع من قدره ، ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده فى الأحكام وتوقفه فى القضايا التى لاتوافق مذهبه . فانفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة - أى عام ٦٦٣ هـ - فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة ، فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة

(١) يفهم هذا من الرواية التالية ، ومما رواه السيوطى أيضا فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ . والسبكى فى الطبقات ج ٥ ص ١٣٥ .

(٢) رواها المقرئى فى سلوكه ١٠ ص ٥٣٩ - وذكرها القافشندي فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤ ، ناقلا عن نهاية الأرب للنويرى .

بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف ، فعندما قرئت ، أخذ الأمير أيدغدى يحط على الفقهاء وينقصهم ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين : « يا قاضى ! هكذا تكون القضاة ؟ » . فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلقة بعرقوبها » . قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » . قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : فإذا لم يكن مع الورثة شيء ؟ .

قال القاضى : « يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من ذلك . .

وباتم الكلام ، حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال : « يا مولانا السلطان ! سألت هذا القاضى أن يسلم إلى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل . » . فسأل السلطان القاضى عما قاله ، فقال : « نعم » . قال السلطان : « أنا أمرته بذلك . فكيف رددت أمرى ؟ » . قال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه . ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه . ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثق بدينه وأمانته . فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه » . فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى » ؟ قال « نعم » . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن نختاره » .

ثم تقدم بعض الأمراء وقال : شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك فقال : « ما شهد أحد عندى حتى أثبته » . فقال الأمير : « إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ » . قال السلطان : « لم لا سمعت قوله ؟ » فقال : « لا حاجة فى ذكر ذلك » .

فقال الأمير أيدغدى : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا » . فصغى السلطان لقول أيدغدى ، وانفض المجلس . .

« إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره ، ولى السلطان القاضى صدر الدين سليمان ابن أبى العز بن وهيب الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية . والقاضى

شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى . . . السبكي المالكي . والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، ليسكونوا قضاء القضاة بديار مصر . وجعل السلطان لهم أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز . وأبقى على ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . وكتب لكل منهم تقليداً ، وخلع عليه . فصار بديار مصر قضاء القضاة من حيثئذ أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه ، ويستنبط من هذا النص جملة أمور :

الأول : أن القضاء تعدد فى عصر الظاهر بيبرس ، وصار بمصر أربعة قضاة ، واحد من كل مذهب ، يحكم بأحكام مذهبه . غير أنه ممارواه السيوطى فى حسن المحاضرة^(١) يفهم أن القضاء تعدد مرة أخرى قبل عصر بيبرس . وقد قال ما نصه :

« قال ابن ميسر فى تاريخ مصر : « فى سنة خمسة وعشرين وخمسمائة ، رتب أبو أحمد بن الأفضل فى الحكم أربعة قضاة ، يحكم كل قاض بمذهبه ، ويورث بمذهبه . فكان قاضى الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضى المالكية أبا محمد عبد المولى ابن اللبني ، وقاضى الإسماعيلية أبا الفضل بن الأزرق ، وقاضى الإمامية ابن أبى كامل ، ولم يسمع بمثل هذا . وقال ابن ميسر : « وقد تجدد فى عصرنا هذا الذى نحن فيه أربع قضاة على الأربع مذاهب ، .

هذا وعلى الرغم من فرض نظام التعدد ، ومن أنه صار لكل مذهب قاضى قضاة فى البلاد ، ينبغ عنه فى الأحكام ، ورد فى بعض النصوص ما يشعر بأن السلطان قد يعين قاضى قضاة شافعيًا للقاهرة والوجه البحرى ، وقاضى قضاة شافعيًا آخر لمصر والوجه القبلى فى وقت واحد ، على نمط مما كان متبعاً فى أول العصر إلى جانب قضاة القضاة الثلاثة الآخرين . وفى هذه الحالة قد يكون قاضى قضاة

القاهرة والوجه البحرى مقدماً فى مجلس السلطان وفى الجلوس بدار العدل ،
على زميله .

ومن تلك النصوص ما رواه المقرئى فى سلوكه ^(١) حيث قال ما ملخصه فى
مطلع حوادث سنة ٦٨٦ هـ : د فى يوم الأحد نصف المحرم استقر برهان الدين
خضر السنجارى فى قضاء القاهرة والوجه البحرى عوضاً عن قاضى القضاة
شهاب الدين محمد بن أحمد الخوي . فنزل السنجارى من القلعة ، وجلس للحكم فى
المدرسة المنصورية بين القصرين ، ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى
القضاة تقي الدين بن بنت الأعز ، فشق ذلك على ابن بنت الأعز ، وسعى أن يعنى
من حضور دار العدل . فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجارى فجأة . .
فاستقر ابن بنت الأعز فى قضاء القاهرة وجمع له بين قضاء البلدين . .

الثانى : أن نظام التعدد بدأ يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ ،
ويوافق هذه الرواية فى تحديد العام القلقشندى فى صبح الأعشى د ج ٤ ص ٣٥ ،
والسيوطى فى حسن المحاضرة د ج ٢ ص ١١٣ ، وابن الوردى فى تنمة المختصر .
وروى ابن إباس د ج ١ ص ١٠٣ حوادث عام ٦٦٠ هـ ، أن هذا النظام كان فى
أواخر عام ٦٦٠ هـ .

الثالث : أنه - على الرغم من التعدد - ظل قاضى قضاة الشافعية ممتازاً على سائر
زملائه ، وكان يقدم عليهم فى مناسبات كثيرة كالمبايعات والخطابة فى الاستسقاء ،
وبقى له النظر فى مال الأيتام والمحاكم المختصة ببيت المال . وقد روى السبكى فى
طبقاته بهذا الصدد مانصه ، قال ^(٢) : « وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة
ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة
البر والأيتام ، وجعلهم الأرفعين » . وهذه العبارة أوضح من عبارة المقرئى ،

(١) سلوك المقرئى ج ١ ص ٧٣٤

(٢) الطبقات ج ٥ ص ١٣٥ فى ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز . ونقل عنه السيوطى فى حسن

المحاضرة ج ٢ ص ١١٢

وثبت أن اختصاص القاضى الشافعى كان أوسع ، وكان يضم - فيما يضم - الحق في تعيين نواب الحكم دون بقية زملائه . وهذا الحق غير واضح في عبارة المقرئ بل فيها ما يوهم نقيضه حيث قال : « وجعل السلطان لهم أن يولوا في سائر الأعمال المصرية مضافا لقاضى القضاة تاج الدين . . » . فعبارة مع اضطرابها توحي بأن السلطان جعل للقضاة الثلاثة - مع الشافعى - الحق في تعيين نواب حكم ينوبون عنهم في الأحكام في سائر الأعمال المصرية .

وقد وضح الفلقشندي^(١) هذا الحق وحده بما يناقض رواية السبكي بعض المناقضة حيث قال : « وجعل - أى السلطان - لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر في مال الأيتام والأوقاف وكتب له بذلك تقليد^(٢) من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، أوله . « الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى » . ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب النواب وإجلاس الشهود . ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحي الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره . . ويفهم منه أن القضاة ينيبون عنهم نوابا في القاهرة والفسطاط فقط ، ويمتاز الشافعى بتعيين نواب له في الوجهين دونهم .

ومهما يكن من شيء ، فهذا كله يشعر بأن القاضى الشافعى احتفظ له بكثير من مكانته واختصاصه .

هذا ، وقد طبق هذا النظام في قضاء دمشق في عام ٦٦٤ هـ ، في شهر المحرم . إذ أرسلت في الشهر المذكور تقاليد بتولية كل من شمس الدين عبد الله محمد بن عطا قضاء الخليفة ، وزين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى قضاء المالكية ، وشمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر محمد بن قدامة قضاء الحنابلة ، وكان بها شمس الدين أحمد بن خلكان قاضى قضاء ، وكان شافعيًا فلبث في قضاء الشافعية .

(١) صح الأعمى ج ٤ ص ٣٦

(٢) التقليد هو مكتابة رسمية على لسان السلطان موجهة إلى القاضى يقلده فيها أعماله .

وعما رواه المقرئى أنه لما وردت التقاليد إلى دمشق لم يقبل المالكي ولا الحنبلي، وقيل الحنفي . فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بالقبول أو أخذ ما بأيديهما من الوظائف إن لم يقبلا . فأجابا . . . ! ثم أصبح المالكي وعزل نفسه عن القضاء والوظائف ؛ فورد المرسوم بإلزامه ، فأجاب . . . وامتنع هو والحنبلي من تناول جامكية على القضاء .

ويبدو أن هذا الأخذ والرد استغرق زمنا . إذ ذكر المقرئى أن استقلالهم بالقضاء كان في ٦ جمادى الأولى (١) .

محاسن التعدد ومساوئه

هكذا تعددت القضاة في مصر ودمشق ، وأصبح لأصحاب المظالم والقصص الحق في عرضها على أى القضاة يختارون ، ويتحاكون بذلك إلى المذهب الذى يرتضون ، وفى ذلك من التوسعة وحرية التقاضى ما فيه ، ويمكن بهذا التعدد حل مشاكل عدة كان يصعب حلها حلا مناسباً للظروف والملابسات ، لو اقتصر الأمر على مذهب واحد ، وبدهى أن أقل ما يقال فى مزايا هذا التعدد أنه أضاف مواد قانونية جديدة متنوعة إلى مواد القانون المفضى به ، فأتسع بذلك مجال الفتوى والرأى . وكل مذهب من هذه المذاهب الشرعية ، يستقى من معين واحد ، هو كتاب الله وسنة نبيه ، جهد فيه أصحابه وجاهدوا ، وقلبوا الرأى على وجوهه ، حتى استقام لهم ، وبشوا تعاليمهم فى أماكن كثيرة ، فارتضى المسلمون منهم ذلك وأجمعوا على أن مذاهبهم خير ما استنبط من الكتاب والسنة . فلا غضاضة على الشافعية ، من أن يشركهم الحنفية أو غيرهم من فقهاء أهل السنة فى القضاء ، لأن الغرض الأول من القانون تبسير القضاء وتحقيق العدالة ، ورعاية المصالح العامة والخاصة بما يوافق الحق ، فإذا تعددت مواده ، بغير تناقض فى الباطن بينها ، استطاع القاضى أن يجد خلاصاً من الأحكام ما يمشى وملابسات القضية واستطاع

المتقاضيان ، أن يجدا متسعا لتحقيق ما ينشدانه من عدالة . واستطاعت المصلحة أن تتحقق وترعى بوجه من الوجوه .

وقد حدث في سنة ٦٦٥ هـ ، أى بعد أن تعدد القضاء بزمان وجيز ، أن أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلى ، الجامع الأزهر ، بعد أن استأذن السلطان الظاهر بيبرس فى ذلك . فلما تم إصلاحه ، اختلف الناس فى صحة إقامة صلاة الجمعة فيه . - وكانت الجمعة وخطبتها قد أبطلتا فيه منذ عهد الأيوبيين - فعارض فى إقامة الصلاة قاضى قضاة الشافعية ، وهو تاج الدين بن بنت الأعز ، أيضا . وأفتى قاضى قضاة الحنفية بجواز إقامتها . فحل المشكل ، واجتمع فى الجامع الأزهر خلق كثير يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر فى السنة المذكورة ، وأقيمت بهم صلاة الجمعة ، ولم يكتفوا بإقامتها فى جامع الحاكم . وظل الأمر كذلك حتى اليوم .

على أن هذا التعدد كانت له - إلى جانب ذلك - مساوىء . لأنه يمهّد الطريق أمام أرباب القضايا ، ليتحيلوا لبلوغ مآربهم . يهجرون قاضيا إلى آخر ، ويستبدلون مذهبا بسواه ، متى وجدوا فى ذلك إربتهم . وقد ينجم من وراء هذا التحيل والاستبدال اتساع الخلاف بين المتخاصمين ، واضطرابهم بين جهات الاختصاص . ثم إن فى تعدد القضاء فى البلد الواحد مظهرا للتفريق بين بنيه ، وأداة له ، وتهيئة لإثارة الفتن والخلاف بين الفقهاء .

ومهما يكن من شئ فقد سرى العمل بهذا النظام طول عصر المماليك . حتى وحده الأتراك والعثمانيون بعد فتح مصر . واتخذوا المذهب الحنفى مذهباً لهم يقضون به ، وألغوا نظام القضاة الأربعة ، وجعلوا بالبلاد قاضيا واحدا من الأحناف .

وقد ذكرنا أن قاضى قضاة الشافعية ، كان أرفع القضاة منزلة ، وأكثرهم اختصاصا . وهو المقدم على زملائه ، وأقربهم إلى السلطان مجلسا . هذا إلا إذا اختص السلطان قاضيا آخر بصحبته ومودته . كالأشرف الغورى فإنه اختص قاضى قضاة الحنفية سرى الدين عبد البر بن الشحنة بمودته ، فكان أكثر مجالسة له وأقرب إليه حديثا . ومثل هذا نادر .

شعور الشافعية نحو تعدد القضاة

كان يقضى في البلاد بمذهب الإمام الشافعى قبل عصر الماليك وبخاصة في عصر الأيوبيين، وتلك نتيجة طبيعية لانتشار هذا المذهب فيها أكثر من غيره، ولا عتاق الأيوبيين له، وهم سلاطين البلاد وأمرؤها.

وقد أشرنا تلميحاً من قبل، إلى ما قد يكون في نفوس فقهاء المذاهب الأخرى، من قصر القضاء على الشافعية. ونشير هنا إلى شعور الشافعية أنفسهم نحو القضاء. وكأنما يقسم أئمة المذاهب بلاد المسلمين فيما بين مذاهبهم، فكل مذهب يختص بمصر دون آخر. وكان نصيب المذهب الشافعى أن يختص بالديار المصرية، وتوطنها، واتخذها منطقة نفوذ، لا يصح أن يحور عليه فيها مذهب آخر. وذلك لأن الإمام الشافعى نفسه قد اتخذ هذه البلاد موطناً، وفيها نشر مذهبه الأخير، وكثرت بها تلاميذه، وتوالى فيها الأئمة المجتهدون على مذهبه. فكانما صار من حق هذا المذهب أن يحتفظ لنفسه بهذه البلاد دون سواه من المذاهب الأخرى. وهى إذا عاشت معه في ربوعها، فإنما عيش الجار لا صاحب الدار..

هذا هو الشعور الذى ساد رجال الشافعية في الديار المصرية، ورأوا أن من حقهم الطبيعى أن يكونوا وحدهم قضاتها. فلما تعدد القضاة منذ عصر بيبرس، وأصبحت المذاهب الثلاثة الأخرى ورجالها، شريكة للمذهب الشافعى ورجاله، فيه، وجد رجال الشافعية فى أنفسهم، ولم يبد منهم هذا الوجد صراحة، بل انحوا إليه تلميحاً لا يخفى عن اللبيب.

ونسوق هنا بعض أقاريلهم فى هذا الشأن، ومنها يتضح لنا صدق ما ذكرناه. قال السبكي فى طبقاته (١) ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة - ما يلى :

« وفى أيامه - أى أيام القاضى تاج الدين بن بنت الأعز - جدد الملك الظاهر القضاة الثلاثة فى القاهرة، ثم تبعها دمشق. وكان سبب ذلك أنه سئل تاج الدين فى أمر فامتنع من الدخول فيه. ف قيل له: « مر نائبك الحنفى، - وكان القاضى وهو

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤ فى سياق ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز.

الشافعى ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة - فامتنع من ذلك أيضا . فجرى ماجرى . ، وكان الأمر متمحصا للشافعية ، فلا يعرف أن غيرهم حكم فى الديار المصرية ، منذولها أبوزرعة محمد بن عثمان الدمشقى ، فى سنة ٥٢٨٤ هـ ، إلى زمان الظاهر ، إلا أن يكون نائب يستنيبه بعض قضاة الشافعية ، فى جزئية خاصة . وكذا دمشق ، لم يلها بعد أبى زرعة المشار إليه - فإنه ولها أيضا - ولم يلها بعده إلا شافعى ، غير التلاشاعونى التركى الذى ولها يويمات . وأراد أن يجدد فى جامع بنى أمية إماما حنفيا ، فأغلق أهل دمشق الجامع ، وعزل القاضى . واستمر جامع بنى أمية فى يد الشافعية ، كما كان فى زمن الشافعى - رضى الله عنه - ولم يكن يلى قضاء الشام والخطابة والإمامة بجامع بنى أمية ، إلا من يكون على مذهب الأوزاعى ، إلى أن انتشر مذهب الشافعى ، فصار لا يلى ذلك إلا الشافعية . ، وقال أيضا :

« وقال أهل التجربة إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية . متى كان اليد فيها لغير الشافعية خربت ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعا وكأن هذا السر جعله الله فى هذه البلاد ، كما جعله للمالك فى بلاد المغرب ، ولأبى حنيفة فيما وراء النهر . » ، وقال أيضا :

« سمعت الشيخ الإمام - يعنى أباه تقي الدين السبكى - يقول - : « سمعت صدر الدين بن المرحل - رحمه الله - يقول : ما جلس على كرسى ملك مصر غير شافعى إلا وقتل سريعا . . وهذا الأمر يظهر بالتجربة . فلا يعرف غير شافعى إلا قطز - رحمه الله - كان حنفيا ، ومكث يسيرا وقتل . وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولايته السلطنة . . » . وقال أيضا عن يبرس بمناسبة أنه عدد القضاء ما نصه :

« قيل إنه ندم ، وقال : « أندم على ثلاث : ضم غير الشافعية إليهم . والعبور بالجيوش إلى الفرات ، وعمارة القصر الأبلق بدمشق . » .

« وحكى أن الظاهر رأى الشافعى فى النوم ، فلما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب ، وهو يقول : « تهين مذهبي ؟ البلاد لى أولك ؟ أنا قد عزلتك وعزلت ذريتك

إلى يوم القيامة ، . فلم يملكك إلا يسيرا ومات . ولم يملكك ولده السعيد إلا يسيرا ، وزالت دولته ، وذريته إلى الآن فقراء ، . وقال أيضا عن بيبرس :

« وقد حكى أنه رأى بعد ذلك في النوم . فقيل : ما فعل الله بك ؟ قال : عذبنى عذابا شديدا بجعل القضاة أربعة . وقيل : « فرقت كلمة المسلمين ، .. إلى غير ذلك . ولستنا بحاجة إلى رد هذه الأوهام . فقد تمذهب الحكم في البلاد بمذهب أبي حنيفة منذ فتحها العثمانيون . وتمذهب حكامها بهذا المذهب ولم يصب أحد منهم بما وقع في حدس رجال الشافعية . ثم إننا لا نرى غضاصة على الشافعية أن يشركهم في القضاة رجال المذاهب الأخرى ، مادامت وجهة الجميع العدالة والمصلحة الحق لا المناصب والحكم .

تعيين القضاة وعزلهم

كان تعيين القضاة الأربعة منوطا بإرادة السلطان وحده . وقد يشير عليه أحد خاصته بتعيين قاض ، ولكن مرد الأمر إليه ، وهذا جميل غير أنه - مع الأسف - كانت مناصب القضاة - وكثير غيرها من المناصب - يسعى إليها طالبوها بالمال للوسطاء ، بل ومنه ما يدفع للوسيط يتوسط للطالب بين يدى السلطان ، ومنه ما يدفع للسلطان نفسه . فكان هذا بمثابة رشوة تقدم للوسيط وللسلطان معا ثمنا للوظيفة ، وكان هذا في جملة أسباب الفساد المنتشرة في ذلك العصر .

وقد يعجب المرء - وقد يشك - في أن يسعى قضاة الشرع إلى الوظيفة بالمال ، ولكن هذه هي الحقيقة ، غير أنه ليس معنى ذلك أن كل قاض كان يعين بعد أن يدفع مالا ورشوة ، بل إن من القضاة من عفا عن القضاة - كما سيأتى - ومنهم من سعى إلى الوظيفة بالمال ، بل وكان السلطان نفسه في بعض الأحيان يرسل إلى أحد العلماء يرأوده عن الوظيفة ويسأوه في قبولها لقاء مال يدفعه . والأمثلة على الرشوة موفورة بارزة في تراجم بعض القضاة . وقد روى أن قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، سعى إلى منصبه عدة مرات ، وفي كل مرة كان يبذل آلاف من الدنانير ، ولا يكاد يتربع في دست منصبه شهورا حتى يعزل فيعارد مسعاه . وقد قال عنه ابن إياس ما مؤداه : أنه كان في كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب

على الرغم من وجود قاض يشغله ... فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه ، وبلغ مجموع مادفعه نحواً من ثلاثين ألف دينار .

ومثل ابن النقيب ، القاضي برهان الدين الديري . قيل : دفع في سبيل الوظيفة خمسة آلاف دينار . والقاضي بدر الدين المكي ، قيل : سعى بنحو ثلاثة آلاف دينار^(١) .

وروى ابن إياس^(٢) قال : توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسي المالكي المغربي قاضي قضاة المالكية بدمشق . وولى قضاء الإسكندرية . وكان من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالاً جمّة على وظيفة القضاء .

وقد استشرى أمر الرشوة على الوظائف - ومنها وظائف القضاء - مما يدفع للوسطاء أو للسلطان ، في أواخر دولة الجراكسة ، حتى إنه حدث في عهد الأشرف الغوري عام ٩١٩ هـ ، حادثة^(٣) رائعة اتهم فيها أحد نواب الشافعية بالزنا ، واعترف بجريمته ثم رجع عن اعترافه . وقد اختلف في الحكم فيها قضاة القضاة الأربعة ، مع السلطان ، وخالفوا رأيه ، فعزلهم جميعاً بعد مشادة عنيفة . وبقيت مصر بلا قضاة خمسة أيام عطلت فيها الأحكام ، ثم عين السلطان مكانهم أربعة قضاة آخرين دون أن يسعوا إلى المناصب بشيء من المال ، فعد ابن إياس هذا التعيين فذاً في بابه ، وقال إنه كان من المستطاع أن تظفر الخزائن السلطانية بنحو عشرة آلاف دينار من وراء هذا التعيين^(٤) .

وروى السيوطي^(٥) أن الأشرف قايتباي لم يول قاضياً ولا شيخاً بمال قط

(١) انظر تراجم هؤلاء القضاة في الباب التالي وهو باب القضاة .

(٢) البدائع ج ٢ ص ١١٤ في حوادث ربيع الآخر عام ٨٧٤ هـ .

(٣) اقرأ تفصيل هذه الحادثة في باب قصص هذا العصر ونوادره في هذا القسم من الكتاب وفي غيره .

(٤) راجع ابن إياس في ج ٤ حوادث عام ٩١٩ هـ شهر شوال وذى القعدة .

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٤٢ عند الكلام عن المستجد بالله العباسي مستطرداً إلى ذكر الأشرف قايتباي .

ويشعرنا هذا بأن التعيين بالمال كأنما كان قاعدة . ثم شذ عنها قايتباي .
غير أن المال الذي يسعى به لم يكن محدودا ، بل أمره موكول إلى همة الطالب . .
ثم إن المدة التي يقضيها القاضى فى منصبه - لقاء مال - لم تكن محدودة كذلك ، ولم
يكن له من الضمانات ما يكفلها ، فقد يدأب فى السعى إليه ويدفع ما يدفع ، ثم يعين
فيه ولا يلبث فى دستانه غير قليل ، ثم يعزل .

ويختار القضاة عادة من أبرز فقهاء كل مذهب . ومن اشتهروا فيه بالفضل :
ولذلك ترى تاريخ قضاة مصر فى تلك الحقبة يضم نخبة صالحة من رجال العلم
والفقه ، ومنهم من برز فى أكثر من ميدان . ويندر أن يختار قاض ليس فى الصف
الأول من رجال مذهبه . وقد اختير القاضى حسام الدين بن حريز لقضاء المالكية
عام ٨٦١ هـ ، وكان بين رجال مذهبه من هو أكفأ منه . فكان ذلك مثارا انتقد
ابن إياس حيث ، قال فيه ماموداه : إنه كان بين المالكية من يعتبر أكفأ منه وأولى
بمنصب القضاء ولكنه أسعده حظّه ، .

وقد ينتقل القاضى من قضاء دمشق إلى قضاء الديار المصرية أو العكس ، وقد
يجمع له بين القضاءين ، وهذا نادر . وقد اجتمع للقاضى شهاب الدين بن فرفور
الشافعى . وقد ينتقل أيضا من قضاء القدس أو غيرها من النيابات إلى قضاء مصر .
وكثيرا ما يكون قضاء دمشق وغيرها مرشحا لقضاء مصر . وبهذه المناسبة نذكر
واقعة لها مغزاه . وهى أنه لما وقع الجفاء بين قاضى قضاة الشافعية بمصر تقى الدين
عبد الرحمن بن بنت الأعز ، وبين الوزير ابن السعلوس ، وأدى ذلك إلى عزله
من القضاء ، أراد السلطان الأشرف خليل أن يختار قاضيا من رجال الشافعية
بالديار المصرية عوضا عنه . فسألهم واحداً واحداً ، كلا منهم على انفراد ، عن
يصلح من بينهم لولاية القضاء ، فلم يجد من بينهم إلا من ذم زميله وأهل مذهبه ،
ورماهم بما لا يليق^(١) . فوقع الاختيار على بدر الدين بن جماعة قاضى القدس
وخطيبها .

وقد ينتقل القاضى إلى سلك القضاء من سلك غيره كالكتابة مثلا . أو ينتقل من القضاء إلى الكتابة . فمثلا : كان محمود بن أجا الحلبي قاضيا فى حلب ، ثم نقل إلى كتابة السر فى عهد الغورى . وكان محب الدين بن الشحنة كاتباً للسر فى عهد الأشرف إينال ، ثم انتقل إلى القضاء .

وقد يجمع القاضى بين القضاء ووظيفة أخرى كالقاضى قطب الدين الخضيرى ، فقد جمع بين الكتابة والقضاء بدمشق فى عهد الأشرف إينال كذلك . وكالقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى فقد جمع بين القضاء والحسبة ، وقيل إنه أول من جمع بينهما ، وكالقاضى شهاب الدين أحمد بن فرفور ، فقد جمع بين قضاء الشافعية بدمشق ونظر الجيش ، وهو الذى جمع بين قضاء الشافعية ومصر زمنا - كما أشرنا - (١) .

وإذا وقع اختيار السلطان على أحدهم لتعيينه قاضى قضاء ، مثل بين يديه بالقلعة وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وتسمى «التشريف» ، فينزل بها من لدنه فى موكب حافل ، ويكتب له كاتب الإنشاء أمرا بتولية القضاء عن لسان السلطان ، ويسمى هذا الأمر «تقليدا» .

ويكتب هذا التقليد بعبارة أدبية طلية مسجوعة بديعية على نمط الأساليب المرعية حينذاك فيها - عادة - إسهاب وإطالة ، ويذكر فى هذا التقليد الأسباب التى أدت إلى اختيار القاضى ، وصفاته الممتازة التى أهلتة للقضاء ، وجملة من الوصايا والنصائح التى يجب عليه اتباعها لتحقيق العدالة ومراعاة الإنصاف ، ونحو ذلك .

أما عزل القضاة ، فقد كان كتعيينهم منوطا بإرادة السلطان . وقد يغضب السلطان على القاضى فيعزله ، ولما يتمتع بالوظيفة ، ولما يجب من ورائها ما تاقته إليه نفسه من مال ، أو ما يكون قد دفعه فى سبيل الوصول إليها . وقد يكون مما يغرى السلطان بعزل أحد القضاة ، سعى رجل آخر لديه ليحل فى هذا المنصب .

ومن الحق - ونحن بصدد الحديث عن تعيين القضاة وعزلهم - أن نذكر أن

(١) راجع تراجم هؤلاء القضاة فى الباب التالى .

مناصب القضاء - وإن كان قد تهافت عليها قوم - قد عف عنها كثيرون ، ربثوا بأنفسهم عن أن يحملوها أوزارها . أو أن يلوثوها بأجورها . وهم يعلمون تمام العلم أن من حمل عبء القضاء فقد ذبح بغير سكين (١) . فمنهم من رفض القضاء جملة وأباه بل وفر منه ، ومنهم من رضيه كارها لما رأى العدالة تقضى عليه بالرضا . ومنهم من نزه يده عن أن تتناول عليه أجرا ، ومنهم من رعى فيه العدالة وحدها دون الاكثارات بشيء آخر .

والقصص في ذلك كله كثيرة موفورة . فقد ذكر السخاوى في كتابه « تحفة الأحباب » (٢) ، أنه لما توفى قاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكي أرسل السلطان جقمق وراه العالم الزاهد الجليل زين الدين عبادة بن على الجرزائى المالكي ، ليلى القضاء ، فاختنى . وقيل سافر من القاهرة ، حتى بلغه أن القضاء تولاه رجل آخر فظهر .

ومن القضاة : عبد الرحيم البارزى المتوفى عام ٦٨٣ هـ ، لما عين فى قضاء حماة أنف أن ينال من ورائه رزقا . وتاج الدين بن بنت الأعز المتوفى عام ٦٦٥ هـ فقد كانت صلابته فى الحق مضرب المثل . وتقى الدين بن دقيق العيد المتوفى ٧٠٢ هـ ، فإنه دعى إلى ولاية القضاء فى عهد السلطان العادل كتيبغا المنصورى ، فأبى وامتنع امتناعا شديدا ، فهددوه بأن يولوا رجالا لا يصلحون للقضاء ، فخاف حينذاك على العدالة ، وأوجب على نفسه قبول المنصب ، وكان فى قضائه عفا نزيها . ومنهم زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ ، دعاه الأشرف قايتباى لولاية القضاء ، فزهد فيه وامتنع ، وطفق يشترط ويتنقل فى شروطه ، والسلطان يقبل ، حتى قبل هو فى النهاية ، ورضى بالقضاء مكرها ، فلبث فيه مدة ثم عزل نفسه .

(١) هذا معنى حديث شريف .

(٢) تحفة الأحباب المطبوع على هامش نفح الطيب (ص ٣٦٤) . وزين الدين المذكور هو زين الدين بن عبادة بن على بن صالح بن عبد المنعم الأنصارى الجرزائى المالكي ، ولد بقرية جرزا بالصعيد ومن أعمال القاهرة سنة ٧٨٠ هـ ، وكان يدرس بالجامع الأزهر وبمدرسة السلطان الأشرف برسباى .

وترى في تراجم كثير منهم أخبارا من هذه الأنواع ، ومنهم من عزل نفسه وربما عزلها أكثر من مرة . والقاضى عز الدين بن عبد السلام ، وابن حجر العسقلانى عزل كل منهما نفسه . وغيرهما كثير .

أعوان القضاة ونوابهم

قد كان للقضاة جند وأعوان ورسل ونقباء - كما كان لحاجب الحجاب - يجلسون ببابهم ، إذا جلسوا للفصل فى الخصومات ، فيقدم إليهم هؤلاء الرسل والنقباء المتخاصمين ، ويتقاضون منهم الأجور ؛ ويقومون بتنفيذ الأحكام والأوامر . ويبدو لنا أن كل قاض كان له « أمين » أو « نقيب نقباء » وهو رئيس لأعوانه . وربما تحكم النقيب فى نواب الحكم عوضا عن القاضى ^(١) . ويتبع قاضى القضاة عقاد الأنسكة ^(٢) ، ونواب الحكم .

ونواب الحكم قضاة صغار ، يعينون فى الجهات المختلفة ليقوموا بالفصل فيما يقدم إليهم من القضايا والخصومات عوضا عن قاضى القضاة فيما لا يستطيع القيام به ، ولا ندرى على التحديد هذه الجهات التى وصفت بأنها من أعمال مصر ، والمفهوم على كل حال أن بعضها بعيد عن القاهرة كالحلة أو أشتوم .

وقد ذكرنا فيما سبق - نقلا عن المقرئى والسبكى - أن السلطان الظاهر بيبرس رسم للقاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى عام ٦٦٠ هـ بتنصيب أربعة نواب أو ثلاثة ، واحدا من كل مذهب ، وقد يفهم من هذا أن أول تنصيب للنواب كان فى العام المذكور .

غير أن السيوطى فى حسن المحاضرة ^(٣) روى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ما نصه قال : « ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء ، تلافى السلطان فى رده إليه ، فباشره مدة ، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية وتلافى مع السلطان

(١) راجع ترجمة الأنصارى فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ ،

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٤٩ ، (٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ .

فى إمضاء عزله، فأمضاه وأبقى جميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليداً ، وقد كان عزل الشيخ عز الدين عن القضاء قبل عام ٦٦٠ هـ . فيفهم من عبارة السيوطى أن نظام «نواب الحكم» كان معروفاً فى مصر قبل العام المذكور. غير أن النواب ربما كانوا - ويغلب على الظن أنهم كانوا - جميعاً من الشافعية . فإذا صح هذا كان الجديد الذى تم فى عام ٦٦٠ هـ هو تنصيب نواب من رجال المذاهب الأخرى . ثم لما تعدد القضاء ظل قاضى قضاء الشافعية ممتازاً على سائر زملائه - كما بينا - وأوسع منهم اختصاصاً . وكان فى جملة ما اختص به تعيين النواب . وقد قال السبكي فى الطبقات ما نصه :

« وأما الظاهر - بپرس - فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة ، ثم لما ضم القضاء إلى الشافعية ، استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام وجعلهم الأرفعين ^(١) » .

وصرح الفلقشندي فى صبح الأعشى بما يناقض ذلك - فيما يختص بالنواب - حيث قال : « وجعل لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف » ، ثم قال : « كل من الأربعة له التحدث فيما يفتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب ، ثم عاد فقال : « ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره » .

وروى المقرئى فى سلوكه فى حوادث عام ٦٧٠ هـ ما نصه : « أن القضاء الأربعة الذين ولاهم السلطان الملك الظاهر بديار مصر ، كان كل منهم يستنصب قضاة عنه فى النواحى » .

وقد روى المقرئى فى سلوكه أيضاً فى حوادث عام ٦٧٨ هـ ^(٢) قال : « وفى يوم

(١) سبق أن قلنا هذا النص فى موضوع آخر . وبيننا وجه الخلاف بينه وبين ما رواه المقرئى والفلقشندي .

(٢) السلوك ج ١ ص ٦٦٨ حوادث ٢٧ شوال عام ٦٧٨ هـ

الجمعة سابع عشرية - أى ٢٧ شوال - كتبت تقاليد القضاة الأربعة . واستقر الحال على أن يكون قاضى القضاة صدر الدين عمر بن قاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز الشافعى ، هو الذى يولى فى أعمال مصر ، قضاة ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قاضى القضاة معز الدين الحنفى ، وقاضى القضاة المالكى ، وقاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، يحكمون بالقاهرة ومصر خاصة بغير نواب الأعمال . فاستمر الأمر على ذلك حتى اليوم .

ويفهم من ذلك أن تعيين النواب كان من حق القضاة جميعاً ، ولو فى فترة من الفترات قبل هذا التاريخ . وأنه منذ ذلك التاريخ أصبح من حق قاضى قضاة الشافعية دون سائر زملائه . وأن هذا النظام استمر معمولاً به زمناً طويلاً من بعده .

ويبدو لنا أنه أبيع بعد حين ، لكل قاض أن يعين لنفسه نواباً من مذهبه ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قضاة القضاة اشتطوا فى تعيين نوابهم ، حتى أربى عددهم على ما يحتاج إليه . وأن هذا العدد كان أكثر من مائة .

ويفهم هذا كله من عبارة رواها ابن إياس فى حوادث عام ٩١٩ هـ حيث قال ما مؤداه (١) : « إن الأشرف الغورى غضب مرة من قضائه وكثرة نوابهم ، فرسم لهم أن يكون مجموع نوابهم مائة : منهم أربعون يعينهم القاضى الشافعى ، وثلاثون يعينهم الحنفى ، وعشرون يعينهم المالكى . وعشرة يعينهم الحنبلى . وقرر معهم ألا يولوا أحداً من النواب إلا بإذنه » .

ويفهم من الجملة الأخيرة ، أن تعيين نواب الحكم كان من اختصاص القاضى وحده دون أن يرجع إلى السلطان . فظل للقاضى الحق فى اختيار نوابه ، ولكن لا بد من استئذان السلطان .

هذا ويُعزل النائب بناء على رغبة القاضى . كما أن القاضى إذا عزل من القضاء ، كان ذلك عزلاً أيضاً لجميع نوابه . فإذا عين قاض جديد من بعده ، اختار لنفسه

(١) بدائع الزهور ج ٤ ، حوادث ذى القعدة عام ٩١٩ هـ .

نوابا جددا ، ذلك لأن النائب يستمد صفته القضائية من قاضيه . فإذا عزل زالت عنه هذه الصفة .

ويفهم هذا مما رويناه عن السيوطي خاصة بعزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فإنه لما عزل نفسه من القضاء وأمضى السلطان عزله . أبقى جميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليداً ، ولعلها خصوصية لهذا القاضي الكبير .

وقد روى الإدقوى في كتابه « الطالع السعيد » ، قال (١) في سياق ترجمة علي ابن عبد الرحيم بن الأثير : إنه كان نائباً في الحكم عن القاضي تقي الدين بن دقيق العيد . فعزل تقي الدين . ثم ولي القضاء مرة أخرى فولى من قبله قاضياً على جهة أشموم ، حيث كان ينوب عنه الشيخ علي بن عبد الرحيم . فعجب هذا النائب . ولكنه أخبر أنه عزل بعزل قاضي قضائه .

أجورهم

من البدهي أن يكون للقضاة والنواب أجور يدفعها لهم الأخصام ، بوساطة نقبايهم وأعوانهم . وإلا لما تهافت على مناصب القضاء المتهافتون ، ولما سعى إليها الساعون ، وبذل الباذلون . وإن رجلاً يتقدم ساعياً إلى منصب القضاء بالمسال والوسيط ليضمّر في نفسه - بلاريب - أن يستعيض عنه بصورة ما . وإن كان من القضاة من عفا عن تناول أجره كما بينا .

ويبدو لنا أنه لم تكن لهذه الأجور حدود مرسومة ، ولا قواعد مقررة . وأن أمرها كان فوضي ومتروكاً لمشيئة القاضي والنائب وأعوانهم ، يقدرونها كما يشتهون . وما دامت النفس أماراة بالسوء ، وأن شهوتها لا تقف عند حد ، كان هذا عاملاً من العوامل التي أدت إلى ظلم الخصوم ، وفرض الاتاوات الباهظة عليهم في بعض الأحيان . وكان هذا الظلم ماثراً للشكاية ومحلاً للنظر في أحيان أخرى .

وقد روى ابن إياس (٢) : « أن الأمير كر تباي الأحمر لما قرر في الوزارة - عام

(١) الطالع السعيد للإدقوى ص ٢٠٩ رقم ٢ ٣

(٢) البدائع ج ٢ ص ٣٠٥ حوادث سنة ٩٠١ هـ .

١٩٠١ هـ - أظهر ضرر وبا من العدل، منها أنه حجر على الرسل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضة ، وأن أحدا منهم لا يقرر رسما على أحد .
وروى أن قاضى القضاة محي الدين بن النقيب كان يريح من وظيفته هذه فى كل يوم أشرفين ، والأشرفى أفضل أنواع الدنانير حينذاك (١) .
وهذه الأجور شبيهة « بالرسوم » التى يدفعها المتقاضون فى عصرنا إلى خزانة المحكمة ، والىكنها اليوم تنضم إلى الخزانة العامة للدولة . أما فى ذلك العصر البعيد فكانت تذهب إلى جيوب القضاة والنواب والأعوان .

وفى هذه الحالة - كما ذكرنا - تؤدى إلى الجور فى فرض الأجر . وقد تؤدى إلى أكثر من ذلك ، وهو الجور فى الحكم . وقد روى ابن إياس (٢) « أن السلطان الأشرف قايتباى رسم مرة - فى عام ٨٩٤ هـ - بعرض نواب الشافعية والحنفية عليه ، فلما عرضوا أسمعوهم من الكلام ما آذهم وأزعجهم ، ثم أمر بعزل جماعة منهم . وآل الأمر إلى الحجر عليهم فى الأحكام الشرعية ، وإلى أمرهم بعدم سجن الخصوم إلا بإذن من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سائر النواب » .

وقد كان القضاة - كما نعتقد - يؤدون جزءا من هذه الأجور إلى الخزائن السلطانية . وإلا لما قبض على بعض القضاة وعزلوا وحوسبوا حسابا عسيرا ، واستخرج منهم جانب من المال . أو لعل السر فى القبض عليهم وحسابهم واستخراج جانب من أموالهم هو - غير غضب السلطان عليهم - أنهم جبوا هذه الأموال من المتخاصمين ظلما وإرهاقا .

وإذا ما غلا القاضى فى طلب الأجر ولم يتعفف ، انقلب الأجر رويدا رويدا إلى رشوة يدفعها المتخاصمون إلى القضاة لضمان الفصل لصالحهم . وهذا هو ما وقع فعلا . فكما اتهم القضاة بأنهم يدفعون الرشوة فى سبيل الوصول إلى منصب

(١) راجع ترجمته فيما يلى .

(٢) البدائع ج ٢ ص ٢٥٥ حوادث عام ٨٩٤ هـ .

القضاء ، انهموا بأنهم يأخذون الرشوة على القضاء . وهذا شر ما تبطل به أمة ، وكان ذلك في جملة أسباب فساد القضاء .

واقعد قال السلطان سليم العثماني لقضاة مصر حينما وقعوا في أسره ومثلوا بين يديه ، موجبا لهم . « أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء . »

ومن طريف ما يذكر بهذه المناسبة قصة (١) قاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي . « فقد كان قاضي الحنابلة في عهد الظاهر بيبرس . وقد حدث أنه في سنة ٥٦٧٠ هـ . نحى عن نيابته أحد نوابه ، وكان مركزه المحلة الكبرى . فغضب أخو النائب لذلك واسم هذا الأخ تقي الدين شبيب الحراني . فكتب ورقة للسلطان بأن عند قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام بجملة كبيرة ، وقد ماتوا ، فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك فأنكر وحلف ، وورى ، في يمينه . فأمر السلطان بالهجوم على داره ، فوجد فيها كثيرا مما ادعاه شبيب ، بعضه قد مات أهله وبعضه لقوم أحياء . فأخذ السلطان مما وجد الزكاة لمدة سنين . وسلم لمن كان حيا ودائعه . وغضب السلطان عليه واعتقله وأوقع الحوطة على داره في يوم الجمعة ثاني شعبان . قال المقرئ في « ولم يبول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا » . وهكذا كانت هذه الحادثة سببا في إسقاط أحد مناصب القضاء ولو إلى حين . »

هذه العوامل تجعلنا ننظر بريبة إلى القضاء وأحكامه في ذلك الزمن البعيد . إذا استثنينا بعض القضاء . وقد أصبح القضاء والقضاة حينذاك محلا للتندر والتفكه . وقد قال بعض شعراء العصر في القاضي ابن النقيب .

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما إلى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة في الدنيا وزخرفها جهرا ويقبل سرا بعرة الحمل

وللشاعر المصرى جمال الدين السلمونى قصة (١) طويلة مع قاضى قضاء الخنفية فى عهد الغورى ، وهو عبد البر بن الشحنة . وكانت بينهما خصومة . فنظم السلمونى قصيدة هجاء فى القاضى عبد البر ، رماه فيها بكل كبيرة ، واتهمه علانية بقبول الرشوة . وفى مطلعها يقول :

فشا الزور فى مصر وفى جنبااتها ولم لا وعبد البر قاضى قضائها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شهاباتها
أجاز أمورا لا تحل بملة بحل وبرم مظهرا منكراتها . الخ
جلوسهم للقضاء

كان القضاء يجلسون مع السلطان ، إذا جلس للفصل فى الخصومات بدار العدل ، وذلك يوم الاثنين فقط ، دون يوم الخميس . وكان السلطان يستشيرهم فى الخصومات ذات الصلة بالشرع . ويبدو لنا أن كل قاض كان يختار لنفسه مسجدا أو مدرسة ، يجلس فيها للفصل فى الخصومات . وقد قال المقرئى فى سلوكه (٢) عن برهان الدين السنجارى إنه لما عين فى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، جلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين .

وإذا جمع القضاء بين قضاء القاهرة ومصر خصصوا يومى الاثنين والخميس لقضايا مصر . ويجلسون فيها بجامع عمرو بن العاص . ويجتمع حولهم علماء مصر وقد قال تاج السبكي فى طبقاته فى سياق ترجمة تقي الدين بن رزين ما نصه (٣) .

وكان قضاء القضاء بالديار المصرية إذا جمعوا بين قضاء القاهرة ومصر - كما استقرت عليه القاعدة من الأيام الظاهرية - يتوجهون يوم الاثنين ويوم الخميس

(١) انظر تفاصيل هذه القصة فى الجزء الرابع من هذا الكتاب فى باب أثر البيئة الاجتماعية المصرية فى الشعر .

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٣٤ حوادث عام ٦٨٦ هـ .

(٣) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٩ .

إلى مصر ، فيجلسون بجامع عمرو بن العاص ، لفصل القضاء بين الناس . وبحضر عندهم علماء مصر . وكان ابن الرفعة يحضر عند قاضى القضاة تقي الدين مجلس حكمه إذا ورد عليهم مصر يوم الاثنين والخميس . وابن الرفعة كان ساكناً بمصر ، وقاضى القضاة تقي الدين بالقاهرة ، .

القضاة (١)

نردف بمبحث القضاء ، بتراجم موجزة لأشهر قضاة مصر ، من جميع المذاهب . ولم نتوخ الاستقصاء والاستيعاب - كما جرينا على ذلك - وإنما هي مثل نعرضها . وجدير بهؤلاء القضاة أن يفرد لهم سفر على حدة . ولاكن ليس هنا مكانه . وقد عطينا بتراجم قضاة القضاة بديار مصر ، دون نوابهم ودون قضاة الشام . وأوردناها مراعى فيها عصور ظهورهم وسنوات وفاتهم جهد الطاقة أيضاً . فمنهم :

١ - عماد الدين الحموى

هو القاسم بن ابراهيم بن عبد الله الحموى . كان شافعى المذهب ، تولى القضاء فى مصر (٢) ، وشهد جزءاً يسيراً من أوائل عصر المماليك . وصرف عن القضاء فى جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ . ثم ولى قضاء القاهرة ، ثم أعيد إلى قضاء مصر ثانية فى شهر رجب من العام المذكور ، ثم عزل فى شوال .

« حسن المحاضر ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١ »

٢ - عز الدين بن عبد السلام ٦٦٠ هـ

هو شيخ الإسلام وسلطان العلماء ، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم

(١) فى كتب التراجم ، كثير من أخبار هؤلاء القضاة ، مثل : الطالع السعيد ، والدرر الكامنة ، والطبقات والفوائد البهية للكنوى الهندى والضوء اللامع ، وحسن المحاضرة ، ورفع الأسر ، ومنها متفرقات فى مثل بدائىم الزهور والسلوك . وهذه الكتب مراجعنا فى هذا الباب ، وفى الجزء الثانى من كتابنا هذا تراجم لبعض القضاة فى باب العلماء .

(٢) المراد بمصر هنا . مصر العتيقة بلغة عصرنا . وكان لها والوجه القبلى معاقض واحد ، وللقاهرة والوجه البحرى فاض آخر . وهذا فى الغالب قبل تمدد القضاة .

ابن حسن محمد بن مذهب السلى أحد الأئمة المجتهدين الأعلام . وأحد المتعصبين للحق ، والغيورين على سلامة الإسلام وأهله ، المدافعين عنهم المرشدين لهم ، الساعين فى صلاحهم .

ولد عام ٥٧٧ هـ . أو ٥٧٨ هـ . وتفقه على كثيرين ، ونبغ فى مذهب الشافعى ، حتى أصبح رأس الشافعية فى زمانه . واشتهر بالورع والتقوى والصراحة والقسوة فى الدعوة إلى الحق ، وهذا مما يتلاءم مع الفساد المنتشر فى عصره . وقد اشتغل بالتعليم والقضاء والفتوى والتأليف . وتخرج به تلاميذ نابغون .

وقد عاش فى دمشق ثم زایلها إلى القاهرة ، لخلاف وقع بينه وبين ملكها الصالح اسماعيل . فاستقر فى القاهرة منذ عام ٦٣٩ هـ . ولبت حتى شهد عصر الظاهر بيبرس ، وكان بيبرس يحله ويعظمه وينتظر رأيه فى مشاكله .

وله حوادث عدة بدا فيها حرصه على أموال المسلمين ، وعلى تنفيذ أحكام الدين وتنسب إليه كرامات متعددة . ومنذ قدومه إلى مصر ، وهو يلى قضاءها . فقد ولى قضاء مصر والوجه القبلى عام ٦٣٩ هـ . ثم عزل نفسه بعد حين . وولى التدريس وما زال ينفع ويدفع ويجادل ويناضل ، حتى مات فى جمادى الآخرة عام ٦٦٠ هـ . بالقاهرة ، ودفن بالقرافة الكبرى .

« ملحوظة » ترجمنا له بتفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى باب العلماء - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٥ - طبقات السبكى ج ٥ ص ٨٠ .

٣ - بدر الدين السنجارى ٦٦٣ هـ

هو أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن على . كان شافعى المذهب ويعرف بقاضى سنجار - مدينة ببلاد الروم - كان بها قاضيا فى عهد الأيوبيين . وقد فارقها فى ذى الحجة عام ٦٣٨ هـ ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت بينهما صلة ود وصداقة ، منذ كان الصالح ببلاد الشام ، وكان هذا القاضى حينذاك - عام ٦٣٨ هـ قد توجه إلى سنجار برسالة من الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق ، فبلغه أن الصالح نجم الدين قد ملك مصر ، فرغب فى اللحاق به ولم يرغب فى العودة إلى (٦٢ - مالميك)

دمشق . فاحتال حتى بلغ حماة ، ومنها عاد لمصر عن طريق الساحل ، فتلقاه الصالح نجم الدين تلقيا كريما . وفوض إليه قضاء مصر والوجه القبلي عوضا عن القاضي شرف الدين بن عين الدولة الإسكندراني (١) .

وفي سنة ٦٤٨ هـ في عهد المعز بن أيوب في قضاء القاهرة في شهر رجب ، ثم أضيف إليه قضاء مصر بعد أيام قليلة ، وذلك في شوال لجمع بين المنصبين .

وقد ورد إلى مصر رسول من قبل الناصر صاحب دمشق ، إلى المعز بن أيوب عام ٦٤٩ هـ للمفاوضة في الصلح بينهما فندب لمكالمته القاضي بدر الدين السنجاري . وقد تم الصلح على يده ، ثم صرف عن القضاء في هذا العام .

ولبت أمره في القضاء بين تولية وعزل وجمع بين المنصبين ، حتى صرف عنه في عام ٦٥٤ هـ ، ثم عاد إلى قضاء القاهرة في ربيع الآخر عام ٦٥٥ هـ ، وضم إليه ثانية قضاء مصر في رجب ، وفي هذا العام ولى الوزارة مع القضاء بعد القبض على الوزير شرف الدين الفائزي ، ثم صرف عن الوزارة في العام نفسه ثم عزل عن القضاء وعاد في أواخر عام ٦٥٩ هـ . ثم عزل عن قضاء مصر والوجه البحري في ٣ رمضان عام ٦٦٠ هـ . ولما عزل مرة قبض عليه الظاهر بيبرس وبجئته عشرة أيام ثم أطلق سراحه . وقد مات وهو معزول عن القضاء عام ٦٦٣ هـ عن نيف وستين عاما .

وينسب إلى هذا القاضي أنه باع داره مع العلم بأنها موقوفة لاتباع ولا تشتري . فلما مات تقدم الشارون إلى السلطان الظاهر بيبرس بالشكوى ، فنظر في قصتهم ثم قال لقاضي القضاة - حينذاك - تاج الدين بن بنت الأعز : « يا قاضي !

(١) هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي القاسم الإسكندراني المعروف بابن عين الدولة . من قضاة مصر في أواخر العصر الأيوبي .

وقد توفي في ذي القعدة عام ٦٣٩ هـ ، وله قصة طريفة مع الملك الكامل الأيوبي ملخصها أن هذا الملك كانت تطلع إليه مغبة اسمها « عجيبة » أولع بها فتغنى بالجنك على الدف ، ثم حضر في شهادة أمام هذا القاضي فلم يقبل شهادته . فلما أراد على قبولها ندد به ثم عزل نفسه من القضاء (راجع حن المحاضرة ج ٢ باب قضاء مصر - وطبقات السبكي ج ٥ ص ٢٦) .

هكذا تكون القضاة ، فقال له : « يامولانا اكل شاة معلقة بعرقوبها » . وكانت هذه القصة في عداد الأسباب التي أوجدت أزمة في القضاء ، وأدت إلى تعدد القضاة - كما بينا - .

والقاضي بدر الدين السنجاري ، هو أخو القاضي برهان الدين السنجاري الآتي ذكره ، وكان يخلفه حيناً في القضاء .

« حسن المحاضرة ج ٢ في بابي قضاة مصر . ووزراء مصر - السلوك ج ١ » .

٤ - تاج الدين بن بنت الأعز ٦٦٥ هـ

هو قاضي القضاة الشافعي المذهب أبو محمد عبد الوهاب بن خليفة بن بدر العلامي المصري المعروف بابن بنت الأعز . كان جده لأمه يعرف بالقاضي الأعز نخر الدين أبي الفوارس مقدم بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر ، الذي كان وزيراً للملك الكامل بن أيوب ، فغلبت عليه هذه النسبة وقيل : ابن بنت الأعز . أما علامة بفتحتين وبغير شدة فهي قبيلة من لحم . فهو إذن من أصل عربي وقيل إنه عبد الوهاب بن خلف بن أبي القاسم وقد عرف بالذكاء وحدة القريحة والعفة وسداد الرأي ، وقد تولى قضاء مصر في زمن الأيوبيين وصدر عصر المماليك . وبارك الله في نسله فكان من أبنائه وحفدته قضاة وعلماء أجلاء منهم : تقي الدين وصدر الدين ابنه ، ومنهم : علاء الدين أحمد ابنه أيضاً ونخر الدين حفيده .

وقد اشتهر تاج الدين بالعلم والتقوى والفضل وحسن الرأي وقوة الحججة والشدّة في الأخذ، والصلابة في الحق . وتقلب في مناصب عدة منها الحسبة والوزارة والخطابة والتدريس والإمامة . أما ولاية قضاء البلاد ، فقد كان بدء أمره في عهد الأيوبيين ، وقيل إنهم عينوه قاضياً كبيراً على جميع القضاة يولى ويعزل منهم من يشاء ، - ولعل المراد بذلك نواب الحكم - وبلغ لديهم منزلة سنّية .

وفي صدر عصر المماليك تنقل في مناصب القضاء . ثم ظل أمره فيه بين عزل وتعيين حتى توفي . وخلاصة حالته هذه أنه في عام ٦٥٤ هـ ولي قضاء البلاد بعد

عزل بدر الدين السنجارى فى عصر السلطان عز الدين بن أيبك ، ثم تقلد الوزارة ثم عزل ثم عادت إليه الوزارة فى ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ فى عهد السلطان المنصور ابن المعز بن أيبك . وعين فى قضاء مصر فقط تم عزل عنه بعد قليل . ولما بدأ عهد المظفر قطر عام ٦٥٧ هـ عزله عن الوزارة فى أوائل حكمه ، فظل بعيداً عن المناصب حتى كان عام ٦٥٩ هـ وكان شهر جمادى الأولى من ذلك العام ، وكان سلطان البلاد بيبرس ، فدعاه ليسند إليه الوزارة فرفض ، ثم دعاه ليجلس على منصة القضاء بعد أن عزل بدر الدين السنجارى ، ولكنه أحب أن يرفض ، فاشتراط جلوسه ذلك شروطاً قاسية على السلطان أملاً فى أن يعفيه من تقلد هذا المنصب ، ولكن بيبرس أجابه إلى شروطه وقبلها رغبة فيه وثقة به . فتم بذلك تعيينه فى ١٠ جمادى الأولى . وصلى بالسلطان صلاة الظهر فى ذلك اليوم ، وتولى أمر القضاء . وأصبح منذ ذلك الحين مهيب المنزلة عند بيبرس ورجال دولته .

وفى عهده بالقضاء حدث حادثان هاما كان له شأن فى كل منهما :

الحادث الأول :

تجديد الخلافة العباسية فى مصر . فكان هو المقدم فى رأى إذ جمعت إليه الشورى . وقدم إليه أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر العباسى . فشهد الشهود بين يديه بأنه حفيد العباسيين . فكان القاضى تاج الدين أول من بايعه بالخلافة - على رأى - ثم السلطان ، ثم بايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الباقر من علماء وأمراء من حضر الحفل ، وذلك فى عام ٦٥٩ هـ .

الحادث الثانى :

هو حادث تعدد القضاة وسنشير إليه من بعد . ظل تاج الدين فى القضاء حتى عزل فى شوال من العام المذكور عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وتولى مكانه برهان الدين السنجارى ، وبقي هو قاضياً فى القاهرة والوجه البحرى فقط ، حتى كان يوم ٣ رمضان سنة ٦٦٠ هـ فعزل السلطان قاضى

القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى وضمهما إلى تاج الدين ابن بذت الأعز ، وبذلك صار قاضيا بديار مصر جميعها . غير أنه نظرا إلى شدته وصلابته وتوقفه فى بعض الأحكام ، اضطّر السلطان إلى أن يرسم له فى شهر ذى القعدة من نفس العام أن يستناب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم فى الحكم ، أو صاروا « نواب حكم » ، وكانت هذه أول مرة يناب فيها قاضى القضاة : كما أنها أول تمهيد عملى أدى إلى تعدد القضاة . وقد استناب القاضى تاج الدين عنه ثلاثة أحدهم حنفى والثانى مالكي والثالث حنبلى . وحكموا بين الناس بمقتضى مذاهبهم . غير أن القاضى تاج الدين لم يجد من الحنابلة رجلا كفئا للمنصب ، فاكتفى بأن ولى منهم عاقدا يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج والوصية والهبة وما شابه ذلك .

لم تكن شدة قاضى القضاة تاج الدين سببا فى هذا فقط ، ولكنها أوغرت صدور بعض الأمراء عليه ، لأنه كان لا يقبل شهادتهم فى القضايا . ومن بين الحاقدين الأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى الذى ظل يحط من قدر قضاة الشرع لدى السلطان بيبرس . وانهز فرصة مظلمة رفعت إلى السلطان من بنات الملك الناصر ، أن ورثته اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات قال ورثة القاضى إن الدار موقوفة ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين - وكان قاضى قضائه - « يا قاضى ! هكذا تكون القضاة ، فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلقة بعرقوبها ، قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » ، قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : « فإذا لم يكن مع الورثة شيء ؟ » ، قال القاضى . يرجع الوقف إلى أصله ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من ذلك . لأن معناه ضياع حق الشارين إذا ثبت الوقف ولم يكن فى ميراث القاضى البائع ما ينهض بالثمن .

ثم حدثت حادثة أخرى ، وهى أنه قدم رسول أمير المدينة المنورة ليقسم من قاضى القضاة ما يخص فقراءها من ريع الوقف . ولم يكن الشيخ يعرف هذا الرسول

فرده دون أن يعطيه شيئاً . فشكا إلى السلطان بمحضر من القاضى . فسأل السلطان القاضى عن سبب امتناعه فقال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه ! » فقال السلطان : « نزع من عنقك وتجعله فى عنق ، ؟ قال . نعم . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن نختاره . »

هذه حوادث تشهد بصلافة هذا الرجل العظيم ، وتشدده فيما يراه أنه حق . وكانت هذه الحوادث من المهمات إلى تعدد القضاة - وقد نوهنا بذلك - إذ انتهز الأمير بدغدى هذه الفرصة وأوحى إلى السلطان بيبرس بوجوب هذا التعدد ، ليجدوا مندوحة فى المذاهب الأخرى وآراء رجالها ، عن مثل هذا الوقوف فى القضايا والمشاكل . ثم قال الأمير للقاضى : « يا قاضى مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضياً . فلما كان يوم الاثنين ١٩ من ذى القعدة عام ٥٦٦ هـ ، صدر أمر السلطان بيبرس بتعيين ثلاثة قضاة آخرين ، واحد من كل مذهب . أى واحد حنفى وآخر مالكي وثالث حنبلى . وتم بذلك تعدد القضاة على نحو ما بينا فى الباب السابق ، وبقي تاج الدين قاضى قضاة الشافعية ، مضافاً إليه النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . ومع هذا التعدد بقى ابن بنت الأعز مهيب الجانب . قدم المنزلة .

وعندما أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلى الجامع الأزهر . وجهد فى تجميله وانتزاع الأموال له من السلطان والأمراء ، وتم إصلاحه عام ٦٦٥ هـ وفرشه ورجده فيه مقصورة ومنبرا ، أحب أن تصلى فيه صلاة الجمعة ويخطب فيها ، فتنازع الناس فى جواز ذلك . ومنعه القاضى تاج الدين ولم يمنعه الأحناف وتمت بفتواهم الصلاة والخطبة .

هذا ، وقد ولى تاج الدين من المناصب الأخرى نظر الأحباس وتدريس القبة الشافعية ، والصالحية وغير ذلك . وقد توفى فى يوم الأحد ٢٧ رجب عام ٦٦٥ هـ ، عن ٥١ سنة . وفى حسن المحاضرة أنه مات فى ١٧ من رجب المذكور .

• نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٦٢ - السلوك ج ١ - صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، ١١٢ - ابن إياس ج ١ ص ١٠١ ، ١١٢ - طبقات السبكي ج ٥ ص ١٣٣ - راجع تراجم أبنائه وأحفاده فيما يلي :

٥ - محي الدين عبد الله بن شرف الدين بن عين الدولة ٦٧٨ هـ

هو قاضى القضاة محي الدين أبو الصلاح عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن صدقة بن حفص الصفر اوى الإسكندرانى المعروف بابن عين الدولة . شافعى المذهب . تولى قضاء مصر والوجه القبلى بعد وفاة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وورده له المرسوم بذلك فى يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٦٦٥ هـ . فلما كان عهد الملك السعيد بن بيبرس عزل فى ١٨ ذى القعدة عام ٦٧٦ هـ ، فظل مصر وفا حتى توفى فى ٥ رجب سنة ٦٧٨ هـ وقد نيف على الثمانين .

• سلوك المقرئى ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ - وراجع ترجمة أبيه فى طبقات الشافعية لابن السبكي ص ٢٦ ج ٥٥ .

٦ - تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى ٦٨٠ هـ

هو قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن رزين بن موسى بن عيسى بن موسى العامرى الحموى . ولد بحجة سنة ٦٠٣ هـ ، وحفظ كثيرا من كتب الفقه والأصول والنحو والكلام والقراءات . وأخذ عنه جملة علماء عصره . وتولى بدمشق وظائف عدة منها التدريس ووكاله بيت المال . ثم يمم شطر مصر ، فاشتغل بالتدريس ، حتى توفى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فى رجب عام ٦٦٥ هـ . فأسند إليه قضاء القاهرة والوجه البحرى فى شعبان من تلك السنة . فامتنع عن أن يتناول عليه أجرا . وعرف بالفقه وحسن الرأى وصدق النظر وحسن الفتوى . ولما عزل محي الدين بن عين الدولة فى ١٨ ذى القعدة سنة ٦٧٦ هـ ضم اختصاصه إلى اختصاص ابن رزين ، فتم له قضاء مصر كله . ثم عزل فى رجب سنة ٦٧٨ هـ ^(١) لتوقفه فى خلع الملك السعيد بن بيبرس . وتولى

(١) فى سلوك المقرئى ج ١ ص ٦٥٧ مايفهم منه : أنه عزل قبل رجب بنحو شهرين .

القضاء مكانه صدر الدين بن بنت الأعز ، فظل حتى عزل نفسه في رمضان سنة ٦٧٩ هـ . فأعيد مكانه تقي الدين بن رزين ، فظل في القضاء حتى توفي في ٣ رجب عام ٦٨٠ هـ . وله ولد من كبار علماء العصر هو صدر الدين عبد البر .

« سلوك المقرئ ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ - طبقات السبكي ج ٥ ص ١٩٠ » .

٧ - صدر الدين بن بنت الأعز ٦٨٠ هـ

هو قاضى القضاة ، عمر بن تاج الدين بن بنت الأعز ، عبد الوهاب العلماى الشافعى . ولد عام ٦٢٥ ، وترعرع في كنف أبيه تاج الدين . وأخذ عنه وعن علماء عصره ، الفقه والحديث . ونشأ ورعا تقيا دينا ، حتى كان أبوه - على جلال قدره - يتبرك به . كما نشأ صلبا في الحق ، عيوبا عن الباطل . لا يحب المزاح ولا الهزل ولا الضحك .

وفي شهر رجب عام ٦٧٨ هـ مات القاضى محيى الدين بن عين الدولة ، وكان بيده قضاء مصر والوجه القبلى . وعزل القاضى تقي الدين بن رزين ، وكان بيده قضاء القاهرة والوجه البحرى . فلما وقع ذلك ، أسند قضاء مصر كله إلى صدر الدين عمر ابن تاج الدين بن بنت الأعز . وذلك في أوائل عهد الملك العادل سلامش عام ٦٧٨ هـ (١) .

فلما ولى القضاء سار فيه على سنة أبيه تحريا للحق ، وذودا عنه وصلابة فيه . ثم عزل نفسه في رمضان عام ٦٧٩ هـ ، واشتغل بالتدريس وتنظر على المدرسة الصالحية ، فلبث حتى توفي في ١٠ المحرم عام ٦٨٠ هـ عن خمس وخمسين سنة .

« السلوك ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ - طبقات السبكي ج ٥ ص ١٣١ »

٨ - وجيه الدين البهنسى ٦٨٥ هـ

هو أبو محمد وجيه الدين عبد الوهاب بن سديد الدين أبى عبد الله بن الحسين ابن عبد الوهاب المهلبى البهنسى . كان فقيها عالما بالأصول والنحو متدينا . اشتغل

(١) في السلوك ج ١ ص ٦٥٧ أن ولايته القضاء كانت في منتصف جمادى الأولى عام ٦٧٨ هـ

زمنًا طويلًا بالتدريس والمناظرة . وقد كان به حُب للفكاهة والسكته . وقد تولى قضاء البلاد كلها بعد وفاة ابن رزين عام ٦٨٠ هـ في ٢٧ شعبان ، ثم عزل عن قضاء القاهرة والوجه البحرى استجابة لطلبه ، إذ قال إنه يضعف عن أن يجمع بين كل جهات القضاء . واستمر بيده قضاء مصر والوجه القبلى إلى أن توفى فى جمادى الآخرة عام ٦٨٥ هـ . وهو شافعى المذهب .

ولما مات انتقل قضاء مصر والوجه القبلى إلى تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز .

طبقات السبكي ج ٥ ص ١٣٣ — حسن المحاضرة ج ٣ ص ١١٢ — السلوك ج ١ ص ٢١ .

٩ - برهان الدين السنجارى ٦٨٦ هـ

هو أبو محمد الخضر بن الحسين بن على ، أخو القاضى بدر الدين السالف ذكره . وهو أيضاً شافعى المذهب وأدرك عهد الأيوبيين وطرفاً من عصر المماليك . ولعل أول مرة ولى فيها منصب القضاء كانت فى رمضان عام ٦٥٤ هـ . وفى شوال سنة ٦٥٩ هـ ، كان قاضياً على مصر والوجه القبلى ، بدل القاضى ابن بنت الأعز إذ صرف عن قضاء هاتين الجهتين وقصر أمره على قضاء القاهرة والوجه البحرى . وقيل عوضاً عن الوجهية البهنسى . ثم صرف السنجارى عن قضاء مصر فى رمضان سنة ٦٦٢ هـ . ويظهر أنه ظل بين تعيين وعزل فى القضاء حتى كانت سنة ٦٧٧ هـ وكان شهر ذى القعدة ، فاختره الملك السعيد ناصر الدين بن بيبرس ليلى الوزارة عوضاً عن بهاء الدين بن حنا . فظل بها عصره وعصر أخيه العادل سلامش حتى عصر المنصور قلاوون فثبته فى منصبه . غير أنه ما لبث أن ساءت ظنونه فيه فعزله من الوزارة فى ٢٦ رمضان سنة ٦٧٨ هـ ، وقبض عليه وعلى ولده شمس الدين عيسى ، وأخذت خيولهم وخيول أتباعهما ، وسجنا فى دار الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وصودر أتباعهما وحكم عليهم بأن يدفعوا غراماً مقداره مائتا ألف وستة وثلاثون ألفاً . ثم أفرج عن برهان الدين السنجارى ، بعد قليل فلزم مدرسة أخيه بالقرافة .

وفى أواخر جمادى الثانية عام ٦٧٩ هـ أعاده السلطان قلاوون إلى الوزارة ، وعزل عنها صاحب نخر الدين بن لقمان ، ولكنه ما لبث أن عزل مرة ثانية وذلك فى ربيع الأول عام ٦٨٠ هـ ، وقبض عليه وعلى ولده واعتقلا بقلعة الجبل . وصودرت أمواله وأهله . ثم أطلق سراحه بعد زمن . حتى كان يوم ١٠ ربيع الأول من عام ٦٨٢ هـ ، فأُسند إليه التدريس بمدرسة بجوار ضريح الإمام الشافعى . فلبث بهذا المنصب زمناً حتى كانت سنة ٦٨٦ هـ ، وكان يوم الأحد ١٥ المحرم ، فأُسند إليه منصب قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى وجلس للفصل فى القضايا بالمدرسة المنصورية بين القصرين . ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقي الدين بن بنت الأعز . قيل : فشق ذلك على ابن بنت الأعز ، وسعى فى أن يعفى من حضور دار العدل . فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجارى فى ٩ صفر من ذلك العام فجأة ، وذلك بعد أن ولى القضاء لآخر مرة نحو ٢٤ يوماً . وتوفى وسنه نحو سبعين سنة . وقد دفن بعد أن صلى عليه ابن بنت الأعز تقي الدين .

ملحوظة : ورد فى طبقات السبكي ج ٥ ص ٥٥ اسم لأحد قضاة القضاة شبيه باسم برهان الدين المذكور هنا إذ قال : الخضر بن الحسن بن على ، الوزير الكبير قاضى القضاة برهان الدين السنجارى . . إلى آخره . ولكن سياق ترجمته لا يدل على أنه هو القاضى الذى ترجمنا له هنا . إذ أورد السبكي أنه توفى عام ٦١٨ هـ ، وقد نيف على الثمانين .

« سلوك المقرئى ج ١ - وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١١١ إلى ١١٣ - وطبقات السبكي ج ٥ ص ٥٥ - ورفع الإصر »

١٠ - شهاب الدين محمد الخوي ٦٩٣ هـ

محمد بن أحمد بن خليل من قضاة الشافعية . وهو الخوي منسوب إلى خوية بلدة بأذربيجان . وقد كان متولياً قضاء حلب ثم عزل . وعين مكانه نجم الدين أبو بكر بن سنى الدولة ، وذلك فى عام ٦٧٨ هـ فى عهد السلطان المنصور قلاوون .

ولما طلب قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى أن يقال من بعض نواحى القضاء ، أقبل من قضاء القاهرة والوجه البحرى ، وبقي بيده قضاء مصر والوجه القبلى . فأسند قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى القاضى شهاب الدين محمد الخوينى . وذلك فى أول رجب سنة ٦٨١ هـ وكان قبيل ذلك يشغل نيابة الحكم فى قضاء الغربية من أعمال مصر . ولما كانت أوائل سنة ٦٨٦ هـ انتقل الخوينى إلى قضاء دمشق وترك قضاء القاهرة ، فأسند إلى برهان الدين خضر السنجارى كما مر فى ترجمته . وقد عاش الخوينى حتى توفى فى سنة ٦٩٣ هـ . وكان ميلاده فى رجب عام ٦٢٦ هـ .

« حسن المعاصرة ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ - وسلوك المقرئى ج ١ - رفع الإصر »

١١ - تقي الدين بن بنت الأعز ٦٩٥ هـ

وهو قاضى القضاة عبد الرحمن بن تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وأخو قاضى القضاة صدر الدين عمر . كان عالما فقيها . ذكيا فصيح اللسان محبا للأدب ، شاعرا مجيدا ومدرسا نافعا . تأدب وسمع الحديث : وانتفع بعلم أبيه وأفذاذ عصره كعز الدين بن عبد السلام . وكان شافعى المذهب . وقد كان فى سنة ٦٨٠ هـ واليا على الخزانة المعمورة فى عهد الملك المنصور قلاوون . وفى ١٠ المحرم من تلك السنة توفى أخوه صدر الدين ، وكان ناظرا على المدرسة الصالحية والترية الصالحية . فصدر مرسوم الملك المنصور ، بأن يخلفه فى النظر أخوه تقي الدين ، مضافا إلى ما بيده فى نظر الخزانة ، بشرط أن يكتفى بالأجر الذى يصله من المدرسة والترية فقط ويحذف أجره من نظر الخزانة . فتم ذلك .

ولما توفى القاضى وجيه الدين البهنسى عام ٦٨٥ هـ ، وكان بيده قضاء مصر والوجه القبلى ، اختير لهذا المنصب من بعده القاضى تقي الدين . فتم تعيينه فيه فى يوم الأربعاء ١٥ جمادى الأولى من العام المذكور .

ولما نقل القاضى شهاب الدين الخوينى من قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى قضاء دمشق ، وأسند منصبه هذا إلى القاضى برهان الدين السنجارى فى نصف المحرم

سنة ٦٨٦ هـ ، نزل السنجاري فجلس للحكم في المدرسة المنصورية بين القصرين .
ورسم له أن يجلس في دار العدل فوق قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن
تاج الدين بن بنت الأعز . فشق ذلك على القاضي تقي الدين وسعى أن يعفى من
الجلوس للحكم في دار العدل . ولما لم يفلح ، مات برهان الدين السنجاري
في ٩ صفر فجأة بعد ولايته ٢٤ يوماً . فانضم قضاء القاهرة والوجه البحري إلى
قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن ، وبذلك أصبح قضاء البلاد كلها في قبضة يده
مع نظر الخزانة المعمورة . وأصبح ذا مكانة ممتازة . حتى لقد عرض السلطان
المنصور عليه أن يلي الوزارة وذلك في ربيع الأول سنة ٦٨٧ هـ فامتنع . فوليها
الأمير بدر الدين بيدرا ، وأمره السلطان بمشاورة ابن بنت الأعز تقي الدين ، وأن
يعمل بما يشير به عليه . وقيل بصدد هذا إن السلطان كان إذا دخل عليه القاضي
تقي الدين - وهو يومئذ ناظر الخزانة - يقول له : يا قاضي كيف حال ولدك
بيدرا في وزارته ؟ فيقول له : « ياخوندا ولد صالح ، دخلت بولايته الجنة .
وأزلت الظلم واستجلبت لك الدعاء . والذي كان يحصل بالعسف حصل باللطف » .

وصار القاضي تقي الدين يدخل على بيدرا كل يوم أربعاء وينظر في تصرفاته
ويفتش عمله ويشير عليه بما يفعل . ثم لم يلبث بيدرا أن عزل في ١٩ ربيع الآخر
من العام نفسه ، واستدعى قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن ليلي الوزارة مع ما
بيده من القضاء ونظر الخزانة . فقبلها بعد أن قبلت شروطه التي قدمها . غير أنه
- كما يقول المقرئ - لم يوف كل هذه المناصب حقها لانقسام وقته فيما بينها ،
ولتشعب عمله فيها . إذ كان يجلس في اليوم الواحد مرة في دست الوزارة
ومرة في مجلس الحكم ومرة في ديوان الحكم . ولم يوف منصب الوزارة حقه
لتمسكه بظاهر الأمور الشرعية . . . ! فأعفى من الوزارة وأعيدت إلى الأمير
بيدرا بعد قليل .

وبعد زمن يسير أسندت الوزارة إلى ابن السلجوس . وذلك في أوائل حكم
السلطان الأشرف خليل ، لأنه كان من أصفياه وخلصائه . وفوض إليه أمور

دولته حتى عظم شأنه ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى في الدولة ، واستهان بغيره من أمراء وكبار وموظفين . ولعل قاضى القضاة تقي الدين عبد الرحمن لم يعترف بتلك العظمة التى بلغها ابن السلعوس ، فلم يعامله بالتجلة المناسبة ، ولهذا كرهه ابن السلعوس وطفق يكيد له لدى السلطان حتى عزله عن جميع المناصب التى كان يتولاها ، وقيل إنه كان يتولى سبعة عشر منصباً ، منها : قضاء الشافعية في الديار المصرية كلها وخطابة الأزهر ونظر الخزانة ومشيخة الشيوخ ونظر تركة بيمرس وأوقافه وجملة دروس . وقد تم هذا في رمضان عام ٦٩٠ هـ ، وتولى القضاء من بعده بدر الدين بن جماعة .

ولما عزل القاضى تقي الدين عبد الرحمن ، عز أمره على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، فتقدم هذا الأمير إلى السلطان الأشرف خليل وشفع لديه في القاضى تقي الدين ، واتفق وإياه على أن يتولى قضاء الشام ، فعلم عدوه ابن السلعوس بالأمر ، فما كان منه إلا أن دبر له مؤامرة دنيئة ، اتهمه فيها بأنه يلوط وأنه كافر ، وأنه يتشبه بالنصارى . ولم يعجزه أن يسوق الشهود لإثبات ذلك حتى اندفع السلطان إلى أن حكم على القاضى البرىء بأن يركب حماراً ويشهر في الطريق . فقبض عليه الوزير ونكل به وسجنه ، وطالبه بمال كثير وألحق به ضرراً من الإهانة . وما زال أمره في محنة . حتى شفّع فيه لدى السلطان الأمير بدر الدين بيدرا ، بناء على طلب الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، فأطلق السلطان سراحه بعد أن لبث في السجن أياماً ، وغرم غراماً مالياً طائلاً . وقد استمرت محنته إلى أخريات العام المذكور ٦٩٠ هـ . بفضل حق ابن السلعوس عليه ! ولم تهدأ هذه المحنة إلا قليلاً من الزمن ، تولى خلاله التدريس في المدرسة الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعى ، وبسبب ذلك طواب بأن يؤدى مالا وسئل . وأهين مرة ثانية وادعى عليه بالباطل . ثم سجن مرة أخرى . وظل في السجن حتى أول شهر رمضان عام ٦٩٢ هـ . فأفرج عنه . ولم يجد الرجل بداً من أن يداهن ويتملق حتى ينجو من الشر ! فأنشأ قصيدة يمتدح بها الوزير

ابن السلعوس . باعث محنته ومسبب كربته فقبلها منه ومن ثم ثبتت براءته ا .
وأذن له في المسير إلى مكة ليؤدي فريضة الحج بعد طول هذه الإهانة ، وبعد
بذل هذا الغرم الكبير الذي قيل إنه بلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار .

قيل إنه لما حج وزار قبر النبي عليه السلام ، كشف رأسه واستغاث به
ومدحه بقصيدة دالية - مستشفعا به إلى الله أن يحججه . فلم يصل إلى
القاهرة إلا وقد أزال الله ملك الأشرف خليل فقتل . أما وزيره ابن
السلعوس فقد سجن وعذب حتى مات ، وهكذا تقلبت الأحوال . وبدأت
سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهي سلطنته الأولى ، وكان وزيره فيها
الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وذلك في أوائل المحرم عام ٦٩٣ هـ . فعزل
القاضى بدر الدين بن جماعة من قضاء الشافعية ، وأسند في ١٩ صفر إلى القاضى
تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعر كما كان . وسمى ذا الرئاسة . وقد وصل إليه
خبر عودته إلى القضاء قبل وصوله إلى القاهرة فظل في منصبه هذا حتى شهد عهد
عهد الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ثم وافته منيته في ١٦ جمادى الأولى
عام ٦٩٥ هـ . وكان ميلاده في ١٢ رمضان عام ٦٣٩ هـ ،

وولى القضاء من بعده تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى .

« طبقات السبكى ج ٥ ص ٦٤ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ - تاريخ ابن الوردى
ج ٢ حوادث عام ٦٩٥ - فوات الوفيات ج ١ ص ٣٢٧ - سلوك المقرئى ج ١ - رفع الاصر » .

١٢ - تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ٧٠٢ (١)

هو قاضى القضاة العف الورع ، تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين على
ابن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى المنفلوطى المعروف بابن دقيق العيد .
ولد بناحية ينبع سنة ٦٢٥ هـ ، وكان أبوه حينئذ متوجها من قوص إلى مكة لأداء
فريضة الحج . وقد نشأ مباركا ذكيا جليل النظر ، حسن الاستنباط ، وتمذهب
كأبيه بمذهب الإمام مالك ثم عدل عنه إلى مذهب الشافعى ، حتى أصبح فيه قدوة

وإماماً ، ونبغ في الفقه والحديث والأصول والنحو . وله باع طويل في الشعر والكتابة والوعظ والتأليف والتدريس . وأكب على الاطلاع والدرس ، وتلمذ للشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيره من الأفاضل .

وقد تولى التدريس بالمدرسة المجاورة لقبة الشافعي في شهر رجب سنة ٦٨٠ هـ . ولما توفي القاضي الشافعي تقي الدين بن بنت الأعز عام ٦٩٥ هـ . اختير تقي الدين ابن دقيق العيد ليلي منصب القضاء ، وذلك في دولة العادل كتيبغا المنصوري ، فتأبى وامتنع . فهدده بأن يولوا القضاء رجالاً لا يصلحون له ، خاف تقي الدين وأوجب على نفسه القبول خشية على العدالة . وقد قام بمهمة القضاء خير قيام بعفة ونزاهة ومهارة وحكمة ، حتى أجله السلطان وعظمه الأمراء . واشتد في الحق شدة شبيهة بشدة القاضي تاج الدين بن بنت الأعز . وغير لباس القضاة من الحرير إلى الصوف . وما يدل على شدته أن الأمير منكوتمر نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين أراده على أن يقضى لشخص يارث رجل متوفى باعتباره أنه أخوه ، فرفض القاضي تقي الدين على الرغم من إلحاح منكوتمر عليه وتحميله ، وهم بترك القضاء لولا إلحاح السلطان عليه . والسبب في ذلك أن الأدلة لم تقم لديه كاملة على الأخوة المذكورة ، إلا شهادة منكوتمر وحده . وما يدل على ذلك أيضاً أنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية ، أراد السلطان ما لا من الرعية لإنفاقه على تجريدة له إلى بلاد الشام . واحتاج في ذلك إلى فتوى من القاضي تقي الدين بن دقيق العيد فرفض . فاحتجوا عليه بفتوى العز بن عبد السلام للمظفر قطز بجواز أخذ مال من الرعية . فرد عليهم بأنه لم يجز ذلك إلا بعد أن أحضر الأمراء مالدتهم من مال وحلهم وأولادهم ونسائهم . وحلف كلا منهم أنه لا يملك غير ما تقدم . وظل رافضاً آتياً وقام عنهم . فكان رفضه هذا سبباً لعدم إرهاق الرعية بضرائب فادحة .

وما يذكر لتقي الدين بن دقيق العيد أنه كان كثير النصيح للناس دائماً الإرشاد لنواب حكمه يوصيهم بالعمل الصالح ومراعاة العدل . ويدنح لهم رسائل طريفة

جامعة يرسم لهم فيها طريق العمل . . وخرج مرة مع الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٩ هـ . إلى الشام لمحاربة التتار وشهد موقعة سلمية . وظل في القضاء مهيب الجانب محمود السيرة ساهى المنزلة حتى قبض إلى رحمة الله عام ٧٠٢ هـ في ١٢ صفر . وسنذكر عنه كلمة منفصلة في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، ومن شعره كثير في مدح النبي عليه السلام والغزل والحنين ، وقد ورد كثير منه في طبقات الشافعية للسبكي مع بعض نثره وخطبه .

« طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢ — حسن المعاصرة ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤ — وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٥ — ابن اياس ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ — اطلع العبد للأدنى رقم ٤٦٢ — وفي سلوك المقرئ ج ١ — وفي رفع الإصر »

١٣ — بدر الدين بن جماعة ٧٢٣ هـ

هو قاضى القضاة العالم الفاضل المؤلف الكاتب الشاعر الأديب ، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الحمري ، فخر حماة . وقد ولد في ربيع الآخر سنة ٦٣٩ هـ وله أسرة من أعرق أسر مدينة حماة ، بارك الله في كثير من رجالها فخدموا العلم والدين والأدب والعدالة في القضاء خير الخدمات . وقد برع هذا القاضى في الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم والكتابة الإنشائية ونظم الشعر . ولما ذاع فضله وكل إليه قضاء الشافعية بالقدس وخطابتهما في ٤ شوال سنة ٦٨٧ هـ .^(١) وكان قبيل ذلك يشتغل بالتدريس في دمشق . فلبث في القدس حتى وقعت الفتنة والعداوة بين قاضى قضاة الشافعية بمصر وهو تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزوين الوزير المستبد ابن السلعوس ، وأدى ذلك إلى عزله من القضاء . وأشار ابن السلعوس على سلطان البلاد الأشرف خليل بن قلاوون ، بأن يولى في قضاء الشافعية عوضاً عنه قاضى القدس وخطيبها ، بدر بن جماعة ، فوقع عليه اختيار

(١) قبل في الدور الكامنة أنه تولى سنة ٦٨٢ هـ

السلطان فعلا . وكانت بين بدر الدين وبين ابن السلعوس صلة ود ومحبة . ومن غريب ما يروى في هذا المقام أن السلطان لما عزل القاضي تقي الدين أراد أن يختار رجلا من رجال الشافعية بالديار المصرية ليؤليه القضاء فسأل هؤلاء الرجال واحدا واحدا ، كل منهم على انفراد ، فيمن يصلح منهم ليلي هذا المنصب الجليل ، فما منهم إلا ذم زميله وأهل مذهبه . . ! وعندئذ وجد ابن السلعوس الوزير فرصة أشار فيها على سلطانه بأن يختار البدر بن جماعة . فأرسل إليه ، فوفد إلى مصر وأجله أهلها . وتولى قضاء الديار المصرية في رمضان عام ٦٩٠ هـ . وخطب بالجامع الأزهر وألقى دروسه في المدرسة الصالحية . وكان يجيد إلقاء هذه الدروس ، كما أنه كان يعنى بتدبيح خطابته وتنميتها . ولبت في منصبه حتى أوائل المحرم عام ٦٩٢ هـ ، إذ كانت السلطنة قد آلت إلى الناصر محمد بن قلاوون ، وكانت الوزارة قد آلت إلى الأمير علم الدين الشجاعى صديق القاضي تقي الدين بن بنت الأعز . فعزل البدر بن جماعة من منصب القضاء وأعيد إليه تقي الدين بن بنت الأعز . وتم ذلك في ١٩ صفر من العام المذكور . وأسند إلى بدر الدين بن جماعة التدريس في المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى وفي المشهد الحسينى . ثم نقل بعد قليل إلى قضاء الشافعية بدمشق . وفي السنة التالية أضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموى . وقيل إنه أول من جمع له بين القضاء والخطابة بدمشق . وظل في منصبه حتى شهد عصر السلطان المنصور لاجين ، فعزل من قضاء الشافعية بدمشق وحل محله إمام الدين عمر ابن عبد الرحمن القزوينى وذلك في ٤ جمادى الأولى عام ٦٩٦ هـ . وأصبح أمر ابن جماعة مقصورا على الخطابة في جامع دمشق والتدريس بالمدرسة القيمرية بها . ولبت على تلك الحال زمنا حتى توفى القزوينى ، فأعيد إليه منصب قضاء دمشق في ١٥ شعبان عام ٦٩٩ هـ . وفي سنة ٧٠١ هـ أضيفت إليه مشيخة الشيوخ بدمشق بإجماع الصوفية ، بعد موت شاغلها وهو ابن حمويه في ربيع الأول .

ولما مات قاضى قضاة الشافعية بمصر آثد وهو تقي الدين بن دقيق العيد ، وقع الاختيار على القاضي بدر الدين بن جماعة ليلي المنصب . وهذه ثانيا مرة يليه فيها . (٧٢ - عابلك)

فقدم إلى القاهرة وخلعت عليه خلع المنصب في يوم السبت ٤ ربيع الأول عام ٧٠٢ هـ . ثم ظل أمره في قضاء مصر بين عزل وتعيين ، حتى كف بصره وثقل سمعه في أخريات حياته ، فاعتزل القضاء عام ٧٢٧ هـ ؛ وأقام في داره وفي مدرسة الخشابية يدرس العلم للناس . ويعرف عنه أنه كثرت أمواله فترك أخذ الأجر على القضاء . ثم توفي سنة ٧٣٣ هـ بالقاهرة في سن ٩٥ تقريبا ، ودفن بالقرافة ، بعد أن بلغ من المجد أوجه ومن العز أعلاه ومن الجاه أسماء . وقد ظل حياته مرجعا للأمر في الصلح وفي الشورى والسفارة . وكان لا يفتأ يسعى لصالح الناس إلى أبواب الملوك . وكان في الوفد الدمشقي الذي وفد على السلطان غازان ملك التتار عام ٦٩٩ هـ ، يرجوه أن يرسل أمانا إلى أهل دمشق وألا يبطش بهم . وذلك بعد أن هزم جيوش مصر وفروا من وجهه إلى ديارهم .

ويعتبر القاضي بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه ، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على إعدادها . ولما له من نظم مليح . ولما له من مؤلفات منها : رسالة في الأسطرلاب ، وأخرى سماها « كشف المعاني » بحث فيها عن بعض معاني القرآن الكريم والفروق بين الآيات المتشابهة فيه . وله شعر ذكر بعضه السبكي في طبقاته ، وهو رقيق من النوع العلي . كما ذكر له عدة مسائل فقهية أفتى فيها برأى صائب ، وجملة تفاسير قرآنية جليلة في المتشابهات .

وأسرة ابن جماعة من الأسر التي أسدت خدمات جليلة للدين والقضاء والعلم والأدب . ومن أبنائه قاضي القضاة « عبد العزيز بن جماعة » ولد سنة ٦٩٤ هـ بدمشق وسمع الحديث من الأبرهوق وابن عساكر . وتولى قضاء الشافعية بمصر زمنا . وزاول التدريس بها زمنا آخر بجامع الإمام الشافعي وجامع ابن طولون وتوفي بمكة المكرمة سنة ٧٦٧ هـ . — أما بدر الدين بن جماعة نفسه فقد دفن بالقرافة بالقاهرة .

د ابن لباس ج ١ ص ١٣٥ ، ١٤٠ — طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٣٠ — في فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٧ — وفي كتاب تاريخ حماة لابن الصابوني الحموي — وفي تاريخ ابن الوردي ج ٢ حوادث عام

٧١١ هـ - وفي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ - وفي الدرر ج ٣ رقم ٧٤٦ - وفي السلوك ج ١ - وفي رفع الإصر .

١٤ - جلال الدين القزويني ٧٣٩ هـ

هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر . ويلقب بجلال الدين . وأصله من بلاد قزوين ، قدم إلى دمشق . وكان شافعي المذهب ، فاشتغل بالتدريس في مدارس . ثم ناب في الحكم عن القاضي نجم الدين بن صصري ، قاضي قضاة دمشق . ثم اشتغل بالتدريس بالمدرسة البدرانية وولى الخطابة بدمشق ، ولقي حينذاك ، من نائبها كراى أذى كثيراً ، بسبب وقوفه مع العوام يسوق الخيل محتجين على الضرائب التي فرضها عليهم . ولما سكران ما عزل النائب لهذا . وولى جلال الدين قضاء القضاة بها . ثم انتقل إلى قضاء الشافعية بـ مصر سنة ٧٢٧ هـ ، على أثر عزل بدر الدين ابن جماعة . فلبث فيه زهاء إحدى عشرة سنة ، ثم عزل سنة ٧٣٨ هـ ، وانتقل ثانية إلى قضاء دمشق ، فظل حتى مات سنة ٧٣٩ هـ . فولى قضاء الشام من بعده تقي الدين السبكي^(١)

وكان جلال الدين كريماً سمحاً غزير العلم ، متصدراً للفتوى ، مشغلاً بالشتون العامة . وقد وفد على ملك التتار غازان ، حينما أراد أن يقتحم دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، فأرسلت إليه دمشق وفدا يطلب الأمان ، كان فيه بدر بن جماعة ، وجلال الدين القزويني . فأخبرهم أنه آمنها قبل قدومهم .

ولما مات رثاه صلاح الدين الصفدى بقصيدة منها :

هذا الإمام الذى ترضى حكومته خلاف ما قاله النجوى فى الصحف
حبر متى جال فى بحث وجاد فلا تسأل عن البحر والمطالة الوطف
ومن مؤلفاته الكثيرة : كتاب التلخيص فى المعانى والبيان . وكتاب

(١) انظر ترجمة تقي الدين السبكي مفصلة فى باب العلماء والمؤلفين بالجزء الثانى من كتابنا هذا ،

الإيضاح فيه أيضا . وكانت ولادته بالموصل عام ٦٦٦ هـ .

« طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٣٨ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ - ابن إياس ج ١ ص ١٤٠ -
ورفع الأصم - وروى السبكي أنه مذكور في سجع المطوق لابن نباتة والمالك لابن فضل الله - راجع
أيضا المجلد السادس من كتابنا هذا ، » .

١٥ - ناصر الدين بن الميلى ٧٩٨ هـ

محمد بن عبد الدائم بن سلامة بن بنت الميلى ويقال له ابن الميلى . تناب
قضاء الشافعية زمنا ، هو وبدر الدين السبكي ، وغيرهما من القضاة . وأول تولية
له كانت في شعبان عام ٧٨٩ هـ ، في عهد برقوق ، فلما خلع عليه السلطان خلعة
التولية ، امتنع من لبسها ، غاية الامتناع ، فأكرهه السلطان على لبسها ، وتوفي
عام ٧٩٨ هـ . وكان مولده في عام ٧١٢ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ - رفع الإصر - ابن إياس ج ١ ص ٢٦٧ ، ٣٠٤ »

١٦ - بدر الدين السبكي ٨٠٣ هـ

هو بدر الدين محمد بن القاضي بهاء الدين أبي البقاء محمد بن عبد البر السبكي .
كان شافعي المذهب تولى أبوه بهاء الدين قضاء الشافعية بمصر زمانا . أما بدر الدين
فقد ولى قضاء الشافعية سنة ٧٧٩ هـ . ثم عزل منه مرارا ، وعاد إليه مرارا أخرى .
فن ذلك انفصاله عام ٧٨٩ هـ ، ثم عاد إليه سنة ٧٩١ هـ . وتوفي في ليلة السبت
١٧ ربيع الثاني سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦٨ ، ٣٤٠ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ »

١٧ - موفق الدين الحنبلي ٨٠٣ هـ

هو أحمد بن نصر الله بن أحمد ، موفق الدين بن ناصر الدين السكناقي العسقلاني
الأصل ، القاهري الحنبلي . سبط الموفق عبد الله . اشتغل بالفقه وغيره . فمهر . وولى
قضاء الحنابلة بالديار المصرية بعد أخيه إبراهيم ، ثم صرف عام ٨٠٢ هـ . ثم أعيد
في آخرها ، فلبث به إلى السنة التالية . وخرج عام ٨٠٣ هـ مع الناصر فرج للقاء
تيمورلنك بالشام ، فهزم الجيش ، وعاد الموفق إلى مصر ، مع من عاد . وتوفي

بعد قليل في رمضان عام ٨٠٣ هـ . وكان مولده في المحرم سنة ٧٦٩ هـ .
« ابن إياس ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٣٧ - رفع الإصر - الضوء اللامع ج ٣ رقم ٦٥٧ »

١٨ - صدر الدين المناوى ٨٠٤ هـ

كان شافعي المذهب . أول ما ولي قضاء الشافعية في مصر في ذي القعدة عام ٧٩١ هـ ، ثم عزل في الشهر التالي ثم أعيد في المحرم سنة ٧٩٥ هـ عوضا عن عماد الدين الكركي . ثم أعيد وعزل عام ٧٩٩ هـ ، ثم أعيد وعزل في السنة التالية . ثم أعيد في رجب سنة ٨٠١ هـ وهكذا ظل أمره بين التعيين والعزل في عهد برقوق وابنه فرج . وقد خرج مرة مع السلطان فرج إلى بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ في حملته ، لقتال تيمور لئلا يملك التتار ، فانهزم الجيش المصري ، وأسر التتار منه عددا ضخما ، كان من بينهم ، القاضي صدر الدين المناوى . ويقال إن تيمور لئلا وضع القاضي صدر الدين في كيس وأغرقه في نهر الفرات سنة ٨٠٤ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ - ابن إياس ج ١ ص ٢٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٤٢ »

١٩ - ولي الدين بن خلدون ٨٠٨ هـ

هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور . كان مالكي المذهب . تولى قضاء المالكية بمصر عدة مرات . أولها جمادى الآخرة عام ٨٨٦ هـ بعد عزل القاضي جمال الدين خير السكندري .

وسنترجم له بتفصيل في الجزء الثاني ، والثالث من كتابنا هذا .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣ »

٢٠ - تقي الدين القرشي ٨١٣ هـ

هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد عبد الناصر بن هبة الله . تقي الدين القرشي الزبيري الحلي الشافعي . كان والده من أعيان أهل الحلة . اشتغل بافقه وغيره . ومهر في التوقيع . ومازال يرقى حتى ناب في القضاء ، ثم ولي قضاء الشافعية بمصر .

بعد عزل الصدر المناوى عام ٧٩٩ هـ . فباشره بمحنة ومعرفة وعفة . ثم عزل فى عام ٨٠١ هـ وولى غير القضاء . وقد توفى عام ٨١٣ هـ ودفن بتربة الصوفية خارج باب النصر .
« الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٦٢ » .

٢١ - صدر الدين بن العديم

كان حنفى المذهب ، تولى قضاء الحنفية فى مصر ، فى عهد سلطنة الخليفة المستعين بالله وتولى معها حسبة القاهرة . ويقال إنه أول من جمع بين القضاء والحسبة . وظل متوليا فى عهد الملك المؤيد شيخ مدة .
« ابن إياس ج ١ ص ٣٥٩ — ج ٢ ص ٩ »

٢٢ - جلال الدين البلقينى ٨٢٤ هـ

هو أبو الفضل عبدالرحمن بن عمر بن رسلان ، وأبوه شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى . كان شافعى المذهب مثل أبيه . فنشأ فى كنفه ورعايته . حفظ القرآن الكريم وكتب عدة علوم مختلفة . وفقهه أبوه وغيره . وكثرت مشايخه . وسمع الحديث ...

ولما ولى أبوه قضاء دمشق ، رحل معه وهو صغير . ولبت مكبا على طلب العلم فى ذكاء وصبر ، وجد وقوة حافظه . وكان - كما قال ابن حجر - من عجائب الدنيا فى سرعة الفهم وجودة الحفظ ، فمر فى مدة يسيرة ، وأصبح أهلا لولاية الوظائف فاشتغل موقعا بالدست بديوان الإنشاء ، وولى قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، وتوقيع الدرج . ونبه شأنه وكان قد أذن له فى الفتوى والتدريس فتصدى لها وكثرت طلبته .

ثم ولى قضاء الشافعية بمصر لأول مرة فى جمادى الاولى عام ٨٠٤ هـ فى حياة أبيه ، عوضا عن القاضى ناصر الدين الصالحى . ثم عزل فى سنة ٨٠٥ هـ ، وأعيد سنة ٨٠٦ هـ ، ثم عزل بعد قليل .

وكان مبتلى بحب القضاء ، يأسف للعزل ، ويسعى للعودة ويهش لها . وظل

أمره فيه بين عزل وإعادة ، وشهد عصر فرج بن برقوق ، وعصر المستمعين بالله الخليفة السلطان فعزل في عهده مدة ، فأسرها بعزل هذا في نفسه - على ما قيل - وأقضى المؤيد شيخ بعزل الخليفة من السلطنة .

وظل في القضاء مرة نحواً من ستة أعوام ، وذلك في صفر عام ٨١٥ هـ إلى جمادى الأولى عام ٨٢١ هـ . ثم عزل ثم أعيد في عام ٨٢٢ هـ . ولبت في منصبه حتى توفي في ليلة ١١ شوال عام ٨٢٤ هـ . وكان مولده عام ٧٦٣ هـ .

وكانت وفاته في منزله بالصالحية . وقال السخاوى في الضوء : إن وفاته كانت بالقاهرة . وأنه مات مسموماً بمكيمة .

وكان مهيباً عفت عنه الناس لا يقبل هدية من صديق أو غيره . متواضعاً بين الجانب اشتغل بالتدريس في مدارس عدة وله تلاميذ أفاضل أئمة ، منهم ابن حجر العسقلانى . وله نثر ونظم في مسائل علمية ، ما بين أسئلة وأجوبة وغيرها .

وله أخ اشتهر بالعلم والتقوى كأبيهما : وهو د علم الدين صالح البلقينى ، الآتى ذكره ، ولى القضاء زمناً بعد أخيه . وله أيضاً ابن اسمه د تاج الدين البلقينى .

د حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١١٥ ، ١١٦ - ابن إياس ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٥١ - ج ٢ ص ٩ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٠١ .

٢٣ - مجد الدين أبو البركات الحنبلى ٨٢٦ هـ

هو سالم بن سالم بن أحمد بن سالم . . . القاضى مجد الدين أبو البركات بن أبى النجا المقدسى القاهرى الحنبلى . لعله ولد بالمقدس ، وذلك عام ٧٤٨ هـ أو ٧٤٩ هـ .

وقد اشتغل بطلب العلم في بلده ، فبرع في فنون عدة منها : الفقه . وسمع الحديث وناب في الحكم ، ثم وفد على القاهرة عام ٧٦٤ هـ ، فزاد تفقها على كثيرين من أئمتها ، وفي مقدمتهم قريبه د موفق الدين الحنبلى ، فلما مات الموفق اختير مجد الدين لقضاء الخنايلة عام ٨٠٣ هـ ، بعد تردد منه . وأضيف إليه التدريس في مدارس عدة . ولبت في القضاء نحواً من خمسة عشر عاماً . ثم مرض وضعف ، ففقد عنه ، ثم توفي عام ٨٢٦ هـ .

٢٤ - زين الدين التفهني ٥٨٣٥

هو زين الدين أبو هريرة التفهني، واسمه عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن ولد بتفهن عام ٥٧٦٤هـ، بالقرب من دمياط، ومات أبوه وهو صغير. وكان فقيراً، فانتقلت به أمه إلى القاهرة، وهناك تفقه وسمع، حتى أصبح أحد رجال الحنفية البارزين. ومهر، فضلاً عن الفقه والحديث، في الأصول والتفسير والعربية والبلاغة والمنطق، وتصدى للتدريس والفتوى وناب في الحكم عن الأمين الطرابلسي وغيره. وولى مشيخة الصرغتمشية، واشتغل بالخطابة.

ثم ولى قضاء الحنفية بعد الشمس بن الديري، في عام ٥٨٢٢هـ، فباشره مباشرة حسنة، وسار فيه سيرا محموداً. ثم صرف عنه عام ٥٨٢٩هـ، وحل محله البدر العيني. وولى هو مشيخة الشيوخونية.

لم يلبث أن مات عام ٥٨٣٥هـ ودفن بتربة صهره الشهاب المحلى - كبير تجار مصر - بالقرب من تربة يشبك الناصري بالقرافة.

الضوء اللامع ج ٤ رقم ٢٨٥ .

٢٥ - شهاب الدين بن حجر العسقلاني ٥٨٥٤

هو شيخ الإسلام وقاضى قضاة الشافعية بمصر. ولى القضاء لأول مرة عام ٥٨٣٠هـ وقيل عام ٥٨٢٧هـ، في عصر الأشرف برسباي. وعزل من القضاء مراراً، وأعيد إليه. حتى اعتزله نهائياً في جمادى الآخرة عام ٨٥٢هـ، وتوفى عام ٨٥٤هـ وقيل ٨٥٢هـ.

وابن حجر كان علامة زمانه في فقه الشافعية، وكان من حفاظ الحديث كما أنه كاتب وشاعر ومؤلف فذ، وله كتب في التاريخ والحديث، هي الحجة والسند منها: الدرر الحكامنة في أعيان المائة الثامنة. والأصابة في تاريخ الصحابة وشرح البخارى.

ملحوظة: ترجمنا له بتفصيل في الجزء الثانى من كتابنا هذا في باب العلماء والمؤلفين ونوهنا بأدبه في الجزء الثالث والرابع.

٢٦ - سعد الدين الديري ٨٦٧ هـ

هو سعد الدين بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر ، وهو سعد الدين أبو السعادات النابلسي الأصل الدمشقي الحنفي نزيل القاهرة . يعرف بالديري نسبة إلى مكان بجبل نابلس يسمى الدير . وكان ذكي الفؤاد سريع الحفظ . تفقه على أبيه وعلى كثير من رجال عصره الأفذاذ مثل كمال الدين السريجي وعلاء الدين ابن النقيب . ونبغ في فقه الحنفية وروى كثير آ من الأحاديث . وأجيزت له روايتها عن برهان الدين بن جماعة . وكان محبا للمباحثات والمناظرات العلمية ، مقبلا على تفسير القرآن الكريم ، كثير الاطلاع ، محبا للأدب ، كاتباً ناظلاً .

وقد زادت مهابته في عهد أبيه ، فكان يقدمه على نفسه في الفقه وغيره . وحج عدة مرات أولها سنة ٨٠١ هـ . ويعتبر في مقدمة رجال الحنفية في زمانه . وقد تولى قضاءها بالبلاد المصرية لأول مرة في المحرم عام ٨٤٢ هـ عوضاً عن العيني . فكان في منصبه مهيباً كثير العفة . ثم عزل وأعيد مراراً ، وشهد عصر الظاهر جقمق إلى عصر الأشرف إينال ، وكان أحد قضائه . ثم فصل في أواخر عام ٨٦٦ هـ وتوفي في العام الذي يليه وهو ٨٦٧ هـ في ٩ ربيع الآخر وقيل في ١٠ منه . وقد اشتغل بالتدريس بمدارس عدة منها المدرسة المعظمية بالقدس وتولى مشيخة الجامع المؤيدى زمناً . ولما مات دفن بمقبرة الظاهر خشققدم بعد أن تولى القضاء خلال ثلاثين عاماً عدة مرات . وله ابن من رجال العلم والفضل يعرف « بتاج الدين » ، توفي سنة ٨٩٣ هـ .

ومن مؤلفاته : شرح العقائد النفسية والكواكب النيرات في وصول ثواب الطاعات إلى الأموات ، والسهام المارقة ، ومنظومة في علم البديع تسمى « النعمانية » ، وهي طويلة ، وفتوى في الحبس بالتهمة ، وفتوى في هل تنام الملائكة أم لا ، وفتوى في هل منع الشعر بخصوص بنيينا عليه السلام أم عام في جميع الأنبياء ، وتكملة شرح الهداية للسروجي صنف منها شيئاً ، وقصيدة مخمسة في مدح النبي عليه السلام .

حسن المحاضرة ج ٢ س ١٢٢ — ابن إياس ج ٢ ص ٣٣، ٦٥، ٧٤، ٧٦، ٢٤٥ — الضوء
اللامع ج ٣ رقم ٩٣٩ — الفوائد البهية للكنوز الهندى ص ٨٧ .

٢٧ — علم الدين البلقينى ٨٦٨ هـ

هو صالح بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح علم الدين بن سراج الدين .
وأخو القاضي جلال الدين . كان شافعى المذهب . وأول من سكن « بلقينة » جده
صالح . وكان مولد علم الدين بالقاهرة سنة ٨٩ هـ .

نشأ فحفظ كتباً وتفقه بأخيه جلال الدين وغيره . ودرس الفقه الأصول
والنحو والحديث ، وحج عام ٨١٤ هـ ودخل دمياط وأذن له فى الإفتاء والتدريس ،
وخطب بالمسجد الحسينى . واستقر حيناً فى توقيع الدست ، وناب فى القضاء عن
أخيه بدمهور ، واشتغل بالتدريس ، فدرس الفقه والتفسير والميعاد . وولى
وظائف عدة .

واختير بعد وفاة أخيه جلال الدين بمدة لقضاء الشافعية بالديار المصرية فى
عام ٨٢٦ هـ ، وظل أمره فيه بين ولاية وعزل يتناوبه هو وابن حجر العسقلانى
وشرف الدين المناوى وغيرهما من أفذاذ عصره ، حتى كان مجموع ولايته نحو
ثلاث عشرة سنة ونصف . وقد أعيد إليه فى عام ٨٦٧ هـ ، فلبث به حتى مات سنة
٨٦٨ هـ فى شهر رجب ، بعد أن شمد عصر جقمق وإينال وخشقدم . وقال
ابن إياس إن وفاته كانت سنة ٨٦٩ هـ . وصلى عليه فى جامع الحاكم ودفن بجوار
والده بمدرسته .

وكان علم الدين إماماً فطناً قوى الحافظة سريع الإدراك ، طلق العبارة فصيحاً
ينطق العربية معربة صحيحة ، لم تضبط عليه شاذة ، مهيباً لا يهاب ملكاً ولا أميراً
وقد اشتغل بالتأليف ، ومن مؤلفاته : تفسير القرآن الكريم ، وشرح
على البخارى لم يكمل ، وجملة من الفتاوى ، وحواشى على الروضة وترجمته وترجمة
أبيه ، والقول المفيد فى اشتراط الترتيب بين كلمات التوحيد والتذكرة . وله نثر
ونظم كثير .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن إياس ج ٢ ص ٦٥ و ٢٨ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٨ - الضوء
اللامع ج ٣ رقم ١١٩٩ .

٢٨ - شرف الدين يحيى المناوى ٨٧١ هـ .

هو من أسرة المناوى ، وهى إحدى الأسر المصرية التى اشتهرت بالعلم والفقه
والآداب وكان شرف الدين شافعى المذهب ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، ويظهر
أنه وليه لأول مرة عام ٨٥٢ هـ فى عهد الظاهر جمقمق ، فكان عادلا ديناً كثير
الصلاح . وما حدث له أنه لما توقف النيل عن الوفاء عام ٨٥٣ هـ ، وخرج الناس
على بكرة أبيهم للاستسقاء ، خرج معهم قاضيه شرف الدين ، فصعد المنبر وخطب
خطبة الاستسقاء ، ولما هم بتحويل رذائه سقط منه الرداء إلى الأرض فتطير الناس ،
ولسكن النيل أوفى بعد هذه الحادثة . وظل شرف الدين يعزل أنا ويولى أنا آخر ،
حتى توفى عام ٨٧١ هـ ، وكان إذ ذاك منفصلاً عن منصب القضاء .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ - وابن إياس ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ و ٧٤ و ٧٨ و ٨٥ .

٢٩ - حسام الدين بن حريز ٨٧٣ هـ .

هو قاضى القضاة المالكي المذهب السيد الشريف حسام الدين بن حريز بن
أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى . أصل أسرته من بلاد المغرب ولد
عام ٨٠٤ هـ . ونشأ بمنفلوط ، وبرع فى فقه المالكية ، وأخذ جاهه يعظم ، والزمن
يصفوه له حتى ولى منصب قضاء المالكية بمصر عام ٨٦١ هـ بعد وفاة القاضى
ولى الدين السنباطى ، ويقال إنه بذل فى سبيله مالا جزيلا ، وكانت وساطته إليه
ناظر الخاص الجمالى يوسف ، وذلك فى عهد السلطان الأشرف إينال . ويقال إنه
كان بين المالكية حينئذ من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء . ولكنه
أسعده جده ولبث فى هذا المنصب نحو ١٢ عاما حتى قبض فى شعبان سنة ٨٧٣ هـ ،
بعد أن شهد عصر خشدقدم وتمرغا والأشرف قايتباى . وبعد وفاته تولى قضاء
المالكية أخوه سراج الدين بن حريز الآتى ذكره بعد .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن إياس ج ٢ ص ٥٨ و ٨٣ و ٩٦ و ١٠٦ .

٣٠ - عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلي ٨٧٦ هـ .

هو قاضى القضاة أحمد بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم ابن إسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلاني الحنبلي . ولد بالقاهرة في ١٦ ذى القعدة عام ٨٠٠ هـ ، وكان غزير العلم كثير التواضع فكه المحاضرة عفيف اليد واللسان . واشتغل بالتدريس زمنا ، وولى قضاء الحنابلة في مصر بعد وفاة قاضيه بدر الدين البغدادى في عام ٨٥٧ هـ ، واستمر في منصبه هذا نحو عشرين عاما . وكان أجل علماء مذهبه وأفضلهم . وقد توفى بالقاهرة قبيل الثمانين في جمادى الأولى عام ٨٧٦ هـ ، واستمر المنصب شاغرا بعد وفاته أشهرا ، ثم وليه القاضى بدر الدين السعدى ، وقد شهد القاضى عز الدين عصر ثمانية من سلاطين مصر وهم من جقمق إلى قايتباى . وقد ذكرناه في جزئنا الثانى من هذا الكتاب .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن ابى ج ٢ ص ٣٥ ، ٦٥ ، ٩٦ ، ١٤٩ - الضوء اللامع ج ١ ص ٢٠٥ .

٣١ - برهان الدين الديرى ٨٧٦ هـ

هو قاضى قضاة الحنفية في مصر إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العيسى القدسى . وقبل أن يلى منصب القضاء ، تقلب في مناصب عدة فمنها ، نظارة الأسطول ونظارة الجيش . وحينما عزل محب الدين بن الشحنة من كتابة السر وسلمك في منصب القضاء عام ٨٦٧ هـ ، عين على أثره برهان الدين الديرى في كتابة السر بمصر ، ولكن لسانه زل زلة كانت سببا لغضب السلطان الظاهر خشقدم عليه ، وذلك أنه توفيت والدته المقر الشهابى أحمد بن العبنى يوم سبت ، فشيّعها مع المشيعين وعاد بصحبة الأمير جاني بك ، فقال له إن هذه المتوفاة نزلت من القلعة يوم السبت ولا بد أن يعقبها كبير ، وأظنه السلطان ! فبلغت قائته إلى السلطان فغضب عليه وعزله بعد أقل من شهرين ، مع العلم بأنه - كما قيل - ما نال هذه الوظيفة إلا بعد أن بذل في سبيلها خمسة آلاف دينار ! ثم تقلبت الأيام ورضى عنه السلطان فأقامه قاضى قضاة الحنفية بعد عزل ابن الشحنة من هذا المنصب عام ٨٦٩ هـ ومنحه خلعة

القضاء ونزل في موكب حافل من لدنه . ولكنه ما عتم أن عزل في العام الذي يليه ،
وعاد مكانه ابن الشحنة ثانية . أما برهان الدين فقد ظل زمنا بلا منصب . ثم
أسندت إليه مشيخة الجامع المؤيدى فلبث بها حتى توفي عام ٨٧٦هـ في المحرم .
وهو أخو القاضي سعد الدين الديري المذكور فيما مضى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٨ ، ١٢٨ - الفوائد البهية للكنوز الهندى ص ٨٠ » .

٣٢ - شمس الدين الأمشاطى ٨٨٥هـ

هو محمد بن محمد بن أحمد بن حسن به إسماعيل بن يعقوب العينتاي الكحكاوى
الأمشاطى . برع في فقه الأحناف وكان أحد نواب قضائه زمنا كبيرا مع وفرة
عقل وفكاهة محضر وعفة واستقامة وعدل . وعندما عزل محب الدين بن الشحنة
من القضاء الأكبر عام ٨٧٧هـ عين مكانه شمس الدين الأمشاطى ، فكان كفتنا لهذا
المنصب العظيم ، وذلك في حكم الأشرف قايتباى . وراوده السلطان على حل
الأوقاف والاستبدالات ، وأن يقيم قاضيا يفوض إليه أداء هذه المهمة ، فقال
للسلطان : إن السلطان له ولاية التفويض إلى من يشاء ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى
بحل الوقف ولا بعمل استبدال . وقام من مجلس السلطان كالغضبان . وما زال
بمنصبه حتى مات في شوال سنة ٨٨٥هـ ، وظل منصب قاضى قضاء الحنفية من
بعده خاليا زمنا ، ثم عين فيه شرف الدين موسى بن عيد أحد علماء الشام . وما
يذكر أن شمس الدين كان شيخا للمدرسة البروقية .

ابن إياس ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢

٣٣ - شرف الدين موسى بن عيد ٨٨٦هـ

هو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقى الحنفى . أصله من عجلان ، وتولى قضاء
الحنفية بدمشق . ولما توفي قاضى قضاء الحنفية بمصر شمس الدين الأمشاطى عام
٨٨٥هـ ، لم تتجه رغبة السلطان الأشرف قايتباى إلى تولية أحد الأحناف المقيمين
بمصر ، فاستدعى بعد قليل قاضى قضاء دمشق شرف الدين موسى بن عيد ليلى هذا
المنصب الرفيع . فوصل إلى مصر في ذى القعدة من هذا العام .

ولبث في منصبه قليلا ، ثم وقعت زلزلة راثعة في المحرم من عام ٨٨٦ هـ ، ماتت لها الأرض . فارتاع لها الشيخ ، وسقط عليه ساقط ، فقتله ومات لساعته . ولما شيعت جنازته كان السلطان في طليعة المشيعين والمصلين عليها . وقد دفن بالصحراء وكان مولده في سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ » .

٣٤ - محب الدين بن الشحنة ٨٩٠ هـ

هو قاضى القضاة الكاتب الشاعر الفقيه المؤلف ، محب الدين محمد بن محمد ابن محمد ابن محمود بن غازى الثقفى الحلبي . وهو حنفى المذهب . وهو غير محب الدين ابن الشحنة الذى كان قاضيا فى حلب عام ٧٧٧ هـ ، فى العهد الأول من سلطنة الملك يرقوق ، أول ملوك الجراكسة والذى ولد عام ٧٤٩ هـ وتوفى عام ٨١٧ هـ . والذى له بعض المؤلفات ولعل بين الاثنين صلة قرى ونسب (١)

أما محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة مصر ، فيظهر أنه ولد عام ٨٠٤ هـ بحلب أيضا وشب بها ، وعلى علمائها تتقف ، وكانت ميدانا له ظهرت فيه مواهبه ثم يم شطر مصر ، ولبث فيها زمنا يغترف من مناهلها . ثم اختاره السلطان الأشرف إينال قاضيا للحنفية فى جمادى الثانية لمدينة حلب ، فسافر إليها . ثم عين كاتباً للسر فى مصر فى ذى القعدة عام ٨٥٧ هـ عوضا عن محب الدين بن الأشقر الذى عزل منها . فبدأ نجم ابن الشحنة فى الصعود من ذلك الحين . ويظهر أنه أسند إليه أيضا نظر الجديش فى ذلك الحين . وظل فى منصبه ذلك أكثر من نصف عام ، ثم عزل فى رجب سنة ٨٥٨ هـ وأعيد ابن الأشقر إلى كتابة السر كما كان من قبل . فظل محب الدين بعيدا عن المنصب حتى توفى ابن الأشقر عام ٨٦٣ هـ ، فعاد هو إلى كتابة السر . غير أنه مالبث فيها إلا إلى سنة ٨٦٧ هـ ، ثم عزله السلطان الظاهر خشقدم ، وعدل به من كتابة السر إلى القضاء . فعينه قاضى قضاة الأحناف

(١) انظر كتاب « التعليقات السنية على الفوائد البية » للكنوى الهندى ص ١٠

بمصر. فظل بمنصبه حتى عام ٨٦٩ هـ ثم عزل منه . ولم يمكث غير قريب حتى أعيد إليه في أوائل السنة التالية ، فظل في القضاء زمنا حتى شهد عصر السلطان تمرغا ثم قايتباي . وفي عام ٨٧٥ هـ ، وقعت فتنة بسبب عمر بن الفارض المتصوف من الزاهد والشاعر المشهور ، فاختلف العلماء فيه ، فمنهم من يقول بإيمانه وحسن معتقده ويؤول ما اشتبه من ألفاظه ، ومنهم من يقول بفسقه بل وتكفيره ، لأن ألفاظه توهم الحلول والاتحاد . وكان على رأس الفريق الثاني القائل بتفسيره جملة علماء على رأسهم محب الدين بن الشحنة وبرهان الدين البقاعي . ووقعت بين الفريقين في هذه المسألة مشاحنات طويلة ومناقشات عدة ، أودى في سبيلها القاضي محب الدين حتى هجاه بعض شعراء عصره وعوامه .

عزل ابن الشحنة من القضاء بعد ذلك بقليل ، ثم أصيب بفالج ، فعد الناس ذلك من بركات ابن الفارض ! ولبث محب الدين زمنا حتى برىء من مرضه ، فعاد إلى والقضاء . غير أنه مكث زمنا يسيرا ، ثم ابتلى بمحنة أخرى ، إذ وقع بين أميرتين شقيقتين نزاع حول وقف يخصهما ، فتعصب محب الدين لإحدهما ، وكان سلطان العصر الأشرف قايتباي في جانب الأخرى ، فعزله من القضاء في ربيع الثاني عام ٨٧٧ هـ ، فكان ذلك آخر عهده به . ولم يكتف السلطان بذلك بل أمر بالقبض عليه بدعوى استيلائه على بعض أموال أوقاف الحنفية ، فلبث في سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه . وفي جمادى الأولى رضى عنه السلطان وأسند إليه مشيخة الخانقاه الشيخونية فلبث بها حتى توفي في المحرم سنة ٨٩٠ هـ .

وأسرة ابن شحنة من الأسر المباركة ، التي نبغ فيها أفراد خدموا العلم القضاء والأدب في مصر زمنا طويلا . ومنهم القاضي سري الدين عبد البر بن محب الدين . ومنهم حسام الدين بن الشحنة ، والقاضي عفيف الدين ابن الشحنة وسنشير إلى بعضهم .

٣٥ - ولى الدين الأسيوطى ٨٩١ هـ

هو أحمد بن عبد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهري السيوطى الشافعى المذهب . ولد عام ٨١٣ هـ . وقد اشتهر بالعلم وحسن الخلق والمعاملة . وتولى مشيخة بعض الخوانق ، وقام بالتدريس زمنا . وقد ولى قضاء الشافعية عام ٨٧٠ هـ بعد أن عزل عنه القاضى أبو السعادات البلقى . وكان ذلك فى عهد السلطان الظاهر خشقدم . واتصل حبلة بالقضاء زمنا كبيرا حتى عهد الأشرف قايتباى : ثم اختلف معه فى رأى بسبب تركه ، فما كان من السلطان إلا أن عزله ، فلبث المنصب شاغرا حتى عاد هو إليه بعد قليل بشفاعة بعض الأمراء ، وذلك فى ربيع الثانى عام ٨٨٥ هـ . ثم حدثت له حادثة شديدة بالأولى فى رجب عام ٨٨٦ هـ ، فقد كانت هناك قضية خاصة بتركة كان الشهاب أحمد بن العبنى طرفا فيها ، وحكم له ولكن الحكم لم ينفذ ، فكان عدم تنفيذه سببا لأن أخذ السلطان القاضى الشافعى ولى الدين الأسيوطى والقاضى المالكي معا ، ويظهر أنهما كانا مختصين بالنظر فى هذه القضية . فعزلها السلطان بعد نقاش بينهما طال أمده ، فكان ذلك آخر عهده بالقضاء بعد أن لبث فيه نحواً من ١٦ سنة مشكورا السيرة دائماً العدل ، ثم توفى سنة ٨٩١ هـ فى شهر صفر .

• ابن لياس ج ٢ ص ٧٩ ، ٩٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٣٤ - الضوء اللامع ج ١ ص ٢١٠ .

٣٦ - شمس الدين الغزى بن المغربى ٨٩١ هـ

عينه الأشرف قايتباى فى قضاء الحنفية بمصر عقب وفاة القاضى موسى بن عيد عام ٨٨٦ هـ . قيل إنه لم يكن أهلا لولاية القضاء ، إذ كان بين علماء الحنفية من هو أكثر منه فقهاً وجاهاً . وقيل إنه سعى إلى هذه الوظيفة ، وكانت وساطته إليه الاستادار تغرى بردى ، والمهمندار يعقوب شاه . ولبث فى منصبه نحو عامين ، ثم أمر السلطان فى ربيع الأول عام ٨٨٨ هـ ، بمحاسبته على ما لديه من مال . فكان ذلك بدء عذابه ومحنة . وتكاثرت ضده الشكاوى ، حتى عقد له مجلس من القضاة الثلاثة ، وحاسبه جباة المال حسابا عسيرا ، وذلك بمنزل الأمير برسباى قرا . ومع هذا كله ظل فى منصبه لا يبرحه حتى عام ٨٩١ هـ ، والسلطان يصابره حتى

فاض به إناء صبره ، فأمر في شعبان من العام المذكور بالقبض عليه ومحاسبته حسابا دقيقا ، وسير إلى المدرسة الصالحية وظل مقبوضا عليه حتى صدر أمر عزله في غضون العام نفسه . ويظهر أنه توفي قريبا من ذلك .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ » .

٣٧ - سراج الدين عمر بن حريز ٨٩٢ هـ

هو سراج الدين عمر بن أبي بكر بن محمد بن محمد بن حريز بن أبي قاسم ، الهاشمي القرشي العلوي الحسني المنفلوطي . وهو أخو قاضي قضاة المالكية حسام الدين بن حريز الذي سبق ذكره . وسراج الدين هذا مالكي المذهب كذلك .

أصل أسرتهما من بلاد المغرب ، استوطنت منفلوط . ولما توفي أخوه حسام الدين عام ٨٧٣ هـ ، تولى منصبه ، فظل قاضيا للمالكية حتى عام ٨٧٧ هـ . ثم غضب عليه السلطان الأشرف قايتباي ، وقبض عليه وسجنه ، فلقى عذابا ألينا وقاسى محنا شديدة . ثم أطلق سراحه . غير أنه ظل معزولا حتى توفي عام ٨٩٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، ٢٤٣ » .

٣٨ - محي الدين عبد القادر بن تقي ٨٩٥ هـ

هو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن علي بن تقي ، الدميري المالكي . كان عالما فاضلا من أفته المالكية في زمانه ، وأكثرتهم هيبة ووقارا . تلقى العلم على جماعة من القدامى كاللبساطي ، فبرع في مذهبه . وناب في الحكم زمنا عن القاضي المالكي ، ثم انتهى إليه قضاء المالكية بمصر ، في عهد قايتباي ، قبيل عام ٨٩١ هـ ، فظل فيه حتى توفي ذي القعدة عام ٨٩٥ هـ . وهو أخو القاضي عبد الغني بن تقي الآتي ذكره .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٦٦ » .

٣٩ - برهان الدين المغربي ٨٩٦ هـ

هو أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عطية ، المغربي الأصل اللقاني القاهري الأزهرى المملوكي . ولد عام ٨١٧ هـ ، بالقهوقية من أعمال (٨٢ - ممالك)

لقانة ، ووفد إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوما عدة ، وحفظ كتباً فيها جمّة ، وأخذ عن كثير من الأئمة ، ودرس الفقه وسمع الحديث ولقن العربية . وما زال حتى نضج ، فتعرض للفتوى والتدريس بعدة مدارس منها : المؤيدية والقمحية ومدرسة أم السلطان . وصار مهيباً لدى الناس والعلماء .

ثم استدعاه الأشرف قايتباي يوم الاثنين ٦ صفر عام ٨٧٧ هـ لتولى قضاء المالكية ، بعد عزل سراج الدين بن حريز فباشره بمهارة وكفاءة . وله فيه مواقف رائعة . ثم جفاه السلطان قايتباي سنة ٨٨٦ هـ ، فعزله ، وقام مكانه محي الدين بن تقي . فتألم الناس لعزله .

من ذلك الحين لزم منزله متردداً على الجماعات وعلى الأزهر ، يفتى أحياناً ، ويقرى أحياناً أخرى ، حتى مات في ٩ من المحرم عام ٨٩٦ هـ ، وشيع بجنازة حافلة شهدها السلطان ، ودفن بتربة سعيد السعداء .
« الضواء الامع ج ٢ ص ١٦١ »

٤٠ — بدر الدين السعدى ٩٠٢ هـ

هو محمد بن محمد بن أبي بكر بن خلف بن إبراهيم السعدى . كان حنبلي المذهب وقد تولى قضاء الحنابلة في مصر وهو في عنفوان شبابه ، فلبث زمناً طويلاً . وأول عهده به كان في زمن الأشرف قايتباي عام ٨٧٦ هـ بعد وفاة القاضى عز الدين أحمد الحنبلى . فقد أرسل السلطان إلى قاضى الحنابلة بدمشق ابن مفلح ليلى هذا المنصب في مصر فاعتذر إليه بمرضه ، فعين بدر الدين السعدى . وكان بين الحنابلة حينئذ من يعتبر أفضل منه ، فعد بعضهم هذا المنصب كبيراً عليه . ومع ذلك فقد ازدان به منصبه ، وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وعاد من لدنه في موكب عظيم . وفي ربيع الثانى عام ٨٨٥ هـ غضب عليه السلطان كما غضب على القاضى ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، وذلك بسبب تركه ووقف . فعزله وأمر بنفيه إلى قوص . فشفع فيه الأتابكى أزبك بن ططخ ، فعاد إلى منصبه بعد قليل في نفس شهر عزله وهو

ربيع الثاني . وهذه هي المرة الوحيدة التي عزل فيها عن القضاء إذ ظل فيه منذ ذلك الحين ، حتى قبض في ذى القعدة عام ٥٩٠٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٢ ، ٢٩١ ، ٣٢٢ »

٤١ - ناصر الدين محمد الإخميمي ٥٩٠٢ هـ

هو محمد بن أحمد بن الأنصارى الإخميمي القاهري الحنفي . كان عالما فاضلا ، له دراية بالقراءات . وكان أبي النفس . وتولى قضاء الحنفية بمصر في عصر الأشرف قايتباي قبيل عام ٥٩٠١ هـ . ولبث في منصبه زمنا حتى توفي في ذى الحجة سنة ٥٩٠٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩١ ، ٣٢٦ » .

٤٢ - عبد الغنى بن تقي ٥٩٠٧ هـ

هو عبد الغنى بن أحمد بن محمد بن علي بن تقي ، الدميرى المالكي ، وأخو القاضي محي الدين عبد القادر بن تقي المار ذكره . كان مالكي المذهب كأخيه . وقد تولى منصب قضاء المالكية بعد وفاته . وكانت ولايته في ربيع الأول عام ٥٨٩٦ هـ .

وحدث في ذى الحجة عام ٥٩٠٢ هـ ، أن اشتط السلطان الناصر محمد بن قايتباي في جمع المال من الناس ، وفرض على القضاة والمباشرين أموالا . يجبرونها له ، لكي ينفقها على الجنود . وكان من بينهم القاضي عبد الغنى ، فما كان منه إلا أن اختفى في بيته ، ليبعد عن هذه المحنة ، ولا يشترك فيها .

وظل في منصبه حتى شهد عصر جان بلاط والعاذل طومان باي وأوائل حكم الغورى . ثم توفي في أواخر ربيع الأول عام ٥٩٠٧ هـ . وكان عالما فاضلا ومن أسرة خدمت البلاد بعلمها وفقها .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٢٩١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٨٧ - و ج ٥ حوادث ربيع الأول عام ٥٩٠٧ هـ . »

٤٣ - شهاب الدين أحمد بن فرفور ٩١١ هـ

كان عالما غزير المادة كفتا . عين في قضاء الشافعية بدمشق زمنا . ثم عزل في

رجب عام ٨٨٩هـ ، وتولى بعده شمس الدين بن المزلق الدمشقي (١) . ولكنه عاد إلى منصبه بعد عزل ابن المزلق عام ٨٩٩هـ في جمادى الأولى . وأضيف إليه نظر الجيش ، مع القضاء .

وشهد عصر قايتباي ، ومن بعده ، حتى كان عصر الغوري ، وعزل قاضي قضاة الشافعية حينذاك - في ربيع الأول سنة ٩١٠هـ - وهو برهان الدين بن أبي شريف ، فاستدعى شهاب الدين بن فرفور هذا ، ليلي المنصب مكانه ، فوق منصبه في قضاء دمشق ، فجمع له بذلك بين قضائي دمشق والقاهرة . وقد لبث في قضاء مصر حتى توفي في يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١١هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ - و ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة » .

٤٤ - برهان الدين الدميري ٩١٣هـ

هو برهان الدين بن الدميري قاضي قضاة المالكية بمصر . كان عالماً فاضلاً ديناً خيراً لين الجانب كثير التواضع انتهت إليه رئاسة المالكية في عصره ، عينه السلطان الغوري في القضاء في جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ . وقيل في ربيع الثاني ، بعد وفاة قاضي المالكية عبد الغني بن تقي . فلبث في منصبه ذاك حوالي ست سنوات ونصف ، ثم توفي في الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٩١٣هـ .

وقيل في سبب وفاته إن السلطان الغوري كان قد أمر بأن يخاطب به قاض من القضاة الأربعة في كل جمعة . فلما كانت جمعة ابن الدميري هم أن يخاطب فأرتج عليه فنزل فمرض ، وزاد مرضه حتى مات في نحو الثمانين من عمره . فلما شيعت جنازته هم السلطان الغوري بأن يصلي عليها مع المصلين ولكن الجنازة كانت قد بدىء في تشييعها فلم يلحقها ، فانجحه إلى المقابر جهة الإمام الشافعي لاستقبالها .

(١) هو شمس الدين بن محمد بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقي ، كان قاضي قضاة الشافعية بدمشق في عهد قايتباي منذ رجب عام ٨٨٩هـ عوضاً عن ابن فرفور ثم عزل في جمادى الأولى عام ٨٩٠هـ . وقد وجد مذبوحاً في داره في شعبان عام ٩٠٢هـ . وذكره ابن إياس ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ . ٣٢٠ .

وقد كان الدميرى عليهما بأحكام مذهبه متمكنا فيه . واشتهر بحسن الخط . وله ابن جليل وهو محي الدين ، وتولى قضاء المالكية بعد وفاة أبيه وهو الآتى بعد . « ابن إياس ج ٤ في حوادث الشهور المذكورة ، و ج ٣ ص ٦٣ » .

٤٥ - بدر الدين محمد المسكينى ٩١٦ هـ

هو قاضى القضاة بدر الدين محمد بن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المسكينى . عينه السلطان الغورى قاضيا بمصر للشافعية بعد عزل كمال الدين الطويل فى ذى الحجة سنة ٩١٥ هـ ، فأصبح جامعا بين القضاء ومشيخة الخشائية والشريفية . ويقال إنه سعى لهذا المنصب بنحو ثلاثة آلاف دينار . فظل بمنصبه هذا حتى عزل فى ربيع الأول عام ٩١٦ هـ . ولم يمكث به سوى شهرين وأربعة عشر يوما . خلفه فيه ابن النقيب السابق الذكر .

لم يمض على عزل المسكينى شهران واثنا عشر يوما حتى قبض فى يوم الأحد ١٢ جمادى الأولى عام ٩١٦ هـ وله من العمر نحو ستين عاما . « ابن إياس ج ٤ فى التواريخ المذكورة هنا »

٤٦ - شهاب الدين أحمد الشيشينى ٩١٩ هـ

أحد أفضاذا المذهب الحنبلى . انتهى إليه قضاؤه بمكة المكرمة ، ولما توفى قاضى قضاة الخنايلة بمصر عام ٩٠٢ هـ ، فى عصر السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عين مكانه ، فوفد من مكة إلى مصر فى ربيع الثانى سنة ٩٠٣ هـ . وتسلم مهام منصبه ، ولما أراد السلطان أن يجبى من القضاة والمباشرين مالا ، كان الشيشينى أسبق إلى الاختفاء فى داره ، فرارا من هذه المحنة ، كما صنع القاضى المالكي عبد الغنى بن تقى . ومع ذلك لبث فى منصبه حتى شهد عصر الملك الظاهر قانصوه ، فعزله من القضاء فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . وولى القاضى ابن قدامة . ولكنه ما عثم أن عاد إلى منصبه بعد شهر وأربعة أيام . وعزل منه ابن قدامة . ولبث فيه بعد ذلك زمنا طويلا ، حتى شهد عصر العادل طومان باى ، وجزءا كبيرا من عهد الأشرف

الغورى . ثم توفي فى صفر عام ٩١٩ هـ ، بعد أن نيف على السبعين . وكان سبب وفاته إصابته بطاعون انتشر فى البلاد ذلك الحين . وكانت ولادته عام ٨٤٤ هـ . وله ابن هو عز الدين الحنبلى الشيشينى ، سندشير إليه فيما بعد .
د ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٨٧ - ج ٤ حوادث صفر عام ٩١٩ هـ

٤٧ - سرى الدين محمد بن الشحنة ٩٢١ هـ

هو عبد البر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، وهو سرى الدين أبو البركات بن محب الدين أبى الفضل ، ابن محب الدين أبى الوليد الحلبي القاهري الحنفي . ولد بحلب فى ٩ من ذى القعدة عام ٨٥١ هـ . وانتقل مع أبيه إلى القاهرة ، وحفظ كتباً علمية عدة . والتقى بكثير من المشايخ والأئمة ، فانتفع بعلمهم . ومنهم أبوه ، قاضى القضاة محب الدين ، والأمين الأفاضل ، والتقى الشمنى ، والزين قاسم بن قطلوبغا .

وقد عرف سرى الدين بالذكاء والفطنة ، حتى بذأقرانه ، وفخر به أبوه . ونبه شأنه فى الفقه والحديث والأصول وغيرهما ، كما مهر فى الأدب ، فكتب وخطب ونظم الشعر متوسط الجودة . وأذن له أبوه فى الفتوى والتدريس . وأنابه عنه فى القضاء ، فكان أمره بيده . وولى وظائف عدة ، منها الخطابة بجامع الحاكم ، وتدرىس الحديث بالحسينية ، والتفسير بالجمالية ، وغير ذلك .

وبتهمه السخاوى - معاصره - فى كتابه الضوء اللامع ، بتهم عدة خطيرة لعله مبالغ فيها ، ومنها أنه « ليس بثقة فيما ينقله ، ولا بعمدة فيما يقوله ، بل هو فى غاية فى الجرأة والتقول » . ومنها « أنه كثير الوقعة فى الأكابر ، لا يتأدب مع مشايخ وقته » ، ومنها « أنه لما ناب فى القضاء عن والده استبد بالتعاين والاستبدالات ، فكثرت القالة فيه بسببها » . وغير ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فقد لبث منصب قضاء الحنفية بمصر ، يتناوبه عدة قضاة منذ وفاة قاضيهما محب الدين بن الشحنة ، حتى آل أمره أخيراً إلى ابنه سرى الدين . وقد نشأ سرى الدين في أسرة وفي بيئة مليئة بالعلم والأدب فتحلى بما تحلت به من ضروب البكال . فهو ما شئت أدبا وعلميا وفقها وذكاء ودهاء وحسن حيلة . وقد تولى مشيخة المدرسة الأشرفية عام ٩٠٣ هـ ثم عزل منها ولبث زمنا حتى ملأ منصب قضاء الحنفية بمصر في عهد العادل طومان باي سنة ٩٠٦ هـ لأول مرة . وذلك بعد عزل برهان الدين بن السكركي عنه ، ولكنه لم يمكث به إلا أياما ، ثم عزل وأعيد ابن السكركي . وقد قيل إن ابن السكركي دفع في سبيل العودة إلى منصبه مالا . ولكن القاضي عبد البر عاد إلى المنصب بعد زمن ، وظل به حتى شهد عصر الغوري وأصبح أحد أصفياه المقيمين ، فقد كان يكون معه في الأسفار ، وقد يأوى السلطان إلى داره للمبيت ، وصار متصرفا في شئون كثيرة من شئون المملكة ، وكان كثير الموافقة للسلطان في اقتراحاته ، حتى قيل إن الغوري لما أراد أن يأخذ من مال الأوقاف ليشبعهم جنوده أو يدفع رواتبهم المتأخرة ، عارضه القضاة الثلاثة ووافق القاضي عبد البر بمفرده . إلا أن الأيام حبت إليها أن تعبت بعض العبت بصداقتهما ، فنعى إلى السلطان أن قاضيه عبد البر يكاتب يحيى بن سبع أمير ينبع - وكان نائرا على السلطان - ويحذره من القبض عليه . وكانت مكاتبتها سببا في انضمام هذا الأمير إلى الجازاني ابن أمير مكة النائر أيضاً فنهباهما ورجالهما المحمل في عام ٩٠٨ هـ . فما كان من السلطان إلا أن قبض على سرى الدين وأمر بنفيه إلى قوص ، وكاد يرحل إليها لولا شفاعته الأمير قيت الرجي فيه ، فرضى عنه السلطان ، وأعادته إلى منصبه موفور الكرامة ، ووقعت بينه وبين القاضي ابن النقيب الشافعي مشاحنة ومشادة بسبب خزانة كتب اختلف فيها رأياهما . وابتلى أيضاً في شهر المحرم عام ٩١٣ هـ بالشاعر جمال الدين السلوموني . وذلك أن الشاعر المذكور هجاء معين الدين بن شمس ، وكيل بيت المال هجاء شعرياً مرأ مقذعاً . فادعى معين الدين ، أن السلطان الغوري ترك له أمر السلوموني ليعاقبه

بما يقتضيه الشرع ، ولذلك شكاه إلى قاضى الحنفية سرى الدين عبد البر . فما كان من القاضى إلا أن ضرب الشاعر ، وعززه وأشهره فى القاهرة عارى الرأس . فنقم منه الشاعر وكال له بدل الكيل كيلين ، وهجاء بقصيدة طويلة مريرة نسب إليه فيها كل موبقة ومنها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضائها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شبهاتها
أجاز أموراً لا تحل بملة بحل وبرم مظهرأ منكراتها

وقد أوردنا هذه القصيدة فى ترجمة الشاعر المذكور فى الجزء الرابع . وقد شاع أمرها بين الناس ومألاً أسماعهم وأصاب من لدنهم موضع قبول ! فشكاه القاضى عبد البر إلى السلطان ، فأرسل فى طلبه ثم وبخه ودفعه بين يدى القاضى يأمر فيه بما يأمر الشرع فى القاذفين الهجائين ، وتعصب للقاضى جميع قضاة الشرع ، وأرادوا ضرب هذا الشاعر وإشهاره فى المدينة إشهار المذنبين المعززين ، ولكن الشاعر كان ذا منزلة مرموقة لدى العوام وبعض الخواص ، فأغرم ذلك بالقاضى عبد البر وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف فكف عن إلحاق الأذى بالشاعر ! وما يذكر أيضاً أنه وقعت مشاحنة بين القاضى عبد البر وبين كاتب السر محمود ابن أجا الحلبي خاصة بوقف فى مدينة حلب لسكرل منهما فيه نصيب . فأمر السلطان بعقد مجلس للفصل بينهما . ويظهر أن ابن أجا كان ألحن بحجته من القاضى فنصفه السلطان .

ثم إن السلطان الغورى أسند إلى القاضى عبد البر مشيخة المدرسة الصرغتمشية فى جمادى الأولى سنة ٩١٤ هـ ، وأدخل ابنه حسام الدين محمودا فى عداد موظفى الدولة ، فأخذ نجمه فى الصعود . وما زال يصعد حتى بلغ به منصب القضاء كما سنذكر بعد .

وقد وقعت فى سنة ٩١٩ هـ وفى شهر شوال منها حادثة زنا مروعة إتهم فيها

أحد نواب الحكم . وقد أشرنا إليها عند الكلام عن حالة القضاء . رأى السلطان فيها أن يقتل الزاني والزانية ، ورأى القضاة وفقهاء العصر أن الزاني له حق الرجوع عن اعترافه ، حينئذ لا يجد . وكان الزاني قد اعترف كتابة بجنايته . وكان القاضي عبد البر فيمن أفنى بالرجوع ، فغضب السلطان وعزل قضائه الأربعة ومنهم عبد البر ، بسبب هذه الحادثة . فكان هذا آخر عهد قاضينا بالقضاء . وظل معزولا حتى توفي في يوم السبت ٢٨ رجب عام ٩٢١ هـ ، وله من العمر ٧٥ عاما . وقيل إنه شارح منظومة ابن وهبان . وهو صاحب الذخائر الأشرفية في الألباز الحنفية .

ابن إياس ج ٢ ص ١٥٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ — ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة في الترجمة من عام ٩٠٨ هـ — التعليقات السنية للسكوى ص ١١٣ — الضوء اللامع ج ٤ رقم ١٠٢

٤٨ — محي الدين عبد القادر بن النقيب ٩٢٢ هـ

هو محي الدين عبد القادر بن علي بن مصلح الشافعي ، كان من أهل العلم والفضل ونسب في مذهب الشافعي . وأول ولايته القضاء بمصر كان في عهد الأشرف جان بلاط في ٢٠ صفر سنة ٩٠٦ هـ ، حينما اعتزل هذا المنصب قاضيه الأكبر الشيخ زكريا الأنصاري . وقبل حينئذ إنه كان بين الشافعية أنبغ من ابن النقيب ، وأحق بالمنصب منه .

وفي عهد جان بلاط ثار الأمير طومان باي - الذي ملك البلاد فيها بعد وتسمى بالعدل - وتحصن في بلاد الشام وأخذ في الزحف منها على الديار المصرية هو ومن التف حوله . هنا اضطرب أمر السلطان جان بلاط ، وجمع أمراءه ليقسموا له على المصحف يمين الطاعة وعدم الخيانة . وقيل إن القاضي ابن النقيب هو الذي كتب لهم صيغة القسم ، وهو قسم غليظ مؤكدا بالله وبالمصحف وبالحج والعتق والطلاق . فكان هذا القسم سببا في محنته في المستقبل . فقد تم الأمر للأمير طومان باي وقبض على الأشرف جان بلاط . وما عم أن قبض على ابن النقيب ودفع به بين

يدى جنود غلاظ شداد ، وسبق إلى السجن على أقدامه ماشيا . وفرض عليه غرم يدفعه ، فلبث في سجنه حتى دفع ما فرض عليه ، وعزل من القضاء وعاد إليه بعده الشيخ زكريا الأنصارى . ولم يمكث ابن النقيب في القضاء هذه المرة إلا أقل من أربعة أشهر .

لم يستطع الشيخ زكريا الأنصارى أن يستمر طويلا في منصبه فاعتزله . وكان عهد طومان باى قد انتهى ، وبدأ عهد الأشرف الغورى . فعاد حينئذ ابن النقيب إلى منصب قضاء الشافعية وذلك في ٨ من ذى الحجة سنة ٩٠٦ هـ . غير أنه لم يتمتع به سوى ثلاثة عشر يوما ، وبرت به نفس السلطان فعزله في ٢٣ من الشهر المذكور . ولم يكتف بذلك ، بل أمر بنفيه إلى قوص ، فتسلمه نقيب الجيش وأركبه حمارا ، وتوجه به إلى النيل ليركبه إلى منفاه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأعفى عنه من النفي وفرض عليه غرم مالى فاداه .

ظل ابن النقيب زمنا طويلا معزولا ، حتى تقلبت الأيام وطابت له نفس السلطان ، فدلف إلى منصبه للمرة الثالثة في ذى القعدة عام ٩١١ هـ . عقب عزل القاضى برهان الدين القلقشندى ، فلبث فيه هذه المرة أقل من عام ، ثم عزل في ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ . ولبت في معزله هذه المرة نحو أربع سنوات . ثم أعيد إلى المنصب في ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ ، بعد عزل القاضى المكينى ، فلم يلبث به هذه المرة أيضا إلا زمنا قليلا ثم عزل ، وفرضت عليه غرامة مالية كبيرة وسجن حتى دفعها . ثم ظل بعيدا عن القضاء نحو عامين ، فلما عزل القاضى الطويل عين مكانه ابن النقيب في ٦ رجب سنة ٩١٨ هـ ، فمكث في منصبه نحو من أربعة أشهر ، ثم عزل في ذى القعدة من نفس السنة ، ثم مالبث أن عاد إليه مرة أخرى في جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ . وما عثم أن عزل في ٢٧ رجب من نفس العام أى بعد خمسين يوما . فظل معزولا آويا إلى خلوته في المدرسة المنصورية ، حتى توفى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ . وقيل في سبب وفاته إنه ركله فرس فكبّه على الأرض فأصيب بانكسار نخذه ، وحمل إثر ذلك إلى خلوته فلبث أياما ثم مات .

ويقول ابن إياس ماملخصه : إن هذا القاضى تولى قضاء الشافعية ست مرات ، ومع ذلك فمجوع أيامه فيه خلال هذه المرات الست يقرب من عامين ، وكان فى كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب على الرغم من وجود قاض يشغله ، فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه وبلغ مجموع مادفعه نحواً من ثلاثين ألف دينار . وكان سعيه سلباً فى إخراج كل من القضاة الأنصارى والطويل والقلقشندى والمكيني وغيرهم من مناصبهم ليحل هو محلهم ، ومع ذلك فقد كان أغلب أمره أن يعزل أو يسجن ويؤخذ منه غرم مالى كبير .

ويفهم من ذلك أن الرجل كان بئس الحظ ، كما يفهم أنه لم يكن عادلاً فى أحكامه وسيرته دائماً ، أو أنه على الأقل كان قريب العثور سريع الزلل ، وكان محبا لجمع المال ، لذلك كان ما يدخره من وراء وظيفته فى اليوم الواحد نحواً من دينارين أشرفيين . والأشرفى أجود أنواع الدنانير إذ ذاك .

وقيل فوق ذلك إنه كان شحيح النفس يعرف الناس عنه بخله . ولعل هذا من أهم ما شوه سيرته .

• ابن إياس ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ - ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ج ٣ ص ١٧ ، ٦٣ .

٤٩ - برهان الدين الكركى (١) ٩٢٢ هـ

هو إبراهيم بن زين الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الكركى الحنفى ، ولد بالقاهرة عام ٣٨٥ هـ ، وأخذ العلم عن أفاضل علماء الأحناف فى زمانه ، مثل الشيخ محى الدين الكافيجى .

ولما عرف فضله وذاع صيته ، استخدمه الأشرف قايتباى إماماً له : وبلغ

(١) ذكر أبو الفداء فى المختصر (ج ٤ حوادث سنة ٧٢٩ هـ) قال الكرك : بكافين الأولى مفتوحة وبنيهما راء مهملتا ساكنة ، قلعة قريب البحر فى أطراف بلد سويس من جهة الغرب والسمال وهى تناخم بلاد ابن قزمان ، وضبطها غيره بفتح الراء .

في كنفه من العز والجاه ما يغبط عليه ، وكان يتردد على مدارس العلم ، فيلقى بها الدروس الشافية واستخدم حيناً في استيفاء الصحبة ، وأسندت إليه مرة مشيخة المدرسة الأشرفية .

ولما كان عصر الناصر محمد بن قايטباى توفى قاضى الحنفية بمصر ناصر الدين الاخمىى في أخريات عام ٩٠٢ هـ ، فاتجهت عناية السلطان إلى برهان الدين الكركى فعينه في قضاء الحنفية مكان القاضى المتوفى . وكان تعيينه في مستهل عام ٩٠٣ هـ ، وصرف عن المدرسة الأشرفية ، فأسندت مشيختها إلى سرى الدين بن الشحنة ، واسكنها لم تمكث في يديه سوى ثلاثة أشهر ، ثم أعيدت إلى الكركى ، مع بقاءه في القضاء .

لبث برهان الدين الكركى في منصبه القضائى زمناً طويلاً ، حتى شهد عصر السلطان الظاهر قانصوه ، ثم الأشرف جان بلاط ، ثم العادل طومان باى . فلما بدأ عهد العادل المذكور عزل ابن الكركى من القضاء عام ٩٠٦ هـ وخلفه فيه سرى الدين بن الشحنة ، وهذه أول مرة بلى فيها القضاء ، فلم يلبث إلا أياماً ثم عزل وعاد ابن الكركى إليه ، وقيل إنه سعى للعودة بمال .

ثم إنه بعد ذلك حسن اتصاله بالملك العادل طومان باى حتى إن العادل حينما خلع وزال ملكه فاختنى فأخذ في البحث عنه عام ٩٠٦ هـ ، قيل إنه اختفى في منزل القاضى برهان الدين بن الكركى ، ولهذا قبض عليه في أوائل ذى القعدة من العام المذكور ، وسجن يوماً وليلة وقتل منزله ، وسطاً عليه أثناء ذلك عدد من الجند فنهبوه وعذبوا بمال للأوقاف محفوظ عنده . ثم إنه عزل فظل معزولاً حتى مات في يوم الثلاثاء ٥ شعبان سنة ٩٢٢ هـ ، في أخريات عهد الغورى . وقيل في سبب موته إنه نزل إلى النيل ليتوضأ ، وكان النيل في إبان زيادته فزالت رجله جرفه التيار فغرق ومات . وكان باش الوجه رقيق الحاشية مرموق الحديث ، ومات في خلال العقد الثامن من عمره .

وابن إياس ج ٢ ص ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٢٤٤ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ - وج ٤ حوادث شوال وذى القعدة سنة ٩٠٦ هـ - وج ٣ ص ٤٤ ، ٦٣ - الضوء اللامع ج ١ ص ٢٥٩ .

٥٠ - عز الدين الشيشيني

هو عز الدين بن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد الشيشيني الحنبلى ، سلك فى منصب القضاة بمصر بعد وفاة أبيه الذى كان يشغل نفس المنصب ، وذلك فى ربيع الأول عام ٩١٩ هـ ، وكان إذاك شابا حسن السيرة .

لم يلبث فى منصبه سوى أشهر ، ثم عزل فى شوال عام ٩١٩ هـ ، مع القضاة الثلاثة عندما اختلفوا مع السلطان الغورى فى حادثة زنا أشرنا إليها .

ظل معزولا عن القضاء حتى أسر قاضى قضاة الحنابلة عند العثمانيين بعد موقعة مرج دابق ، وهو القاضى الشهاب الفتوحى . فأعاد السلطان الأشرف طومانباى القاضى عن الدين إلى قضاء الحنابلة بمصر ثانية فى ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ .

علاء الدين الإخميمى

هو القاضى علاء الدين بن جلال الدين الإخميمى الشهير بالنقيب الشافعى . عكف على إجادة المذهب الشافعى فنبح فيه وأصبح أحد أعلامه ، واشتغل فى فجر حياته العملية بالخطابة فى المساجد فكان مشارا إليه فيها . وكان إلى نبوغه فيما مر ، مشهورا بعلوم وفنون شتى حتى إنه كان عليما باللغة التركية وقدير اعل رى النشاب ، ولهذا كان ذا منزلة ممتازة عند الأتراك ، واشتغل بالخطابة فى مسجد عبد القادر الدشوطى ، وتردد على مجالس التدريس فشارك فيها ، وناب فى الحكم عن القاضى الشافعى ، ولما عزل الشيخ كمال الدين الطويل قاضى قضاة الشافعية عام ٩١٩ هـ ، استدعى الشيخ علاء الدين ليخطب بالسلطان ويؤمه يوم الجمعة بدل كمال الدين فأحسن وأجاد وأبدع وأفاد ، فعهد إليه بعد نحو يوم بالاضطلاع بمنصب قضاء الشافعية بمصر دون أن يسعى إلى ذلك بمال لا يضطرار السلطان إليه . فظل فى دسته نحو سبعة أشهر لم يترك خلالها دروسه النافعة بالمدرسة الصالحية النجمية . ثم عزل فى ٦ جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ وتولى من بعده ابنه النقيب محيى الدين .

وكان علاء الدين كفوئا فى منصبه لم يشهد عليه دنس أو جور أو فظاظة فكان مثال القاضى النزية العادل . ولم يل القضاء بعد ذلك .

« ابن إياس ج ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٩ هـ وجمادى الآخرة سنة ٩٢١ هـ .

٥٢ - جمال الدين القلقشندي

هو جمال الدين إبراهيم بن علاء الدين القلقشندي . كان شافعي المذهب عينه السلطان الغوري قاضيا لقضاء الشافعية بمصر بعد وفاة القاضي ابن فرفور . وذلك في جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ . ثم صرف بعد ستة أشهر ، وقيل إنه سعى إلى ذلك بثلاثة آلاف دينار ، فما زال ابن النقيب ساعيا بخمسة آلاف دينار إلى السلطان ، وألفين لمن توسط له من الأمراء ، حتى عزل القلقشندي ، واستقر مكانه ، غير أنه سرعان ما عزل وعاد القلقشندي إلى القضاء في ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ ، فظل أقل من عامين ، ثم عزل في أواخر صفر سنة ٩١٤ هـ ، وعين مكانه الشيخ كمال الدين المعروف بإقادري . وقد توفي القلقشندي في عهد الغوري .

« ابن إياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٦٣ »

٥٣ - برهان الدين بن أبي شريف ٩٢٣ هـ .

هو برهان الدين إبراهيم بن أبي شريف المقدسي الشافعي . عينه السلطان الغوري في قضاء الشافعية بمصر يوم الخميس ٢٢ من ذى الحجة سنة ٩٠٧ هـ ، بعد عزل ابن النقيب . وكان كفئا لمنصبه . ويوم أن خلع السلطان عليه خلعته القضاء ، كان له في القاهرة يوم حافل . وقد صرف عن هذا المنصب في ربيع الأول عام ٩١٠ هـ ؛ ثم عينه السلطان الغوري شيخا لجامعة فظل به زمنا ، وقد ألحق الغوري به أهوايا وشذائد كثيرة ، مرض بسببها فمات ، وكانت وفاته في أوائل عام ٩٢٣ هـ ، بعد ذهاب دولة الغوري .

« ابن إياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة - وج ٣ ص ١٠ »

٥٤ - حسام الدين بن الشحنة ٩٢٣ هـ

هو محمود بن قاضي القضاء سري الدين عبد البر بن محب الدين بن الشحنة . نشأ من أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والفضل ، واتبع مذهب أبيه وهو مذهب

أبى حنيفة ، ولما ذاع فضله وكل إليه منصب قضاء الحنفية بمصر ، وهو لا يزال شابا لما يبلغ مبلغ علماء الأحناف في ذلك الزمان . وكان ذلك في رمضان عام ٩٢١ هـ . وقيل إنه سعى إلى هذا المنصب بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فظل في منصبه ذلك حتى عام ٩٢٢ هـ ، فخرج في جملة القضاة مع السلطان الغورى لقتال العثمانيين ، فكانت عاقبة أمره الهزيمة معهم في حلب : ولكنه دون سائر القضاة ، استطاع أن يفر بعد أن نهب ماله وثيابه ودخل بلاد الشام وهو بائس تعس ، فلما وصل إلى مصر وصلها مكدودا مجهودا ، فأعاده السلطان طومان باى إلى منصبه . ولما بدأت أقدام العثمانيين تثبت في الديار المصرية أرسله السلطان سليم في جملة القضاة والموفدين لمصالحة طومان باى بالصعيد بالهنسا ، فأخفق معهم في المسعى ، واستطاع غيره من القضاة الرجوع إلى القاهرة . أما هو فقد كان معه أخوه أبو بكر بن الشحنة ، وكانت بين أبى بكر وبين بعض الجراكسة الملتفين حول طومان باى ترة قديمة ، فاعتدوا في الطريق عليه فتصدى أخوه حسام الدين اللزد عنده ، فكانت عاقبتهم القتل معا ، وذلك في ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

« ابن اباس ج ٤ حوادث رمضان سنة ٩٢١ هـ - وج ٣ في حوادث التواريخ المذكورة أيضا » .

٥٥ - جلال الدين بن قاسم ٩٢٥ هـ

هو الفاضل جلال الدين عبد الرحمن بن زين الدين قاسم المالكي ، لما انفصل الفاضل محي الدين بن الدميرى من القضاء في شوال عام ٩١٩ هـ ، تولى بعده قاضينا جلال الدين بغير سعى . فظل نحو عامين ، ثم انفصل في رمضان سنة ٩٢١ هـ ، وظل مفصولا إلى أن توفي في أواخر ذى الحجة عام ٩٢٤ هـ ، بعد الاحتلال العثماني .

« ابن اباس ج ٤ ، ٥ حوادث الشهور المذكورة » .

٥٦ - زين الدين زكريا الأنصارى ٩٢٦ هـ

هو شيخ الإسلام المفقى الكبير والعالم القدير الجليل القدر السائر الذكر ،

زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن الأنصارى ، ذاع صيته في مصر حتى صار في مقدمة رجال الشافعية وهو في مبكر حياته .

وكان مولده في عام ٨٢٤ هـ ، وقيل عام ٨٢٦ هـ . فعاش نحواً من مائة عام ، قضاها في ميدان الجهاد العلمى ما بين منصب القضاء الأكبر والتدريس والإفتاء والتأليف . حتى توفي في ٣ ذى الحجة عام ٩٢٦ هـ ، فشيّع تشييعاً حافلاً ، ودفن تجاه مقبرة الشافعى .

وقد عين مدرساً بالمدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعى عوضاً عن الشيخ تقى الدين الحصنى المتوفى ؛ وذلك في ربيع الأول عام ٨٨١ هـ . وولى منصب القضاء بعد تمتع وزهادة في رجب عام ٨٨٦ هـ ، بعد عزل قاضى قضاة الشافعية ولى الدين الأسيوطى . وقد اشترط لولايته شروطاً كثيرة قبل السلطان بعضها منها . وقد زاول منصبه بعلم ودراية وعفة ونزاهة ، وزهد وتقوى ، وشدة في الحق وذود عنه وصراحة فيه .

وقد لبث في منصب القضاء مدة طويلة ، لعلها أطول مدة قضاها قاض في منصبه في ذلك العصر ، وهى عشرون عاماً تقريباً حتى صفر عام ٩٠٦ هـ ، إذ مرض وضعف عن حمل أعبائه وعشى بصره ففصل من القضاء . فوليه بعده محيى الدين ابن النقيب ، فقبض عليه بعد قليل ، واستعيد الشيخ زكريا إلى القضاء رغم امتناعه ومرضه . إلا أنه زال به في الخميس ٨ ذى الحجة عام ٩٠٦ هـ ، ولم يعد إليه بعد ذلك .

وقد طالت حياته - كما ذكرنا - وشهد عصور سلاطين عدة وعاش حتى شهد عصر الغورى كله ودخول العثمانيين مصر . فرأى من الحوادث الكثر ما يندر أن يراه غيره . وقد وقعت في عام ٨٧٥ هـ فتنة بين العلماء بشأن الشيخ عمر بن الفارض ، وانقسموا بين مفسقين له ، وغير مفسقين . وقد أخذ رأى الشيخ زكريا فيه ، فبرأه مما نسب إليه واتهم الناس بالقصور عن إدراك مرامى هذا الشيخ ، فسكنت الفتنة .

هذا : وسنترجم له بتفصيل في الجزء الثاني من كتابنا هذا .

• الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ • .

شمس الدين السمديسي

هو القاضي شمس الدين محمد بن النقيب السمديسي . أسند إليه منصب قضاء الحنفية في عهد الغوري في ذى القعدة عام ٩١٩ هـ بعد عزل ابن الشحنة عبد البر ، ولم يسع إلى المنصب بمال ، بل اضطر الغوري إلى تعيينه هو وزملائه إذ ذاك ، بعد أن عزل قضائه الأربعة . وكان من قبل إماما للسلطان في مدرسته ، كما كان مؤدبا لولده . وظل في منصبه حتى عزل في رمضان ٩٢١ هـ وعاد ابن الشحنة إلى مكانه ، فعينه السلطان إماما له مرة ثانية ، ورحل معه في خروجه عام ٩٢٢ هـ إلى الشام وحلب لقتال العثمانيين ، فكان نصيبه الأسر فيمن أسر . وأرسل مسجوناً إلى القسطنطينية ، ثم عاد إلى مصر بناء على أمر السلطان سليم العثماني ، وكانت عودته في جمادى الآخرة ٩٢٧ هـ وفي صحبته عدد من الأسرى .

• ابن لباس ج ٤ وج ٣ حوادث الشهور المذكورة • .

٥٨ — محي الدين بن الدميري ٩٢٨ هـ

هو قاضي قضاة المالكية محي الدين بن محيى قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم الدميري . كان في حياة أبيه شابا حسن السيرة ، أخذ نفسه بالدرس والعلم والبحث ، ونشأ في بيئة علمية فنبغ في مذهب مالك ، نبوغا شهد له به أهل عصره .

وقد تولى منصب القضاء في ١٧ شوال سنة ٩١٣ هـ بعد أن توفي أبوه . فتلقاه المالكية بهدر رحب ونفس باشة ، فأنهت بذلك رياستهم ، وهو في عنفوان شبابه . وضم إليه السلطان الخطابة في جامع المبنى في ناحية الشرايشين في شهر المحرم عام ٩١٨ هـ ، عوضا عن شمس الدين الغزى المتوفى . وطلب إليه السلطان أولا أن يخطب مرة على مسمع منه يوم الجمعة ، فخطب فأجاد ، فأعجب به السلطان وضم إليه الوظيفة المذكورة .

وما زال مرعى الجانب يعيش فى كنف السلطان حتى شوال عام ٩١٩ هـ وفى هذا الشهر تعصب القاضى محيى الدين مع سائر القضاة والعلماء ضد السلطان فى مسألة الزنى التى أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع القضاة الآخرين . وظل معزولا حتى استعاده السلطان فى رمضان عام ٩٢١ هـ . بعد أن دفع ألفى دينار .

ظل القاضى محيى الدين بن الدميرى فى القضاء ، حتى خرج السلطان الغورى فى عام ٩٢٢ هـ بجيشه الكثيف نحو البلاد الشامية والحلبية لقتال السلطان سليم العثمانى ، ومعه الخليفة والقضاة الأربعة فكان من بينهم قاضينا محيى الدين . ثم تمت الهزيمة على الغورى فى مرج دابق ، وأسر كثير من رجاله ، كان من بينهم هذا القاضى . وقد أدخل على السلطان سليم فيمن أدخل من العلماء ، فوبخهم بكلام جارح لأنهم يسعون إلى القضاء بالمال ، ويقبلون الرشوة على الفتاوى والأحكام الشرعية . وسجن مع القاضى الشافعى والحنبلى فى مدينة حلب .

ولما دخل السلطان سليم مصر بجيشه كان القاضى فى ركبه مع الأسرى ، ولما اشتد النزاع بين السلطان سليم والسلطان طومان باى ، أرسل السلطان سليم إليه القاضى محيى الدين الدميرى ، وكال الدين الطويل وشهاب الدين الفتوحى لمفاوضته ومصالحته بالصعيد ، ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ، وعادوا من لدنه إلى القاهرة فى أوائل ربيع الثانى سنة ٩٢٣ هـ .

وقد عاش الدميرى بعد ذلك زمناً طويلاً . وحج عام ٩٢٣ هـ ، وظل متقلداً منصبه فى عهد العثمانيين ، وعلت مكانته لدى نائب السلطان الأمير خير بك . ولهذا حينما كان ختان ابنه فى أواخر المحرم سنة ٩٢٦ هـ ، نظم له موكب شائق سار فيه كثير من الوجهاء ، وأصبحت شفاعته لدى النائب غير مردودة ، ويصحبه فى ركبانه أحياناً .

ظل يقضى حتى أرسل السلطان سليم العثمانى من لدنه قاضياً سمي « قاضى العسكر » وأمر بإلغاء نظام القضاة الأربعة . وحل « قاضى العسكر » محل قضاة الشرع الأربعة فى منصب القضاء بالبلاد مستمداً أحكامه من مذهب أبى حنيفة . فانفصل القضاة

الأربعة ومن بينهم يحيى الدين الدميرى . فهو آخر قضاة المالكية بمصر . وكان ذلك فى جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ . وعاش يحيى الدين بعد فصله زمنا ولعله توفى عام ٩٢٨ هـ .

« ابن إياس ج ٤ حوادث النوارىخ المذكورة — وج ٣ ص ٧ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ . »

٥٩ - كمال الدين محمد بن الطويل ٩٢٨ هـ .

هو أبو الفضل محمد بن نور الدين على بن الناصرى محمد بن السيفى بهادر العمرى القادرى . وأصله تركى الجنس ، وقد تمذهب بمذهب الشافعى ، وبرع فيه حتى عد أحد أساطينه ، وأول ولايته لقضاء الشافعية بمصر فى أواخر صفر عام ٩١٤ هـ ، بعد أن صرف عنه جمال الدين القلقشندى ، وكان من قبل شيخاً للخانقاه البيهرسية ، فاجتمعت له مع القضاء قيل لم يجتمع هذا لشخص غيره إلا للعلامة شهاب الدين بن حجر ، والقاضى شمس الدين القاياتى .

وقد خطب أمام السلطان الغورى خطبة يوم الجمعة فى مستهل ربيع الأول من السنة نفسها ، فوفق فيها أكبر توفيق وأعجب بها السلطان والأمراء . وقد أخذت كفاءته لمنصبه تثبت على مر الأيام فيزداد مكانة وسمواً فى الجاه .

ظل فى منصب القضاء نحو عامين ثم عزل فى ذى الحجة عام ٩١٥ هـ ولكن الأمراء أظهروا رضاهم عنه ، فكان ذلك سبباً فى عودته إلى منصبه ، فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٩١٦ هـ ، وعزل ابن النقيب . وفى يوم توليته أم السلطان وخطب له فى الصلاة ، فلما نزل من داره إلى المصلى احتفل به الناس احتفالاً شائفاً ، وزينت له الدور والمحال ولقيه الناس بالتغنى والموسيقى ، حتى بلغ الخانقاه البيهرسية حيث أدت الصلاة . فخطب خطبة بليغة أشار فيها إلى عودته للقضاء ، وقرأ وهو فى المحراب الآية التى منها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، وقد سر منه السلطان وأظهر له رضاه بعد الصلاة ومنحه خلعة وضم إليه أعمالاً ومشىخات

كثيرة . ويقال إنه دفع في سبيل عودته إلى القضاء نحواً من خمسة آلاف دينار .
وقد ظل في منصبه مهيب الجانب موفور الكرامة رفيع المنزلة حتى عزل في
٦ رجب سنة ٩١٨ هـ . واستقر مكانه ابن النقيب . واسكن ابن الطويل ما لبث غير
قليل حتى عاد إلى القضاء في ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . وهذه ثالث ولايته . وقيل إنه
أدى في هذه الولايات الثلاث أكثر من عشرة آلاف دينار . وظل قرابة عام ثم
عزل في شوال سنة ٩١٩ هـ في حادث الخلاف الذي جرى بينه وبين السلطان خاصاً
بمسألة الزنى التي أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع بقية القضاة . وظل
مقصياً حتى رضى عنه السلطان بعد زمن ، وأعادته إلى القضاء في ٢٧ رجب عام
٩٢١ هـ بعد أن دفع ثلاثة آلاف دينار .

وقد خرج القاضى كمال الدين بن الطويل مع قضاة الشرع حينما خرجوا في حملة
الغورى سنة ٩٢٢ هـ في قتاله للسلطان سليم العثمانى . ولما بلغوا حلب خطب في
جامعها الكبير عدة مرات خطباً بليغة ، ثم أسر في جملة من أسر ، وأدخل مع
القاضى المالكي والحنبل على السلطان سليم ، فأسمعهم كلاماً قاسياً . وظل في الأسر
حتى دخل في ركاب هذا السلطان وهو يفتح مصر . ومر في ركب الخليفة هو وسائر
القضاة في وسط القاهرة في أواخر عام ٩٢٢ هـ ، ينادون الناس بالخضوع لسلطان
العثمانيين . ثم ذهب في وفد السلطان سليم أرسله إلى الصعيد لمصالحة السلطان
طومان باى . فمادوا في أوائل ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ ، ولم تفلح مفاوضاتهم .

ولما زالت دولة الجراكسة وتم ملك مصر للعثمانيين ، حمل ابنه زين العابدين
فيمن حملوا إلى القسطنطينية . أما هو فقد ظل في منصبه بضع سنين ، وهو موضع
التجلة والتعظيم والاستشارة . وظل على الكعب في الخطابة المنبرية يرسلها منوعة
حسب المناسبات . وما زال حتى ألغى نظام القضاة الأربعة في جمادى الآخرة
سنة ٩٢٨ هـ ، وحل محلهم قاضى العسكر ، فانفصل القاضى كمال الدين عن القضاء
بعد ما تردد عليه نحواً من أربعة عشر عاماً . ثم عاش بعد ذلك زمناً ، ولعله توفى
في ٩٢٨ هـ ، أو قريباً منه .

« ابن اياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ . »

٦٠ - شهاب الدين الفتوحى

هو شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار الحنبلى . لما انفصل قاضى الخنايلة بمصر الشيخ الشيشينى عام ٩١٩ هـ ، أرسل السلطان الغورى إلى الشيخ شهاب الدين . و وكل إليه منصب القضاء المذكور . فلبث فيه زمناً طويلاً . وكان فى جملة القضاة الأربعة الذين خرجوا فى حملة السلطان الغورى إلى البلاد الشامية والحلبية لمقاتلة العثمانيين . ثم كانت عاقبة أمره أن أسر فى جملة الأسارى ، فظل فى حلب مدة ووبخه السلطان سليم مع من وبخ من القضاة . ثم عاد إلى مصر كما عادوا مسوقين فى الركاب العثمانى . ولما تمت نصره العثمانيين الأولى على طومان باى ، سيق شهاب الدين هو والقضاة والخليفة ينادون الناس بالخضوع لهم ، ثم سار فى موكب السلطان سليم نفسه حينما اخترق شوارع القاهرة الرئيسية فى المحرم عام ٩٢٣ هـ . ثم أرسله السلطان سليم إلى الصعيد فى عداد الوفد المرسل إلى طومان باى لمصالحته فأخفقوا .

وبعد أن تم الفتح العثمانى ثبت القاضى شهاب الدين الفتوحى فى منصبه . غير أنه كان أقل نفوذاً من القاضى المالكي وهو برهان الدين الدهيرى ولذلك حينما قام بختان ولده فى ٢٣ شعبان سنة ٩٢٦ هـ ، كان الاحتفال به أقل بهاء من احتفال الدهيرى بختان ابنه .

وقد ظل الفتوحى فى منصبه حتى ألغى نظام القضاة الأربعة فى جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ ، فانفصل من القضاء وعاش بعد ذلك زمناً ، ولعله توفى قريباً من العام المذكور .

« ابن اياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٩ هـ - وف ٢ ج ٢ ص ٢ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ . »

٦١ - يحيى البردني

هو القاضي شرف الدين يحيى البردني الشافعي . كان له باع طويل في الخطابة المنبرية . وناب عن القاضي الشافعي زمنا . وشهد مبايعة الأشرف طومان باي بالسلطنة ، عوضا عن كمال الدين الطويل ، لأسره عند السلطان سليم . ولما عاد القاضي كمال الدين بن الطويل ، وتسلم مهام منصبه أصبح البردني مفصولا ، ولم يل القضاء بعد ذلك .

ولما نباه العيش بمصر ، حينما اضطربت أحواله بعد الفتح العثماني ، جهد في أن يعين شيخا للحرم النبوي الشريف ، فأجيب إلى طلبه ، وسافر توا إلى المدينة في شهر جمادى الآخرة عام ٩٢٣ هـ .

« ابن إياس ج ٣ ص ٧٠ ، ٧٨ ، ١٢٥ » .

قضاة آخرون

نحمل فيما يلي ذكر عدد آخر من قضاة مصر مرتبين حسب عصورهم ووفياتهم تقريبا . وقد اعتمدنا في إيرادهم على تاريخ ابن إياس أولا ، ثم نضيف إليه من بعض المراجع الأخرى .

عن الجزء الأول من ابن إياس :

- ١ - جمال الدين الزرعي : من قضاة الشافعية في عهد الناصر بن قلاوون « س ١٧٥ » .
- ٢ - برهان الدين بن جماعة : خطيب بيت المقدس . عين في قضاء الشافعية عام ٧٧٣ هـ في عهد الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون . بدلا من بهاء الدين السبكي . وهو ابن أخي القاضي عز الدين بن جماعة المقدسي « س ٢٢٧ ، ٣١٥ - طبقات السبكي ج ٥ ص ٤٦ » .

- ٣ - جمال الدين بن خير المالكي السكندري : قاضي قضاء المالكية عام ٧٨٧ هـ في عهد برقوق ، بدلا من ابن خلدون « س ٢٦٢ ، ٢٨٤ » ،

- ٤ - شمس الدين الطرابلسي : قاضي قضاة الحنفية عام ٧٩١ هـ . في عهد السلطان أمير حاج . « د س ٢٨٤ » .
- ٥ - ناصر الدين العسقلاني : قاضي قضاة الحنابلة عام ٧٩١ هـ . في عهد السلطان أمير حاج . « د س ٢٨٤ » .
- ٦ - تقي الدين الزبيدي : عين قاضيا للشافعية عام ٧٩٩ هـ ، عوضا عن المناوي ، في عهد برقوق . « د س ٣١٥ ، ٣٠٧ » .
- ٧ - صدر الدين بن منصور : من قضاة الحنفية في عهد برقوق . « د س ٣١٥ » .
- ٨ - مجد الدين السكناي من قضاة الحنفية في عهد برقوق . وقد توفي عام ٨٠٢ هـ « د س ٣٢٦ ، ٣١٥ » .
- ٩ - جمال الدين محمود القصيري : من قضاة الحنفية في عهد برقوق « د س ٣١٥ » .
- ١٠ - جمال الدين يوسف الملطي . من قضاة الحنفية في عهد برقوق وفرج . توفي بالشام عام ٨٠٣ هـ « د س ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ » .
- ١١ - شمس الدين الركاكي : من قضاة المالكية في عصر برقوق « د س ٣١٥ » .
- ١٢ - شهاب الدين أحمد النجيري : من قضاة المالكية في عصر برقوق . توفي عام ٨٠٣ هـ مفصولا عن القضاء « د س ٣١٥ ، ٣٤٠ » .
- ١٣ - ناصر الدين التونسي : من قضاة المالكية في عصر برقوق « د س ٣١٥ » .
- ١٤ - برهان الدين العسقلاني : من قضاة الحنابلة في عصر برقوق . وقد توفي عام ٨٠٢ هـ « د س ٣٢٦ ، ٣١٥ » .
- ١٥ - نور الدين بن الجلال المالكي : من قضاة المالكية في عهد فرج . ومات مأسورا عند تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ « د س ٣٢٨ ، ٣٤٠ » .
- ١٦ - ناصر الدين الصالحى : من قضاة الشافعية ، ولي قضاها عام ٨٠٣ هـ بدلا من صدر الدين المناوي لأسره عند تيمورلنك « د س ٣٢٧ » .
- ١٧ - أمين الدين الطرابلسي : ولاة السلطان فرج قضاة الحنفية عوضا عن جمال

الدين يوسف المملطي المتوفى عام ٥٨٠٣ . « د س ٣٣٧ »

١٨ - جمال الدين الأقمهسى : ولاة السلطان فرج قضاء المالكية ، عوضا عن نور الدين بن الجلال المتوفى بأسسورا عند تيمورلنك عام ٥٨٠٣ . ثم عزل الأقمهسى وعين مكانه ابن خلدون . « د س ٣٣٧ » .

١٩ - مجد الدين بن سالم الجهنى . ولى قضاء الحنابلة فى عصر فرج عام ٥٨٠٣ ، بدلا من موفق الدين الحنبلى المتوفى . « د س ٣٣٧ » .

عن الجزء الثانى من ابن إياس :

٢٠ - ولى الدين العراقى : ولى قضاء الشافعية بمصر مدة فى عهد المؤيد شيخ عوضا عن جلال الدين البلقينى . وتوفى عام ٥٨٢٤ فى عهد الملك المظفر أحمد بن المؤيد . « د س ١٣ ، ٩ » .

٢١ - بدر الدين محمود العبنى : ولى قضاء الحنفية زمنا بمصر فى عهد المؤيد شيخ . وشهد عصور من بعده حتى توفى فى أواخر عهد جقمق . وله كتب فى التاريخ وشرح للبخارى وغيره من المصنفات النافعة ، وله شعر وزجل « انظره فى الجزء الثانى من كتابنا هذا » . « د س ٣٦ ، ٩ » .

٢٢ - نصر الدين بن التونسى : ولى قضاء المالكية زمنا فى مصر فى عهد المؤيد شيخ . « د س ٩ » .

٢٣ - علاء الدين بن مغلى : ولى قضاء الحنابلة زمنا بمصر أيام المؤيد شيخ « د س ٩ » .

٢٤ - شمس الدين البساطى : ولى قضاء المالكية زمنا فى عهد الظاهر جقمق وتوفى عام ٥٨٤٢ . « د س ٣٣ ، ٣٧ » .

٢٥ - بدر الدين التونسى : ولى قضاء المالكية بمصر عام ٥٨٤٢ بعد وفاة البساطى فى عهد جقمق ، ثم توفى فى نفس العهد . « د س ٣٦ ، ٢٧ » .

٢٦ - شمس الدين محمد القاياني : ولى قضاء الشافعية بمصر زمنا في عهد الظاهر جقمق بعد عزل ابن حجر عام ٨٤٩ هـ . د س ٢٩ .

٢٧ - ولى الدين السقطي : ولى قضاء الشافعية زمناً بمصر في عهد جقمق قبيل عام ٨٤٩ هـ وتوفي في هذا العهد . د س ٣٥ ، ٣٦ .

٢٨ - ولى الدين الأرموي : ولى قضاء المالكية بمصر زمنا في عهد جقمق بعد البدر التونسي . د س ٣٥ .

٢٩ - محب الدين العسقلاني : ولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا في عهد جقمق وتوفي في ذلك العهد . د س ٣٦ ، ٣٥ .

٣٠ - بدر الدين البغدادى : ولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا في عهد جقمق بعد محب الدين العسقلاني . وتوفي في نفس العهد . د س ٣٦ ، ٣٥ .

٣١ - بدر الدين عبد المنعم البغدادى : هو عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم البغدادى ، كان عالما فاضلا وجيها عند الناس . ولد عام ٨٠١ هـ . وتوفي عام ٨٥٧ هـ . ولى قضاء الحنابلة زمنا وشهد عهد الأشرف إينال - ولعله هو بدر الدين البغدادى رقم ١١ كررا بن إياس ذكره وذكر وفاته في ميغادين وموضعين . د س ٤٢ .

٣٢ - عز الدين الكنفاني . هو ابن برهان بن محمد الدين بن نصر الله . عينه الأشرف إينال في قضاء الحنابلة بعد وفاة بدر الدين البغدادى سنة ٨٥٧ هـ فلبث فيه زمنا . د س ٤٢ .

٣٣ - ولى الدين السنباطي . كان قاضى قضاة المالكية بمصر زمنا . وتوفي في عهد الأشرف إينال سنة ٨٦١ هـ . وولد سنة ٧٨٦ هـ ، واسمه محمد بن عبد اللطيف إسحق بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكي . كان عالما فاضلا وقد تولى بعده القاضى حسام الدين بن حريز . د س ٥٨ .

٣٤- صلاح الدين أحمد بن بركوت المكي : تولى قضاء الشافعية بمصر بعد عزل يحيى المناوى فى أواخر عام ٨٦٩ هـ فى عهد السلطان خشقدم . وقيل دفع فى سبيل ذلك مالا . ولم يلبث فى منصبه طويلا ، بل عزل أوائل عام ٨٧٠ هـ وظل معزولا حتى توفى عام ٨٨١ هـ .

« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٤ - وابن إياس ص ٨٧ ، ٧٩ ، ١٦٦ »

٣٥- بدر الدين محمد أبو السعادات : هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر السكتانى الشافعى . تولى قضاء الشافعية بمصر زمنا قليلا فى عهد خشقدم ، ثم عزل وتوفى سنة ٨٩٠ هـ . « ص ٢٢٨ » .

٣٦- برهان الدين اللقانى : تولى قضاء المالكية زمنا بمصر فى عهد قايتباى بعد عزل ابن حريز عام ٨٧٧ هـ ثم عزل . « ص ١٣٧ ، ٢٠٦ » .

٣٧- الجمالى يوسف الحنبلى : هو ابن الشهاى أحمد بن نصر الله بن البغدادى ، تولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا . وكذلك اشتغل بالتدريس بمدارس الحنابلة كالمدرسة البروقية ، وكان لطيف المعاشرة . وقد توفى فى المحرم عام ٨٨٩ هـ . « ص ٢٢١ »

٣٨- بهاء الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقي : عينه السلطان الظاهر قانصوه فى قضاء الحنابلة بمصر عوضاً عن الشيشينى فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . فسكث أربعة أشهر وصرف عن القضاء . ثم عين فى قضاء الحنابلة بدمشق بعد ذلك ، وشهد عصر الغورى ، وتوفى فى أخرياتة . « ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ - وج ٣ ص ٦٣ » .

عن الجزء الثالث من ابن إياس :

٣٩- شمس الدين التتائى :

عينه الأشرف طومان باى فى قضاء المالكية عوضا عن يحيى الدين الدميرى الأسير لدى السلطان سليم وذلك فى مستهل ذى القعدة عام ٩٢٢ هـ ، ثم انفصل حينما عاد الدميرى وتسلم منصبه ثانيا . « ص ٧٨ » .

المحمل والحج

منذ دخل الإسلام بلاد مصر ، أصبح أهلها - إلا قليلا منهم - يدينون به ، ولم تفتر هممتهم عن إظهار شعائره الدينية . والافتنان في إظهارها . ومرت بمصر عصور دفعتها إلى الغلو في ذلك ، حتى بدت منها في هذه السبيل ضروب من البدع ، ما بين مقبول ومرذول . ومن هذه البدع خروج المحمل في موسم الحج إلى بلاد الحجاز . وقد كانت هذه البلاد خاضعة لمصر في عصر المماليك .

والمحمل جمل فوقه تركيب يحمل أشياء ثمينة ، وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة . والعادات المرعية في إبان الاحتفال به وبخروجه الآن يعرفها المصريون ولاسيما القاهريون . إذ لا يزال خروج المحمل سنة متبعة في بلادنا حتى اليوم ، ويحتفل به في القاهرة كل عام . وإن كان قد ركد أخيرا بسبب ظروف السياسة .

وقد كان لكل من العراق والشام والمغرب محمل ، فكانت عدة المحامل السلطانية أربعة ^(١) . ثم عفى الزمن هذا التقليد ولم يبق مقيما على اتباعه حتى الآن غير مصر . والمعروف أن الظاهر بيبرس ، أول من أمر بخروج المحمل بديار مصر ، وكان ذلك في ١٦ شوال عام ٦٧٥ هـ . فقد روى السيوطي قال :

« وفي أيامه - أي بيبرس - طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة ، بالقاهرة . وذلك في سنة خمس وسبعين - أي وستائة - وكان يوما مشهودا . وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية » ^(٢) .

وقال صاحب تقويم النيل :

« إنه - أي بيبرس - بعد أن تولى ملك مصر ، قرر إرسال تحفة سنوية إلى مكة ، وهي جمل يحمل أشياء ثمينة وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة ، وهي التي أطلق عليها اسم المحمل » .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ نقلا عن ابن فضل الله .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٤

وقال أيضا ونقل عن حسن المحاضرة :

• وقال ابن كثير : في سادس عشر شوال سنة ٦٧٥ هـ ، طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوماً مشهوداً ، قلت : كان هذا مبدأ ذلك ، واستمر ذلك كل عام إلى الآن ، (١) .

غير أنه ورد في ابن إياس ما يفيد أن المحمل ، كان معروفاً قبل عام ٦٧٥ هـ . فقد ذكر في حوادث عام ٦٦٧ هـ أن السلطان بيبرس حج إلى بيت الله الحرام في العام المذكور . ثم قال بالنص :

• وكان ولد السلطان ، السعيد محمد ، توجه صحبه المحمل بالحاج المصري . فلما قضى حجه - أي السلطان - رجع إلى الشام ، ورجع ابنه الملك السعيد صحبه المحمل مع الركب المصري ، .

فهل كان « المحمل » معروفاً في مصر قبل عام ٦٧٥ ؟ قد يكون ذلك تبعاً لنص ابن إياس . غير أن مارواه السيوطي أصرح وأقطع . وعلى كل حال ، فالمفهوم أن بدعة « المحمل » وبدعة الطواف به في مصر ، من مبتكرات عصر المماليك وعليها أن نفرق أولاً بين مجرد الكسوة للكعبة الشريفة ، وبين « المحمل » فكثير من الأئمة والسلاطين كانوا يرسلون الكسى ولكن بغير محمل .

ولسنا هنا في مقام تعداد محاسن المحمل أو مساوئه ، أو نقد بدعته ، وإن كانت تحتاج منا الآن - نحن أهل القرن العشرين - إلى إعادة النظر . . وكل ههنا منصرف إلى الحديث عنها ورواية أخبارها وبيان مبلغ اهتمام المصريين بأمرها ، وذكر ما يتصل بها من شئون الحج ، في عصر المماليك فنقول :

روى السيوطي في وصف المحمل المصري ما يلي :

• قال ابن فضل الله... يخرج الركب من مصر بالمحمل السلطاني والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطععين ، بالماء والزاد والأشربة ، والأدوية والعقاقير ، والأطباء

والسكحالين ، والمجبرين والادلاء ، والأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضى والشهود ، والدواوين والأمناء ، ومغسل الموقى فى أكمل زى وأتم أبهة . وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا ، تدق الكوسات ، وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول .. (١)

وقد جرت عادة السلطنة المصرية أن يقوم بالحجاج ركبان : يسمى أحدهما « الركب الأول » ، ويسمى الثانى « ركب المحمل » ، وهو أهم الركبين ، لأنه يضم الكسى والهدايا وما إلى ذلك ، ويسافر فى صحبته عظماء الحجاج .

ويعين لكل ركب ، أمير يختاره السلطان من بين رجاله المقربين الموثوق بهم . والغالب أن يكونا من رجال السيف ، وقل أن كانا من رجال القلم أو الدين . وبدهى أن يكون أمير ركب المحمل ، أهم وأسمى من أمير الركب الأول ، ويتم تعيينهما فى النصف الثانى من ربيع الأول من كل سنة ، وبعد انتهاء المولد النبوى ولوحظ أنه يندر أن يتأخر تعيينهما أو يتقدم ، إلا لسبب عارض وبعد ذلك مخالفا للعادة المرعية .

وإذا ما وقع اختيار السلطان على أبرى الركبين ، أهدى إليهما خلع الإمارة ، وهى أردية نفيسة ذات قيمة . ثم يأخذ الأميران فى الاستعداد للرحيل وينادى المنادى بين الناس بالقيام للحج ، ليستعد أيضا من عقد النية فى عامه على حج بيت الله الحرام . هذا إذا لم يكن هناك خطر مرقوب يتوقع حدوثه لركبى الحجاج ، كقيام العربان فى الطريق لقطعه عليهم ، وترصدهم لنزولهم حتى ينهبوا ما معهم . وقد يقتلون منهم عددا . وقد بأسرون عددا آخر . وكثيرا ما حدثت حوادث من هذا النوع حتى اضطر السلطان خوفا على حياة رعاياه أن ينادى فى سنة ما بمنع النساء وحدهن من الخروج للحج فى سنتهن تلك . أو بمنع الرجال والنساء معا من الخروج للحج فى عامهم ذلك . وكذلك إذا تناقلت الأخبار عن ثوران العربان فى الطريق المؤدى إلى الحجاز ، وعن توقع الشر منهم للحجاج . وهذا هو

ما وقع في سنة ٩١١ هـ . وربما خيف من فتنة أخرى أو حرب منتظرة أو نحو ذلك . فينادى بعدم الخروج للحج حينئذ .

ويزود ركبا المحمل بعدد من الجنود لحمايتهما . والذود عنهما في خلال الطريق ذهابا وإيابا بإقامة . وقد يصل عدد الجود إلى خمسمائة أو ستمائة ومعهم أمراؤهم . كما قد يزود الركبان بنحو خمسين جنديا آخرين عليهم أمير خاص بهم ، يصاحبونهم إلى مكة . ولا يعودون في عودتهم ، بل يقيمون بمكة طول العام حتى يعود ركب المحمل في السنة القادمة إلى الحجاز ، فيستبدل بهم سواهم وهكذا . وهذه حيلة نافعة في تلك العصور المظلمة المليئة بالفوضى وحب الاعتداء من العربان وغيرهم . ويسمى هؤلاء الخمسون « المجاورين » ، ويسمى أميرهم « باش المجاورين » ، لأنهم يجاورون مكة والبيت الحرام . ويعطى كل جندي ممن يصحبون المحمل مالا لينفق منه ويكفيه طيلة عمله المكلف إياه .

فإذا تمها المحمل وأعد ، عرض على الأنظار السلطانية عرضين : أما العرض الأول فموعده شهر رجب من كل عام . وفي نصفه الثاني في الغالب . وأما العرض الثاني فموعده شهر شوال من كل عام ، وفي نصفه الثاني في الغالب . ويندر أن يعرض في غير هذا الميعاد .

والعرض الأول عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم عليه السلام لتحيطه وللحفاوة به ، ولإعلان الناس باقتراب موسم الحج وبث الحماسة الدينية في نفوسهم ، ثم لإشهار نخامته ، ولقضاء يوم في التسلي برؤيته . ويسير الجنود أمامه وحوله بملابسهم المزركشة ، وأسلحتهم المزخرفة ، وألوانهم اللامعة . فيخترقون به وسط القاهرة ميممين جهة القلعة في ناحية الرملة . فإذا توسطوا ساحتها ، أشرف عليهم السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائه ورجال دولته . حينئذ يقوم « الرماحة » ، وهم طائفة خاصة تحمل الرماح ، معدة لمثل هذه المناسبة ، بملابسهم الحمراء . فيلعبون ألعابا عسكرية كثيرة تتم عن فروسيتهم ومهارتهم . فيتسلى الجمع بمشاهدتهم ، ويدور المحمل في أثناء ذلك أمام السلطان دورة استعراض .

وفي هذا اليوم - وهو يوم العرض الرجبي - يدور الحمل دورتين ، أولا همانى الصباح وثانيتها بعد الظهر .

وفي هذا اليوم تبلغ الحفاوة باستقبال الحمل غايتها ، ويبالغ الناس في حسن لقائه ، ويكابد بعضهم ضروبا من النفقة المرهقة لتزيين منازلهم ومحالهم وإبقاء هذه الزينة طول نهارهم وليلتهم ويجملونها بقطع من القماش الملون والحرير الموشى والقاديل الزيتية ذات الأضواء الجميلة والشموع الموقدة ليلا ونهارا^(١) . وينثرون هنا وهناك المقاعد الوثيرة المحلاة . منهم من يندفع إلى ذلك بدافع العادة والتقليد أو سعيا وراء الظهور وحب الصيت . ومنهم من يفعل ذلك خوفا من عقاب الوالى - وأعنى به والى القاهرة - لأن الوالى المذكور يغلب أن ينادى هو وأعوانه قبيل يوم العرض الرجبي فى أنحاء القاهرة ، وخاصة فى عمر الحمل ، بأن يحمل الناس وجوه منازلهم وحوالياتهم فى اليوم المذكور . فيخشى بعضهم العاقبة إذا لم يطع هذا الأمر .

ويكثر فى هذه المناسبة خروج الناس رجالا وركبانا ذكورا وإناثا إلى أماكن اللهو والتسلى يعبثون ويسمرون ويغنون ويرقصون ويتناشدون ، ويعاونهم فى ذلك الشعراء والرجالون بما ينظمون من ضروب الشعر والزجل .

وعما هو جدير بالذكر أن العرض الرجبي ظل مرعيا زمنا طويلا . ولبت من تقاليد الدولة . وأبطل مرة قبل الأشرف إينال فأعاده عام ٨٤٩ هـ ، ثم أبطل بعد الظاهر خشقدم فى سنة ٨٧٢ هـ فنسيه الناس ، وظل منسيا^(٢) قرابة أربعين عاما ، حتى أعاده وقرره السلطان الأشرف الغورى فى عام ٩٠٩ هـ ، وجعله من تقاليد الدولة مرة أخرى . فظل كذلك إلى أخريات العصر . غير أنى لاحظت أن العرض

(١) المدخل لآبى الحاج ؛ ج ١ ص ٢٧٢

(٢) هذا كلام ابن آياس ج ٤ حوادث عام ٩٠٩ هـ ، وحقا لم نلاحظ أخبارا عن العرض الرجبي طول هذه المدة إلا مرة فى عهد قايى عام ٨٩٦ هـ فوجب التنبيه .

الأول المذكور وقع مرارا في شوال لا في رجب وذلك في عهد الغورى .
أما العرض الثانى فهو عرض الخروج ، ويكون في شهر شوال من كل سنة كما
ذكرنا ، وفي نصفه الثانى غالبا ، وهو عبارة عن خروج المحمل شاقا من وسط القاهرة
فى زينة حافلة وحفاوة تامة . والجمالون يحملون على رؤسهم الكسوة وغيرها
أر يستخدون لذلك الجمال والدواب الأخرى ويعرض على أنظار السلطان فى
جهة القلعة ، ثم يقبع فى مكانه يوما أو بعض يوم ، ثم يخرج من القاهرة فى زينته
وبين حفاوة الناس بتوديعه ناسلا إلى بركة الحاج شمال القاهرة ، حيث مجتمع
الحجاج ، يفدون إليه ويأوون من كل حذب وصوب فى البلاد . وفى خلال هذين
اليومين يولم السلطان والأمراء الولاثم الحافلة ويبدلون الأطعمة ويمدون الموائد
يأكل منها الناس ، ويفيضون بضروب من البر والعطاء ، يستعين بها الفقراء .

فإذا وصل ركب المحمل إلى بركة الحاج يبتدىء الحجاج المجتمعون بهافى الاستعداد
الآخر للرحيل على جماهم ودوابهم ، ثم يبتدىء الركب الأول - ويكون قد بلغها
قبل ركب المحمل - فى السفر ، ويسافر قبل ركب المحمل بيوم واحد . ثم يليه ركب
المحمل وهكذا . ويندر أن يتأخر عن اللحاق به أكثر من يوم .

ويفهم من تحاشيد زمن الخروج بالنصف الثانى من شهر شوال أن مسافة الرحيل
قد تستغرق نحو شهر ونصف ، ومع ذلك فقد حج الناصر بن قلاوون عام ٥٧١٨ هـ .
وخرج مع ركبه فى ١٩ ذى القعدة فسار مسرعا وبلغ مكة قبل الوقفة بثلاثة أيام .
وفى عام ٩١٥ جاء مبشر الحاج فى ١٣ يوما فقط .

هذا وقد يصحب الركب فى عام ما ، سلطان مصر نفسه متوجها لأداء الفريضة
وفى هذه الحالة تزداد رغبة الأمراء والأعيان والناس فى السفر إلى الحج ، وكذلك
يزداد عدد الأمراء والجنود والموظفين المعينين لمصاحبة الركب حفاوة بالسلطان
وقياما على راحتته وسهرا على حفظه . وقد حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام
٥٧١٨ هـ ، فاستصحب معه الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، وأثنى عشر
أميرا مقدما ، وثلاثين أميرا من غير المقدمين ، ورافقه كاتب سره علاء الدين بن

الأثير ، وناظر جيوشه القاضي نحر الدين ، وناظر خواصه القاضي كريم الدين بن السديد ، وكثير من المباشرين . وحج الناصر أيضاً مرة أخرى في عام ٧٣٢ هـ وكان يصحبه كذلك الملك المؤيد صاحب حماة وكثير من الأمراء ، قيل إن عددهم ٧٢ أميراً . وحج السلطان الأشرف قايتباي عام ٨٨٤ هـ ومعه كثير من الجنود وأمرائهم . وهكذا .

وقد يحج ابن السلطان أو زوجته . فإذا خرجت زوجة السلطان إلى الحج يغلب أنها لاتصحب أحد الركبين في سفرها . بل يهيا لها ركب خاص تسافر فيه ، يبدأ ميعاده قبل ميعاد رحيل ركب الحمل بقليل . ويكتفى إذ ذاك بزفاف ركبها الخاص ضمن الاحتفال بعرض الحمل العرصة الأخيرة .

وبهذه المناسبة نذكر أنه قد جرت العادة إذا تهيأ أحد عظماء القوم للخروج للحج ، أن يعد لنفسه ركبا خاصا ومحفة خاصة مزدانة ازديانا على قدر استطاعته ومركزه وجاهه ، وينضم بهذا الركب الجزئي إلى الركب العام وهو ركب الحمل حين خروجه إلى بركة الحاج . فإذا كان هذا العظيم هو زوجة السلطان ، خرج ركبها وفيه محفتها جميلة وضاعة مزدانة بالحرير والأفواف والوشى والزخرف والجوهر وتسعى كأن الأميرة فيها . ويفهم الناس حينئذ أنها ملء محفتها ، ولكن الغالب أنها لاتكون بداخلها ، بل تلحقها خفية فيما بعد . ثم تمتطيها من بركة الحاج وتبكر بالسفر كاروينا .

ويرسل مع ركب الحمل ماجادات به مكارم السلطان ، وقاض به جود الدولة وسمحت به نفوس أعيان مصر ومحسنين للبيت الحرام وخدمه وفقراء مكة والحجاز والحرم النبوي الشريف قربى إلى الله وزلفى .

فمن ذلك الكسوة الشريفة ، وكانت العناية بصنعها بالغة وينفق في سبيلها وإعدادها مال وفير . وقد يتم بشأنها بعض السلاطين والأمراء أكثر من اهتمام سواهم . فقد روى أن الملك الصالح علاء الدين بن الناصر محمد بن قلاوون ٧٤٣ هـ - (١٠ م - ممالك)

٧٤٦ هـ ، أوقف إحدى ضيعاته وتسمى «بيسوس» على صنع كسوة السكعبة الشريفة .
وفي عام ٧٩٢ هـ صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة ثمينة للحجرة الشريفة مع
ستارة غالية لبابها . وهكذا .

ومن ذلك أيضا الغلال والشموع والزيت والفماش وصرر الدنانير وأمثال
ذلك ، ومعها الهدايا المختلفة . وقد روى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما
خرج للحج في مرته الثالثة عام ٧٣٢ هـ حمل معه بابا للسكعبة قد صنعه بمصر من
خشب السنت الأحرر المغطى بصفايح من الفضة ، قيل إن زنتها كانت ثلاثين
ألف درهم .

هذا ، ثم يخرج ركب المحمل مبعا بلاد الحجاز . ويسير إليها برأ لا بحر^(١)
إذ طرق المواصلات البحرية عن طريق البحر الأحمر طبعاً ، لم تكن ميسرة قادرة
على حمل هؤلاء الحجاج وركبهم بمأمنهم من زاد وملابس وخيل وأدوات وأسلحة
وغير ذلك . ومع ذلك فقد كان بعض الحجاج يسافر عن طريق البحر ، وكذلك
يعود ، أما الطريق البرى فعليه جل الاعتماد . ويمر كل ركب بجهة العقبة ، ولا شك
أنه يقيم هناك آونة للاستراحة . ولذلك عنى كثير من سلاطين مصر بهذه الجهة ،
فمنهم من أنشأ بها أسواقى لاستنباط الماء ، ومنهم من أقام الربوع للنوم ، ومنهم من
بنى المخافر وأسكن فيها الجند لحماية للطريق ومحافظة على أرواح الحجاج . ومن هذا
القبيل ما أنشأه السلطان الغورى فى عام ٩١٤ هـ .

وإذا بلغ الركب هذه النواحي يرسل عادة إلى القاهرة مبشراً بنبأه بسلامة
وصوله إليها وبحالة الركاب وما هم عليه من سلامة وصحة وأمن ، ويحمل معه رسائل
بعض الحجاج إلى ذويهم .

ثم يصل الركب إلى مكة فيخرج أميرها للقاء أمير المحمل ، وحينما يراه يترجل

(١) اقرأ وصف رحيل الحجاج من بركة الحاج حتى مكة ومراحله ، لابن فضل الله فى حسن
المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ تحت عنوان « ذكر الطريق السلوك من مصر إلى مكة » .

عن فرسه ويتقدم في مهابة وتوقر فيقبل رجل جمل المحمل . ثم يتسلم الكسى والأعطيات ، ويقوم أميره وأعوانه بتفريق ما لديهم من الهبات والحسنيات . ويؤدون جميعا مع الحجاج فريضة الحج ، ريتبركون بالزيارة ، ثم يأخذون سمتهم إلى العودة ويتخلف منهم الجند المجاورون ، ويتخلف أيضا من حكم عليه السلطان بالنفى إلى مكة في عامه ذاك ، فأرفده مع الركب إليها . ويتخلف أيضا من عقد النية على مجاورة بيت الله الحرام .

يعود الركبان والحجاج كما أتوا سالكين طريقهم في المجيء فيصلون إلى البلاد سالمين ، ما لم يعم في طريقهم في الذهاب أو الإياب عائق . وأشد العوائق وأشقها خروج العربان عليهم ونهب ما معهم أو قتل بعضهم أو أسره . ومن ذلك ما وقع في عام ٨٥٨ هـ ، ٥٩٠ . وأكثر ما اشتد عسف العربان وفتسكهم بالحجاج في أخريات العصر . ومن أعداء الحجاج الأمراض والطواعين تنفشى في جماعاتهم ، وكذلك الغلاء وموت الدواب يقاسون منهما شدة كبيرة وضيقاً لا حد له . وكذلك كثرة السيول أو قلة الماء . وقد يشتد بهم أمر هذه الأعداء فيتبدد جمعهم ويتبعثر ملبوسهم من جرائها . فيعردون إلى مصر فرادى عن طريق البر أو البحر فيصلونها منهوكى القوى مكدودى العزائم .

وقد جرت العادة أيضا أن يفد إلى مصر في أخريات شهر ذى الحجة ، مبشر يخبر بأحوال الحجاج والركبين في مكة في أثناء عودتهم ، ويحمل معه رسائل الحجاج إلى ذويهم . وقل أن انقطع مجيء هذا البشير بخلاف المبشر الأول فإنه كثير أما انقطع . ثم يعود الركبان فيصلان في أواسط النصف الثانى من شهر المحرم في السنة التالية . فينزل الركب الأول ببركة الحاج ، وبعد نزوله بيوم ينزل ركب المحمل . ومن هنا يتفرق الحجاج إلى بلادهم ، ثم يتقدم الركب الأول فيخترق مدينة القاهرة فيلاقيه الناس في حفارة . ثم يتلوه بعد يوم واحد ركب المحمل ويشق طريقه في وسطها ، فيحسن الجمهور لقاءه . ويندر أن يتأخر ركب المحمل عن الركب الأول في قدومه إلى القاهرة أكثر من يوم واحد ، وكلما دخل أحد الركبين إلى القاهرة

صعد أميره إلى حضرة السلطان بالقلعة فيفيض عليه عادةً بحميل رضاه وسنى جوائزه ونفيس خلعه ، فيحدث السلطان بما رأى في رحلته وما سمع وما صنع . ثم يغادر مجلسه مكرماً .

واعتاد الناس أن يتسقطوا أخبار الحجاج وأخبار المحمل فإذا علموا عنه برا وعملاً صالحاً ، وحسن رعاية للحجاج وجميل معاملة ، أثنوا عليه بما هو أهله ، ولهجت ألسنتهم وتحدثت مجالسهم بمناقبه وحمده ، وإن علموا منه أذى كثيراً وبخلاً وسوء معاملة ذموا له وحفظوا له سوء صنعه .

وفيما يلي نصوص تاريخية منقولة عن تاريخ ابن إياس - وقد اكتفينا بذكر صفحاته - نجمل فيها بعض أخبار المحمل والحج في العصر الذي نحن بصددده على سبيل المثال لا الاستيعات . وهي مجموعة بعد تفرق مهذبة العبارة بعدركة ، مسبوكة في قالب من اللفظ مناسب ، مع حذف ما لا غناء فيه ، مشاراً في سياقها إلى أسماء الأمراء الذين اختيروا في كل عام لإمارة الركبين ، مزودة أحياناً بنصوص عن غير ابن إياس فنقول :

أخبار ركب الحج وأمرائهم وما يتصل بذلك

١ - في سنة ٦٦٧ هـ . حج السلطان الظاهر بيبرس إلى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة في ثالث شوال وتوجه إلى غزة فأخذ ما أعده له نائب الشام ، ثم وفد إلى السكرك بالمدينة المنورة فزار قبر النبي عليه الصلوة والسلام . ثم قصد مكة فدخلها في خامس ذى الحجة - وكانت الوقفة يوم الجمعة - وقد تواضع بيبرس لله كل التواضع . وكان ولد السلطان بيبرس ، وهو السعيد محمد ، قد صحب الركب المصرى ، فأدى السلطان فريضته وعاد إلى الشام . وعاد ابنه مع ركب المحمل المصرى .

٢ - سنة ٦٧٨ هـ حج بالناس الأمير جمال الدين أقرش الباخلي . وسار
الركب في ١٧ شوال . وقاضيه نحر الدين عثمان ابن بنت أبي سعيد .
« سلوك ج ١ ص ٦٧١ » .

٣ - في سنة ٦٨١ هـ : حلف الشريف أبو نبي أمير مكة للسلطان - المنصور -
ووالده بالطاعة . وأنه التزم تعليق كسوة مصر على الكعبة كل عام ، ولا يعاقب غيرها ،
وأن يقدم علم السلطان على سواه ، وأن يسهل زيارة البيت للحجاج ويحرسهم
ويسهر على أمنهم .

وخرج من القاهرة بالمحمل الأمير ناصر الدين الطنبغا الخوارزمي . ومعه كسوة
الكعبة . وسار بالسيل حسام الدين مظفر أستاذ دار الفارقاتي وحج الأمير
علاء الدين البندقدار في ركب كبير . « السلوك ج ١ ص ٧٠٦ ، ٧١٠ » .

٤ - في سنة ٦٨٣ هـ : في هذا العام وقعت فتنة في مكة بسبب استبداد شريفها
أبي نبي ، ومنعه الحجاج من أداء الفريضة ، فجرد عليه السلطان جندا هزموه ، ثم
خمدت الفتنة ، وقضى الناس حجبهم . « السلوك ج ١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ » .

٦ - في سنة ٧٠٨ هـ : أعلن السلطان الناصر بن قلاوون أنه عقد النية على
الحج ، ثم بكر في الخروج ومعه عدد من الأمراء ، وقصد الكرك ، ولحقت به
أسرته . وكانت هذه خطة موضوعة يرمى من إوراها إلى الإقامة في قلعة الكرك .
والتنازل عن العرش ومن المزاحمين له ، وقد تم له ما أراد .

وقد خرج الركب من القاهرة في شوال ، وكان أمير المحمل الأمير جمال الدين
خضر أبو نوكبة . « ج ١ ص ١٤٨ » .

٦ - في سنة ٧١٨ هـ : خرج الناصر بن قلاوون للحج - بعد عودته إلى ساطنته -
فاستصحب معه اثني عشر أميراً من المقدمين ، وثلاثين من الطلبة خانات والعشرات

وحج في صحبته الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ونائب السلطان فيها ،
وكان سره علاء الدين بن الأثير ، وناظر جيوشه نخر الدين ، وناظر خواصه
كريم الدين بن السديد وغيرهم من المباشرين . وخرج في ٩ من ذى القعدة متأخراً ،
فأخذ السير إلى مكة فبلغها قبل الوقفة بثلاثة أيام . ولابد من أن ركب المحمل قد
سبقه إليها . فأدى الفريضة وبذل . ثم قصد المدينة ودخلها ماشياً عارى القدمين .
وزار وأنفق . وعاد إلى القاهرة في حفل عظيم في أوائل صفر عام ٥٧٩ هـ .
« ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ » .

٧ - في سنة ٥٧٣٢ هـ خرج الناصر محمد بن قلاوون للحج أيضاً ، واستصحب
معه كذلك الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة . ورغب السلطان الناصر
أن يوضع بمشهد منه باب جديد صناعه للكعبة . وقد رافقه في تلك الحجة نحو ٧٢
أميراً من رتب مختلفة من بينهم صهره بكتمر الساقى وابن بكتمر ، وهو أحمد
ابن أخت السلطان ، وقد مرضا في عودتهما وماتا في الطريق .
أما السلطان الناصر فإنه خرج إلى حجته تلك في ٧ شوال ، وعاد بعد أربعة
وخمسين يوماً . « ج ١ ص ١٦٦ » .

٨ - في سنة ٥٧٤٦ هـ . جاء في أخبارها في ابن إياس أن من أعمال السلطان
الصالح علاء الدين إسماعيل بن الناصر بن قلاوون أنه أوقف ضيعة تسمى « بيسوس »
على كسوة الكعبة الشريفة . « ج ١ ص ١٨٢ » .

٩ - في سنة ٥٧٥١ هـ . كان أمير ركب المحمل الأمير طاز - في عهد الناصر حسن
ابن الناصر محمد بن قلاوون - فلما بلغ مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب
اليمين نفور ونزاع أدى إلى القتال - وكان صاحب اليمين يحج في تلك السنة - فهزمه
الأمير طاز وقبض عليه وساقه مقيداً إلى مصر في أثناء عودته . وكانت عودته في
أوائل عام ٥٧٥٢ هـ فقدم أسيره إلى السلطان . فلم يلبث حتى أطلقه ورده إلى بلاده .
« ج ١ ص ١٩٣ ، ٢٩٤ » .

١٠ - في سنة ٧٧٨ هـ . كان السلطان هو الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون . نخرج للحج في هذه السنة ، وأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج فلم يقبل . وخرج من القاهرة يوم السبت ١٢ شوال في ركب عظيم ومعه الخليفة المتوكل على الله والقضاة . ومعه كمية كبيرة من المأكولات . فأقام مدة في بركة الحاج ثم زایلها إلى العقبة ، ومعه عديد من الأمراء . ولما كان سرعان ما وقعت فتنة هائلة في القاهرة عقب خروجه أدت إلى سلطنة ابنه على ، بدعوى أن الأشرف قد قتل . ووقعت فتنة أخرى في العقبة بين الأمراء المصاحبين للسلطان أدت إلى قتله في النهاية ، فلم يتم له حج . . .

وقد عين الأمراء لإمارة الحج الأمير بهادر الجمالی أمير أخور كبير ، فصاحب الحمل وسار الجميع في ركب واحد هذا العام . د ج ١ ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٥ .

١١ - في سنة ٧٨٨ هـ . لما وصل الحمل إلى مكة خرج أحمد أميرها للقاءه ، ونزل عن فرسه ليقبل رجل جمل الحمل فاغتاله رجل بسكين في جنبه فمات ليومه . فاضطربت أحوال مكة وكادت العرب تستبذ بالركب لولا ادراع الجند وأميرهم بسلاحهم سبعة أيام . ثم عين أمير الحاج الأمير عنان بن مغامس نائباً على مكة . فاستقر الاضطراب بعض الاستقرار . وكان ذلك في عهد برقوق . د ج ١ ص ٢٦٥ .

١٢ - في سنة ٧٩٢ هـ : في هذه السنة صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة نفيسة للحجرة الشريفة وستارة قيمة لبابها . وكانت قد نذرت أن تصنع ذلك إن عاد أخوها برقوق إلى السلطنة . وقد أرسلت هذه الكسوة والستارة هذا العام في موكب حافل . د ج ١ ص ٢٩٣ .

١٣ - وفي سنة ٨٠١ هـ : في هذه السنة نادى السلطان برقوق للناس بأن يحجوا الحجة الرجبية . وكان قد بطل ذلك من عام ٧٨٣ هـ ، فرسم بإعادته . وكان أمير حاج الحمل ، الأمير شيخا المحمودى - قبل سلطنته - د ج ١ ص ٣١٣ - ج ٢ ص ٤٣ .

١٤ - وفي سنة ٨٠٣ هـ : خرج الحمل والحجاج كالعادة . وفي أوائل سنة

٨٠٤ هـ جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة اعتدوا على الحجاج ، ونهبوا ما معهم . فشتت أمير الحاج شملهم وكسرهم وأسر شيخهم « منجد بن خاطر » وساقه أمامه بين يدى السلطان ، فأمر بأعدامه ، فتقدم إليه واعداد برد جميع ما نهب عربائه من الحجاج . فظل مأسورا لدى السلطان حتى رد كثيرا مما نهب . « ج ١ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ » .

١٥ - فى سنة ٨٠٤ هـ : تأخر خروج المحمل من القاهرة إلى ٢٢ شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان أمير المحمل ، « نكسيه الأزدرى » ، وقد وقع له أمر عوق المحمل عن الخروج فى مواعده . « ج ١ ص ٣٤٧ » .

١٦ - فى سنة ٨١٨ هـ : كان أمير الحج تانى بك الجركسى شاد الشر بخاناه المتوفى سنة ٨١٩ هـ . « الضوء ج ٣ رقم ١٢٦ » .

١٧ - فى سنة ٨٢٠ هـ : كان غرس الدين خليل بن شاهين الشينى الظاهرى أمير الركب المحمل . « الضوء ج ٣ رقم ٧٤٨ » .

١٨ - فى سنة ٨٥٦ هـ : كان الأمير دولات باى الجركسى المحمودى أميرا لركب المحمل ، ويحج فى تجمل زائد . « الضوء ج ٣ رقم ٨٢٧ » .

١٩ - فى سنة ٨٤٧ هـ : فى شهر رجب رسم السلطان إينال ، بدوران المحمل ونودى فى القاهرة بالزينة . ولعب الرماحة لعبهم برياسة جاني بك الظريف . وكان ذلك قد أوقف منذ زمن . ثم خرج الحجاج وركب المحمل فى شوال . وعقدت إمارته لجاني بك المذكور . وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وهو الذى غضب عليه السلطان إينال عام ٨٥٩ هـ وضربه ونفاه إلى دمياط وكان نقيبا للجيش ، ثم رضى عنه بعد ذلك ، وعينه أميرا للركب الأول عام ١٨٦٠ هـ . « ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣ » .

٢٠ - فى سنة ٨٥٨ هـ : فى هذه السنة أدير المحمل كما جرت العادة ، ثم خرج . وجاء فى ذى الحجة رسول من قبله يخبر بأن العربان تعرضوا بالأذى له فى الطريق . وعاد الحجاج فى المحرم عام ٨٥٩ هـ وتحدثوا بما أصيبوا به من سيول

شديدة وموت جمال وقطع طريق من العربان . « ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ » .

٢١ - في سنة ٨٥٩ . عرض المحمل في شهر رجب كالعادة وأبدع الراحة . وكان السلطان هو إينال ، فرسم في شهر شوال بأن تصنع كسوة للحجرة الشريفة ، فلما تم صنعها عرضها على أنظاره ناظر الخاصة يوسف فأعجب بها وأنعم عليه ، ثم خرج الحاج . وكان أمير ركب المحمل بيبرس الأشرفي والأمير الثاني بردبك البجمةقدارى ، وهو الذى ولى أمارة الركب مرارا بعد ، وقد توفى عهد قايتباى عام ٨٧٥ هـ وكان نائباً على الشام . وقد عاد الركب وحججه فى المحرم عام ٨٦٠ هـ ، فحدثوا بما رأوه ومن ذلك أن العراق لم يحج منه أحد هذا العام خوفاً من رجل ناثر كثير الفساد يدعى المشعشع . ولقى الحاج فى هذه السنة شدة وسوءا . « ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٢٢ » .

٢٢ - فى سنة ٨٦٠ هـ أدير المحمل فى رجب وتقدمه لاعبو الرماح . وشهده السلطان إينال وضيئه إذ ذاك رسول ملك الروم ابن عثمان ، وخرج الحاج فى شوال من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل قائم التاجر أحد الأمراء المقدمين ، وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير . وهو الذى كان أميراً للركب الأول عام ٨٥٧ هـ ، وفى عام ٨٥٩ غضب عليه السلطان ثم رضى عنه واختاره لإمارة الركب الأول . « ج ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ » .

٢٣ - فى سنة ٨٦١ هـ . فى شهر ربيع الأول قرر السلطان إينال أن يكون ابنه المقر الشهابى أحمد أمير الركب المحمل . ورأى لزوجته خوند زينب أن تحج هى وأولاده ، وأرسلهم فى رفقة ابنه أحمد المذكور . ثم أدير المحمل فى رجب . وانتهر المماليك الجلبان فرصة دورانه وعاثوا فى الأرض فسادا . ثم خرج الحجاج والركبان فى شوال ، وكان خروج ركب المحمل شائقا لعظمة من صحبه من أعيان الرجال والنساء وقد اصطحب المقر الشهابى أحمد أمير الركب كثيرا من المباشرين

منهم كاتم السر القاضى محب الدين بن الأشقر ، وبعض أبناء ابن الجيعان منهم :
القاضى علم الدين بن شاكر ، وناظر الإصطبل القاضى أبو بكر بن زهر وغيرهم .

وفى ٢٨ ذى الحجة جاء البشير - وهو مرداش الطويل - فأخبر عن حالة
الحجاج ووصف ما لقوه من عطش أثناء الطريق وموت بعضهم بسببه . وأخبر
عن سلامة زوجة السلطان وأبنائه . وفى المحرم ٨٦٢ عاد الحجاج إلى القاهرة
ووصل ابن السلطان المقر الشهابى أحمد ووالدته وإخوته فكان يومهم مشهوداً ،
وخرج الأمراء والناس جموعاً للقائهم وفرشت البسط وشقق الحرير ونثر على
رأس خوند « زينب » الفضة والذهب ، وقدمت إليهم الهدايا الثمينة وأولمت
الولائم الشهية . وكان أفضل من تقدم بذلك ناظر الخاص الجمالى يوسف ، وأهدى
إليهم نائب الشام قافى باى الخزاوى ثمانين فرساً أحدها مسرج بسرج بلور !

« ج ٢ ص ٨٥ إلى ٦١ »

٢٤ - فى سنة ٨٦٩ هـ : كان السلطان إذ ذاك خشقدم ، وفى هذا العام حجت
زوجته وهى خوند الاحمدية ، وكان أمير ركب المحمل المقر الشهابى أحمد بن العبنى
وأمير الركب الأول الشرفى يحيى بن الأمير يشبك الفقيه ، وحج معهم أيضاً الأمير
يشبك الفقيه نفسه ، وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العبنى ضروباً من الأبهة
والعظمة فى إمارته تلك ، لأنه يعد من أبناء الملوك ، فهو حفيد خشقدم . وقد
خرج فى أكوار مرصعة بالذهب والياقوت واللؤلؤ وغير ذلك ، وخرج فى موكب
عظيم يتقدمه جميع الأمراء والمباشرين ، وذلك فى شوال . ثم عاد الركب فى
أوائل عام ٨٧٠ هـ « ج ٢ ص ٧٩ »

٢٥ - فى سنة ٨٧٢ هـ : كان السلطان هو خشقدم أيضاً ، وقد أمر فدار المحمل
دورته الرجبية ، وأحرقت إحراقة نفط فى ليلتها ، فشبت النار فى الإصطبل
السلطانى فتشاهم السلطان من ذلك ، وقد أصابه هذا التشاؤم فعلاً إذ توفى بعد
قليل . وقال ابن إياس عن هذا السلطان ما نصه :

« وكان يدور المحمل في كل سنة في رجب ، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الاحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ، ويخرج الناس في ذلك عن الحد في القصف والفرجة . »

والمفهوم من كلام ابن إياس في حوادث جمادى الآخرة عام ٩٠٩ هـ بالجزء الرابع أن من أيام خشقدم عام ٨٧٢ هـ إلى أيام الغورى عام ٩٠٩ هـ أبطلت دورة المحمل الرجبية . فالمفهوم أنها أبطلت بعد زوال دولة خشقدم . (ج٢ ص ٨١ ، ٨٢)

٢٦ - في سنة ٨٧٣ هـ . كانت الدولة دولة قايتباى . وكان قد عين لإمارة ركب المحمل ، ثانى بك المعلم . فلما سار إلى العقبة بدا للسلطان أن يعيده ويقبض عليه ثم نفاه إلى القدس . ثم عين « يشبك جن » ، في إمارته ، وكان قد عين في الأمير آخورية الثانية . وعين « يشبك الجمالى » ، أميرا للركب الأول . وذلك في ربيع الأول وفي شوال خرج الركبان والحجاج . وعمن انضم إليهم الملك المنصور عثمان بن جقمق - وكان مخلوعا - وقد عارنه السلطان قايتباى أكبر معاونة في خروجه إلى الحج وأذن له في الخروج . ثم عاد الحجاج إلى القاهرة في المحرم عام ٨٧٤ هـ .

« ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ » .

٢٧ - في سنة ٨٧٤ هـ : في هذه السنة - في عهد قايتباى - عين « يشبك الجمالى » ، المحتسب أميرا لركب المحمل ، « وأقبردى بن أصباى » ، الأشر فى برسباى أميرا للركب الأول . ثم خرج الركبان والحجاج في شوال ، وحج معهم الشيخ كمال الدين ابن إمام المدرسة السكافلية ، وهو من أفاضل العلماء والمحدثين ، ولكنه توفى في ثغرة حافد وقت الذهاب . وقد قاسى الحجاج في هذه السنة شدائد عدة من عطش وموت جمال ، وعادوا مجهودين مكدودين ، ولهذا عاد الركبان في المحرم عام ٨٧٥ هـ ودخلا القاهرة معا في موكب واحد . وما يذكر أن الأمير يشبك الدوادار لما علم ما يعانیه الحجاج من العطش والشدّة بعث إلى المنقطعين منهم بأوعية مليئة ماء وزادا . فبلغتهم في ينبع وانتفعوا بها انتفاعا محمودا . (ج٢ ص ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٢) .

٢٨ - في سنة ٨٧٥ هـ : في هذه السنة - في عهد قايتباي أيضا - عين ويشبك الجمالى المحتسب ، أميراً لركب الحمل ، وأقبردى بن أصباي ، الأشرفى برسباي أميراً للركب الأول . وقد كانا أميرى الحج في العام الفائت كذلك . وقد خرج الحجاج من القاهرة في ٢٠ شوال ، وقد تأخروا إلى هذا الميعاد بسبب فرار غلمان أمير الحج ، ثم عاد الركب في المحرم عام ٨٧٦ هـ . (ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨) .

٢٩ - في سنة ٨٧٦ هـ : عين في إمرة الركب الأول ، برسباي الشرفى ، ثم استعفى من ذلك فقبل منه السلطان ، وعين في إمارة ركب الحمل الأمير ويشبك الجمالى الزردكاش المحتسب ، وهذا ثالث عام يعين فيه إلى مكة أميراً للمحمل ، وهو الذى توفى عام ٩٠١ هـ . وكان هذا الاستعفاء والتعيين في شهر ربيع الأول ، فلما كان شهر رجب أبطل السلطان إمارة ويشبك الجمالى ، وأسند إمارة ركب الحمل إلى برسباي الشرفى وهو الذى كان قد استعفى في ربيع الأول منها . ثم عين في إمارة الركب الأول الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البردبكي الظاهرى برقوق ، ثم خرج الركبان في شوال من القاهرة ، وعادا في المحرم من العام الثانى .

(ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٩٣)

٣٠ - في سنة ٨٧٧ هـ : في ربيع الثانى خلع السلطان قايتباي على برسباي (١) الشرفى ، وأسند إليه إمارة ركب الحمل . وأسند إمارة الركب الأول إلى الشهابى أحمد ، بن الأتابكى تانى بك البردبكي . وكان كذلك في العام الماضى ، ولكن الشهابى كان مريضاً فاستعفى فلم يقبل السلطان أن يعفيه ، ولذلك لما نسل الركبان من القاهرة إلى بركة الحاج في شوال ، حمل هذا الأمير في محفته وهو على وشك الموت ، فبلغ بركة الحاج وبات بها ليلة الرحيل فتوفى ، فعين مكانه « جانى بك الأشقر ، أحد مماليك السلطان وخواصه . فقام فوراً ورحل بالركب .

(١) برسباي الأشرفى يونس ، أو الصرفى أرسله قايتباي رسولاً إلى ملك الروم عام ٨٧٨ هـ ومات بحلب . ذكرناه في باب الفراء . ونوه به السخاوى في الضوء ج ٣ رقم ٣٩ .

ثم وفد رسول من قبل الحجاج في ذى الحجة ، فكان من أهم ما أخبر عنه أن
الركب العراقي كان عليه أمير يدعى « رستما » ومعه قاض يسمى « أحمد بن وجيه » ،
وكان ملك العراقيين هو حسن الطويل - فدخل الركب المدينة المشرفة وأرغما
قضائهما على أن يخطبوا هناك باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين
الشريفين . . . ثم أخذوا في الرحيل إلى مكة بركبهما ، فأسرع أميرها الشريف
محمد ابن الشريف بركات وكان الخبر قد بلغه ، فلقاهم في بطن من فقبض على
الأمير والقاضى وعدة من أعيانهما وقيدهم بالحديد ليبعث بهم إلى السلطان .
وأطلق الباقيين .

وقد عاد الحجاج والركبان متأخرين عن موعدهم ثلاثة أيام لموت الجمال
وقلة المياه وذلك في المحرم عام ٨٧٨ هـ ومعهم الأسرى ، فسجن الأمير رستم
والقاضى في برج الفلعة ثم أطلقا^(١) بعد حين مراعاة للمسكهم بإشارة من الأمير
يشبك الدوادار . « ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢١٢ » .

٣١ - في سنة ٨٧٨ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جاني بك الأشقر » ،
الدوادار . وقد كان في العام الماضي أميرا للركب الأول وأسندت إمارة الركب
الأول إلى « قانصوه خسمائة » الخاصكى أحد عماليك السلطان . وقد ترجمنا له في
باب الأتابكية . وقد خرج الحاج في شوال وعاد في موعده . « ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٩ » .

٣٢ - في سنة ٨٧٩ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جاني بك الأشقر » ،
وهذه ثانی مرة يتولاها . وأسندت إمارة الركب الأول إلى « جاني بك الحشن » ،
الإينالى تاجر المالیک . وذلك في ربيع الآخر . وهذه آخر مرة يسافر فيها « جاني
بك الأشقر » ، إذ عين في السنة التالية - ٨٨٠ هـ - فمات قبل سفره .

(١) ذكرها ابن إياس مرة أخرى ج ٢ ص ٢١٢ في المحرم عام ٨٨٧ هـ وقال إن السلطان أفرج
عنهما فيه . فوجب التنبيه .

وفي ٣ شوال خرج إلى الحج عدد من عظماء مصر منهم الأتابكي أربك بن ططخ ومعه زوجته بنت الملك الظاهر جقمق . ومنهم الأمير أربك اليوسفي ومعه زوجته بنت عم الملك الظاهر جقمق أيضا . ومنهم الشيخ أمين الأقصرائي وولده أبو السعود وقد عارونه السلطان بسبعمائة دينار . فسبقوا الحاج بنحو عشرين يوما . ومن حج في هذه السنة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي وهي بنت العلائي علاء الدين ابن خاص بك ، فكان لها ركب شائق ومحفة ثمينة مرصعة بالجواهر النفيسة . ومعهما أخت السلطان في محفة أخرى ، ومعهما خمسون جملا محملة بشكول وألوان من طعام وكسي ومال . . . فسار الركب وأمامه كثير من الموظفين والمباشرين والخدم ، وأمامه كذلك عدد من المغنين والمنشدين منهم إبراهيم بن الجندی المغني وأبو الفوز الواعظ .

وقد خرج الركبان في هذا الشهر ، ثم عاد الحجاج في ٢٤ المحرم عام ٨٨٠ هـ . متأخرا أربعة أيام بسبب ما أصابهم من العطش .

وقد مات من الحجاج ابن الأقصرائي المدعو أبا السعود فأصيب أبوه بما يشبه الذهول ، ولم يمكث بعد عودته سوى تسعة أيام ثم توفي .

ولما عادت زوجة السلطان خرج إلى لقاءها الأمراء والقضاة وترجلوا وهي في محفتها وحولها تصدح الأغاني . ونثرت عليها الفضة والذهب ، وقدمت إليها هدايا نفيسة . « ج ٢ ص ١٥٥ إلى ١٥٧ » .

٣٣ - في سنة ٨٨٠ هـ : أسندت إمارة الحمل « لجاني بك الأشقر » . لكنه توفي قبل موعد الرحيل فاختر مكانه « لاجين الظاهري » ، أمير السلاح ، وذلك في رمضان . وأسندت إمارة الركيب الأول إلى « جاني بك الحشن » ، الإينالي كلمرة السالفة ، ثم خرج الركبان في شوال ووصل مبشر بسلامته في ذي الحجة .

« ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ » .

٣٤ - في سنة ٨٨١ هـ . عين في إمارة ركب الحمل « ثاني بك الجمالي » ، الظاهري

أحد مقدمي الألو ف وعين في إمارة الركب الأول ، أقبردى الأشقر الأشرفى ، وذلك فى جمادى الأولى ، وخرج الحجاج فى شوال . وجاء المبشر عنهم فى ذى الحجة فأخبر بأمنهم وسلامتهم على الرغم من أن بمكة كثر الموت بعلة البطن - ولعلها نوع من الحيات - وفى المحرم عام ٨٨٢ هـ وصل الحجاج إلى القاهرة مثنى على « تافى بك الجمالى » . « جزء ٢ ص ١٦٧ إلى ١٧١ » .

٣٥ - فى سنة ٨٨٢ هـ . فى شهر شعبان عين فى إمارة الركب الأول ، أقبردى الأشقر الأشرفى ، كالعام الفائت . وفى إمارة ركب المحمل الأمير « جانى بك الفقيه » ، أمير السلاح . وخرج الحجاج والركبان من القاهرة وذلك فى ١٨ شوال . قيل لما خرج ركب المحمل ومعه أميره « جانى بك الفقيه » ، أمر السلطان قايتباى بهدم سبيله الذى أنشأه بالرملة . فلهج الناس بعدم عودة جانى بك . . . وقد وقع ذلك ، فإن السلطان أمر بالقبض عليه من العقبة ونفيه إلى القدس . « ويغلب على الظن أنه نفي بعد أداء مهمته وفى أثناء عودته ، إذ ترامت أخبار نفيه فى المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، ولم يذكر أن أحدا خلفه » .

ومن حج تلك السنة المؤرخ الكبير ابن إياس المصرى صاحب تاريخ مصر المعروف ببدايع الزهور - أهم مراجعنا - وقد عاد الحجاج فى المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، وأخبروا بما قاسوه من شدة وضنك بسبب الغلاء وموت الجمال ، وقد تخلف بعضهم مضطراً فى الطريق . وأخبروا بقتل قاضى المدينة وخطيئها بيد رجل رافضى . « جزء ٢ ص ١٧٦ ، ١٨ ، ١٨١ » .

٣٦ - فى سنة ٨٨٣ هـ . فى شهر ربيع الثانى اختير « قجاس الإسحاقى » ، أمير آخور كبير أميراً لركب المحمل و « فارس الركنى » ، أميراً للركب الأول ، فاستعفى « فارس » ، هذا فأسندت إمارته « لأقبردى الأشقر الأشرفى » ، كالعام الفائت أيضاً . وقيل إن فارساً دفع فى سبيل قبول السلطان استعفائه مالا .

وقد خرج الركبان والحجاج في شوال . وكانت العودة في المحرم عام ٨٨٤ هـ
رحمت سيرة الأمير « قجماس » .

« جزء ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ » .

٣٧ - في سنة ٨٨٤ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى الصاحب « خشقدم »
الآحمدي ، الزمام الذي كان زماما وخارندارا ووزيراً في عهد قايتباي - وترجمناه
مع الوزراء . - وأسندت إمارة الركب الأول إلى « شاهين الجمالي » ، وذلك على أثر
وفاة « جانم الزردكاش » ، الذي كانت أسندت إليه أولاً فتوفي قبل سفره .

وفي هذه السنة عقد السلطان قايتباي النية على الحج فلما كان شهر شوال خرج
الحاج من القاهرة . في زينة باهرة وخرج الصاحب « خشقدم » ، في موكب عظيم
واستعداد كبير ، ومحمولات عدة بسبب سفر السلطان . وقيل كان معه نحو ٢٥٠
جملًا محملة . وأرسل السلطان إليه لذلك ثلاثين ألف دينار .

ثم خرج الحجاج وركب المحمل من القاهرة في شوال . وخيموا ببركة الحاج
ثم نسلوا منها متخذين طريقهم المتبع إلى الحجاز . وبعد ذلك بقليل ، في يوم الخميس
٢٣ شوال نزل السلطان قايتباي من القلعة دون أن يشعر الناس بنزوله وسافر ميمما
شطر الحجاز وفي معيته كثيرون من أمرائه وأخصائه ومباشريه . منهم : يشبك
الجمالي الزردكاش المحتسب ، الذي عين مراراً في إمارة المحمل . وأبو البقاء بن
الجيعةان وبرهان الدين بن السكركي الإمام . وقد ودعه الأتابكي أزيك بن ططخ ،
والدوادار يشبك بن مهدي . ورحلا معه إلى مسافة من الطريق . وقد أوصاهما
بالرعية ثم آبا .

وفي ذى الحجة قدم مبشر الحاج وهو « أسنباي » ، الخاصكي ، فأخبر بسلامة
السلطان وأنه دخل مكة في موكب حافل ولقاه أميرها قبيل دخولها بيومين وأنه
أحسن وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . وأظهر ضروباً من البر
والتواضع . وهذه المناسبة قدمت لهذا المبشر هدايا كثيرة لأخباره السارة ، قدمت

إليه من بعض الأمراء ومن خوند زوجة السلطان . ثم أطلقت على « أسنباي ، لفظة « المبشر ، وظل معروفا بها من ذلك الحين .

وفي المحرم عام ٨٨٥ هـ جاء رسول « نجاب ، من قبل السلطان إلى الأمراء مخبرا بأنه دخل المدينة المشرفة وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه تصدق بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار ، وأنه يعم شطر ينبع قاصدا العقبة ، ثم زائلا ، وأنه أت عما قريب . فحب الأمراء حينئذ إلى لقاء السلطان ، وقد علموا رغبته في نزوله بقبة الأمير يشبك بالمطرية . فنشروا هناك خيامهم وزينت الناحية خير زينة . ثم علموا أنه وصل إلى البويب فركب أركب الأتابكي ويشبك الدوادار وعديد من الأمراء ، من جهة المطرية إلى البويب فلاقوا السلطان هناك وباركوا له حجه وهنشوه .

عاد ركب السلطان حافلا إلى المطرية في السبت ١٢ المحرم قبل وصول الحجاج بثمانية أيام . وهناك توافدت الوفود إليه تهنئته . ومدت الموائد وأقيمت الحفلات . وفي الاثنين ١٤ المحرم نظم له موكب عظيم الشأن سار فيه من المطرية إلى القاهرة ، والأمراء والأعيان من حوله ، والناس حافون به ، ومنهم وقوف بالطرقات يشاهدون ، والطرقات في أبهى زينة . واللاعبون يعرضون على أنظاره ألعابهم ، وفرشت له خوند زوجته بسطا ، ونثرت على رأسه الفضة والذهب ، وقت صعوده إلى القلعة . ثم أولمت الولاثم ، وقدمت الهدايا ، ووزعت الصدقات ، وكانت حجة مبرورة ...

وقد عاد الحجاج بعد ذلك والركبان في المحرم . وحدث سيرة الصاحب خشقدم الزمام أمير المحمل « جز ٢ ص ١٩٠ إلى ١٩٣ » .

٣٨ - في سنة ٨٨٥ هـ : في ربيع الأول عين في إمارة المحمل الأمير « تغرى بردى ططر ، أحد المقدمين . وفي إمارة الركب الأول « يشبك بن حيدر ، والى القاهرة . وخرج الحجاج والركبان في شوال . « جز ٢ ص ١٩٥ ، ٢٠٢ » .
(م ١١ - ممالك)

٣٩ - في سنة ٨٨٦ هـ . في ربيع الأول عين يشبك بن حيدر ، والى القاهرة في إمارة المحمل - وكان أميراً للركب الأول في العام الماضي . وعين « الشهابي أحمد ابن الجمالي ، ناظر الخاص أميراً للركب الأول . ثم عين شاهين الجمالي نائباً لجدته ، وضم إلى الشهابي أحمد ، على أن يرعى شئون الحجاج بالركب الأول . - وفي شوال كان خروج الحجاج والركبين من القاهرة . وفي معيهم الجلام بن عثمان - من أمراء العثمانيين - ومعه أمه وأولاده ، وقد عاونه السلطان معارفة كبيرة في خروجه إلى الحج . وكان إذ ذاك من ضيوف مصر .

وقد عاد الجميع في المحرم عام ٨٨٧ هـ . « جزء ٢ من ٢٠٥ ، ٢٦٠ ، ٢١٢ » .

٤٠ - في سنة ٨٨٧ هـ : في ربيع الآخر أسندت إمارة المحمل إلى « أربك اليوسفي ، أحد الأمراء المقدمين ، وإمارة الركب الأول إلى « دولات باي الحسني ، شاد الشئون . وخرج الحاج في شوال . ووصل مبشر بوصوله إلى مكة في ذي الحجة ، وأخير بنزل سيل عظيم بها حتى دخل الحرم وأحدث به تلفاً وأغرق كثيرين . ثم وصل الجميع في المحرم عام ٨٨٨ هـ . ولم يحمد الناس سيرة أمير المحمل أربك اليوسفي . « جزء ٢ من ٢١٣ و ٢١٥ إلى ٢١٧ » .

٤١ - في سنة ٨٨٨ هـ : في ربيع الثاني أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر تمساح ، أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « أزدمر الأشقر ، أحد الأمراء العشرات . وفي هذه السنة كان السلطان قايتباي قد أمر بصنع مقصورة للحجرة النبوية الشريفة . فمرضت على أنظاره في شهر رمضان في أوله ، ونصبت في الحوش بالقلعة لمشاهدتها . وكانت زنتها أربعائة قنطار من الحديد ، وقد نقلها إلى المدينة سبعون جملاً : وفي شوال خرج الحجاج والمحمل من القاهرة في حفاوة وبين زينة . وخرج في معيهم شاد بك أحد الأمير آخورية وكان ضخم الجثة ! فحمله السلطان المقصورة لإيصالها إلى المدينة ، وعينه « باش المجاورين ، ومعه خمسون جندياً ، وحمله كذلك مصحفاً كبيراً فوق ظهر بعير بمفرده . وهذا المصحف من خط شاهين النوري ، ومات دون أن يتمه فأتمه الشيخ خطاب . - قال ابن عباس :

« وهو باق إلى الآن في الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام » .

وقد عاد الحجاج في المحرم عام ٨٨٩ هـ وحدثوا بما وقع لهم من عطش وموت جمال وقد تأخر دخول المحمل في هذه السنة إلى ٢٤ من الشهر المذكور بسبب ذلك .
« جزء ٢ ص ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ »

٤٣ - في سنة ٨٨٩ هـ : في هذه السنة كان أمير المحمل « أزدمر تمساح » ، أحد المقدمين ، وأمير الركب الأول « برسباى العلأى » ، أحد العشرات . وقد حج معهم سيدى منصور بن الظاهر خشفقدم ، وكان برسباى العلأى قد تزوج أم منصور . وحج في تلك السنة أبو البقاء بن الجيعان ومعه الخاصكيان جان بلاط وماماي ، وذلك ليشر ف على تفريق ما رتبة السلطان من الدشيشة على أهل المدينة . وحج أيضا علم سمرقند الشيخ أبو بكر اللبثى وولده ، مارين من ديارهما على مهر . وحج أيضا شيخ ركب المغاربة الشيخ عبد اللطيف ومعه عديد من المغاربة يبلغ ألفا وخمسمائة ، وحج كذلك بعض أقارب السلطان قايتباى .

وقد خرج المحمل في شوال . وعاد منه رسول مبشر بأمنه في ذى الحجة ويدعى قايتباى وهو من نماليك السلطان . وقد دخل الحجاج القاهرة في المحرم عام ٨٩٠ هـ .
« جزء ٢ ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ »

٤٣ - في سنة ٨٩٠ هـ . في جمادى الأولى أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر المسرطن » ، أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « برسباى اليوسفى » ، أحد الأمراء الطبلخانات . وخرج المحمل من القاهرة في شوال . وعاد في ٢٥ المحرم عام ٨٩١ هـ وقد أصيب الحجاج بموت الجمال والغلاء . وانقطع بعضهم في ينبع ولم يعودوا إلى القاهرة إلا بعد أيام وانقطع البعض في مكة بمجاورا . « جزء ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ » .

٤٤ - في سنة ٨٩١ هـ : خرج الحجاج في هذه السنة في شوال . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » . « جزء ٢ ص ٢٣٨ » .

٤٥ - في سنة ٨٩٢ هـ : خرج الحجيج في هذه السنة في شوال أيضا . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » ، كالعام الفائت . وتولى إمارة الركب

الأول ، خاير بك ، كاشف المحلة . وعادوا في المحرم عام ٨٩٣ هـ إلى القاهرة وكان قد أشيع عنهم أن عرب الأحامدة اعتدروا عليهم واستولوا على ما معهم ولم ينبج منهم أحد فظهر فساد هذه الإشاعة وعدم صحتها . « ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ » .

٤٦ - في سنة ٨٩٣ هـ : أسندت إمارة المحمل في هذه السنة إلى الأمير « جان بلاط الأشرفي ، الخاصكي أحد الدرادارية - وهو الذي ملك فيما بعد - وأسندت إمارة الركب الأول إلى كرتباي ، كاشف البحيرة . وخرج الحجاج في شوال ، وفي صحبتهم داود بن أمير عربان هواره . « ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٤ » .

٤٧ - في سنة ٨٩٤ هـ : كان الحجاج في هذه السنة قليلين . وقد خرجوا في شوال . وإمارة ركب المحمل معقودة للأمير ، أزدر تمساح ، « ج ٢ ص ٢٦١ » .

٤٨ - في سنة ٨٩٥ هـ . كان أمير ركب المحمل « كرتباي ، كاشف البحيرة ، وأمير الركب الأول « إينال الفقيه ، الحاجب الثاني . « ج ٢ ص ٢٦٣ » .

٤٩ - في سنة ٨٩٦ هـ : منذ زمن بعيد لم نجد ذكرا للعرض الرجبي وذلك منذ زوال عهد خشقدم . أما في السنة المذكورة فقد عني السلطان قايتباي ، بعرض الكسوة الخاصة بالكعبة والكسوة المصنوعة لمقام إبراهيم عليه السلام ، وزف المحمل أيضا وذلك في أول رجب ، فكان يوما مشهودا - وقد خرج الحجاج من القاهرة في شوال وكانت إمارة المحمل معقودة للأمير « أزدر تمساح » . وعادوا في المحرم عام ٨٩٧ هـ . وكان طريق الحج محفوظا بالمخاطر بسبب فساد العربان - وما يذكر أن زوجة الأمير أقبردى الدوادار وهى بنت العلأئي على بن خاص بك وأخت زوجة السلطان قايتباي ، قد حجبت في تلك السنة ، وكان أمير الركب الأول « شاهين الجمالي ، ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ^(١) .

« ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ » .

٥٠ - في سنة ٨٩٧ هـ : خرج المحمل في شوال . وكان أميره « تاني بك

(١) ذكره السخاوى في الضوء ج ٣ رقم ١١٢٣ ،

الجمالى ، أمير المجلس . وكان أمير الركب الأول « كرتباى ، ابن أخت السلطان ، ووافت سنة ٨٩٧ هـ ولم يأت مبشر عن الحجاج حتى انتشر القلق بسببهم . وكان المبشر ، تانى بك الألبج ، أحد المماليك السلطانية ، فاعترضه فى طريقه بعض العربان فتأخر عن مواعده . . ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

٥١ - سنة ٨٩٨ هـ : فى ربيع الثانى عين « قانصوه خمسمائة » أمير آخور كبير ، فى إمارة ركب المحمل ، والناصرى « محمد بن أربك ، الأتابكى فى إمارة الركب الأول ، نخرج الركبان فى شوال . واتفق أن وفى النيل واحتفل بكسر سده . وكثير من الناس فى بركة الحاج يحتفلون بالحجاج . ثم عاد الحجاج فى المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يثنوا على « قانصوه خمسمائة » لسوء معاملته وعدم مساعدته لهم مع ما أصيبوا به من غلاء وموت جمال . . ج ٢ ص ٢٧٨ إلى ٢٨٠ .

٥٢ - فى سنة ٨٩٩ هـ : فى ربيع الثانى أسندت إمارة ركب المحمل إلى « أزدمر تمساح »^(١) . وقد حظى بذلك مرارا - وأسندت إمارة الركب الأول إلى الناصرى « محمد بن العلاقى ، على بن خاص بك التركى ، ولسكنه توفى فى رمضان . فعين مكانه « إينال الفقيه ، وعين « يشبك الأشقر ، باشا المجاورين بمكة . وقد خرج الحجاج والركبان فى شوال - ثم عادوا فى أوائل السنة التالية . وبما يذكر فى هذه السنة أن الركب الشامى اعتدت عليه طائفة من عربان بنى لام فنهبوا المال وأسروا النساء وقبضوا على أمير الركب . . ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ .

٥٣ - فى سنة ٩٠٠ هـ . فى جمادى الأولى عين « تانى بك الجمالى ، أميراً لركب المحمل و « كرتباى ، ابن أخت السلطان أميراً للركب الأول . وخرج المحمل فى شوال . وعاد فى المحرم عام ٩٠١ هـ وقد أصيب الحجاج بعطش شديد لقلة المياه بجمة نخل ، فخرج بهم أميرهم إلى عيون موسى ، فوجدوا بها ماء . . ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ .

(١) توفى أزدمر تمساح فى جمادى الآخرة عام ٩٠٠ هـ .

٥٤ - في سنة ٩٠١ هـ : في ربيع الأول عين « تاني بك قرا ، أمير الركب المحمل ، و « برد بك ، نائب جدة أمير الركب الأول وخرج المحمل في شوال ثم عاد في المحرم عام ٩٠٢ هـ . وما يذكر أن دولة قايتباي كانت قد انتهت بوفاته ، وذلك في غيبة الحجاج ، فتولى ابنه الناصر . فرسم بالقبط على أمير المحمل « تاني بك قرا ، . نخرج لتنفيذ هذا الأمر في شهر المحرم عام ٩٠٢ هـ « اصطمر بن ولي الدين ، ومعه عدة من الجنود ، فلقبه في عجرود فقيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية . - وما يذكر أيضا أن المحمل حينما دخل القاهرة أمر السلطان الجديد بأن يمر تحت أنظاره بالقلعة ليستمع بمشاهدته إذ أنه لم يره قبل ذلك .

« ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٦ ، ٣ ، ٣٠٧ »

٥٥ - سنة ٩٠٢ هـ : أسندت إلى كرتباي ، إمارة ركب المحمل وهو ابن عمه السلطان الناصر بن قايتباي - وكثيرا ما عين أمير الركب الأول - وكان هذا الإسناد في ربيع الأول . ثم قتل « كرتباي ، قبل سفره ، فعين مكانه الأمير « مصر باي ، أحد المقدمين . وعين للركب الأول الناصري « محمد بن العيني ، وكان الحاج في تلك السنة قليلا لكثرة الفتن في مصر . وقد خرج المحمل في شوال . وتأخر مجيء المبشر إلى أوائل المحرم عام ٩٠٣ هـ لفساد العربان في الطريق . ثم دخل الحاج القاهرة في هذا الشهر . وما يذكر أن السلطان أمر بالقبط على أمير المحمل « مصر باي ، وهو عائد ، فقبض عليه في عجرود وسجن بالإسكندرية .

« جز ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٢ »

٥٦ - سنة ٩٠٣ هـ : في هذه السنة كان أمير المحمل « تاني بك الجمالي ، . وأمير الركب الأولى « جان بلاط الموت ، المحتسب . وخرج الحجاج في شوال بحفاوة وزينة . وقد قاسوا هذا العام شدائد جمّة من عطش وخوف وقطع طريق من العربان ، وعادوا في المحرم عام ٩٠٤ هـ . وما يذكر أن المحمل لما عاد سار في وسط القاهرة حتى بلغ جامع المارداني . وانفض الموكب وبدأ العمال ينزعون ما فوق جمل المحمل من قماش وغيره ، فإذا رسول من قبل السلطان يطلب إليهم العودة بالمحمل إلى المطرية حيث يقيم ليشاهده ، فأعادوا الموكب وساروا إلى

المطرية حتى رآه السلطان . « جزء ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ » .

٥٧ - في سنة ٩٠٤ هـ : كان السلطان هو قانصوه بن قانصوه . فعين في ربيع الثاني الأمير « قرقاس بن ولى الدين » - وكان رأس نوبة حينئذ - أميراً لركب المحمل . « وأزبك المكحل » أحد الأمراء أطلبلخانات أميراً للركب الأول . ثم ألغى إمارة أزبك المكحل واختار مكانه الناصرى « محمد بن خاص بك » أخاخوند زوجة الأشرف قايتباى . وكان هذا مقبوضاً عليه لبعض الأسباب . فلما اختاره السلطان لهذه الإمارة اشترط عليه أن يقوم بجميع نفقاتها من ماله الخاص ، وخرج المحمل في مياعده في شوال وعاد في المحرم عام ٩٠٥ هـ .

ومما يذكر أن أمير المحمل « قرقاس » قدم معاونة كبيرة لركب غزة ، إذ انتهت طائفة من العربان قرب الشرفة ، وكذلك نهبوا بعض الركب الأول المصرى . « ج ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ » .

٥٨ - في سنة ٩٠٥ هـ : فى ربيع الأول عين الأمير « قانصوه البرجى » المحمدى - أمير المجلس - أميراً لركب المحمل . والمحاسب « جان بلاط الموتى » أميراً للركب الأول وخرج المحمل من القاهرة فى شوال وظل فى بركة الحاج إلى ٢٥ منه ، فتأخر عن موعد رحيله كل عام ، وذلك بسبب هروب أكثر غلمان أمير الركب الأول . ثم عاد الحاج والركبان فى ٢٥ المحرم سنة ٩٠٦ هـ متأخرين بسبب ما أصيبوا به فى الطريق من اعتداء العربان . « ج ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ » .

٥٩ - فى سنة ٩٠٦ هـ : كان السلطان هو الأشرف جان بلاط : وقد عين فى شهر ربيع الأول الأمير « سودون العجمى » أحد المقدمين أميراً لركب المحمل . و « دولات باى قرموط » ، والى القاهرة أميراً للركب الأول .

ولم يجرى شهر شوال من السنة المذكورة إلا بعد أن زالت دولة السلطان جان بلاط وعقبه فى الملك العادل طومانباى ، وسرعان ما ذهبت دولته هو أيضاً ، وآل الملك إلى السلطان الغورى . وفى عهد هذا الأخير سافر المحمل فى شوال : فى ١٨ منه

خرج الحجاج من القاهرة وركبها وأمرهما المذكوران ، وذهب صحبتهم الأتابكي تافى بك الجمالى منفيا إلى مكة ، ومعهم أيضا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين ، وقد عاونها السلطان على حجها . « جزء ٢ ص ٣٧٦ - وجزء ٤ ص ٦ و ٧ » .

٦٠ - فى سنة ٩٠٧ هـ : فى يوم الاثنين ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة فى زينة وحفاوة . وكان أمير ركب المحمل واصطمر بن ولى الدين ، أمير المجلس ، وأمير الركب الأول الناصرى محمد بن العلافى على بن خاص بك التركى . وقد ذهب أميراً غير هذه المرة ، وقد رسم السلطان بإخراج قائم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج منفيا إلى مكة ، ومعه قانصوه الفاجر .

وإلى يوم الأحد ١٩ المحرم عام ٩٠٨ هـ لم يحىء مبشر أو رسول من قبل الحجاج حتى كثر القال والقليل واشتد القلق عليهم . وفى اليوم المذكور وصل إلى القاهرة راكب هجين ، وأخبر عن اضطراب أمور الحجاج بسبب ثورة العربان بزعامة الجازانى ابن أمير مكة ، فنهبوا ركب الحاج الشامى وقتلوا رجاله وأسروا نساءه ، قبل دخول الركب إلى مكة .

وفى أول صفر وفد الحجاج إلى بركة الحاج على حين غفلة ، وفى ٢ صفر دخل المحمل القاهرة ، وتحدث الحجاج عما لقوه من شدة ، من الجازانى وعصابته . وكان أمير ركب المحمل اصطمر من مشيرى هذه الفتنة كما أنه لم يستطع إطفاءها . وملخص الحادثة أنه تدخل فى النزاع القائم بين الجازانى وأخيه الشريف بركات ، وكانا يتنازعا على إمارة مكة . فسعى اصطمر بينهما بالهدنة حتى تقاطلا ، ودخل هو فى هذا القتال بعد أداء فريضة الحج ، فقتل من ركبته نحو مائة ، ودارت الهزيمة عليه ، فنهب الحجاج وعرى النساء . وهرب كثير منهم وتخلف البعض فى ينبع ، ومنهم من امتطى ظهر البحر الأحمر عائداً ، ومنهم من مات جوعاً وعطشاً لردم آبار المياه . وهكذا كانت طامة كهبرى على الحجاج لسوء تصرف أمير المحمل اصطمر . وعما زاد الطين بلة أن الحجاج الذين صاحبوا الركب إلى العقبة لقيهم دونها عربان بنى لام ، وفرضوا

عليهم غرما مقداره ثلاثة آلاف دينار فاضطروا إلى دفعها درهما لأذاهم ، وقد جباها منهم أمير المحمل .

ولما مثل الأميران بين يدي السلطان أسمعهما من الكلام قارضه . اسوء سلوكهما وعدم حيلتهما وأمر بهما فسجنا حتى حين . د ج ٤ ص ٢٨ ، ٣٥ إلى ٣٨ .

٦١ - في سنة ٩٠٨ هـ : في شهر شعبان عين السلطان الغوري الأمير « قيت الرجي » الأتابكي أمير الركب المحمل ، والأمير « أنص باي » أحد المقدمين أمير الركب الأول ، وأعد لهم ستمائة مملوك من المماليك السلطانية : وأنفق لكل مملوك مائة دينار ، وفرض على بعض البلاد المصرية تقديم الجمال للركب ، أو دفع قيمتها مالا ، فتأذى الناس من ذلك ، وإن كانوا قد أدوا ما طلب منهم .

وفي السبت ٢٧ رمضان عرضت الكسوة الشريفة والمحمل - بغير دوران - وخلع العيد كذلك على الأنظار السلطانية . وفي الاثنين ٢٠ شوال خرج المحمل من القاهرة ، ونبه النساء إلى عدم الخروج إلى الحج في تلك السنة . وما ذلك إلا لأن السلطان عزم على إطفاء فتنة الجازاني والقضاء على قطاع الطريق من العربان ، فاحتاط بمنع النسوة في الحج حتى لا يمسهن أذى أثناء الطريق .

وفي الجمعة ٢٨ من ذي الحجة جاء مبشر من قبل الحجاج ، فأخبر أن الأتابكي « قيت » طرد العربان من بني إبراهيم عن مكة ، وهرب الجازاني من وجهه ، وأنه أصلح أمور مكة . وقبض على الشريف بركات وآخرين . وانتشر الخبر في أرجاء القاهرة فطرب الناس وعمهم السرور وزينوا الدور وأخذوا في أسباب اللهو والعبث . ونودي بأمر السلطان أن تزين القاهرة سبعة أيام .

وبسبب هذه الفتن والحروب تأخرت عودة الحجاج والركبين إلى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٩٠٩ هـ . وفي اليوم المذكور دخل الأتابكي « قيت الرجي » والحجاج إلى القاهرة ومعهم الأسرى ، فكان لهم يوم مشهود . د ج ٤ ص ٤٨ إلى ٥٧ .

٦٢ - فى سنة ٩٠٩ هـ : فى شهر ربيع الأول عين السلطان الغورى الأمير وأنص
بأى ، أحد المقدمين أمير الركب المحمل ، ووتانى بك الأبح ، أميراً بالركب الأول .
وفى شهر جمادى الأولى عقد الغورى النية على أن يدور المحمل فى القلعة وأن
يعاد العرض الرجبى كما كان . وأن يلعب حاملو الرماح والرماحة ، أمامه ، وكان هذا
التقليد قد بطل منذ زوال سلطنة خشقدم عام ٨٧٢ هـ . فجدده الغورى فى عام ٩٠٩ هـ
الذى نحن بصددده . ومن ذلك الحين أخذ السلطان الأهبة لهذا الاستعراض
والدوران . فعين الأمير تمار الحسنى الزردكاش معلماً للرماحة ومعه عدد من الباشات ،
- أى الرؤساء - ليعاونوه فى عمله ، ومن الخاصكية أربعين مملوكاً . فأخذوا فى
الاستعداد ليوم العرض . وبعد تمرينهم مدة عرضوا مرة على الأنظار السلطانية .
وفى يوم الخميس ٨ رجب نودى بأمر السلطان فى القاهرة أن المحمل يدور فى
هذه السنة ، وأمر الناس بنشر الزينات فى أرجائها .

وفى يوم الاثنين ١٢ رجب بدت القاهرة فى أبداع حلة وأينع زينة . وخرج
المحمل والسكوة الشريفة قاصداً إلى الرميطة . وهناك جلس السلطان ورجاله فى شرفة
مطلّة على هذا الميدان . ولعب الرماحة ، وهم فى أثوابهم الحمراء ، ألعابهم الشائقة .
ودار المحمل مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد الظهر . والناس بمجموعون لمشاهدته
فى كل فج ومن كل بلد . ونظمت الأزجال بهذه المناسبة ، والعوام ينشدونها
ويرقصون على نغمها وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة

بيع لى لحافى ذى المحمل حتى أرى شكل المحمل

ولج الناس بعد ذلك فى العبث واللغو والمجون ، واستعدادوا ذكريات الأيام
الماضية وتقاليدها القديمة فى ذلك الحين - وظلت هذه العادة وذلك التقليد مرعياً
- غالباً - بين تقاليد الدولة طول عهد الغورى بعد ذلك .

ثم خرج الحجاج والمحمل فى شهر شوال . ولم تخرج النساء للحج فى هذا العام

لتوقع فتن يقوم بها العربان في الطريق - وقد عاد الجميع في ٢٣ المحرم عام ٥٩١٠ هـ .

« جزء ٤ من ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ »

٦٣ - في سنة ٥٩١٠ هـ : في ربيع الأول عين « قاني باي قرا » أمير آخوركبير ، أمير الركب المحمل ، و « جان بردى » تاجر المماليك أميراً للركب الأول . وفي يوم ٩ رجب نودى في القاهرة بالزينة لاقتراب موعد دوران المحمل . واستعد لاعبو الرماح « الرماحة » للقيام بألعابهم المدهشة . ثم دار المحمل دورتيه ولعب الرماحة على خيولهم ، فأبدعوا أكثر من العام الماضي وزفت الكسوة ، ووزعت الخلع على مستحقيها من اللاعبين .

ثم خرج المحمل من القاهرة في شوال ، وعاد في ٢٤ المحرم عام ٩١١ هـ ، بعد معاناة فتن عربان وعطش وموت جمال . « جزء ٤ من ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٠ » .

٦٤ - في سنة ٩١١ هـ . في شعبان خلع الغورى على الأمير « خاير بك » كاشف الغريبة وأحد الأمراء المقدمين ، وأسند إليه إمارة ركب المحمل وخلع على « قنبك » رأس نوبة ثان ، وأسند إليه إمارة الركب الأول . وفي شوال توالى الأخبار عن شدة فتن الأعراب بالحجاز ، ومكة . فرأى السلطان أن يمنع الناس الحج هذا العام من مصر والشام وجميع البلاد التابعة وأصدر أمره بذلك . ثم إنه أرسل الكسوة والمال والزيت وما إلى ذلك في مراكب شرعية بالبحر الأحمر . وقد وفد الركب المغربى والتكرورى إلى مصر ذاهبين إلى الحج ، فلما علموا الأمر عدلوا عن الرحيل أيضاً قال ابن إياس : « إنه لم يسمع عن سنة امتنع فيها الحج من مبدأ دولة الأتراك إلا هذه السنة » . « جزء ٤ من ٨٦ ، ٨٩ » .

٦٥ - في سنة ٩١٢ هـ . جاءت أخبار في صفر في تلك السنة من مكة تفيد أن عدداً من اليمنيين والعراقيين وفدوا إليها حاجين في ذى الحجة المنصرم ، وقد تم لهم أداء الفريضة . فقدم السلطان على عدم إخراجه المحمل . ولمنعه الناس من الحج في السنة السالفة بسبب ما تواتر إلى سمعه من الفتن القائمة ببلاد الحجاز .

ثم إنه أرسل جندا إلى مكة لتطهيرها من دعاة الفساد وأهل الفتنة . فخرج نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية بقيادة خاير بك بن اينال كاشف الغريبة وأحد المقدمين . وفي صحبته قنبك بن شاد بك رأس نوبة ثان وعدد من الأمراء العشرات . وكان خروجهم في رجب . وقد أرسل معهم المحمل أيضا . ونودي للنساء بعدم الخروج إلى الحج في هذا العام كذلك . فأقام المحمل بالريذانية إلى الأربعاء ٩ رجب ، ثم سافروا . ولما بلغوا بلاد الحجاز قاتلوا الخارجين العابثين وانتصروا على بنى إبراهيم ، وهرب منهم أمير ينبع السابق يحيى بن سبع ، وهو أحد العابثين الثائرين وقد أرسلوا بذلك كله رسولا - هجانا - إلى السلطان بلغ القاهرة في ١٨ رمضان ، فسر الناس والسلطان لأخبارهم . وأمر بعزف الموسيقى ثلاثة أيام وقد أرسلت رموس القتلى فيما بعد في شوال فأشهرت في القاهرة .

وفي الاثنين ١٩ رمضان عرضت كسوة الكعبة على السلطان من فوفة على رموس الخالين بين طرقات القاهرة والناس يمتنعون بمشاهدتها . وفي ذى القعدة جاء مبشرون آخرون بأن الجند المصري همزموا أعداءهم هزيمة أخرى منكرة . وفي ذى الحجة وفد مبشر عن الحجاج بأنهم في أمن ، وأن الجنود بعد انتهائهم من القتال أدوا فريضة الحج . (ج ٤ ، ص ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠) .

٦٦ - في سنة ٩١٣ هـ . في الخميس ١٩ ربيع الأول خلع الغورى على الأمير طراباى ، رأس نوبة النوب وقرره في إمرة ركب المحمل ، وقرره قانسوه أبو سنة ، وإلى القاهرة في إمرة الركب الأول . ونودي للناس في ذلك اليوم بأن يخرج إلى الحج من يشاء رجالا ونساء ، فكان ذلك مثارا للسرور العام .

وفي الاثنين ١٩ شوال خرج الركبان في تجميل وزينة . وكان عدد الحجاج هذا العام وافرًا ، نظرا لما توقعوه من أمن الطريق ، وحج عدد كبير من أعيان رجال مصر ومنهم القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شمس الدين التتائى المالكي . وكان قاضى المحمل - وعدد من الأمراء العشرات . وحجت خوند أصل باى أم

الملك الناصر سرية الأشرف قايتباى . . وحجت خوند جان كدى زوجة الملك
الظاهر قانصوه خال الناصر بن قايتباى . وحجت زوجة الأمير تانى بك قرا وهى
بنت بردبيك صهر الملك الأشرف إينال .

وفى ٢٤ وفد مبشر عن الحجاج وأخبر عما هم فيه من أمن وسلامة ورخاء .
وعاد الجميع فى ٢٠ المحرم عام ٥٩١٤ . فأنعم السلطان على الأميرين لما مثلا بين
يديه . . (جزء ٤ ص ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١) .

٦٧ - فى سنة ٥٩١٤ : فى ربيع الثانى أسند السلطان الغورى إمارة ركب
المحمل إلى « ماماي جوشن » ، وإمارة الركب الأول إلى « قانصوه دولات بردى » ،
أستادار الصحبة . وفى يوم الخميس ٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وجلس
بالمقعد وحوله أمراؤه ورسول من قبل ملك بغداد وطيف أمامهم بالمحمل ولعب
الرامحة ألعاب فرسية مذهشة . والناس من حولهم يشاهدون . وتقدم عدد
من المماليك من راكبي الخيول ولعبوا بالمشاب ألعابا بديعة تنم عن مهارة وقدرة
وأحرقت إحراقة نفط مرتين .

وفى يوم ١٨ شوال نسل المحمل وحجاجه من القاهرة فى زينة وحفاوة وحسن
وداع - وجاء مبشر بأمنهم وسلامتهم فى ٢٣ ذى الحجة ، وكان مجيئه مبكرا . وفى ٢٢
المحرم عام ٥٩١٥ دخل الحاج القاهرة ، وكانوا فى يمن وسرور وحدثوا بما أنشأه
السلطان الغورى من ضروب الإصلاح بالعقبة ، فقد أنشأ هناك نزلا وعدة مخازن
لإيداع الودائع ، وأبراجا يقيم بها جند لحماية الطريق . ومهد الطريق للمسير ، وأنشأ
أبراجا بعدة نواح أخرى يقيم بها جنود منها برج بعجروود وآخر بنخل وآخر
بالأزهم ، وأجرى آبارا بطريق مكة ، وهكذا فعل فى سبيل الحج . فلمجى الألسنة
بمدحه ، والثناء عليه . (جزء ٤ ص ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١) .

٦٨ - فى سنة ٥٩١٥ : فى يوم الخميس ١٧ ربيع الأول عين الأمير « طقطباى » ،

نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين أميراً لركب المحمل «ومغلباى الزردكاش، أميراً بالركب الأول، وفي يوم الاثنين ١٠ شوال نزل السلطان إلى الميدان بالقلعة وعرض عليه كسوة الكعبة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم . وطيف بهذه الأشياء مع المحمل في القاهرة . وفي يوم الاثنين ١٧ شوال أيضاً خرج المحمل من القاهرة . وخرج في صحبته أحد أمراء بني عثمان حاملًا نحو أربعين ألف دينار أرسلها ملك العثمانيين لتفريقها على فقراء مكة والمدينة . وفي ذى الحجة وفده بمصر من قبل الحجاج بالآمن والسلامة ، ويقال إنه وصل في ١٣ يوماً فقط . وفي يوم الخميس ٢٣ المحرم عام ٩١٦ هـ دخل المحمل إلى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

« جزء ٤ ص ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٩ » .

٦٩ - في سنة ٩١٦ هـ : في ربيع الأول عين « قانصوه بن سلطان جر كس ، أحد الأمراء المقدمين أميراً لركب المحمل ، والأمير « نوروز ، تاجر الممالك أحد الأمراء الطليخانات أميراً للركب الأول . وفي يوم السبت ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة . وفي الخميس ٢٦ المحرم عام ٩١٧ هـ دخل الحجاج إلى القاهرة . وقد قاسوا في هذه السنة مشقة وشدة من مرض وموت جمال ، وقيل توفي نحو ألف وثمانمائة نفس .

« جزء ٤ ص ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ » .

٧٠ - في سنة ٩١٧ هـ : في الاثنين ٢٠ ربيع الأول خلع السلطان على المقر السيفي « طومان باى الدوادار الكبير ، - الذى ملك فيما بعد - وقرره في إمارة الحج ، بركب المحمل . وخلع على « بك باى ، أمير عشرة وأحد ممالك الأتابكي أربك - كان - ، وقرره في إمارة الركب الأول .

وفي يوم الاثنين ١٥ شوال ، جلس السلطان في الميدان بالقلعة وعرضت عليه الكسوة الشريفة والبرقع ومقام إبراهيم عليه السلام والمحمل الشريف وفي الخميس ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة في حقارة وحسن وداع . وحج عدد كبير من الأعيان والأمراء والأميرات . منهم خاير بك أحد مقدمى الألوف والذى كان كاشفاً للغربية واشتهر بذلك . وحج الشرفى يونس بن الاقرع نقيب

الجيش . وزوجة الأمير طومان باى وهى بنت الأمير أقبردى الدوادار ومعها والدتها بنت خاص بك وزوجة الأتابكى سودون العجمى . وحج شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ، وكثير غيره من العربان منهم حسام الدين بن بغداد .

وفى يوم الجمعة ٢٣ من ذى الحجة حضر مبشر الحجاج وأخبر عنهم بأمهم وسلامتهم ، وكانت قد أشيعت عنهم أخبار سيئة فزيقت . وفى يوم الخميس ٢١ المحرم عام ٥٩١٨ دخل الركب الأول ، وفى يوم السبت ٢٣ منه دخل ركب المحمل إلى القاهرة متأخراً عن ميعاده ، فخلع السلطان على أميره خلعة نفيسة ، وكذلك على من حج غيره من الأمراء . وقد حمد الناس هذا العام سيرة أمير المحمل طومان باى الدوادار ، وأنشوا عليه بما هو أهله ، وتحدثوا بما قام به من ضروب البر والإحسان وما بذله للفقراء والمساكين . « جزء ٤ ص ٢٢٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ » .

٧١ - فى سنة ٥٩١٨ : فى ٢٢ ربيع الأول خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « تمر الحسى » المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين وجعله أميراً لركب المحمل . وخلع على الأمير « يوسف الناصرى » شاد الشراب خاناة الذى كان نائب حماة ، خلعة وجعله أميراً للركب الأول . وكان قد اشتكى واستعفى من هذه الإمارة فلم يعفه السلطان .

وفى الخميس ١٤ شوال جلس السلطان بالميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام إبراهيم عليه السلام ، والمحمل ، فطيف بها فى القاهرة وكان يوماً حافلاً . وفى ١٨ منه خرج الحجاج من القاهرة وصحبهم المحمل الشريف ، فرجت لهم القاهرة . وتقدم المحمل عدد من الأفيال الكبار مزينة بألوان من الأقمشة ومعهما الموسيقى من طبل وزمر . وتقدمه أيضاً القضاة الأربعة وقاضى مكة وغيرهم من أمراء وأعيان .

وقد عاد الركب الأول فى الأربعاء ٢٢ المحرم عام ٥٩١٩ . وعاد ركب المحمل فى الخميس ٢٣ منه . وقد أنش الحجاج على أمير الركب الأول ولم يثنوا على أمير

المحمل لبخله و رشححه . « جزء ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ » .

٧٢ - فى سنة ٩١٩ هـ : فى ٢ ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير « قانصوه كرت » ، أحد الأمراء المقدمين وقرره فى إمارة ركب المحمل . و خلع خلعة أخرى على الأمير « طومان باى » ، الحاجب الثانى وقرره فى إمارة الركب الأول وهو من الأمراء الطبليخانات .

وفى ١٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وعرضت عليه الكسوة والبرقع ومقام إبراهيم والمحمل عرضا عاما . وفى ١٧ منه خرج المحمل من القاهرة فى حفاوة وزينة ، وفى صحبته ملكان من ملوك التتار ، وودعهم الأتابكى سودون العجمى وعدد من الأمراء . وفى السبت ٢٣ من ذى الحجة جاء البشير بخبرهم وأمنهم وسلامتهم . وقد وصل من مكة فى ١١ يوما فعجب الناس لسرعته . ثم عاد الحجاج فى الخميس ١٩ المحرم عام ٩٢٠ هـ ، إلى بركة الحاج ثم دخل الركب الأول القاهرة فى الجمعة ٢٠ منه ، وعلى أثره فى السبت ٢١ المحرم دخل ركب المحمل . فخلع السلطان على أميريهما خلعه السفينة . وقد تقدم يوم دخولهما عن كل عام يومين فى هذا العام .

« جزء ٤ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ » .

٧٣ - فى سنة ٩٢٠ هـ : فى ٢٣ المحرم خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « طقطباى » ، نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين وأسند إليه إمارة ركب المحمل ، و خلع خلعة أخرى على الركنى سيدى « عمر » ، بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وأسند إليه إمارة الركب الأول ، فشكا واستعفى فلم يعفه . وقد خالف السلطان العادة فى التعيين المذكور إذ جرت أن تكون حوالى ربيع الأول ، فعبجل بالتعيين هذا العام فى المحرم . قال ابن إياس : « وقد خالف السلطان العوائد القديمة فى لبس أمراء الحاج فى شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد فى شهر ربيع الأول » .

وقد حج فى هذا العام من الأعيان : المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى ، وخوند زوجة السلطان ، والقاضى محمود بن أجا كاتب السر ، والأمير نائق الخازن ،

وكان موكولا إليه شئون الركب السلطاني . وفي ١٥ شوال رحل السلطان إلى بركة الحاج ليتفقد الخيام والمحال المعدة للحجاج بمناسبة خروج زوجته وولده إلى الحج .

وفي الاثنين ١٧ شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة . وكان لخروجه يوم مشهود لم يقع له نظير . . . وذلك لعظم من صحب الركب هذا العام من الحجاج وجمال مواكبتهم وأبهة زينتهم ، وما حملوه في جعبتهم من مال وهبات . وخلع السلطان خلعا على أمير المحمل وقاضيه وولده . وكان السلطان وقت خروج المحمل جالسا في شباك قصره بالقلعة لمشاهدته . وقد ركبت زوجة السلطان إلى بركة الحاج وودعها من كراثم العقيلات عدد كبير ، ثم نودى ألا يصحب موكبها أحد من الحجاج . . . وحج هذا العام عدد ضخم ، وخرج من أصحاب المحفات الخاصة أكثر من عشرة . وقد خيف عليهم من الكثرة والبرد معا . . .

وقد رحل المحمل من بركة الحاج في يوم السبت ٢٢ شوال ، وسبقه في اليوم الماضي - ٢١ منه - الركب الأول ، ومعه باش المجاورين . أما زوجة السلطان وولده وكتاب سره فقد رحلوا في ركب خاص مبكرين جداليل ٢٢ منه حين طلوع القمر . وقبولوا مقابلة شائقة في مكة ، وقيل نزل أميرها الشريف بركات عن فرسه واقتاد زمام فرس ابن السلطان .

وفي الخميس ٢٥ ذى الحجة ورد بشير بإسلامة الحجاج وزوجة السلطان وولده وكتاب سره . وكان قد أشيع موته - ثم عاد الركبان إلى بركة الحاج في ٢١ المحرم عام ٩٢١ هـ وصحبته هؤلاء العظام ، فخرج الأمراء للقائهم ، ودخلوا القاهرة في حفاوة وحسن استقبال - وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ، ولم يثنوا على أمير ركب المحمل .

« جزء ٤ ص ٣٦١ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ » .

٧٤ - وفي سنة ٩٢١ هـ : في ٢٢ ربيع الأول أسندت إمارة ركب المحمل

(١٢ م - مالك)

إلى الأمير « علان » أحد المقدمين والدوادار الثاني . وأسندت إمارة الركب الأول إلى الجناب العلائي « علي » بن المؤيد أحمد بن الأشرف إينال .

وفي يوم الخميس ١٦ شوال عرض السلطان كسوة الكعبة ومقام إبراهيم ، وعرض المحمل وهو جالس في حوش القلعة . وفي يوم السبت ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة في خفاوة وحسن وداع . ومعه باش المجاورين في تلك السنة الأمير « يبردى بن كسباي » أحد الأمراء العشرات ، ومعه خمسون مملوكا للإقامة في مكة .

وفي ٢٦ منه حضر المبشر الأول للحجاج ، وقد أبطا عن ميعاده أياما بسبب خروج العربان عليه وسرقة ما معه حتى خطابات الحجاج ، فلم تصل إلى من أرسلت إليهم . - وقد عاد الحجاج هذه المرة في يوم الثلاثاء ٢٣ المحرم عام ٩٢٢ هـ - وأثنى الجميع على الأمير علان لما بذله من المعاونة الصادقة والبر وعمل الخير . وقد قاسى الحجاج مشقة وشدة من السيول الجارفة والغلاء وقطع الطريق .

« جزء ٤ ص ٤٤٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ - جزء ٣ ص ٦ ، ٧ » .

٧٥ - في سنة ٩٢٢ هـ : في ١٨ ربيع الأول خلع السلطان الغوري على الأمير « أرزمك الناشف » أحد المقدمين ، خلعة ، وعينه في إمارة ركب المحمل . وخلع على الأمير « برسباي القليل » أحد أمراء الطبليخانة خلعة ، وعينه أميراً للركب الأول . وبعد مدة خرج الغوري لقتال العثمانيين ، فكان هذا التعيين آخر تعيين يمضى باسم السلطان المذكور . وكان هذان الأميران آخر أميرين عيننا للحج في عصر المماليك .

ولما رحل الغوري إلى الشام وحلب أرسل في رجب كتاباً إلى نائبه في مصر الدوادار طومان باي يطلب إليه أن يمنع الحجاج من السفر هذا العام إن علم أن طريق الحجاز غير مأمون . وإن علمه مأموناً فليجهز الحجاج كالعادة المتبعة ولايرحلهم . وكان قد أشيع بين الناس أن الحج ممتنع هذا العام بسبب اضطراب الأحوال

ما بين هجوم العثمانيين على أملاك الدولة ، وما بين فنن العربان وقطعهم الطريق الحجازى على سالكيه ، فنودى فى يوم - الاثنين ٤ شعبان فى القاهرة بأن يستعد معتمرو الحج للخروج فى الميعاد . ولكن بعد قليل كان الغورى قد انهزم وقتل فى مرج دابق وزادت البلاد اضطرابا ، وتولى الملك الأشرف طومان باى . وأخذ فى الاستعداد للقاء العثمانيين بالبلاد المصرية . حينئذ تقاعد الناس عن الخروج إلى الحج . وقد أرسل السلطان طومان باى الكسوة والأموال المعتادة لأهل المدينة ومكة مع رسول خاص هو الطواشى مرهف ، فركب لذلك البحر الأحمر وتوجه لقضاء مهمته - وفى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم استيلاء العثمانيين على مصر وانتهى بذلك عصر المماليك .

فيضان النيل والاهتمام به

النيل هبة لمصر ونعمته ، ويده عليها ورحمته . لولاه لناها الجذب وأجدها المحول ، ودب فيها دبيب الموت والخمول ، وأصبحت الحياة فيها قليلة الغناء ، ضئيلة الهناء . لأنه شريان أرضها . ومنشئ تربها . وباعث خصبها ، ومحى نباتها ، وساقى أهلها ودوابها . وهى إليه أكثر احتياجا من بلدان كثيرة إلى أنهارها . لضآلة مائها وقلة أمطارها .

وله فى كل عام موسم فيضان ، يرتفع فى إبانها ماؤه فى مجراه رويدا رويدا فى يوليو وأغسطس وسبتمبر إذ يبلغ أقصى ارتفاع له فيه . ثم فى أكتوبر ونوفمبر ، ومن ثم يأخذ فى التراجع والنقصان . وسبب فيضانه هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة فى موسم الصيف لهبوط الرياح الموسمية الصيفية عليها . فتمتلئ وديان الحبشة بالماء ، وهى روافد النيل . فتتدفق فى مجراه وتربو على مياه منبعه الاستوائى الدائم .

وفى غير موسم الفيضان تشح المياه فى مجرى النيل وتتضاءل وتفيض ، حتى يصعب على سقااة الأرض سقيها منه ، لذلك أخذت الحكومة المصرية فى العصر الحديث تنشر الرى الصيفى الدائم بوساطة ما تنشئه من قناطر وخزانات وترع ومصارف . فيخزن جزء من مياه النيل خلف القناطر ، حتى يحتاج إليه — أما فى أيام الفيضان فيسهل الرى طبعاً ، ولا سيما فى أراضى الحياض النيلية التى لم تنظم تنظيمها صيفياً .

ولهذه الأهمية الكبيرة التى احتازها نهر النيل ، عنى به المصريون منذ الأزمنة القديمة ، وحيكمت حوله الأساطير الطريفة الخيالية المسلية التى برهن الكشف الحديث على عدم صدقها . فقالوا إنه ينبع من الجنة ! وإنه عند منبعه يشترك مع

سيحون وجيحون ودجلة والفرات حيث تفيض جميعا من قبة عظيمة.. وهكذا^(١)
وقد بلغ من حب المصريين القدماء له أن انقلب هذا الحب إلى قداسة وعبادة
واحترفوا بفيضانه احتفاء هو مضرب الأمثال ، وجروا على عادات في احتفائهم به
فيها كثير من الإسراف ، منها ما أبطل منذ دخول العرب والإسلام إلى البلاد
المصرية على ما يذكره بعض المؤرخين .

ولم يقصر المصريون في العصور الوسطى ، في الاهتمام بالنيل ؛ وفي العناية
بفيضانه وإقامة الجسور عليه ، والقناطر ومد الخلجان منه ، وإنشاء المقاييس عليه.
وإقامة المهرجانات الحافلة في موسم زيادته ، وتخصيص أيام بذلك ، اشتهر منها يوم
كسر الخليج .

واهتمام مصر به في العصر الحديث غنى عن الإشارة إليه ، فقد عني بمفايدسه ،
ورصد له المهندسون والعمال والخبراء للحراسة والملاحظة مائه ارتفاعا وانخفاضاً
ولحسن تصرفها ، ويحتفل بوفائه كل عام .

والنيل كان ولا يزال إحدى النواحي المهمة التي أوحى إلى شعراء مصر
وأدبائها السائغ الرائع من الشعر ، والبديع الذائع من الأدب . فوصفوه طويلا
وعرضا ومدا وجزرا وفيضانا ونقصانا . ووصفوا ما على حفافيه من زروع كريمة
وثمار شهية . وما شدا حوله من أطيوار مغردة ، وما أنشء من بساتين غناء ، وجنات
فيح ، وما امتلأ بأنسامه الوانية من ليالى حافلة ، وما فاض على جانبيه من أسمار
وأحاديث ، وما خلد على شاطئيه من جميل الذكريات . . قال الشاعر أبو حامد
ابن محمد الأنطاكي المتوفى عام ٥٣٩٩ هـ . من قصيدة له يتشوق إلى مصر :

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت	ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبوا إلى هفوات فيك لى سلفت	قطعتن وعين الدهر ترعاني
مع سادة نجب غر غطارقة	في ذروة المجد من ذهل بن شيبان

وذى دلال إذا ما شئت أنشدنى وإن أردت غناء منه غنائى
سقيته وسقانى فضل ريقته وجادلى طرفه عفوا ومنائى (١)

ولم يقل اهتمام مصر فى عصر سلاطين المماليك ، بالنيل وفيضانه ، عن اهتمامها
به فى أى عصر آخر ، وذلك بمراقبة فيضانه ونقصانه ، ونشر البشرى بزيادته ،
والاحتفال بعيد وفائه ، والعناية بمقياسه .

ومقياس النيل له تاريخ حافل . وقد أفرد به بالبحث فى باب طويل صاحب
تقويم النيل (٢) . ويستخلص مما رواه ، وما رواه المقرئى وأبو المحاسن
والسيوطى (٣) وغيرهم ما يلى :

١ - أن مصر عرفت مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها ، ومنها :

(أ) مقياس منف - ويقال إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه - ويبدو
أنه ظل مستعملا معتمدا زمتا بعد دخول الإسلام .

(ب) مقياس ، قيل إن دلوكة الملكة العجوز أقامته ببلاد إخميم . وقيل
أقامت مقياسا آخر بأنصنا .

٢ - أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد الإسلام ، منها :

(أ) مقياس ، قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم
عند أنصنا . وقال المقرئى بناه بحلوان .

(ب) مقياس ، بناه عبد العزيز بن مروان - وكان واليا على مصر - بحلوان
وكان يسكن بها . وذلك عام ٥٨٠ هـ .

(١) عن يثيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٢٦٠ .

(٢) تقويم النيل ج ١ ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) راجع الخطط ج ١ ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر مقاييس النيل وزيادته » . وحسن المحاضرة
ج ٢ ص ٢٢٠ بعنوان ذكر المقياس .

(ج) مقياس ، بناء أسامة بن زيد التنوخي - وكان عاملا على خراج مصر -
بحزيرة الروضة ، في خلافة الوليد بن عبد الملك ، ثم اقترح إبطاله فأبطل ، وبني
مقياسا آخر في الروضة كذلك ، عام ٩٧ هـ ، في خلافة سليمان عبد الملك .

(د) مقياس ، أقامه - أورهه - الخليفة المأمون بالروضة أيضا ، بدلا
من مقياس أسامة الذي هدمه الماء ، وذلك عام ١٩٩ هـ . ولكنه لم يتمه . فآتمه
الخليفة المتوكل في عام ٢٤٧ هـ . وهو أكبر المقاييس ، وقد بنى في ولاية يزيد بن
عبد الملك على مصر ، وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه .
(هـ) مقياس ، يقال إن أحمد بن طولون بناه في الجزيرة .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام مقياس « منف » ، وأهمها بعد الإسلام
وأكبرها مقياس « الروضة » الذي آتمه المتوكل . ولعله بنى على نمط من مقياس
« منف » ، ومقياس الروضة هو الذي ظل مستعملا طول عصر المماليك ، وقد
أمر قاينباى في عام ٨٨٦ هـ بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه (١)
وقد روى المقرئى في وصفه قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثنى ، في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه
إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا . كل ذراع مفصل على أربعة
وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى ، فإنها
مفصلة على ثمان وعشرين إصبعاً ، كل ذراع ، . والأذرع الأولى هي السفلى .

وقيل في سبب اختلاف تقسيم أذرعه ، ما يلي : وقد ذكره المقرئى نقلا عن
القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى ، قال :

« لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما يليق أهلها
من الغلاء عند وقوف النيل عن حده في مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره . وإن
فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد

الأسعار ، بغير قحط - فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجاب :
 إني وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعا ، والحد
 الذى يروى منه سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى
 ستة عشر . والنهائتان الخوفتان فى الزيادة والنقصان - وهما الظمأ والاستبحار -
 اثنا عشر ذراعا فى النقصان ، وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة . - هذا والبلد فى ذلك
 الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلموه من القبط ، وخيرة العماره فيه .
 فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، عليا رضى الله عنه ، فى ذلك ، فأمره
 أن يكتب إليه أن يبنى مقياسا وأن ينقص ذراعين من اثني عشر ذراعا ، وأن يقر
 ما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا أصبعين .
 ففعل ذلك ، وبناءه بحلولان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ،
 وزوال ما منه كان يخاف ، بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربع عشرة ، لأن كل
 ذراع أربع وعشرون أصبعا ، فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر
 ذراعا . يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانيا وأربعين أصبعا ، وهى الذراعان .
 وجعل الأربع عشرة ست عشرة ، والست عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى
 عشرة عشرين .

ويبدو أن هذا التقدير لمناسيب الفيضان لم يثبت تماما فيما بعد ، وطرا عليه
 بعض التغيير .

ثم إن المقياس وكل به من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا حان
 موسم الفيضان ، وبشهر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين
 الحين والحين . واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » مختصا بمراقبة
 المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده . وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه
 عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن . وكان أصله من البصرة ،
 قدم مصر وحدث بها . فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى
 أمره إلا رجل من المسلمين ، فاختار القاضي بكار بن قتيبة ، ابن أبى الرداد لمراعاة

المقياس ، وأجرى عليه الرزق ، وقد توفي ابن أبي الرداد في عام ٢٦٦ هـ ، وبقي عمله وراثيا في عقبه . فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر .

هذا وكان للنداء بالزيادة أثر هام في حياة الناس والدولة معاً ، لأن الدولة تستحق جباية الخراج إذا بلغ الفيضان حداً خاصاً . وإذا تأخر الفيضان عن مواعده أرحف الناس وخافوا الشرق والجذب والغلاء ، وأمسك التجار ما في أيدهم من البضائع ، وإذا طغى الفيضان زاد عن معتاده خشى الناس الغرق والبوار ، وخافوا انتشار الأوبئة في أعقاب نكوصه . وهكذا .

والفيضان - كما ذكرنا - يقع في صيف كل عام وكانوا يضبطونه بالشهور القبطية لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة في شهر مسرى ، فإذا وفي تهياً السلطان ورجاله والناس ، للاحتفال بعيد وفاء النيل . وتختلف أهمة الاحتفال وعظمته والعناية به باختلاف الأيام والظروف والملايسات . ومهما يكن من شيء فقد جرت عادة الدولة أن يندب سلطانها من ينوب عنه في ترأس هذا الاحتفال . فيفتح السد على مرأى منه . وجرت العادة أيضاً أن يكون مندوب السلطان هو نائب السلطنة أو أتابك العسكر . وقد يندب أمير آخر غيرهما من عظماء الأمراء كالاستادار أو الدوادار ، تبعاً للملايسات الأحوال . وقل أن ذهب السلطان بنفسه لكسر السد . وعن ذهب بنفسه من السلاطين لكسره الظاهر برقوق عام ٨٠٠ هـ ، والمؤيد شيخ المحمودى في عام ٨١٦ هـ ، والناصر محمد بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ ، وشارك الأشرف الغورى فيه عام ٩١٧ هـ ، والظاهر خشقدم عام ٨٧٠ هـ ، وعام ٨٧١ هـ وعام ٨٧٢ هـ . كما جرت العادة بأن يكون كسر السد نهاراً لا ليلاً . ولعل المرة الوحيدة التي كسر فيها السد ليلاً هي المرة التي ذهب فيها الملك الناصر بن قايتباى لكسره عام ٩٠٣ هـ وذلك لخوفه على نفسه من بعض المماليك .

ويركب السلطان أو مندوبه سيفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة تمتلئ برجال

الدولة ، وتدلف بهم السفن إلى ناحية المقياس ، وإلى حيث يوجد السد في أول الخليج الكبير ، فيشاهدون المقياس . ويخلق أحيانا ، أى يطل بالخلق وهو عطر . ويكسر السد أمامهم ، ثم يأكلون ويشربون ويلهون حيناً بضروب من اللهو ثم يعودون .

ومن السفن التي اشتهرت بالاستخدام لهذا الغرض سفينة أطلق عليها « الحرافة » ، وأخرى سميت « الذهبية » ، ولبثت « الذهبية » السفينة الرسمية التي تركب في هذه المناسبة زمنا ، ثم أبطلت عاداتها في عهد الأشرف قايتباي (١) . ويبدو أنها كانت سفينة ضخمة مجهزة خير تجهيز ، إذ قيل إن فيها ستين مجدافا . هذا ولعل تسمية « العوامات » - السفن العائمة - المعروفة في القاهرة الآن « الذهبيات » ذات صلة بهذه التسمية القديمة . وكان يطلق على السفن الأخرى التي تستخدم للعبور بين البرين أو للانتقال في خلال النهر لفظ « العشاريات » .

وأهم المظاهر العملية للاحتفال بوفاء النيل ، كسر سد الخليج . أما الخليج فهو عبارة عن جدول متسع يستمد الماء من النيل زمن الفيضان . والمراد بالخليج هنا ، الخليج الكبير أو خليج مصر أو خليج القاهرة . فكل هذه تسمية لخليج واحد كان يجري في ظاهر القاهرة ومنهم من سماه خليج اللؤلؤ والخليج الحاكم وخليج أمير المؤمنين وقد كان بمصر خليجان على غرار عدة ، يجري معظمها في الوجه البحري ، ولكن الخليج الكبير هو الذي كان يعنى بكسر سده في عيد الوفاء . أما السد فهو حاجز صناعي يسد به فم الخليج من ناحية النيل عندما يبتدىء النيل في الفيضان تقوية لجسوره ، واحتفاظا به ليوم العيد . فإذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا أو يزيد في شهر مسرى احتفل بكسر هذا السد فتجري المياه من النيل إلى الخليج الكبير إلى غاية مداه . وكان يتلو هذه العملية فتح السدود الأخرى للخليجان الأخرى فيجري فيها الماء كذلك : وقد يحتفل بعض السلاطين بفتح سد آخر غير سد

الخليج الكبير أو يعنى به على الأقل ، كسد خليج أبى المنجا أو سد قنطرة
قديدار . . .

والاحتفال بكسر الخليج ، عنى به الفاطميون قبل المماليك ، بل وكان يومه
يعد فى جملة أيامهم الهامة ، ولعل أبهة الاحتفال به فى زمن المماليك لم تبلغ فى أقصى
مداها بعض ما بلغت فى زمن الفاطميين من ركوب الخليفة بنفسه لكسر السد
فى أجهل ملابس وزينة ، وحوله رجال درلته ، ثم بذل ضروب البر والصدقات ،
وإلقاء الخطب والقصائد ومنح الخلع والعطايا ومد الولائم الحافلة .

ومهما يكن من شئ ، فقد لبث هذا الاحتفال من تقاليد الدولة فى عصر المماليك .
وكان السلاطين فى بعض السنين يأمرؤن بقراءة القرآن فى ليلة الاحتفال بجوار
المقياس . وقد يأمرؤن القضاة الشرعيين بالمبيت هناك أيضا . فإذا تم الاحتفال فى
الغد مدت الموائد وخلعت الخلع وأجريت الألعاب المختلفة . وفى يومه يخرج
الناس فى سفن نيلية يرتادون بعض خلجان مصر أو يتجمعرون على جانبيها ويأخذون
بأسباب اللهو والتمتع والعبث .

مما يذكر أن من العادات المتبعة حينئذ كتابة بشارات إلى آفاق الدولة بوفاء
النيل المبارك واستحقاق الخراج . ويقوم بكتابتها موظفو ديوان الإنشاء
الممتازون ، فيدبجو بأسلوب أدبى رائع مطول . وهو نموذج من أدب هذا العصر .
كما ينظم الشعراء فى هذه المناسبة المقطوعات الكثيرة . وكذلك الزجالون والعوام
ينظمون ويغنون .

ومما يذكر أيضا أن النيل إذا زاد ارتفاعه حتى خيف منه على البلاد ، صدر
أمر السلطان إلى الأمراء والأعوان للتعاون فى ملاقة ذلك . فتقام السدود
والحواجز وتقوى الجسور ، وتسهر الحراس والرقباء . وقد يستخدمون من أبناء
البلاد من يصلح لهذا العمل بطريق السخرة فيصابون بضرر من وراء ذلك كثير .
وإذا لم يف النيل فى مواعده ، تخيف الشرق والجفاف والغلاء ، يصدر أمر

السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء .. أو لقراءة القرآن والحديث والدعاء طلبا للوفاء. وقد أفنى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى عام ٨٦٦هـ للسلطان خشقدم، لما لم يف النيل، بأن يستعين ببني العباس صغارا وكبارا، وأن يضعوا ماء في أفواههم، ثم يمجوه في إناء، ويرمى في النيل .. ففعلوا فراد ..

وكما يستسقون طلبا للزيادة، يستسقون طلبا للهبوط أحيانا، إذا طغى الفيضان وزاد حتى خيف الضرر. كما وقع في عام ٧٦١هـ.

وفيما يلي نصوص تاريخية عن اهتمام المصريين في العصر المملوكى بفيضان النيل - دون تحاريقه - والاحتفال بوفائه وكسر سده وما يتصل بذلك من حوادث وحالات نقلنا عن ابن إياس، مع الاستعانة بغيره أحيانا، ومع الإشارة إليه (١) وذلك على سبيل المثال على الاستيعاب.

أخبار فيضان النيل وما يتصل به

١ - كان يجي من أهل مصر عند وفاء النيل ثمن الحلوى والفاكهة والشواء التي يمد بها السباط بجوار المقياس يوم الوفاء. فأبطل المنصور قلاوون ذلك وجعل نفقات السباط من بيت المال. (ج ١ ص ١٢٠).

٢ - بلغت الزيادة عام ٦٤٨هـ، ١٧ ذراعا وإصبعًا - وفي عام ٦٤٩هـ، ١٨ ذراعا، ١٨ إصبعًا - وفي عام ٦٥٠هـ، ١٨ ذراعا، ١٧ إصبعًا - وفي عام ٦٥١هـ، ١٧ ذراعا و ١٧ إصبعًا - وفي عام ٦٥٢هـ، ١٧ ذراعا، ١٢ إصبعًا - وفي عام ٦٥٣هـ، ١٨ ذراعا - وفي عام ٦٥٤هـ، ١٨ ذراعا و ٣ أصابع - وفي عام ٦٥٥هـ، ١٧ ذراعا

(١) إذا نقلنا عن مرجع غير ابن إياس نصصنا عليه مشيرين إلى النجوم الزاهرة بحرف نون وحسن المحاضرة بحاء وسلوك المقرئى يسين، وتهويم النيل بناء. وقد ألزم صاحب النجوم النص على مقدار الماء في العام القديم ومقدار الزيادة في العام الجديد، عقب حوادث كل عام، فليراجع ثمت. وقد أثبتنا عنه عشرة فيضانات متتالية.

(٢) انظر الحديث عن حوادث القحط والفلاء في الأبواب القادمة.

و١٧ إصبعا - وفي عام ٦٥٦ هـ ، ١٧ ذراعا ، ٥ أصابع - وفي عام ٦٥٨ هـ ، ١٨ ذراعا و١١ إصبعا . ن: ج ٧ ص ٢٢ الى ٢٣ .

٣ - في عام ٦٩٤ هـ : أو في النيل في السادس من أيام النسيء وبلغت الزيادة في تلك السنة ١٦ ذراعاً ، ١٧ إصبعا ، ثم هبط فوق الغلاء وندر وجود القمح . وبلغ سعر كل أردب ثمانية مثاقيل ذهب ونصفا . ن: ج ١ ص ١٦٧ .

٤ - في عام ٦٩٥ هـ : في عهد العادل كتبغا ، شح النيل وقد وصل إلى اثنتي عشرة ذراعا ، ثم هبط فشرقت الأراضي . وزاد الغلاء وتعذر العيش على الناس ، حتى أكلوا السكلاب والقطط وسائر الدواب . ثم خف الأمر في جمادى الآخرة . (١)

» ج ١ ص ١٣٣ «

٥ - في سنة ٧٠٩ هـ : وقف النيل في هذه السنة عن الوفاء في ميعاده . واستمر كذلك إلى آخر مسرى : ودخلت أيام النسيء وهو في توقفه . ثم أخذ في نقصان ، فكثرت الضجيج والصخب والخوف من الغلاء . وفعلا ارتفعت أثمان الغلات والخبز وخرج الناس للاستسقاء ، فاستسقى الخطيب نور الدين .

ثم رسم السلطان المظفر بيبرس بكسر السد ، من غير وفاة ، إذ نقص النيل عن حد الوفاء ثلاث أصابع ، فكسر السد في ٧ توت ، ولم يخلق المقياس حينئذ لأن التخليق لا يكون إلا بالوفاء . وفي ٢٧ توت نقص النيل نقصا عظيما وكان أقصى ارتفاع له في هذا العام ١٥ ذراعا ، ١٧ إصبعا . فشرقت البلاد وأصابها الجذب واشتد الغلاء .

» ج ١ ص ١٥٠ - ن: ج ١ ص ١٧١ «

٦ - في سنة ٧١٧ هـ وفي النيل في ٢٩ أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع .

فكسر السد بعد عصر اليوم المذكور خوفا من قوة عزم الماء . » ج ١ ص ١٦٠ «

٧ - في ٧٢٤ هـ في هذه السنة بدأ حفر الخليج الناصري إلى سريا قوس بأمر

السلطان الناصر محمد بن قلاوون . - وهو غير الخليج الحاكي .

قيل : لما أو في النيل في تلك السنة ودخل الماء إلى الخليج الناصري كان له يوم

(١) انظر الحديث عن حوادث القحط والغلاء في الأبواب القادمة .

مشهود ، ونزل السلطان الناصر ومعه أمراؤه يوم كسر السد « ج ١ ص ١٦٣ »

٨ - في سنة ٧٦١ هـ : جاءت القاعدة ١٢ ذراعا ثم كان الوفاء في ٦ مسرى ، وبلغت الزيادة إلى ما يقرب من ٢٤ ذراعا فأصاب الناس الضرر ، واستسقوا لمبوطه حتى هبط بعدما مكث إلى آخر توت . « ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ »

٩ - في سنة ٧٧٥ هـ : في هذه السنة توقف النيل عن الزيادة والوفاء . ثم هبط ونقص أصبعين . فضج الناس وما جوا . وغلت أسعار الغلال وقلت كمياتها ، واختفى الخبز من الأسواق . فرسم السلطان الأشرف ، شعبان بأن يخرج الناس للاستسقاء . وفي يوم الخميس ٢ ربيع الآخر خرجت جماهير منهم إلى الصحراء وبينهم العلماء والصالحون والرجال والنساء والأطفال والمسلمون واليهود والنصارى . ثم وفد الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الشرعيون الأربعة وساروا خلف قبة النصر ، وأقاموا منبرا صعد إليه قاضي القضاة الشافعي شمس الدين بن القسطلاني وخطب خطبة بليغة في الاستسقاء . ثم حول رداءه وكشف عن رأسه . ودعا الله تعالى أن يخفف عنهم هذا البلاء .

وفي اليوم التالي نقص ماء النيل مرة واحدة . . . فزادت الأسعار وبلغ ثمن الأردب من القمح ١٢٠ درهما ومن الشعير ٨٠ درهما . وهكذا . . . واستمر الحال كذلك ، فاضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للناس والفقراء . . . « ج ١ ص ٢٢٩ »

١٠ - في سنة ٧٨٩ هـ : في هذه السنة لم يصل النيل إلى حد الوفاء ثم نقصت زيادته واضطربت الأحوال وقلق الناس . ثم زاد مرة أخرى وبلغ حد الوفاء . « ج ١ ص ٢٦٦ »

١١ - في سنة ٨٩٧ هـ : في هذه السنة وفي يوم السبت ٦ شوال الموافق آخر يوم من أيدب ، زاد النيل أربعين إصبعا في يوم واحد .

وفي ثاني يوم ، أى فى أول مسرى ، زاد ٦٢ إصبعا . فبقى إلى الوفاء ذراعان .
وفي ٣ مسرى زاد ٥٠ إصبعا فبلغ حد الوفاء وزاد إصبعين . وكانت جملة زيادته
أربعة الأيام سبع أذرع ونصف ذراع وإصبعين .

وكان وفاؤه فى ٣ مسرى - وزيادته تلك لم يعهد مثلها فى السنين الماضية .

« ج ١ ص ٣٠٤ » .

١٢ - فى سنة ٨٠٠ هـ : فى يوم الأحد ١٩ من ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ،
فنزّل السلطان برقوق من القلعة إلى ناحية المقياس ليخلق العمود ويكسر السد ،
فدخل إلى المقياس وخلق العمود ثم نزل إلى الحراقة لكسر السد فكسره .

« ج ١ ص ٣١٠ »

١٣ - فى سنة ٨٠١ هـ : بينما كان السلطان فرج بن الظاهر برقوق يجلس على
عرشه فى أول عهده إذ جاءه ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك فاستبشر الناس
بذلك . « ج ١ ص ٣١٧ » .

١٤ - فى سنة ٨٠٣ هـ : وقف النيل دون الزيادة . فانتشر الغلاء وقلت الغلال
ثم زاد النيل فى يوم واحد ٤٨ إصبعا ، وبقى إلى الوفاء ١٦ إصبعا . وبعد قليل أوفى
وزاد عن الوفاء خمس أصابع . « ج ١ ص ٣٤٠ »

١٥ - فى سنة ٨١٣ هـ : انتهت زيادة النيل إلى ٢١ ذراعا . وكان الوفاء
أول مسرى . « ج ١ ص ٣٥٤ »

١٦ - فى سنة ٨١٤ هـ : وفى النيل فى أول مسرى . وبلغت الزيادة ٢٢ ذراعا
وإصبعا من الثالثة والعشرين . فغرقت البساتين وانقطعت الطرق وتأذى الناس .

« ج ١ ص ٣٥٤ »

١٧ - فى سنة ٨١٦ هـ : قال ابن حجة الحموى : وفى النيل المبارك فى سنة ٨١٦ هـ

في أوائل مسرى . فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس ، وكسر السد على العادة .
وذلك قبل أن يتوجه إلى دمشق بسبب نوروز - أى نوروز الحافظى الذى شق عليه
عصا الطاعة - فأنشده في ذلك اليوم مهنثا :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ومنتصبا في ملكه نصب تميز
كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى وحققك بعد الكسر أيام نوروز
فكان الفأل بالنطق . « ج ٢ ص ٤ »

١٨ - في سنة ٨١٨ هـ : كان الملك المؤيد شيخ يتباهى في يوم كسر النيل
المبارك . ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له « حراقة » ويجعل فيها
الصناجق والكثوسات . فإذا وفى النيل يعدون له « الذهبية » فى بولاق . ويتوجه
إلى المقياس يخلق العمود ويكسر السد . والأمراء المقدمون حوله فى « الحراريق »
المزينة ، حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . ويكون له يوم مشهود لم يسمع
بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك ما كان يصنعه أستاذه برقوق . « ج ٢ ص ٥ »

١٩ - فى سنة ٨٢١ هـ : لم يف النيل فى ميعاده ، وزاد الغلاء . فنزل الملك
المؤيد للاستسقاء ، ولبس جبة من الصوف الأبيض وعلى رأسه عمامة صغيرة
جداً بعذبة مرخية خلفه . وعلى كتفه مئزر من صوف أبيض . وركب فرسا بغير
فماش حريرى ولا سرج ذهبى . وذبح هناك بيده أغناما وأبقارا ، وفرقها على الفقراء
وفرق فى ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وصلى على الرمل من غير
سجادة وتواضع لله . فزاد النيل ، ووفى فى أواخر توت . ثم هبط بسرعة .
وشرق أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر ، وعزت الأقوات سنة كاملة (١)
« ج ٢ ص ٦ »

(١) هذه الحوادث ذكرها صاحب تقويم النيل فى عام ٨٢٣ هـ وذكر فى عام ٨٢١ هـ أن النيل وفى ،
وفتح السلطان السد .

٢٠ - في سنة ٨٢٤ هـ ، زاد النيل زيادة مفرطة . وثبت إلى آخر هاتور ، ولم يعهد هذا من قبل في الإسلام . وأصاب الناس الضرر . وكثرت البرك والمستنقعات وغرقت البساتين وأوذيت الزروع وسدت الطرقات . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من ١٩ ذراعا . « ج ٢ ص ١٢ - ت : ص ١ ج ٢٠٩ - تاريخ الخلفاء ص ٢٣٩ »

٢ - في سنة ٨٢٦ هـ : وفي النيل في ١٨ أبيب ، فكأنه تقدم عن ميعاده أياما . وقيل في دت ، أو في ٦ مسرى . « ج ٢ ص ١٧ - ت : ج ١ ص ٢١١ »

٢٢ - في سنة ٨٣٨ هـ ارتفع النيل ١١ ذراعا و ١٠ أصابع . ثم وفي في ٢ مسرى . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من الذراع العشرين وثبت إلى آخر بابه . وفتح السد الجمالي يوسف بن السلطان برسباي .

« ج ٣ ص ٣٥ - ت : ج ١ ص ٢١٣ »

٢٣ - في سنة ٨٤٥ هـ : كان وفاء النيل في ١٤ أبيب . « ج ٢ ص ٢٨ »

٢٤ - في سنة ٨٣٥ هـ : وقف النيل عن الزيادة والوفاء ثلاث أصابع ، وقيل أربع ، ولبث كذلك أياما لم يزد شيئا . فرسم السلطان بأن يخرج الناس للاستسقاء . فخرج القضاة الأربعة وأمير المؤمنين المستكفي بالله سليمان ، ومشايخ العلم الصالحاء والأعيان ، ولم يصحبهم السلطان فتألم الناس . وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف . واليهود على رؤوسهم التوراة . والنصارى وعلى رؤوسهم الإنجيل . ومعهم أبقار وأغنام ، وكثير من الرجال والنساء والأطفال الرضع . وهم يقولون : يا الله ارحمنا ! ويمموا الصحراء عند الجبل الأحمر وأقاموا منبرا ، صعد عليه قاضى قضاة الشافعية شرف الدين يحيى المناوى . فخطب خطبة الاستسقاء .

فلما أراد أن يحول رداء سقط الرداء إلى الأرض فتطير الناس من ذلك ! فلما رجعوا من الاستسقاء طلع ابن أبي الرداد ، ومعه روايات زعفران ! ونادى (م ١٣ - ممالك)

بزيادة إصبع ! ففرح الناس بذلك ! وأنعم عليه السلطان بمائة دينار . ثم إن النيل نقص بعد في تلك الليلة أصبعين ، وبقي إلى الوفاء ثمانية أصابع . فرسم السلطان بكسر السد فكسر . فلم يجر الماء في الخليج إلا قليلا . وأخذ النيل في النقص بعد ذلك . وقد أصيب الناس من وراء ذلك شر إصابة ، فماتت البهائم وأجدبت الأرض وزاد الغلاء (١) « ج ٢ ص ٣١ »

٢٥ - في سنة ٨٥٧ هـ : وفي النيل في ٢٣ مسرى - في رجب - ، فكسر السد المقر الشهابي أحمد بن إينال ، وهذه أول مرة يفتح السد . « ج ٢ ص ٤٣ »
٢٦ - في سنة ٨٥٨ هـ : وفي النيل في ١٣ مسرى - في شعبان - ففتح السد المقر الشهابي أحمد بن إينال . « ج ٢ ص ٤٧ »

٢٧ - في سنة ٨٥٩ هـ : في شهر شعبان كان وفاء النيل ، وقد أوفى في ١٥ مسرى ونزل المقر الشهابي أحمد ابن السلطان إينال وفتح السد . وبعد أيام زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطعت الجسور وغرقت بلاد كثيرة . ثم انخفض الماء بسرعة حتى شرقت الأرض البعيدة العالية وارتفعت أسعار القمح بسبب ذلك . « ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ »

٢٨ - في سنة ٨٦٠ هـ : وفي النيل في ٦ مسرى - شعبان - . وفتح السد الشهابي أحمد بن إينال . « ج ٢ ص ٥٦ »

٢٩ - في سنة ٨٦٦ هـ : لم تبد زيادة في النيل في هذه السنة في شهر أبيب إلا أوائلها فقط . أى أوائل الزيادة . وظل كذلك ١٥ يوما ، فضج الناس وافتضح خوفهم وارتفعت الأثمان . فرسم السلطان خشق دم للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا هناك ويتلوا القرآن والحديث الشريف ويتوجهوا إلى الله بالدعاء لزيادة النيل . فتوجه القاضى يحيى المنارى والسيد الشريف ابن حريز المالكي وجماعة من العلماء ، فأقاموا في المقياس أياما ورجعوا ولم يزد النيل ! فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصراني يستفتيه في ذلك .

فقال الشيخ أمين الدين : اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء من صغارهم لكبارهم ثم يضعون فى أفواههم شيئاً من الماء ويمجونه فى إناء ، ثم يصبونه فى فسقية المقياس ! ففعلوا ذلك . فكان فيه البركة !

ثم إن القاضى علم الدين صالحا البلقينى توجه إلى المقياس ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع زاد النيل ثلاث أصابع ، ففرح الناس بذلك ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وأمامه الأعلام وحوله اهتاف . ثم وفى النيل وثبت ثباتا طويلا فى زيادته إلى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى قائم التاجر وكسر السد . وقيل فى « د » ، هم السلطان بهدم المقياس حتى لا يعلم الناس الزيادة أو النقصان فثبطه الأقصرائى . ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ — ت ج ١ ص ٢٢٣ .

٣٠ — فى سنة ٨٧٠ هـ . وفى النيل . فنزل السلطان خشقدم بنفسه وكسر السد . وخلق المقياس . ج ٢ ص ٨٠ .

٣١ — فى سنة ٨٧١ هـ . كسر السلطان خشقدم السد . وقيل فى « د » ، نقلا عن « ن » ، إن هذه السنة خلت من الوفاء . ج ٢ ص ٨١ . ت . ج ١ ص ٢٢٥ .

٣٢ — فى سنة ٨٧٢ هـ . وفى النيل هذا العام فنزل خشقدم كعادته وفتح السد وهذه آخر مرة يفتحه فيها . ج ٢ ص ٨١ .

٣٣ — فى سنة ٨٧٣ هـ . بعد أن وقف النيل عن الزيادة فى مواعده مدة ، وفى شهر المحرم . فأنيب الأمير قرقاس الجلب أمير مجلس فى فتح السد . وكان سلطان العصر الأشرف قايتباى . ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

٣٤ — فى سنة ٨٧٤ هـ . فى يوم عيد النحر عام ٨٧٣ هـ جاءت بشارة المبشر بارتفاع النيل . وفى شهر صفر عام ٨٧٤ هـ كان وفاؤه . وقد وافق ٢٤ مسرى . فلما وفى نزل الأمير لاجين الظاهرى أحد مقدمى الألوف وفتح السد .

ج ٢ ص ١١٠ ، ١١٣ .

٣٥ — فى سنة ٨٧٥ هـ . فى شهر صفر كان وفاء النيل ووافق ٢٢ مسرى . وقام بكسر السد الأتابكى قلعسىز الذى كان حينئذ أمير سلاح بعد زوال أتابكيتيه . أما

أتابكى العصر فقد كان أربك بن ططخ ، وكان وقت كسر السد غائبا فى البحيرة .
« ج ٢ ص ١٢٢ »

٣٦ - فى سنة ٨٧٦ هـ . بشر بزياد النيل فى أول المحرم من السنة المذكورة .
فتفاهل الناس بذلك . وفى شهر صفر كان وفاؤه . ووافق ٢٦ مسرى فقام الأتابكى
أربك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩ »

٣٧ - فى سنة ٨٧٧ هـ . وفى النيل فى ٢١ مسرى - ربيع الأول - وفتح السد
الأتابكى أربك بن ططخ « ج ٢ ص ١٣٧ »

٣٨ - فى سنة ٨٧٨ هـ . وفى النيل فى شهر ربيع الأول . ووافق ٥ مسرى .
فذهب الأمير لاجين الظاهرى أمير المجلس وفتح السد . وفى ذلك اليوم زاد النيل
١٢ إصبعا بعد ١٧ ذراعا . وكانت زيادته ثلاث أذرع فى ستة أيام . « ج ٢ ص ١٤٧ » .
٣٩ - فى سنة ٨٧٩ هـ . وفى النيل فى شهر ربيع الأول . وكان قد توقف
أياما وقلق الناس لوقوفه . ووافق ٢٠ مسرى . ففتح الأتابكى أربك بن ططخ
السد . « ج ٢ ص ١٥١ »

٤٠ - فى سنة ٨٨٠ هـ . وفى النيل فى شهر ربيع الثانى . ووافق يوم وفاته يوم
١٢ مسرى . وقام الأتابكى أربك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٥٩ »

٤١ - فى سنة ٨٨١ هـ : وفى النيل فى شهر ربيع الثانى . وكان وفاؤه فى
٣ مسرى . وفتح السد الأتابكى أربك . « ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ »

٤٢ - فى سنة ٨٨٢ هـ . فى شهر ربيع الثانى كان وفاء النيل . ووافق آخر
شهر أربب ، وكسر السد فى أول مسرى ، وقد قام الأمير لاجين الظاهرى أمير المجلس
بكسره ، وفى جمادى الأولى انتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وإصبع واحدة . وثبت
كذلك إلى آخر بابه ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات وأغرق المنيا لارتفاعه .
« ج ٢ ص ١٧٤ ، ١٧٥ »

٤٣ - فى سنة ٨٨٣ هـ . فى شهر ربيع الثانى وفى النيل . وكان وفاؤه فى ٤ مسرى
فتوجه الأتابكى أربك وفتح السد . وفى الليلة زاد عن الوفاة ١٣ إصبعا . وفى
ثانى يوم كسر سده زاد ١٦ إصبعا ، وأكمل الذراع السابعة عشرة فى يومين . ويستفاد

ذكره ابن إياس في سنة ٨٨٤ هـ أنه بلغ ٢٠ ذراعا و ٢٠ إصبعا .

« ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ »

٤٤ - في سنة ٨٨٤ هـ : في ٣ جمادى الأولى كان وفاة النيل . ووافق ٢٩ أبيب وكسر السد في آخر أبيب على مرأى من الأتابكي أزبك . وبعد يومين زاد النيل عشرين إصبعا ، فبلغ بذلك الذراع السابعة عشرة وست أصابع ، واطردت زيادته بعد ذلك حتى بلغ عشرين ذراعا وعشرين إصبعا ، وثبت على ذلك في جمادى الآخرة ، فوافق بذلك مقدار ارتفاعه في العام الماضي « ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٠ »

٤٥ - في سنة ٨٨٥ هـ : في جمادى الآخرة كان وفاة النيل وقام بكسر السد الأتابكي أزبك بن ططخ « ج ٢ ص ١٩٧ » .

٤٦ - في سنة ٨٨٦ هـ : في جمادى الآخرة كان وفاة النيل . ووافق ١٥ مسرى . وقام بفتح السد الأمير أزبك السيفي « ج ٢ ص ٢٠٦ »

٤٧ - في سنة ٨٨٧ هـ : في جمادى الآخرة كان وفاة النيل . وفتح السد الأتابكي أزبك بن ططخ « ج ٢ ص ٢٤١ » .

٤٨ - في سنة ٨٨٨ هـ : في ربيع الآخر ارتفع النيل إلى ٦ أذرع وأربع أصابع وقد وفي النيل في جمادى الآخرة ، ووافق يوم ١٢ مسرى . وفتح السد الأتابكي أزبك « ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ » .

٤٩ - في سنة ٨٨٩ هـ . جاء شهر جمادى الآخرة والنيل متوقف عن الزيادة حتى قلق الناس ، ثم زاد ، واطردت زيادته حتى وفي في شهر رجب . ووافق يوم وفاته يوم ٢٢ مسرى . وقد قام الأتابكي أزبك بن ططخ بفتح السد . وبعد أيام في شعبان انخفض انخفاضاً سريعاً . ثم ثبت على الأصبع الثانية والعشرين من الذراع الثامنة عشرة . قيل : فشرقت بلاد كثيرة وزاد سعر القمح . وقد تأثرت أسعار البضائع في السنة التالية تبعاً لذلك . وفي شهر رمضان عاد إلى زيادة مفرطة بغير أوان ، ودخلت مياهه الخليج بعد أن جف مأواه . فكان ذلك مثارا لعجب الناس . ولكن رى الأرض كان قد اضطرب فلم تفد الزيادة في ذلك الحين .

« ج ٢ ص ٢٢٢ إلى ٢٢٤ » .

٥٠ - فى سنة ٨٩٠ هـ : فى جمادى الأولى أخذ النيل فى الارتفاع حتى بلغ ثمانى أذرع وعشرين إصبعا . وفى ٢ شعبان كان وفاقه موافقا ٢٠ مسرى . وفتح السد الاتابكى أزبك بن ططخ . وفى ذى القعدة فى يوم ١٣ هاتور زاد النيل زيادة مفرطة تقرب من ذراع فأثارت عجب الناس . (ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١)

٥١ - فى سنة ٨٩١ هـ : فى شعبان تم وفاء النيل . ووافق وفاقه يوم ١٣ مسرى فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وذلك لغياب الاتابكى أزبك فى حملة . وقد زاد النيل فى اليوم المذكور عشرين إصبعا من الذراع السابعة عشرة ، واطردت زيادته بعد الوفاء ثلاثة أيام متوالية حتى بلغت ٩٩ إصبعا . (ج ٢ ص ٢٣٧)

٥٢ - فى سنة ٨٩٢ هـ : هل رجب والنيل متوقف عن الزيادة واستمر أياما ، ثم زاد واطردت زيادته حتى بلغ حد الوفاء فى شهر شعبان ، موافقا ١٢ مسرى . ففتح الاتابكى أزبك بن ططخ السد فى اليوم المذكور . (ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥)

٥٣ - فى سنة ٨٩٣ هـ : فى شعبان وفى النيل موافقا فى وفائه يوم ١١ مسرى . ففتح السد الأمير أقبردى الدوادار لغياب الاتابكى أزبك . وهذه هى المرة الوحيدة التى فتح فيها الأمير أقبردى السد . (ج ٢ ص ٢٥٣)

٥٤ - فى سنة ٨٩٤ هـ : وفى النيل فى آخر شعبان . وفتح السد فى أول رمضان موافقا ٦ مسرى بحضور الاتابكى أزبك . (ج ٢ ص ٢٦٥)

٥٥ - فى سنة ٨٩٥ هـ : جاءت البشارة ببدء الزيادة فى شعبان ، وبلغت فيه سبع أذرع إلا ثمانى أصابع . وفى ١٠ رمضان كان وفاقه موافقا ٤ مسرى . ونزل الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وقد زاد فى ٣ مسرى ٣ إصبعا مرة واحدة . (ج ٢ ص ٢٦٥)

٥٦ - فى سنة ٨٩٦ هـ : فى شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل المبارك . فأمر السلطان بفتح السد فى ٢ شوال وكان ذلك فى ١٥ مسرى . (ج ٢ ص ٣٧٢)

٥٧ - فى ٨٩٧ هـ . قال ابن إياس : إن النيل وفى هذه السنة فى ذى القعدة وفتح السد الاتابكى أزبك . ويفهم من هذا أنه تأخر شهرا تقريبا أو ثلاثة أسابيع على

الأقل من ميعاده في السنة الماضية . وهذا كثير . فلعلة أخطأ في ذكر الوفاء في شعبان . وكان أحق بذكره في شوال . . . أو لعل النيل تأخر هذه المدة كلها - كما أنه لم يذكر التاريخ القبطي .
« ج ٢ ص ٢٢٧ »

٥٨ - في سنة ٨٩٨ هـ : في شوال كان وفاء النيل موافقا ١٢ مسرى . وفتح السد الاتابكي أزبك ، وكان قبيلها مشغولا بالحجاج في بركة الحاج . فلما علم الوفاء سار تحت جناح الليل لفتح السد في الغد ثم عاد .
« ج ٢ ص ٢٧٩ »

٥٩ - في سنة ٨٩٩ هـ : في ذى القعدة : وفي النيل بعد وقوفه مدة فاضطربت الأسواق . ولما وفي آخر الشهر فتح الاتابكي أزبك السد « ج ٢ ص ٢٨٤ . ٢٨٥ »
٦٠ - في سنة ٩٠٠ هـ : في ذى القعدة وفي النيل . وفتح الاتابكي أزبك السد . وهذه آخر مرة له يفتح السد فيها . « ج ٢ ص ٢٨٨ »

٦١ - في سنة ٩٠١ هـ : وفي النيل في ذى القعدة فرسم السلطان للأمير الكبير تميز بفتح السد وخلع عليه خلعة . . فتم فتح السد والناس يسودهم الاضطراب من ناحية مرض السلطان ومن ناحية الفتن الكثيرة الناشئة بسبب الممالك ومطالبهم وبسبب الأمير أقبردى . وهذه آخر سنة يأمر فيها قايتباي بفتح السد ، إذ توفي في ١٧ ذى القعدة المذكور . « ج ٢ ص ٢٩٦ »

٦٢ - في سنة ٩٠٢ هـ : كان السلطان هو الناصر بن قايتباي . ولما بلغ النيل أيام الوفاء المعتادة لم يف . ووقف عن الزيادة . وكانت القاهرة إذ ذاك تموج في فنها . وظل كذلك حتى يوم الاثنين ٢٢ من ذى الحجة الموافق ٢٧ مسرى فبلسخ حد الوفاء . وكان الأمير أقبردى الدوادار متغلبا على القاهرة في ذاك الوقت . ففوتح في مسألة كسر السد فبعث من لدنه والى القاهرة لهذا الغرض بعد يوم الوفاء بيوم ، أعنى يوم ٢٨ مسرى ، فوجد أن الشيخ عبد القادر الدشطوطى قد فتح منه جانبا .. فأجهز وأعلى البقية . ولم يصحب الاحتفال بفتح السد بهجة ولاروعة ولاسرور ، ولم يخرج الناس لمشاهدته والتفرج به نظرا لغشو الفتن والاضطراب ، وبعد أيام

انخفض ماء النيل بسرعة وأصبحت بلاد بالجفاف العاجل ، ونجم عن ذلك ضرر كثير وغلاء . « ٢ ص ٣٢٧ » .

٦٣ - في سنة ٩٠٣ هـ : ناسب وفاء النيل في هذه السنة أن جاء في أوائل السنة الهجرية التالية لها إذ في ٤ المحرم عام ٩٠٤ هـ الموافق ١٩ مسرى وكان السلطان الناصر بن قايتباي عقد النية على أن يفتح السد بنفسه فتمنعه الأمراء خوفا عليه من الفتن القائمة . ولكنه ما لبث بعد أن صلى العشاء أن نزل من القلعة على حين غفلة وأمامه المصاييح والمشاعل ومعه أولاد عمه ونحو مائة من الخاصكية ، وسار إلى السد لفتحه بالليل . وهذه المرة الوحيدة - أر لعلها - التي فتح فيها السد ليلا . وبعد تمام الفتح ذهب إلى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضا . ثم عاد إلى القلعة تحت جنح الليل . فلما أصبح الصباح وجد الناس الماء يملأ الخلجان والبرك والفنرات فتار عجبهم . « جزء ٢ ص ٢٤٥ »

٦٤ - في سنة ٩٠٤ هـ : رأينا كيف وقع وفاء النيل عام ٩٠٣ هـ في المحرم عام ٩٠٤ هـ وذلك لاختلاف السنين القبطية والعربية إذ الأولى مطردة إذا قيس بها ارتفاع النيل . والثانية لا طراد لها في ذلك . أما وفاء عام ٩٠٤ الهجرى فقد بدأت زيادته في شهر ذى الحجة . وكانت زيادته في ٣ مسرى ثلاثين إصبعا . وفي ٤ مسرى أربعين إصبعا . وفي ٥ مسرى عشرين إصبعا . وبلغ حد الوفاء في ٥ مسرى . وفتح السد في ٦ مسرى الموافق ٢١ من ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ . وقد رسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير بفتح السد . - وطومان باى هو الذى ملك فيها بعد وتلقب بالعاذل - وكانت الأتابكية إذ ذاك شاغرة . وكان السلطان قانصوه ابن قانصوه . « جزء ٢ ص ٣٦٠ »

٦٥ - في سنة ٩٠٥ هـ : وقع وفاء النيل هذه السنة أيضا في أوائل السنة الهجرية التالية أى عام ٩٠٦ هـ . ففي يوم السبت ٥ المحرم الموافق ٨ مسرى بلغ النيل خد الوفاء . وكسر السد في يوم الأحد ٦ المحرم . وقام بفتحه الأمير طومان باى

الدوادار إذ ذاك . فسار فى أبهة وعظمة . وفرق على المدعوين كثير من الحلوى والفاكهة . ونثر على العوام دراهم من فضة وكان السلطان إذ ذاك الأشرف جان بلاط . فلعل طومان باى كان بذلك يمدد لنفسه السبيل إلى الساطنة . . .

« جزء ٢ ص ٣٧٤ »

٦٦ - فى سنة ٩٠٦ هـ : فى أوائل هذه السنة كان النيل قد وفى وفاءه وفتح السد فى ٦ المحرم كما ذكرنا فى سنة ٩٠٥ هـ . ولم يقع وفاء النيل فى تلك السنة غير هذا . إذ الوفاء التالى وقع فى السنة التالية أى عام ٩٠٧ هـ .

٦٧ - فى سنة ٩٠٧ هـ : فى ١٨ المحرم الموافق ٩ مسرى كان وفاء النيل . وخشى الأتابكى قيت الرجبى أن يسير لفتح السد فبعث مكانه الأمير مغلباى الشربى الزردكاش - وكانت السلطنة قد آلت إلى الأشرف الغورى منذ السنة الماضية . وفى ربيع الأول انتهت زيادة النيل إلى سبع عشرة إصبعا من الذراع العشرين . واستمر ثابتا إلى نصف بابه . « جزء ٤ فى التواريخ المذكورة » .

٦٨ - فى سنة ٩٠٨ هـ : فى يوم الخميس ٢٣ المحرم الموافق ٤ مسرى زاد النيل أربعين إصبعا فى يوم واحد . وفى يوم الجمعة ٥ مسرى زاد عشرين أخرى . وبلغ حد الوفاء فى يوم الأحد ٨ منه ؛ وزاد عنه إحدى عشرة إصبعا . وتم فتح السد يوم الاثنين ٩ مسرى الموافق ٢٧ المحرم . - قال ابن إياس : « وهو سابق النيل الماضى بيوم واحد » ، مع أن وفاء العام الماضى كان فى ١٨ المحرم - كما قال - ٢٨ منه . . . وقد قام بفتح السد الأتابكى قيت الرجبى .

ثم قال : « والفضل بينهما سبعة عشر إصبعا » . أى زادها النيل فى هذه السنة عن السنة الماضية . « جزء ٤ ص ٣٦ »

٦٩ - سنة ٩٠٩ هـ : فى صفر وفى ٩ مسرى كان وفاء النيل . فتوجه الأمير سودون العجمى أمير المجلس وفتح السد . وكان الأتابكى قيت غائبا فى الحج . « جزء ٤ فى التاريخ المذكور »

٧٠ - في سنة ٩١٠ هـ : في ربيع الأول الموافق ٢٥ مسرى وفي النيل متأخرا عن العام الماضي ١٧ يوما . ولـسـكـنـه زاد خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة . وقد فتح الأتابكي قيت الرجبى السد . وفي ربيع الآخر ثبت النيل على ١٣ إصبعا و ١٩ ذراعا وثبت كذلك إلى ٢٨ توت « جزء ٤ » في حوادث التواريخ المذكورة .

٧١ - في سنة ٩١١ هـ : في المحرم أخذ النيل في الارتفاع ، حتى بلغ سبع أذرع . وفي ربيع الأول في يوم السبت ٢ منه كان وفاء النيل ووافق ذلك يوم ٩ مسرى . فتوجه الأتابكى قرقاس لفتح السد . وقد أوفى وزاد على وفائه ثلاث أصابع . وكانت مياهه كثيرة عالية . ولم يقف النيل منذ بدء زيادته بل اطردت . وفي جمادى الأولى ثبت ارتفاعه على ١١ إصبعا من عشرين ذراعا . واستمر كذلك ثابتا إلى آخر بابة . وكان نيلا مباركا .

« جزء ٤ » في حوادث التواريخ المذكورة .

٧٢ - في سنة ٩١٢ هـ : في ٢٨ المحرم حمل ابن أبى الرداد بشارة ارتفاع النيل حيث بلغ سبع أذرع وعشر أصابع ، فهو أرجح منه في العام الماضي في مثل هذا الميعاد بنحو عشرة أصابع . وفي ٢٠ ربيع الأول كان وفاؤه . ووافق ٢٠ مسرى أيضاً : وكسر السد في ٢١ منه بحضور الأتابكى قرقاس بن ولى الدين . وفي جمادى الأولى ثبت على ١٩ ذراعا وأصبعين من عشرين ذراعا .

« جزء ٤ » في حوادث التواريخ المذكورة .

٧٣ - في سنة ٩١٣ هـ : في صفر طلع ابن أبى الرداد ببشارة الزيادة . وكانت سبع أذرع بلغت في الارتفاع . وفي ١٩ ربيع الأول تم وفاء النيل ووافق ١٠ مسرى ، وفتح السد في ١١ منه بحضور الأتابكى قرقاس بن ولى الدين . وكان النيل قد استمر في الزيادة حتى ٦ مسرى فزاد دفعة واحدة في ذلك اليوم ثلاثين إصبعا . وفي يوم ٧ منه زاد عشرين أخرى . وفي ٨ منه زاد عشرين أخرى . فبلغت زيادته سبعين إصبعا في ثلاثة أيام . واستمرت زيادته حتى بلغ حد الوفاء .

« جزء ٤ » في سياق التواريخ المذكورة .

٧٤ - في سنة ٩١٤ هـ: في صفر، جاء ابن أبي الرداد ببشارة زيادة النيل إلى السلطان وبلغ الارتفاع ست أذرع وعشر أصابع . فكان أكثر ارتفاعا من مثله في العام الماضي . ثم وقف عن الزيادة زمنا . ثم زاد في ١١ مسرى خمسين إصبعا دفعة واحدة، فرسم السلطان الغورى لقضاة الشرع بالتوجه إلى المقياس المبيت هناك فتوجهوا . واجتمع هناك قراء المدينة لقراءة القرآن . ثم أمر السلطان بمد الموائد وتقديم الأطعمة الشهية . فكانت تلك الليلة حافلة أهلة . وفي ١٢ مسرى زاد النيل ٢٠ إصبعا . وفي ١٣ منه عشرين أخرى . فبلغت زيادته في ثلاثة أيام تسعين إصبعا .. قال ابن إياس : « وذلك ما لم يقع من مبتدأ الإسلام سوى مرتين منها مرة في دولة الظاهر برقوق سنة ٧٩٧ هـ . فإنه زاد في أول مسرى ٦٢ إصبعا ، وفي ٣ منه ٥٠ إصبعا . فكانت زيادته في ٤ أيام ٧ أذرع ونصفا وأصبعين . . . والمرة الثانية في دولة الأشرف برسباي سنة ٨٢٥ هـ فإنه زاد في يوم واحد ٥٠ إصبعا دفعة واحدة . »^(١)

هذا وقد قام بفتح السد يوم ١٤ مسرى الأتابكي ، قرقاس .

« جزء ٤ في سياق حوادث التواريخ المذكورة هنا »

٧٥ - في سنة ٩١٥ هـ : في ربيع الأول طلع ابن أبي الرداد إلى السلطان ببشارة النيل . وبلغ الارتفاع ست أذرع و ١٨ إصبعا . فكان أربى من العام الفائت في مثل هذا الميعاد بثماني أصابع . وفي ربيع الثاني انقطع جسر أم دينار بالجيزة . وكان ذلك في ليالى الوفاء فتعاون الأمراء بأمر السلطان على إصلاحه . فسخر واكثير امن الناس في هذا العمل : واتبعوا معهم ضربا من القسوة والإرهاق . فكانوا يقبضون عليهم في الطرقات ويسوقونهم في القيود إلى محل العمل ! ومع ذلك لم يجيدوا سده وإعادته إلى ما كان عليه على الرغم من إعيائهم .

(١) ذكر ابن إياس في سياق حوادث سنة ٧٩٧ هـ ، هذه الزيادات كما ذكرها هنا . أما في

سنة ٨٢٥ هـ فلم يشر إلى النيل بكثير أو قليل

وفي جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢٢ إصبعا من ١٩ ذراعا . وقد ثبت على ذلك إلى أواخر بابيه . وكان النيل عاليا ومباركا . وظل ثابتا إلى نصف هاتور . ثم زاد فيه ثمانى أصابع حتى عد ذلك من النوارد الغربية . . ! ولما اشتدت زيادته رسم السلطان للقضاة الأربعة بالتوجه إلى المقياس ليدعوا الله تعالى فى انخفاضه ، ففعلوا فانخفض فى تلك الليلة نحواً من نصف ذراع ١ : ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ،

٧٦ - فى سنة ٩١٦ هـ : فى يوم الخميس ١٣ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وارتفع إلى ٧ أذرع بزيادة عشر أصابع عن العام الماضى وفى ٢ جمادى الأولى قرئت ختمة فى المقياس بأمر السلطان كما مدت الأسمطة الحافلة وقدمت الأطعمة الشهية . وحضر القضاة وأعيان الناس . وسبب ذلك أن البحر استمر فى الزيادة . ومضى من مسرى ١٦ يوما ولم يف . . فلما توجه القضاة إلى ناحية المقياس زاد النيل فى تلك الليلة ثمانى أصابع ، وفى الليلة التالية زاد ١٥ إصبعا ، واستمرت الزيادة حتى بلغ حد الوفاء فى ٢٠ مسرى ، وفى يوم ٢١ منه الموافق ٨ جمادى الأولى فتح السد ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى ٧ أيام ، فلما وفى توجه الأتابكى قرقاس وقتمح السد . وهذه آخر مرة للأتابكى قرقاس يفتح فيها السد ، لأنه توفى فى أواخر هذه السنة ، وفى جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢١ إصبعا من ١٨ ذراعا ، وانخفض فى أواخر توت ، ولم يثبت فساكن نبلا شحيحا ، فأصببت بلاد بالشرق والجفاف ، وكانت البلاد يتفشى فيها الغلاء . . جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة . .

٧٧ - فى سنة ٩١٧ هـ : فى يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وبلغ الارتفاع ست أذرع ، فهو أقل من العام الماضى فى مثل هذا الميعاد ، وفى يوم الأربعاء ١١ جمادى الأولى أخذ النيل تطرد زيادته حتى شارف الوفاء . وبقى إليه خمس أصابع ، فزاد فى تلك الليلة إصبعين ، فتأخر عن الوفاء فى ميعاده ، ثم زاد إصبعين ولم يصل حد الوفاء . فكثر بين الناس القيل والقال ، وقالوا إن عدم وفائه سببه كثرة الفسوق والعصيان . . فلما بلغت القالة سمع السلطان رسم لبعض الأمراء باقتحام بعض الجهات المشبوهة لمنع أهلها من اقتراف

الموابقات . ففعلوا بلا غلو .

وكان السلطان توجه إلى الروضة ، ورسم للقضاة الأربعة أن يتوجهوا إلى المقياس المبني وقراءة ختمة ، ففعلوا ، ومد السلطان موائد حافلة واجتمع هناك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغيرهم ، وفي يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ركب السلطان من هناك « الحراقة » ، إلى المقياس ، وكانت تلك الليلة ليلة الوفاء ، ثم شق من بر الروضة إلى قصر ابن العيني وعاد إلى القلعة .

ووفي النيل في تلك الليلة وكسر السد ثاني يوم - الجمعة ١٣ جمادى الأولى - ١٥ مسرى - وقد زاد النيل في يوم الوفاء إصبعين ، فزاد عن حد الوفاء إصبعاً ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بفتح السد فركب الحراقة وأتى المقياس وخلق العمود ثم فتح السد وكان له يوم مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو في الأتابكية . ثم زاد بعد ذلك ثمانى أصابع مرة واحدة ، وقد عم الأراضى وملأ الخلبجان فازدادت بهجة بما عليها من القناطر الجديدة ، وغدا الناس يروحون ويحيثون في مراكبهم مبتهجين ، وقد ثبت النيل في أوائل رجب على ٩ أصابع من عشرين ذراعاً ، وكان النيل عالياً ، ولكن ارتفعت أثمان بذور البرسيم والقمح .

« جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٧٨ - في سنة ٩١٨ هـ : بشر ابن أبي الرداد بزيادة النيل في يوم الأحد ٦ ربيع الثاني ، وارتفعت المياه إلى ست أذرع فهي أقل من العام الماضي ذراعاً - وفي الاثنين ١٢ جمادى الأولى كان وقاؤه ، ووافق أول مسرى . وفتح السد في اليوم الثاني منها ، وفي اليوم الثاني المذكور زاد النيل بعد الوفاء اثنتي عشرة أصبعاً ، وفي الثالث ست عشرة ، فبلغ سبع عشرة ذراعاً وأربع أصابع ، فرسم السلطان الغورى للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه إلى السد ويفتحه فكان له يوم مشهود .

وفي يوم ١٣ منه بات السلطان في قصره بالمقياس وقرئت هناك ختمة ، واجتمع لذلك قراء المدينة ووعاظها ، وفي ثاني يوم ركب الحراقة ، وتوجه إلى بولاق - وفي هذا الشهر اطردت زيادة النيل حتى بلغ ١٢ اصبعاً من الذراع التاسعة عشرة ،

فأخضبت الفواكه في هذا الشهر حتى البطيخ الصيفي والعبدلي والعنب والمان وسائر الفواكه . ولكن الزبيب كان غالبا . وكذلك الغلال والزيت والسكر وغيرها .

وفي يوم ١٨ رجب الموافق أول بابه ثبت النيل المبارك على ٨ أصابع من ٢١ ذراعا واستمر في ثبات إلى نصف هاتور (ج ١ في التواريخ المذكورة) .

٧٩ - في سنة ٩١٩ هـ : طلع المبشر ابن أبي الرداد ببشارة النيل في يوم الاثنين ١٦ ربيع الثاني . وارتفع الماء ست أذرع وست عشرة إصبعا . وفي الأحد جمادى الآخرة بلغ النيل حد الوفاء . ووافق ذلك ١٤ مسرى . فوفي وزاد عن الوفاء خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، وكان عرس النيل وفتح السد في ٦ جمادى الموافق ١٥ مسرى . وقد رسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بالذهب لفتح السد .

وفي مستهل رجب كان النيل في عشر أصابع من ١٩ ذراعا . وفي ١٦ رجب ثبت النيل على الأصبع الرابعة من الذراع العشرين . وكان في العام الماضي في مثل هذا الموعد قد أنعم عشرين ذراعا وزاد ٨ أصابع من الذراع الحادية والعشرين . (ج ٤ في التواريخ المذكورة)

٨٠ - في سنة ٩٢٠ هـ : طلع المبشر ابن أبي الرداد ببشارة النيل يوم ٢٦ ربيع الثاني . وكان الارتفاع إلى ست أذرع و ١٢ ذراعا . وكان في العام الماضي أرجح من هذا . وكانت زيادته في أول يوم ٥ أصابع . وفي يوم ٢٣ جمادى الآخرة . بلغ حد الوفاء بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذي أنشأه السلطان على ردهة المقياس . وقد بلغ ١٦ ذراعا وأصبعين ، وذلك في ٢٢ مسرى ، وقد أبطأ النيل عن السنة الماضية بسبعة أيام ، والناس بسبب ذلك في قلق واضطراب ، وقد فتح السد في ٢٤ جمادى الثانية الموافق ٢٣ مسرى - وكان يوما مشهودا - برئاسة الأتابكي سودون العجمي .

وزاد النيل بعد فتح السد بيومين عشرة أصابع دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث زاد ١١ إصبعا دفعة واحدة ، وفي اليوم الخامس زاد ٧ أصابع دفعة واحدة ، فزاد

١٦ إصبعا من ١٨ ذراعا . وذلك في أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النواذر . وفي ١٠ شعبان كان ارتفاعه يومئذ ١٥ إصبعا من الذراع العشرين . وقد انتفع الناس بذلك أيما انتفاع . وظل ارتفاع النيل ثابتا إلى أواخر بابة دون انخفاض . - وفي الأربعاء ١٥ شعبان الموافق ٧ بابة كان ارتفاعه هو نفس ارتفاعه في ١٠ شعبان أى ١٥ إصبعا من ٢٠ ذراعا . فكان أزيد من العام الماضي ١١ إصبعا . « ج٤ في التواريخ المذكورة »

٨١ - في سنة ٩٢١ هـ . في جمادى الأولى ، جاء ابن أبي الرداد ببشارة النيل وبلغ ارتفاعه ٧ أذرع ، و٤ أصابع ، فكان أرجح من العام الماضي بعشرين إصبعا . - وفي الاثنين ١٨ جمادى الآخرة احتفل بوفاء النيل المبارك . ووافق وفاؤه يوم الأحد ١٧ منه الموافق ٥ مسرى . فوق الاحتفال حينئذ في ٦ مسرى . وفي ذلك اليوم رسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتجه إلى السد ليفتحه ، وإلى المقياس ليخلع عموده ، فنزل في « الحراقة » ، وقام بما عهد إليه في اليوم المذكور . وعاد إلى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنية .

وفي ٢٠ شعبان الموافق أول بابة ثبت ارتفاع النيل على ١٦ إصبعا من ٢١ ذراعا واستمر ثابتا إلى أوائل هاتور .

وقد رويت بلاد كثيرة لم ترو من قبل لعلو الماء ، وعم بذلك النفع .

« ج٤ في التواريخ المذكورة »

٨٢ - في سنة ٩٢٢ هـ . في يوم الخميس ٢٣ صفر أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين . . فصعد ابن أبي الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع ، وكان النيل يومئذ في ١٢ ذراعا و٣ أصابع . فزاد على ذلك نصف ذراع . وكان هذا في شهر برمات . وسبب هذه الزيادة المبكرة أن الأمطار سقطت بأعلى بلاد الصعيد وانحدرت منها سيول إلى النيل ، فزاد هذه الزيادة في غير أوانها .

وفي يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى طلع ابن أبي الرداد ببشارة زيادة النيل ، إلى

القلعة - وكان السلطان الغورى قد رحل فى جنده إلى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين - وبلغت الزيادة حينئذ إلى ارتفاع ١٢ ذراعا وبقي على الوفاء ٦ أذرع! وقال ابن إياس نقلا عن المقرئى :

« ولم يحدث أن زاد ارتفاع النيل فى أول زيادته كل هذا الارتفاع وهو ١٢ ذراعا. إلا مرتين: واحدة عام ٧٦٢ هـ ، وأخرى فى عام ٨٣٨ هـ . ثم قال : « فلما كانت الزيادة فى عامنا هذا - ٩٢٢ هـ - اثنى عشرة ذراعا ، ظن الناس الظنون ، وخشوا أن تطرد الزيادة بهذه النسبة فتغرق الأراضى . غير أن النيل أخلف هذه الظنون ... ، وفى يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة الموافق ٢٧ أبيب بلغ النيل حد الوفاء . وفتح السد فى يوم الثلاثاء ٢٢ منه ، الموافق ٢٧ أبيب . وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام . وقد فرح الناس بهذا الوفاء الميسر ، ونظموا الأزجال يتغنون بها . وقد قام بفتح السد نائب الغيبة إذ ذاك طومان باى الدوادار - الذى ملك فيما بعد - فركب « الحراقة » وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومعه كثير من عظماء الأمراء . ثم عاد إلى بيته فى ركب حافل .

وفى شعبان بلغ النيل عشرين ذراعا ووافق بلوغه ذلك ٢٢ توت . وثبت على عشرين ذراعا حتى ٢ بابة واستمر إلى هاتور . فكان أقل من مثله فى العام الماضى . « جزء ٣ ص ١٤ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٥٦ »

ملحوظة : فى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم للعثمانيين الاستيلاء على مصر ووقع وفاء النيل التالى فى عهدهم . فضربنا الذكر صفحا عنه .

السفارة

كانت مصر دولة عظيمة الشأن ، مترامية الأطراف في عصر المماليك . نشبت بينهما وبين عدد من الدول ، وشائج وصلات من ألوان مختلفة ، ترجحت ما بين صداقة وعداوة ، ومنافسة ومعاونة . وهكذا . ووسط هذا كله ، لم نجد بدا من اصطناع السفراء ، تبعثهم إلى ملوك هذه الدول في بعض المهام . أو تستقبل سفراء هذه الدول ، وتنتظر فيما لديهم من المسائل والأخبار . ونعني هنا السفراء المبعوثين في أمر ما ، والذين يعودون إلى بلدتهم بمجرد نجاح ما أرسلوا من أجله ويسمونهم قصاداء ، وهم طائفتان : طائفة ترسلها مصر ، وطائفة تستقبلها . ومن العادات المتبعة - غالبا - أن سلطان مصر يختار رسوله من رجاله الحكماء الكيسين ، ويزوده بتعليماته وإرشاداته ، كما يزوده بهداياه أحيانا ليقدمها إلى من أرسل إليه .

ومن العادات المتبعة - غالبا - أن يستقبل سلطان مصر من يفد إليه من الرسل في حوش القلعة ، يحف به كبار رجاله في حفل عظيم . وقد يعرض بعض أسلحة الجند إذ ذاك وتعرض بعض الأسلحة أو الخلع أو نحو ذلك . وقد تعرض أيضا بعض الألعاب للتسلية ، أو يستصحب الرسول إلى حفل مقام لمناسبة ما ، وهكذا .

وينزل السفير ضيفا على السلطان طيلة إقامته . فينزله عند أحد أتباعه من أعيان الأمراء والمباشرين ، أو في أحد قصورهم . وبعد زمن يأذن له في العودة ، ويخلع عليه الخلع النفيسة ، ويزوده ببعض الهدايا .

ولاشك في أن هؤلاء السفراء كثيرا ما تكون سفارتهم ذات أثر كبير في علاقات الدولة المصرية بغيرها ، وذات أثر كبير في توجيه سياستها إلى ناحية ما . وما اتبع في بعض الأحيان أن السلطان إذا اختار أحد رجاله رسولا ، أن يأخذ هذا الرسول في إعداد العدة لخروجه وسفره ، وبقيم الاحتفالات والزينات (١٤٣ - ممالك)

على داره . وربما جامله جيرانه وأحباؤه ، فأقاموا مثله الحفلات والزينات وربما تحيا الليالي إذ ذاك بالمغنين والراقصين وأضرابهم ، احتفاء بالزوار . ومثل ذلك ما فعله ماماي بن خداد ، الخاصكي ، حينما اختاره قايتباي رسولا إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٩ هـ . وحين خروج الرسول من القاهرة يخرج في ركب حافل وزينة بالغة ونثبث فيما يلي بعض هذه الوفادات نقلا عن ابن إياس .

١ - من سفراء مصر إلى غيرها من الدول

١ - الأمير برسباي أمير آخورتان : لما فتح السلطان محمد العثماني مدينة القسطنطينية بعث رسولا إلى السلطان الأشرف إينال يبشره بذلك فبعث السلطان إينال هذا الأمير ليمنى بالفتح . وذلك في شوال عام ٨٥٧ هـ . فسار لأداء مهمته ، ثم عاد في رجب عام ٨٥٨ هـ . فلقى السلطان نخلع عليه خلعة . « ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٧ »

٢ - الأمير قاني باي اليوسفي المهمندار : بعثه السلطان الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح مهنتا ببعض الفتوحات ومعه هدايا قيمة فسافر في شعبان سنة ٨٦٠ هـ . وقد عاد في رجب عام ٨٦١ هـ وحدث بما لقيه من الكرم . « ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ »

٣ - الأمير دولات باي حمام الأشرفي : أرسله السلطان الأشرف قايتباي في ذي القعدة سنة ٨٧٧ هـ إلى ملك بني عثمان ردا على رسوله الذي أوفده خاصا بما كاتب به ملك العراقيين حسن الطويل ملوك الفرنجة للاتفاق على مقاتلة ملك العثمانيين وملك مصر . « ج ٢ ص ١٤٥ »

٤ - الأمير برسباي الأشرفي أستاذ دار الصحة (١) : أرسله السلطان قايتباي إلى ملك العثمانيين في صفر عام ٨٧٨ هـ . فسافر ومعه هدايا قيمة . وقد توفي هذا

(١) هو برسباي الشرفي بونس الذي كان أميرا للمعمل عام ٨٧٧ هـ ، ونوه به السخاوي في الضوء

الرسول بحلب . وجاء خبر وفاته في جمادى الأولى من العام المذكور . ويبدو أنه لم يتم مهمته قبل وفاته . (ج ٢ ص ١٤٧) .

٥ - الأمير الماس الأشرفي أستاذار الصحة : أرسله السلطان الأشرف قايتباي مبعوثاً إلى ملك العثمانيين في جمادى الأولى عام ٨٧٨ هـ بدلاً من برسباي الأشرفي المتوفى . وكان الماس أحد خواص السلطان ، وقد عينه قبل سفره في أستاذارية الصحة . وقد أخذ يستعد للسفر . ولكن ألغى إرساله في ذى القعدة من العام نفسه . وعين مكانه يشبك الجمالي . (ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٩) .

٦ - الأمير يشبك الجمالي : في ذى القعدة عام ٨٧٨ هـ رسم السلطان قايتباي للأمير يشبك الجمالي المحتسب بأن يخرج قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم عوضاً عن الماس الأشرفي الذي ألغى إرساله . وقد عاد من سفره في جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ حاملاً إلى السلطان رسالة تتضمن الود والصداقة من ملك العثمانيين . فسر السلطان قايتباي برسالته . ويشبك هذا ولي عدة مناصب منها الحسبة . وسافر أميراً للحج عدة مرات ، وغضب عليه قايتباي عام ٩٠٠ هـ ونفاه إلى القدس فظل إلى أن مات في عام ٩٠١ هـ . (ج ٢ ص ١٤٩ ، ١٥٣) .

٧ - الأمير جاني بك حبيب العلائي : كان قد هرب من مصر في أيام السلطان خشقدم لما أصابه من محن ، ويم شطر بلاد العثمانيين . فلعله عرفها معرفة وثيقة ، ولعله أصبح ذا صلة بمحمودة ببعض من فيها ، إذ استخدم في السفارة بينها وبين مصر فيما بعد ، أكثر من مرة . وقد عاد إلى مصر في شوال عام ٨٧٣ هـ في أوائل حكم قايتباي . فلما عاد أكرمه هذا السلطان وخلع عليه خلعة سنية . وبعث إليه الأمير يشبك الدوادار ألف دينار يصلح بها شأنه . وبعد قليل منحه السلطان قرية انبابة لإقطاعه ، وكانت بيد الخليفة المستنجد بالله يوسف فأخرجها عنه . وفي ربيع الأول عام ٨٧٤ هـ منحه السلطان مركز أمير آخور ثان عوضاً عن يشبك . فلبث نفسه

بضع سنين . وسار في عداد أمراء الحملة المرسلّة إلى حلب بقيادة الأتابكي أربك بن ططخ عام ٨٨٥ هـ . وعرف هذا الأمير بالكياسة والسياسة وحسن التآقي ، ولذلك أرسله الأتابكي أربك إلى يعقوب بن حسن الطويل ملك العراق ليطلق من عنده من الأسرى بعد واقعة يشبك الدوادار لدى باندرد عامل هذا الملك . فأكرمه وسلم إليه الأسرى فعاد بهم إلى حلب ، وذلك عام ٨٨٦ هـ . فكان هذا مرشحا له في عام ٨٨٩ هـ ، إذ اختاره السلطان قايتباي في ذى الحجة رسولا إلى ملك بني عثمان ، بعد مشورة الأمراء فيمن يكون أهلا للسفارة ، وبعد أن أشاروا على السلطان باختياره . وكانت مهمته في ذلك الحين أن يتحدث مع ملك العثمانيين في الأسباب التي دعت إلى الانضمام إلى على دولات أمير التركان الخارج على الدولة المصرية ، ويحاول إبعاده عنه وتهدة الفتنة الناشبة بينه وبين السلطان بسبب ذلك . وقد حمل معه هدية نفيسة للموفد إليه . وحمل معه تقليدا من الخليفة ليكون نائبا عن السلطان فيما بيده من الأملاك ، ومكاتبة أخرى من الخليفة أيضا يتلطف فيها بملك العثمانيين أن ينهي هذه الفتنة التي أثارها بينه وبين السلطان .

وقد قيل في سببها الأول أن أحد ملوك الهند أرسل مع رسول هدية نفيسة إلى ملك العثمانيين وفي عدادها خنجر ثمين فانتزع منه نائب جدة وأهداه إلى السلطان قايتباي مع بقية الهدية . فقبله هذا ولم يرده . فأكل الحق قلب ملك العثمانيين وانتهر ثورة على دولات على السلطان وأمدّه بالجند .

وقد اضطر السلطان إلى رد الخنجر والهدية مع رسوله جاني بك حبيب مع الاعتذار . ثم سافر جاني بك في صفر عام ٨٩٠ هـ . بطريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية .

لبث جاني بك في مهمته نحو ثمانية شهور . وعاد في ذى القعدة عام ٨٩١ هـ . فحدث السلطان بأنه لم يجد لدى ملك بني عثمان إكراما مناسبا ولا لقاء حسنا ولا إقبالا . وأنه أنس منه الجفاء لمصر وسلطانها وإضرار العدوة وحب الأذى . وقد

صدقته فراسته إذ أخذ العثمانيون في السكيد لمصر ونقص أطرافها حتى اضطر السلطان قايتباى إلى قتالهم مرات عدة كان النصر غالبا حليفاً له .

وقد توفي جاني بك حبيب في المحرم عام ٨٩٣ هـ وكان فصيح اللسان بارعاً يتقن الكلام بالعربية . (ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

٨ - مامى الخاصكى بن خداد : هو أحد ممالك الأشرف قايتباى وخواصه . بلغ من رتب الإمارة أن كان أحد المقدمين وتولى الدواديرية الثانية زمناً . حج في سنة ٨٨٩ هـ ، في صحبة أبي البقاء بن الجيعان . وكان السلطان قايتباى يستخدمه في كثير من مهامه ، وقد أوفده سلطانه رسولا إلى ملك بنى عثمان ثم عاد من وفادته تلك عام ٨٩٦ هـ ، وقد أوفد مثل هذه الوفادة أكثر من مرة ، منها مرة في عام ٨٩٩ هـ . وكان مامى في جملة من انضم إلى قانصوه خمسمائة الخارج على السلطان في قتاله لإفهردى الدوادير ، وتعقبوه إلى بلاد الشام وكادوا يفتكون به في خان يونس في جهة غزة عام ٩٠٢ هـ لولا أن نجده نائب غزة إذ ذاك وأنقذه من عصابه قانصوه خمسمائة بعد أن قتل منها عددا من الرجال ومن بينهم مامى بن خداد المذكور . وقد حمل رأسه مع رؤوس القتلى إلى القاهرة وطيف بها جميعا محمولة على الرماح ، وذلك في يوم الخميس ٤ رجب عام ٩٠٢ هـ .

وعرف مامى برجاسة العقل والشجاعة ، قال ابن إياس عنه : « وهو الذى جدد الدار المعظمة التى بين القصرين وصرف عليها جملة مال عظيم » - هذا ومامى آخر قصاد قايتباى إلى ملك بنى عثمان . (ح ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ ، ٣١٤ ، ٣١٦) .

٩ - جان بلاط بن يشبك : أرسله قايتباى إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٦ هـ ، وجان بلاط هذا هو الذى صار سلطانا على مصر فيما بعد - أى بعد قايتباى - وتلقب بالأشرف . (جز ٢ ص ٢٧١) .

١٠ - قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى : هو أخو خاير بك ملك الأمراء .

وقد أرسله السلطان قايتباى إلى الملك رستم أحد أبناء حسن الطويل ملك العراقين وذلك فى عام ٨٩٨ هـ ، وكان إذ ذاك أمير عشرة . « ج ٢ ص ٢٧٩ »

١١ - الشيخ عبد المؤمن العجمى : وهو شيخ قبة السلطان بالمرج أرسله قايتباى إلى ملك بنى عثمان وفى صحبته هدية نفيسة بينها قماش فاخر وسبع وزرافة وبيعاء حمراء اللون ، وقد عاد الشيخ عبد المؤمن من وفادته تلك فى المحرم عام ٩٠١ هـ . وقد نقل إلى السلطان أن ملك العثمانيين جبن وضعف عن الهجوم على مصر .. « ج ٢ ص ٢٩٢ »

١٢ - خاير بك أخو قانصوه البرجى : وهو الذى صار بعد ملك الأمراء فى عهد العثمانيين وترجمنا له فى باب أفذاذ الرجال ، كان قد أرسله الناصر بن قايتباى إلى ملك بنى عثمان رسولا عام ٩٠٣ هـ فتوجه إليه بعد قليل ، ثم عاد فى عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه بعد مقتل الناصر بن قايتباى ، وكانت عودته فى شعبان عام ٩٠٤ هـ . وقيل إن ملك العثمانيين أكرمه ، فلما بلغه مقتل الناصر أسمعه من الكلام قارصه . « ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ »

٣ - قانصوه كرد : أحد الأمراء فى عهد الناصر بن قايتباى ، وكان خازن دارا ثانيا وأحد الأمراء الطبلخاناه ، وفى ربيع الأول عام ٩٠٥ هـ عينه السلطان قانصوه رسولا إلى سلطان بنى عثمان فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى . « ج ٢ ص ٣٦٢ »

١٤ - تغرى بردى الترجمان : أرسله الغورى إلى بلاد الفرنجة فى ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، وأخذ معه كتابا إلى البترك لينع عبث الفرنجة بالسواحل ، ثم عاد بعد سنتين . واستخدمه السلطان فى أمور شتى ، ووبخ بوساطته قناصل الفرنجة على مؤامراتهم ضده .

وفى ١١ المحرم سنة ٩١٧ هـ قبض عليه بتهمة أنه راسل الفرنجة بأسرار السلطان وبأنه يعد حملة عليهم ، وأفهمهم أن سواحل مصر خالية من الاستحكامات ولذا يستطيع التغلب عليها وامتلاكها بسهولة ، وضبطت مراسلات بخطه فى هذه الأمور .

و حقق معه بخصوصها فأنكرها . ولكن السلطان وبخه توبيخا شديدا ووضعه في الحديد ، وألقاه في السجن ، وصادر ممتلكاته وراقب أهله وأولاده .

وتغرى بردى هذا غير تغرى بردى نائب الشام في عهد فرج بن برقوق ، والذي هو والد أبي المحاسن يوسف المؤرخ . « ج ٤ في التواريخ المذكورة »

١٥ - الأمير تمر باي الهندي : أرسله الغورى إلى الشاه اسماعيل بن حيدر الصفوى « الصفوى » ممتلك العراق . فظل لديه زمنا ثم عاد في ١٢ ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ بعد نحو سنتين . وقيل إنه قاسى شدائد وأهوالا كثيرة في سفارته تلك . فمات خيوله وجماعة من غلمانها ، ولم ينصفه الشاه اسماعيل ولم يكرمه ولم يقابله غير مرة واحدة ، ولم يكتب له رداعلى رسالة السلطان : بل أرسل صحبته رسولا آخر من قبله . « ج ٤ في حوادث ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ »

١٦ - يونس العادلى : أرسله الغورى إلى بلاد الروم حيث ملك ابن عثمان ، ليشتري له أخشابا وحديدا وبارودا . فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، رد المال الذى حمله يونس العادلى . وأظهر استعدادا لتقديم هذه المشتريات هدايا من لدنه إلى سلطان مصر . وكانت عودة يونس فى شهر رجب عام ٩١٦ هـ . وقد بر ابن عثمان بوعدة إذ وصلت هذه الهدايا الثمينة فى مراكب إلى مصر فى شوال عام ٩١٦ هـ . وقد ذكرت فى باب الهدايا والتقدمات ، .

وقد سافر يونس هذا مرة إلى سيماى نائب الشام بصحبة مامى الخازندار فى ٦ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ لخطبة ابنته لابن السلطان الغورى . ثم رجعا فى ١٥ رمضان عام ٩٢٠ هـ بدون قبول لصغر البنت فسرها كانت ٦ سنوات .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة » ،

١٧ - الطواشى بشير : أرسله الغورى إلى بلاد اليمن قاصدا إلى بعض ملوكها وإلى بعض ملوك الهند . لى يتعاونوا جميعا مع عسكره على قتال الفرنجة العابثين بسفن التجارة فى المحيط الهندى . وذلك فى ١٤ ربيع الأول عام ٩١٦ هـ على أثر حضور رسول الملك محمود شاه صاحب كنباية وآخرين من ملوك الهند يطلبون

سرعة تجهيز تجريدة ضد هؤلاء الفرنجة لكثرة عيبتهم ولأنهم أوشكوا أن يستولوا على بعض بلاد الهند . وقد عاد بشير الطواشي من وفادته في يوم الاثنين ٩ المحرم سنة ٩١٧ هـ فقابل السلطان وقدم إليه هدايا نفيسة فقبلها منه وخلع عليه . « ج ٤ في حوادث التواريخ المذكورة »

١٨ - الرئيس حامد المغربي : أرسله الغوري إلى بلاد العثمانيين ليشتري أخشابا وحبالا ومكاحل نحاسية . فلما بلغ ملكهم خبر مجيئه ، لقيه وأكرمه وأرسل صحبته عدة مكاحل نحاسية وحديدية وجملة من الأخشاب والحبال وغير ذلك من الأشياء المطلوبة ، وشحن جميعها في سفن إلى مصر وذلك في رمضان عام ٩١٨ هـ . « ج ٤ حوادث ٤ رمضان عام ٩١٨ هـ »

١٩ - الأمير أقبای الطويل : في ١٠ من القعدة عام ٩١٨ هـ ، خلع عليه السلطان الغوري خلعة وأرسله إلى السلطان سليم شاه ملك الروم بمناسبة توليه الملك ليمنّته بذلك ، ولعقد أواصر صداقة جديدة بين السلطانين . فنزل أقبای بعد الخلع عليه من القلعة في موكب حافل . ثم سافر في يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ وخرج في ركب حافل مارا بداخل ميدان القلعة لير تحت الأنظار السلطانية . وقد عاد من سفارته هذه في ١٤ ربيع الآخرة عام ٩٢٠ هـ ومعه هدايا حافلة من السلطان سليم ومن نواب البلاد التي مر بها والخاضعة لسلطان مصر .

وأقبای الطويل هذا غير أقبای الطويل المذكور في باب أفذاذ الرجال والمتوفى عام ٩٠٥ هـ . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٢٠ - إينال باي دودار سكين . وجهه الغوري إلى بلاد الشام وبلاد الروم في ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ ، قاصدا ملك العثمانيين السلطان سليم لكي يتحسس الأخبار ويتلمس النوايا ، بمناسبة ماذاع من الأنباء عن عزم السلطان سليم على البطش بالشاه إسماعيل الصوفي ملك العراق . وقد حددت له أيام معدودة للقيام بمهمته . وخرج مسافرا في ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ . ثم عاد في رجب من العام نفسه مكرما من ابن عثمان أكثر من إكرامه لإقبای الطويل . وقيل إن السلطان

سليم أرسل معه مكاتبة للسلطان الغورى وصفه فيها بصفات عظيمة بالغاً في تعظيمه مظهراً في ثنايا ذلك ما عليه جنده هو من شدة وبأس . ولم يبال السلطان بذلك .

وقد أرسله السلطان مرة أخرى في شوال عام ٩٢٠ هـ إلى حلب ليعمل على تهدئة فتنه المماليك الثائرين بها . واسكى يكشف الأخبار عن أعمال العثمانيين . وقد عاد من إحدى رحلاته إلى حلب في ربيع الثاني عام ٩٢٢ هـ فأخبر أن السلطان سليم أهدى إليه هدايا وأنه يرغب في المصالحة وأنه بعث من لدنه سفيراً وهو مقيم بحلب لدى نائبها وقد منعه من المسير .

« جزء ٤ في التواريخ المذكورة ، وجزء ٣ ص ٣٠ »

٢١ - جانيم الخاصكى : أصله من ممالك قايقباى . ومن ذوى العقول الراجحة . أرسله الغورى في المحرم عام ٩٢١ هـ إلى السلطان سليم ومعه مكاتبة يرد على مكاتبة وردت إليه منه مع قاصد خاص ، وهى خاصة بالمشاحنة القائمة إذ ذاك بين على دولات نائب حلب وابن أخيه سوار - : وقد سافر في ٢٥ صفر عام ٩٢١ هـ . وعاد في جمادى الأولى عام ٩٢١ هـ وأخبر أن السلطان سليماً أكرمه . ولكن ذلك بعد أن أوقع عسكره بعسكر على دولات بحلب - وقيل إن السلطان أرسله مرة أخرى إلى ملك التتار لمسائل تخص أقارب السلطان - قيل فر على بلاد العثمانيين فقبضوا عليه وسلبوا ما معه من الهدايا وهموا بشنقه ثم أطلقوا سراحه . فعاد إلى القاهرة في ١٦ شعبان عام ٩٢١ هـ وأخبر السلطان بضخامة عسكر ملك الروم السلطان سليم ، وأنه يجيز جنوداً برية في جهة حلب للزحف بها على مصر ، وأنه أعد ٤٠٠ مركب للهجوم على الإسكندرية ودمياط فاضطرب السلطان بسبب أخباره .

« جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٢٢ - الأمير مغلباى دوادارسكين : لعل هذا الأمير آخر سفراء الغورى إلى السلطان سليم ، فقد أرسله إليه عام ٩٢٢ هـ ومعه مكاتبة خاصة بالصلح المقترح بينهما . وكان الغورى إذ ذاك قد خرج إلى الشام وحلب لملاقاة العثمانيين . فبعث السلطان سليم إليه وهو فى حلب وفداً من قبله يقترح عليه الصلح وعدم دخوله فى النزاع

القائم بين السلطان سليم والشاه إسماعيل الصفوى ، وأظهر الوفد الخضوع والالطف للسلطان الغورى ، وكان هذا من قبيل الخداع والتثبيط . فكان رد الغورى أن أوفد رسوله مغلباى إلى السلطان سليم مقترحا الصلح منخدعا بما اقترحه عليه وفد العثمانيين - فسا كان من السلطان سليم إلا أن قبض على الأمير مغلباى وقيده بالحديد وآذاه ، وهم بشنقه - وكان الغورى إذ ذاك قد أطلق وفد السلطان سليم ولم يستبقه لديه حتى يعود رسوله - ثم شفع فيه بعض وزراء السلطان سليم ، فلم يعدم وحلقت لحيته ، وظل مهانا لديه ثم أطلقه ذليلا إلى سلطانه قائلا له : « قل لأستاذك : يلاقينا على مرج دابق » . « ج ٣ ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ » .

ب - من سفراء الدول إلى مصر

١ - فى عام ٦٥٨ هـ كان جند التتار بقيادة ملكهم هولاكو قد بلغوا أطراف دمشق ونهبوا وقتلوا بعد أن أرقعوا من قبل بمدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - فلما بلغوا أطراف دمشق أرسلوا من قبلهم أمير اسمه « كتيبغا فويزبك » ، رسولا من هولاكو إلى سلطان مصر المظفر قطز . ومعه رسالة تطلب إليه وإلى أهل مصر قاطبة الخضوع والتسليم لملك التتار ذاكر ما عليه جنده من قوة ، وما عليه المصريون من ضعف - وكان مع الأمير كتيبغا المذكور أربعة أمراء سواه . فتشاور السلطان قطز مع أمرائه ، فأجمعوا على قتال هولاكو . ثم أمر السلطان المظفر بإعدام كتيبغا ومن معه . وسار لقتال هولاكو . فتلاقى الفريقان بعين جالوت فى أرض كنعان وكسروا التتار كسرة شنيعة فى عام ٦٥٨ هـ . ثم هزموه مرة أخرى فى بيسان فى العام نفسه . « جزء ١ ص ٩٦ ، ٩٧ » .

٢ - فى عام ٧١٢ هـ حضر إلى القاهرة رسل صاحب اليمن ومعهم هدايا نفيسة فقبلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون . « جزء ١ ص ١٥٧ » .

٣ - فى عام ٧٨٨ هـ : حضر إلى الأبواب الشريفة - فى عهد برقوق - قاصد

صاحب ماردين وأخبر بأن خارجيا من التتار الجفطاوية يقال له تمرلنك اقد استولى على البلاد وقد وصلت طلائع جنده إلى مدينة تبريز وخر بها وقتل من أهلها آلاف مؤلفة - وهو يعني تيمورلنك التترى - وأن القان أحمد بن أويس انتقل إلى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تيمورلنك . « ج ١ ص ٢٦٤ » .

٤ - في عام ٧٨٨ هـ أيضا حضر إلى القاهرة رسول من قبل القان أحمد بن أويس صاحب بغداد مخبرا عن سلطان التتر تيمورلنك أنه قد بلغ مدينة قرياق ونهبها وسبي أهلها وطلب إلى السلطان برقوق أن يعد العدة ويأخذ حذره . « جزء ١ ص ٢٦٥ »

٥ - في عام ٧٩٥ هـ وفد على السلطان برقوق رسول من قبل صاحب ماردين يدعى صفي الدين جوهرأ وهو طواشي رومي . يخبره أن تيمورلنك قد ملك تبريز . ثم حضر بعده بقليل رسول آخر من قبل صاحب بسطام وأخبره أن تيمورلنك قد ملك شيراز .

ثم وفد بعده رسول من نائب الرحبة مخبرا أن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل إلى الرحبة هاربا من بطش تيمورلنك الذي قد صادر أملاكه ونهب معظم بلاده بعد أن خدعه بمعسول الكلام وأوفد إليه من يقول له إنه يرغب في زواج ابنته . ففرح وثني عزمه عن قتاله . وسرح جنوده الذين جمعهم لذلك . وكانت هذه خدعة من تيمورلنك جازت على القان أحمد بن أويس . فما لبث حتى أطبق عليه تيمورلنك بخيله ورجاله فترك له البلاد وفر . ودخلت بغداد في طاعة تيمور .

وبعد قليل وفد نائب حلب مخبرا أن القان أحمد بن أويس قد بلغ حلب وأنه وافد على مصر . فاستعد السلطان للقائه وبعث إليه بالهدايا والمساعدات من مال وقماش وخيل وأمرأ .

ثم جاء رسول من ملك العثمانيين ومعه هدايا نفيسة وقد جاء محذرا للسلطان

من بطش تيمورلنك ويطلب إليه الاستعداد والاحتياط والحذر . وطلب من السلطان أن يرسل طبيباً حاذقاً وضروباً من العلاج والدواء لمداواة الملك إذ كان يشكو ألماً في المفاصل ، ويظهر أنه كان مريضاً بالنقرس ، فأرسل إليه السلطان الطبيب الرئيس شمس الدين بن صغير ومعه الأدوية والهدايا . ومن هنا نعلم مقدار ما كانت عليه مصر من عظمة الجاه والعلم والفن إذ ذاك .

ثم وفد رسول من عند صاحب ماردین مخبراً أن تيمورلنك قد ملك بلاد الأكراد وأنه بعث إلى البصرة أستاذه الملك محمود شاه لمحاصرتها وكان معه ابن تيمور ، فوقع بين العسكرين موقعة هائلة هزم فيها التتار وقتل الشاه محمود وأسر ابن تيمور . فطلب تيمور من صاحب البصرة إطلاق سراح ابنه فلم يعبأ به وطلب إليه أن يطلق سراح أسرى البغداديين وابن القان أحمد صاحب بغداد فرفض تيمور وتوجه لغزو البصرة فأعجزه فصل الشتاء على بلوغ غايته .

« جزء ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ »

٦ - وفي عام ٧٩٩ هـ حضر إلى السلطان برقوق رسول من تيمورلنك يطلب إليه إطلاق سراح أحد الأسرى المسمى « أطلش » ، فرفض السلطان حتى يطلق تيمور ما لديه من أسراه . « ج ١ ص ٣٠٦ » .

٧ - وفي عام ٨٠٣ هـ وفد في يوم الاثنين ٢٣ ذى الحجة رسول من قبل ملك العثمانيين صاحب بلاد الروم وهو بايزيد بن مراد بك . وفد إلى سلطان مصر فرج ابن برقوق ومعه هدايا للسلطان والأمراء . وقد جاء مخبراً من تيمورلنك مخبراً بأنه جمع عدداً كبيراً من الجند الذى يخشى بأسه ويخاف قوته على مصر .

« ج ١ ص ٣٣٩ »

٨ - في عام ٨٣٦ هـ جاءت رسل إلى سلطان مصر الأشرف برسباي من قبل قرا ملك . فصعدوا إلى القلعة وقدموا إليه هدايا ملكهم وفي عدادها امرأة مذهبة وخروف بأيتين وخلعة للسلطان من الحرير المذهب ، فاستهان السلطان بهذه الهدايا ، وفهم منها معاني أخرى مؤداها استهزاء قرا ملك بالسلطان . إذ فهم أنه يرى من

إهداء المرأة أن جنود السلطان كالنساء ينظرون في المرأة ، ومن إهداء الخروف أنهم أمامه كالنعاج ، ومن إهداء الخلعة أن السلطان من جملة نوابه . - ولهذا عامل السلطان رسل قرا ملك معاملة سيئة وتهكم بهم وأرجعهم إلى ملكهم ليلغوه أن يلاقيه على الفرات . أخذ السلطان بعد ذلك في إعداد العدة للقائه . وقد توجه فعلا إلى الديار الشامية فالحلبية فديار بكر وحاصر مدينة آمد ثم عاد بلا كثير طائل . « ج ٢ ص ١٩ »

٩ - في عام ٨٥٧ هـ وصل القاهرة في شهر شوال رسول من لدن ملك بلاد الروم وهو سلطان العثمانيين محمد الفاتح ينيء السلطان الأشرف إينال بفتح القسطنطينية . وقد زينت القاهرة وعم أهلها الفرح لهذه البشرى . وعاد الرسول ومعه رسول آخر من لدن السلطان ليقدم التهنئة بهذا الفتح العظيم . وهذا الرسول هو الأمير برسباى أمير أخور الذى ذكر في سفراء مصر . « ج ٢ ص ٤٤ »

١٠ - وفي جمادى الأولى عام ٨٦٠ هـ جاء الخوارج جمال الدين عبد الله القابونى رسولا من لدن ملك بنى عثمان محمد الفاتح ومعه رسالة إلى السلطان إينال تتضمن ما تم له فتحه من البلاد فنال من سلطان مصر ما يليق به من إكرام وعاد ومعه رسول آخر هو قانى باى اليوسفى المهندار ومعه هدايا إلى السلطان إلى محمد الفاتح . وقد سافرا فى شعبان . « ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ »

١١ - وفى ذى الحجة عام ٨٦٠ هـ وفد إلى مصر قاصد جهان شاه ومعه هدايا نفيسه للسلطان إينال . وفى يده رسالة يشكر فيها الشاه إلى السلطان من حسن الطويل ملك العراقين ويشرح جوره عليه وأنه زحف على بلاده فرد السلطان بمكاتبة أخرى عليه . « ج ٢ ص ٥٦ »

١٢ - وفى شهر المحرم عام ٨٧٣ هـ جاء رسول من عند حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة للسلطان الأشرف قايتباى يهنئه فيها بالملك وبصحبته هدايا قيمة وعاد بعد مدة . « ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٢ »

١٣ - وفى شهر رجب عام ٨٧٢ هـ وفد رسول آخر من قبل حسن الطويل

ملك العراقيين ومعه هدية قيمة للسلطان الأشرف قايتباى وفى صحبته رسالة ضمنها ما أفاء الله عليه من قلاع وحصون . وفيها يتملق السلطان ويتودد إليه ويظهر خضوعه كأنه نائب عن السلطان فى بلاده . فأكرم السلطان وفادته وأذن له بالسفر وكان هذا خداعا من حسن الطويل لأنه أظهر غير ما أبطن . « ج ٢ ص ١٠٦ »

١٤ - فى شهر رمضان عام ٨٧٤ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من لدن «سوار» ملك الألبانيين ليعرض عليه الصلح - وكانت العلاقات قد فسدت بينهما - وكان مع القاصد هدية ومكاتبة مضمنة شروط الصلح - ومن بينها أن يكتب السلطان تقليدا له بإمارة الألبانيين وأن ينعم عليه بتقديمه ألف بحلب . وإن رضى السلطان بذلك يسلم سوار مدينة «عينتاب» إلى السلطان ، - وقد رفض السلطان هذه الشروط وطال بينه وبين الرسول أمد المفاوضات دون طائل . وعاد الرسول دون جدوى . « ج ٢ ص ١١٧ »

١٥ - فى شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ وفد رسول من لدن حسن بك الطويل ملك العراقيين ومعه مكاتبة يذكر فيها أنه قتل عددا من أولاد تيمورلنك وملك بلادهم . « ج ٢ ص ١٢٢ »

١٦ - وفى شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ أيضا جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان يخبر السلطان بما فتح من بلاد الفرنجة «البداقة» . « ج ٢ ص ١٢٢ »

١٧ - فى شهر جمادى الآخرة من عام ٨٧٦ هـ قدم قاصد من لدن صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ومعه هدية من الملك إلى السلطان قايتباى ، وهدية إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب من الخليفة أن يكتب له تقليدا بولايته على إقليم الهند عوضا عما كان قبله من ملوكها . فأكرم السلطان وفادته وأهدى إلى الرسول خلعة . وكتب له الخليفة التقليد المطلوب . « ج ٢ ص ١٣١ »

١٨ - وفى ذى القعدة عام ٨٧٦ هـ جاء رسول من لدن حسن الطويل ومعه مكاتبة تضمنت أمورا لم ينشرح لها السلطان . « ج ٢ ص ١٣٤ »

١٩ - وفى ذى القعدة عام ٨٧٧ هـ جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان - وقد

وفد من ناحية البحر - فأكرمه السلطان . وعرض على السلطان مكاتبة أرسلها حسن الطويل إلى ملوك الإفرنج بحرضهم على سلطان مصر وملك بني عثمان . ليجمعوا عليهما من البحر ، وهو - أى حسن الطويل - يهجم من البر . وقد ضبطت هذه المكاتبة مع رسول حسن بك الطويل الذى قبض عليه فى أثناء سفره إلى بلاد الفرنجة بحرا . - ثم إن الرسول أقام ردحا من الزمن مكرما ثم خلع عليه السلطان خلعة وأذن له فى السفر . « ج ٥ ص ١٤٥ » .

٢٠ - فى المحرم عام ٨٧٩ هـ قدم رسول من حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما صدر منه . فأكرمه السلطان وعفا عما سلف ، وكانت المنازعات مستمرة فيما بينهما . « ج ٢ ص ١٥٠ » .

٢١ - وفى ربيع الثانى عام ٨٧٩ هـ وفد على السلطان قايتباى مبعوث من قبل ملك العثمانيين ومعه رسالة من ملكه يشفع فى « إينال الحكيم » ، وكان السلطان قد غضب عليه ففر إلى بلاد الروم فقبل السلطان شفاعته وأكرمه وفادته وخلع عليه خلعة وأقام بمصر زمنا ثم عاد إلى بلاده . « ج ٢ ص ١٥١ » .

٢٢ - وفى شهر جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من ملك الهند ومعه هدية إليه ومن بينها سبع عظيم الخلقة وخيمة كبيرة نفيسة غريبة الصنع . فأكرمه السلطان . « ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ » .

٢٣ - فى صفر ٨٠٢ هـ وفد رسول من لدن ملك بني عثمان ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى فأكرمه ورد على رسالته وسافر إلى بلاده بعد أيام .

٢٤ - فى شعبان عام ٨٨٤ هـ حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة ابى الفتح نائب جدة ومعه هدية نفيسة للسلطان . « ج ٢ ص ١٩٠ » .

٢٥ - وفى المحرم عام ٨٨٦ هـ وفد قاصد من ملك الحبشة فأقام له السلطان قايتباى موكبا بالحوش واستقبله استقبالا حافلا وأكرمه . وسبب وفادته أنه جاء يطلب إلى بطرك القبط أن يولى عنه نائبا فى بلاده . « ج ٢ ص ٢٠٤ » .

٢٦ - وفى رمضان عام ٨٨٦ هـ جاء موفد من لدن يعقوب بن حسن الطويل

ملك العراق يرمعه مكاتبة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما وقع من بابندر - وهو أحد نوابه ، وكان قد آذى جنود السلطان وقتل بعض أمرائه ومنهم الأمير يشيك - فعتب السلطان على الرسول تسرع بابندر بما قام به من الأعمال . ثم ظل الرسول زمنا بمصر وعاد إلى بلاده مكرما . (ج ٢ ص ٢١٠)

٢٧- في شهر ذى القعدة عام ٨٩٢ هـ جاء قاصد من ملك الغرب صاحب الأندلس ومعه مكاتبة يطلب فيها إلى السلطان قايتباى معونة عسكرية لمساعدته في قتال الفرنجة الذين حاصروه وحاصروا مدينته غرناطة وأشرفوا على امتلاكها - وصاحب غرناطة هذا هو أبو عبد الله آخر ملوكها من بنى الأحمر (١) .

وقد رأى السلطان أن يعاونه عن طريق آخر وذلك أنه بعث إلى القسوس الفرنجة المقيمين بجهة القمامة بالقدس - وهى تابعة لمصر وهم يعتبرون من رعاياها - أن يرسلوا رسالة على يد قسيس منهم ومن كبارهم إلى ملك نابلى ليراسل بدوره صاحب أشبيلية ، وهو الذى يحاصر مدينة غرناطة ، ليفك عنها الحصار ، وإلا أساء السلطان معاملتهم - أى معاملة القسس الفرنجة المقيمين فى بلاده - ويمنع جميع طوائف الفرنجة من الدخول إلى القمامة ويهدمها .
وقد تم إرسال هذه المكاتبات كلها ولكنها لم تفلح شيئا وملك الفرنج مدينة غرناطة . (ج ٢ ص ٢٤٦) .

٢٨- فى شهر رجب عام ٨٩٣ هـ وصل إلى مصر قاصد ملك الفرنج الانكبروس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأنزله فى مكان أعده له .

(ج ٢ ص ٢٥٢)

٢٩- فى جمادى الآخرة عام ٥٧٩٤ هـ . قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن

(١) ذكر الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه مصر الإسلامية هذه الوفاة فى الفصل السابع من الكتاب الثانى ، وحققها ، وخلفه بأن صاحب الأندلس هو الزغل ملك وادى آش . لا أبو عبد الله ملك غرناطة - ص ١٣٨ .

عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا إلى ملك بني عثمان للمفاوضة في الصلح بينهما - وكانت المنازعات قد بدأت بين الطرفين - فأجاب السلطان بأنه إذا أطلق تجار الممالك الذين أسره لديه ، وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها يكاتبه في أمر الصلح ، ويبعث إليه بمن ينوب عنه في مفارضة . « ج ٢ ص ٢٦٠ » .

٣٠ - وفي جمادى الآخرة عام ٨٩٦ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك العثمانيين في صحبة ماماي الخاصكي الذي أوفده السلطان إليه منذ أمد ، وكان هذا القاصد من أجل قضاة ابن عثمان تولى القضاة بمدينة بروسة ، وهو من أهل العلم ويدعى « الشيخ علي جلبي » . فصعد إلى السلطان بالقلعة فأكرمه وبالغ في تعظيمه جدا . وأحضر معه مفاتيح القلاع التي استولى عليها ملكه فسلمها إلى السلطان ، وكلبه في المصالحة . « ج ٢ ص ٢٧٠ » .

٣١ - في رجب عام ٨٩٨ هـ جاء رسول من عند رستم بن قرا ملك صاحب العراقين . « ج ٢ ص ٢٧٩ » .

٣٢ - في جمادى الأولى عام ٩٠٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم وصحبته هدية حافلة للسلطان الأشرف الغوري . فأقام له السلطان موكبا عظيما بالحوش وكان يوما مشهودا .

وفي جمادى الآخرة دعا السلطان هذا القاصد في الميدان تحت القلعة حيث أقيمت حفلة رمى النشاب من فوق الخيل وقام بذلك عدة من الممالك . ونصب لهم هناك القبق^(١) يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء ١١ من رجب أقام الأمير أزدمر الدوادار مأدبة حافلة لهذا القاصد في جهة قناطر العشرة . وكان الزمن ربيعا . ولبثا مدة ثم عادا . - ثم أقام

(١) القبق : لعبة كانت معروفة حينذاك . وهي عمود طويل من الخشب ، في رأسه هدف من ذهب أو فضة على شكل قرعة عسكية - كرة - بها حمام . يتبارى اللاعبون بقذفها وهم فوق الجياد « السلوك ج ١ ص ٥١٨ - هامش » .

السلطان حفلة أخرى في ميدان القلعة حضرها القاصد ، ثم خلع عليه خلعة وأذن له في السفر . « ج ٤٦ ، ٤٧ » .

٣٣ - وفي ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد رسول ملك الروم ابن عثمان فأكرمه السلطان وأحسن إليه . « ج ٤٥ س ١٠٧ » .

٣٤ - وفد في رمضان عام ٩١٤ هـ رسول من عند مراد خان بن يعقوب صاحب بغداد ، يستمد المعونة من سلطان مصر الغورى لسيده . وذلك لأن الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوى المتغلب على ملك العراق طغى على بلاده وسلب منه بغداد . فأكرمه السلطان وألبث في رحابه زمنا ، غير أنه لم يحب طلبه . ورجع في ذى القعدة عام ٩١٤ هـ . « جزء ٤ في التواريخ المذكورة » .

٣٥ - في ذى القعدة عام ٩١٤ هـ وفد رسول من لدن صاحب قبرص ومعه هدايا للسلطان قيمة فأكرمه ورحب به . « ج ٤ في حوادث ذى القعدة المذكور » .

٣٦ - في يوم السبت ١٦ ذى القعدة عام ٩١٦ هـ وصل إلى القاهرة رسول من لدن ملك الروم ابن عثمان إلى السلطان الغورى ومعه مكاتبة . فلما ناوها للسلطان قبلها ووضعها على عينيه ، ثم ناوها إلى كاتب السر فقرأها بحضرة السلطان والأمراء ، وكانت ألفاظها منمقة مزوقة بضروب من البديع ونعت السلطان فيها نعتا رفيعا . وكان من مضمونها أنه بعث إلى السلطان عدة مراكب فيها زردخاناه ، فما يدري هل وصلت إلى السلطان أم لا . وأخبر فيها أن الرئيس كالا المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر . فأقام القاصد بمصر أياما قلائل ، وكتب له الجواب عن مكاتبته وأذن له في السفر إلى بلاده . « جزء ٤ في حوادث ذى القعدة المذكور » .

٣٧ - وفي صفر عام ٩١٦ هـ جاء إلى مصر رسول من قبل الملك محمود شاه صاحب كنباية ومن قبل بعض ملوك الهند ، يستحثون سلطان مصر الغورى لإرسال حملة لتأديب الفرنجة العابثين في المحيط الهندى الذين أوشكوا يستولون على البلاد . فأرسل السلطان رسوله بشير الطواشى إلى ناحية اليمن لتدبير هذا الأمر . وقد عاد

بشير المذكور في المحرم سنة ٩١٧ هـ . « ج » في حوادث الشهرين المذكورين . »

٣٨ - في يوم السبت ١٨ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ دخل إلى مصر قاصد إسماعيل شاه الصوفي . فأنزل في بيت قاني باي سلق الذي يقع في رأس الرملة عند سوق الجلاق . فاستقر هناك إلى أن يؤذن له بمقابلة السلطان . وفي يوم قدومه رسم السلطان لبعض الأمراء والجند بالخروج إلى المطرية للقاءه . فخرجوا وخرج الجمل الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء .

قال ابن إياس : « ولكن وقع من السلطان في ذلك غاية الخفة وهو أنه نزل وسار إلى نحو المطرية ليرى القاصد والعسكر عن بعد . فانهقد الغبار هناك فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد ولا العسكر فرجع إلى القلعة . »

وفي ٢٠ منه أقام السلطان موكبا بالحوش وجلس على المصطبة وحفت به الأمراء والجنود وهم بآلات الحرب والسلاح . ثم أذن للقاصد بالطلوع إلى القلعة ، فلما مثل بين يدي السلطان قبل الأرض ثم رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبة بين يديه ، ثم قدم إليه مصحفاً شريفاً وسجادة صلاة . فقبل السلطان المصحف ، ثم أحضر القاصد صندوقاً لطيفاً ففتح بين يدي السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى « أذربك خان » وهو الذي قتله الصوفي ، فرسم السلطان بدفته . ثم أحضر القاصد قوساً عريضة عرضها شبر ، فكسرها أحد الزردكاشية بعد نزول القاصد - ثم نزل القاصد بعد هذا الموكب والمجلس العظيم .

وفي يوم ٢٨ منه دعا السلطان هذا القاصد إلى ميدان القلعة وشاهد ضرب الكرة إذ اشترك السلطان هو والأمراء المقدمون فيه ، ثم خلع عليه السلطان سلارياً من الصوف .

وقد كان السلطان حذراً في معاملة هذا القاصد ، إذ وكل به وبمن معه جماعة من الخاصكية تمنع وصول الناس إليهم وحرم عليهم المشي في الأسواق . وكان القاصد مع ذلك يتردد على حفلات السلطان بين الفينة والفينة .

ثم أذن له السلطان في العودة إلى بلاده يوم الجمعة ٦ جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ.
ولم يعلم بماذا أجابه السلطان على جواب البيتين اللذين قيل إن مولاه اسماعيل شاه
أرسلهما إليه وهما :

السيف والخنجر ريجاننا أف على الزرجس والآس
مدامننا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الراس

مع العلم بأن نحواً من مائتي شاعر من شعراء مصر عارضوا هذين البيتين
بمقطوعات طريفة (١) .
« ج ٤ في التواريخ المذكورة »

٣٩ - في يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب
الشريفة قاصد من ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مظالعتة وأقام له موكبا
بحوش القلعة وجلس على المصطبة التي أنشأها عوضاً عن الدكة .

« ج في حوادث جمادى المذكورة »

٤٠ - في يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة
قاصد على دولات ومعه هدايا ، انظر وصفها في باب الهدايا من هذا الجزء من
كتابنا ، - وقد أكرمه السلطان ودعاه إليه مراراً في الميدان . وألبسه سلاريا
بصمور من ملابسه ، وأذن له في السفر في ٤ المحرم عام ٩١٨ هـ .

« ج ٤ في حوادث التواريخ المذكورة »

٤١ - في يوم الاثنين ١١ المحرم عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قصاد
من عند ملوك الفرنجة الفرنسيين وكانوا من رؤساء الفرنجة ، فبعث إليهم السلطان
خيولاً يركبونها من بولاق إلى القلعة ، ثم أقام لهم موكبا حافلا بالحوش بالقلعة ،
وزين باب الزردخاناه وغيره بالصناجق واللبوس وآلات السلاح .

وكان القصاد نحو خمسين رجلاً وقد بدأوا في أحسن زينة وأخضر لباس ، ومن
بينهم اثنان برزا أجمل من سواهما بثياب مخملة كفقورية وفي رقبتيهما سلاسل من

(١) راجع هذه الأبيات في الجزء الرابع من كتابنا هذا .

ذهب ، فلما مثلوا بين يدي السلطان أبدوا عظمة ، ثم قبلوا له الأرض ، وقرئت كتبهم ثم انصرفوا ، ونزلوا في بيت كاتب السر أبي بكر بن مزهر ببركة الرطلى وفي صحبتهم نائب المهمندار . وساروا في وسط القاهرة وكان يومهم مشهودا . . وقد قدموا إلى السلطان هدايا حافلة . وتجد وصفها في باب ذكر الهدايا من هذا الجزء . . « ج ٤ ، في حوادث التاريخ المذكور »

٤٢ - في الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ملك البنادقة فكان له يوم مشهود . وأقيم له موكب شائق . وزين لأجله باب الزردخاناه بالللبوس والسلاح . ثم صعد القاصد وفي صحبتته هدية حافلة « انظر باب الهدايا » . وكان راكبا فرسا وأمامه سبعة من أخصائه يركبون الخيول مثله . وبقية حاشيته مشاة ، وعدد الجميع نحو رجلا . وكان القاصد مسنا ذا ذقن بيضاء ، وهو بدين يبدو عليه الوقار ، وعليه خلعة مذهبة من الحرير الأصفر .

فتلقاهم السلطان بالقلعة ثم غادروها إلى مكان أعد لإقامتهم . وأشيع أن القاصد جاء يسعى لدى السلطان في أن يأمر بفتح القامة بالقدس الشريف . وكان السلطان قد أغلق بابها ومنع الفرنجة من الدخول إليها بسبب ما تقدم منهم - وقد سافر القاصد في ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ .

« ج ٤ ، التاريخ المذكور »

٤٣ - في ١٢ ربيع الثاني سنة ٩١٨ هـ رجع تمر باي الهندي رسول السلطان إلى الشاه إسماعيل وكان غير مكرم منه . وكان في صحبتته قاصدان : أحدهما قاصد من الشاه إسماعيل ، والثاني من ملك السكرج . فأمر السلطان الزيني بركات بن موسى المحتسب بأن يلاقيهما ويقم لهما الموائد . فصعد بالامر ومد لهما بالخانكة . وكان مع قاصد إسماعيل شاه نحو مائة رجل ، وقبل كان فظا شديدا البأس . ونزل في بيت قاني باي سلق في رأس الزملة عند سويقة عبد المنعم .

وفي يوم ١٤ منه صعد هذا القاصد إلى السلطان بالقلعة في موكب حافل بالحوش ،

فجلس السلطان إلى المصطبة ونصب السحابة الزركش ، وحوله الأمراء المقدمون وعديد من الجنود . وزين باب الزردخاناه بالأسلحة والأعلام . وقد خرج القاصد إلى السلطان من بيت قاني باى سلق وفي صحبته أزدمر المهمندار والأمير كرتباى وإلى القاهرة . ثم مثل بين يدى السلطان وقدم إليه هدايا حافلة فكانت نحواً من أربعين حمالاً ، ومنها من الفهود سبعة - وكانوا تسعة فمات اثنان - وقد شقت طريقها في القاهرة وعليها جلال من الحرير . ومن بينها هدايا كثيرة أخرى . وانظر باب الهدايا .

ومثل القاصد بين يدى السلطان ومعه رجل آخر وكلاهما من أعيان الأمراء لدى الشاه إسماعيل الصوفى . فقبلا الأرض ثم ركبة السلطان ثم قدما إليه مكتبة مولاها فقرئت فوجد فيها ألفاظ جافة نابية وكلام فج فلم يرح السلطان إليه وبدا الغضب على وجهه فكظمه . ثم نزل هذا القاصد من لدنه .

وفي عقبه صعد قاصد ملك السكرج ومعه هدية حافلة بأثواب ثمينة وأقشة غالية . وقد سافر هذا القاصد في ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ وقيل في ١٠ جمادى الأولى .

أما قاصد الشاه إسماعيل فلبث مدة بمصر يحضر مع السلطان حفلات عدة . وقد رد السلطان جواب سيده بكلام يابس مثله . وكان ذلك بدءاً للوحشة بين العاهلين . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٤٤ - في يوم الاثنين ٢٨ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ابن رمضان أمير التركان ومعه هدية للسلطان حافلة . « ج ٤ في حوادث اليوم المذكورة »

٤٥ - قال ابن إلياس ماملخصه : « في شهر ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ أنه من العجائب أن اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً . كل قاصد من لدن ملك على انفراد . ومنهم : ١ - قاصد الشاه إسماعيل الصوفى ، ٢ - قاصد ملك السكرج ، ٣ - قاصد ابن رمضان أمير التركان ، ٤ - قاصد من لدن ابن عثمان ،

٥ - قاصد من عند يوسف الصوفي أحد أمراء التركان ، ٦ - قاصد من عند صاحب تونس ملك الغرب ، ٧ - قاصد من مكة ، ٨ - قاصد من عند الملك محمود ، ٩ - قاصد ابن درغل من أمراء التركان ١٠ - قاصد نائب حلب ، ١١ - قاصد من ملك الفرنج ، الفرنسية ، . . وغير هؤلاء . د ج ٤ في التاريخ المذكور .

٤٦ - في الخميس ٢ رمضان عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيمان في الحلقة وعليهما د بركتوانات (١) مخلة بمسامير كف ، وعلى ظهرهما صنماجق وعلى أنياهما غلوف من الفولاذ ، فرجت لهما القاهرة . ولما دخلوا على السلطان عرضا عليه في الميدان وأمامهما الطبل والزمر . د ج ٤ في التاريخ المذكور .

٤٧ - في أواخر رمضان عام ٩١٨ هـ حضر الأمير حسين الذي وجهه السلطان إلى بلاد الهند لرد عبث الفرنجة فلقى الشدة أمد . وعاد بعد سبع سنوات تقريبا . وكان معه قاصد من قبل الملك المظفر شاه بن الملك محمود شاه صاحب كنيابة الذي توفي . وقد حضر قاصد المظفر ليكتب الخليفة تقليدا لمولاه بولايته . فخلع عليه السلطان وأكرمه . د ج ٤ في التاريخ المذكور .

٤٨ - في ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ حضر رسول من لدن سليم شاه بن عثمان ملك الروم . وكان السلطان بالميدان . فلما قرئت عليه مكاتبتة أشيع بين الناس أن السلطان سليما يرغب في قتال إسماعيل الصوفي ملك العراقيين . فبعث يخبر السلطان بذلك حتى يكون عوناً له ضد الصوفي . - وقد أذن السلطان الغوري لهذا القاصد في السفر يوم ٢٢ ربيع الثاني من العام المذكور ، فعاد ومعه إينال باي دوا دار سكيك قاصداً إلى سليم الأول ليتجسس الأخبار د انظره في باب القصاد . . جزء ٤ في التواريخ المذكورة .

٤٩ - في ٢٧ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ وفد رسول من عند السلطان سليم

(١) البركتوانات . السروج .

الأول . وهو أحد الأمراء الأجلاء لديه . فنزل في بيت الظاهر تمر بغا جهة سوق السلاح ثم قابل السلطان في مستهل جمادى الآخرة عام ٩٢٠ هـ فأوكل له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركشية ، وزين له باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق ، واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش . ثم طلع القاصد ومعه أزدمر المهندار وجماعة من الرموس النوب ، فقدم هدية نفيسة إلى السلطان « انظرها في باب الهدايا » . وكان جميل الهيئة ومعه جماعة من العثمانيين ذوي هياث جميلة ، فأكرمهم السلطان وقرأ مطالعتهم وانفض الموكب وكان يوما مشهودا .

وفي اليوم الثاني استدعاه السلطان وجلس معه في قصر المقياس ومد له هناك أسمطة حافلة .

وفي ١٢ جمادى الآخرة عام ٩٢٠ هـ ، وفد قاصد آخر من لدن السلطان سليم ، فلما وصل إلى الصالحية سرقت منه أقمشة في طياتها مكاتبة إلى السلطان . فغضب الغورى لذلك وأرسل إلى شيخ العرب بتلك الجهة أحمد بن بقر ، وشدد عليه في البحث عنها فبحث حتى وجدها وردت إلى صاحبها ..

أما القاصد الأول فقد لبث مقيما في مصر مكرما لدى السلطان . وأقيمت له حفلة في ٦ رجب عام ٩٢٠ هـ ولعب الرماحة أمامه بما أعجبه وملأه دهشة . وقد قصد السلطان من إقامتها أن يريه ما عليه جند مصر من قوة ومهارة وفروسية .

وبعد أن أذن له في السفر عاد فاستهمله وعاقه عنه ، حتى يثوب رسول السلطان إينال ، لأن الأخبار كانت تتوالى باشتباك السلطان سليم مع الشاه إسماعيل الصفوى . ومن الغريب أن القاصد الثانى عرض على القاصد الأول - إذ أنهما من جهة واحدة ووفدا في زمنين متقاربين - فأنكره ولم يعترف به ! فما كان من السلطان إلا أن خلع عليه وأنعم بمال ، فسافر وهو ورفيق له فاختلفا في الطريق على اقتسام المال ، فما كان من رفيقه إلا أن عاد إلى السلطان وأعلمه أن هذا القاصد جاسوس من قبل حسن بن أحمد بك العثماني الذي فر من وجه السلطان سليم إلى إسماعيل الصفوى ،

وأنه جاء إلى مصر ليتسمع الأخبار . فرسم السلطان برده ، فقبض عليه وسجن بالمقشرة وأشهر في القاهرة وهو مقيد بالحديد وحمله المشاعل تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .

أما القاصد الأول فإن السلطان أذن له في العودة إلى بلاده في ٢١ رجب عام ٢٩٠ هـ بعد أن خلع عليه ومن معه ، فأخذ في الاستعداد ثم عاد .

« ج ٤ في التواريخ المذكورة »

٥٠ - في يوم الخميس ٢٩ رمضان عام ٩٢٠ هـ حضر سفير من لدن السلطان سليم الأول العثماني ومعه مطالعة تتضمن أخبار انتصاره على الشاه إسماعيل ملك العراقيين . وتصف له أخبار هذه المعركة بما يشيب الولدان . فقرئت هذه المطالعة ثم خلع السلطان على القاصد ، ولم يأمر حين لقائه بالزينة كما أمر في المرات السالفة . ثم أذن له في السفر في أواسط شوال سنة ٩٢٠ هـ ومعه جواب تهنئة .

« ج ٤ في التاريخ المذكور »

٥١ - في أوائل المحرم عام ٩٢١ هـ حضر قاصد من عند السلطان سليم ومعه مكتبة مضمونها أن شخصا من أبناء الشاه سوار وقع بينه وبين عمه على دولات نائب حلب ، شجار بسبب بلاد أبيه ، فحنق من عمه وتوجه إلى السلطان سليم ، فتعصب له ، وأرسل إلى السلطان الغوري يطلب إليه أن يعطي ابن سوار أملاك أبيه التي استولى عليها عمه على دولات . - فلم يوافق السلطان الغوري على ذلك ، وغضب أشد الغضب وتشاور مع الأمراء في الأمر خوفا من الفتنة أن تتسع ، ويزيد الخلف بينه وبين السلطان سليم .

وأشيع أن السلطان سليما أورد في مكاتبته المذكورة ألفاظا تتم عن عظمته وتشعر بسطوته ، إذ كان يقول عن نفسه : « مقامنا الشريف ، ويقول عن السلطان : « مقامكم العالي » . وهذا التغاير نوع من الاستخفاف ...

وقد ورد بعد ذلك رسول من لدن على دولات ومعه مكتبة أكد فيها للسلطان الغوري ما وقع بينه وبين ابن أخيه سوار مما ذكرته مكتبة السلطان سليم

وذكر تعصب هذا السلطان لابن سوار ضده . « ج ٤ »

٥٢ - في يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ حضر رسول من لدن السلطان سليم ومثل بين يدي الغوري سلطان مصر وهو جالس في الحوش على المصطبة ، فقدم إليه علبة وجدها رأس على دولات نائب السلطان ، ورأس ولده ووزيره . فشق على السلطان رؤيتها ، وقال للقاصد : « هل هذه رؤوس ملوك الفرنجة انتصر عليهم حتى أرسلهم إلى » . ثم أمر بدفنها وأذن للقاصد بالمسير إلى بلاده ، في ١٠ رجب عام ٩٢١ هـ وكتب له مجاوبة عن مكاتبتها .

أقول إن هذه السفارة والتي قبلها تنبئ عن الأسباب التي كان يخلقها السلطان سليم لإيقاع النزاع بينه وبين سلطان مصر ليستخدمها ذريعة إلى غزوها في المستقبل . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٥٣ - في المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوار شاه الذي تعصب له السلطان سليم ضد أخيه على دولات . وأحضر صحبته هدية للسلطان وكانت غير نفيسة ، وهي خمسة عشر جملاً بخانيا وثماني أكاديش وستة بغال . وقد أرسله ليترقق للسلطان ومعه مطالعة يبغي من رؤاها رضاه . فاستشار السلطان الأمراء في قبول الهدية أو ردها فاجتمعوا عنده وظلوا إلى قبيل الظهر ولم يعلم أحد ما تم عليه اتفاقهم . « جزء ٣ ص ٥ »

٥٤ - وفي يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر قاصد من لدن ملك الحبشة - وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر - وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة في دولة الملك الأشرف قايتباي وذلك في عام ثمانين وثمانمائة ، ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وأعمالهم في مصر قليلة متضائلة .

فلما حضر هذا القاصد أقام له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولا قماش ، كما تقدم للأشرف قايتباي - فجلس السلطان على المصطبة التي أنشأها بالحوش ،

ونصب على رأسه السحابة الزركشية واصطففت الأمراء يمينه وشماله ، كل واحد منهم في منزله . ثم طلع القاصد من الصليبة وفي صحبته الأمير أزدمر المهمندار ، وجماعة من الرؤوس النوب ومن الممالك السلطانية وغير ذلك . وكان مع القاصد من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة رجال ، والبقية ليسوا من الأعيان . وفيهم من هو عريان ومكشوف الرأس وعلى رأسه «شوشة» شعر . وفيهم من في أذنه حلق من الذهب متسع الدائرة ، قدر القرصة ، وفي أيديهم أساور ذهبية . وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير في الحبشة . وقيل إن أباه هو الذي حضر في دولة الملك الأشرف قايتباي . وكان على رأسه خوذة من الحرير المخمل الأحمر وفيها صفائح ذهبية وبعض فصوص وعلى رأس الخوذة درة كبيرة غالية وعليه علامات من الحرير الملون - وعلى بقية أمراء الحبشة علامات «شايات» من الحرير الملون وعلى رؤوسهم «شود» من الحرير . وذكروا أن فيهم شخصاً شريفاً - وكان مجموع هؤلاء الأجباش الذين حضروا إلى مصر نحو ستائة إنسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم حينما خرجوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما ، وكان في صحبتهم البترك وعليه برنس من الحرير الأزرق . وكانت أعيانهم راكبة فوق الخيول ، والبقية مشاة . فصعدوا إلى القلعة من سلم المدرج . والبترك ماش أمامهم فلما وصلوا إلى باب الحوش كان في صحبتهم كراسي عالية من الحديد وأرادوا الجلوس عليها بحضرة السلطان ، فلم تمكنهم رؤوس النوب ، من ذلك . - ووقع في أيام الملك الأشرف قايتباي مثل ذلك فما أجلسوهم .

فلما بلغ القاصد الحوش قبل الأرض ثم لما وصل إلى أوائل البساط السلطاني قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة . ولم يدخل معه أمام السلطان غير سبعة أنفس . ولم تدخل البقية . فلما اقتربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة . ثم قدموا كتاب ملك الحبشة - قيل إنه كان في غلاف من فضة ، وقيل من ذهب - فلما قرئ على السلطان سمع منه ألفاظاً حسنة ونعتارفيعاً له وعلم منه أن ملكهم أوفدهم إلى مصر مستأذنين في زيارة القمامة بالقدس ، وظلوا واقفين

زمننا حتى قرىء مکتوبهم ، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة وأمر لهم السلطان أن يقيموا في ميدان المهارة الواقع قرب قناطر السباع حتى يسافروا . وضربت لهم به خيام ونيطت حراستهم بعدد من الجند المماليك .

ولما عادوا من لدن السلطان عاد في صحبتهم الوالى والمهمندار وجماعة رموس النوب ، فما زالوا فى صحبتهم حتى أوصولهم إلى حيث ينزلون . وقيل إن هذا القاصد أمضى تسعة أشهر مسافرا حتى بلغ مصر .

ثم إن القاصد بعث إلى السلطان بهدية لم تكن حافلة - قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك . فلما شهدها السلطان وبخ من قدم بها إليه . . وأطلعته على قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر فى العصور السالفة كالآشرف برسباى والظاهر جقمق والآشرف قايتباى وغيرهم وتواريخها .

قال ابن إياس مامليخه : « ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة فى هذه الآونة بالنسبة إلى ما كان عليه أسلافهم فى قديم الزمان ، حتى نقل أحد المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا يناع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى ، وصدفوا الآن عما كانوا عليه . - وقد أرسل بعض ملوك الحبشة هدية للملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٢ هـ فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر حتى عدت من النوادر ، .

وقد أقام قاصد الحبشة فى الميدان ثلاثة أيام ثم سافر هو ومن معه إلى القدس ليزوروا القمامة . « ٣٧ من ٨٠ ، ٩٠ » .

٥٥ - فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ أخذ السلطان الغورى يجمع جموعه ويعد عدته للرحيل إلى الشام لقتال بنى عثمان . . وبينما هو فى يوم من أيام ربيع المذكور جالسا بمخيمه إذ وردت عليه مطالعة من نائبه فى حلب يخبره أن السلطان العثمانى بعث إليه رسولا . وقد منعه النائب من المسير إلى مصر وأخذ الرسالة التى يحملها وبعث بها إلى السلطان . . . !

اطلع السلطان الغورى على رسالة السلطان سليم فإذا بها عبارات رقيقة وألفاظ معسولة ومخاطبة بكلمة « ياوالدى » . وأنه يطلب إليه الدعاء له . وأنه ما زحف على بلاد على دولات إلا لبغيه على ابن أخيه ، وأنه كان يثير الخلاف بين والد السلطان سليم والسلطان قايتباى ، وأنه كان جرثومة فساد فى مملكة سلطان مصر . وأن ابن سوار تحت أمر السلطان إن شاء أبقاه على ولايته أو عزله . وأنه ما منع تجار الممالك الجراكسة من جلب الممالك ومن مسيرهم إلى مصر ، بل هم الذين شكوا ما يصيبهم من الحيف والضر من جراء معاملتهم بالنقد المصرى . لذلك امتنعوا عن جلب الممالك الجدد - وفى هذه الرسالة يبدى السلطان سليم استعداد له لرد جميع ما استولى عليه من ولاية على دولات !

وقد سر السلطان الغورى من هذه الرسالة هو ومن معه من الأمراء وانشرحت صدورهم وأنسوا قرب الصلح وفض الحرب والعودة إلى الوطن .

قال ابن إياس : « وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده . وقد ظهرت حقيقة ذلك فيما بعد » . « ٣٠٠ م » .

٥٦ - فى جمادى الآخرة عام ٩٢٢ هـ كان السلطان الغورى قد رحل إلى الشام فحلب ، بجيوشه الكشيفة لمحاربة السلطان سليم ، فلما بلغ مدينة حلب ودخلها وفد عليه فيها توا قصاص من لدن السلطان سليم على رأسهم قاضى عسكره واسمه « ركن الدين » ، وأحد أمراءه واسمه « قراجا باشا » . فلما مثلوا بين يديه ، قيل إنه عاتبهم على ما صنعوا سيدهم من الإغارة على ممتلكات مصر واستيلائه على ولاية « على دولات » ، فقبلوا عتابه ، وأبدوا رغبة مولاها فى مصالحة السلطان ، وأنه ينزل عند رأيه ، ويسير وفق مشيئته ، وأطلعوه على مكاتبة إليه ويقول فيها له « ياوالدى » ، ويطلب إليه الدعاء له . كما يطلب منه ألا يدخل فى النزاع القائم بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوى ، وأطلعوه على فتوى من علماء العثمانيين بقتل هذا الشاه - وكما يطلب إليه أن يبعث له كمية من السكر والحلوى ، ويفهمه أنه ما جمع جنوده إلا لقتال الصفوى وأنه متجه بها إليه .

فانخدع السلطان الغورى بكل أولئك وبعث إليه بمائة قنطار من السكر والحلوى !

قال ابن إياس ما مؤداه : « كل هذا كان خداعا وتحيلا من السلطان سليم حتى يشبط همّة الغورى ويثنيه عن عزمه ويفت في عضده ويبعده عن فكرة القتال حتى يكر عليه على حين غفلة . وقد جازت هذه الحيلة على سلطان مصر . إذ وقع في جيشه الخلف والفتنة والخيانة وضاعت معنويته ، حتى كان لذلك أسوأ الأثر إذ أدى إلى الهزيمة والاحتلال » « ج ٣ ص ٤٠ » .

الهدايا

ليس عجيباً أن تتبع الفصل السابق بفصل نذكر فيه الهدايا المتبادلة بين سلاطين مصر وغيرهم من ملوك وأمراء ونواب ، وذلك لشدة الارتباط بين الرسل والهدايا . إذ كان الغالب أن يحمل الرسول القادم من بلد هدية إلى سلطان البلد الذي يممّه .

وأكثر ما كانت هذه الهدايا المتبادلة من الأقمشة والأسلحة والخيول المطهّمة والماليك والجواري وبعض حاصلات البلاد ، وبعض الأموال ، فإذا وفدت من ناحية العراق وفارس كان من بينها السجاجيد ، وإن وردت من ناحية الشام وحلب كان فيها الدراب والماليك والأقمشة النفيسة والفاكهة والحلوى . وإن وردت من موافى أوربا كان من بينها الجوخ والحرير والبلور . وإن كانت من مصر كان فيها السكر والحلوى والدراب والمال والماليك .

ويظهر أن الهدايا كان لها دور خاص في الرسميات ومنزلة مرمية وقبود عرفية ، كما كانت لها جداول وسجلات ترقم فيها وتنعت بين سطورها . وتحفظ للاطلاع عليها وقت الحاجة . كما كانت السلاطين تقيم لها وزناً وتجعل لها أهمية . وتستدل منها على أمور يكون لها دخل كبير في العلاقة بين مصر والبلد الآخر . وكذلك كانت طبقات الشعب تلهج بذكر ما يهدى إلى سلطانها وتحوك حول أوصافها الأقاويل الكثيرة .

ويفهم هذا من جملة حوادث منها :

١ - في عام ٨٣٦ هـ جاء إلى السلطان الأشرف برسباي قصاد من قرا ملك ومعه هدايا من بينها امرأة مذهب وخروف بإليتين وخلعة للسلطان من الحرير الأحمر المذهب . فقهم السلطان من ذلك أن قرا ملك ينعته وجنوده بأنهم نساء

يحتاجون للمرأة . وأنهم كالتعاج لا يأبى لهم . وأن السلطان نائب من نوابه ،
ولذلك خلع عليه الخلعة . .

وكانت النتيجة أن غضب برسباى ، وأهان الرسل وتوعد ملكهم ، فما عادوا
إليه حتى وقعت الحرب بين الملكين . « ابن إياس جزء ٢ ص ١٩ »

٢ - وفي يوم الخميس ١٥ المحرم عام ٩٢٢ هـ ، وفد إلى السلطان الغورى رسول
من لدن ملك الحبشة ومعه عدد كبير من الأحباش فقدم هدية إليه لم تنل منه
الرضا ولا الإعجاب ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار . فوبخ من صعد بها
إليه وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى سلاطين مصر السالفين أمثال
برسباى وجقمق وقايتباى وتوارىخ هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر ، فقرئت
عليه . « ابن إياس جزء ٣ ص ٨ »

٣ - وفي عام ٩٢٢ هـ وفي نفس شهر المحرم أيضا وفد على الغورى ، قاصد
من سوار شاه وقدم إليه هدية قال عنها ابن إياس إنها « فشروية » وإنها
وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا وثمانى أكاديش وستة بغال ،
فتردد السلطان فى قبولها ورفضها وشاور الأمراء ولكن لم يعلم ما استقر عليه
رأيهم . « ابن إياس جزء ٣ ص ٥ »

ومن هذا يفهم ما ذهبنا إليه ، وقد أشرنا فى باب السفارة إلى بعض هذه
الهدايا ونذكر هنا عددا منها نقلا عن ابن إياس ^(١) فنقول :

١ - فى سنة ٦٦٩ هـ أرسل صاحب طرابلس هدية قيمة للسلطان الظاهر
بيبرس وأظهر له الطاعة . فقبلها منه وأقره على ما كان بيده من البلاد . وأهدى
إليه صاحب اليمن هدية فيها تحف ودب أسود وفيل . « ج ١ ص ١٠٨ - السلوك
ج ١ ص ٥٩٥ »

٢ - فى سنة ٧٠٤ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة فى عهد السلطان الناصر محمد

(١) إذا نقلنا من غير ابن إياس نصصنا عليه . وج ٤ منه فى توارىخه .

ابن قلاوون ، صاحب دنقلة ، من أعمال الصعيد ، وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك خلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة . « ج ١ ص ١٤٧ »

٣ - في سنة ٧٦٢ هـ أهدى بعض ملوك اليمن إلى سلطان مصر الناصر حسن ، خيمة عظيمة غريبة الشكل ، بهابئة قاعة وبها حمام ، وهى منقوشة بصنعة غريبة . فتوجه السلطان إلى بر الجزيرة ونزل بكوم برا ، ونصب هناك تلك الخيمة . فكان أهل القاهرة يخرجون لمشاهدتها . وقال فيها ابن أبى حجلة المغربي الشاعر الأديب :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة	فأمسيت منها باهتا أتعجب
لسانى بالتقصير فيها مقصر	وإن كان فى أطناها بات يطنب
وقال : إذا ما خيمة السلطان لاحت	فقل فى حسنها نظما ونثرا
وإن رفعت ورمت النصب منها	فصف أطناها وهلم جرا

« ج ١ ص ٢٠٨ »

٤ - فى عام ٧٧٨ هـ بعث صاحب إفريقية ، أحمد بن محمد ، من سلالة الموحدين هدية نفيسة لسلطان مصر مع الذين وفدوا من بلاده إلى الحج . وهى عدد من الجياد العربية الأصيلة ، فسر منها السلطان . « ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٩ »

٥ - فى عام ٧٩٢ هـ ، بعث إليه صاحب أفريقية أيضا هدية أخرى من الجياد الأصيلة كذلك . « ابن خلدون ج ٥ ص ٥٠١ »

٦ - فى عام ٧٩٢ هـ ، أرسل ملك العثمانيين إلى برقوق ملك مصر ، يطلب إليه إرسال طبيب حاذق ومعه الأدوية اللازمة لعلاج من وجع المفاصل . فبعث إليه الرئيس شمس الدين بن صغير الطبيب . ومعه حملان من الأدوية . « ج ١ ص ٣٠٠ »

٧ - فى عام ٧٩٦ هـ اقتحم تيمورلنك مدينة بغداد على أهلها وعلى صاحبها القان أحمد بن أويس . فهرب القان من وجهه ، ويم شطر البلاد المصرية فى عهد السلطان برقوق فلقبه خير لقاء وأنزله خير منزل . وأسكنه فى دار الأمير (١٦ م - ممالك)

طغر دمر ، وأهدى إليه ضروبا من الهدايا إعانة له . ومن جملة ما عدة خيول مطهمة بسروج ذهبية وكنابيش ، وعشرون مملوكا صغيرا ، وعشرون جارية بكرة ، وأقشة وخمسة آلاف دينار .
(ج ١ ص ٣٠١)

٨ - في عام ٧٩٩ هـ وفد إلى الأبواب الشريفة في عهد السلطان برقوق ، المقر السيفي « تم الحسنى » نائب الشام ، فلما بلغ السلطان وصوله إلى الريدانية نزل من القلعة فلقه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية وخلع عليه .

فقدم النائب إلى السلطان عشرة ممالك جراكسة وعشرة جوار وعشرة آلاف دينار ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونمجة مسقة بالذهب ومرصعة بفصوص من الياقوت والفيروز ، وأربعة كنابيش وأربعة سروج من الذهب وأربع بدلات ذهبية زنة كل منها أربع مائة مثقال من صنع المعلم « بهرام » وعشرة كواهي للصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات وأنواب من الصوف الملون ، ومائة فرس خاصة وخمسين حملا وعشرين حملا من الأنواب البعلبكية ، وثلاثين حملا من الفاكة ، وحلوى شامية ، وعشرين حملا من الخللات وحملي من علب السكر النباتي الحموي وغير ذلك أشياء كثيرة . (ج ١ ص ٣٠٦)

٩ - وفي عام ٧٩٩ هـ أيضا ورد رسول من قبل صاحب اليمن وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل ومعه القاضي برهان الدين المحلى التاجر الكارمى . ومعهما هدية حافلة مختلفة الأنواع . فخلع السلطان برقوق على القاصد وأكرمه .

(جزء ١ ص ٣٠٧)

١٠ - في عام ٨٠٣ هـ في عهد السلطان فرج بن برقوق ، طلب إليه تيمورلنك أن يطلق قريبا له يدعى « أطمش » ، كان أسيرا منذ عهد السلطان برقوق في مصر . ووعد أن يطلق من لديه من أسرى المصريين في نظير ذلك . فأطلقه السلطان فرج وأرسله إليه مع بعض أمراءه مكرا . ففرح به تيمورلنك وأطلق من عنده من الأسرى وأرسل إلى السلطان فرج هدية حملا إليه الخواجا مسعود البكججوى ، وكان في عدادها فيل عظيم الخلفة وعلى ظهره صندوق من الجشب يسع عشرة رجال

يجلسون فيه للضرب بالسككوسات . وعدا ذلك أشياء ثمينة . وكان وصوله إلى مصر حافلا وعجب له أهلها .
« جزء ١ ص ٣٣٦ »

١١ - في سنة ٨٣٦ هـ وفد إلى السلطان الأشرف برسبای قصاد قرا ملك ، ومعهم هدية له فمن جملتها قرص مرآة مكفتة بالذهب وخروف باليتين وخلعة للسلطان من الخمل الحرير المرقوم بالذهب وبعض أثواب حريرية أخرى وصقور صيد . فلما رأى السلطان هذه الهدية استصغر شأنها . ودعا القصاد إلى البحيرة بالقلعة وألبس الخلعة المهداة لشخص من الشهدارية وكان مضجكا ! فرقص بها أمام السلطان فضحك عليه . ثم أحرق السلطان الخلعة أمامهم ، وذبح الخروف ! ثم سأل القصاد عن الكيفية التي بها يسخر ملكهم من أحدهم فقالوا : يرميه في الماء . فأمر السلطان برمىهم في البحيرة فظلوا بها ساعة ثم أخرجوا . ورسم بأن تقص أذنان خيولهم . وعجل لهم في السفر قائلا : « قولوا لاستاذكم يلاقيني على الفرات » .

ثم أخذ السلطان في تجهيز تجريدة لقتال هذا الملك . ووقعت بينهما الوقائع - والسبب الذي أهم برسبای هو ما أشرنا إليه فيما سلف من أنه ظن الهدية ضربا من التهكم به ، وأن قرا ملك يصفهم بأنهم نساء وتعاوج وأنه - أي السلطان - نائب من نوابه .
« ج ٢ ص ١٩ »

١٢ - في ربيع الأول عام ٨٥٩ هـ في عهد السلطان إينال العلائي وصلت إليه هدية من الملك أعلان صاحب الأبلستين ، وكانت حافلة وفي جملتها خيول وبغال وجمال وأقمشة من الحرير .
« ج ٢ ص ٤٨ »

١٣ - في سنة ٨٨٤ هـ حج السلطان الأشرف قايتباي ، فلما عاد من حجه أوائل عام ٨٨٥ هـ أهدى إليه الأمراء والمباشرون هدايا قيمة منها مال وخيول وقماش . وكذلك أهدى إليهم .
« ج ٢ ص ١٩٣ »

١٤ - في سنة ٩٠١ هـ في شهر المحرم منها عاد الشيخ عبد المؤمن العجمي شيخ قبة

السلطان بالمرج والزيات . وكان قد بعثه السلطان قايتباى إلى ملك بنى عثمان ليتعرف أخباره . وكان السلطان قد بعث معه هديه من جملتها قماش فاخر وسبع وزرافة وبيغاء حمراء اللون وغير ذلك .
« ج ٢ ص ٢٩٢ »

١٥ - فى شوال سنة ٩١٦ هـ قدمت إلى السلطان الغورى هدية حافلة من نائب حلب وهى : أطباق فيها ذهب عين ، وماليك جراكسة نحو من ثلاثين أو أربعين مملوكا . ومن الخيول خمسون فرسا منها فرس بسرج بلور . ا وكنبوش من الذهب قيل إن ثمنه ألف دينار . وجملة من الأقمشة المتنوعة النفيسة .
« ج ٤ »

١٦ - وفى شوال سنة ٩١٦ هـ أيضاً وصلت عدة سفن من لدن ملك العثمانيين فيها زردخاناه للسلطان الغورى . فوصلت إلى بولاق عند الرصيف وشرعوا يتقنون ما فيها إلى القلعة . فكان من جملة ما فيها مكاحل سبقيات عدتها ثلثائة . وثلاثون ألفا من النشاب أسهما . وأربعون قنطارا من البارود ، وألفا مقذاف خشبي وغير ذلك من نحاس وحديد وبكر وحبال وسلب ومراسى حديدية ، وسوى ذلك مما تحتاج إليه السفن . فشكره السلطان لذلك . وكان السلطان الغورى قد أرسل فى مقابل ذلك مالا مع قاصده « يونس العادلى » ليشتري بها أخشابا ونحاسا وحديدا من بلاد العثمانيين . فلما بلغ ذلك أسمع ملك بنى عثمان ردا المسال إلى السلطان وبعث إليه بما سبق ذكره هدية إليه .
« ج ٤ »

١٧ - فى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ ، جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنجة نصرة عظيمة وغنم منهم غنائم كثيرة وقتل منهم وأسر . وبعث للسلطان مكحلة من النحاس كبيرة ، ومعها أشياء أخرى على سبيل الهدية ، واثنين من أسرى الفرنجة وعليهم سلاحهم . فشكر له السلطان الغورى وسر بهذه النصرة .
« ج ٤ »

١٨ - فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاعد على دولات ومعه هدية حافلة للسلطان الغورى . ومن جملتها ماليك وخيل وجمال بخاني وخيمة كبيرة منقوشة بحريز ملون على شكل أشجار

مزهرة وفوقها أطياف ، وخركاة من الخشب مدهونة بماء الذهب ، ولازورد وألوان غريبة وهي منقوشة برسوم من أشكال الوحوش المتقاتلة بينها الغالب والمغلوب . ولها غطاء من الجوخ الأزرق المقصوص . ولها أطناب وعرا من الحرير الأحمر . ولها باب خشبي موشق وعليه ضبة . ولتلك الخركاة بساط مستدير على سعتها ، وهو منقوش نقشا غريبا قليل النظير . وكانت هذه الخركاة من تحف حسن بك الطويل ملك العراقين - كان - فظلت حتى وقع ملكها للشاه إسماعيل الصفوي فبعث بها إلى على دولات . فأرسلها هذا إلى السلطان الغوري . فكانت هذه الخركاة والخيمة من عداد التحف الغربية . فأمر السلطان بنصبها في الحوش ليشاهدها الناس ويتفرجوا بها . وأقام موكبا حافلا للقاصد في ذلك اليوم بلا شاش ولا قماش . « جز ، ، »

١٩ - في شهر المحرم عام ٩١٨ هـ طلع قاصد ملك الفرنج؟ بهدية حافلة للسلطان مابين أواني بلور مزينة بالذهب وحمالين يحملون أقمشة من الجوخ والحرير والنياب المذهبة ، وقيل بها أيضاً ذهب عين . « ج ، ، »

٢٠ - في الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ملك البنادقة إلى مصر ومعه هدية للسلطان الغوري منها نحو مائة حمل بين أواني بلور وجوخ وحرير من أصناف متعددة ، وأطلس وغير ذلك . « ج ، ، »

٢١ - في ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ . حضر إلى مصر قاصد الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي المتغلب على فارس والعراق . فقابل السلطان الغوري مقبداً إليه هدايا مولاة وفي عدادها سبعة فهود - وكانت تسعة مات منها أثناء المسير - وعليها جلال حريرية . ومنها خيول وأباريق من الفضة وطاسات من الذهب ، وزرديات وخوذ وأثواب من الخمل الملون وأدوات لللبس الخيل وشقق حريرية مقصبة وسجاجيد رومية ومدى وغير ذلك . « ج ، ، »

٢٢ - في أواخر ذي القعدة عام ٩١٨ هـ . كان الغوري قد رحل إلى زيارة الفيوم وعند عودته مر بهدشور . تخف للملاقاتة فيها الخليفة محمد المتوكل على الله العباسي ، وأهدى إلى السلطان مهارا وأغناما وأبقارا وكثيرا من الدجاج والأوز وقدور من عسل

النحل وجرار اللبن وغير ذلك كثير . وكانت دهشور بلد الخليفة.

« ج ٤ »

٢٣ - في ١٥ ربيع الأول عام ٩٢١ هـ إلى الأبواب الشريفة الأمير قاني باي قرا - أميراً خور كبير - باش العسكر الذي وجه إلى حلب . ثم بعد ثلاثة أيام أهدى إلى السلطان الغوري هدية حافلة ، قيل : كان من جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب الخالص ، وخمسة وعشرون مملوكاً من الجراكسة ، وكثير جداً من الخيول والأغنام والأثاث البعلبكية والصوفية وغير ذلك . « ج ٤ » في التواريخ المذكورة .

٢٤ - في المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الغوري قاصد الشاه ابن سوار وقدم هدية تافهة وهي خمسة عشر جملاً بخاتبا وثمانى أكاديش وستة بغال . فتردد السلطان في قبولها ورفضها وعرض الأمر على أمرائه ولم يعلم ما تم رأيهم عليه .

« ج ٤ » في التواريخ المذكورة .

حسنة هذا العصر وسيئاته

لا يخلو عصر من العصور من حسنة يقدمها إلى الناس بيد ، ومن سيئة يقدمها باليد الأخرى . فهو بذلك يجمع في آن واحد بين الحسن المقبول وبين القبيح المرذول . وكذلك هذا العصر .

وأهم حسناته :

- ١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية . ٢ - دفع الفرنجة عنها أيضا
- ٣ - المحافظة على استقلال البلاد . ٤ - رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والإحسان ، مع البذل الكثير . ٥ - تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب .

وأهم سيئاته :

- ١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية ٢ - فداحة الضرائب المفروضة عليه . ٣ - الجور والعسف الذى نزل به . ٤ - كثرة الفتن الداخلية ٥ - تعدد الزلازل والطواعين والغلاء .

ونتكلم الآن بإيجاز عن كل واحد مما ذكرنا فنقول :

حسنة

- ١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية^(١) :

أقد كان زحف التتار من أواسط آسيا إلى غربها شروباة أصيب به غرب آسيا في العصور الوسطى . فلقد طغت سيول التتار عليه ، وسقطت دوله في أيديهم ،

(١) نذكر في الجزء الثانى كلمة أخرى عن التتار . وقد اعتمدنا في هذا الباب على العبر لابن خليفون ، والبداية لابن إياس ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى والسلوك للمقرئى وعجائب المقدور لابن عربشاه .

وأذاقوا بلادهم مر الحسف والهوان ، وأراقوا الدماء فيه بلا روية ولا ورع ، غير مباين بصغير ولا كبير ولا عالم ولا جاهل ولا امرأة ولا طفل . ومازلوا جادين في زحفهم وطغيانهم كسيل العرم ، حتى بلغوا مدينة بغداد فأسقطوها وقتلوا خليفتها وولى عهده وشقتوا شمل أهلها ، وكادوا لهم كيذا شديدا ، وملكوا الكثير من بلاد العراق ، وساروا على ضفاف الفرات ، وتاخموا حدود المملكة المصرية في الشام وفي حلب ، وامتلكوا بعض تلك النواحي .

في تلك الأثناء كانت دولة سلاطين المماليك قد تكونت في مصر ، وامتلك أمراؤهم ناصية الأمور فيها . فشنعروا بالخطر التتري يقترب منهم رويدا رويدا ، فجمعوا جموعهم وحملوا أسلحتهم ، وهناك في بلاد الشام وحلب وقعت الوقائع بين الفريقين ، وكان النصر فيها غالبا لحليف سلاطين مصر ، فردوا بذلك التتار عن ملكهم مدحورين .

ظلت دولة التتار متاخمة للدولة المصرية وأملأها طيلة قرنين تقريبا . وتقلب بها الأحوال حتى انقسمت دولا ، ثم زالت جميعها عام ٨٩٠١ هـ ، وكان آخر ملوكهم محمد بن أبي سعيد ، صاحب سمرقند ، وقد قتل في العام المذكور^(١) . وكان لابد من النزاع بين الدولتين . وكان التتار في أغلب أمرهم الطاغين الباغين على أملاك مصر ، والمعتدين على أطرافها ببلاد الشام وحلب . فصبر لهم ملوك مصر إلى آخر لحظة من لحظاتهم ، وظلت الحرب دائرة الرحي بينهما ، والعداء مستمرا ، والوقائع سجلا ، والنصر متبادلا ، وبين الفينة والفينة فترة صبر وانتظار ، وريث وراحة . وكان التتار يمتنون النفس بدخول مصر أسوة بسواها ، فردتهم شجاعة المماليك وتماسكهم إزاء هذا العدو الخارجي الممقوت . فدالوا ودالت معهم أمانتهم . وسلبت مصر وقاهرتها من كل أذى كان مرتقبا ، ومن كل سوء كان منظورا ، كذلك الأذى والسوء اللذين أصابا بلاد العراق وبغدادها .

ونستعرض هنا بإيجاز تاريخ هذا النزاع فنقول :

حروب التتار في الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطين مصر لهم

نذكر هنا أهم هذه الحروب ووقائعها الفاصلة فيها :

١ - لما فرغ التتار من احتلال بغداد والتشيل بأهلها ، لووا أعناقهم شطر بلاد المملكة المصرية والشامية وبدءوا ببلاد الشام . فبعث ملكهم « هولاكو » ثلاث رسائل إلى أمير دمشق المسمى الملك الناصر ، إحداها بعد الأخرى يهدده في كل منها ويتوعده . ويرأوده على التسليم . وفي إحدى هذه الرسائل يقول له :

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء (١)

وأخذ هولاكو في الزحف على مدن الشام وحلب فأسقطها مدينة إثر مدينة ودخل في طاعته كثير من حكامها وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ المظفر قطز بخطر الغزو يهدد سلطنته من أطرافها ، وخاصة عندما وافته الأخبار بأن طلائع التتار بلغت ظواهر دمشق ، وأخذت في النهب والسلب والقتل والأسر . وخاصة أيضاً عندما بعث هولاكو إليه أحد أمرائه « كتيبغا » برسالة تهديدية أخرى يذكر فيها سطوته وقوة جنده . وفيها يقول :

« يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم مني ، ولا تقاتلوني أبدا فتندموا » (٢) .

فاستشار السلطان المظفر قطز أمراء دولته في الأمر فأجمعوا على محاربة التتار . فجمعوا عدداً ضخماً من الجنود بينهم كثير من عربان الشرقية والغربية . وقد عاونهم أهل مصر بالمال والرجال ، فهما منهم أن هذا القتال جهاد في سبيل الله . ولعل مما ساعد على ذلك أن التتار كانوا وثنيين ومنهم من يعبد الشمس .

وفي أواخر شهر شعبان سنة ٦٥٨ هـ نزل السلطان المظفر من قلعة الجبل

(١) راجع تاريخ الخلفاء سيوطي في ترجمة الخليفة المستعصم بالله وسلوك القرظي ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) ابن إياس ج ١ ص ٩٦ . والسلوك ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

في موكب عظيم حتى بلغ الريدانية ، وهناك أمر بإعدام رسول هولاكو « كتبغا ، وأربعة وفدوا معه من التتار . ثم أخذ في المسير إلى الصالحية ثم فلسطين حتى بلغ بجنده « عين جالوت ، وكان هولاكو قد رحل عن بلاد الشام تاركا فيها جنده ونائبه . وهناك تلاقى العسكران في موقعة هائلة استمر فيها القتل في كل فريق ثم انجلى بغيارها عن هزيمة شنيعة للتتار قتل فيها قائدهم « كتبغا ، وانتصر جنود مصر انتصارا مبينا . وكانت هذه الواقعة في يوم الجمعة ٢٥ رمضان عام ٦٥٨ هـ .

ثم تتبع جند مصر أثر التتار حتى تلاقوا بهم مرة أخرى عند « بيسان ، فكانت بها موقعة أحر من الأولى قتل فيها نصف التتار وغنم جند مصر غنائم كثيرة .

وقد تجلت شجاعة المماليك البحرية في هاتين الموقعتين وخاصة الأمير « بيبرس » الذى ملك مصر فيما بعد ، وتلقب بالظاهر .

٢ - لما استولى الظاهر بيبرس على عرش مصر ، وأقام الخلافة العباسية الثانية وأجلس فى كرسيها الإمام أحمد الملقب بالمستنصر بالله عام ٦٥٩ هـ ، رأى أن يحجزه بطائفة من العساكر السلطانية ويمده بالمال والعتاد نحو بغداد ، كي يستردها من التتار ويعيد ملك بنى العباس . فسار المستنصر فى هذا العام بجنده حتى بلغ إلى الفرات فخرج إليه أمير التتار إذ ذاك وهو « قرايغا » والتقى به عند « الأنبار » ، فدارت الدائرة على التتار وولوا الأدبار . ولكنهم عادوا فى الليل فكروا على جند الخليفة وأحاطوا بهم وشقتوا شملهم وهزموهم هزيمة نكراء . واختفى الخليفة من ذلك الحين ولم يعثر عليه . - وقد كانت هذه الحادثة ماثرا أسف شديد لدى الظاهر بيبرس

وفى عام ٦٧٠ هـ فى عهد بيبرس أيضا جاءت الأخبار بعودة التتار إلى الإغارة على البلاد وأنهم بلغوا الفرات وملكوا « ألبيرة » ، خفف للقائهم ومعه أمراؤه وجنوده يتقدمهم الأمير قلاوون الألفى - المنصور قلاوون فيما بعد - والأمير بيسرى ، فتلاقوا على ضفاف الفرات فى موقعة عظيمة دارت رحاها على التتار فقتل منهم وأسروا عدد كبير .

وفي عام ٦٧٥ هـ عاود التتار الزحف ، فخرج إليهم بيبرس ، واتجه إلى حلب وإليهم في معركة حامية ، فأتحن فيهم ، حتى فر ملكهم « أبغا » ، فاتبعه بيبرس إلى « الأبلستين » وتلاقوا مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل نحو مائة ألف نفس ، وهرب أبغا إلى جهة « زبيد » وبيبرس بطارده . ثم عاد بيبرس إلى « قيسارية » وحاصرها فاستسلم له أهلها .

٣ - وفي عام ٦٧٩ هـ في عهد المنصور قلاوون أغار التتار بزعامه الأمير « منكوتمر » ، أخى ملكهم « أبغا » ، على مدينة حلب فلما كوا ضياعها وأوشكوا على امتلاكها هي . تخف إليهم المنصور في عديد ضخم من جنده على ظهور الخيل . فسمع التتار بقرب قدومهم حتى جلوا عن حلب وفروا ، بعد أن ألحقوا بها ضروبا من الفساد . فلما سمع المنصور خبر نكوصهم وهو في غزة عاد إلى القاهرة . وما لبثوا هم أن عادوا إلى حلب يعيشون فيها فسادا . فخرج المنصور ثانيا إلى إياهم وأغذ السير في أثرهم حتى تلاقوا على « المرج الأصفر » في أوائل عام ٦٨٠ هـ . فكانت بين الفريقين واقعة هائلة ، انهزم فيها التتار شر هزيمة ووقع السبي والغنم في صفوفهم وعتادهم .

٤ - وفي عام ٦٩٩ هـ في عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، أخذ التتار في الزحف على مدينة حلب مرة ثانية ، بقيادة ملكهم غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو ، بجند يبلغ عددهم نحو مائتي ألف وقد زين لغازان هذا الغزو الأمير قفجق الذي كان نائبا على الشام في عهد المنصور لاجين ، وهم المنصور بالقبض عليه ففر إلى غازان .

خرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كشاف في ١٥ صفر من العام المذكور ، فبلغ دمشق في ٨ ربيع الأول ، ثم تلاقى الفريقان في « سلمية » قرب بعلبك ، فدارت الدائرة على الناصر ففر إلى بعلبك ونهب عتاده وذخيرة جنده .

هذا النصر الذي أصابه « غازان » ، خول له غزو بلاد الشام جميعها ودخول

مدينة دمشق . ولهذا تحول إليها نخاف أهل دمشق مغبة الأمر ، وأوفدوا وفدا من خيار علمائهم إليه ليطلبوا منه الأمان . وكان فيه بدر الدين بن جماعة وزين الدين الفارقي وتقي الدين بن تيمية الحراني ونجم الدين بن الصرصرى وعز الدين بن تركى وعز الدين بن القلانسى وجلال الدين القزوينى وغيرهم . . وكان غازان قد بعث إلى أهل دمشق الأمان .

ثم إن « غازان » حاصر قلعة دمشق ولم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها . فرحل عنها وولى نيابة دمشق للأمير قفجق . ثم إن الملك الناصر عاد إلى القاهرة وأعد جيشه من جديد وزحف به على دمشق فأظهر له نائبا قفجق الخضوع ومن ثم عاد إلى عاصمة ملكه .

ثم ما لبث التتار حتى أعادوا الكرة على ضفاف الفرات عام ٧٠٠ هـ ، فخرج الناصر للقائهم مرة ثالثة . فلما بلغ غزة جاء الخبر أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هاربين . فعاد الناصر إلى القاهرة .

وفى عام ٧٠٢ هـ ، تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء غازان وهو « قطلوشاه » قد دخلها فجأة بجملة من جنده واحتلوها . فبعث لهم الناصر عدة من الجنود لإجلالهم . فسار الجنود فبلغوا غزة وهناك علموا أن غازان قد تحرك . وأنه وصل إلى الرحبة ، وأن نائبا قد خضع له ، فهب الناصر حينذاك لقتال التتار وجمع جموعا كثيفة بينها كثير من العربان . وسار بهم إلى الشام . وكان « غازان » قد قارب حماة . فبلغ الشام فى مستهل رمضان وهناك فى « مرج راهط »^(١) دارت واقعة رائعة انفرط على إثرها عقد التتار ودارت الدائرة على « غازان » وجنوده ، وأبيد نحو ثلثهم ، وتشتت شمل البقية وغنم منهم الشيء الكثير . وكانت هذه الواقعة إحدى الوقائع الحاسمة بين التتار ومصر .

ومع ذلك فقد عادوا لعبثهم مرة أخرى عام ٨٠٧ هـ ، ولكن وقع الخلف فى صفوفهم فنجت بذلك حلب من شرورهم .

(١) يسميه ابن خلدون « مرج الصفر » ويقال له أيضا « شقج » .

وفي عهد السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون أرسل إليه نائب حلب في عام ٧١٢ هـ ملوكا يخبره أن التتار قد عادوا إلى حركتهم ضد البلاد ، فعبأ السلطان جنوده على عجل في سبعة أيام ، ورحل نوا إلى ديار حلب . فلما بلغ غوة وردت إليه الأخبار بتراجع التتار خوفا منه ، ورحلوا عن مدينة الرحبة إلى بلادهم بعد أن كسرهم نائبا كسرة قوية . فعدل الناصر عن المسير إلى حلب وسافر إلى بلاد الحجاز حاجا .

ومن ذلك الحين وقف نسيبا تعدى التتار على أملاك الدولة زمنا طويلا حتى كانت سلطنة الظاهر برقوق .

هـ - وفي عهد السلطان برقوق ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قاسى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو . وهو « تيمورلنك » . وقد وردت أنبأؤه إلى أسماع المصريين عام ٧٨٨ هـ ، إذ أرسل إليهم صاحب ماردين رسولا ينبئ السلطان أن « خارجيا ، من التتار الجفطاوية يقال له « تمرلنك » ، استولى على البلاد وبلغ مدينة تبريز ، وخربها وقتل كثيرا من أهلها ، وهو على وشك الزحف إلى بغداد ، وأن صاحب بغداد القان أحمد بن أويس أخذ حذره لهذا الزحف .

وبعد قليل جاء رسول من القان أحمد ينبئ السلطان أن « تيمورلنك » استولى على مدينة « قرباغ » ونهبها وسبى أهلها ، ويطلب إليه الحذر ..

فأرسل السلطان برقوق الأمير « طغاي » ليتلمس أخبار هذا الطاغية فعاد إليه في جمادى الآخرة عام ٧٨٩ هـ ، وأخبر أن « تيمورلنك » قد وصلت طلائعه إلى الرها وانهمزت أمامها جنود « قرا محمد » أمير التتركان ، وأن بوادر عسكره أيضا قد وصلت إلى ملطية . حينئذ أخذ السلطان برقوق يعد العدة للقتال . غير أنه قعد ثانيا عن عزمه حينما علم أن « تيمورلنك » انسحب إلى بلاده . - وكان برقوق قد أرسل طليعة إلى بلاد حلب ، فلما بلغت سيواس تقابلت بجند « تيمورلنك » وكسرتة . ثم إن « تيمورلنك » ماغم أن كر على بلاد الأكراد ، ثم حاصر البصرة ، وتواترت الأخبار أنه يعد العدة لغزوها وفتحها . فساد الخوف بلاد مصر وهب

سلطانها برقوق يجمع الجند ويستعد للقائه . ولاسيما عند ما بلغته أخبار تيمورلنك في أوائل عام ٧٩٦ هـ بأن طلائعه وصلت إلى الرها . فخرج بحملته إلى بلاد الشام في ربيع الآخر فوصل دمشق في يوم الاثنين ٢٢ منه . ثم رحل إلى حلب . فعلم أن جنود « تيمورلنك » قد بلغت إلى البيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات . فأخذ جند مصر في عبوره ليلا - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى . وأوقعوا بهم وغنموا منهم الشيء الكثير . ولما كنهم لم يلتقوا جميعا في معركة حاسمة . ثم « رحل تيمورلنك » بلا منازلة ، فعاد برقوق إلى مصر .

وفي عام ٧٩٩ هـ جاء رسول من « تيمورلنك » يطلب إلى السلطان برقوق إطلاق سراح « أطلش » المأسور لديه . وهو قريب تيمور . فرفض برقوق ، حتى يطلق « تيمور » ، ما لديه من الأسرى والنواب التابعين لمصر .

٦ - وفي عهد الملك الناصر فرج بن برقوق اعتدى جند « تيمورلنك » على بغداد ، فاجتمع لصدده صاحبها القان أحمد بن أويس ومعه قرا يوسف أمير التركان ، وكسروا الجند كسرة بالغة . وذلك في عام ٨٠٢ هـ . فلما انكسر وا قصدوا مدينة « ملطية » وكانوا نحو سبعة آلاف نفس . ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يخلى لهم مكانا لنزولهم . فذهب نائب حلب ومعه نائب حماة ومعهما جنودها ودارت دائرة الحرب بين العسكرين فانهمز نائب حلب وحماة وقتل من عسكرهما عدد كبير ، منهم « جاني بك اليحياوى » ، أتاك العسكر بحلب ، وأسر نائب حماة ودقاق المحمدى ، ، فاشتري نفسه منهم بالمال وعاد نائب حلب إليها مهزوما .

جاءت أخبار هذه الوقائع كلها إلى مصر في ذى القعدة من العام المذكور . فلما سمع بها السلطان فرج رسم لنائب الشام ونائب صدد ونائب طرابلس بأن يجمعوا جنودهم ويقيموا شطر حلب وقيموا بها .

وفي أوائل عام ٨٠٣ هـ أرسل نائب حلب رسولا إلى السلطان يخبره بوصول جند « تيمورلنك » ، إلى سيواس ، وأن ملك بنى عثمان والقان أحمد بن يس أو وقرا

يوسف توجهوا إلى مدينة « برصا » وتركوا بلادهم خوفاً . وقيل إنه نهب مدينة سيواس ، وقتل أهلها ، يدفن بعضهم أحياء ، ويحرق البعض الآخر .

ثم جاءت الأنباء بامتلاكه عنتاب وغيرها ، ووصوله إلى الباب وبزاغا قرب حلب . وبعث يهدد نائب حلب ويغلظ له في الحديث ، فخنق هذا وضرب أعناق رسل تيمورلنك ، وأخذ في تحصين المدينة والاستعداد للقاء العدو بالمدافع والمسكاحل والجنود . فما كان من « تيمور » ، إلا أن دلف إليها من ناحية قرية « جبلان » ، وأحاط بها . فخرج إليه عسكرها فبطش بهم « تيمور » ، بطشا بليغا ، ففروا إلى مدينتهم في أسوأ حال ، وجنود « تيمور » ، في أثرهم ، فقتلوا وسبوا من سبوا ونهبوا الشيء الكثير . وعاثوا بها وبأهلها فساداً ، وصارت المدينة أمامهم كالسكلاً المباح . وذلك في شهر ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ . وقيل كانت القتلى أكواما مكدسة في شوارع المدينة . حينئذ طلب نائبها ومن معه الأمان ، فأمنهم تيمور وامتلك زمام المدينة وقلعتها (١) .

سمعت مصر وسمع سلطانها وأمرؤها بأخبار تيمور ، وما أجرى على مدينة حلب من الشقاء : فسرى الألم في النفوس وملك الخوف الأفتدة . وبعث السلطان الأمير « سودون بن زاده » ، والأمير « إينال حطب » ، لكشف الأخبار .

وقد علم بعد قليل أن « تيمور » ، أقام بحلب شهراً ثم انصرف إلى بلاد الشام ، وأنه بلغ جبل الثلج ، فأخذ السلطان فرج في جمع جنوده وتنظيم صفوفهم استعداداً للقتال . ثم يمم بجنده الكشيف شطر البلاد الشامية في شهر ربيع الثاني عام ٨٠٣ هـ ، فبلغ غزة . ثم سار إلى دمشق فبلغها في يوم الخميس ٦ جمادى الأولى . ثم التقى من الجمعين طائفتان فانهزمت طائفة تيمور وولوا الأدبار .

قبل إنه لما وقعت الهزيمة في صفوف التتار ، فر كثير من منهم إلى صفوف سلطان مصر ، وانضوا تحت لوائه مظهرين الطاعة له . وعقب ذلك ظهر الخلف

(١) أسهب السخاوي في ذكر حوادث تيمور هذه في ترجمته بالفنوء ج ٣ رقم ١٩٢ .

بين أمراء السلطان وجنوده وانقسموا شيعاً وراجت الفتن رزايله من زایل ، فاضطره بعض من معه إلى العودة إلى مصر ، فعاد فبلغها في جمادى الآخرة . - أقول لعل الواقعة تسببت عن هؤلاء الدخلاء من جند التتار بين صفوف جند السلطان ، ولعلمهم كانوا طابورا خامساء ، على حد تعبير الساسة في عصرنا الحديث .

عاد السلطان فرج هذه العودة على الرغم من انتصار جنده ، وعلى الرغم مما قيل من أن « تيمورلنك » بعث إليه في طلب الصلح . . . عاد السلطان فأخذ يعد عدة جديدة للخروج إلى بلاد الشام ولقاء التتار في موقعة حاسمة . وخاصة أن التتار لما علموا بذكوص السلطان وبالفتن التي وقعت في جنود مصر ، زحفوا إلى دمشق ووقعت معارك عدة بينهم وبين أهلها . ثم طلب منهم تيمورلنك أن يتفاهموا معه فبعثوا إليه من لديهم سفيراً للمفاوضة وهو القاضي « تقى الدين بن مفلح الحنبلى » ومعه خمسة من أعيان دمشق . ثم عاد ابن مفلح إليهم وطلب إليهم الخضوع لتيمور وانحاز هو إلى جانبه ، وأراد أن يفتح لجنوده باب النصر ليدخلوا منه إلى دمشق . فنهض نائب القلعة وهدده بإحراق البلد كله إن فعل . وقد انقسم سكان دمشق فريقين فريقاً يريد التسليم ، وفريقاً يأباه . ثم أرسل « تيمورلنك » أماناً لأهل دمشق مع فئة من أعيانها ، ففرى عليهم في جامع بنى أمية ، ففرحوا به وفتحوا له أبواب مدينتهم . وبذلك سقطت دمشق في يد تيمور . فلما امتلكت ناصية الأمور فيها فرض عليها الغرامات الباهظة الثقيلة ، وكان زعيم جبايتها له القاضي ابن مفلح . فلقى الناس منه الأذى والسوء ، إذ جمع ما لهم ودراهم وألقى بها غنيمة باردة بين يدي تيمور ، ومع ذلك لم يقنع بها وطلب منه سواها . فلما أخبره أن البلد أقوى وأقصر ، ولم يعد به مال ولا دابة ، حنق به وقبض عليه وعلى أعوانه وقيدهم بالحديد . . . ثم إن تيمورلنك قسم المدينة بين أعوانه لينزلوا بها ويحجبوا منها الأموال كل في قسمه . ثم أذاقوا أهلها من العذاب من ضرب وقتل وهتك عرض وتعذيب مختلف الأنواع ، وامتلات ساحاتها بجنود التتار ينشرون فيها كل فساد وموبقة . . . وظل الحال كذلك حتى شهر شعبان من عام ٨٠٣ هـ وفي مستهله أمر « تيمورلنك » بإحراق دمشق فاشتعلت

فيها النار وتداعت مبانيها وصوحت أرضها وأصبحت أطلالا باليسة . . . وهذا جزاء الاستسلام والاختلاف

ثم رحل « تيمور » عنها بعد فساد دام ثمانين يوما أقامها فيها . وقيل إنه أمر بالفتك بأطفال المدينة الذين بقوا بعد هذا الدمار كله فقتلوا جميعاً .

ومن عجيب الأمر أن « تيمور لنك » بعث إلى السلطان فرج يطلب إليه الإفراج عن « إطلمش » - قريبه الذي كان أسيرا لدى برقوق ولم يرض بإطلاقه - ويعتذر إليه عمادير منه . . . فأطلقه في مقابل أن يطلق « تيمور » سراح من عنده من الأسرى ، فأطلقهم . ورحل بحملته عن بلاد الشام .

حينئذ عين السلطان الأمير نوزور الحافظي نائبا على الشام ليصلح فيها ما أفسدته يد « تيمور » .

ومن لطف الله أن مات « تيمور لنك » . وجاءت أخبار موته إلى مصر في عهد السلطنة الأولى لفرج بن برقوق . وقد أثبت ابن إياس خبر موته في حوادث هام ٨٠٤ هـ . وأثبتها ابن عربشاه في كتابه « عجائب المقدور » عام ٨٠٧ هـ في ليلة الأربعاء ١٧ شعبان . وذلك بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وطبيعى أن الفتن والحروب الكثيرة التي وقعت في صفوف التتار وبين دولهم المتعددة فيها وراء الشام شرقا إلى أواسط آسيا ، بين الحين والحين كانت تعنى سلاطين مصر وأهلها وأهل الشام من مدافعهم ويضاف إلى هذا قيام دولة بنى عثمان واستحارار النزاع بينها وبين التتار وسواهم مما أقعد همة التتار في الأجزاء الأخيرة من العصر الذى نحن بصددده عن انتفاص أطراف المملكة المصرية . وإن كان بنو عثمان أنفسهم أصبحوا جارا وخصما خطرا عليها جديدا ، شغلها بكفاحه زمنا حتى أضاع استقلالها في سنة ٩٢٣ هـ .

٢ - دفع الفرنجة عن ممتلكات مصر ودوائر نفوذها :

عما شغل بال سلاطين المماليك فوق انشغالهم بمدافعة التتار ، إغارة الفرنجة على ممتلكاتهم وطمعهم في الاستيلاء عليها ، وما كانت الحروب التي وقعت بين الفريقين إلا امتدادا لتلك الحروب الصليبية التي اشتهرت في العصور الوسطى مبتدئة من عهد الفاطميين فالأيوبيين . وكان الفرنجة قد أسسوا وملكوا مدنا عدة في سواحل البحر المتوسط في داخل بلاد الشام وحلب ، وأصبحت هذه المدن عبارة عن مستعمرات لقولاء الأوربيين . فعمل سلاطين مصر على استردادها منهم ومقاومتهم .

١ - ومن أشهر سلاطين مصر الذين قاوموهم : الظاهر بيبرس ، فقد حاربهم واسترد منهم أو غزا كثيرا من المدن التي انتزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم في الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية ، ومن هذه البلاد : قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وبغراس والقصير وحسن الأكراد والقرين وحسن عكا وصافيتا والمرقبة وحلب وبانياس وطرسوس .

وكان فتح صفد عام ٥٦٦٤هـ ، وفتح انطاكية ٥٦٦٦هـ ، وفتح قيسارية عام ٦٧٥هـ .

٢ - ومنهم المنصور قلاوون ، وقد فتح حصن المرقب وجبله ، وفتح طرابلس عام ٦٨٨هـ ، بعد أن حاصرها ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوما (١) ومنهم الأشرف خليل بن قلاوون . فقد جرد على مدينة عكا جيشا كثيفا وسار إليها في عام ٦٩٠هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقا وحاصرها عدة أيام ثم اقتحمها في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة من العام المذكور ، وهدم أسوارها . ومنها سار إلى جبتي وبيروت فاقتمهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل في يد مصر عام ٦٩١هـ نهاية للحروب الصليبية الدامية .

٣ - على أن ثمت وقائع أخرى تلت هذه منها : هجوم الفرنجة جزيرة قبرص على ميناء الإسكندرية عام ٥٧٦٧هـ بقيادة حاجبهم في أسطول عظيم يقال إنه بلغ

سبعين مركبا مليئة بالعدد والعدة والخيول والفرسان ، فباغت سكانها ونضجهم بالنيل وأحرق باب المدينة واقتحمها ، ففر أهلها منها وأصابهم في فرارهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا ، ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا . وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقه للحج ، وكان سلطان مصر إذ ذاك الأشرف شعبان بن الأجد حسين ، وكان نائب سلطنته يلغا العمرى . فكتب كتيبة وساقها إلى الإسكندرية حينما علم الخبر ، فوجد الفرنجة قد رحلوا عنها فامتلا غيظا وحنقا ، وأمر بإصلاح ما أفسدوا . ثم هم بصنع عمارة بحرية قوية ، ولكن الأيام لم تعاونه ^(١) .

وذكر ابن إياس في هذه الواقعة أن نائب الإسكندرية جمع عدد من عربان البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين في معركة حامية فانهكس النائب ومن معه وفروا من وجههم . فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة وعاثوا فيها فسادا ، ونهبوا وسلبوا وقتلوا كثيرا من المسلمين ، ثم فروا قبل مجيء جند السلطان من القاهرة .

٤ - وما يذكر أن السلطان الأشرف برسباي بعث تجريدة قوية إلى قبرص عام ٨٢٩ هـ ففتحها وأسر ملكها وجيء به إلى القاهرة مصفدا أسيرا ، معه عدد من جنده وكان ملكهم راكبا وعليه خوذته وسلاحه . فأمر الأشرف بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته الواقعة بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى .

٥ - وفي عام ٨٦٣ هـ استغاث ملك قبرص على أعدائه بملك مصر الأشرف إيتال فبعث إليه تجريدة بقيادة الأمير يونس الدوادر ، فبلغت قبرص ولكن قائدها عاد بلا نتيجة وترك بقية جنده بها .

٦ - وفي عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها بين الحين والحين ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثر ما تلصصوا على سواحل دمياط والإسكندرية . فاهتم قايتباى للأمر وكان يعين لهم في كل مرة تجريدة بحرية لتتبعهم وإرجاع ما أخذوا وقطع دابرهم . وفي عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم في مدينة الإسكندرية حيث أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عددا من تجارها ومن بينهم أخضاء للسلطان منهم ابن عليبة يعقوب وعلى الكيزانى وعلى التراوى . وحملهم معهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالقبض على جميع تجار الفرنجة بشغل الإسكندرية ، وبعث أحد خواصه وهو دقيت الساقى ، لتنفيذ الأمر ، فاضطلع به ، وطلب إلى المقبوض عليهم أن يرسلوا ملوكهم بما فعل السلطان ليكون ذلك عبرة وعظة ولكي يطلقوا سراح تجار الإسكندرية حتى يطلق سراحهم في مقابل ذلك . وقد تم الأمر وفق مشيئة السلطان وعاد الأسرى .

٧ - وفي عهد الأشرف الغورى نشط البرتغاليون إلى إيذاء مصر بدافع حقدهم عليها لما كانت تجنيه من الضرائب على البضائع المارة بها بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هى الطريق الأهم بين الجهتين . فأخذوا فى التلصص على الشواطئ المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأبيض والأحمر وشرق أفريقيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية فيلحقون بها السوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء ، الذى هدد مصر فى مورد من أهم موارد ثرائها . وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب بمن تربطهم بمصر روابط اقتصادية ودينية ، زد على ذلك إيجاء هؤلاء الفرنجة الى ملك الفرس إذ ذاك بالإغارة على ممتلكات مصر واعدية بالمساعدة .

فاضطر الغورى إزاء ذلك إلى إنشاء عمارة بحرية بقيادة أحد أمرائه لردعدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة فى شرق إفريقيا وبلاد العرب والهند . فظلت عدة سنوات ولكنها لم تفلح فى رد عدوانهم .

٣ - المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها

على الرغم من أن طبقة المماليك طبقة طارئة على البلاد المصرية ، وعلى الرغم من أنها طبقة متجددة تجددت خارجيا باستمرار ، اكتسبت بالإقامة والاستقرار صفة المصرية ، واتخذ سلاطينها وأمرائها هذه البلاد لهم موطنًا لا يعرفون لهم موطنًا سواه . ولا بدع فقد جلبوا إليه أو نشئوا فيه صغارًا ، وشبوا تحت أسمائه وفوق أرضه ، وملأ هواؤه صدورهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره . وآل إليهم حسب تقلبات الأحوال ، حكمه . ونيطت بهم حمايته .

فلا غرابة إذن أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة ، وغزوا باسمه في كل مكان يحيط به ، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا في حوزته عددا ضخما من البلاد . وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة إذ ذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة . فانتشرت مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وامتد ملكها في بعض أيامهم بل وفي معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربا ، والنوبة جنوبا ، وبلاد الحجاز والشام وحلب وضيقات الفرات شرقا ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالا .

حافظوا على استقلالها ، وبطشوا بكل من بغى عليه ، وأعتدى على أى طرف في هذا الوطن . لذلك شغلوا جزءا كبيرا من زمينهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا بصفة خاصة على بلاد الشام وحلب كأنما اعتبروهما جزءا من مصر لا يتجزأ . وعنوا بهما عنايتهم بالبلاد المصرية ، ونسقوهما من الناحية الإدارية نسقا مشابها للنسق الإداري المصري تقريبا ، فكانت مدينتهما نيابات مصرية يعين السلطان لكل منها نائبا ، فمنها نيابة صفد وطرابلس وحلب وحماة ودمشق وغزة

وغيرها . وكان نائب دمشق يعتبر أكبر نواب السلطان بعد نائب السلطنة وكافلها المقيم بالقاهرة .

ومن أجلهما اعتركا مع التتار والفرنجة ، وردوا كلا منهما مرارا عنهما . ومع ذلك لم يقتصر نزاعهم الخارجى على التتار والفرنجة فحسب ، بل كان هناك أمراء التركان وملوك فارس وملوك بغداد وأمراء الأرمن وعربان الحجاز ، وغير هؤلاء وهؤلاء ، كثيرا ما طمعوا فى أملاك الدولة ، ووثبوا أو تحفزوا للوثوب عليها ، فهب لهم أمراؤها وردوهم على أعقابهم داحرين .

ومن أدهى ما ابتليت به السلطة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التتارية المتبعثرة ، وملكى بلادا فى أرمينية وشرق الفرات فوق رقعتها فى بلاد الأناضول . لقد أخذ النزاع بينها وبين مصر يحتدم شيئا فشيئا منذ عهد الأشرف قايتباى ، فزادهم سلاطين مصر عنها ودفعوا غائلتهم وأوقفوا أطماعهم . ولكن ما زال شرهم يكبر ويستشرى ، حتى كانت الطامة الكبرى التى أصابت مصر على يدهم إذا فتتحها سلطانهم سليم الأول . بعد جهاد غنيف من سلطانها الأشرفين الغورى وطومان باى .

هكذا حافظوا على مصر واستقلالها ، ولولا ما طرأ عليهم من فساد فى النية والتواء فى الطوية وتنازع أملتة الأهواء والمطامع ، لظل لها استقلالها مصونا ولتغير لها بهم وجه التاريخ . وما ذلك إلا لأن بهم نزعة استقلالية ملموسة واستقتالا فى سبيلها .

ولم يقف جهد الماليك عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم واستنجد بهم من ملوك المسلمين وأمرائهم . فعاون الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله لرد عرش العباسيين من التتار . وساعد السلطان برقوق القان أحمد ابن أويس صاحب بغداد ضد التتار أيضا ، وبعث الغورى عمارة بحرية لمعاونة ملوك الهند والعرب على الفرنجة العابثين بسواحلهم ، وذلك حينما جاءت رسالهم فى طلب النجدة . وأرسل الغورى أيضا رسله إلى ملوك الفرنجة يلقيهم إلى ضرورة الرفق

بمسلى الأندلس وضرورة الكف عن محاصرة مدنها في نظير أنه يعامل رعاياه من الفرنجة معاملة حسنة ، مهددا بالإساءة إلى هؤلاء الرعايا إذا لم يستجيب ملوك الفرنجة إلى نداءه . وذلك كله حينما ناداه صاحب الأندلس مستغيثا به من الحصار . هكذا أتاحت فرض عدة لهؤلاء السلاطين ، بوءوا مصر فيها مركز الزعامة الحربية والسياسية والأدبية بين أمم المسلمين في العصور الوسطى .

٤ - رصد الأوقاف وبذل الأموال وصنع البر :

من المفارح التي تسابق إليها سلاطين الممالك وأمراؤهم وأعيانهم إقامة الأوقاف ورصد الأموال الوفيرة على ضروب البر والإحسان . وسواء أكانوا مدفوعين إليه بعامل من الإيمان الصحيح بالله والعطف الحق على الفقراء والرغبة الخالصة في عمل الخير ، أم كانوا مدفوعين إليه بعامل حب الظهور والرغبة في المباهاة والسمعة والصيت فحسب ، أو بعامل الملق إلى الشعب وغض طرفه عن مساوئهم وأنواع ظلمهم أو بعامل الخوف على ذرائعهم من الفاقة بعدهم إذ تتول أملاكهم إلى السلطان أو بأى عامل آخر من العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية . فسواء أكان هذا أم ذاك فقد نشط الممالك إلى إنشاء الأربطة والسبل والمدارس والمساجد وأوقفوا عليها الدور والأراضي والأموال . وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة عيد أو موسم أو جمعة أو أى ظرف آخر مناسب ويفيضون بالخير الكثير على الفقير والمحتاج من مال وطعام وكسوة في البلاد المصرية أو الأماكن المقدسة أو غيرها . بل كان لبعض السلاطين عادات مرعية متبعة في مناسبات خاصة يمدون فيها يد المعونة إلى المعوزين والمنكوبين . فكان هذا العمل من جانبهم حسنة من الحسنات خففت كثير من الويلات .

ونحن نسوق هنا طرفا من هذه الأعمال الخيرية نقلا عن ابن إياس لا على سبيل الاستقصاء والاستيفاء ، ولكن على سبيل المثال والاستدلال . فمنها .

١ - المستشفى المنصوري ، البهارستان ، الذي أنشأه السلطان قلاوون عام

٥٦٨٢ هـ - قال ابن إياس : وجعل له في كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليه أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك . وشرط في وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد .. فهو من حسنات الزمان تحتاج إليه الملوك ويفتقر إليه الغنى والصعلوك .

وقال ماملخصه . إن سبب بنائه أن كان المنصور فلاوون قد أطلق مماليكه في العوام وأمرهم بقتلهم فظلوا يقتلون منهم نحو ثلاثة أيام وذلك لتوهمه مخالفتهم ، ثم ندم على ما جنى وتقرب إلى الله بإنشاء هذا المستشفى (ج ١ ص ١١٦) .

٢ - في عام ٥٧٠٢ هـ وقعت زلزلة بالبلاد المصرية تهدم من جرائها عدة أبنية وأصبحت عدة مساجد منها الجامع الحاكمي والمدرسة المنصورية وجامع الظاهر بالشوايين وجامع صالح بباب زويلة وجامع عمرو . فقام عدد من الأمراء بترميم هذه المساجد على نفقتهم الخاصة عام ٥٧٠٣ هـ (ج ١ ص ١٤٦) .

٣ - ومن محسناتهم خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان : قيل إنها كانت ذات دين وبر وإحسان . أنشأت مدرسة بالتبانة ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة وجلسا للصوفية في كل يوم ، وأسست مكتبا للأيتام وحوضا وسديلا . (ج ١ ص ٢٢٧)

٤ - وقيل إن السلطان برقوقا لما مرض في أخريات حياته تقرب إلى الله بأن تصدق على العلماء والفقراء بمائتين وخمسين ألف دينار . وقيل إنه كان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا في الجيزة ينتفع من إيرادها الحجاج المنقطعون بالحجاز ، وكان له في كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ وتفرق على الفقراء ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق في كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب في الزوايا والمزارات . (ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥)

٥ - في عام ٨٢١ هـ اشترك الطاعون والغلاء في الهجوم على البلاد المصرية ،

فاستسقى السلطان المؤيد شيخ ثم ذبح بيده قربانا لله عددا من الأغنام والأبقار وفرقها على الفقراء ، وفرق كذلك عليهم ثلاثين ألف رغيف . « ج ٢ ص ٦ »

٦ - وفي عام ٨٢٢ هـ كملت عمارة جامع المؤيد فأوقف عليه السلطان المؤيد شيخ أوقافا كثيرة ، ورتب فيه الدروس وأجرى على الحاضرين فيها الطعام . « ج ٢ ص ٧ »

٧ - ومن المحسنات خوند مغل بنت البارزى زوجة الملك جقمق « كانت دينة خيرة ولها بر ومعروف » ، عمرت جامع الشيخ مدين بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة . « ج ٢ ص ١٣٤ »

٨ - وفي سنة ٨٧٩ هـ رمم السلطان قايتباى مسجد عمرو ورتب ثلاثين صوفيا يقرءون فى تربته الخاصة وبني لهم عدة بيوت حولها للسكنى ، وأجرى عليهم الأرزاق من الخبز والزيت والصابون وغيره . « ج ٢ ص ١٥٣ »

٩ - ولما حج قايتباى عام ٨٨٤ هـ بذل كثيرا من المال للفقراء فى طريقه وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . ولما دخل المدينة المنورة فى أوائل عام ٨٨٥ هـ تصدق على فقرائها بخمسة آلاف دينار ، ثم إنه لما عاد إلى القاهرة من حجه هذا أخرج ستين ألفا من الدنانير الذهبية ليشتري بها قاضى قضاة الشافعية ما يناسب من أمان أو ضياع أو غيرها ويجعلها وقفاً لله على فقراء المدينة . فامتنع القاضى من ذلك ، فتولاه السلطان بنفسه وبني ربوعا فى جهة باب النصر والبندقانيين والخشابين والدجاجين وغيرها .

« ج ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٤ »

١٠ - وفى عام ٨٨٦ هـ شرع قايتباى فى تجديد المسجد النبوى الشريف وتجميله وإعادة بناء قبته وتزويده بالحديد المرخم بدل الخشب وتغيير المنبر والمآذن . وبعث لذلك كبار المهندسين وعددا من البنائين والنجارين والمرخين . وقد انتهى العمل منه فى أواخر عام ٨٨٧ هـ . وقيل أنفق السلطان فى ذلك نحواً من مائة ألف دينار . وفى عام ٧٨٨ هـ بعث قايتباى مع المحمل مقصورة من

الحديد للحجرة النبوية . « ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ »

١١ - ولما دخلت سنة ٩١٢ هـ تجمع عدد من الفقراء و « الحرافيش » ، في يوم عاشوراء بأمر السلطان الغورى . وكانوا جميعاً غفيراً ، ونزل السلطان بنفسه ووقف فوق سلم المدرج وصار يعطى كل إنسان من الفقراء رجلاً أو امرأة ، كبيراً أو صغيراً ، أشرفياً من الذهب . وقيل إنه فرق في ذلك اليوم نحواً من ثلاثة آلاف دينار . « ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ »

١٢ - وفي ذى الحجة عام ٩١٣ هـ ، فرق السلطان الأضحية على العسكر وجماعة من المباشرين والفقهاء . « حوادث عام ٩١٣ هـ »

١٣ - وفي ٨ شعبان عام ٩١٤ هـ نزل الغورى إلى الميدان وجمعت له فقراء المدينة « وحرافيشها » فاجتمع خلق كثير من رجال ونساء فقرق عليهم لكل واحد منهم نصفين من الفضة . قيل إنه فرق في ذلك اليوم نحواً من ٤٠٠ دينار . « ج حوادث عام ٩١٤ هـ »

١٤ - وفي جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ ، نزل السلطان الغورى من القلعة وذهب إلى جامعته الذى أنشأه بالشرابشين وإلى مدرسته ، فقد له هناك الأمير « خابر بك » مائدة حافلة . وأنعم السلطان في ذلك اليوم على صوفية المدرسة وعلى البوابين والفراشين وأيتام المكتتب بنحو من خمسمائة دينار . ولسلك شيخ من مشايخ الدروس بعشرة دنائير أشرفية . « ج حوادث جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ »

١٥ - وعما فعله الغورى في باب البر والإحسان أنه لما وقف له في جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ ، القاضى نخر الدين بن العفيف وشكاه ضيق حاله رسم له بألفى درهم في كل شهر ، وزبديتين من اللحم في كل يوم . وصنع مثل هذا الصنيع مع كثير من الناس في الشهر المذكور ، ورد كثيراً من الرواتب والمجريات التى قطعت عن أهلها ، إليهم .

« حوادث جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ »

١٦ - وفي يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ حضر طومان باي الدوادار وكان مسافرا إلى الصعيد لجمع الغلال ، وساق معه عددا كبيرا من مشايخ العربان في الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل . قيل إن عليهم نحواً من سبعين ألف أردب من القمح ، فلما عرضوا على السلطان سأل عن سبب قيدهم ، فأخبره فسكت قليلاً ثم قال : أطلقوهم جميعاً فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى (١) .

« ج ٤ حوادث جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ »

٥ - تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب

أفردنا لهذا الموضوع جزءاً خاصاً من كتابنا هذا ، وهو الجزء الثاني منه استوفينا الكلام فيه عن هذه الناحية لأنها من أهم ما نعتني به . وسقنا في خلال بحوثه كلاماً عن المدارس والمساجد التي أنشئت في هذا العصر لارتباطها به أكثر من ارتباطها بغيره ، ولهذا لم نتعرض لذكرها في الباب السابق وهو باب الكلام عن الأوقاف وأعمال البر والإحسان .

سـيـمـاتـه

١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية :

أعتقد أن أول فرض على سلطان البلاد ، وأولى الأمر فيها ، السهر على الرعية والمحافظة على كرامتها ، وإنهاضها من عثارها ، وتوجيهها إلى خيرها ، وتزويدها بوسائل القوة المعنوية وتقويم أخلاقها بطرق عملية ، وبث التعليم بين طبقاتها ، بسياسة ثابتة وخطط مرسومة دقيقة ، وإفهامها موضع حقوقها ومكان واجباتها التمسير في حياتها وفق هذه الحقوق والواجبات ، فلا تشبك فيها الاطلاع ، ولا تختلف

(١) في دار الكتب المصرية حجة شرعية مخطوطة تاريخها عام ٨٦٢ هـ صادرة من الأشرف إينال بوقفه على مدرسته بظاهر القاهرة خارج باب النصر . ومنه أملاك بطرابلس والشام ، وبالفرية بمصر وغير ذلك وهي رقم ٦٢ . تاريخ .

الآهواء ولا تتضاد المصالح ، مادام كل فرد يضطلع بنصيبه الطبيعي من المسؤولية .
بهذا كله تسعد الأمة . ويعيش الشعب عيشة هي أدنى إلى الكمال . والسعيد
هو الذى يحكم شعبا سعيدا ، الثقة بينهما موفورة ، والمحبة متبادلة ، والروابط
وثيقة تامة ، والصلة بينهما صلة ما بين الرأس والأعضاء فى الجسد الواحد .

فهل سرت هذه الروح الطيبة فى سلاطين مصر وأمرائها فى عصر المماليك ؟ وهل
كان هدفهم الأساسى من نضالهم فى الداخل والخارج إسعاد هذا الشعب وتزويده
بوسائل الرفاهية والطمأنينة والحياة الكريمة ؟ كلا ! ولن يستطيع إنسان ما أن
يقول إن الشعب كان وجهة هؤلاء السلاطين والأمراء . بل إن طبيعة وجودهم
والطريقة التى توخوها فى حكم هذه البلاد تتنافى تنافيا كليا مع ما كنا نرجوه أن
يسكون بينهم وبين الشعب .

ونحن نعتقد أن على أولى الأمر واجب إنهاض الشعب ، وتنبيهه ، وحسن
توجيهه إلى غاياته هو الإنسانية لا إلى غايتهم هم الشخصية . نحن نعتقد ذلك لأن
الشعب المربى المثقف الكريم الذى حسن توجيهه ، يكون أكثر صلابة على احتمال
أعباء الحياة ، وأكثر تماسكا عند نزول الحوادث وأكثر إنتاجا وأوفر إيجادا ،
وأعمق شعورا بلذة الحياة . وفى ذلك كله حياة أسمى لحكامه أنفسهم ، ومنزلة لهم
أعلى وأشرف . لهذا نعتقد أن واجبهم الأول أيضا نحو أنفسهم ، هو إنهاض
الشعب ، لأنه نهوض لهم هم وسمو لمكانتهم وعلو لمزالتهم .

ولم تكن هناك فكرة كهذه الفكرة تمشى فى عقول حكام مصر أولئك ، بل
إن طريقة حكمهم - كما قلنا - تتنافى معها تنافيا كليا .

لم يكن هم المماليك إلا الاحتفاظ بحكم هذه البلاد فحسب . واستغلالها ، وتسخير
أهلها فى مصالحهم الخاصة وجبى الضرائب منهم . فهم إذا كانوا قد دافعوا عنها ،
ودافعوا كثيرا من أعدائها فى الخارج ، فما فعلوا ذلك إلا خوفا على سلطانهم هم
أن يضيع ، وخشية على نفوذهم أن ينهار ، وحرصا على نعيمهم أن يزول ورغبة
على دولتهم أن تدول .

هم عبارة عن شراذم من الأفراد جمعتهم ظروف واحدة ، وغاية واحدة فقرضوا أنفسهم حكاما لهذه البلاد ، دون أن يكون لأهلها رأى فيما فرضوه . ولم يرضوا لأنفسهم أن يندمجوا في شعبها ، بل حافظوا على جنسيتهم ، وظلوا طبقة ممتازة ، لها تعاليمها الخاصة ، وتقاليدها الخاصة . وهم جيش الدولة وموظفوها . ولم يشركوا أفراد الطبقات الأخرى من الشعب في شيء من ذلك كله إلا قليلا . مع أن للشعب حقوقا فيه طبيعية . ولكن الخطة التي انتهجوها في معاملة الشعب وإقصاء أفرادها عن كل نفوذ وسلطة ، جعلت هذه الحقوق مجهولة من الشعب إلى درجة أنه لم تكن تحوم له حولها آمال . ولم يقع على نفسه يوما أن له حقوقا في هذه النواحي . . وهذا موت أدبي شنيع ، وتلك هي الجناية التي جناها المماليك على الشعب المصرى .

ويتجلى إهمالهم للشعب في عدة مظاهر منها : التعليم والجيش وملكية الأرض والوظائف العامة ، والتقاضى . وانتكلم كلمة يسيرة في كل موضوع من هذه توضيحا له وبيانا فنقول :

١ - التعليم .

كتبنا فيما سبق فصلا عن ثقافة المماليك وطريقة تعليمهم ، وبيننا فيه أنه كانت ثمة عناية بتنشئتهم تنشئة حربية ممتازة وأنهم كانوا يلقنون في صغرهم ضروبا من الكتابة والقراءة ، وبعض آيات من القرآن الكريم ، وكانوا يراقبون مراقبة دقيقة ويؤخذون أحيانا بالحزم حتى ينشئوا نشأة خلقية صحيحة . فإذا ما شبوا دربوا تدريبا عسكريا ، وعاشوا عيشة رياضية بحتة تنمو فيها عضلاتهم ، ويمهرون في فنون الحرب من كروفر وحمل سلاح وضرب نشاب ورمى سهم ، إلى غير ذلك .

بيننا هذا مفصلا في الفصل المذكور . فهل كان هذا النظام مباحا لفرد من أفراد الطبقات الأخرى ، وهل كان هذا التعليم عاما لجميع الطبقات على السواء ، وهل كانت ثكنات القلعة وطباقتها مبيتا لغير طبقة المماليك ؟ . . كلا ! بل كان ذلك عليهم محرما .

أما طبقات الشعب الأخرى ، فقد كانت أمامهم أبواب المساجد مفتحة ، يلجها من يشاء منهم بمحض رغبته ، ووفق ظروف حياته - وبين أفضية هذه المساجد يجدون من الشيوخ والمدرسين أصنافا عدة يلقون دروسهم على الناس ، ولمن يشاء ، دون أن يتجشم في سبيل ذلك مالا يدفعه لقاء تعليمه .

وهذه الطريقة التعليمية نشعر بما فيها من ملاححة وجودة وتيسير ومعونة لطالب العلم ، إذ التعليم فيها حر وبالحجبان . بل كانت المعونات المادية تتوالى على طلاب العلم والمنقطعين له تواليا مشكورا . وبذلك كله تقوى النزعة إلى العلم الصحيح وتشتد الرغبة فيه ، وتنتج نتيجتها المرجوة .

هذا حسن ! ولـكـنـنـا هـنـا نـنـظـر إـلى المسألة من ناحية أخرى . ونسأل : هل كان السلاطين قد سنوا هذه السنة التعليمية لتثقيف الشعب باعتبار أنها حق من حقوقه وعلى أن له أن يتعلم ، وعلى أنها واجب عليهم نحو الشعب يقومون به ؟ .
الجواب على ذلك : كلا ! بل إنما كانوا ينشئون المدارس ويشيدون المساجد ، ويقررون بها الدروس المختلفة ، ويرتبون بها مشايخ العلم والفقهاء والمدرسين ، صدقة على الشعب وعلى محبي العلم من أفرادهم يتقربون بذلك إلى الله سبحانه وتعالى ونحن نحمد لهم الزاني إلى الله ، ولـكـنـنـا نـشـعـر بـفـرق بـعـيـد بـيـن مـن يـقـوم بـعـمـل هـو وـاجـبـه الذى يشعر بالإثم والجنابة لو تركه ، ومن يقوم بهذا العمل صدقة وزكاة ونافلة لا يشعر بالإثم والجنابة لو تركه ، هناك فرق بعيد بين الشعورين وبين العاطفتين ، فرق كبير بين اعتبار الشعب صاحب حق يؤدي إليه ، وبين اعتباره مستجديا يتصدق عليه .

بهذه الروح وبهذا الشعور وبنفس العاطفة كان سلاطين الممالك وأمرأؤهم يقومون بنشر العلم . وهى روح وشعور وعاطفة تسيء إلى كرامة الشعب أكبر إساءة ، فإن الشعب من حقه أن يتعلم ، ومن حقه أن تيسر له وسائل التعليم ، ومن حقه أن تنظم له طرق التعليم ومناهجه تنظيما دقيقا يوصله إلى غاياته ويوجهه إلى سعادته .

ولعلنا نشعر بغضاضة إذا قلنا إنه يندر أن نجد بين الممالك من اندمج في غمار الشعب وتلاق العلم كما يتلاق أفراد منه ، وتلمذ لبعض مشايخه كما يتلمذون ، وانقطع إلى طلبه كما كانوا ينقطعون . ثم أصبح من بعد شيخا يشار إليه في علم أو أدب . . وإن كان ثمة من كتب أو نظم أو تفقه فهو نادر .

ب - الجيش :

لم يكن سلاطين الممالك هذه السنة التعليمية التي أشرنا إليها إلا لتدشّنهم أسرة عسكرية ضخمة يكون سوادها جنودا ، وتكون خاصتها أمراء عليهم ، ويقطعون لكل منهم الإقطاع الذي يناسبه . وسواء أكان جنودهم هم الجنود السلطانية الذين ينفق عليهم السلطان من الخزانة الشريفة . أم كانوا أتباع الأمراء . فالجميع سواسية في هذا الشعور وفي هذا التوجيه .

ولم يكن يسمح لفرد من أفراد الشعب من غير الطبقة المذكورة أن يندمج في عدادها وينغمر في غمارها ويصبح عضوا من أعضاء هذا الجيش ، وكيف يتسنى لفرد أن يندمج هذا الاندماج وهو لم يثقف ثقافة عسكرية ، ولم يتدرب التدريب الرياضي المناسب الذي يؤهله لهذه العضوية ؟

كان غرض الممالك من هذا أن يظل جيشهم سليما من الشوائب الغريبة المتجانسا بريثا من كل عضو دخیل ، ومن غريب الأمر أن كانوا يفضلون الجنود الأتراك أو الجراكسة الجدد الطارئين من الخارج والوافدين مع تجار الرقيق ، على ناشئة البلاد وشباب الشعب المقيمين في داخل هذا الوطن . وكأنما كانوا يظنونهم طبقة عاملة لا تصلح لحرب أو ضرب ، أو تفيد في قتال أو نزال ، وكأنما ظنوها خلقت وليس في طبيعتها همة تقدرها على الثبات في ميادين الوغى ، أو أنها طبيعة متأينة على الفنون العسكرية ، تلك الفنون التي كانت وفقا على الجنس التركي في ذلك الحين

ومع ذلك لم ينج الجيش من اختلاف الجنسية ، ولم ينج من الحزبية التي تشعبت بتشعب الملوك والأمراء ، فكان لكل منهم طائفة تنتمي إليه ، فكان منهم في

بعض الظروف : الممالك الأشرفية وغير الأشرفية . والممالك الجلبان والممالك
القرانصة . وأكثر ما طرأ هذا الفساد في القسم الأخير من العصر .

ومع هذا كله ، كانت نظم جيشهم تنفر دون قبول فرد من أفراد الشعب ،
وكيف كان يتسع صدرها لقبول فرد منه وهم ينعتون هؤلاء الأفراد بالفلاحين
تارة ، وتارة بالعوام والزعر . . .

هذه الحالة التي وصفناها أقرت في نفس الشعب شعورا عجبيا أو فكرة عجيبة
وهي أن هؤلاء السادة طبقة ممتازة حقا منحها الله حكم هذه الديار ، وأصبحوا ولاة
أمرها بما لهم من قوة وشجاعة وجاء وحيلة ، وليس على الشعب سوى طاعتهم
والانتمار بأمرهم والانتهاز بنهيهم ، ودفع ما يطلبون من الضرائب ، وقد ألفت
المشيئة أمر الدفاع عن البلاد على كاهلهم وحدهم . والله يولي منهم من يصلح ..

وقد يعجب قارئ ويعترض على هذا ويحتج بأن كثيرا من العامة وعربان
البلاد اشتركوا في بعض الحروب ورجحوا كافة سلاطينهم ، وهذا صحيح ، ولكنهم
كانوا يقاتلون معهم لأعلى أساس ثابت ونظام موضوع ، بل هو أمر مرتجل تدعو
إليه الساعة الشديدة والحدث القاسي المشترك . على أن هؤلاء العامة والعربان يغلب
عليهم اشتراكهم في القتال ، إما بدافع ديني أو حبا في النهب والسلب والاستحواذ
على ما يمكن الاستحواذ عليه بأى طريق ، ولم تكن غايتهم المستقرة في نفوسهم
غالبا ، الدفاع عن الوطن ، باعتباره وطننا . هذا على الرغم من ادعاء بعض العربان
حينذاك أن البلاد بلادهم دون الأتراك .

ولا أدل على ما وصفنا من أن الصلة الروحية لم تكن قوية بين جيش البلاد
وأفراد الشعب إذ كان هؤلاء الأفراد - كما قلنا - يشعرون أن هذا الجيش مسلط
على الشعب لحكمه وإخضاعه لحسب ، وقليل ما تجلى عطف الشعب على جيشه
المحارب ، أو زوده هذا العطف بقوة معنوية اعتمد عليها ، أو شعر الجيش نفسه
أنه في حاجة إلى هذا العطف عليه .

وهذا غير ما نفهم في عصرنا الحديث - على الأقل - من متانة الصلة بين الأمة وجيشها ، ومن أن الأمة تعتبر جيشها أعز فلذها ، وأنه يضم أفضل بنينا وأجهم إليها ، وتظل توليهم عطفها ومحبتها الدائمة ، وتظل عواطفها متعلقة بهم ، ليدافعوا عنها بنفسية قوية كما يدافع العاشق عن معشوقه ، وكما يدافع الولد عن أمه وأبيه ، وكما يدافع الرجل عن نسائه وبنيه - وإن أفراد الأمة الآخرين ولو لم يشتركوا - كما اشترك أفراد الجيش - في قتال الأعداء فهم مشتركون معهم بالنفس والروح والقلب والعقل والعاطفة والمال وبكل شيء ، وهم على قدم الاستعداد للانضمام إلى صفوفهم إذا دعت الحاجة ، وينتظر كل منهم دوره في الذود عن وطنه بصبر فارغ ، وقلب يملؤه الشوق .

ولا ينهض حجة علينا ما قد يصادفه القارىء ، حين يقر أخبار الفتوح والانتصارات التي تمت على يد سلاطين المماليك ، من أن الأفراح قدسرت في البلاد وأن الزينات انتشرت في أرجائها ، ودقت الطبول ... إلى آخر ما هنالك ، فأغلب الظن أن هذه مظاهر رسمية قليلا ما اشترك في إقامتها أفراد الشعب عن إخلاص أو صدرت منهم عن عاطفة قلبية عميقة صادقة .. وإن كانت هذه الفتوح موافقة لهواهم .

وإلا فكيف نفسر امتناع بعض المصريين عن دفع الضرائب المتأخرة عليهم حينما طلبها منهم نائب الغيبة الأمير «طومان باي» بعدما كان سلطان البلاد الأشرف الغورى يقاتل العثمانيين في «مرج دابق» وكان «طومان باي» في حاجة قصوى إلى المال لتعزيز القتال وإقامة الاستحكامات في مصر انتظارا للقاء العثمانيين .. امتنع هؤلاء عن دفع المتأخر عليهم ، وكانت حجتهم في ذلك أنهم لا يدرون لمن تكون البلاد ، ومن سيكون وليها الشرعى ١ . الذي تجب تأدية الضرائب إليه ١ . وقالوا إنهم صابرون حتى تنجلي هذه المعارك ثم يدفعوا هذه الضرائب لمن يغلب وتخضع له البلاد ... وحسبنا هذا .

(ج) ملكية الأرض :

بعد أن دخل العرب مصر ، تصرف حكماها في الأراضي الزراعية ، ثم اتبع نظام « القبالات »^(١) . ومعنى ذلك أن تقسم الأراضي أقساما ، ثم ينادى عليها قسما قسما في «مزارد على» ، ويتقدم فيه لقبولها من يشاء من أهل مصر . ويزايد الناس في تقدير خراج القسم المعروف ، حتى يرسو المزارد على أحدهم ، بما قدره من خراج يتعهد بدفعه في مواعيده ، بعد أن يخصم منه مقدار المال الذي أنفقه في استصلاح أرضه . وكان هذا الخراج بمثابة إيجار للأرض لمدة معينة ، ويدفع خراجها المقدّر سنويا ، حتى تنتهي مدته . وحينئذ يعاد النداء على الأرض ويعقد لها كتاب الخراج مزادا جديدا ، وهكذا .

واعتادوا إثر كل ثلاثين سنة ، أن يعيدوا تقسيم الأراضي تقسيما جديدا ، على ضوء التجارب وباعتبار ما زاد منها واتسع واستصلح ، أو ما قل وضاق وبار ، وهذه اعتبارات لها اتصال بتقدير خراجها الجديد . وظل نظام « القبالات » متبعا حتى حل محله نظام الإقطاع ،

ونظام الإقطاع عبارة عن تقسيم الأراضي الزراعية أقساما أو إقطاعات أو « دوائر وتقايش » ، بلغة عصرنا . ثم يختص السلطان نفسه بنسبة خاصة من هذه الإقطاعات . ويمسح البقية للأمراء وجنوده فحسب . أما عامة الشعب فقد حرّموا ملكية الأراضي أو إيجارها .

ويبدو أن نظام الإقطاع اتبع منذ عصر صلاح الدين الأيوبي^(٢) . ثم ظل سائدا في مصر طيلة عصر المماليك ، فكان في جملة مساوئ العصرين .

(١) الذي نفسه من كلمة القبالات « الأراضي المقبولة » بما عقد عليها من خراج ، وفردتها قبالة ، وفي رأينا أن قافها مثلثة ، وكلها يؤدي المعنى . قال في المحيط ما مؤاده : قبالة بالضم تجاهه . وقبلت المرأة كعلم أخذت الولد عند الولادة ، قبالة بالكسر . وقبلت العامل العمل تقبلا نادر ، والاسم القبالة .

(٢) مقدمة تقويم النيل ص ١٢٤ .

وصاحب الإقطاع يستغله لنفسه ما دام ممنوحا له ، سواء في ذلك السلطان أم الأمير أو الجندي . وجميع السكان الذين يعيشون في الإقطاع ، ويفلحون أرضه ، أجرا بل خدم وعبيد لصاحب الإقطاع . وقد عرفوا من ذلك الحين « بالفلاحين » قال المقريزي في خطه (١) :

« وأعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم . لا يعرف هذه الأبدية التي يقال لها اليوم « الفلاحة » . ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحا » ، قرارا . فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقي ، ومن ولد له كذلك »

والإقطاعات لا تورث ، بل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها ، ليعود السلطان بدوره ، فيها لمن يشاء ، ولمن يستحقها من جديد . ومن هنا نفهم السرفى أن الأمراء كانوا يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال ، لمصلحتهم الخاصة ، لكي يحوزوا من المال البعيد عن الإقطاع ، الشيء الكثير . وكثيرا ما كانوا يستعينون على استبقاء ما في أيديهم من ممتلكات بوقفها ، حتى لا تمتد إليها يد السلطان في حياتهم أو بعد موتهم ، وحتى ينتفع بها ذرايرهم . وأفراد الشعب على كل حال ، محرومون الملكية أو الانتفاع من أراضي بلادهم الزراعية ، إلا ما قد يصيبهم من الأجر على العمل ، أو المعونة من مال الأوقاف .

وقد قال ابن خلدون : « ولقد وقع لهذه العصور بمصر ، منذ مائتين من السنين في دولة الترك ، من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهلم جرا . وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لماله عليهم

من الرق والولاء ، ولما يخشى من معاتب الملك ونكباته . فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركاء لولدكم بنظر عليها أو نصيب فيها . مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف . . .

على أن السلطان كان يتصرف أحيانا في الإقطاع ، فيسترده من صاحبه - لدرء من الرضا أو الغضب - فيمنحه إقطاعا آخر جديدا أكثر غلة ، أو يحرمه فيرسله « طرخانا » - أى عاطلا - وينفيه إلى القدس أو مكة مثلا . كما أن بعض السلاطين كان يحترى على ما أوقفه أمراؤه ، فيأمر بحله . وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بحل ما أوقفه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار نائب سلطنته . (١)

وقد روى المقرئ في خططه الحديث عن « القبالات » (٢) . أما الإقطاعات فقد اشتهر في عصر المماليك تقسيما لها يسميان « الروكين » هما الروك الحسامي ، والروك الناصري . (٣)

أما الروك الحسامي . فقد تم في عهد المنصور حسام الدين لا جين . قيل : إنه لما أفضت إليه السلطنة ، رآك البلاد - أى قسمها - وذلك لما رأى أن الأرض ٢٤ فيراطا ، منها ٤ للسلطان ، و ١٠ للأمراء ، و ١٠ للأجناد وكانت إقطاعات الأجناد لا تصل إليهم ، لتغول الأمراء عليهم ، فدخلت في إقطاعاتهم . فأبطل السلطان هذا التقسيم ، وجعل الأجناد والأمراء عشرة قراريط ، وللسلطان أربعة ، ولخدمه العسكر تسعة ، وواحد لزيادة من عساه يطلب الزيادة .

فكان هذا سببا لتكرار قلوب الأمراء له ، وسرعان ما ذهبت دولته عام ٦٩٨ هـ . ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته عودته الثانية ، رآك البلاد من جديد . وعرف روكه بالروك الناصري وذلك عام ٧١٥ هـ .

(١) الخطط المقرئية ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) الخطط المقرئية ج ١ ص ١٣١ .

(٣) ج ١ ص ١٤١ .

أما الروك الناصرى ، فملخص ما قيل فيه : أن الناصر بن قلاوون رأى أن يروك البلاد المصرية روكا جديدا عام ٥٧١٥ . فأبطل مكوسا كثيرة . وقد نظم له هذا العمل القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش . فأرسل الأمراء والكتاب والقياسين إلى النواحي للاطلاع على مكلفات ، كل ناحية وضبط ما فيها من حيوان وما لها من غلة ، وما عليها من خراج . ثم القيام بقياس كل ضيعة ، وتطبيق ذلك على المكلفات ، والأوراق ، مسترشدين فى ذلك بأهل الإقطاع ومشايخه وعدوله وقضائه . وقد أنجز هذا العمل فى نحو ٧٥ يوما ، ثم انقسمت كل الأراضى إلى عدة مثالات — أقسام — منها الكثير الغلة ، ومنها القليل الغلة . وقام السلطان بعرض عام ، استعرض فيه الجنود جنديا جنديا ، كل طائفة مع مقدمها ، يقدمها نقيب الجيش أمام عيون الأمراء فيسأل السلطان الجندى عن اسمه وسنه ومولده ووفوده على مصر ، والحوادث التى اشترك فيها ، إلى غير ذلك ، ثم يمنحه مثالا .

هكذا وزع الناصر الأراضى على أمرائه وأجناده مستبقيا لنفسه عشرة قراريط من مجموع الأراضى ، اختار مواقعها حسب مشيئته . وترك لجنوده وأمرائه أربعة عشر قيراطا . فكانت نسبة التقسيم ١٠ : ١٤ ، ويبدو أن تعديلات متكررة قد أدخلت على هذا التقسيم ومواضع الإقطاعات ، دون أن تمس نسبته . ومنها ما وقع فى عهد الأشرف شعبان والظاهر برقوق .

ومما يتصل بهذا الموضوع ، ما أورده ابن إياس عن السلطان الغورى ، قال إنه : أحدث شيئا لم يفعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه نقص من إطلاقات الأمراء أشياء كثيرة ، وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة . فنقص من إطلاق الأمير الكبير سودون العجمى مائتى فدان . وكان قبل ذلك سلخ من إقطاعه جهات بنحو من عشرين آلاف دينار ، كون أنه كان لى الجانب فاستضعفه . ونقص من إطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان ، ومن إطلاقات الأمراء الطبلخانات كل واحد عشرين فدانا ، ومن إطلاقات الأمراء

العشرات كل واحد خمسة عشر فدانا ، . (١) .

ويبدو أن من الأمراء والمقطعين من كان يدفع أرضه إلى الزراع يفلحونها ويزرعونها وينالون من غلتها لقاء مال يفرضه عليهم صاحب الإقطاع . وكثيرا ما كان السلطان يفرض على هؤلاء المساكين الغرامات الفادحة ، ويسخرهم في إعداد جمال أو دواب ، أو تقديم شيء من التبن والغلال والفأكة ، لقاصد يمر بهم ، أو أمير يجتاز إقطاعهم ، أو تجريدة أشخصت لقتال أو إخضاع فتنة .

ومهما يكن من شيء . فقد كان نظام الإقطاع ذا أثرين سيئين بارزين ، أولهما إغراء الأمراء بالإسراف، والمباهاة وحب الظهور ، والإمعان في الترف والملاذ، لكي تمتص هذه الأمور ثراهم قبل أن تنتهي حياتهم فيقول إلى السلطان ، ولما يمتعوا به . وثانيهما فقر الشعب فقرا أورثه الهم والجنول والشقاء .

(د) الوظائف العامة :

إذا استثنينا وظائف القضاء والكتابة وما إليهما ، وجدنا وظائف الدولة عسكرية ، لا يليها إلا الأمراء ، سواء في ذلك إمارات الجند وغيرها ، حتى ما كان منها أبعد عن الجندية وأدنى إلى غيرها مثل الحسبة . فلم يكن لفرد من الشعب مهما سمت همته أن يصل إلى منصب منها إلا نادرا جدا ، وفي أحوال فردية ، وبذلك حرم الشعب الهيمنة على إدارة شؤونه . كما أن تصرف الموظف في شئون وظيفته كان منوطا برأى السلطان ، إذ كانت المناصب ذات متات وثيق به ، وكلها تسهر على خدمته ورعايته وتنفيذ إرادته .

أما العمل في مجال القضاء والكتابة فلا يتفق وطبيعة النشأة التي نشأ عليها أمراء الممالك . ويندر أن نجد لاحد هم اجتهدا في فقه ، أو بروزا في أدب، أو مشاركة في علم . والدولة في حاجة إلى قضاة يحكمون بين الخصوم بما أنزل الله ، حتى لا تتعطل

(١) البدائع ج ٤ حوادث شعبان سنة ٩١٨ هـ - والإطلاق أرض مغفرة من الضرائب «راجع

السلوك ج ١ ص ٧٨٨ - هامش » .

مصلح الناس . وفي حاجة إلى كتاب ناهين في العربية لضبط أمورها وحسابها - وكانت قد اتخذت العربية أداة لتفاهمها الرسمي - لهذا لجأت مضطرة إلى استخدام القضاة والمنشئين والكتاب من البارزين بين أبناء الشعب ، في مناصب القضاء والكتابة ، وهؤلاء هم المتخرجون في المساجد ، ويعرفون « بالمتعممين » .

وقد يكون لبعض هؤلاء نفوذ ما وجاه ، لما يتحلون به من فضل وعلم، ولما يعرفون به من ورع وتقوى . ومن هؤلاء قضاة كان يؤخذ رأيهم عند فرض الضرائب الجديدة ، وفي مال الأوقاف عند الحاجة إلى شيء منه . ويستشارون في الحرب قبل إعلانها . كذلك كان بعض كبار الكتاب من أصحاب ديوان الإنشاء وكتاب السر يبلغ نفوذ أحدهم إلى مثل ما يبلغه وزير الخارجية في زماننا . فتزد إليه المكاتبات الخارجية ويرد عليها ، بعد أخذ رأى السلطان .

هؤلاء وهؤلاء - إن جاز أن نعتبرهم ممثلي الشعب في هذه الدولة - لاندسى أن تعيينهم في وظائفهم كان رهنا بمشيئة السلطان وحده ، لهذا غلب عليهم الخضوع له . وأن حوادث نفوذهم فردية . وأن آراءهم استشارية لحسب . ومن برزوا منهم ، وكان لهم رأى مسموع : عز الدين بن عبد السلام في عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقيني في عهد برقوق . وأمين الدين يحيى الأتصراقي في عهد قايتباى . وزكريا الأنصارى في عهد الغورى . وكلهم من رجال الدين . ويحيى الدين بن عبد الظاهر في أيام بيبرس . وشهاب الدين بن فضل الله . وأخوه علاء الدين . وعلاء الدين بن الأثير في أيام الناصر بن قلاوون . وناصر الدين محمد بن البارزى ، وتقى الدين بن حجة الحموى في أيام المؤيد شيخ . وكلهم من رجال القلم .

(هـ) التقاضى :

كانت قوانين القضاء المعمول بها ، مستمدة من الدين الحنيف - كما بينا في فصل القضاء - والمتخاصمون متساوون أمامها . وهذا ما يحمده عليه العصر . ولكن وجود حاجب الحجاب وأعوانه وإعطاءهم حق الفصل في قضايا المالك ، ثم اتساع

نفوذهم بمضى الأيام ، يشعروا بأنهم كانوا يتأبون على التساوى مع عامة الشعب أمام القانون .

ولا نترك هذا الباب دون أن نقول إن المالك ، إلى جانب حرمانهم الشعب حقوقا كثيرة ، كانوا ينظرون إلى طبقاته على اعتبار أنها طبقات منحلة ، لا تصلح لحكم ولا رياسة . ولعلمهم كانوا يصدرون في ذلك لا عن عقيدة ، ولا كنها شهوة الحكم وحب الاستئثار به ، وجهتهم هذه الوجهة . وكانوا يطلقون على عامة الشعب « الفلاحين أو الزعر » - كما مر - .

ومن لطيف ما انساق إليه ابن إياس متأثرا بهذه الروح السائدة - ج ٤ حوادث ربيع الثاني عام ٩٢٠ هـ - قوله عن شمس الدين بن عوض من رؤساء عصره :-
« ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء ، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربي عليه . فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث .. ولم ينطل في رياسته . فكان كما يقال :

فقيه ريف يقول إني برعت في العلم والرواية
فقلت لا شك أنت عندي تصلح للدرس والدراية ،

٢ - فداحة الضرائب وتعدد أنواعها :

لا بد للدولة من أن تفرض على رعيها ضرائب مختلفة لتتكون وسيلتها إلى الإنفاق على شئونها . ولكن بشرط العدالة والمساواة ، والتبديل فيها والتغيير حسب مقتضيات الأحوال .

وقد كانت الأراضي الزراعية ملكا للسلطان - كما بينا - يقطع منها من يشاء من أمرائه وجنوده ، في حدود أربعة عشر قيراطا . ويزرع « الفلاحون » هذه الأراضي ويؤدون ثمراتها للمقطعين ، فيؤدون بدورهم ما فرض عليهم للسلطان من خراج إقطاعاتهم .

وبجوار طبقة الزراع ، طبقات التجار والصناع وأرباب الحرف ، وملاك

المنازل وسكانها . هؤلاء جميعا كانت تفرض عليهم ضرائب أخرى ، في نظير مزاوله البيع والشراء أو في نظير الحراسة أو نحو ذلك .

ويجئ إلينا أن السلاطين لم يتركوا ناحية يستطيعون فيها فرض ضريبة إلا سلكوها . وكثيراً ما فرضوها ظالمة فيها الشطط الكثير ، وفرضوها دون أن تدعو إليها مصلحة عامة ، بل كثيراً ما فرضوها للمصلحة الخاصة . ولكي يسدبها السلطان أفواه الثائرين عليه من الجنود . وكثيراً ما انتهز السلاطين فرصة الحرب لفرض الضرائب الفادحة بدعوى الإنفاق عليها . ومنهم من تطلع في هذه المناسبة أو في غيرها - إلى مال الأوقاف ، ومنهم من أثقل على أبواب المناصب بالمصادرات وفرض الغرامات الباهظة ، عند وقوعهم في خطأ ما . فكانت هذه الغرامات لونا من ألوان الضرائب المستورة التي أثقل بها كاهل الناس . ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين - مثل الناصر بن قلاوون - كان يلغى شيئاً من الضرائب المفروضة أو يخفف منها ، فيلهج الناس بالثناء عليه ، ويضجون له بالدعاء... ولكنها حوادث فردية ونادرة .

ونسوق هنا عددا من الأمثلة على الضرائب وثقلها ، وعددا من الحوادث التي تشعرنا بظلم هذا العصر وفداحة مكوسه . فمن ذلك ما ذكره المقرئ في خطه بالجزء الأول عند الكلام عن الروك الناصري . قال ما ملخصه : أن السلطان الناصر محمداً أبطل ضروبا من المكوس والمقررات فمنها :

١. - مكس ساحل الغلة : وكان جل متحصل الديوان . وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد . ويتحصل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعليه أربعمئة مقطع ، لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف . ولكل من الأمراء من أربعين ألفا إلى عشرة آلاف . وكانت جهة عظيمة .. لها متحصل كثير جدا . وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى . ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم . فإن مظالمها كانت تتعدد ما بين نوتية تسرق ، وكيالين تبخس ، وشادين وكتاب ، يزيد كل منهم شيئا . وكان مقرر الأردب درهمين

للسلطان ، ويلحقه نصف درهم غير ما ينهب ويسرق وكان لهذه الجملة مكان يعرف « بنخص الكيالة » ، في ساحل بولاق ، يجلس فيه شادوستون متعمما ما بين كتاب ومستوفين ، وناظر وثلاثون جنديا مباشرين . ولا يمكن أحدا من الناس أن يبيع قدحا من غلة في سائر النواحي . بل تحمل الغلات حتى تباع في « خص الكيالة » ببولاق .

٢ - نصف السمسرة عبارة عن أن البائع يدفع عن كل شيء يبيعه بمائة درهم نحو درهمن يدفعان للدلال . فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين . فأخذ كل دلال يبذل جهده لاستيفاء هذا الدرهم من البائع نفسه ، حتى لا يقل نصيبه ، فأصاب الحيف كل بائع ، وعلا الضجيج والشكوى من الدلالين ، ولا من مغيث ولا سامع .

٣ - رسوم الولاية : ضريبة يجبها الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الدعارة . وكثيرا ما نال الناس منها ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجوم على بيوت الناس .

٤ - مقرر الخواص^(١) والبغال : وكان يجبيه من القاهرة وسائر مدن مصر ، الولاة والمقدمون أيضا ، ويحمل متحصله إلى بيت المال . ويجبي عن الحياصة ثلثمائة درهم وعن البغل خمسمائة درهم . وكان يصيب الناس من هذه الضريبة كثير من عسف المراقبين .

٥ - مقرر السجون : ضريبة يدفعها كل من يدخل إلى السجن برئنا كان أم مظلوما ، ولو لم يقم في السجن إلا لحظة قصيرة وكان يدفع منها للسجان ستة دراهم من ضريبة كل مسجون .

٦ - مقرر طرح الفراريج : وهي عبارة عن أن الفراريج اختص ببيعها جماعة من الضامنين يطرحونها على الناس للشراء ، فمن احتاج إلى فروج ، اشتراه من الضامن بالثمن المفروض ، وفي ذلك كثير من الظلم : ومن اشترى أو باع فروجا عن طريق

(١) الخواص جمع خياصة وهي الخزام ،

آخر غير طريق الضامن ، قال المقرئى : « جاء الموت من كل مكان وما هو بميت . . . » .

٧ - مقرر الفرسان : ضريبة يجبيها ولاية النواحي فوق كل ضريبة ، أى أنها ضريبة إضافية . فمن يدفع درهما ضريبة أصلية يدفع معها درهما آخر أو نحوه ضريبة إضافية للجباة .

٨ - مقرر الأقباص والمعاصر : وهو ما يجبي من مزارع قصب السكر ، ومن المعاصر ورجال المعاصر .

٩ - مقرر رسوم الأفراح : يجبي عن يقيمها ويغالى فيها أحياناً ، وتفرض فوقها غرامات عادة ..

١٠ - حماية المراكب : ضريبة تؤخذ من كل مركب ، وهى عبارة عن رسم يدفعه المسافرين فيها ، وكل من ركبها حتى الفقير والمحتاج والسائل .

١١ - حقوق القينات : يجبي هذه الضريبة من أهل الدعارة ومركبي المنكرات .

١٢ - مقرر المشاعلية . وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ من أصحاب المنازل نظير كسح الأبنية ومحال القذارة . وكان هناك لهذه الحرفة صناع مخصوصون ، ولكل جهة ضامن - مقلول - يقوم بهذه العملية ، ولا يستطيع أحد سواه أن يقوم بها . ولذلك كان يشتط كما يشاء فى فرض الأجر .

وإلى القارئ الآن بعض ما ذكره ابن إياس فى تاريخه عن الضرائب وفرضها وإلغائها وظروفها وما لا بس ذلك من الحوادث والاعتبارات فمنه :

١ - لما قرر السلطان المظفر قطز أن يحارب التتار عام ٦٥٨ هـ أخذ فى جمع المال اللازم لذلك . فأخذ من أهل مصر والقاهرة ديناراً واحداً لكل رأس ذكر كان أو أنثى . وأخذ من إيجار الأملاك والأوقاف أجرة شهر ، ومن أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة ، ومن ضرائب الأراضى الأهلية ثلث ما فرض عليها معجلاً ، وعلى الغيطان والسواقي أجرة شهر . - قال : وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة . . . « ١٦ ص ٩٦ »

٢ - أبطل المنصور قلاوون وظيفة « ناظر الزكاة » ، وهو من يأخذ من عنده مال ، زكاة هذا المال ، فإن مات ذو المال أو عدم ماله ، يظل المقرر عليه يجبي منه إن كان حيا أو من ورثته أو من أقاربه إن مات ، ولو كانوا واحدا فحسب ، ولو كان المال قد هلك وزال منذ زمن بعيد .
(ج ١ ص ١٢٠)

٣ - في سنة ٧٤٨ هـ في عهد السلطان الناصر أبي المحاسن حسن تهدمت سواحل النيل من ناحية الجيزة ، فرسم للأمير منجك اليوسفي الوزير أن يتولى ترميم هذه الجسور . ففرض على كل دكان بمصر والقاهرة درهمي فضة ، وعلى كل نخلة بالشرقية درهمي فضة أيضا . فاجتمع مال كثير اشترى به منجك حجارة كبيرة الحجم ورسمها به . ولكنهم تفقد شيئا وطغى عليه الماء فقبض عليه بسبب ذلك وصودر ماله وعزل من الوزارة .
(ج ١ ص ١٩٠)

٤ - وما أبطله الناصر بن قلاوون « ضمان الغواقي » ، وهو عبارة عن ضريبة تجبي من البغايا ، وذلك أن البغي إذا أرادت احترام البغاء ونزلت عند امرأة تسمى « الضامنة » ، ودفعت لها مالا معيناً ، أمنت أن يدهمها أى إنسان . فكان يجبي من وراء ذلك مال كثير .

ويظهر أن هذه الضريبة قررت مرة أخرى بعد عهد الناصر ، لأن الأشرف شعبان أبطلها في عهده أيضاً .
(ج ١ ص ١٧٥ ، ٢٣٠)

٥ - وما أبطله الأشرف شعبان عام ٧٧٨ هـ « ضمان القراريط » . وهو عبارة عن ضريبة يدفعها البائع الذي يبيع ممتلكات ، فيؤخذ منه عن كل ما ثمنه ألف درهم عشرون درهما .
(ج ١ ص ٢٣٠)

٦ - وفي عام ٧٨٩ هـ أراد برقوق أن يعد حملة عسكرية لملاقاة التتار في بلاد الشام وحلب . فعقد مجلسا كان في جملة الخليفة والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ، وطلب إليهم أن يأخذوا جانباً من مال أوقاف المساجد والمدارس ، فلم يوافق القضاة ولا البلقيني على ذلك ، ووقع بين الجميع جدال عنيف

ثم انجلي غباره عن أن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن لمدة سنة، ومن خراج الأرض لمدة السنة أيضا ، وتبقى الأوقاف كما هي . وقد شرع السلطان في جبي هذه الأموال من الناس وقسا الجباة عليهم في ذلك حتى استعملوا معهم العصا والضرب والإكراه .
« ج ١ ص ٢٦٧ »

٧ - وفي عام ٨٠٣ هـ أراد السلطان فرج بن برقوق أن يخرج إلى الشام في تجريدة لقتال التتار . فرسم بأن يؤخذ من بلاد المقطعين ومن أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، وعن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم ، وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتدارا باحثين وراء المال زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار . فمن كان من التجار موجودا وقت البحث في متجره أخذوا نصف ماله وتركوا له النصف الآخر ، وإلا جردوا المتجر مما فيه من قماش ومال .

ثم أخذ السلطان كذلك من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد ، حتى من أوقاف المستشفى المنصوري « البيمارستان » ، وقد أودى كثير من الناس في هذه الحوادث ، وكم صودرت أموال وكم سجن رجال . . .
وكان القائم بحماية هذه الأموال الأمير « يلغا السالمى » ، الاستادار . وقيل إنه أخذ لنفسه منها أضعاف ماورده إلى السلطان . - وهذا دليل على فوضى الجبي - فلما بلغت هذه الدعوى سمع السلطان قبض عليه وسجنه وعزله من الاستادارية .
« ج ١ ص ٢٣٠ »

٨ - ومما صنعه السلطان فرج أيضا بمناسبة تجريدته إلى بلاد الشام أن عرض أجناد الحلقة ، فمن كان قادرا على حمل السلاح والسفر معه سافر ، ومن لم يجده قادرا طلب إليه أن يقدم بديلا عنه أو يأخذ منه نصف خراج إقطاعه عن سنة كاملة ، فجمع من وراء ذلك جزيلا .
« ج ١ ص ٢٣١ »

٩ - وفي عام ٨٧٢ هـ أخذ السلطان قايتباي في إعداد حملة عسكرية ضد « سوار » ولما كان المال ينقصه أراد أن يمس أوقاف المساجد ، فيبقى منها ما يكفي ريعه نفقات

المساجد ويستولى هو على البقية لينفق منها على تجاريدته وحملاته. فجمع لذلك مجلسا فيه الأمراء والخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى فتجادلوا زمنا فى الأمر وكادوا يوافقون السلطان على رأيه لولا أن أغلظ الأقصرائى لهم القول وأنكر هذا المساس بمال الأوقاف كل الإنكار وأنذر السلطان بعاقبة هذا العمل. وخوفه من الله سبحانه. وطلب إليه أن يلتمس ما يحتاج إليه من مال، من بيت المال، وإلا فمن أموال الأمراء والجند وحلى النساء أولا. ثم بعد ذلك يمس مال الأوقاف فينال منه الضرورى الذى يدفع الأذى عن المسلمين. بذلك حفظ مال الأوقاف من العبث. ورضى السلطان مرغما.

« ج ٢ ص ٩٧ »

١٠ - وقد عاود السلطان قايتباى إظهار رغبته فى حل الأوقاف وإجراء حركة استبدال فى أعيانها، وذلك عام ٨٧٧ هـ فعارضه قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الامشاطى فى ذلك معارضة شديدة فلم ينفذ من رغبته السلطان شىء. « ج ٢ ص ١٤٤ »

١١ - وقد استطاع قايتباى عام ٨٩٤ هـ أن ينال موافقة القضاة الأربعة على أن يجبى من أرباب الأملاك، ومن إيجار الأوقاف بمصر والقاهرة أجرة شهرين، معاونة له، للنفقة على الجند.

« ج ٢ ص ٢٥٧ »

١٢ - وفى سنة ٨٩٦ هـ اضطر قايتباى إلى مال كثير لينفق منه على حملة يبعثها إلى بلاد الشام لرد اعتداء العثمانيين. فجمع لذلك مجلسا فيه القضاة الأربعة، فشرح لهم غرضه وطلب إليهم أن يقروه على فرض إيجار سنة على الأوقاف والأملاك بمصر والقاهرة سواء أكانت أما كن أم أرضا مزروعة أو حمامات أو طواحين أو أفرانا أو مراكب أو غير ذلك. وبعد جدال وتوقف وأخذ ورد اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط، وفرضت هذه الضريبة أيضا على الأملاك والأوقاف. ومع هذا كله لم ينفق السلطان هذه الضريبة فى وجهها.

« ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ »

١٣ - وفى سنة ٩٠١ هـ فرض قايتباى ضريبة على بيع الغلال فجعل على كل

إردب مبيع نصفاً فضة. « ج ٢ ص ٢٩١ »

١٤ - وفي ذى الحجة عام ٩٠٣ هـ اشتط السلطان الناصر بن قايتباى فى جمع الأموال لىكى ينفق منها على الممالك الجلبان الذين زادت أطاعهم ، واستشرى شرهم وثاروا فى وجه السلطان المذكور وأرغموه على أن يدفع لهم مالا . فلم يجد بدا من أن يفرض غرامات فادحة على كل من المباشرين وقضاة الشرع والأعيان والتجار وصغار الباعة واليهود والنصارى ، ووكل أمر الجميع إلى خاله قانصوه وأعوانه ، ففسوا فى معاملة الناس ، وآذوا الكثير منهم ، وألحقوا بهم ضروبا من الإهانة والتعذيب ، واستعملوا لذلك المعاصير والكسارات ، والخذ الحديديّة المحماة ، فاختنق ابن تقي القاضى المالسى ، والشهاب الشيشينى القاضى الحنبلى ، وطرح شهاب الدين أحمد ناظر الجيش على الأرض ليضرب لامتناعه عن الدفع . وكذلك فعلوا بعلاء الدين بن الصابونى ناظر الخاص وبكثير من الأعيان . فجُمعت هذه الضرائب أو الغرامات بالضرب والحبس ، فكان جمعها أحد مظاهر الظلم الصارخة . وقد كثر دعاء الناس على هذا السلطان . « ج ٢ ص ٣٤٣ »

١٥ - وبعد أن ولى الأشرف الغورى بزم من قليل رأى الخزائن خاوية وثار عليه الممالك مرات متوالية لطلب النفقة التى تأخرت ثلاثة أشهر . ورأى الاستيلاء على مال الأوقاف وأرضها ثم تشاور مع الأمراء والخليفة والقضاة ، فقر رأى الجميع بعد جدال عنيف على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة واحدة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة عشرة أشهر . فثار الناس لهذا العمل وضجوا ، فاكتفى بإيجار سبعة أشهر بدل عشرة .^(١)

١٦ - وفى ١٤ جمادى الآخرة عام ٩٠٧ هـ أرسل الغورى خاصكيا يدعى «ناق» الخازن ليتوجه إلى بلاد الشرقية والغربية ليجمع المال من المقطعين . فضيق الخناق على الفلاحين . وأراد أن يحاسب المقطعين حسابا عسيرا . ففحص أصل خراج كل حصة ، حتى إن بعض الفلاحين غادر بلده خوفا وخشية . ثم إن بعضهم قدم

(١) من رقم ١٥ إلى ٢٤ مرجمه بدائع ابن إياس ج ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة

إلى « نانق » المذكور جملة من المال ، فرحل عنهم ، وبذلك ضاع خراج تلك السنة على المقطعين ما بين « نانق » والفلاحين .

١٧ - وفي عام ٩٠٨ هـ عاد أمير الحج الأمير الناصري محمد بن خاص بك ، وكان العربان قد نهبوا ركبته في الحجاز . فأمر الغوري بحبسه وفرض عليه عشرين ألف دينار يؤديها غرماً . فما زال محبوساً نحواً من ثلاثة أشهر حتى أدى ما فرض عليه ، بعد أن أنقص منه السلطان خمسة آلاف دينار .

١٧ - ومن غريب ما حدث في عهد الغوري عام ٩١٢ هـ أن تقدم إليه شخص اسمه « أبو الخير المرافع » ، والتزم للسلطان أن يجمع له مائتين وخمسين ألف دينار يستخلصها له من الناس ممن يعلم لديهم مالا . وبشرط أن يطلق السلطان يده في جمعها . وكاد السلطان يجيب دعوة هذا الرجل ، لولا أن اجتمع به بعض الأمراء وقبحوا هذا العمل .

١٩ - وفي ٢٢ ربيع الأول عام ٩١٨ هـ رسم السلطان الغوري لكاشف الشرقية والغربية بحماية ضريبة الحماية والشيخة عن السنة المذكورة قبل استحقاقها . فأخذاهما وأعوانهما يجمعونها من الفلاحين والمقطعين ، واستخدموا في ذلك الضرب والقوة والإهانة والهجوم على المنازل للبحث عن المال . ولم يرعوا حرمة مسافر ، ولم يكثرثوا لهارب بل من لم يجدوه أرغموا أهله على دفع ما يطلب منه . ومن عجيب الأمر أن الخراج لم يكن قد استحق ، وكان القمح لا يزال في مزارعه لم يحصد ، والنيل لم يصل حد الوفاء ، وقد زایل كثير من الفلاحين دورهم وبلادهم ، بسبب ما لاقوا حينئذ من جور وعسف .

٢٠ - ولما فشا الطاعون في أوائل عام ٩١٩ هـ وكثر الموتى رسم السلطان الغوري في شهر صفر منها ، للأمير مغلباي الزردكاش بأن يأخذ من تركته من يموت من المماليك السلطانية ممن له « جامكية » - راتب - سيفاً مسقطاً بفضة وزردية وخوذة وتركاش وكلها أسلحة ، وله أن يحجز وصيه حتى يفي بما قرر عليه . فكان الأمير مغلباي يحجز زوجات المتوفين من المماليك حتى تؤدي كل ما عليها .

ورسم للأمير آخور كبير بأن من يتوفى من الممالك من له « جامكية » و « عليق » يأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما . وعن الخاصكي ثلاثة رؤوس خيل وبغلة ، وعن كل من أصحاب الوظائف خمسة رؤوس خيل وبغلة .

ورسم للاماس دوا دار سكين بأن يجبي عن كل من يتوفى من الممالك الأجلاب خمسين ديناراً . وعن كل جمدار عشرين دينار . هذا ولم يعهد الممالك مثل هذه الضرائب من قبل ولا فداحتها ، وكادت تكون فتنة بينهم بسببها .

٢١ - وفي أواخر صفر عام ٩١٩ هـ . أيضاً رسم الغورى بأبطال جملة من الضرائب منها المشاهرة والمجاهة وكل المكوس المقررة على السوق والباعة وعلى طواحين القاهرة ، وضريبة بيع الغلال . وذلك بمناسبة الغلاء وارتفاع أثمان الحاجيات . ففرح الناس بمارسم .

٢٢ - كان على أبواب الأمراء مقاعد يجلس عليها نقيبائهم الذين يقدمون إليهم أرباب القضايا ، للفصل فيها في نظير جعل خاص . فلما فشا الطاعون عام ٩١٩ هـ رسم السلطان الغورى برفع هذه المقاعد وإبطال هؤلاء النقباء ، ونودى أن كل من له مظلمة أو قضية فعليه أن يتوجه بها إلى الوالى أو إلى أحد قضاة الشرع . وحارل الأمراء أن يرجعوا السلطان عن قراره فلم يفلحوا . وكانت هذه الضريبة تدر على الأمراء أموالاً طائلة . وكانت حجة السلطان في رفض طلبهم أنه وضع عن الناس ضرائب قيمتها نحو أربعين ألف دينار . ثم أمر بأن من له حق عند غيره فليتوجه بغيره إلى القضاء ، وأما الجناة واللصوص فيساقون إلى بيت الوالى .

هذا ، وقد عاد الغورى عن هذا القرار وطاوع الأمراء في رأيهم في يوم الخميس ٤ جمادى الأولى من السنة نفسها . وكانت حجبتهم الجديدة التى ساقوها إليه هى أن السلطان أصبح ولا حكم له ، وكذلك الأمراء لم تعد لهم يد فى الحكم بين الناس ، وهذا - فى نظرهم - فساد كبير . ومن هنا نودى بوضع المقاعد وإعادة الرسل والنقباء ، ونودى بأن من له مظلمة يتوجه إلى الأمراء كالعادة ، وبشرط ألا يغلو النقباء فى الجعل الذى يقرضونه على الخصام .

٢٣ - وظلت الضرائب التي رفعها الغورى عن العامة والسوقه والباعة المتسبين ملغاة منذ صفر عام ٩١٩ هـ ، حتى كان رجب من العام نفسه إذ تعرض كثير من العوام للسلطان فى الطريق شاكين إليه من فساد العملة ، فحق عليهم وغضب ، وأمر بإعادة هذه الضرائب كما كانت . . . ١

٢٤ - وفى شهر رجب المذكور أراد السلطان الغورى إصلاح جسر أم دينار بجهة الجيزة ، ففرض على المقطعين بناحية هذا الجسر ألف درهم تدفع عن كل فدان ، فنالهم من ذلك ظلم كثير .

٢٥ - تقلبت ضريبة بيع القمح وما إليه بين الإلغاء والتقير عدة مرات منذ عهد قايتباى . فلما كان عهد الغورى زاد خطرهما . وأصبحت ثلاثة أنصاف فضة من البائع والمشتري - وكانت تسمى « الموجب » - بعد أن كانت نصفاً واحداً فى عهد قايتباى . وقد رأينا كيف قررها الغورى مرة جديدة فى رجب عام ٩١٩ هـ فلما حل يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ أمر بإلغائها عن القمح والشعير والفول والبطيخ . ونودى بذلك فى سواحل مصر « العتيقة » وبولاق .

« ج ٢ حوادث المحرم عام ٩٢٢ هـ ص ١٠ »

٢٦ - وفى يوم الاثنين ٦ صفر عام ٩٢٢ هـ أمر الغورى بإبطال ضريبة المشاهرة والجماعة التى كانت تجبى للمحتسب وأمر بإلغاء بعض الضرائب التى كانت تؤخذ على الغلال وتعرف « بمكس البحرين » ففرح الناس بذلك . « جزء ٣ ص ١٢ » ملحوظه : كتب ابن إياس فى الجزء الثالث من تاريخه - عام ٩٢٣ هـ - معدداً محاسن ومساوىء الغورى . وقد عرض لذكر بعض الضرائب التى فرضها والناس أشارنا إلى بعضها . فليرجع إليها من يشاء فى الجزء المذكور .

٣ - الجور والعسف :

رأينا عند الكلام عن الضرائب ، كيف كانت فادحة ثقيلة ، وأنها كانت تفرض على بعض الناس دون بعض ، وأنها لم يكن براعى فى فرضها منفعة عامة فى أحيان كثيرة ، ولم يكن الأمر مقصوراً على ذلك ، بل إن الطرق نفسها التى كانت تجبى بها الضرائب

طرق شاذة سقيمة ظالمة ، إذ كان الجباة يصبون جام غضبهم ويطلقون سوط عذابهم على الناس لاستخراج الأموال منهم ومضاعفة ما يطلبونه ، فمن سجن إلى تشريد إلى تعذيب إلى وعيد إلى مطاردة ، وهكذا حتى اضطر بعضهم إلى الاختفاء . . . وحسبنا أن نقول إن الجمهور لم يكن يدفع ضريبة ما وهو يعتقد أن واجبه الوطني يقضى عليه بدفعها ، فيدفعها إذن عن طيب خاطر ونفس راضية ، بل كان يشعر دائما أن كل ضريبة إنما هي غرم عليه ومغرم للسلطان وأتباعه .

وهناك ضروب أخرى من الظلم تجلت في غير الضرائب . وذلك كسوء معاملة العامة وازدراءها واعتبارها مثل السائمة . وتسخيرهم بلا أجر في عمل حكومي . ومثل التماس التهمة عند البريء ، وإغفال الجاني حسب الظروف وما تدعو إليه . ومثل العنت والشدة في الحكم على المتهم ، ومثل القسوة في تنفيذ العقوبات ، وهكذا . وقد تعددت الحوادث التي من هذا النوع . ونحن نسوق منها بعضا ، فمنها :

١ - في عام ٦٨٢ هـ . أنشأ المنصور قلاوون «البيمارستان» المنصوري ، وقيل في سبب إنشائه أنه كان أمر بما ليكه بأن يضعوا السيف في رقاب العوام لأنهم خالفوا أمره في بعض ما أمر ، فاستعمل السيف في قتلهم ثلاثة أيام وقتل منهم عددا لا يحصى وذهب البريء منهم مع المسيء ، والصالح مع الطالح ، وما زالوا حتى ضج الناس وعلا الصراخ وسمت الشكوى وطفحت الكأس ، فشفع فيهم القضاة وعلما الدين فعفا عنهم المنصور . ثم ندم على ما فعل وتقرّب لله بهذا المستشفى . «ج ١ ص ١١٦»

٢ - حينما اعترم الملك المؤيد شيخ أن يبني مسجده الشهير بجوار باب زويلة عام ٨٢٢ هـ ، بث أعوانه في فجاج القاهرة يجمعون له الرخام قوة واقتدارا من كل منزل به أثارة منه ، فظلموا في ذلك كثيرا من أعيان الناس . «ج ٢ ص ٦»

٣ - وهناك رجل من الرؤساء ولي الاستادارية أكثر من مرة وكذلك الوزارة وهو مجد الدين بن البقرى ، كان الأشرف قايتباي يكرهه . فترقب فرصة فيه ليطش به . وسنحت هذه الفرصة له حينما بلغه أن مجد الدين فرح هو وأهله في مقتل الأمير يشبك الدوادار أحد القواد العظام في ذلك الحين ، وأحد المقربين

إلى السلطان . فقبض عليه وأمر بقتله فقتل . (ج ٢ ص ٢٤٩)

٤ - (١) وفي يوم الأحد ١٤ ربيع الأول عام ٩٠٨ هـ ، رسم السلطان الغورى بشنق رجل من أهل حلب لم يستطع أن يدفع مالا فرض عليه . فشنق على باب زويلة .

٥ - وفي سنة ٩١٢ هـ : ازداد ظلم الأمير طراباي ، رأس نوبة النوب . وأطلقت يده في بلاد وفي بيوت وغيرها ، يستولى على ما فيها من الأوقاف ويأمر بحلبها والتصرف فيها توا ، يأخذ منها ما يشاء بأجنس الأثمان . وكل من امتنع وعارضه يضرب ضربا مجهدا ويحجر عليه . ومن هؤلاء شخص يدعى « يونس ابن جانم الزردكاش » ، أخذ منه بيت أبيه - وكان في زقاق حلب - فامتنع من تسليمه فضربه ضربا مؤلما . وغيره كثير ون .

٦ - ومن الحوادث في المحرم عام ٩١٣ هـ أن ضرب الأمير « أرزمك الناشف » وهو أحد المقدمين ، شخصا من النوتية ، حتى مات من شدة الضرب . وكان سبب ذلك أن النوتي حمل إلى هذا الأمير بضاعة فوصلته ناقصة ... فلها مات شكاً أولاده للسلطان الغورى فتعاضى عن ذلك ، وأشار على الأمير أرزمك أن يرضى أولاد المقتول ، وذهبت دماؤه عبثا .

٧ - ومن حوادث شهر رجب عام ٩١٥ هـ . أن « قرقاس » المقرئ أحد أمراء العشرة ، سرق من منزله بزقاق الكحل عملة بألف دينار ، فقبض على جيران الحارة أجمعين وسلمهم لوالى القاهرة فعاقبهم أشد عقوبة وغرمهم أضعاف ماسروق . ومن بينهم أسر مجيدة كأسرة البقرى .

ثم اتضح في أواخر المحرم عام ٩١٦ هـ أن سارق هذه العملة مملوك هذا الأمير وهرب بها إلى الحجاز ، فقبض عليه وأعيد إلى القاهرة وسلم إلى سيده فضربه فاعترف . ثم إن جيران الأمير شكوه إلى السلطان فوبخه وطلب إليه أن يرضى هؤلاء الجيران ، ولكن بعد ما غرموا وضربوا وأوذوا ... فراضاهم .

وما دمننا بصدد ذكر ضروب الظلم والقسوة فلا مانع من أن نقول كلمة في أنواع التعذيب في هذا العصر وننوه بذكر السجون الشهيرة .
وقبل أن ننوه بذكر التعذيب والسجون نرى لزاما علينا الاعتراف بأنهما أمران ضروريان للدولة حتى تصان الحقوق من العبث وتحفظ الأرواح من الاعتداء عليهما . وهما أمر مشروع فقد أمر الله بقتل الفاتل وقطع يد السارق وحبس المدين وهلم جرا . وقال جل شأنه : **ولسكم في القصاص حياة يا أولى الألباب** .
وكل الذي نحمل عليه هو أن يبدو في العقوبة الرغبة الأولية في الإيذاء ، ويبدو فيها القسوة والتشيل البشع وهكذا . وهناك حوادث سنقصها منقولة من تاريخ هذا العصر تدل على القسوة في العقوبة ، والافتنان في التعذيب ، ومن ذلك ما يلي :

الإعدام والتعذيب :

كان للإعدام طرق شتى : منها حز الرأس ثم وضعه أحيانا فوق حامل لإشهاره في المدينة ، وقد ينادى عليه ويسار به في شوارعها ويقال أمامه : **« هذا جزاء من خالف السلطان »** ، وهذا جزاء من صنع كذا . ويقوم بهذه المنادة عادة عدد من حملة المشاعل ويوقدونها إذا كان الوقت ليلا .

ومن طرق الإعدام : **« التوسيط »** وهو على ما جاء في شرح سلوك المقریزی - ضرب وسط المحكوم عليه بالسيف بعد طرحه أرضا . ومنها استخدام الخازوق ، وهو - كما شرحه صاحب كتاب **« تاريخ حماة »** - عبارة عن عمود طويل رأسه مخروط الشكل يغرز في الأرض كأحد عمد السلك البرقي ، يوضع الرجل عليه محمولا ، ويدخل رأس الخازوق في مقعده . ثم يترك على هذه الحال مدة ثم يجذب بعنف حتى يدخل جوفه . - ومنها . الشنق بالحبال ، فبعد أن يعلق المتهم على حامل مرتفع ويوضع الحبل في رقبته يخلى بينه وبين الأرض فيهوى مختنقا فيموت . ومنها أيضا الإغراق في النهر . ومنها الخنق في السجن .

ومن طرق التعذيب : التسمير في الأخشاب وهو مثل الصلب ، ثم وضع المسمرين فوق الدواب وإشهارهم في شوارع المدينة ، والمنادة عليهم بأنهم فعلوا كذا وكذا .

ومنها الاعتقال والسجن والقيد في الحديد والضرب بالمقارع . ومنها ضرب الجسد عاريا . ومنها قيد الأرجل والضغط عليها وإيلامها بآلات تسمى « المعاصير » و « السكسارات » ، وكذلك كانت تعصر الأصداع والأيدي . ومنها إحراق الأصابع بالنار ، ومنها وضع خوذة حديدية أو نحاسية في النار ثم تثبت على رأس المتهم . . .

هذا وكان أعوان السلطان يقومون بتنفيذ ما يأمر به من العقوبة ، وربما أمر بتنفيذها أمام عينيه - وربما زاول هو بنفسه تنفيذها فضرب المتهم أوقته بيده . وإلى القارىء بعض الحوادث التاريخية الناطقة بما ذكرنا منها .

١ - في عام ٦٨٩ هـ ولي السلطان الأشرف خليل الملك ، وكان يكره نائب السلطنة الأمير « طرنتاي » ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة ثلاثة أيام ثم أمر بخنقه في السجن ، فخنق ودفن « ج ١ ص ١٢٢ » .

٢ - روى المقرئ أن الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كان مضجعه يسليه ، وهو جالس في بستانه ، إذ بدت منه بادرة أشعرت الناصر بأنه يتنقص عمله ، فأمر لوقته بربطه في الساقية عاريا ، وألهبت ظهور دوابها فأسرعت ، والمسكين يغرق في الماء آنا بعد آن حتى كاد يموت ، والناصر ينظر إليه ، ثم أطلقه ونفاه . « الخطط ج ١ ص ١٤٦ » .

٣ - في عام ٧٦٨ هـ : قبض السلطان الأشرف شعبان على الصاحب نخر الدين ابن قروينة وسلمه إلى الأمير قرايغا الصرغتمشى فما زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل إنه أحرق أصابعه بالنار ، وأحس له خوذة في النار والبسماله حتى مات . « ج ١ ص ٢٢٠ » .

٤ - وفي عام ٧٨٨ هـ قبض السلطان برقوق على القاضي موفق الدين أبي الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، وضربه مائة وخمسين عصا كما ضرب القاضي تقي الدين ابن محب الدين التيمي . « ج ١ ص ٢٦٤ » .

٥ - لما تولى فرج بن برقوق عرش البلاد شق عليه عصا الطاعة الأمير « تم » ،

نائب الشام وانضم إليه عدد ضخم من الأمراء والنواب والجند ، خفف إليه السلطان فرج عام ٨٠٢ هـ ، وهزمه هو وأتباعه وقبض على كثيرين منهم . وقتل نحو أربعة عشر أميراً ، ذبحوا كلهم ببرج الحمام بقلعة دمشق . وكان من بينهم الأتابكي إيتمش البجاسي ، والأمير « فارس » ، حاجب الحجاب ، فبعث السلطان رأس هذين الأميرين إلى القاهرة فطيف بهما في شوارعها ثم علقا على باب زويلة . ثم خنق « تنم » ، النائب من بعدهم أن استصنى أمواله ، وصادر ممتلكاته ، ودفعه إلى الاعتراف بما سلب من أموال البلاد . (ج ١ ص ٣٢٤ .)

٦ - وفي عام ٨١٢ هـ ازداد جور السلطان فرج بن برقوق على ممالك أبيه ، وخنق عليهم ، فشرّد بعضهم وأغرق الآخر ، ثم أنه أخذ يسفك دماءهم بملاروية ، وذلك أنه كان يسكر إلى نصف الليل ثم يخرج إلى حوش القلعة وهو سكران ، فيعرض عليه هؤلاء الممالك وهم في قيودهم الحديدية ويقدمون واحدا فواحدا ، فيقول . من هذا ؟ فيقولون له . فلان ! من الطبقة الفلانية فيقول : قدموه ، فيطاحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله ، وربما بال عليه أو صب فوقه النبيذ . (ج ١ ص ٣٥٣ .)

٧ - في عام ٨٧١ هـ أمر السلطان خشقدم بإغراق « يرش » ، خازن دار الأمير جاني بك نائب جده ، وكان شابا صغيرا فأسف الناس لإغراقه . (ج ٢ ص ٨١ .)

٨ - وفي الخميس ٢٩ ذى الحجة عام ٩١٧ هـ رسم الغوري بتسمير ثلاثة أشخاص قيل إنهم سرقوا حجة من حجراته ، تقوم بنحو مائتي دينار ، فسمروا ثم وسطوا أي أعدموا (١) .

٩ - في شهر جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ : ادعى رجل شامى دعوى كذب بأن جزيرة رودس فتحها المسلمون بلا حرب ولا قتال ، وألف في ذلك كتابا ، فصدق

(١) رقم ٨ وما بعده مرجعه ابن إياس ج ٤ حوادث تاريخ كل رقم .

السلطان ما جاء به ! . ثم اتضح كذبه بعد ذلك فأتى به وعرى وضرب بالمقارع وأرسل إلى المقشرة .

١٠ - في جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ قبض على رجل ينهب القبور ويستخرج لحوم الموتى ، ويبيع جماجمها للإفرنج فسمروا على جمل وأشهر في القاهرة ثم شنق .
١١ - وفي ذى القعدة عام ٩١٩ هـ ، ضبط أحد نواب الشافعية وهو « المشالى » مع زوجة أحد نواب الخنفية وهو « غرس الدين خليل » ، فضربهما حاجب الحجاب بالمقارع وأشهر في القاهرة والصليبية وقنطرة السباع . ثم حبسهما السلطان ورسم بشنقهما فشنقا وجها إلى وجه معا .

١٢ - وفي ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ : اعتدى خياط يقال له « نجا بن تمساح » على صبي صغير فأتلفه ، فاستغاث الصبي فخنق عليه الخياط فذبحه ورماه في بئر ، ثم شاع خبرهما ، فقبض على الجاني فاعترف ، فرسم السلطان بشنقه في المكان الذى قتل فيه الصبي . وقيل رسم السلطان بقطع مذاكيره وتعليقها فى عنقه وهو مشنوق . ففعلوا به ذلك . . .

ورسم السلطان فى حادثة مماثلة اتهم فيها طحان ، بأن يوضع على الخزوق . ففعلوا به ذلك .

١٣ - وفي جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ أخذ الزينى بركات فى تعذيب « شمس الدين بن عوض » ، وولده ، وبذل فى ذلك كل جهد مستطاع من ضرب كسارات وعصر أكماب وأصداغ وأيد ، وإحراق أصابع .
السجون الشهيرة :

تعددت السجون فى هذا العصر ، وبشده كل منهما عددا ضخما من المساجين ما بين أمراء عظام بل وملوك أجلاء ، وبين ممالك موظفين وجنود وعامة . ويبدو أنه كان فى كل مدينة كبرى سجن حصين ، وكان فى القاهرة وحدها عدة منها . ويبدو أيضا أن أمر الاعتقال فى السجون ومدته منوطان بإرادة السلطان وحده ، كما يبدو أن بعض السلاطين كان ينتهز فرصة رمضان فيعرض المساجين فى مستهل ثم يطلق

سراح بعضهم حسب مشيئته (١)

وننوه هنا بذكر بعض هذه السجون وبعض من أقام فيها باختصار فتقول :

١ - الحب : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلميا كثير الخفافيش كربه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ماهو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون في سنة ٦٨١ هـ ، فلم يزل إلى أن أقام الأمير بكتمر الساقى بحملة ضده لدى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم إلى الأبراج ، وردمه وأقام فوق أرضه طباقا في سنة ٧٢٩ هـ . وتم هدمه في يوم الاثنين ١٧ جمادى الأولى عام ٧٢٩ هـ . ومن ابتلى بالسجن فيه تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن أبى أصبع الحلبي .

« الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ - والسلوك ج ١ ص ٣١٠ - ابن إياس ج ٤ حوادث ربيع الآخر عام ٩١٩ هـ »

٢ - حبس المعونة : كان بالقاهرة ، استخدم سجننا منذ عصر الفاطميين ثم لما ولى الناصر محمد بن قلاوون أمر بهدمه . « الخطط ج ٣ ص ٣٠٥ »

٣ - خزانة شمائل : مكانها الآن جامع المؤيد شيخ بجوار باب زويلة « بوابة المتولى » . وهى منسوبة إلى الأمير « علم الدين شمائل » الذى كان من أتباع والى القاهرة فى العهد الأيوبي ، ثم اتصل بالملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب ، فأقامه واليا على القاهرة ، فبنى له هذا السجن ليسجن فيه من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ، ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة . وكان سجننا شنيعا قبيح المنظر ، وقد استمر مستخدما فى أداء هذه المهمة زمنا طويلا فى عهد المماليك ، حتى كان عصر المؤيد شيخ المحمودى ، وقد كان هذا السلطان فى جملة من حبس فى هذه الخزانة فى عهد السلطان برقوق ، وواقى فيها كثيرا من الأذى . فنذر إن من الله عليه بالخلاص منها ثم وصل إلى سلطنة مصر

(١) راجع ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٦ .

أن يهدمها ويبنى في مكانها مسجداً لله سبحانه وتعالى وقد من الله عليه بما أمل. فأمر بهدمها في يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٨ هـ ، وبني مكانها مسجده الشهير . ومن سجن فيها الأمير علاء الدين بن الطبرلاوى وإلى القاهرة في عهد برقوق . « ابن إياس ج ١ ص ٣١٣ ، ج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ ، الخطط المقرنية ج ٣ ص ٣٠٥ تحت عنوان « ذكر السجون » .

٤ - المقشرة : قال المقرئى : هذا السجن بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكى . كان يقشر فيه القمح ، ومن جملة برج من أبراج السور على يمنة الخارج من باب الفتوح ، استبعد بأعلاه دور لم نزل إلى أن هدمت خزانة شمائل ، فعين هذا البرج والمقشرة سجن أرباب الجرائم وهدمت الدور التى كانت هناك في شهر ربيع الأول سنة ٨٢٨ هـ وعمل البرج والمقشرة سجنًا . ونقل إليه أرباب الجرائم ، وهو من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسى فيه المسجونون من الغم والسكر ما لا يوصف .

هذا ، ومن سجن فيه « معين الدين بن شمس » وكيل بيت المال ، وأبو بكر بن مزهر كاتب السر فى أول زمن السلطان الغورى . وفيه عذب وضرب بالمقارع . « الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، وابن إياس ج ٤ حوادث المحرم عام ٩١٧ هـ ،

٥ - الحجرة : يبدو أنها كانت خاصة بالنساء . قال ابن إياس فى حوادث صفر عام ٩١٩ هـ : عرض السلطان محابيس « الحجرة » من النساء وأطلق من كان بها . « ابن إياس جزء ٤ حوادث صفر سنة ٩١٩ هـ ،

٦ - العرقانة : سجن فيه « على شرف الدين الصغير » ، كاتب الماليك ، وعلى شرف الدين النابلسى الاستادار ، وقررت عليهما غرامة ووضعوا فى الحديد ، وذلك فى ذى القعدة عام ٩١٦ هـ . « ابن إياس جزء ٤ حوادث القعدة سنة ٩١٦ هـ .

هذا وكان ثمة سجون أخرى فى الأقاليم هناك وأماكن أخرى ودور تستخدم سجوناً أحياناً فمنها :

١ - قلعة دمشق : وسجن بها كثيرون .

٢ - سجن السكر وهو في مدينة السكر شرق مصر . وسجن به كثيرون من أمراء وغيرهم ومنهم الملك السعيد بن بيبرس بعد خلعه . ومنهم الأمير « طقزدر ، نائب الشام ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون .
« ابن اياس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٣ - سجن الإسكندرية : شهد هذا السجن كثيراً من السلاطين المخلوعين والأمراء المغضوب عليهم . ومنهم الأمير « آل ملك » الذي كان نائباً للسلطنة ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان أيضاً .
« ابن اياس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٤ - سجن دمياط : شهد كذلك كثيراً من السلاطين المنفيين والأمراء المنبوذين ، ومنهم الأمير « قارى » ، استأدار العالية ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان كذلك .
« ابن اياس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٥ - سجن قوص : وكذلك هذا السجن . ومن سجن فيه السلطان المنصور أبو بكر هو وأخوه . سجنوا فيه بأمر الأتابكي « قوصون » ، لما استبد بالملك .
« ابن اياس جزء ١ ص ١٧٧ » .

٦ - الجامع الصغير : وهو موجود - كان - بداخل الحوش السلطان بالقلعة . استخدم أحياناً سجنًا ، ومن سجن فيه بأمر الغورى « شريف الدين يونس النابلسى » ، الذى كان أستاذارًا . ظل فيه ثلاث سنوات ثم أفرج عنه فى ١٦ شعبان عام ٩١٨ هـ .
« ابن اياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٨ هـ » .

٧ - بيت الوالى ، وبيت المحتسب : كثيراً ما كان يساق المحكوم عليهم ، وخاصة بغرامة مالية إلى بيت والى القاهرة أو بيت محتسبها حيث يسجنون ويعذبون حتى يستخلص منهم المال المقرر . ومن هذه البيوت البيت المحتسب الزينى بركات ابن موسى فى عهد الغورى ، ومن سجن وعذب فيه لذلك « شمس الدين بن عوض » .
« ابن اياس جزء ٤ حوادث ربيع الثانى سنة ٩٢٠ هـ » .

٨ - بيوت الأمراء : وكان يسجن فيها أحياناً المعتقلون « السياسيون » .

٤ - كثرة الفتن الداخلية :

لانغلو إذا قلنا إن شر آفة ابتليت بها مصر في هذا العصر ، هذه الفتن المحتمدة والمؤامرات المستعرة الواسعة النطاق، التي دبرها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر، أو دبرها بعض الأمراء ضد سلاطنتهم أو قام بها عدد من المماليك ضد ساداتهم من سلاطين أو أمراء .

وقد صحبت هذه الفتن حياة دولتي الممالك تقريبا ، ولاسيما الدولة الجركسية، وبما عاون على وجودها طريقة الحكم المتبعة . فقد غرست الآمال الواسعة في نفوس الأمراء والجنود ، وأوحت إلى كل بالأمان المعسولة في الوصول إلى العرش والسلطنة ، أو الاستحواذ على المال والجاه والنفوذ . فامتلات صدورهم هوى ، وأفعمت قلوبهم طمعا ، وصبت نفوسهم إلى استعجال الأمر ، فلم يجدوا بدا من إشعالها فتنة شعواء وثورة جاححة ، خبوا فيها ووضعوا وغامروا بحياتهم ، وقامروا بمستقبلهم ، ابتغاء أن تكون الورقة الراجعة من نصيبهم .

وبما ساعدهم على ذلك أيضا هذه الحزبية ، وهذه العصبية التي كانوا يؤلفونها حول أنفسهم ، فكل أمير له أتباعه وأخصاؤه ، وله مماليكه الذين اقتنأهم بماله وأمدهم بخيره وبره ، وألف من شتاتهم مجموعة قوية تتبعه وتتعصب له . وتأتمر بأمره وتنتهي بنهيه ، لأنه إنما ادخرها للملمات ، وملا قلوب أفرادها أملا قويا وطمعا .

وطبيعى أن تؤثر هذه الفتن والفتن والفتن في مرافق الحياة بالبلاد فترميها بسهم صائب من الإهمال فتصميمها . كما أنها تشغل بال السلاطين بإطفائها والقضاء على مثيريها ، عن أن يحسنوا القيام بشئون الدولة ، ويهيمنوا على أمورها ، كما أنها تطمع كل خارج على الدولة فيها ، وتوحي إلى أعدائها بالانقضاض عليها والانتقاص منها . وهذا هو ما حدث فعلا ، فإن هذه الفتن ظلت كالسوس تنخر في عظام الدولة حتى تداعت أركانها ، وقوض بنيانها ، وسقطت في يد العثمانيين نتيجة للأطماع غير المشروعة وعاقبة لاختلاف القلوب . .

وكثيراً ما أفلحت هذه الفتن فوصلت إلى غايتها فسلبت العرش من معتليه ، وفتكت بأرواح عدة ، وأسالت دماء كثيرة وأضاعت أموالاً وأضعفت جنداً . ولكننا نلاحظ فيها جميعاً بوجه التقريب أنه لم يكن يقصد منها إلى مصلحة عامة أو منفعة وطنية .

ونسوق فيما يلي أخباراً عن بعض هذه الفتن والمؤامرات ونتائجها ملمحين إليها فحسب إذ سبق ذكرها في تاريخ الملوك والأمراء في القسم الأول من هذا الجزء ، فمنها (١) .

١ - أول المؤامرات التي فتحت بها هذه السلسلة الطويلة منها : مؤامرة شجرة الدر على زوجها المعز بن أبيك ، أول سلاطين المماليك . فإنها بعد أن نزلت له عن الملك وتزوجها ، لقي منها ما أحزنه عليها . فغضبت منه في نفسها وأضرمت له السوء . واختارت له خمسة من خدامها أمرتهم بقتله واغتياله . فاقترحوا عليه حمامه وخنقوه على مرأى منها وهريستغيث بها فلم تغثه ، ويقبل يدها فلا تأبه له . وذلك عام ٦٥٥هـ .

٢ - المؤامرة التي قتل فيها بيبرس ، سلطانه المظفر قطز عقب انتصاره على التتار .

٣ - وفي سنة ٦٧٧هـ كان سلطان البلاد ، هو الملك السعيد محمد بركة خان بن بيبرس . خرج عن طاعته نائب الشام فهب لتأديبه وسافر إلى دمشق في جمع من الجند والأمراء . وهناك انضم بعضهم إلى نائب الشام بحجة أن السلطان يريد القبض عليهم ، فحارل هو وأمه لإصلاح الأمر بينهما فأبوا ، فجمع جموعاً من العربان وغيرهم وفرق عليهم أموالاً ليكونوا عوناً له على أعدائه . فمالوا أمواله ثم زال به منهم عدد كبير . فأخذ سمته عائداً إلى القاهرة ، فهم من فيها من الأمراء بلقائه وقتله ولكنهم أفلت منهم واحتسبوا بالقلعة . ثم سافر بين الفريقين الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسي ، بعد حروب بينهما دامت سبعة أيام ، فاضطر السلطان إلى النزول عن عرشه وسار إلى الكرك مسجوناً . ثم بايع الأمراء أخاه العادل سلامش .

(١) تراجع أخبار هذه الفتن والمؤامرات في مواضعها بالعمم الأول من هذا الكتاب ، وفي تراجع الأمراء .

٤ - ومنها المؤامرة التي دبرها الأمير « بيدرا » لقتل السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، وهو يرتاض ، وقد فتك به في عام ٦٩٣ هـ .

٥ - وفي عهد السلطنة الأولى للملك الناصر محمد بن قلاوون حدثت فتنة كبيرة بين نائب السلطنة الأمير كتبغا ، وبين الوزير سنجر الشجاعى . أثارها الشجاعى ودبرها السكى يخلوله الجو من كتبغا فيستبد هو بالسلطان لصغر سنه . فانقسم الماليك قسمين ، وشبت بينهما نار الحرب الداخلية عام ٦٩٣ هـ وظلت أياما ، وكانت عاقبتهم قتل الشجاعى وعزل الناصر ، وأيلولة الملك إلى الأمير كتبغا فتلقب بالعاذل .

٥ - وفي عام ٧٦٣ هـ وقعت فتنة حارة بين السلطان حسن بن الناصر ، وبين مملوكه « يلبغا » وكان هذا السلطان قد رقى مملوكه المذكور حتى أصبح فى مصاف عظماء الأمراء . فحسده كثير منهم على هذا الجاه ، ورشوا به إلى السلطان ، وأوقعوا بينهما العداوة والبغضاء ، فجمع كل منهما عصابته وكيده واقتتلا ، فانهزم السلطان حسن ، وكانت النتيجة أن قبض عليه ، وقيل إنه خنق بعد ذلك وآلت السلطنة إلى المنصور محمد ، ورقى « يلبغا » إلى منصب الأتابكية وأصبح صاحب الحل والعقد .

٦ - وابتلى السلطان برقوق بعداوة مملوكه « منطاش » ، الذى ظل زمنا طويلا يعيث فى الأرض فسادا طورا بمصر ، وطورا ببلاد الشام ، وكان سببا فى زوال سلطنة برقوق الأولى عام ٧٩١ هـ وارتقى السلطنة بعده أمير حاج ، وكان أتابكبه يلبغا الناصرى ، فاشتدت الشحناء بينه وبين « منطاش » ، ووقعت بينهما حروب هزم فيها يلبغا ، فقبض عليه « منطاش » وخلا له الجو ، وظل يكيد لبرقوق وهو فى سجنه بالسركك ، حتى أفل نجمه ، وعاد برقوق إلى السلطنة ، ففر منطاش إلى بلاد الشام عابثا بها حتى قبض عليه فانتحر .

٧ - وفى سنة ٨٠٠ هـ أخذ الأمير ، على باى ، فى السكيد للسلطان برقوق ، مع أنه مملوكه ، وهو الذى رقاها حتى صار رأس نوبة النوب ، وهى له كميننا من أتباعه

ليفتكروا به حين عودته من تخليق العمود في حفلة كسر السد ، ولكنه نبه عليه فلولى عنان فرسه مبتعدا عن هذا السكين ، فحق . على باى ، وكر على السلطان ومن معه بمن لديه من الجند والأتباع ، فترامى الفريقان ، ثم هزم « على باى » ثم قبض عليه بعد زمن ، وسيق إلى السلطان ، فسجنه ثم أخذ يسأله عن أموال لديه ، ثم حنق منه وذكّره بحديد في يده ففضى عليه . وكان سبب هذه الفتنة كما قال « على باى » ، أن السلطان لم ينصفه من عدوه الأمير « أقبای » .

٨ - وقد نوهنا في باب « الجور والعسف » ، بما ألحقه السلطان فرج بن برقوق بممالك أبيه من سجن وقتل وتعذيب جزاء لهم على خيانتهم له وإنكارهم نعمته .

٩ - ولما تولى الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ عرش مصر عام ٨٢٤ هـ ، كان رضيعا ، فاستبد به أتابكيه ططر ، ونزع منه الملك وتزوج أمه ، فما كان من أمه - على ما قيل - إلا أنها دست السم لهذا السلطان الجديد . . .

١٤ - ومن الفتن التي وقعت في عهد قايتباى ، تلك الفتنة التي كان يقوم بها المماليك الجلبان بين آن وآن . والعداوة التي شبت نارها بين « قانصوه خمسمائة » ، و « أقبردى الدوادار » ، والمماليك الجلبان .

١١ - وفي عام ٨٠٣ هـ غدر الأمير طومان باى بالسلطان الناصر بن قايتباى وأعد له كميناً بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقتل ساعة هنيئة ، ثم اغتاله . وعن أثار الفتن في عهد الناصر المذكور أيضا الأمير « قانصوه خمسمائة » ، حيث استعرت بين الفريقين نار حرب أهلية غشوم انهزم فيها قانصوه واختفى .

١٢ - ولما تولى الملك العادل طومان باى السلطنة ، كان ممن عاونوه على بلوغها معاونة صادقة الأمير « قوصروه » ، نائب الشام ولكن هذا السلطان خانته وفتك به دون جريرة فخقه عام ٨٠٦ هـ .

١٣ - وعن ابتلى بهم السلطان الغورى وأقلقوا باله وأقضوا مضجعه . المماليك الجلبان ، فقد أكثروا الفتن والمشاغبات وتعددت ثوراتهم بدعوى طلب أجورهم والسلطان يمتنهم تارة ويلالينهم تارة أخرى ، ويغلظ لهم القول آنا ، حتى هددهم

مرة بالنزول عن العرش وترك الأمور فوضى يزاولونها كما يشاءون ... وهم في كل مرة لا يزيدون إلا شراسة وعراما ، وما كانوا يهدون مرة إلا ليشوروا مرة أخرى وهكذا ... حتى كانوا من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة .

وفي يوم السبت ١١ المحرم عام ٩١٦ هـ ثاروا طلبا للنفقة المتأخرة ، وذهبوا إلى منزل الأتابكي قرقاس ومنزل غيره من الأمراء وأركبهم مكرهين ليفارضوا عنهم السلطان في أمرها ، فلما غضب عليهم ورفض مطالبهم تجمعت جموعهم وهجموا على حي الصليبية وسوق جامع ابن طولون ، وانضم إليهم لقيف من العامة وخرّبوا نحو ٥٧٠ دكانا ونهبوا ما يقدر بنحو عشرين ألف دينار . وحاولوا أن يقيموا الأمير « دولاباي » سلطانا . ولكنه فر منهم إلى السلطان . ثم سمعوا أن الأمراء يتجمعون للبطش بهم فتفرقوا وعادوا إلى طباقهم بالقلعة .

ومن ثوراتهم : ثورتهم في جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ وثورتهم في ٥ رجب عام ٩١٧ هـ ، وثورتهم في ذى الحجة عام ٩٢٠ هـ وثورتهم في مستهل رجب عام ٩٢١ هـ وفي شوال عام ٩٢١ هـ أيضا .

وكانوا في كل مرة يكرون ماصدر منهم في المرة الأولى من التهديد والوعيد والنهب والسلب والقتل . « ابن إياس ج ٤ »

ثورات العربان (١) :

ومما يتصل ذكره بذكر الفتن الداخلية ثورات العربان . فقد كان في داخل البلاد كثير من هؤلاء يقيمون في أنحاء متعددة منها ، الشرقية والغربية والبحرية والوجه القبلي ، وكذلك كان هناك عرب صحراء الشام ، وصحراء بلاد العرب . وإذا ثار هؤلاء اعتبرنا ثورتهم من الأمور الداخلية - وقد تعددت منهم الفتن وشغلوا السلاطين والأمراء زمنا بمكاختهم . ويغلب عليهم حب النهب والسلب والرغبة في الاستيلاء على ما بيد الأتراك من جاه ونفوذ . - وكثيرا ما كانوا يفتهمزون فرصة الفتن الداخلية بين الأمراء ، أو خروج الجنود المماليك إلى غزوة في الشام أو غيرها ، أو

هزيمة تصيب جيشا محتربا ، ثم يغيرون عليه أو على البلاد وفلاحها وزراعتها ، فيسلبون مالههم من قوت ودابة . وكذلك قد يدفعهم سلطان أو أمير بوسيلة ما فيعاونونه في قتاله . وكانوا في مهيشتهم أقرب إلى الاستقلال بشؤونهم منهم إلى اندماجهم في عداد الشعب ، ونشعر أنهم كانوا أكثر استقلالا واتباعا لتقاليدهم الخاصة في هذا العصر منهم في عصرنا الحديث ... وإلى القارىء نبذا من أخبارهم :

١ - في سنة ٦٥١ هـ ثار العربان ببلاد الصعيد والوجه البحرى ، وقطعوا الطريق برا وبحرا بقيادة الأمير الشريف د حصن الدين بن ثعلب ، وكان بناحية ددهروط صرّبان ، وهى ديروط الحالية بمديرية أسيوط - وقالوا : د نحن أصحاب البلاد ، وصرحوا بأنهم أحق بالملك من المالك ، وكفى أنهم عارنوا بنى أيوب ! ولكن ان يعاونوا عبيدهم

وتجمعت جموعهم من أماكن هدة حتى بلغت عدة فرسانهم ١٢ ألف ، ورجانهم لا تعد كثرة . فتجمع لهم الترك بقيادة الأميرين د فارس الدين أقطاى ، المتعرب د فارس الدين أقطاى ، الجدار وأوقعوا بهم فى ناحية د ذروّة ، وغيرها . وكذلك فعلوا بعرب الغربية والمنوفية من قبيلتى سنسبس ولواته . فقتلوا منهم وسلبوا وغنموا ، وأخذوا جذوة ثورتهم . وفر أميرهم د ابن ثعلب ، ثم طلب الأمان فأجيب إليه . ثم قبض عليه مع عدد من أصحابه وشنقوا جميعا إلا د ابن ثعلب ، فإنه سجن بالإسكندرية . « السلوك ج ١ ص ٣٨٦ »

٢ - وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد الناصر بن قلاوون اختلقت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة فأغاروا على أجرانها وأحرقوا ما فيها . فبعث إليهم السلطان حملة تأديبية بقيادة الأمير د بيبرس المنصورى الدوادار . فوصلوا إلى تروجه وكسروا العرب كسرة قوية ، فهربوا إلى الجبال . . وغنم جنود السلطان جمالهم وغنمهم وعددا من أولادهم ونسائهم . « ج ١ ص ١٢٢ »

وفي عام ٧١٣ هـ سافر الناصر محمد إلى بلاد الصعيد لاعتلال عربانها عليه ، فضيق عليهم الخناق حتى جلوا ورحلوا إلى الجبال ، ومات منهم كثيرون بالجوع والعطش ، وأسر منهم الناصر عددا كبيرا ساقه إلى القاهرة ، وسجنهم هناك واستخدم بعضهم في حفر الجسور .

وفي عام ٧١٦ هـ ثار عربان هذاب بأعلى الصعيد فجرد عليهم الناصر ألف مملوك بقيادة ستة أمراء مقدمين ، واسكنهم عادوا بلا طائل . « ج ١ ص ٢٥٩ ، ١٦٠ »

٣ - وفي عام ٧٥٤ هـ عهد سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ثار عربان الصعيد ثورة جاحقة ونشروا الفساد في أرجائه ونهبوا جميع الغلات وقتلوا عددا من العمال ، والتفوا حول كبير منهم اسمه « ابن الأحذب » شيخ قبيلة « عرك » ، واجتمعوا حوله جموعا كثيرة . فخرج إليهم السلطان بنفسه ومعه أمراؤه وجنده بقيادة الأمير « طاز » والأمير « شيخو العمرى » والأمير « صرغتمش الناصرى » . وأوقعوا بهم وقتلوا نحو نصفهم وقطعوا رؤوس كثير منهم . وعادوا ومعهم أسرى وغنائم عدة من خيل وجمال وأغنام وسيوف وغيرها . وما دخلوا بها القاهرة حتى أعدموا الأسرى وكانوا نحو سبعمائة . وقيل فر كثير من البقية إلى بلاد الزنج ... وبعد مدة طلب شيخهم ابن الأحذب الأمان من السلطان فأمنه وخلع عليه وأقره على مشيخته . « ج ١ ص ٢٠٠ »

٤ - وفي عام ٧٨١ هـ في عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، سطانحو خمسة آلاف عربى من عربان البحيرة بزعامة كبيرهم « بدر بن سلام » على مدينة دمنهور . ونهبوا أسواقها وبيوتها وما حولها من القرى . فبعث إليهم أتابكى العصر برقوق ، ثمانية من الأمراء المقدمين ومعهم نحو أربعمئة جندى . فخيموا في ناحية من البحيرة ، فهجم عليهم العربان ليلا . وكان الانراك قد أخذوا الحيلة لذلك ، فكروا عليهم كرة شتت شملهم وقتلوا نحو ألف منهم ، وأسروا عددا آخر من بينهم نساء وصغار ، وغنموا ما لديهم من دواب ومال . وهرب زعيمهم ، وعاد

الجنود إلى القاهرة بما معهم ظافرين^(١).

وقد عادوا إلى عصيانهم عام ٧٨٢ هـ فصار إليهم نحو ٥٠٠ جندي فهزمهم العرب ثم سار إليهم نائب الإسكندرية ومعه عربان من الغربية فهزموهم وانتصروا عليهم هذه المرة حتى فر كثير منهم إلى برقة. «ج ١ ص ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤».

٥ - وفي سنة ٨٠٤ هـ في عهد فرج بن برقوق اعتدى عربان بني عقبة على الحجاج ونهبوا ما معهم، فذكر عليهم أمير الحاج وأسر شيخهم «منجدين خاطر»، فهم السلطان فرج بقتله، فالتزم برد ما نهب، فظل أسيرا حتى رده.

«ج ١ ص ٣٤١، ٣٤٢»

٦ - وفي عام ٨٦٥ هـ في عهد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ثار عربان «لبيد»، ووصلوا إلى البحيرة وشنوا عليها الغارات ونهبوا الغلال. فبعث إليهم السلطان تجريدة. «ج ٢ ص ٦٧، ٦٨».

٧ - وفي عام ٨٧٠ هـ في عهد الملك خشقدم خرجت تجريدة إلى الجيزة بسبب عصيان العربان بها وثوراتهم، وكانت بقيادة الأمرين بلباى المؤيدى وبردبك هجين، فطردوهم وعادوا.

وفي عهد هذا الملك عام ٨٧٢ هـ ثار العربان بجحة العقبة وأفسدوا البلاد، فبعث إليهم جندا بقيادة الأمير «أزبك بن ططخ»، وثار كذلك عربان الصعيد فسارت إليهم جنود أخرى. «ج ٢ ص ٧٩، ٨١».

٨ - وفي عهد قايتباى حدثت من العربان جملة من الحوادث نلخصها فيما يلي.

١ - إنه في عام ٨٧٢ هـ تحالف عربان البحيرة على الخروج على السلطان، فوثبوا على بلادها وأحرقوا أجزائها ونهبوا بلاد المقطعين. فعين السلطان تجريدة لهم، وأخرى إلى الشرقية، وثالثة إلى الوجه القبلى بسبب ثورة عربان أولاد ابن عمر. وخلع على شيخ العرب «صقر»، وقرره شيخا لعربان البحيرة. - ولما كن جاءت

(١) للقم خلف القبارى الزجال زجل في هذه الواقعة تراهق باب الزجل بالجزء الرابع من هذا

الأخبار بهزيمة جند السلطان على يد «سوار» ملك الألبانيين ، فشغل السلطان بأمرهم عن التجاريد السالفة وعن إتمامها . « ج ٢ ص ٩٦ »

ب - وفي ذى الحجة عام ٨٧٥ هـ خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية «صقر ابن بقر» وقرره في مشيختها عوضا عن قريبه «عيسى بن بقر» الذي سجن بالمقشرة بعد ضربه ضربا مبرحا بين يدى السلطان . وبعث الأميرين «تمرا» حاجب الحجاب و «قانسوة» الخفيف ، الإينالى ليسيرا إلى الشرقية بسبب فساد عربانها ، وأمرهما بالقبض على كل من يجدرنه من بنى سعد وبنى وائل . وقد عاد حاجب الحجاب المذكور في صفر عام ٨٧٦ هـ ، وقد قبض على جماعة من المفسدين وفيهم «موسى بن عمران» وآخر اسمه «طاجن» وجماعة من بنى سعد وبنى وائل . فرسم السلطان بإعدامهم . فكان ذلك سببا في أن عاود عربان الشرقية الثورة ، لذلك عاد إليهم حاجب الحجاب لتأديبهم مرة أخرى . - إلا أن فسادهم زاد وعيهم استشرى ، وخاصة في ذى الحجة من العام المذكور ، إذ ثار عربان بنى حرام وبنى وائل بالشرقية وأفسدوا أمورها على السلطان ، وزحفوا على القاهرة حتى بلغوا حى الحسينية ونهبوا حيوانيتها وسلبوا سكانها أثوابهم ، وعبثوا بها ساعات ثم عادوا . فجهز لهم قايتباى حملة تأديبية بها عدد من الأمراء الكبار «أزبك بن ططخ» و «قانى بك قلعسير» و «أزدمر الطويل» . فموا سراعا إلى الشرقية ، وعاد أزبك بعد قليل ومعه عدد من أسراهم فسيجنوا بالمقشرة . وأقام بقية الأمراء زمنا في الشرقية لإصلاحها وتطهيرها من هذا الفساد .

ومالبت عربان البحيرة أن ثاروا مرة جديدة في صفر عام ٨٧٧ هـ فأدبهم أزبك بن ططخ وأسر عددا منهم سجنوا بالمقشرة . وماهدأت هذه الفتنة حتى جددتها عرب الشرقية من بنى وائل وبنى حرام ، فخرج لتأديبهم الأمير «يشبك الدوادار» ، وذلك في شوال عام ٨٧٩ هـ . وفي ذى القعدة من العام نفسه هجم عرب عزالة على ضواحي الجيزة ونهبوا خيول المماليك وقتلوا جماعة من الغلمان وأطلقوا من كان في السجن ، فجرد عليهم السلطان عددا من الجند فلم يظفروا منهم بطائل . ولكن لم

يلبث بعد قليل ان وفد على السلطان خلال عام ٨٨٠ هـ شيخ العربان «مينا بن عطية»
رأس المفسدين ، وشفع فيه بعضهم ، فأمنه السلطان وعفا عنه فدخل تحت طاعته .
« ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ إلى ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ »

ج - هدأت فتن العربان حينما حتى كانت أواخر عام ٨٨٢ هـ حيث ثار عرب
« هواره » ، في بلاد الصعيد ومعه « يونس بن عمر » ، في وجه كاشف الوجه القبلي
« برسباي » ، ووقع بين الفريقين معركة دموية حارة قتل فيها كثير من الجند وكسر
الكاشف كسرة قاسية . فهم السلطان قايتباي بالسفر إلى الوجه القبلي لتأديبهم
- وكان حينئذ يرتاض بالفيوم - فنعه الأمراء ، فأخذ يحث الأمير « يشبك » الدوادار
على الخروج إليهم - وكان مريضا - فخرج بعد قليل ومعه جماعة كثيفة من الجنود .
فقبض على يونس بن عمر الهواري ، بعد أن تتبعه إلى بلاد النوبة ثم قطع رأسه
وبعته إلى القاهرة فطيف به ثم علقه على باب زويلة أياما . وكذلك قبض على أخيه
أحمد وعلى فئة كثيرة من أتباعه . ثم عاد في جمادى الأولى عام ٨٨٣ هـ ومعه أسراه فأمر
ببعضهم فأعدموا ، وبالبعض الآخر فسجن . وفي ذى القعدة عام ٨٩١ هـ أمر السلطان
بإعدام « عبد العزيز بن عمر الهواري » المعروف بعزوز ، وجماعة من أقاربه .

« ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٠ »

د - وفي شهر شعبان من العام نفسه ٨٨٣ هـ ، أطلق السلطان سراح شيخ العرب
« محمد بن عجلان » ، وكان منذ عشر سنوات مقيما في السجن بالقلعة في البرج . فأفرج
عنه وخلع عليه وأعادته إلى مشيخته بالشرقية .
« ج ٢ ص ١٨٤ »

هـ - وثار بعد ذلك عرب الأحامدة بالوجه القبلي أيضا فسار الأمير « أقبردى
الدوادار » إليهم وأدبهم خير تأديب وأسر منهم عددا وقتل عددا آخر . وعذبهم
تعديبا شديدا ودفن بعضهم أحياء ، وباع بعضهم بيع الأرقاء ، وقد بلغت أخبار
نصرته مدينة القاهرة في جمادى الأولى عام ٨٩٢ هـ وطهر بلاد الصعيد منهم .

« ج ٢ ص ٢٤٣ »

٨ - وفي عصر الناصر بن قايتباى وقعت فتنة « قانصوه خمسمائة » واضطربت القاهرة بمن فيها عام ٧٠٢ هـ ، فانهزى عرب الشرقية والغربية هذه الفرصة وعاثوا فى أرجائهما فسادا وقطعوا الطرق حتى اعتاص السفر إليها من القاهرة . وفى العام نفسه بعد قليل هبت فتنة كبيرة بين فريقين من عربان الصعيد أحدهما بزعامه « حمد بن عمر » أمير هواة ، والثانى بزعامه « إبراهيم » الهوارى . وهبت الشحنة كذلك بين بنى حرام وبنى وائل . ولذلك ظل « أقبردى » ببلاد الصعيد زمنا ليقضى على هذه الفتن ، ثم عاد بعد قليل إلى القاهرة . « ج ٢ ص ٢١٢ ، ٣٢٢ »

وفى شوال عام ٩٠٤ هـ يوم عيد الفطر جاءت الأخبار بأن عربان « عزالة » ثاروا فى وجه كاشف البحيرة فخاربهم ، ففروا منه وعبروا النيل من « الوراق » ، واتجهوا قريبا من « شبرا » ثم توجهوا من خلف الجبل الأحمر إلى ناحية « طرا » ، فالمعصرة ، حيث ضربوا خيامهم . فجرد عليهم السلطان الناصر بن قايتباى تجريدة بها عدد كبير من الأمراء الكبار منهم « قانصوه البرجى » أمير المجلس و « قرقماس بن ولى الدين » رأس النوبة و « قيت الرجبى » حاجب الحجاب و « سنبلى » نائب سيس وأحد المقدمين ، و « طراباى الشربى » الدوادار الثانى ، ومعهم عدد ضخم من الجنود . واتجهت الحملة فى اليوم نفسه إلى المعصرة ، حيث التقت بعرب « عزالة » ، فاقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزم فيه جنود السلطان هزيمة منكرة وقتل منهم نحو خمسين ، ومن غلمانهم نحو خمسين ، وجرح « قرقماس » و « قيت » و « طراباى » ، ونهب العرب مامعهم وحملوا أمتعتهم وفروا إلى بلاد الصعيد . وعادت فلول الحملة إلى القاهرة فاشتد فيها النواح والعويل . . .

وقد خفف من هذا المصاب ووقعه أن كان الأمير « طومان باى » الدوادار - وهو الذى ملك فيها باسم العادل - كان فى ناحية الصعيد وسمع بأخبار هذه الهزيمة فجمع جنوده وبعث بها عرب عزالة وشتت شملهم وأسر منهم نحو ثلاثمائة إنسان من رجال ونساء وأطفال ، وعاد بهم إلى القاهرة ، فطيف بهم فى الحديد والحبال بعد أن رسم السلطان بتسميرهم ووضعهم على الجمال ، ثم أمر الناس برجمهم بالأحجار .

وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتوني زجلا في هذه الموقعة ، فانظره في الجزء الرابع من كتابنا هذا بعون الله .
« ج ٢ ص ٣٥٦ إلى ٣٥٨ »

٩ - وفي عصر السلطان الغورى وقعت من العربان جملة حوادث نلخصها فيما يلي :

١ - في عام ٩٠٧ هـ اعتاص على السلطان أمر عرب الشرقية . فبعث إليهم في شهر شعبان الأمير ، قانصوه بن سلطان جر كس ، كاشفا . فلم يستطع هذا الكاشف أن يتفاهم معهم ، وازدادوا عصياناً فوق عصيانهم ، وتندروا على هذا الكاشف وسموه « هات ابن » - ويظهر أنه كان يكثر من ترديد هذه الكلمة لهم - فلبث فيهم أربعين يوما ، ثم عاد بغير جدوى .

وفي أواخر العام نفسه اعتدى عربان مكة بزعامة « الجازاني » على ركبى الحاج المصرى والشامى وقتلوا عددا من رجالها ونهبوا المال وعروا النساء من ثيابهن . وعاد الحجاج في أوائل عام ٨٠٩ هـ على أسوأ حال . ولذلك أعد لهم السلطان حملة مكونة من ستمائة مملوك رافقوا المحمل في خروجه من القاهرة في شوال عام ٩٠٨ هـ .

وفي ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ ازداد شر عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد وكادوا يملكون البلاد من أيدي مقاطعها ، فجرد عليهم الغورى حملات عدة بقيادة أمراء ، هزم بعضها فأمدده ، حتى كسروا شوكتهم بكل مكان وأثخنوا فيهم حتى قيل قتل منهم نحو ألفين ، وقيل كان الأمير « طراباى » ينشر بعضهم بالمنشار من الرأس إلى القدم . وقطعت رؤوس شبانهم وأرسلت إلى القاهرة في تبن على جمال . ثم عاد الأمراء في صفر عام ٩٠٩ هـ .

وقبلها في المحرم عام ٩٠٩ هـ قبض على أحد عصاة العرب الكبار واسمه « علاء الدين بن قرطام » من بنى حرام في جبل الطور ، قبض عليه « نجم » أحد مشايخ العربان . فقطع هو رأسه وبعثه إلى القاهرة . فطيف به وعلق على باب زويلة .

وفي القعدة عام ٩٠٩ أيضا أرسل « إقبای الكاشف » رأس أعرابي شرير من عربان الشرقية كان من العصاة واسمه « ابن بيسار » فعلق كذلك على باب زويلة . ثم بعث شخصاً آخر من العصاة أيضا اسمه « ابن بهيج » فرسم السلطان بشنقه على باب النصر .

وفي شهر رجب عام ٩١٠ هـ خلع السلطان على شيخ العرب « بيبس بن بقر » وأعادته إلى شياخة العرب كما كان - وأقر « أقبای » في كشف الشرقية ليمهدا من الثائرين فيها من العربان بهمته المعروفة .

وفي شوال ٩١١ هـ جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان « بنى إبراهيم » قد التفوا على « يحيى بن سبع » أمير ينبع - وهو الذى عينه في تلك الإمارة السلطان الناصر بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ . والتفوا كذلك حول « مالك بن رومى » أمير خليص . وعقدوا النية على الثورة والفتنة والفساد ، ولهذه الأسباب أبطل السلطان الحج في هذا العام .

وفي ذى الحجة عام ٩١١ هـ وقعت فتنة هائلة بين شيخ العرب « بيبس بن بقر » وبين « نجم » شيخ العابد . فقتل فيها عدد كبير وفر من وجههم « أقطوه » الكاشف بالشرقية . واستمرت الفتن زمنا حتى وردت الأخبار إلى القاهرة في ربيع الأول عام ٩١٢ هـ بأن العربان العصاة المذكورين قطعوا جسور الماء على الأجران حتى غرقت . وكان النيل قد أشرف على الوفاء - وفي ربيع الثانى عام ٩١٢ هـ جاءت أخبار الكرك بأن عربان « بنى لام » هزموا نائب القدس وقتلوا عددا من المماليك السلطانية . فحنق الغورى وبعث إلى نائب الشام ونائب طرابلس بقتال « بنى لام » . وبينما هؤلاء فى عبثهم إذ جاءت أخبار عربان الشرقية فى شوال عام ٩١٢ هـ كذلك بأنهم قطعوا طريق المحلة ونهبوا ما فيه وفى جملة أهوال للسلطان - وفى ٢٤ من الشهر المذكور حضر إلى القاهرة « خاير بك المعمار » ومعه خمسون رأساً ممن قتل من العربان من « بنى إبراهيم » ، فأنعم عليه السلطان .

ثم طيف بهذه الرءوس ونودى عليها : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج » ، ثم علقت على أبواب القاهرة . ثم رسم السلطان الأمير « أزدمر » بالدواوير ، بالخروج على حين غفلة لبياعت عربان « بنى لام » ، فى السكر و نابلس فخرج ومعه نحو خمسمائة جندى .

وفى ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد إلى القاهرة عدة من الهجانة وأخبروا أن الجند السلطانية برئاسة « خاير بك » انتصروا على « يحيى بن سبع » ، بالقرب من ينبع . وهو الذى ثار فى العام الفائت ووجه إليه السلطان هذه الحملة .. فقتل من الفريقين عدد كبير ، ثم انتصرت الجنود المصرية ، وفر « يحيى بن سبع » .

أما ثورة عربان الشرقية فقد شغلت بال السلطان وجرد عليها الحملة تلو الحملة بغير جدوى ، ثم قبض على « أحمد بن منها » شيخ بنى وائل بعد أن هرب من السجن وقتل السجنان . ورسم السلطان بشنقه ، فسمر هو وأقاربه وطيف بهم فى القاهرة ، ثم شفقوا على باب النصر فى ربيع الأول سنة ٩١٣ هـ .

وفى ١٤ ربيع الأول عام ٩١٣ هـ جاءت الأخبار من عند الأمير « أزدمر » الدوادار أنه لما وصل إلى السكر و نابلس قاتل عربان « بنى لام » ، الذين كانوا من عصابة « يحيى بن سبع » ، فانتصر عليهم وقتل منهم عددا ضخما .

وقبض على « عبيد بن أبى الشوارب » ، أحد كبار العربان المفسدين ، وكذلك قبض على « قاسم الغريب » ، أحد أشرار عربان الشرقية ورسم السلطان بإعدامهما فى ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٣ هـ .. وخلع على شيخ العرب « عبد الدايم بن أبى الشوارب » ، وقرره فى مشيخة العرب بالقليوبية .

وفى رجب عام ٩١٤ هـ وفد إلى الأبواب السلطانية « ابن يحيى بن سبع » ، ذلك العربى النائر على السلطان من أعوام . فطلب السلطان إليه أن يخاطب والده فى المشول بين يديه ، وأعطاه ماشاء من الأمان . - ولما نزل هذا الابن من لدن السلطان كاد العوام يفتكون به لأن أباه وجماعته نهبوا مال الحجاج . ولكن الأمراء تقدمت لحمايته منهم ، ورسم السلطان ألا يتعرض له إنسان وإلا قتل . وقد فسر

العوام هذا الأمر بأن السلطان تسلم منه مالا ! وبذلك سكت عن محاسبته عن أموال الحجاج فضاعت هباء . . .

وفي رمضان عام ٩١٤ هـ وفد إلى القاهرة كاشف الشرقية ومعه شيخ العرب « عبد الدايم » بن الأمير « أحمد بن بقر » وقد قبض عليه بحيلة . وكان عاصيا مفسدا ، فرسم السلطان بتقييده وإيداعه في البرج مسجوناً .

وفي جمادى الآخرة عام ٩١٦ هـ رسم السلطان بشنق أحد العربان المفسدين واسمه « عمر بن موسى » النفعى من عربان ثعلبة . وكان شجاعاً .

ولما فر « يحيى بن سبع » من وجه السلطان وجنوده عام ٩١٢ هـ أقام السلطان أميراً لينبع بدلاً منه وهو « هجار » . ثم توفى هذا الأمير عام ٩١٧ هـ فخاول « يحيى ابن سبع » أن يعود إلى إمارته برض السلطان وعين ابن عم المتوفى واسمه « أجود ابن مسقار » في ١٤ صفر من العام المذكور .

وفي الخميس ١٤ ربيع الآخرة عام ٩١٧ هـ قبض نائب الغيبة بالشرقية على عربي مفسد يقال له « أحمد بن شكر » فسلخ جلده وحشاه تبناً وأرسله إلى السلطان ! ..

وفي الثلاثاء ٢٦ المحرم عام ٩١٨ هـ وردت أخبار عربان البحيرة واتفاقهم على الثورة والعصيان . وقيل تحالفت على ذلك منهم سبع طوائف . فأمر السلطان بعض الأمراء بالخروج إليهم ، فما طلوا وتباطؤوا حتى حنق السلطان عليهم ، وعزم على الخروج إليهم بنفسه . وظل يعرض الجنود آناً بعد آناً . حتى تواتت الأخبار في يوم الجمعة ٢٩ منه بأن عرب « عزالة » وغيرهم من العربان قد أظهروا العصيان وزحفوا على البلاد بالبحيرة ، وأفسدوا الزروع ونهبوا الغلال وأنهم ضيقوا الخناق على شيخ العرب « الجويلي » . وأنهم طردوا كاشف المنوفية وغيره من البلاد . فبعث إليهم السلطان تجريدة بها من الأمراء الأمير « طومان باي » ، الدوادر الكبير ، وأمدهم السلطان بحملة من الجنود فخرجوا لتأديبهم . ثم عاد طومان باي في ١٦ صفر عام ٩١٨ هـ . ورسم لبعض الجنود بالإقامة بالبحيرة زمناً حتى يتم وفاء النيل .

وفي السبت ٢٨ صفر عام ٩١٨ هـ أرسل الأمير قانصوه بن سلطان جركس، الذي توجه إلى الصعيد، ثمانية رموس من عرب « عزالة »، منهم شخص يسمى « حضير بن كروان »، وكان من كبار المفسدين .

وفي ٥ جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ وفد على السلطان الأمير « بيبرس » بن الأمير « أحمد بن بقر »، شيخ العرب فخلع عليه ورضى عنه - وكان عاصيا منذ أمد .

وفي ٤ ذى الحجة عام ٩١٨ هـ رسم السلطان بشنق « ابن حمادة »، شيخ العرب بالقليلية، فشنق على قنطرة الحاجب .

وفي الثلاثاء ٤ ربيع الأول عام ٩١٩ هـ بعث السلطان طائفة من الجنود إلى الغربية لفساد عربانها الذين قتلوا كاشفها .

وفي شهر ربيع الأول عام ٩٢٠ هـ أخبر أن عرب « عزالة »، نزلوا بالقرب من البدرشين، فركب إليهم الأمير « طومان باي »، وجأهم بها وقبض على عدد منهم وسبقوا إلى القاهرة، فسجنوا في المقشرة وخيف من أن يحكم عليهم بالشنق لثلاثين نهب أقر باؤهم إقليم الجيزة جميعه انتقاما لهم .

وفي شعبان عام ٩٢٢ هـ عاث عربان « بنى عطية »، و « النعائم »، بضياح الشرقية ونهبوا منها نحو أربعمئة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار طومان باي . ودخلوا وادى العباسية . فخرج إليهم الدوادار المذكور ومعه خمسمئة مملوك وجأهم، فهربوا من وجهه بما غنموه . فعاد إلى القاهرة، وما لبث العربان أن عاثوا مرة أخرى في بلاد الشرقية وغيرها وسرقوا كثيرا من مواشيها وحلى نساءها وقتلوا من فلاحها عددا كبيرا - وكان هذا الفساد أيام شاعت أخبار انهكسار الجيش المصرى أمام العثمانيين، وعلم أن الغورى قد قتل فانتهم هؤلاء الناس الفرصة، وقطعوا الطرق وسلبوا المارة وتلبسوا الفارين من الجنود العائدين إلى الوطن فنهبوا مامعهم وقتلوا من قتلوا . . فكان ذلك أحد أسباب القوضى الضاربة في البلاد إثر هذه الهزيمة : « تراجع هذه الحوادث في الجزء الرابع والخامس من تاريخ ابن اياس في أخبار التواريخ المذكورة » .

٥ - الزلازل والطواعين والقحط والغلاء :

فشئت في مصر في هذا العصر جملة من الزلازل والأوبئة ، وضروب من القحط وسنون من الغلاء ، زادت في شقاء الناس ، وأطالت تعسهم . ولا بد للسلطين ولا لأمرائهم في هذه الحوادث إلا قليلا . ولكنها كانت من سيئات ما أصيب به الناس في أيام حكمهم . ونشعر أنهم لو طورا من بينهم هذه الشحنة واللجاجة في البغضاء ولووا عنان عنايتهم إلى مرافق الشعب الحيوية لأمكنهم إلى حد ما تخفيف هذه الويلات الطبيعية عن المصابين بها .

ولسكنهم - والحق يقال - عنوا بعض العناية بهذه الحوادث بعد نزولها ، فرموا من الأبنية ما تهدم ، وبنوا المستشفيات للمرضى والمصابين . وأقاموا المغاسل للأموات . وتبرعوا بالأموال والكسب والأطعمة للمسكوبين ومدوا يد المعونة للأسر المفجوعة . وهكذا . . صنعوا ضروبا من المروءة والجميل مما نشير إليه في الحوادث التالية . والآن نسرّد بعض هذه الحوادث ليكون القارىء على ذكر منها . فنها :

١ - الزلازل :

١ - في عام ٥٧٠٢ هـ في عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، حدثت زلزلة عظيمة في ٢٣ من ذى الحجة وشعر بها الناس في أماكن عدة وخاصة في مدينة الإسكندرية ، إذ هدمت سورها وسبعة عشر من أبراجها وجزءا من منارتها وأربعين من مآذنها ، وقاض من جرائها ماء بحرها وطغى على بساطينها - وهدم أكثر جدران الجامع الحاكمي ، ومئذنة المدرسة المنصورية ، ومئذنة جامع الظاهر بالشواين ، ومئذنة جامع الصالح بباب زويلة ، وبعض جدران جامع عمرو بن العاص ، وأحدثت شقوقا في جبل المقطم ، وأسقطت كثيرا من الدور . وهلك من جراء ذلك كثير من الناس . وأخذت الزلزلة تعاودهم في مدى عشرين يوما ، حتى ظنوا أنها القيامة . . . فخرجوا من دورهم إلى العراء وأقاموا في الصحراء ، حتى هدأت الاهتزازات . وهبت في عقبها ريح سوداء لافحة لم يطقها كثير من الناس ، فأغشى عليهم . وأصاب

هذه الزلزة دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثيرا من البلاد الشامية .

وقد اهتم الأمراء بترميم المساجد والأبراج والأبنية التي تهدمت ، وشرعوا في إصلاحها عام ٧٠٣ .

قال المقرئ في سلوكه يصف هذه الزلزة ما ملخصه : « أنها بدأت عند صلاة الصبح فاهتزت الأرض كلها وقعقت الحيطان وصوتت السقوف ، وسقط الماشي والراكب ، وخيل للناس أن السماء انطبقت على الأرض . فثأ قلوب الناس الفزع ، وهرعوا إلى الطرقات ومعهم النساء غير متسترات والكل يعول ويصيح . ووضع الحوامل . وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس . وأعقبها ريح عاصفة وفاض النيل وقذف بما فيه من السفن بعيدا عن الشاطئ . وسرق من الدور كثير من المتاع . ولم تسكد دار بمصر تسلم من الهدم . وتهدمت مدينة سخا ، وانشق منار الإسكندرية وتهدم جزء منه كبير . وفاض بها البحر وقذف سفينة بعيداً عن شاطئه ، وخربت ضيعتان بالشرقية .

وأصيبت مدينة قوص . واكتسحت الرياح دورا عدة ومواقع من الأرض كثيرة ، وحتى بان من تحتها عمائر مطمورة . وتهدم بعض جامع عمرو وجامع الحاكم والأزهر ، فقام بترميمها جميعا الأمير «سلار» النائب وعادته في ترميم الأزهر الأمير سنقر الأعسر . وتهدم مساجد أخرى وأمكنة أخرى ثم قام الأمراء بإصلاحها . وقد مات في هذه الحوادث خلائق لا تحصى .

« ج ١ ص ١٤٦ - سلوك المقرئ جزء ١ ص ٩٤٢ »

٢ - وفي رجب عام ٨٨١ هـ في عهد قايتباي وقع بالقاهرة زلزة أخرى في الليل تهدم بسببها بعض الأماكن . « ج ٢ ص ١٦٧ »

٣ - وفي ١٧ المحرم عام ٨٨٦ هـ في عهد قايتباي أيضا حدث بمصر زلزة هائلة مادت بها الأرض والمآذن . وسمع لذلك دوى عظيم وخاف الناس فهبوا مذعورين خارج المنازل ، ومعهم النساء حاسرات ، وتوفي بسببها خلق منهم : قاضي القضاة شرف الدين بن عيد الحنفي ، سقط عليه ما أهلكه . « ج ٢ ص ٢٠٣ »

٤ - في عهد الغورى عام ٩١٦ هـ في يوم الجمعة ٧ ذى الحجة وقعت زلزلة خفيفة ارتجت لها الأرض ولم يشعر بذلك إلا قليل من الناس .

ب - الطواعين والأوبئة^(١)

١ - في عام ٦٧١ هـ حدث وباء قتل به كثير من الناس ، وظل نحو ستة أشهر .
« ج ١ ص ١٠٨ »

٢ - في عام ٧٤٩ هـ في عهد الناصر حسن بن الناصر محمد وقع طاعون جارف . قيل مات به في شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان . وقيل كان يخرج من القاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة . وظل في البلاد زمنا طويلا حتى أهلك الحرث والنسل ، ومات به مالا يحصى من الفلاحين ، فبارت الأرض وأفقرت وكثر الجذب وعم الخراب وأصيبت به الحيوانات حتى الكلاب والقطط والوحوش . وارتفعت أثمان الحاجيات لقلتها وزاد الغلاء وخرج الناس للدعاء كما يفعلون في الاستسقاء ونظم الشعراء في ذلك مقطوعات . « ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ »

٣ - وفي عام ٧٦٩ هـ في عهد الأشرف شعبان ، فشا في القاهرة الوباء حتى أفنى كثيرا من الناس . قيل كان يخرج من القاهرة كل يوم اثنا عشر ألف جنازة .
« ج ١ ص ٢٢٢ »

٤ - وفي عام ٧٩١ هـ في عهد برقوق وقع طاعون مات به كثير من الناس وارتفعت أثمان الحاجيات . « ج ١ ص ٢٦٩ »

٥ - وفي عام ٨٠٧ هـ في عهد فرج بن برقوق في سلطنته الأولى ، فشا بالبلاد وباء جارف وكثر موت الفجاءة واشتد مرض السعال ، فمات بذلك خلق لا يحصى ، وكانوا يتساقطون في الطرق جماعات . وقد تبرع المقر السعدي ابن غراب بافتتاح مغسل على نفقته يغسل فيه الموتى ويكفنون . فكان الحمالون يقدون إلى هذا المغسل بمن حملوا

(١) اعتمدنا في هذا الموضوع على ابن إياس ، وإذا قلنا عن غيره نصصنا عليه . ويسو لنا ابن إياس اعتمد فيه على « بذل الطاعون في أخبار الماعون » لابن حجر ، راجع البذائع ج ١ ص ١٩٢ .

من الموقى . - وقد سمي فصل الوباء المذكور «فصل ابن غراب» نسبة إلى هذا الرجل .
« ج ١ ص ٣٤٨ »

٦ - وفي عام ٨١٣هـ في عهد السلطنة الثانية لفرج ، وقع طاعون آخر وزاد واشتد في شعبان ورمضان حتى قال فيه القاضي مجد الدين بن فضل الله . .

تزايد الطاعون لما أتى شعبان والحى به صعبه
ودام في الصوم على فتكه وفطر الضيف على كبه

« ج ١ ص ٣٥٣ »

٧ - وفي عام ٨١٩هـ في عهد المؤيد شيخ فشا طاعون آخر فتك بالناس فتسكا ذريعا .
« ج ٢ ص ٥٠ »

٨ - وفي عام ٨٢١هـ في عهده أيضا ازداد الطاعون واستمر حتى دخلت سنة ٨٢٢هـ .
« ج ٢ ص ٦٠ »

٩ - وفي عام ٨٣٣هـ في عهد السلطان برسبای انتشر الطاعون بالبلاد ، وكان طاغيا فتسكا - قال ابن إياس : « كان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين . فإن عادة الطعن يقع في فصل الربيع . وهذا وقع في وسط الشتاء واستمر أربعة أشهر ، وقال « وكانت قوة عمله في الغرباء والأطفال والماليك والعبيد والجواري ١١ ، مات فيه من الناس مالا يحصى عددهم ، حتى قيل انتهى من مات في يوم واحد إلى أربعة وعشرين ألف جنازة . حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا » . وقال فيه بعض الشعراء .

قد نقص الطاعون ثلث الورى وأهلك الوالد والوالدة
كم من نزل كالشمع سكانه أطفالهم في نفخة واحدة

وقد انتهى خطره في شعبان ليلة واحدة منه بعد أن مات به كثير من الأعيان قال ابن إياس نقلا عن ابن حجر : ولما كثرت الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ، ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص ، ١١
« ج ٢ ص ١٨ و ١٩ »

١٠ - وفي عام ٨٤١ هـ وقع طاعون بمصر كان أخف من سابقه ، وهذا هو الطاعون الثاني الذي وقع في عهد برسباي . قيل : مات به عدد لا يحصى من الممالك وأطفال وجوار وعبيد وغيرهم .
« ج ٢ ص ٢١ »

١١ - وفي عام ٨٤٩ هـ في عهد الظاهر جقمق وقع طاعون خفيف مات به كثيرون .
« ج ٢ ص ٢٩ »

١٢ - وفي عام ٨٥٣ هـ وقع طاعون آخر في عهد الظاهر جقمق كذلك هلك به عدد كبير من الناس قيل كان يموت في كل يوم نحو عشرة آلاف إنسان .
« ج ٢ ص ٣٢ »

١٣ - وفي عام ٨٦٤ هـ في عهد الأشرف إينال فشا طاعون جارف قاس سرت عدراه من البلاد الشامية ، وتفشاً في مصر . قيل مات به ثلث الممالك والأطفال والجواري والعبيد والغرباء ، واستمر خمسة أشهر . وقيل : كان تعداد الجنائر يومياً اثني عشر ألف جنازة . وكان الورد في تلك الأثناء كثيراً فأتخذوه للتواييت زينة .
« ج ٢ ص ٦٤ »

١٤ - وفي عام ٨٧٣ هـ في عهد قايتباي ، وقع أول طاعون في عهده ، وكان في شهر رجب من العام المذكور . وقد فشا في مصر والشام ، واستمر حتى شهر رمضان فاشتد فيه وزادت ضحاياه وكثرتك بالناس ، ثم زال خطره في شوال . وقد أنشأ الأمير يشبك في هذا العام مغسلاً بالموتى يكفنون به فعظمت فائدته .
« ج ٢ ص ١٠٦ الى ١٠٨ »

١٥ - وفي عام ٨٨١ هـ وقع ثاني طاعون في أيام دولة قايتباي ، وكان وقوعه في شهر رمضان ، واشتد خطره في شوال وفتك بالممالك والأطفال والعبيد والجواري والغرباء فتكا ذريعاً ، وكان المطعون يموت في يوم إصابته . وظل في تفاقم خطره حتى شهر ذي القعدة وذى الحجة إذ مات به نحو ألفين من الممالك السلطانية ، ومات عدد من خدم السلطان وطواشييه ، وعدد آخر من أعيان الناس ووجهائهم ، منهم عمر بن الأمير درلات باي الدوادار . وكان جميل الصورة شاباً ، ومنهم محمد

ابن الأمير يونس العلأى أمير آخور كبير . وعدد كبير من الأمراء العشرات ومن الخاصكية . ومات بترك النصارى اليعاقية وهو ميخائيل المنفلوطى ، وفقد كثير من الناس أولادهم . ولما هبت ريح الخمسين بدأ خطره يزول . ج ٢ ص ١٦٧ ، ١٧٠ .

١٦ - وفى عام ٨٩٧ هـ فى عهد قايتباى كذلك ، حدث فى ربيع الثانى بدء وقوع الطاعون ، وأخذ فى الانتشار ، وهو الطاعون الثالث فى عهد قايتباى . وقد عجب ابن إياس من ببطه هذا الطاعون ، فقد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاما . . . فكأنما اعتادوا أن تكون الفترة بين كل طاعونين أقل من هذه الأعوام المذكورة ! ويقول ابن إياس : وكان فى مدة انقطاعه عن مصر ، كثربها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور الممالك فى حق الناس . . . فكأنما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون فى البلاد . ولذلك قال بعد ذلك : « وقد روى عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء . » .

وزاد شره فى جمادى الآخرة وانتشر خطره فى القاهرة فى هذا الشهر . وبالغ فى الفتك بالناس حتى فر كثير منهم وغادروا البلاد خوفا من العدوى . وارتفعت أثمان الحاجيات . وتوفى به عدد من كبار الناس منهم والى القاهرة « قيت الساقى » . وما زال فى شدة وخطر حتى أواخر رجب خفت وطأته ثم زال فى شعبان ، بعد أن أخلى كثير آ من الدور من سكانها . وقيل أحصى من ثبت موتهم بطريقة رسمية ، فكانوا نحو مائتى ألف ، من بينهم عشرة آلاف بنت عذراء من مصر والقاهرة والضواحي . وقد قال الشيخ بدر الدين الزبتونى زجلا فى هذا الحادث يرثى فيه أهل مصر « انظره فى الجزء الرابع » . ج ٢ ص ٢٧٢ الى ٢٧٦ .

١٧ - وفى عام ٩٠٣ هـ فى عهد الناصر بن قايتباى . ظهر الطاعون فى جمادى الآخرة بجهة قطيا . ثم فى رجب ظهر فى مدينة القاهرة ، ومات به كثيرون ، منهم « الشاه بضاع بن دلقادر ، أمير التركان ، وكان ضيفا بالقاهرة . وزاد خطره فى رمضان . وفى أواخر هذا الشهر خفت وطأته بعد أن لبث زهاء ثلاثة أشهر ، ومات به نحو مائتى ألف إنسان من بينهم نحو ألف ومائتين من الممالك السلطانية .

« ج ٢ ص ٣٣٨ الى ٣٤١ »
(م ٢١ - ممالك)

١٨ - وفي عهد الغورى وقع طاعون خفيف عام ٩٠٩ هـ واشتد خطره فى
أواخر ذى الحجة بعد أيام فطر النصارى فى الخامسين .

١٩ - وفى عام ٩١٠ هـ فشا الطاعون فى مصر - ويظهر أنه امتداد لطاعون
السنة الماضية فقوى خطره فى رمضان من هذه السنة وازداد فى شوال حتى بلغ
عدد الجنازات فى اليوم الواحد أربعة آلاف . فلما تزايد أمره فتح السلطان مغسلا
للأموات بجوار سبيل المؤمنى فانتفع به الناس أيما انتفاع . وصحبه غلاء فاحش
حتى بيع الرطل من السكر النبائى بثمانية أنصاف ، وعز وجود البطيخ الصبغى والرمال .
وجاءت أيام الخامسين فى ذى الحجة والطاعون يفتك بالناس فتسكا لاحد له . وقد
نظم السيوطى فى هذه الحوادث شعرا تجده بالجزء الرابع .

٢٠ - وفى أواخر ٩١٢ هـ فشا الطاعون ببلاد الصعيد . مع أنه لم يفش بها
عام ٩١٠ هـ أيام كان بالقاهرة .

٢١ - وفى أوائل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون آخر وقتل عدداً من الأطفال
والعبيد والجوارى . ثم فتك بالناس فتسكا ذريعا . . وازداد خطره فى صفر ،
حتى ألقى الرعب منه فى قلوب الناس وفر بعضهم بأولاده وأهله إلى جبل الطور
لأنه - كما قيل - لا يقربه الطاعون ! وظل فى شدته إلى أواخر ربيع الأول .

قال ابن إياس : إن بعض الأطباء أشار على السلطان بأن يلبس فى أصابعه
خواتم من الباقوت الأحمر ، فإنه يمنع الطاعون ! فأخرج من الذخيرة فصين
منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب خاتمين . وكان يلبسهما فى المواكب . . !
قال ابن إياس : « فعد ذلك غريباً وخصوصاً من سلطان تركى » .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

ج - القحط والغلاء .

١ - فى عام ٦٦١ هـ فى عهد الظاهر بيبرس ، شح النيل وفشا الغلاء فتعاون
السلطان والأمراء على معونة الفقراء . « ج ١ ص ١٠٣ »

٢ - في عام ٦٩٥ هـ . في عهد كتبغا : أجذبت البلاد وشح النيل وارتفع ثمن الحاجيات وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهما . وكذلك الفول ، ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وبيعت البيضة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاح والرمان والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . وبيعت الدجاجة بخمسة عشر درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال ، وحتى لم يبق عند أحدهم شيء من الدواب . وقيل كان يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم ! ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله ، وبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين . وقد عم الغلاء سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية وكل ممتلكات مصر . وقد أعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفي الطرقات . وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته في مدة يسيرة مائتين وسبعين ألف إنسان . - ثم كشف الله عن الناس هذه الغمة وأزال الكرب بعد انقضاء هذا العام ، فأنحطت الأسعار وصلاح الحال . « ج ١ ص ١٢٣ »

٣ - في ٧٠٦ هـ . في أيام السلطنة الثانية للناصر محمد وقع غلاء فاحش في البلاد المصرية وقلت الغلال وزادت أثمانها ، واضطرب الناس لذلك . وبلغ ثمن الرغيف درهما من الفضة . ثم انجلى الحال قريبا . « ج ١ ص ١٤٧ »

٤ - في عام ٧٣٦ هـ في أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد ، اشتد بالناس الغلاء وانعدم الخبز من الأسواق . وبيع أردب القمح بسبعين درهما ، واضطربت نفوس الناس . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ، ففتحت وبيع منها للناس بثمان رخيص . فصلاح الأمر وانخفضت أسعار القمح حتى بلغ ثمن الأردب ثلاثين درهما . وما جاء شهر رمضان حتى ملأ القمح الأسواق وزالت الشدة عن الناس .

« ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ »

٥ - وفي عام ٧٧٥ هـ . في عهد السلطان الأشرف شعبان لم يف النيل في مواعده وقل القمح وامتنع الخبز من الأسواق . فخرج القوم للاستسقاء فلم يجدهم ذلك فتبلا !

وازداد الغلاء وبلغ ثمن كل أردب من القمح مائة وعشرين درهما . ومن الشعير ثمانين درهما ، و ثمن الرغيف أربعة دراهم ، و ثمن رطل اللحم من الضأن درهمين ونصفا ، ومن البقر درهما ونصفا ، وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم ، وراوية الماء خمسة دراهم . واشتد أمر الغلاء حتى بلغ ثمن البطيخة مائة درهم ، والرمانة ستة عشر درهما . واضطر الناس إلى الإقبال على خبز الذرة والبقول ، وماتت الدواب لقلة علفها ، واضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للفقراء . (ج ١ ص ٢٢٩)

٦ - وفي عام ٨٥٣ هـ في عهد جقمق : انتشر الغلاء وارتفع ثمن القمح والبقول والشعير ، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ، ثم بلغ سبعة ، وعلت أثمان الحاجيات حتى روبا الماء ، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل وذبلت الأشجار ، وماتت الدواب ، واضطرب بسبب ذلك حبل الأمن في البلاد واعدت العامة على بعض الرؤساء . قال ابن إياس : « واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين ، وقدر ثى بعض الشعراء الخبز رثاء فكاها ، تجده في الجزء الرابع . (ج ١ ص ٣١ ، ٣٢) .

٧ - وفي عام ٨٧٥ هـ . في عهد قايتباى ارتفعت الأسعار في شهر المحرم ، وغلت جميع أصناف المأكولات وغيرها . وعز وجود الأوز والدجاج ، وأقبل الناس على خبز الذرة والدخن . (ج ٢ ص ١١٨) .

٨ - وفي أوائل سنة ٨٩٢ هـ انتشر الغلاء وغلت الأسعار في جميع البضائع واختفى الخبز من الحوانيت . حتى بيع كل رطل منه بنصف من الفضة ؛ وذلك بسبب الاضطراب في النقد وارتفع ثمن راوية الماء وعز وجود جمال السقائين . وما زال الأمر يشتد حتى بيع القمح بسعر الأردب ستة دنانير أشرفية ؛ وبيعت « بطة » الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما ، وظهر خبز الذرة في الأسواق - ولم يكن يظهر فيما سبق . حتى صنف العوام فيه رقصة وأغنية هي :

« زويجي دى المسخرة يطعمني خبز الذرة »

وقسا الخطب على الفقراء ومات منهم على الطرقات كثيرون بتأثير الجوع .

فاضطر السلطان إلى فتح مخازن قمحه وبيع الأردب بسعر خمسة دنانير أشرفية ، وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم الخبز وإظهاره للناس وتعريضه للبيع . وما زال الأمر كذلك حتى فرج الله الكرب وخفف الخطب ، وقل سعر القمح إلى أربعة دنانير أشرفية بفضل ما جلب من الذرة ، فحمد الناس الله على ذلك فهو المعين والموفق . . .
« ج ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ »

٩ - وفي عهد الغورى وقع غلاء عام ٩١٤ هـ فى شهر رجب ، وارتفع ثمن القمح حتى بلغ الأردب خمسمائة درهم وعز وجود الخبز فى الأسواق ، وغلاتين حتى صار ثمن الحمل ديناراً .

١٠ - وفى عام ٩١٦ هـ فى شهر ذى القعدة بدت الفواكه والخضراوات والرياحين والأزهار حتى البطيخ والثوم والبصل والقمح فاسدة ، وأصبحت زراعتها ، فضعف المحصول ، وبذلك ارتفعت الأثمان واشتد الغلاء .

١١ - وفى أواخر صفر عام ٩١٧ هـ قل القمح فارتفع ثمنه وبلغ الأردب أشرفياً بعد أن كان كل أردبين بأشرفى . وسبب ذلك قلة ماء النيل . ثم زاد سعر القمح إلى أشرفيين . وسرى الغلاء إلى جميع البضائع من خضراوات وسكر وعسل وزيت وسمن وزبيب وأرز وبرسيم وشعير وفول . غير أن هذا الغلاء زال فى أواخر العام المذكور .

١٢ - ثم عاود الغلاء الناس فى جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ . وكذلك فى ذى الحجة عام ٩١٩ هـ إذ ارتفعت أثمان الأضاحى فى عيد النحر ، وذلك لأن المالك اشتد أذام بالناس واختطفوا الأغنام والأبقار . وقد حرم الغورى فى ذلك الحين بيع الملح ، وعمل على احتكاره فارتفع ثمن الأردب منه إلى ثمانمائة درهم وزاد ثمن الفحم فبلغ ثمن قطاره ثمانية أنصاف وحجر السلطان على الخشب «خشب السنط» ومنع بيعه بسبب احتياجه إليه فى إنشاء السفن المجردة إلى بلاد الهند بسبب عبث الفرنجة . وبعث أعوانه لاقتطاع الخشب من حقول الناس رغم أنوفهم . وعز وجود السكرية حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف .
« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

العادات والتقاليد

لكل قوم عادات وتقاليد ، يتبعها السلطان في قصره والسوقة في وكره . ولكل جيل ، ولكل طبقة ، في كل عصر ، أمور عرفية ، وخطط عامة ، يتبعونها دون وعى ، وتحمل منهم محل العقيدة ، ويسرون عليها سيرا غير شعورى ، مدفوعين بدافع التقليد والاعتیاد . وقد يشعر أحدهم بفساد ما يجرى عليه ، وبقبح ما يتبعه ، ويثقله على نفسه أحيانا . ولكنه لا يجد لنفسه مفرًا من اتباع ما تعود ، وانتهاج مارسته له الوراثة والظروف الاجتماعية . ولأنه يرى من العسير على نفسه أن يلوى عنانها إلى طريق جديد ، وأن يتجه بها وجهة أخرى قد لا يأمن عليها - برغمه - فيها من العثار أو الملام .

وهذا العصر الذى نؤرخه ، كان لأهله تقاليدهم وعاداتهم . وماتزال منها بقية باقية حتى اليوم ، بيننا موروثه ، لم نجد عنها حولا ، رغم تقلبات العصور وتغاير الأجيال وتحول القرون ،

ومن يتصفح هذا الجزء من كتابنا ، يرى خلال ما أثبتناه فيه ، ضروبا من العادات والتقاليد ، رسمية وغير رسمية ، متناثرة هنا وهناك . ونحن الآن نورد بعضها مدعوما ببعض الحوادث التاريخية أو بذكر مراجعه ، وذلك بما لم نذكره فى باب من الأبواب السابقة أو ذكرناه عرضا ودون تركيز .

وكان بودنا أن نرسم فى مقالة صورة عامة متخيلة ، للمجتمع المصرى ، تكون أدنى إلى الحقيقة . ولكننا لم نستطع إحكامها لضيق ما بيدنا من المؤلفات الواصفة ، التى تعين على رسم هذه الصورة .

ومع هذا فنقرأ كتاب « المدخل » لابن الحاج « والتعريف » لابن خلدون ، وإغاثة الأمة بكشف الغمة ، للمقرئى ، ومتناثرات فى السلوك والبدايع والنجوم والضوء والطالع ، والمؤلفات فى العلوم الكونية المذكورة فى الجزء الثانى من كتابنا

هذا ، وأمثال ذلك ، يستطيع أن يكون فكرة أو يرسم صورة لهذا المجتمع أقرب إلى الصواب .

ومما يذكر هنا أن المقرئ في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، فضلا يفهم منه أن المجتمع المصرى فى عهده كان ينقسم سبعة أقسام هى :

- ١ - أهل الدولة وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .
- ٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .
- ٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البر » ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق .

٤ - أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٥ - الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .

٦ - أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٧ - ذوا الحاجة والمسكنة ، وهم السؤل الذين يتكففون الناس ، ويعيشون منهم . هذا وإليك بعض عاداتهم وتقاليدهم ، فمنها .

١ - حفلة تولية السلطان :

إذا خلا عرش البلاد من سلطانه ، يتشاور الأمراء فيما بينهم ، ثم يختارون كبيراً من كبارهم لولايتة . فإذا تم هذا الاختيار ووقع الاتفاق عليه ، أقيمت حفلة شائقة لتنصيب السلطان ، فيجتمع الخليفة والقضاة وسائر الأمراء ومن حولهم كبار موظفى الدولة والجنود ، ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة ، يتلى فى هذا الحفل العظيم . وهذا التقليد عن لسان الخليفة يوليه به شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة بالقضاة فالأمراء بمبايعته . ويلبسونه شعائر المملكة وخلع السلطنة ، وهى - عادة - عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة سوداء ، وسيف ثمين ذو حمائل . ثم تقدم إليه فرس ذات سرج مذهب ، وهى مزدانة بما عليها من الثياب والخلى . ويختار له لقب من الألقاب كالأشرف والظاهر ، وكنية كأبى المعالى وأبى النصر ، ثم يركب الفرس المذكورة ويسير وسط هذه الجموع ، وهم فى ثيابهم الرسمية ، ويعبرون عنها بالشاش

والقماش، وطورا يشقون به شوارع القاهرة، وطورا يسرون به ابتداء من أماكن قريبة إلى القلعة - حسب مقتضيات الأحوال - ويقصدون القلعة ويصعدون به إلى القصر الكبير بها، حيث يجلسونه على سرير الملك. ثم يقبل الأمراء له الأرض، فيخلع على من يشاء منهم ويرقى من يشاء، ويسمرون زمنا، ثم ينفض هذا الحفل. وينادى باسم السلطان في أرجاء مدينة القاهرة، ويرسل باسمه إلى الأقاليم الأخرى.

وفي أثناء مسير السلطان إلى القلعة تنشر فوق رأسه « القبة والطير، وهما من شعار المملكة كذلك. وكان يحملهما عادة أكبر الأمراء مقاما. ومن رشح ليلي النيابة أو الأتابكية. - ويبدو أن القبة كانت كالمظلة وهي مصنوعة من قماش ثمين. أما الطير فهو من الذهب، ويوضع فوق القبة. أما الشاش فقطعة واسعة من القماش الرقيق تضي على الرأس والاكتاف. وقد وقع قليل من التغيير والتبديل في هذه الشعائر - فقد بدل الغورى بالطير هلالا من الذهب المخرم في شوال عام ٥٩٢ هـ. ومعه جلالة مذهبة كذلك. راجع تولية بيهرس في ابن إياس ج ١ ص ١٠١. وتولية برقوق في ج ١ ص ٢٥٩. وتولية الغورى بالجزء الرابع منه. - ونسوق هنا ملخصا عن وصف ابن إياس لحفلة تولية السلطان الغورى فنقول :

« عقدت البيعة لقانصوه الغورى. وبايعه الخليفة. ثم أحضر إليه شعار السلطنة وهو الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك، فلقبوه بالملك الأشرف وكنوه بأبي النصر. ثم قدمت إليه فرس النوبة بالمرج الذهبية والكنبوش. فركب من سلم الحرافقة بباب السلسلة. فتقدم « قيت الرجبي، وحمل القبة والطير على رأسه - وقد رشح للأتابكية - فركب الخليفة عن يمين السلطان. ومشى بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش. حتى طلع من باب سر القصر الكبير. وجلس على سرير الملك. فأول من قبل له الأرض « قيت الرجبي، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا، ثم خلع السلطان على الخليفة ونزل إلى داره. وخلع على « مصر باي وقرره في الدواديرية

الكبرى والوزارة ، والاستدارية عوضا عن نفسه . فنزل إلى داره في موكب حافل . ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودي باسمه في القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء .

٢ - حفلات الاستقبال .

وأعني بها تلك الحفلات التي يقيمها السلاطين حفاوة بمقدم ضيف كبير أو سفير خطير ، ترحيبا به وإظهارا لعظمة مصر وقوتها . ويرسل السلطان عادة إلى القادم من يلقاه في طريقه . ويهيء له مكانا مناسباً يقيم به مدة مكثه بالبلاد ، ويعين من يقوم بخدمته ، ويعاونه عادة بالمال والحراس . ويستقبله في الحوش السلطاني ، وهو بملابسه الرسمية ، وحول أمراؤه وأعوانه ورجال دولته وحراسه . وهناك في الحوش يجلس السلطان فوق الدكة السلطانية - وهي مكان رسمي للسلطان في مثل هذه المناسبات - وتفرش عليها وأمامها وحولها البسط الثنية . فإذا ما وفد القادم على مجلس السلطان يصحبه أحد رجال الدولة ، قام له السلطان - عادة - وسلم عليه ورحب به ودعاه إلى الجلوس والحديث .

ثم يخلع عليه السلطان خلعة وينزل من لدنه مكرا إلى مسكنه المعد . وتقام له فيها بعد ولائم يعدها بعض الأمراء ويحضرها السلطان بنفسه أحيانا مبالغة في الترحيب والعناية . وقد تزيد هذه العناية ومظاهرها أو تنقص ، حسب مقام الضيف .

وما يذكر أن الغوري في عام ٩٢٠ هـ بنى بدلا من الدكة مصطبة في مكانها ، كما أشرنا - فلم يقع هذا التغيير في النفوس موقع قبول .

هذا وقد نوهنا ببعض هذه الحفلات عند الكلام عن السفارة . وحسبنا هنا أن نذكر حفلة استقبال رائعه أعدها السلطان الغوري احتفاء بمقدم الأمير د'وقرقد العثماني بن ملك الروم :

قال ابن إياس في الجزء الرابع من تاريخه ما ملخصه :

« وفي يوم الأربعاء ١٨ صفر سنة ٩١٥ هـ وصل « فرقد بيبك بن عثمان ، إلى شبرا . وهو ابن « بايزيد ، ملك بني عثمان . فلما وصل إلى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرابجية التي ببولاق . ورسم لناظر الخاص بأن يحضر إليه جميع ما يحتاج إليه من فرش وأواني وصيني وغير ذلك . وخرج جماعة من الأمراء للقاءه . وكان السلطان قد رسم للكشاف ومشايخ العربان بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الأسطة والموائد الخافضة . فلما بلغ البرابجية أقيمت له مأدبة بأمر السلطان . ثم توجه إليه الأتابكي « قرقاس ، والأمراء قاطبة ، فسلموا عليه . ثم توجه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف ، واستمر وفود الناس إليه حتى يوم الاثنين ٢٣ صفر ، وهو مقيم بالبرابجية . ثم أرسل إليه السلطان عشرين فرسا له ولمن معه ، منها أربعة بالسروج الذهبية ، والكنابيش المزركشة والغواشي الحريرية الصفراء . ثم رسم السلطان لنقيب الجيش بإعلان الأمراء أن الموكب في الحوش بالشاش والقماش . ثم نصبت السحابة الزركشية فوق الدكة ، وفرشت هذه بالحرير الأطلس الأصفر . وزين باب الزردخاة بالصناجق السلطانية والأسلحة . وصفت على جانبيه المسكاحل . وتوجه المهمندار ورءوس النوب بأمر السلطان إلى الأمير المضاف ، وهم بشاشهم وقماشهم وبملا بسهم الرسمية ، فصحبوه ركوبا وساروا أمامه إلى القلعة . والجميع في زينة حافلة ، والناس يملئون الطريق للتمتع بمشاهدتهم ثم بلغ الركب القلعة ، فعطفوا به إلى مصطبة باب الدهيشة حيث أعد هناك مقعد حريري ، استراح عليه الضيف قليلا استجماما للقاء السلطان . ثم دخل إلى الحوش السلطاني حيث « الدكة » السلطانية فحينما بلغ طرف البساط السلطاني نزل السلطان حينئذ بجوار « الدكة » ، وانتظر واقفا حتى بلغ إليه الأمير ، فتعانقا . وقيل إن الأمير قبل بد السلطان ووضعها على عينه . ثم تحدثا نحو ساعة وقفا ثم خلع السلطان عليه خلعة ذهبية لامعة . ثم عاد ركبة مكرما إلى سكنائه ومعه بعض الأمراء . وأرسل إليه السلطان بعد ذلك هدايا قيمة . . »

٣ - الاحتفاء بخروج السلطان من القاهرة أو عودته إليها :

يحتفي أهل القاهرة والأمراء والرؤساء بالسلطان إذا خرج منها لأمر من الأمور كحرب خارجية أو زيارة لناحية من نواحي البلاد المصرية أو ممتلكاتها . وذلك كجهة الإسكندرية أو الفيوم أو الشام أو الحجاز للحج مثلا . فتقام الزينات المختلفة في أماكن مروره من أعلام وثرينات زيتية مختلفة الألوان وأقشعة نفيسة ذات أشكال وألوان عدة . ويسير في ركبه احتفالا به وتوديعا له عدد من الرؤساء والأمراء ، وحين مروره يقف الناس له تعظيما ورغبة في المشاهدة كذلك ، وتمتلئ نوافذ المنازل وشرفاتها بالنسوة يزغردن .

ويقام مثل هذا الاحتفاء إذا عاد من غيبته . وقد يكون هذا الاحتفاء أبلغ من سابقه وأعم وأرقي زينة . وقد يهدى إليه . وهو قد يمنح ويهب ويرقى من يشاء . بمناسبة هذه العودة .

وقد سافر الغورى إلى الفيوم لزيارتها ولابتغاء الرياضة وإصلاح جسر اللاهون . وذلك في ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . فلما عاد من زيارته بعد ١٧ يوما خف إلى لقائه بدهشور الخليفة ، وقدم إليه بعض الهدايا فشكره السلطان وخلع عليه ثم نزل السلطان بجوار الأهرام في وطاق خاص . فأسرع إلى مؤانسته هناك القضاة الشافعى والمالكي والحنبلية - بينما كان القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة يصحبه في رحلته . ثم عبر السلطان نهر النيل ونزل بمقياس الروضة ثم عبر إلى مصر . ثم ركب جواده ومشى أمامه رهوس الثوب بالعصى . . وعدد كبير من الخاصكية بغير شاش ولا قماش . وركب أمامه الأتابكى « سودون العجمى » ، والأمير « أركاس » ، والأمير « ظومان باى الدوادار » ، وحاجب الحجاب « أنصبأى » ، وجماعة من الأمراء والمباشرين غير هؤلاء . فمنحهم السلطان بهذه المناسبة خلعا ثمينة . وكان حولهم وأمامهم الجنود فساروا وقت الصباح إلى الصليبة في أبهى زينة وأجمل ملبس . ويتقدم ركبه الأفيال العكبار التي أهديت إليه من قبل ، وهى مزينة بالأقشعة والسكسى

الحمراء الثينة ، وعلى ظهورها الأعلام حمراء حريرية . والموسيقا تصدح خلال ذلك . وأمام الركب كذلك بعض أمراء بني عثمان ، وكانوا ضيوفا بمصر . وكذلك عدد من العربان . وما زال الركب حتى بلغ القلعة . ثم قدمت هدايا كثيرة إلى السلطان كما قدمت إليه هدايا أخرى وقت قيامه بالرحلة . ثم إنه فرق بعضا منها على أمرائه ، . « ابن ايلس جزء ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٨ هـ »

٤ - الفرغ بشفاء السلطان من مرضه :

اعتاد الناس أن يظهروا للملئسكهم ابتهاجهم وفرحهم إذا من الله عليه بالشفاء بعد مرض ألم به . وكذلك كان المصريون في عصر المماليك ، ونذكر أن السلطان الغورى مرضت عيناه في عام ٩١٩ هـ حتى خيف عليه العمى ، وامتنع عليه النزول لمزاولة شئون الدولة ، وتوارى عن الأنظار مدة حتى أرجف الناس في المدينة ، وأشيع أنه ابتلى بالعمى .

ولكن الله من عليه بالشفاء . فأقيمت له بهذه المناسبة زينة بالغة في مدينة القاهرة إعلانا بابتهاج الناس وفرحهم بشفاء ملكهم . وذلك في يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٩ هـ .

وكان مجتمع الزينة في «بركة الرطلى» حيث نادى محتسب القاهرة « الزينى بركات ابن موسى » بإقامتها ، فامتلات نواحيها بالقناديل والثريات وعلقت على وجوه المحال وطاقات المنازل ، الأعلام وأقسمة الأقمشة الحريرية ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت أنواع الموسيقا في جهاتها ، وهناك في الخليج المار بتلك الجهة انتشرت المراكب والزوارق تحمل الناس من مكان إلى آخر للرياضة والمشاهدة والتفرج برؤية والزينة ، كما كانت تحمل أعيان الناس من سكان بركة الرطلى ليتبادلوا التحية والتهنئة والتبريك بشفاء السلطان . كما ترددت هنا وهناك من هذه الناحية أصوات المغنين والمغنيات يغردون ويسمرون ، والناس طوال الليل وفود إلى مجالسهم للأنس والسماع ، ولمشاهدة الألعاب النارية التى كان يستخدم فيها زيت النفط . وظل هذا الأنس العظيم والمتعة البالغة ثلاثة أسابيع على هذا النمط السخى . .

وبدأت الزينة في القاهرة يوم ٥ شعبان المذكور وهو يوم الثلاثاء فامتلات الأسواق بالزينات الحافلة ، وكذلك زينت مصر « العتيقة » وبولاق ، وزين سوق الخانكاه وحارة زويلة وخان الخليلي وغير هذه النواحي والأحياء .
وبدت الزينات البالغة كذلك على أبواب منازل الأمراء والرؤساء والخليفة والقضاة وظلت الزينة سبعة أيام متوالية .

« ابن لإياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ »

٥ - عادتهم في شهر رمضان (١) :

إذا اقترب مجيء هذا الشهر استعرض السلطان من في السجون من المسجونين ، فتقع مشيئته على بعض منهم فيأمر بإطلاق سراحه ويتلذس أحياناً ببعض أهل الديون فيقضى ديونهم ، وقد يجمع بين المتخاصمين فيزيل من بينهم أسباب الخصام . واشتهر الغورى بضروب كثيرة من هذه الصنائع .

ثم إن ناظر الدولة ومحتسب القاهرة أو من يشابههما من كبار الموظفين ذوى الصلة بأموال السلطان ، يقومون بإعداد كميات هائلة من اللحوم والأغنام والدقيق والسكر ، وضروب كثيرة من الأطعمة مما يحتاج إليه قصر السلطان لطفيه أو لتفريقه على الفقراء خلال شهر رمضان . ثم يحمل الحمالون هذه الأشياء في حفل حاشد وركب حافل تقدمهم الآلات الموسيقية الصادرة ، ويسيرون بها في شوارع القاهرة لإشهار أمرها بين الناس . وما يزالون يسيرون بها حتى يصلوا إلى ميدان القلعة لتعرض على الأنظار السلطانية . فيطل السلطان حينئذ من القلعة ليراها . فتتال من لدنه القبول ، ويجرد بالخلع السنية على من تولى أمر إعدادها .

ثم إذا ما سنحت ليالى رمضان كانت فرصة لأعمال البر والإحسان ، وتقديم ما استطاع من معونة للفقراء والمحتاجين . يوجد بذلك السلطان والأمراء وذو الجاه والمولون والأعيان والرؤساء ، كل منهم حسبما تقضى به ظرفه ومشيئته . - وسرت هذه العادة واتبعت حتى أصبحت هذه المساعدات بمثابة ضرائب تقليدية يدفعها

(١) نصرت هذه النكمة بجزيرة الأهرام في شهر رمضان عام ١٣٥٨ هـ .

هؤلاء العطاء للفقراء بمناسبة شهر رمضان . - وإذا ما حدث أحد الأمراء نفسه بالإفلات من دفعها ، وإزاحة عبئها عن كاهله ، زایل القاهرة قبيل رمضان ! وأقام في إقطاعه مثلاً . . ولكن هذا الإفلات سرعان ما يصبح أمراً مكشوفاً ، ولا يمر على الناس مرور الكرام . . بل يلحظونه ويلهجون بذكره ثم يذيع أمره ويعرف خبره وتكثر نقولاتهم حول هذا العظيم الهارب الفار من ضريبة الإحسان . .

ومن عادات السلاطين في هذا الشهر العناية بقراءة الأحاديث النبوية في صحيح البخارى ، يأمرون بها القارئین من الفقهاء ويؤجرونهم لذلك . ودرجوا على أن تكون قراءتها بقصر السلطان ثم تختتم بالقصر الكبير بالقلعة .

ويكون ختام البخارى في يوم مشهود تجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان والفقهاء ويقبل السلطان في أبهة وعظمة ، فيجری الختام على مسمع منه ، ثم يأمر بتفرقة الخلع السلطانية والهبات المالية على من اعتاد ذلك منه في مثل هذه المناسبة ، كل حسب مقامه ومنزلته .

وقد تكون قراءة البخارى في الجامع الأزهر . وفي عهد الغورى كانت تتلى في جامع القلعة وتختتم بفنائها ختاماً يسيراً هيناً :

وفي النصف الثانى من شهر رمضان يكون ناظر الخاص قد هباً خلع العيد التى اعتاد السلطان أن يهب منها لمن يشاء بمناسبة انقضاء رمضان وحلول العيد . فتزف هذه الخلع في أحد الأيام من أواخر رمضان وتعرض على الناس في الطرقات وتشهر بينهم ، ثم تعرض على الأنظار السلطانية لتتال من لدنها الرضا والقبول . . فإذا ما حظى ناظر الخاص برضا السلطان ، تناول منه خلعاً نفيسة وعاد إلى داره شاكراً . .

وكان أهل هذا العصر يستعينون على الإشعار بدخول وقت السحور بأن يؤذن المؤذنون في المساجد ، ويقولون جملاً متعارفة بين الناس يعلمون منها دخول وقت السحور ، ومنها : « تسحروا . . كلوا واشربوا » ، ومنها بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقوله

تعالى . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . . . ، ويتبعون ذلك بالتغنى وإنشاد بعض القصائد ، وهذا كله قبل ميعاد الأذان الشرعى للسحور . ويستعينون مع الأذان المذكور بالدق على الطبل والمناداة فى الطرقات كما هو الشأن فى أيامنا . وكذلك بقرع الدور والمناداة على سكانها كما هو الشأن فى بعض عواصم المحافظات وبعض بلاد الريف المصرى اليوم . وكذلك يستعينون بإضاءة المصابيح حتى إذا ما انتهى وقت السحور أطفئت فىعلم الناس دخول وقت الفجر .

« ابن إياس ج ٤ حوادث شهور رمضان عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ هـ ، ٩١٨ هـ . وراجع كتاب المدخل لابن الحاج ج ٢ »

٦ - الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى :

كان أهل العصر يستعدون للاحتفال بعيد الفطر والأضحى - كما نستعد نحن أهل العصر الحاضر - وفى رمضان - كما ذكرنا - قبل عيد الفطر ، تعد خلع العيد وتزف . - وفى يوم العيد يخرج السلطان للصلاة بمسجده - الذى أنشأه غالبا - أو بغيره ، ويكون بصحبته فى الصلاة - عادة - الخليفة والقضاة الأربعة وكثير من عظماء الأمراء . ثم يعود إلى قصره ، فيصعد إليه القوم للتهنئة ، فيهب الخلع الثمينة لمن يشاء منهم - وهذه الخلع كانت فى ذلك الزمان بمثابة النياشين والأوسمة فى زمننا الآن .

ومن العادات التى اتبعت زمنا طويلا أن ينزل الوزير من القلعة إلى داره فى موكب حافل يوم عيد الفطر فيمتطى بغلته ، وعلى رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهبة ويسمونها « الطاسة » ويتفلك سبحة بأكر من الغنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية وهى لابسة ثيابا خاصة من الحرير الأصفر تعرف « بالتريات » ، وتقود جنائب الوزير ، وأمامه كذلك « مبخرة السلطان » وبها البخور ، وقد بطلت هذه العادة وهذا الموكب بعد أن لبثت مدة طويلة من شعائر الدولة . وآخر من فعل ذلك من الوزراء صاحب علاء الدين على بن الأهناسى المتوفى عام ٨٧٠ هـ راجع باب الأفاذ ، . ثم اضمحل أمر هذه العادة وانقضى

شأن هذا الموكب حتى أصبح الوزير «تغرى برمش» في عهد الغورى إذا نزل يوم العيد من القلعة إلى داره لا يشعر به إنسان ..

ومن العادات التى اتبعت زمنا : أن يخرج السلطان إلى صلاة العيد ، وفوق رأسه « القبة والطير » . وقد أبطل برقوق ، هذه العادة ..

وللناس إذ ذاك عادات لا يزال كثير منها يبيننا موروثا حتى اليوم ، منها خروجهم إلى الصلاة ثم الذهاب إلى زيارة المقابر حيث يختلط الرجال هناك بالنساء ، وتقع ضروب من المفاسد . ثم العودة إلى الدور بعد زمن طويل ، وكذلك يغالون في عيد الفطر في إعداد الكعك والخشكشان « البسكويت » والبسندود ، والسملك المشقوق .. ولعله السملك المقدد الذى يطلق عليه الآن « البكلاء » .

ويجشى الكعك عادة بالعجوة ويرش عليه ماء الورد وكذلك يشتري النقل « الفطرة » .

وفي عيد النحر يتبارى كثيرون في ذبح الأضحية . وكثيرا ما يخالفون تلك السنة ، فيذبحون قبل الميعاد الشرعى . كما أنهم قد يتهادون بلحوم الأضاحى لا لله وإنما للسمعة ولا انتظار العوض ، كما أنهم قد يقبلون على التهامها حبا في الطعام .

وقد لا يفعلون هذا كله توسعة على الصغار والفقراء ، وإنما مباهاة وحباً للظهور . كما أن كثيرا من الأسر تعاني المشقات الكثيرة في إعداد هذه الأشياء ، وتقع بينها الشحناء وتمد يدها للدين . وبعضها قد يقاسى ألم الحرمان .. انظر إلى البوصيرى الشاعر المتوفى عام ٦٩٥ هـ فى شكواه إلى أحد الوزراء من قصيدة يقول فيها واصفا أسرته وأطفاله :

وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطرة
فأرحمهم وإن عابوا كعكة	فى كف طفل أو رأوا تمر
تشخص أبصارهم نحوها	بشمقة تتبعها زفرة

هذا وفى الأعياد تطوف جماعات من العذارى الأبنكار والمراهقات ، ويسمين « بنات العيد » ، فى الطرقات وفى الأسواق على التجار والعلماء وغيرهم وعلى البيوت

كذلك ، يجمعن من الناس ما جادت به مكارمهم في تلك المناسبة ، ومعهن الدفوف يدقن عليها ويغنين ... وهذا شبيه بما اعتاده الصغار في أيامنا في شهر رمضان من الطواف ليلا في الطرقات يطرقون أبواب المنازل والخوانيت والمقاهي طلبا للعطاء ، وفي أيديهم المصاييح الملونة وهم ينشدون أناشيد مختلفة .

« ابن إياس ج ٤ ، في حوادث رمضان وشوال عام ٩١٢ هـ أيضا ج ١ ص ٢٦٠ - والمدخل لابن الحاج ج ١ ، »

٧ - الزواج وحفلاته :

لم يكن زواج السلاطين ولا زواج الأمراء خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيتة عامة ، كما يحدث كثيرا في عصرنا الحاضر لدى بعض الدول . ولكن كان كل من السلطان والأمير حراً في اختيار زوجته حسبما يشاء ، ومع ذلك ترى أن هذه الطائفة الحاكمة صاهر بعض أفرادها البعض الآخر حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة . وقد تزوج - مثلاً - الأمير يشبك الدوادار بنت الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال . ثم توفيت فتزوج بأخت الأمير قانصوه خمسمائة . كما أن قانصوه خمسمائة المذكور تزوج بنت الأتابكي أزيك بن ططخ . وهذا الأتابكي كانت زوجته - حماة قانصوه - ابنة الملك الظاهر جقمق . وهكذا ..

ولم تكن هناك غضاضة على زوجة السلطان أن يتزوج غيرها مستخدماً حق الشرع في تعدد الزوجات ولا غرابة في ذلك فإن من المحال على زوجة أن تنكر إنكاراً أدبيا على زوجها السلطان . أن يتزوج سواها ، مع وجود نظام التسري وبيع الرقيق . وقد كان السلاطين أنفسهم يعاونون على جلبهم ويأمرون به ويعدون الأسواق خصيصاً لذلك كخان الخليلي مثلاً . - وهكذا تعددت الزوجات والجوارى معاً بل قد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقة ..

وكذلك لم تجد الزوجة - زوجة السلطان - في نفسها أية غضاضة أو مرارة أو شيئاً محرراً أو موقفاً غير عادى إن هي أقدمت على الزواج بعد وفاة

زوجها وانقضاء دوائه. ولو كان السلطان الجديد ولدها وفلذة كبدها وكبد الراحل الكريم. وقد تزوج بسلطان آخر ، وقد تزوج بكبير من الأمراء ، وقد تزوج برجل كان مملوكا لزوجها ...

وإذا كانت هذه عادة زوجات السلاطين فلا غرابة أن اتبعها كذلك زوجات الأمراء وغيرهم .

ومن الأمثلة على ذلك: السلطان برسباي العلاني تزوج أرملة الظاهر خشقدم ، والسلطان الناصر بن قايتباي تزوج مطلقة الأمير « كرتباي » نائب صفد. وهي التي تدعى « خوند مصر باي الجركسية » ويظهر أنها كانت فاتنة ، لرغبة الرجال في زواجها . فقد تزوجها السلطان الظاهر قانصوه لما ملك البلاد بعد زوجها الثاني الناصر بن قايتباي . ومن الأمثلة : أن السلطان العادل « طومان باي » عقد على « خوند فاطمة » بنت العلاني على بن خاص بك ، وهي التي كانت زوجة للأشرف قايتباي . والأشرف جان بلاط قبل أن يملك البلاد تزوج أم الملك الناصر بن قايتباي وهي أخت الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه الذي ملك بعد الناصر المذكور ... وهكذا.

وكانت حفلات الزواج والدخول والزفاف وإعداد المتاع يباليغ فيها القوم ويغلب عليهم فيها حب الظهور والفخر ويشتد غناؤهم وتعلو أصواتهم ويدقون بالدفوف ويرقصون ويزغرد النساء ...

وحسبنا هنا أن ننقل ملخصا عن ابن إياس مما ذكره في زواج الأمير « قانصوه خمسمائة » بابتنة الأتابكي « أزيك بن ططخ » . قال ما مؤداه :

« في عام ٥٨٩٢ هـ في شهر جمادى الآخرة وفي يوم الجمعة كان عقد « قانصوه خمسمائة » على بنت الأتابكي « أزيك » من خوند بنت الظاهر جقمق . عقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة « زبادى » صيني - وهي أوعية معروفة الآن بهذا الاسم - فيها سكر ، وأوعية مملوءة بالفاكهة ، فرقت في القلعة .

وفي شهر رجب من نفس العام تم حفل الزفاف والدخول. لحمل الجهاز من

الأزبكية - حيث دار أبيها - إلى دار الزوج بقناطر السباع ، نحو أربعائة حمال .
وقيل أنفق على هذا الجهاز نحو من مائتي ألف دينار . ولما كانت ليلة الزفاف زينت
الأزبكية بأبهى زينة . وركب « قانصوه » من باب السلسلة وأمامه الأمراء
المقدمون بالشاش والقماش - أى بالملابس الرسمية - وهى لا تلبس فى غير حفلة
التولية وصلاة الجمعة والعديد مع السلطان . ومشى الخاصكية وبأيديهم الشموع
حتى بلغوا الأزبكية .

وننقل أيضا وصفه لموكب زوجة الملك العادل طومان باى يوم زفافها إليه
بالقلعة قال :

« يوم الخميس ٧ شعبان عام ٩٠٦ هـ صعدت خوند الخاصكية زوجة الملك
العادل طومان باى إلى القلعة . فخرجت من يديها بقنطرة سنقر فى محفة زركشية
وأمامها روس النوب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش . وأمامها كذلك
الوالى ونقيب الجيـش والزمام عبد اللطيف وأعيان الأكابر والمباشرين والطواشية ،
وفى صحبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء ، والعظماء . فلما وصلت إلى باب
الستارة فرشت لها الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفاف
الذهب والفضة ، وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطيـر . حتى جلست بقاعة
العواميد ، والموسيقا تصدح فى خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدمها فى القلعة
ثلاثة أيام . ووضع أمامها فى موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق من
البلوك ومنديل كبير من الزركش . »

« إيس ج ٢ ص ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ . »

٨ - حفلات الختان :

كان الناس فى ذلك الزمان يعنون بالختان ويقيمون له الحفلات . كما هو الشأن
فى زماننا - ويهتمون بختان الذكور أكثر من اهتمامهم بختان الإناث . وكلما عظم
مركز أهل هذا الحفل عظم اهتمام الناس بهم ، وعنوا بالاحتفال معهم ، وأحيانا تزين
وجوه المنازل والخوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة وتوقد الشموع فى القناديل ،

ويقبل الناس عليهم للتهنئة ، وتبادل الهدايا . ويغنى المغنون والمغنيات ، وتمد الموائد وتقدم الأطعمة الشهية والحلويات . وقد تعرض على الحاضرين بعض الألعاب الطريفة . ومن الأمثال على ذلك :

١ - ختان أولاد القاضي كاتب السر ابن مزهر عام ٨٨٦ هـ . وكان منزله ببركة الرطلى . فأم منزله فى ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات . وزاره الأمير جمجمة العثماني - وكان ضيفاً فى مصر - وبات عنده تلك الليلة . وأوقد الناس لذلك منازلهم وحلوها بالقناديل ، حتى انقلب الليل نهارة لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها أنظار الناس فتوافدوا إليها زهرا للابتهاج بها وللتفرج بمشاهدتها . وامتلات بركة الرطلى بالمراكب وركابها . وجلس المغنى وابن رحاب ، وغيره من مغنين ومغنيات يطربون الحضور بأصواتهم الشجية . . . ورج بائعو الحلوى أرباحاً وفيرة فى تلك الليلة . وبعث القاضي ابن مزهر إلى كل بيت فى البركة عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالد وطاب من الطعام . . . وقد عني القاضي ابن مزهر بهذه الليلة عنايته المذكورة بناء على أمر السلطان قايتباى إذ كانت له عناية بالأمير العثماني جمجمة ، فأحب أن يبهجه بالمبالغة فى هذه الحفلة . ثم إنها فرصة للظهور . . . انتزهوا . ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٨ .

ب - ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباى عام ٨٩٤ هـ فى شهر رجب . وقد استمر الاحتفال به سبعة أيام متوالية ، وزينت طرقات القاهرة وأسواقها ، واجتمع سائر المغنين لإطراب الناس ، وابتهج الناس فى هذه الأيام أيما ابتهاج . وقدمت الهدايا الحافلة إلى السلطان بهذه المناسبة ، من مال وخيل وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، وقد قومت هذه الهدايا بأكثر من خمسين ألف دينار . وفى جملتها طست وإبريق من الذهب زنة ستمائة مثقال ، قدمها الشهابى أحمد ابن العيني . واختتن مع ابن السلطان عدة من أبناء الأعيان والأمراء والخاصكية . وأقيم لابن السلطان موكب شائق ركب فيه فرسا وسار من قاعة البحرة إلى باب

الستارة ، والسلطان ينظر إليه في مقعد خاص . وسارت أمامه الأمراء والخاصة
وسائر أعيان المباشرين ، وكثير من كبار الخدم ، وأمسك لجام فرسه الأمير
« أقبردى الدوادار » ، والشهابى « أحمد بن العبنى » وجميعهم بالشاش والقماش
« الملابس الرسمية » . وفرشت الشقق الحربية تحت حوافر فرسه ، ونثرت على رأسه
خفاف الذهب والفضة ، وتلقته المغنيات بأناشيدهن ، وأدخل إلى قاعة البيسرية
حيث جرى ختانه بواسطة أحد المزينين . . وقيل دفعت إليه على سبيل « النقطة »
خمسة آلاف دينار أو تزيد فنال منها وحده ألف دينار ، وفرق الباقي على رؤساء
المزينين . . ورسم السلطان بأن تصنع كسوة لكل طفل ممن يشتركون بختانهم في
ليالى ختان ابنه ، وكانوا نحو أربعين من أبناء الأعيان كما ذكرنا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ »

ج - ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن « على بن أبى الجواد » برددار السلطان
الغورى ، فى ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ . إذ زينت له القاهرة وحوانيتها . وأوقدت له
الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية إلى الصليبة ، ومشى فى موكبه كثير من
الأعيان والرؤساء حتى تغرى بردى الاستادار ، وجماعة من الطواشية ..

« ابن إياس جزء ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ »

٩ - الجنائز وما يتصل بها .

اعتاد هؤلاء الناس فى الاحتفال بالجنائز أن يكثروا حولها من البكاء
والعويل والنواح . وأن يسير النسوة ليلاً إذا اقتضى الحال ، فيصوتن ويعلو
صياحهن المفلق فى الطرقات - على نحو ما نسمع ونرى فى مدينة الإسكندرية ،
وغيرها الآن .

ثم يؤجر أهل الفقيد من ينادى على باب مسجد أو يؤذن فوق مئذنته بما
يشعر الناس أن فلانا قد مات . ثم يأخذون فى إعداد الميت فيقومون بغسله ، ولهم
فى ذلك عوائد غريبة . ويكفنونه فى نوع خاص من الأقمشة يعرف بعضه
بالأثواب البعلبكية . وعند تمام إعداده ، والهلم بالمسير به ، يتقدم شخص يلقب

« بالمدير » ، وينادى فى وسط الجمع الحاشد مثنيا على الفقيد ، ناسبا إليه كل خير وبر . ولدى بروز الجنازة من منزل الأسرة مثلا ، يتبارى النسوة فى إخراج صيحة من عجة جدا وهى صيحة الوداع ، يودعون بها فقيدهن الكريم . وهنا تجد اختلاط النساء بالرجال قد ازداد ، وأسفر النسوة ومشين حافيات الأقدام فى صحبة الجنازة . - ويقدم أهل الفقيد فى بعض الأحيان خبزا ونحوه ، يحمل فى أوعية خاصة يسعى بها الساعون أمام الجنازة لتفريقها على العامة وهى المسماة « الكفارة » . وكذلك قد يحملون معهم ، خرافا فى أقفصة ، وخبزا كذلك ، فيذبحون الخراف على القبر ، ويوزعون منها ومن الخبز على العامة قصدا للصدقة فى ظاهر الأمر ، وقصدا للسمعة فى باطنه .

ووقت التفريق يشتد الزحام والمهرج والمرج ، وقد يعطى من لا يستحق ويحرم من يستحق العطاء . .

فإذا سارت الجنازة فى الطرقات ترى على بعض جوانبها حصرأ وأبسطة يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد المختلفة . كما قد تتقدم الجنازة طوائف من يحترفون القراءات المختلفة يرتلون بصوت واحد وبنغمة واحدة ويسمونهم « القراء » . ثم يصل على الميت فى الجامع حيث يكون فى انتظاره بعض الناس جلوسا ، ثم يسعى به إلى المقبرة ويلحد ، ثم ينادى « المدير » ، على الناس بأن يتقدموا لعزاء أهل الميت ، فيعزونهم وينصرفون . وهناك فى دار الفقيد تقام - عادة - ثلاث ليال تقرأ فيها آيات الكتاب الحكيم ويسعى الناس إليهم لمواساتهم . وكثيرا ما يعنون عناية خاصة باليوم الثالث وأيام الخميس الثلاثة الأولى ويوم الأربعاء . - وفى هذه الأيام المذكورة يقبل النسوة لتقديم العزاء لأسرة الفقيد وعند اقترابهن من الدار يبادرون بالنواح والعيول المفتعل ، والصراخ ولطم الخدود فيقابلهن عدد من نساء أهل الفقيد يمثل ذلك . وهذا منهن بمثابة التحية وردّها . والجميع بملابس سوداء أو زرقاء ويقوم بينهن فى كثير من الأحيان نادبات يلطمن خدودهن ويسودن وجوههن ويرددن كلمات مثيرة مخزنة ، تؤثر فى

الحاضرات . فيقابلن هذا بمثله ، وقد يحثون فوق رؤوسهن التراب ، ويشركن الدفوف معهن في هذا الصخب البذيء . . . ويضعن الغلالات السود في رقابهن . وقد حاول بعض السلاطين - الغوري - وضع حد لهذه المفاسد ، وأغلب الظن أنه لم يفلح . . .

ويعنى بعض ذوى المولى بتقديم صنوف الطعام للمعزين والمعزيات تفاخرا وظهورا لا صدقة ولا كفارة . .

هذا ، أما المقابر فيعنى عادة بتجميلها ، ويعنى أحيانا ببناء دار خاصة بجوار كل قبر لتقيم بها أسرة صاحب هذا القبر بعد دفنه . وتزيد مدة إقامتها أو تنقص حسب منزلته منها ومكانته بينها . . . يقيمون في تلك الدور يأكلون ويشربون ويبيتون ويوقدون الشموع والقناديل . ثم يعودون إليها بين الفينة والفينة في المواسم والأعياد فيقيمون مرة أخرى وهكذا . وفيهم الرجال والنساء والأطفال .

ويقال إن الظاهر يبهرس حاول أن يهدم مرة تلك الدور المقامة حول المقابر فخره أحد وزرائه مغبة هذا الهدم ، وخشى أن تكون من ورائه فتنة بين السلطان والأمراء لأن لهم فيها دورا ومواضع . . وطلب إليه أن يستفتى في شأنها العلماء ليعتز بفتواهم إذا عارضه معارض . فأفتى العلماء بضرورة هدمها ، ولكن الوزير أهمل تنفيذ هذا المشروع .

« راجع هذه المعلومات في كتاب المدخل لابن الحاج ، ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها » ، ج ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها - ابن إياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٠ هـ ، وحوادث المحرم عام ٩١٧ هـ - ج ٢ ص ٢٩٥ »

١٠ - إقامة الموالد والمواسم :

وتلك عادة ورثوها من العمود التي سبقتهم إذ انتشرت الموالد والمواسم في مصر منذ أيام الفاطميين بصفة خاصة ، فرسخت هذه العادة وتأصلت بالبلاد المصرية حتى اليوم ، واهتم بمراعاتها ملوكها وسوقتها على حد سواء في عهد سلاطين المماليك . والغرض منها إشباع العاطفة الدينية وتغذيتها ، وحب الظهور بالنزعة الدينية

والمحافظة على الدين وإقامة شعائره ، وتشبيث الجاه وبث النفوذ عن طريقه .

ومن هذه الموالد والمواسم : موالد النبي عليه الصلاة والسلام ، وموالد بعض آل البيت النبوى الشريف ، وموالد بعض الأولياء ذوى الأضرحة الشهيرة بالبلاد . ومنها موسم عاشوراء وليلة نصف شعبان ورأس السنة الهجرية وغير ذلك من الأمور التى لاتزال مرعية بين سوادنا حتى اليوم . . وفى هذه الليالى يشتد إقبال العامة على الطعام والحلوى ، ويتجمعون فى أماكن مخصوصة أو فى المساجد لإحياء مراسيم هذه المواسم ، وللمو كذلك .

أما المولد النبوى فيقام طبعاً فى شهر ربيع الأول ، ويهتم سلطان البلاد بإحيائه ويجتمع فى ليلته الكبرى بالقضاة الأربعة وأعيان الأمراء والمباشرين فى حوش القلعة . وقد تنصب لهم خيمة كبرى مزدانة . وتمد موائد الطعام . ويمنح السلطان بعض الخلع أو الوظائف يريد بهذه المناسبة .

ومن الموالد التى اهتموا بها مولد « سيدى إسماعيل الإنبائى » ، فكانوا يحبون ليلته فى شهر المحرم أو صفر أو ربيع من كل عام . . واستمر ذلك سنين عدة فى عهد الغورى خاصة ، وكانت ليلته حافلة إذ تضرب فيها خيام عدة قد تبلغ خمسمائة ، فى الجزيرة تجاه بولاق وتقام بها سوق مؤقتة للبيع والشراء .

قال ابن إياس فى حوادث المحرم عام ٩١٣ هـ ، وفى ١١ منه ماملخصه : « كان ببولاق ليلة حافلة بسبب وقت سيدى إسماعيل الإنبائى رحمه الله عليه . فضربت فى تلك الجزيرة التى تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة ، وصنعوا سوقاً بداكين . وخرج الناس فى الفرجة عن الحد . وأقاموا هناك ليلالى متوالية » .

ثم قال : « وهى عقب ذلك عمل مولد للشيخ سودان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن التى ببولاق عند الرصف . فكان له مولد حافل . وضربت هناك الخيام الكثيرة عند المدرسة » .

هذا وقد أقيم مولد الإنبائى فى صفر عام ٩١٤ هـ ، وفى صفر عام ٩١٥ هـ ، وصفر ٩١٦ هـ ، وصفر عام ٩١٧ هـ وفى ربيع الثانى عام ٩٢٠ هـ .

وفي عيد رأس السنة الهجرية ينزل السلطان عادة إلى ميدان القلعة ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة . . وكثيرا ما تمد الموائد بالأطعمة الشبيهة في ذلك اليوم للمهنئين .

وأول من أحدث الاحتفال بمولد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، السلطان قايتباى فى ربيع الأول عام ٨٨٩ هـ ويطلق عليه مولد الخليفة .

• وراجع المدخل لابن الحاج . وابن إياس جزء ٤ حوادث شهر ربيع الأول من كل عام .
• وحوادث التواريخ المذكورة هنا . وحوادث شهر المحرم من كل عام وخاصة عام ٩١٦ هـ ،
• وراجع جزء ٢ ص ٢٢١ .

١١ - حفلة كسر الخليج :

كتبنا وصفا لهذه الحفلة والعادات المرعية بها فى مقدمة الكلام على فيضان النيل فى هذا الجزء من الكتاب فنكتفى بمراجعتها والإشارة إليها هنا . ونسوق للقارىء ما وصف به ابن إياس مشاركة الغورى فى إحدى حفلاته، فنقول ملخصا :

« فى مساء الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ نزل السلطان من القلعة ثم انحدر إلى المقياس وطلع إلى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس . ودعا الأمراء قاطبة . ونصب لهم خياما على الشاطئ تجاه بر الجزيرة ، فبات السلطان فى تلك الليلة فى المقياس هو والأمراء . ومد له القاضى كاتب السر محمود بن أجا أسبطة حافلة أنفق فيها نحو ٧٠٠ ديناراً . وكان معه القضاة الأربعة وأعيان الناس . وحضر قراء ووعاظ البلد . ثم إن السلطان أوقد فى قاعة المقياس ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر على شرفات المقياس . وكذلك جامع المقياس المثمنة .

ثم إن سكان بر مصر ، وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه

بر الروضة - ثم أحضر السلطان المركب الكبير ، الغليون ، الذى عمره وأنفق عليه نحواً من ٢٠ ألف دينار ، فأرسوا به قبالة المقياس وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط فكان الذى أوقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل - ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقه ، فكان مصروفها نحواً من مائة وسبعين ديناراً ، مثل إحراقه نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة أمام القلعة - فشقوا بالنفط من القاهرة مزقوا بالطليل والزمر . وكانت عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستون ، والأزهار عشرة ، والجرر أربعون ، والصواريخ الكبيرة ثلثمائة . والمأويات : ألف ومائتان . والشجرات عشر والتنانير عشرون . وقطع ألقان ، والشعل أربعون - فلما وصلوا بالنفط إلى شاطئ البحر أنزل فى خمسين مركباً . وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البهظة ، ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس . ففعلوا ذلك . فكان صوت الطبل والزمر مع الكتوسات كالرعد القاصف .

فلما صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط - وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراعاً - وكانت الليلة ليلة البدر . فدقت الكتوسات السلطانية مع كتوسات الأمراء المقدمين وهم ٢٤ ، فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط فكانت ليلة لم يسمع بمثلاً . وقد بلغت أجرة كل مركب فى تلك الليلة خمسة دنانير أو أكثر . وازدحم المراكب بالخلائق حتى كان النوتية يجربون من كل عابر عليها أربعة أنصاف ، فاجتمع لهم من ذلك مال كثير . وخرج الناس للمشاهدة . وأقام السلطان هناك الأربعاء والخميس وفى ذلك الليل الأول كان إلى القاهرة وأعوانه يطوفون خلال المدينة محافظة على الأمن ورعاية للسكينة . ومع ذلك لم يخل الأمر من اضطراب وعبث .

١٢- خروج الحمل :

أفردنا للمحمل والحج بابا خاصا في فيما مضى ، فليراجع .

١٣- الحفلات الأخرى ولإيالى السمر والمغنون والمغنيات :

وصفنا فيما مر ضروبا من الحفلات والعادات المرعية فيها ، ونذكر هنا أن للقوم حفلات أخرى خاصة تقام بمناسباتها ومثال ذلك : نزول السلطان إلى ناحية ما كالمطرية أو الأزبكية أو غيرها . فتقام لذلك حفلة يسهر عليها بعض أمراء الناحية المذكورة وأعيانها . ومنها احتفال السلطان أو أحد الأمراء أو الأعيان بتمام إنشاء بناء أسسه على نفقته كمسجد أو قصر أو حديقة ، ومنها احتفال السلطان بختام فصل لعب الكرة .

ومن الأمور المرعية في هذه الحفلات أحيانا تجهيز شراب الليمون والسكر في أحواض كبيرة وسقى الناس منها . أو تفريق لون من اللبن على الحضور . أو مد موائد الأطعمة الشهية .

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم في مجالسهم ومحافلهم . فقد روى ابن إياس أن الغورى كان له نديم يضحكه يدعى « الشنفجى العجمى » يلعب بالصحون النحاسية والجريد . « حوادث شوال عام ٥٩٢١ هـ » وروى المقرئى في خطه بالجزء الأول ص ١٤٦ أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه في مجلسه .

وكانوا يستعينون في حفلاتهم أحيانا بالطبل والزمر والمغنين والمغنيات ، وكانوا يطلقون لفظ « أستاذ » على المغنى ، ولفظ « الرئيسة » على المغنية ، ولفظ « الرئيس » على المضحك ذى النكات اللطيفة والألعاب الطريفة « راجع طيف الخيال لابن دانيال » . وكانوا يقيمون للمغنى دكة يجلس عليها وحوله الناس يسمعون . وبهذه المناسبة نذكر أن البحث عن أغاني أية أمة ، وضروب تسليتها ، موضوع طريف جدا يتصل اتصالا وثيقا بالبحث عن عقليتها ، وعقيدتها ونفسياتها ودرجة ثقافتها وطريقة تهذيبها وذوقها . ثم هو يتصل بترقيها ومقدار تحولها وكيفية اتجاهاه ، وهو بذلك

كله يطلعنا على جانب هام من جوانب تاريخها . فلعل أحد الأدباء يولى هذا البحث عناية ما حتى يقدم لناوصفا شائقا لأغاني الأمة المصرية وألعابها يتضح منه جانب من تاريخها العقلي والعاطفي .

ونذكر الآن بعضا من المغنين والمغنيات ممن ورد لهم ذكر في بدائع ابن إياس ، وبعض الحوادث التي لها صلة بتوضيح هذا الموضوع فنقول :

١ - قال ابن إياس عن السلطان المنصور محمد بن المظفر حاحي : « إنه لما خلعه الأتابكي يلبغا العمرى من السلطنة عام ٧٦٤ هـ أدخله في دورالحرم بالقلعة . واستمر مقبلا في غبوق وصبح لا يفيق من السكر ساعة . وعنده جوفة جوارى مغنيات نحو عشرة يدقون بالطارات عند الصباح والمساء . »

قال : وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين محمود الأستاذار . ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية « ج ١ ص ٢١٢ . »

ب - وقال في حوادث عام ٨٦٢ هـ في جمادى الأولى توفي المغنى الأستاذ في فن الشيد فريد عصره ، ووحيد دهره « ناصر الدين محمد المازوني القاهري » . وكان بارعا في فن الغناء . وكان يضرب به المثل في حسن النغم ، ومعرفة الفن ولم يحىء بعده من هو في طبقته إلى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصوري بهذه الابيات :

يا نزهة السمع سكنت الثرى فللملاهي أيما لطف
كم لطفة من قدم أو يد في خدي الدوكة والدف
وقال أيضا :

كانت به لذاتنا موصولة فانقطعت بموته اللذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة فارتفعت لموته الأصوات
وكان قد أصيب المازوني بفالج فأقام به مدة طويلة حتى مات . وكان يقول :
« ارحموا من سكنت خسه وبطل نصفه . » « ج ٢ ص ٦٢ »

ج - وقال في حوادث عام ٨٦٢ هـ : « إن الأمير جاني بك لما مكثت عمارة القبة التي أنشأها في منشيّة المهراني عمل هناك وقدة عظيمة . وأحضر صواري طوالا على البر ، وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ، ومد مدة عظيمة . وكانت ليلة لم يسمع بمثلها ، وحضر هناك « ابن رحاب المغني » ، « إبراهيم ابن الجندي » ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ - وكان ذلك في ليلة الجمعة . » « ج ٢ ص ٧٦ »

د - نور الدين علي بن رحاب المغني : يظهر أن هذا المغني كان ذا شهرة فائقة وذا فن بارع ، ولذلك كان كثيرا ما يستدعى لإحياء ليالي الملوك والأمراء . وقد ورد ذكره مرارا في سياق حوادث عصر قايتباي وقبله . فمن ذلك ما ذكرناه في « ج » ، ومنه أيضا أنه في رجب عام ٨٧٥ هـ توجه السلطان قايتباي إلى قناطر العشرة وإلى الأهرام وأقيمت له الزينات ومدت له الموائد ، وظل كذلك سبعة أيام أحيائها المغني « ابن رحاب » ، ومعه كثير من المغنين المعروفين ، وأحيا كذلك ليلة ختان أولاد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وكان مقبلا بالإسكندرية في عهد قايتباي .

وفي عهد السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه قبض الأمير طومان باي على هذا المغني « ابن رحاب » ، في شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، وكان سبب ذلك أنه كان يتشيع للأمرير أقبردى الدوادار الناصر على السلطان . وكان يسبب الأمراء في مجلس الغناء ، ويهجوهم بأفحش هجاء . فنقل عنه ذلك فقبض عليه وضرب بالمقارع وشهر في القاهرة وهو عريان مكشوف الرأس على حمار ، وكان قد قبض عليه مرة أخرى قبل هذه المرة ، قبض عليه الأمير كرتباي الأحمر وهم بضربه ثم اكتفى بتوبيخه جزاء وعفا عنه ..

فلما عاد إلى مانهى عنه ضرب وشهر كما ذكر ، والمشاعلي ينادى عليه : « هذا من يكثّر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وقد توفي ابن رحاب « في شهر ذي القعدة عام ٩٠٥ هـ . » وقال عنه ابن إياس : « وفي ذي القعدة كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب المغني المنشد المساح فريد »

عصره ووحيد دهره ، وكان من نواذر الزمان . ينظم الشعر ويلحن الخفائف
بالحان غريبة . وكان آخر مغاني الدكة في الدخول والطرب ، ولم يحىء بعده أحد
في الدخول مثله . وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات .

توفي نزهة الأسماع طرا وصار العيش منا في ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعفا كن جاء المآثم في المصاب
وأضحى الناس في قلق ولم لا وقد مضى الوجود بلارحاب ،

« راجع ابن أبياس جزء ٢ ص ٧٦ ، ١٦٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٣٥٢ ، ٣٦٨ »

هـ - ولما خرجت خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي ، وهي بنت العلائي علاء
الدين بن خاص بك ، إلى الحج عام ٨٧٩ هـ كان لها ركب حافل وموكب عظيم سار
أمامه أربعة من الحداة منهم « إبراهيم بن الجندي » و « أبو الفوز الواعظ » .

« ابن أبياس جزء ٢ ص ١٥٦ »

و - خديجة الرحابية : قال عنها ابن أبياس : « إن الأمير يشبك من حيدر والى
القاهرة قبض عليها وهي تغنى في بعض الأفراح بتهمة إفساد عقول الناس . وكان
ذلك في شعبان عام ٨٨٦ هـ . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا وقرر عليها
غرامة مالية ، وكتب عليها تعهدا بأنها لاتزاول مهنتها . وقد لبثت بعد هذه الحادثة
مريضة حتى ماتت ولها من العمر نحو ثلاثين عاما ، فأسف كثير من الناس لو فاتها .
وكانت خديجة من مشهورات المنغنيات بمصر ، ذات صوت جميل وإنشاد بديع
وكانت في بدء أمرها من مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا ، فخطبت عند أرباب
الدولة ورؤسائها . وكانت مع حسن صوتها جميلة الخلق حتى افتتن بها كثير من
الناس . وقد قال فيها بعض الشعراء :

رحابية يخفى الشמוש جمالها لها حسن إنشاد يزين مقالها (١)
وقد خايلت بالبدر ليلة تمه فما زال من عيني وقلبي وخيالها

« ج ٢ ص ٢٠٧ »

(١) هكذا ، قافية بفتح اللام ، وقافية بضمها .

٦ - شمس الدين محمد بن حلة : كان من مشاهير الوعاظ ، وكان منشدا مطربا وله نظم جيد ، ولد قبل سنة ٨٢٠ هـ توفي في شهر المحرم عام ٨٩٢ هـ . ج ٢ ص ٢٤٢ ،
٧ - في ربيع الآخر عام ٨٩٩ هـ اختار السلطان قايتباي الأمير ماماي بن خداد الدوادار الثاني رسولا إلى ملك بني عثمان . فأخذ ماماي يستعد للرحيل ، وكانت توقد له كل ليلة بناحية بركة الرطلي وقدة حافلة يمثل فيها «خيال الظل» ، أو يغني بعض من مغني العرب أو ابن رحاب المغني أو يتفككون بالألعاب ونكات فرقة المحبطين .
« ج ٢ ص ٢٨١ »

٨ - في ١٢ شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قايتباي من القلعة واتجه نحو القناطر العشرة ، ومعه أولاد عمه قيت وهما جانم وجاني بك وعدد من الخاصكية . وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهارة ، فضربوا لهم وطاقا في ناحية الجيزة حيث أقاموا ثلاثة أيام . واستدعى لإيناس السلطان ومن معه «أبو الخير» ، ومعه «خيال الظل» ، وجوق مغاني العرب و«برايوه» رئيس المحبطين .
« ج ٢ ص ٣٤٧ »

٩ - عزيزة بنت السطحي : قال عنها ابن إلياس : «إنها توفيت في أوائل شهر شوال عام ٩٠٦ هـ . وكانت من أعيان مغنيات مصر ، فريدة عصرها في التشيد مع حسن الصوت وفصاحة الإعراب في الشعر ، فلم يخلفها من بعدها إحدى النساء . ورأت لدن أعيان مصر وأرباب دوائها غاية العز والعظمة ، مما لم يره غيرها من أهل هذا الفن . وماتت وهي في العقد الثامن من عمرها ولها من الشهرة ما زاد عن الحد . وما قاله فيها الشهاب المنصوري :

وفتاة نزهت طرفي فيها شفت مسمعى بجوهر فيها
منذ زارت محبا وتغنت كاد يرى بنفسه من أبيها^(١)

« ج ٤ »

(١) مرجع كل من هذا الرقم وما يليه ج ٤ حوادث العام الذي ذكر فيه .

١٠ - علي بن غانم : كان علامة في ضرب الطنبورة ومعرفة الأنغام . وهو الذي

أظهر الخفائف النجدية بمصر ولحنها في التلاحين الغربية ، حتى أبطل بها فن الموسيقى ، توفي عام ٩١٣ هـ
(ج ٤ ص ١٣٠)

١١ - الريسة إنعام ريسة خوند الخاصبكية : كانت من أعيان مغنيات البلد .

وكانت لا بأس بها . وتوفيت في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ . (ج ٤ ،

١٢ - الريسة خديجة أم خوخة : كانت من أعيان الدكة . ولها في هذا

الفن اليد الطولى . توفيت في يوم الاثنين المحرم عام ٩١٨ هـ (ج ٤ ،

١٣ - الريسة بدرية بنت جريعة : كانت من أعيان المغنيات ولها يدين شهره

توفيت قبل أم خوخة بقليل . (ج ٤ حوادث المحرم سنة ٩١٨ هـ)

١٤ - هيفه اللذيذة : كانت رئيسة المغنيات . ادعى عليها بعض أعدائها دعاوى

رافعها بها أمام السلطان الغورى فقبض عليها في رمضان عام ٩١٨ هـ ، وسجنحت وعذبت ثم غرمت خمسة آلاف دينار . وتوسط لها القاضى بركات بن موسى فدفع ألف دينار ، باعت في سبيلها جميع ممتلكاته . وقسطت عليها خمسمائة دينار تدفع منها في كل شهر مائة . (ج ٤ ،

١٥ - وفي ذى القعدة عام ٩١٨ هـ رحل السلطان الغورى إلى زيارة الأهرام

فنصب له سرادق ووطاق واستقدم معه طائفة من المخنين وأرباب الآلات منهم « محمد بن عويضة العواد ، و « جلال السنطيرى ، و « البوالقة » و « ابن الليمونى » .

« ج ٤ »

١٦ - الناصرى محمد بن قجق : نديم السلطان الغورى وكان علامة في ضرب

الطنبورة عارفاً بصناعة الأنغام لطيف الذات حسن المعاشرة . توفي في ١٨ رمضان

سنة ٩٢٠ هـ وكانت جنازته حافلة ، مشى فيها أعيان الناس وكبار أهل الفن من

مغنين وآلاتية . فقد كان شيخاً لهم ومقرباً إلى السلطان (ج ٤ ،

١٧ - وما يذكر أن السلطان الغورى فى عام ٩٢٢ هـ وهو آخذ فى الخروج إلى

الشام لملاقاة العثمانيين عرض مغانى الدكة وهم « أحمد أبو سنة ، و « المحوجب ،

و المحلاوى ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته . « ج ٣ ص ٢٣ »

١٨ - محمد الرئيس فئات العنبر : وهو رئيس المحبطين فى عهده وكان أستاذاً فى صنعة الخيال وفاق فى ذلك « بربوه » . وقد توفى فى جمادى الآخرة عام ٩٣٦ هـ .
« ج ٣ ص ٢٢١ »

١٩ - أصيل القلعبة : كانت من كبريات مغنيات عصرها ذات إنشاد لطيف ، وكانت بارعة فى غناء الخفائف ورأت لدن رؤساء الدولة وأعيانها غاية الحظ والخطوة ، وقد توفيت فى يوم الاثنين ٨ ذى القعدة عام ٩٣٨ هـ . « ج ٣ ص ٣١٢ »

٢٠ - الصلاح الثعلبى القوصى : وهو أحمد بن كامل بن الحسن الثعلبى القوصى ، كان مغنيا ملحننا شاعراً موسيقياً . توفى بقوص عام ٦٩٩ هـ .

« الطالع السعيد رقم ٥٩ »

٢١ - التقى بن الثقة الإسنانى : وهو صالح بن عبد القوى بن على بن زيد . كان موسيقياً مغنيا حسن الصوت مقرئاً . مات بقوص عام ٧٢٤ هـ .
« الطالع السعيد رقم ١٩١ »

٢٢ - إبراهيم بن بابى - بفتح البائى - وهو صارم الدين العواد المغنى . كان مقرباً عند المؤيد شيخ . وكان أبى النفس ، إليه المنتهى فى العود والموسيقا . وهو رومى الأصل ، فى حديثه بالعربية عجمة . كان يسكن فى بستان الحلّى المطل على النيل . ومات عام ٧٢١ هـ وخلف مالا جزيلاً . « الضوء اللامع ج ١ ص ٣٢ »

٢٣ - ابن الفرداح : وهو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن ، شهاب الدين القاهرى الواعظ . ويدعى الفرداح أيضاً بضم القاف . برع فى فنون عدة منها الميقات والفلك وفاق فى الموسيقى . وكان ينظم الشعر الحسن ويخترع ألحانه ويغنيها . وله اليد الطولى فى الضرب بالعود ، والبراعة فى ضرب السنطير . وانتهت إليه الرئاسة فى حسن الإنشاد ورخامة الصوت فى زمانه مع فصاحة وطلاقة وبارش الأذان والتسييح عند المؤيد شيخ . وكان المؤيد يميل إليه ويستصحبه فى (٢٣ - ممالك)

خلواته ورياضاته . ولد في نحو عام ٥٧٨٠ هـ ، ومات عام ٨٤١ هـ بالقاهرة بالطاعون .
« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٤٠٢ »

٢٤ - شهاب الدين القلقيلي المقدسي . وهو أحمد بن محمد بن أحمد ، كان حسن الصوت ناظماً ناثراً كاتباً . توفي عام ٨٤٩ هـ . « الضوء اللامع ج ٢ رقم ٢١٣ » .

هذا ويضيق بنا المقام إذا رحنا نعدد ما كان لهؤلاء الأسلاف من تقاليد وعادات . وحسبنا أن نجمل هنا القول عما يخاطرنا منها فنقول :

من ذلك حبهم للبناء وقد يتغالون في ذلك تغاليا يدفعهم إلى الإسراف أحيانا أو الظلم أحيانا أخرى . وقل أن ترى سلطانا أو أميراً أو أميرة أو أحداً من أعيانهم لم يخلف أثراً كقصر مشيد أو مسجد جامع أو قنطرة نافعة أو بستان رائق أو غير ذلك . وتلك مساجدهم تملأ لجفاج مدينة القاهرة ، وتترامى مآذنها في سماءها . كما لا يزال كثير من أسمائهم وقصورهم وشوارعهم وأزقمتهم يتردد ذكره أو يلوح فيها . ومن ذلك : منح السلاطين الخلع للرؤساء وكبار الدولة في المناسبات . وكانت هذه الخلع عادة متخذة من أنخم الأقمشة وأغلاها ، وتعد بمثابة النياشين أو الأوسمة .

ومن عادات السلاطين لبس الصوف والألوان القاتمة في الشتاء ، والملابس البيضاء في الصيف .

ومنها تخصيص موسم في كل عام يشترك السلطان فيه مع بعض الأمراء في لعب الكرة وهم ركوب على الخيل ، وقد تصاحبهم الموسيقي أثناء لعبهم .

ومنها أن يحلف السلطان الأمراء على انصهف بالايثور واضده ولا يتأمروا عليه ، وذلك إذا وقعت منهم فتنة ثم خمدت رجها .

هذا وقد كان كثير من المفاسد منتشرة في هذا العصر كشرب الخمر وتعاطي الحشيش واقتراف الزنا بأنواعه والغش في الكيل وماشابه ذلك ، وقد عمل كثير من السلاطين على ملافاة ذلك ومن هؤلاء الظاهر بيبرس .

ملاحظات عامة

نتبع الفصل السابق بذكر ملاحظات عامة عنت لنا أثناء تصفحنا تاريخ هذا العصر ، لم نجد لها فرصة لتدوينها تحت أحد الأبواب السالفة من هذا الجزء . واضطررنا أمام أهميتها أحيانا ، وطرافتها أحيانا أخرى ، إلى إثباتها هنا تحت العنوان المتقدم ففنها :

١ - عيد النيروز : كان عيد النيروز ، أول السنة القبطية ، من أجل المواسم بالديار المصرية ، يحمل فيه لأكابر مصر من الأقباط والمباشرين الكثير من أصناف الفاكة كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامي والبلح والعنب والتمر القوصي والبطيخ الصغير والرطب والخوخ المشعر وقدرور ، الهريسة ، المحشوة بلحوم الدجاج وغير ذلك من ضروب الحلوى . وذلك على سبيل الهدايا .

وكان جمع من العياق ، والسفلة يتعرض في ذلك اليوم لأكابر الناس وأعيانهم فيقفون على أبواب منازلهم ، أو يقطعون عليهم طريق سيرهم لينتزوا منهم ضريبة خاصة ، ومن امتنع عن دفعها أودى أكبر الأذى ، طوراً يرش بالماء النجس ، أو يقذف بالبيض النقي ، أو يصفع بالنعال والأخفاف وقد أمر السلطان برقوق بإبطال هذه العادة السخيفة وذلك في سنة ٧٨٧هـ .

وكذلك كان بعض الناس ينتهز فرصة اليوم المذكور ويرسل نفسه إلى ملذاتها وعلى هواها فيشرب الخمر ويقترب الزنا ، وربما وقعت بسبب هذا الفساد حوادث قتل .

« ابن أبياس جزء ١ ص ٢٦٣ »

٢ - اهتمام برقوق بلعب الرمح : اهتم السلطان برقوق عام ٧٨٩هـ بلعب الرمح ، وقد أمر المماليك في ربيع الآخر بأن ينزلوا من طباق القلعة لمزاولة لعب الرمح من الظاهر إلى العصر في الحوش السلطاني ، وهو أول من اهتم بذلك من السلاطين . « ابن أبياس جزء ١ ص ٢٦٦ »

٣ - شرب القمز : في أوائل صفر عام ٧٩١ هـ ابتداء السلطان برقوق بشرب القمز . وهو عبارة عن لبن مصنوع محض ، وكان الملوك تعودوا ذلك . فرسم برقوق للأمراء بأن يجتمعوا في كل يوم أربعاء في الميدان تحت القلعة ليشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة شعائر المملكة . فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان جالسين في مراتبهم بانشاش والقماش ، أى بالزى الرسمى ، والسقاة يسقونهم القمز في الزبادى العسنى وكان القمز يسكر . « ابن إياس جزء ١ ص ٢٦٩ »

٤ - التصدق بشمن الفرس : لما مرض السلطان خشقدم باع أحد أفراسه وتصدق بشمنه على الفقراء . وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك إذا أصيبوا بمرض يتقربون بذلك لينعم الله عليهم بالشفاء . « ابن إياس جزء ٢ ص ٨٢ »

٥ - عصائب النساء : كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رؤسهن عصابات مقنزة وسراقوسات حريرية ويخرجن بذلك في الأسواق . فرسم قايتباى للأمير يشبك الجمالى المحتسب في رجب عام ٨٧٦ هـ بأن ينادى في القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع محتومة من جانبها بختم السلطان . وشدد في ذلك على بائعى العصائب . كما شدد التنكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصابتها المقنزة أو سرقوسها الحريرى ، وإلا تضرب وتشهر في الأسواق . فاضطر النسوة عند خروجهن إلى لبس العصابة الطويلة كارهات ، أو عدم لبس العصابات بتاتا ، واستبقين المقنزة لللبس داخل منازلهن . وقد قال في ذلك الأديب زين الدين بن النحاس :

أمر الإمام مليكننا بعصائب في لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعه ولبسها ودخلن تحت عصائب السلطان
واستمر الحال كذلك مدة ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل .

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٣٢ »

٦ - خلع أبواب الإسكندرية عند مقدم السلطان : كان من العادات القديمة

أن السلطان إذا توجه إلى الإسكندرية لزيارتها وتفقد أحوالها تخلع له أبوابها وتلقى على الأرض حتى يرحل عنها . فلما زارها الأشرف قايتباي عام ٨٨٣ هـ لم يوافق على هذه العادة وأبطلها . « ابن إياس ج ٢ ص ١٧٣ »

٧ - عمائم النصارى واليهود : اتجهت أنظار بعض السلاطين إلى جعل عمائم النصارى واليهود من ألوان خاصة تميزها عن عمائم المسلمين . ومنهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد رسم في عام ٧٠٠ هـ لليهود بأن يلبسوا عمائم صفراء وللنصارى بأن يلبسوا عمائم زرقاء ، وللسامرية بأن يلبسوا عمائم حمراء . وأشهر النداء بذلك في مدينة القاهرة . وكان النصارى - أى الأقباط - من قبل يلبسون عمائم بيضاء كعمائم المسلمين .

قيل : وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالسا بباب القلعة فدخل بعض الكتّاب الأقباط بالديوان وهم بعمائم البيضاء . فبالغ في تعظيمهم على اعتبار أنهم مسلمون ثم تبين له أنهم أقباط . فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فرسم بما سبق ذكره .

وفي عام ٧٥٤ هـ رسم لهم السلطان الصالح صلاح الدين بأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير . -

وبهذه المناسبة نذكر أنه رسم لهم كذلك ألا يستعان بهم في ديوان . ولا يركبوا دابة مكاري مسلم . وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا . ولا يدخلوا الحمام إلا والصليب معلق في أعناقهم . « ابن إياس ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١ »

٨ - الأسر البارزة : أشرقت في أفق هذا العصر أسر عدة من صميم الأمة

أنجبت ، ونبع منها رجال خدموا الدولة في مصر أو الشام خدمات جليلة ، سواء أكان ذلك في وظائف الجيش أم الإدارة أو القضاء أو الكتّابة ، أو في العلم والأدب . والبحث عن هذه الأسر ونجبائها وذكر ماثرهم بحث طريف يحتاج إلى عناية مستقلة يبذلها أحد الأدباء .

ونذكر هنا بعضاً منها على سبيل المثال :

(١) أسرة الديري : ومنها القاضي سعد الدين الديري الحنفي . وبرهان الدين الديري الحنفي « ذكرناهما في القضاة » . وإبراهيم بن الديري كاتب السر « ذكره ابن إياس ج ٢ ص ٨٣ - والضوء ج ١ ص ١٥٠ ، وبدر الدين بن عبد الرحمن الديري الحنفي ، ذكره ابن إياس ج ٣ ص ٦٣ ، وعبد الرحمن الديري أخو القاضي سعد الدين « ذكره الضوء ج ٤ رقم ٣٥٣ » .

ب - أسرة البارزي : ومنها بهاء الدين بن البارزي « ذكره ابن إياس ج ٣ ص ١٢٢ - وتاريخ حماة للصابوني ، ومنها : زين الدين عبد الرحمن بن علي بن أحمد البارزي المتوفي في رمضان عام ٧٣٣ هـ متجاوزاً الستين ، مدحه ابن نباتة فقال :

أمولاي لا زالت مساعيك للعلی ويمنك للجدوى ورأيك للحزم
مضى السلف الأزكى وأبقاك للندی فله ما أبقى الولي من الوسمي

« ذكر في الدر الكامنة ج ٢ رقم ٢٣٣ »

ومنها : هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن عبد الله بن المسلم ، وهو شرف الدين بن البارزي الذي كان قاضي قضاة حماة ، ولد بها عام ٦٤٥ هـ ومات عام ٧٣٨ . وكان فقيها محدثاً مشاركاً في فنون كثيرة ، وألف .

« ذكر في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٤٨ »

ومنها عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان ، وهو نجم الدين البارزي قاضي حماة وأبو قاضيها ، ولد في حماة عام ٦٠٨ هـ ومات عام ٦٨٣ هـ ، ودفن في البقيع .

« ذكر في طبقات السبكي ج ٥ ص ٧١ »

ومنها : الناصري محمد بن البارزي الذي كان كاتب المملكة في زمن المؤيد شيخ ، ومدحه ابن حجة الجوى . وذكر في خزائنه « راجع مقدمتها »

ج - أسرة ابن بنت الأعز : منها القاضي الأشهر تاج الدين بن بنت الأعز

ومنها أبناء تقي الدين وصدر الدين . « ذكرناهم في القضاة » قال عنهم أبو حيان : « ولا يعلم أهل بيت بالديار المصرية أنجب من هذا البيت ، كانوا أهل علم ورياسة

وسؤدد و جلالة ، « راجع طبقات السبكي ج ٥ ص ١٣١ » .

د - أسرة ابن جماعة : ومنها القاضي الشهير بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين بن جماعة ، وكلاهما ولي قضاء القضاة بمصر . ومنها برهان الدين بن جماعة ولي قضاة الشافعي بمصر . « ترجمنا لهم في باب القضاة وغيره » .

هـ - أسرة ابن العديم : منها صاحب كمال الدين بن العديم الحلبي صاحب تاريخ حلب . وولده مجد الدين . « حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٠ » .
و - أسرة البلقيني : ومنها سراج الدين عمر البلقيني ، وابناه جلال الدين ، وعلم الدين . وهم من قضاة مصر . « ذكرناهم في القضاة » .

ز - أسرة القزويني : ومنها جلال الدين القزويني المشهور في علوم البلاغة .
ج - أسرة ابن عبدالظاهر : ومنها الكاتب المنشيء محيي الدين وأولاده ولاسيما فتح الدين وعلاء الدين .

ط - أسرة ابن فضل الله العمري : ومنها القاضي شهاب الدين وعلاء الدين وغيرهما ، أصحاب دواوين الإنشاء والرسائل بمصر والشام :

ي - أسرة السبكي : ومنها القاضي تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى . وأبوه تقي الدين رأس الشافعية في زمانه . وأخوه أبو حامد بهاء الدين « راجع الطبقات ج ٥ » .

ك - أسرة ابن مزهر . ومنها كاتب السر الشهير أبو بكر بن مزهر .

ل - أسرة ابن الشحنة : ومنها القاضي عبد البر بن الشحنة الحنفي صديق الغوري .

م - أسرة ابن الجيعان . ومنها الشهابي أحمد بن الجيعان وعبد الغني بن الجيعان وأولاده الخمسة ومنهم شاكر ابنه - ومنها زين الدين عبد الباسط بن شاكر والقاضي محمد بن يحيى بن شاكر بن الجيعان . « انظر تراجمهم في الضوء اللامع » .

ن - أسرة الدميري : ومنها القاضي محيي الدين بن الدميري .

ص - أسرة ابن حنا : ومنها الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا وأولاده نحر الدين محمد ، وزين الدين ثم أبناؤهما . « المخطوط القرظية ج ٤ ص ٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٩٥ »
١١ - الآثار النبوية والمصحف العثماني : قيل إن هذه الآثار كانت في حياة

جماعة من بني إبراهيم ببنبع ، فما زال صاحب بهاء الدين بن حنا يتلطف بهم حتى اشتراها منهم بستين ألف درهم من الدراهم القديمة . ونقلها إلى الديار المصرية وبني لها مسجدا خاصا مطلا على النيل تقصده الناس بالزيارة كل أربعاء ، وفي عهد الغورى نقلت إلى مدرسته هي والمصحف العثماني الذي كان حيازته ، وذلك في جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ بعد فتوى من القضاة . ونقل أيضا إلى هذه المدرسة مصحفا آخر مكتوبا بالذهب كان بخانقاه بكتنمر بالقرافة . وقيل إن هذه الآثار اشترت بألف دينار - وقد احتفل بنقلها احتفالا رائعا .

« ابن إياس ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ »

١٢ - البلسان : وهو البلسم . قيل إنه من آثار عيسى عليه السلام والإفرنج عناية به خاصة ويشترونه بثمن جيد . قيل إنه انقطع من مصر عام ٩٠٥ هـ فعمل الغورى على إعادة زرع . وجلب بذره من بلاد أخرى . وبذلك أعاد إلى مصر ثروة لا بأس بها . وكان يزرع من قبل جهة المطرية .

والبلسم ذكى الرائحة يشبه أوراق الملوخية ويصلح دهنه الأمراض الباردة كوجع الظهر والركب ، قيل وللأمراض البلغمية . وكان يعتنى باستخراج دهنه في ١٤ بشنس . « ابن إياس جزء ٢ ص ٣٧٣ »

١٣ - كبار الأضياف : أم مصر في خلال هذا العصر عديد من الملوك والأمراء والأعيان زوار فمنهم :

١ - الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه الملك المجاهد سيف الدين أسحق صاحب الجزيرة وأخوه الملك المظفر : وفدوا جميعا عام ٦٦٢ هـ لتهنئة الظاهر بيبرس بالملك . « جزء أول ص ١٠٣ »

ب - ملك النوبة : وفد على مصر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٢هـ
ومعه هدايا حافلة . « جزء أول ص ١٥٧ »

ج - ملك التسكرور : وفد على مصر عام ٧٢٤هـ ومعه هدايا نفيسة للملك
الناصر بن قلاوون في طريقه للحج . « جزء أول ص ١٦٣ »

د - القان أحمد بن أويس : وفد على مصر عام ٧٩٦هـ في عهد السلطان
برقوق ولقيه السلطان لقاء حسنا . « جزء أول ص ٣٠١ »

هـ - السيد على بن بركات الحسنى أخو سلطان مكة : وفد إلى مصر عام ٨٧٢هـ
في عهد قايتباي غاضبا من أخيه المذكور فتلقاه السلطان لقاء كريما « جزء ٢ ص ٩٥ »
و - الجام بن عثمان وهو ابن محمد الفاتح سلطان الترك ، وأخو بايزيد : فر من
أخيه هاربا إلى مصر هو وأهله عام ٨٨٦هـ فتلقاهم السلطان قايتباي خير لقاء .
« ج ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ »

ز - شاه بضاع بن دلغادر ملك الأبلستين : وفد إلى مصر ٨٩٥هـ وأقام بها
حتى توفي عام ٩٠٣هـ مطعونا . « ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٤٠ »

١٤ - « الطابور الخامس : قال السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة تيمورلنك
« ج ٣ رقم ١٩٢ » : « إن تيمورا كانت له جواسيس في جميع البلاد التي ملكها ،
والتي يملكها ، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها . ويكتبونه بجميع
ما يروم ، فلا يتوجه إلا وهو على بصيرة من أمرها . »
وهذا هو ما تتبعه الدول المحاربة في عصرنا الحديث فأمر « الطابور » الخامس
ليس جديداً ..

١٥ - تعليم الحيوانات : ذكر ابن خلدون في مقدمته ص ٣٠٤ قال : « ولقد
بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك ، مثل أنهم يعلمون الحجر
الأنسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مقدرات من الكلام والأفعال
يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها . »

١٦ - الأولياء والصالحون : جاء هذا العصر عقب أيام ملئت بالحروب الصليبية وعاصر بدؤه حادثة سقوط بغداد على يد التتار الوثنيين ، فكان لذلك رد فعل في العقلية المصرية إذ ملأها حماسة للإسلام وتعصبا له وحبا في الالتفاف حول الداعين إليه . ثم عنى السلاطين والأمراء بإنشاء الربط والزوايا والخوانق وترتيب دروس في التصوف بين المواد الدراسية . فكان لهذا كله أثره في كثرة الأولياء أو مدعي الولاية ، وإيمان العامة بهم وتلمس الخير بوساطتهم ونهج بعض السلاطين والأمراء هذا النهج فاتتمروا بأمرهم ونزلوا على إرشادهم ، وعنوا بإحياء ذكرى موالد المتوفين منهم ، وهكذا . ويرد عليك في الباب القادم أمثلة توضح ذلك .

قصص هذا العصر ونواديره

نختتم هذا الجزء من كتابنا بذكر طائفة من القصص والنوادر التي وقعت في عصر المماليك . نذكرها بلا تعليق ، ونتركها تتكلم وحدها إلى القارىء أو يستنبط القارىء منها ما يشاء من ناحية الثقافة أو الأخلاق أو المعاملات أو النواحي الأخرى الاجتماعية ونوع التفكير . وكثيرا ما تكون القصة خير شارح لإحدى هذه الأحوال بغير حاجة إلى بيان مبين أو توضيح موضح . فتنها .

١ - نادرة عن الشيخ تاج الدين الفاكهاني والشاطر الدمنهورى : وهو ممن

عاشوا في المائة الثامنة . قال عنه صاحب الدرر الكامنة ما يلي . « قرأت بخط المحدث بدر الدين حسن النابلسي قال . حكى لنا شمس الدين محمد بن عبد المحسن بن أبي الربيع العباسي الدمنهورى قال . قال الشيخ تاج الدين الفاكهاني : كان الشيخ أبو العباس الشاطر الدمنهورى يقول : لا يحجبني عن أصحابي التراب . فكان . فطلبت من الله تعالى عند قبره ثلاث حوائج . تزويج البنات من فقراء صالحين ، وحفظ كتاب الله ، وكان تعسر على ، والحج وكنت أعوز من النفقة ألف درهم . فرأيت الشيخ في المنام قبل طلوع الشمس ، وهو يقول . يأتيك فلان التاجر بألف درهم كف بها حالك . وما تدخل مكة حتى يفتح عليك بها . - قال . فافترضت الألف وسافرت حتى وصلت إلى المعلى ولم يفتح على شيء . فلما طلعت الحدره وأنا ماش ، وإذا رجل يسأل عنى ، فأشاروا إلى ، فحاولنى ألف درهم ، وقال . رأيت البارحة قائلا يقول . خذ معك ألف درهم ، والى بها فلانا ، ففعلت . فأخذتها ، وأتيت إلى الذى افترضت منه الألف فدفعها إليه . فقال . ما أريدها ، فإننى اشتريت بضاعة بثلاثين ألفاً فكسدت فلا تساوى الآن النصف . قال : فلما كان أمس ، رأيت رجلا عليه ثياب خضر وطاقيه بيضاء . فقال : الألف التى بعث بها إليك أبوك مع الشيخ تاج الدين ، لا تأخذها منه . وأنت تبيع البضاعة فى أيام منى بخمسة وأربعين ألفاً ، فكان كذلك . » الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٢٩٥

٢ - رؤيا الشيخ فرج بن عبد الله المغربي الصفدي الخاصة بالأمرد .

وهو نزيل صفد ومن عاشوا في المائة الثامنة ، قيل إنه تحول إلى قرب بحيرة طبرية واشتهر أمره وصار له بها أتباع ومريدون . حكى العثماني قاضي صفد أنه توجه لزيارته صحبة الشيخ تاج الدين المقدسي . فجرت مسألة النظر إلى الأمرد ، وأن الرافعي يحرم بشرط الشهوة والنووى يحرم مطلقا . فقال الشيخ فرج . رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي : الحق في هذه المسألة مع النووى . فصاح الشيخ تاج الدين وقال : صار الفقه بالمنامات ! فخفض الشيخ فرج وقال : استغفر الله ، أنا حكيت ما رأيت ، والبحث له طريق . « الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٥٧٩ » .

٣ - زهد ابن تمام مصالحى ، وهو محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالحى ، عاش بين سنة ٦٥١هـ إلى ٧٤١هـ ، كان عالما زاهداً قال عنه البدر النابلسي : « العالم الزاهد له المراقبة التامة على ملوك الدنيا ! كان تنكر ملوك الأمراء يدخل عليه وهو يخييط الثياب ، وإحدى رجله منصوبة والأخرى ممدودة فلا يتغير عن هيئته وكان يفرق كل شيء يهدى إليه على الحاضرين ، ولا يقاتب إلا من الخياطة » . « الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٨٣٥ »

٤ - من تروضاً باللبن ، في عهد الغورى حضر شخص من فقراء الصعبد يقال له « مهدى » ، مثل بين يدى السلطان المذكور وقامت عليه البيئنة بأنه زنديق ساحر يتروضاً باللبن ويستنجد به . وذكر عنه أشياء كثيرة على هذا النمط يخالف الشريعة . فأرسله السلطان إلى قاضى قضاة المالكية فحكم بكفره بموجب ما قامت به عليه البيئنة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان . « ابن لياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٨٩١هـ » .

٥ - الشيخ سنبطاي المتصوف المزيف : كان من الأتراك ، وكان يدعى التصوف وكان مقبلا بالمدرسة السنقرية الواقعة تجاه خانقاه سعيد السعداء . وشي به إلى السلطان الأشرف الغورى وقيل عنه إنه يزيف الدراهم والدنانير ، فتغيز عليه خاطر السلطان

وقبض عليه وقدمت داره ، فوجدت لديه آلات التزييف ، وعمال يزاولونه . فأمر السلطان بقطع أيديهم . أما الشيخ سنطباى فشفع فيه الأتابكى وقرقاس ، من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه إلى القدس ويقيم هناك عاطلا . - وقد كان من قبل من ممالك قايتباى . ثم ادعى الصلاح ، ولكن انكشف أمره . - د ج ، ،

٦ - حادث حريق فى مولد الشيخ سويدان : فى المحرم عام ٩١٣ هـ أقيم مولد الشيخ سويدان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن ببولاق . فحدث فى تلك الليلة حادثة رائعة ، وهى أن امرأة طبخت على شاطئ البحر فطار منها شرارة فتعلقت بمركب هناك ، فعملت النار فيه . وكانت الريح فى تلك الليلة عاصفة ، فشتت النار إلى «شونة» تبين فى معصرة هناك ، فذهبت فيها النار وسرت فى نواحيها ، حتى احترقت المعصرة ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل ، وألم الناس لهذا الحادث . ولو لا لطف الله تعالى ، ثم بركة الشيخ سويدان . لاحتقرت الأماكن عن آخرها . - د ج ، ،

٧ - قاذف سيدنا إبراهيم : صدر كلام شاذ فاحش فى حق سيدنا إبراهيم عليه السلام من رجل كان خطيبا فى بعض الجوامع ويدعى عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى . وذلك فى عهد الغورى عام ٩١٣ هـ فاستتابه بعض القضاة ولكن بلغ السلطان أمره فغضب وتعصب للخليل إبراهيم عليه السلام وجمع مجلسا من قضاة الشرع موظفين وغير موظفين ، ووقع بينهم نقاش شديد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا بشأن الحكم على هذا الرجل . ثم انفض مجلسهم على أن يسجن الرجل مدة طويلة . ثم يتوب ويطلق سراحه . وكان السلطان قد صمم فى خيلة نفسه على قتله . ثم سجن فلبث فى السجن زمنا كبيرا . - د ج ، ،

٨ - خديجة الكليباتية : كانت تدعى الصلاح . وتدخل بيوت عظماء الناس . وقد توفيت فى ذى الحجة عام ٩١٣ هـ فوجد فى تركتها ذهب خالص ، يقدر بثلاثة آلاف دينار ، وأثاث منزلى بنحو خمسمائة دينار . ومع ذلك كانت تأخذ الصدقات من الناس . وقد عدت حالتها من النوادر . - د ج ، ،

٩ - جملان يحدثنان حريقاً دخل أحد الفلاحين ومعه جملان يحملان تبناً إلى القاهرة وقت العشاء، مارا بها من السويقة الواقعة عند بيت الخليفة . فتعلق في ذلك المكتان لهيب من مسارج البائعين هناك . فلما أحس الجملان بالنار هاجا وفرا بين الناس مرتعين . فقتلا كثير آ من الصغار وأصابا عدداً آخر من الناس، وأتلفا كثير آ من البضائع ولم يستطع أحد كبح جماحهما حتى بلغا مشهد السيدة نفيسة فهذا ومات أحدهما . « ج ، »

١٠ - رؤيا بواب جامع الحاكم : من النوار أن شخصاً قيل إنه بواب جامع الحاكم ، طلع إلى السلطان الغورى وذكر ما رآه في منامه من أن قائلاً يقول له : قل للسلطان إن جامع الحاكم تحت بعض دعائمه دنائير ذهبية لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك مال إلى كلامه وظن أنه حق وأرسل الأمير خابر بك الخازن دار وبركات بن موسى المحتسب وجماعة آخرين من أخصائه ومعهم عدد من المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل . وطلبوا إليه أن يعين لهم الدعامة التي رآها في منامه وتحتها الدنائير . فقال : لا أعلم فقال المهندسون ، إن لم نعرفها فقد يجرنا هذا إلى هدم جميع دعائم المسجد . وكثر بينهم القيل والقال والأخذ والرد . ثم شاوروا السلطان في الأمر وفي هدم جميع الدعائم ، فأبى ولم يوافق . « ج ، »

١١ - جمال الدين الزغلي صاحب دار الضرب : كان قد التزم دار الضرب في عهد

الغورى ، فأتلف سائر العملة ، واتضح فيها غشه وتزييفه ، حتى ضج الناس ومعهم الأمراء منها وبلغ الخبر مسامع السلطان ، وهاله ألم الناس من هذه العملة الرسمية المغشوشة والتي أكرهوا على التعامل بها ، مما أدى إلى اختفاء الدنائير البرسمية والجفمية والإينالية والخشقدمية والقايتباية . فاستدعاه السلطان وقبض عليه وأودعه سجن المقشرة بعد أن ضربه ضرباً مبرحاً . - ولكنه استطاع الهرب من سجنه بعد أيام . فعاقب السلطان بسببه قانصوه أبا سنة الوالى وفرض عليه غرامة مالية قدرها خمسة عشر ألف دينار . واختفى بسبب هربه كذلك عدد من رجال سجن المقشرة خوف أن يبطش بهم سلطان . ثم إن السلطان تمكن من القبض

على الهارب وطيف به على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه بين الناس لتفضح أمره .
ثم شنق . « ج »

١٢ - طفلة ترى النبي في منامها : في رمضان عام ٩١٥ هـ ظهرت في قلوب -
وقيل بقلعة - ابنة صغيرة دون البلوغ ، قيل إنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم في
المنام مراراً عدة ، وظهرت لها كرامات خارقة فتوجه إليها الناس أفواجا أفواجا .
واشتهر عنها أنها تقيم المقعد ، وترد بصر الأعمى ! وحكى عنها من هذا النمط أشياء
غريبة ليس لها صحة ! فبلغ كرى كل حمار من القاهرة إلى قلوب أشرفيا . وورفد
عليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشرات وكثير من أعيان الناس . وترددت
الأحاديث عنها في القاهرة . « ج »

١٣ - ملك يرفس النيل برجله : في عام ٩١٦ هـ نقص النيل عن مقداره في العام
الماضي ، حتى شرقت نواحي كثيرة من البلاد . فكثرت الخرافات والقصص بسبب
ذلك فمنها ما قيل « إن امرأة صالحة رأت في المنام أن ملكين نزلا من السماء ،
وتوجها إلى البحر » النيل ، فرفسه أحدهما برجله فهبط سريعا . ثم قال أحدهما
للآخر : إن الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد إلى عشرين ذراعا ، فلما تزايد الظلم
بمصر أذن له بالهبوط وهو في ١٨ ذراعا . - فلما انتهت من منامها هبط النيل
في تلك الليلة دفعة واحدة . . . « ج »

١٤ - رؤيا تضطر السلطان إلى العدل : قيل في أواخر صفر عام ٩١٩ هـ ،
لما فشا الطاعون بالبلاد المصرية ثم اشتط السلطان في فرض الضرائب على تركات
الموتى ، ثم نكص فخط عنها بعض أعباء هذه الضرائب ، قيل إن ذلك بسبب رؤيا
رآها ، ومؤدها أنه رأى النجوم من السماء قد تساقطت على الأرض ، ثم بعد ذلك
سقط القمر . فأول ذلك بأن النجوم هي الجند ، وأن القمر هو الملك . فعند ذلك
أخذ في أسباب العدل وإبطال المظالم . « ج »

١٥ - عبد العظيم يكبر عمامته : قال ابن إياس : إنه في أواخر شوال عام
٩١٩ هـ خلع السلطان نعلي عبد العظيم الصيرفي وقرره في التحدث في أمر الشئون

السلطانية ، وجهات الذخيرة . فتعاضم عبد العظيم وكبر عمامته ، وصار من أعيان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكسارات ، وعصر أكعابه بالمعاصير ، وإحراق أصابعه بالنار . فنسى ذلك كله وصار في شمم عظيم !
(ج ٤)

١٦ - حادثة زنى يتهم فيها أحد نواب الحكم وعزل بسببها القضاة : وقعت هذه الحادثة في عهد السلطان الغورى ، وقد أشرنا إليها في باب القضاء والقضاة . ولمنحصها أن رجلا من نواب الحنفية يدعى « غرس الدين خليل » له زوجة حسناء عشقها أحد نواب الشافعية واسمه « نور الدين على مشالى » . وكانت بين العاشقين صلوات ود ورفاق . ولذلك انتهزا فرصة تغيب « غرس الدين » بحجة الإمام الليث لبعض أعماله ، واجتمعوا في منزلة لمقارفة الفسق والزنا - ولكن كان هناك رقيب يغار على المرأة وفي نفسه منها شيء واسمه « شمس » وهو ابن أخت القاضى « نور الدين الديماطى » . فلحظ ما هنالك . فلحق بالزوج وأطلع على الخبر فأسرع إلى منزله ، ورأى مارأى بعينى رأسه . فقال له الأمر وطغت على نفسه الحماسة وعزم على شكواها . فتوسلت إليه زوجته وعشيقتها بأن يسترهما لئلا مال يدفعانه ، فأبى وأبلغ خبرهما إلى حاجب الحجاب فقبض عليهما ، فاعترفا بما كان منهما من المنكر . وكتب الفاسق « نور الدين مشالى » كتابة بهذا الاعتراف . فما كان من الحاجب إلا أن ضربهما بالمقارع وأشهرهما فى القاهرة .

ثم إن الحادثة بلغت مسامع السلطان الغورى فاستاء أ كبر استياء . وصمم على قتل الزانى . وجمع لذلك القضاة الأربعة ، ووجهم وقرعهم لأن نوابهم يعيشون فى الأرض فساداً . وظل يجمعهم ويفرقهم ليظفر منهم بحكم قاس ضد هذا الفاسق . وضم إليهم عددا آخر من قضاة الشرع المعزولين ومن علمائه فكان مجمعا عليهما عظيما ، ولكنه لم يظفر . وذلك - ويا للعجب - بسبب من تعصب للزانى من القضاة ونواب الحكم . ومن بينهم رجل يدعى « شمس الدين الزنكلونى » أحد نواب الحكم وصديق المتهم ، وهو شافعى المذهب . وقد قام بكتابة ورقة فيها فتوى

شرعية ملخصها أن المعترف له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يحد . ووقع بمسعاها على هذه الفتوى عدد من القضاة ، ودفعها إلى قاضى قضاة الشافعية ، الشيخ برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، فأبدى هذا القاضى الحكم الشرعى فى هذا الموضوع للسلطان ، وهو أن الزانى له حق الرجوع عن الاعتراف وحينئذ لا يحد ولا يرحم . فاشتد غضب السلطان وقال : يا مسلمين ! رجل يطلع إلى بيت رجل يفسق فى زوجته ، ويقبض عليه تحت اللحاف مع زوجته ، ويعترف بذلك ويكتب بخط يده بما وقع منه ، تقولون بعد ذلك : له الرجوع !

ثم اضطر السلطان إلى جمع المجمع الذى أشرنا إليه لاستفتائه ، فكان من جملة من كان فيه من القضاة الأعلام : برهان الدين بن أبى شريف . وبرهان الدين القلقشندى وبرهان الدين بن الكركى الحنفى ، ونور الدين المحلى ، وعبدالحق السنباطى وشيخ الإسلام زين الدين زكريا الأنصارى المنفضل عن القضاء . وبين هؤلاء القضاة الأربعة .

طلب إليهم الرأى . فكرر ابن أبى شريف رأيه السابق وأورد النقول التى تثبت ذلك . فلم يلتفت إليه السلطان . وقال أنا ولى الأمر ، ولى النظر العام فى ذلك ! فقال ابن أبى شريف : نعم ! ولكن بموافقة الشرع الشريف ، وإن قتلتكما تلزمك ديتان عنهما . . . فحنق السلطان وكان يبطش به .

ثم سأل الشيخ زكريا ، فرد بما رده ابن أبى شريف . فزاد حنق السلطان ، وقيل إنه أهانه ورماه بخور قواه العقلية . . . ثم سأل الشيخ نور الدين على المحلى . فقال كما قال ، وقال إنه نص ما نقله الإمام الشافعى ، فغضب منه السلطان وقال : وإن شاء الله تطلع إلى بيتك فتجد من يفعل فى زوجته الفاحشة كما فعل المشالى فى زوجة خليل ، فقال له المحلى . عافانا الله من ذلك .

وكان من نتيجة هذه المحنة العظيمة أن عزل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف من مشيخة مدرسته وقيل نفي إلى القدس . وعزل محيى الدين يحيى بن الدميرى من قضاء المالكية ومن خطابة جامعته . وتغير السلطان على قاضى قضاة الحنفية (م ٢٤ - ممالك)

عبد البر بن الشحنة وكاد يبطش به ، مع أنهما صديقان حميمان .

وقد سجن المذنبان ، سجن المشالي في المقشرة . وسجنّت الزوجة في الحجرة

ثم استدعى السلطان القاضي الشافعي « شمس الدين الزنكلوني » الذي كان سببا في إظهار الفتوى بحق الرجوع ، وقال : « يا زنكلوني ! حكمتك أنت يمشی ، وحكمي أنا يبطل » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحوا من ألف عصا ونفاه إلى الواحات وأشيع موته بعد ذلك من الضرب .

ثم عزل السلطان قضاة القضاة الأربعة وبقيت مصر خمسة أيام بغير قضاة .
ثم أمر السلطان بشنق الزائنين على باب منزل القاضي ابن أبي شريف نسكاية به . « ج ٤ » .

١٧ - نبوة قلاوون بعصيان قفجق : قيل إن الملك المنصور قلاوون - وكان الأمير قفجق أحد ممالك - خرج يوما إلى جهة المطرية في أيام النيل على سبيل الرياضة . ومعه جماعة من أخصائه الأمراء . فانشرح السلطان في ذلك اليوم . وذبح خروفا سمينا بيده ، فلما حضر السباط قدموا ذلك الذبيح بين يديه ، فقطعه بيده ، ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه ، وتركه ساعة حتى جف ، ثم لوحه على النار . قليلا قليلا ، ثم أخرجه . ونظر في لوحة الكتف ساعة ، وأطال التأمل ، ثم تفل عليه وألقاه من يديه وظهر في وجهه الغضب . فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد ما سكن غضبه . فقال : « إن وليتم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد ، فلا تخرجوه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره . فكان الأمر كما قال الملك المنصور .

وذلك أن قفجق تولى نيابة الشام بعد موت المنصور ، وذلك في دولة المنصور لاجين ، فعبث بها وعصى ، ثم فر إلى غازان ملك التتر وحبب إليه غزو البلاد المصرية والشامية . فغزاهما ووقع بين العسكرين وقائع هائلة .

١٨ - خيبة ابن مفلح : لما غزا تيمور لك التترى بلاد الشام وخرّب ديارها عام ٨٠٣ هـ وحاصر دمشق ، وذعر أهلها من فظاظته ، بعث إليهم يطلب منهم أن يرسلوا إليه أحد عقلائهم لمفاوضته في الصلح . فوقع اختيارهم على القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي لمعرفته التركية والعجمية ، وجماعة معه . فتلاطف معه تيمور لك وأفهمه أنه لا يقصد بدمشق سوءاً لأنها بلد الأتنياء وبها قبر أم حبيبة زوجة رسول الله عليه السلام . . .

فعاد ابن مفلح من لدنه يخذل الناس عن قتاله حتى تخاذلوا . ثم عاد ابن مفلح إلى تيمور . فكتب له أماناً لأهل دمشق . فعاد إليهم وقرأ عليهم هذا الأمان . ففرحوا به وفتحوا باب المدينة لتيمور وجنده . فاحتل أحد أمرائه هذا الباب . ثم طلب تيمور أن يحضر إليه ابن مفلح فحضر . فأمره بأن يجي من أهل المدينة ألف ألف دينار . فعاد إليهم وجمعها منهم وحملها إليه . فخنق منه تيمور ، وادعى أنها ليست المقدار الذي طلب إليه جبايته ، وأنه يطلب عشرة أمثال هذا المبلغ .

عاد ابن مفلح إلى دمشق وأخذ في إرهاب أهلها ليجمع منهم المال وأصبح عليهم سوط عذاب ، وسلط عليهم ضروب الأذى حتى جمع منهم هذا المقدار وحمله إلى تيمور ، بعد أن أفقر الناس وأجاعهم .

لم يكتف تيمور لك بذلك بل طلب إليه استحضار جميع الودائع الخاصة بأمراء السلطان وعسكره ، فأحضرها إليه ، فقال له تيمور . قد بقي عليك أن تجمع لنا كل دابة في البلد من فرس وبغل وحمار وجمل . . . فعاد ابن مفلح إلى المدينة يجمع لتيمور دوابها ، ثم ساقها إليه . .

لم يكتف تيمور بذلك بل قال له : بقي عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها وجميع خططها . فكتب له ذلك وقدمه إليه . . . فقال له تيمور :

قد بقي عليك أن تجي لنا بقية ما قررناه على المدينة من المال . . وعدته سبعة آلاف ألف دينار . . فقال له ابن مفلح : لم يبق في البلد لا درهم ولا دينار ، فحق منه تيمور وقبض عليه وعلى أصحابه وقيدهم بالحديد . « ج ١ ص ٣٣١ إلى ٣٣٣ . »

١٩ - الشيخ أسد الدين المزيف . ذكر ابن إياس في حوادث عام ٨٥٢ هـ وفي عهد الظاهر جقمق ، أن رجلاً أعجمياً يدعى « الشيخ أسد الدين » كان يدعى أنه شريف ، فجاء إلى الشيخ - على المحتسب - وقال له اجمعني على السلطان فأني أعرف صنعة الكيمياء ، فجمعه عليه فأوحى إليه أنه يطبخ الكيمياء ، وأن هذا وجه حل . فانطاع السلطان لكلامه ، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة مال نحواً من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال ويوقده في النار ولا يأكل شيئاً فيه روح . فأتلف على الملك الظاهر جملة مال ولم يفد ذلك شيئاً ، وقد قيل :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحدث قوم باجتماعهما وما أظهرا كانا ولا اجتمعا

فأوحى إلى السلطان أنه يعبد النار . وتحدث بعضهم في حقه بكلمات كثيرة . فأرسله السلطان إلى المدرسة الصالحية فحكم عليه القاضي المالكي بدر الدين التونسي نائب الحكم بأنه كافر ! فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية وكان له يوم مشهود . « ج ٢ ص ٣٠ . »

٢٠ - الاستسقاء ببني العباس . لما آن أوان زيادة النيل في عام ٨٦٦ هـ توقف عن الزيادة نحو خمسة عشر يوماً حتى ضج الناس وارتفعت أثمان البضائع ، فرسم السلطان خشقداً للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبدتوا هناك يتلون القرآن والحديث ويدعون الله ليزيد النيل . فتوجه عدد منهم ومكثوا أياماً ثم رجعوا بلا جدوى ، ولم يزد النيل . فأرسل السلطان رساله إلى شيخ

الإسلام في عصره أمين الدين يحيى الأقصرأى واستفتاه في هذه المسألة فقال له .
اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ومن الصغار والكبار ، ثم ليضعوا في
أفواههم شيئاً من الماء يمجونه في إناء ثم يصبونه في فسقية المقياس . . ففعلوا
ذلك فكان فيه البركة . . وفي النيل بعد ذلك « ج ٧ ص ٧٤ » .

٢١ - انشقاق بين العلماء بسبب ابن الفارض : في عام ٨٧٥ هـ وقعت فتنة
مروعة بين علماء الشرع وفقهائه بسبب ابن الفارض الشاعر المتصوف المشهور
وذلك لاختلافهم في فهم بعض الآيات الشعرية من قصيدته الثائية . وكثرت
بينهم المحاجة والمناظرة ، فمنهم من أخذه بظاهر قوله ، ونسبه إلى الحلول والاتحاد
وحكم بفسقه وكفره ، وعلى رأس هذا الفريق ، برهان الدين البقاعي ، وقاضى
القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر ، ونور الدين المحلى ، وقاضى القضاة
عز الدين المحلى ، فتبعهم جماعة كبيرة من العلماء .

ومنهم من لم يأخذ بظاهر القول ، وتناول كلام الشيخ ، ولم ينسبه إلى فسق أو
كفر أو حلول أو اتحاد ، بل حكم بإيمانه الثابت الراسخ . وعلى رأس هذا الفريق :
الشيخ محي الدين الكافيجي الحنفي ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي ، والشيخ بدر
الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحيى بن حجي ، وجلال الدين السيوطي ، وزكريا
الأنصاري ، وتاج الدين بن شرف .

وكثر القول والقييل بين الفريقين ، وزاد التراشق بينهما ، وكل يعزز مذهبه وسيله .
فلما زاد بينهما الأمر كتبت مقالات عدة وفتاوى كثيرة ، فمنها مقالة للكافيجي . ومنها
كتاب للجلال السيوطي سماه « وقع المعارض في الرد عن ابن الفارض » . ومنها كتاب
البدر بن الغرس . وهو واضح شاف في الرد على من طعن على ابن الفارض .
وصنف أحدهم كتاباً سماه « درياق الأفاعي في الرد على البقاعي » .

واشترك في المشاحنة بعض شعراء العصر من محبي ابن الفارض ، ونظموا

الآيات فيمن طعنوا عليه بهجونهم بها ، ويلصقونها أحيانا بزمزارة . ومن هؤلاء الشعراء الشهاب المنصوري حيث يقول هاجيا البقاعي مع التورية .

أن البقاعي بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالماً فقلبه يعاقب

ونظم كذلك قصيدة طويلة ضمنها كثيراً من أبيات قصيدة لابن الفارض منها:

بين البقاعي وبين التاج من شرف ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه أنا القليل بلا إثم ولا حرج
كلاهما مدح خوضاً بفكرته .. في كل معنى لطيف رائق بهج
ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفي في كل القبائح أوحداً الأزمان
في مصر علم أبي حنيفة تدعى جهلاً وأنت معرفة النعمان

هذا ولما طال الأمر وزاد الخطب وتفاقم الجدل ، وبلغ الأمر مسامع السلطان قايتباي ، تعصب لابن الفارض رسم لكاتب السر ابن مزهر أن يكتب سؤالاً في الموضوع يوجهه إلى الشيخ زكريا الأنصاري الشافعي فكتب ما صيغته .

« ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة زكريا الأنصاري الشافعي ، - نفع الله المسلمين به - عن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدي عمر بن الفارض تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه ، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه في مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم ، لا محذور فيها شرعاً ، فهل يحمل كلاماً هذا العارف على اصطلاح أهل طريقتة ، أم على اصطلاح أهل ملة غير الإسلام ، فما الجواب عن ذلك ؟ أفقتونا مأجورين ، » .

فأجاب الشيخ زكريا على هذا الاستفتاء بعد تمنع شديد ونص إجابته ما يلي :
« يحمل كلام هذا العارف - رحمة الله عليه ونفع ببركاته - على اصطلاح أهل

طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي مجاز في غيره كما هو مقرر في محله . ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره في أبيات في التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك في شيء بقرينتي حاله ومقاله المنظوم في تائيته بقوله من أبيات في القصيدة .

ولى من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتي

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته ، وصفاته في صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التي يرقى إليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله عنهم ، ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عن لم يدركها ، فما كل قلب يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها . كما قيل .

وإذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالابصار
ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه . كما قال القائل :
ولو يذوق عاذلى صبايتى صبا معى لكنه ما ذاقها
والحالة هذه . والله يمنح بفضل من يشاء بعدله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى .

وقد كانت هذه الفتوى سببا في ركود ربح الخلاف وسكون الفتنة بين

المتراشقين د ج ٢ ص ١١٩ إلى ١٢١ .

٢٢ - كتاب الفصوص لابن عربي : في جمادى الآخرة عام ٨٨٧ هـ توفي

المدعو يحيى بن حجي ، وأحيلت تركته على « شمس الدين الحلبي » ، لحصرها ، فرأى بين كتبه كتاب « الفصوص » ، لابن عربي . فقال : هذا الكتاب ينبغي أن يحرق وأن ابن عربي كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبد الأوثان . فقال له

بعض الحاضرين : كيف تحرق كتاب الفصوص وفيه آيات من كتاب الله تعالى؟ فقال : ولو كان ! فتمسكوا عليه بذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر وترامى على كاتب السر ابن مزهر . فعاونته حتى آل أمره إلى الاكتفاء بتعزيزه وكشف رأسه . ثم حكموا بإسلامه وحقنوا دمه . (ج ٢ ص ٢١٩)

٢٣ - السلطان قايتباى يقبل رجل الدشوطى : فى شهر المحرم عام ٨٩٤ هـ وقعت للسلطان قايتباى نادرة غريبة ، وهى أن عبد القادر بن الرماح أحد أخصائه العقلاء . . قال له : « إن الشيخ عبد القادر الدشوطى من عباد الله الصالحين ، . فرغب السلطان فى لقائه للتبرك به » فأخبره ابن الرماح أن الشيخ المذكور يفد أحيانا إلى جامع فى مكان عند القرافة تحت جبل المقطم . فطلب إليه السلطان أن يراقبه حتى إذا حضر يعلمه ليذهب إلى لقائه هناك ، فعمد عبد القادر بن الرماح إلى شخص كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشوطى ، واتفق وإياه على ملاقة السلطان . ثم ذهب ابن الرماح إلى قايتباى وأخبره أن الدشوطى سيكون الليلة بالمكان الذى يفد إليه وأخبره عنه .

فلما كانت العشاء صلى السلطان ونزل ومعه ثلاثة من رجاله وأتى إلى المكان المعين ، ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك الشخص جالسا ورأسه فى قيصره . فشرع السلطان يقبل رجله ويقول : يا سيدى ! احمل حملتى مع ابن عثمان - وكان بينه وبين العثمانيين نزاع - فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول : « أنت لا ترجع عن ظلم العباد . فطال المجلس بينهما ، ثم دفع السلطان إليه كيساً فيه ألف دينار - وقيل خمسمائة - فتمنع الشيخ عن قبولها والسلطان يتلطف به ويقول له : فرق ذلك على الفقراء . ثم ركب فرسه وانصرف من لدنه معتقدا أنه الدشوطى . .

ثم نى إلى السلطان بعد حين سر المسألة وانكشفتم له حقيقتها وأطلع به بعضهم على جليتها . فاستدعى ابن الرماح والشخص المزيف والخدم المقيمين بتلك الجهة وأمر بهم فضربوا بالمقارع بين يديه . ووسم بحلق ذقن ابن الرماح ، وتشهيره بالقاهرة على حمارة . ثم سجنه بالمقشرة إلى أن مات . . . (ج ٢ ص ٢٥٦)

٢٤ - عبد الصليب يذم النبي : فى رمضان عام ٩١٨ هـ ضبط نصرانى يقال له « عبد الصليب » من نواحي دلجة بالوجه القبلى ، وهو يتحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حديثاً فاحشاً ، وشهد عليه بذلك جماعة ، وكتبوا له محضراً ، وثبت لدى قاضى الناحية . فأشخص النصرانى إلى السلطان الغورى ، فاعترف لديه بما قال . فعرض عليه الإسلام فأبى ، فبعثه السلطان إلى بيت الأمير طومان باى الدردار ، فعقد له فيه مجلس بين يدى القضاة ، فاعترف فيه أيضاً بما قال ، وصمم عليه ، وباع نفسه على ألا يرتد عن دينه . فحكم القضاة بسفك دمه ، ثم أركبوه جملاً وسمروه على خشب ، وأشهروه فى القاهرة . ثم ضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية . ثم إن العوام أحرقوا جثته بالحطب وسط السوق وتركوه . فلما جن الليل نهش الكلاب لحمه وعظمه ، ومضى كأن لم يكن . « ج ، »

٢٥ - النحال ينظم الشعر : ولد إبراهيم بن خلف النحال ببلييس قبل عام ٧٨٠ هـ بقليل . وكان يحفظ القرآن الكريم ، ثم نسيه . . وكان لا يعرف النظم وكان يجهل النجو . . ثم وفد عليه واعظ يقال له « الطنبندى » فتسكلم فى تفسير قوله تعالى : « ألسنت بربكم قالوا بلى » والناس يسمعون . وقال : إن الله لما استخرج ذرية آدم من ظهره فى صورة الذر وقال لهم « ألسنت بربكم » انقسموا فريقين : فريقاً قال : بلى ، وفريقاً سككت . ثم انقسم كل منهما قسمين فن قال « بلى » أحدهما ظل على إجابته ، والثانى قال : ليتنا سككتنا . ومن سككت : أحدهما ظل على سكوته ، والثانى قال : « ليتنا أجبننا » . ولهذا انقسم الناس أربع فرق : مؤمن يموت مؤمناً . ومؤمن يموت كافراً . وكافر يموت كافراً . وكافر يموت مؤمناً . ثم قال :

حكى أن عابدا عبد الله مائة سنة ثم حضرته الوفاة ، فاستدار نحو المشرق - أى على عادة النصارى - فاستعظم خادمه ذلك ، وقال إن نفسه ملكها

الإعجاب فخذلت ، فمات على غير التوحيد ، فطار قلب الخادم خوفا . وأكثر من النحيب ، فبينما هو كذلك إذ طرق الباب فخرج ، فإذا راهب ، فقال : ما شأنك ؟ قال : « إن راهبا منا مات فوجهناه إلى الشرق فتوجه إلى القبلة ومات مسلما ، فجئت إليك لتسأل لي شيخك ، ماذا نصنع به ؟ فقال ، إن شيخى قد مات إلى الشرق كافرا ، فهات ميتنا وخذ ميتكم . . . » فدفن الراهب بالزاوية ، ونقلوا الشيخ إلى مقبرة الرهبان

قال النحال : فلما سمعت هذه الحكاية حصل منها ما أزعج نفسى وأطار ععلى وأدهش فكبرى وأطال غمى وأدام همى ، بحيث بقيت أياما لا أنام أصلا ، ولا آكل إلا كايا كل العليل . . . وكانت هذه الحادثة سبب جريان الشعر على لسانه بسهولة ، بغير معرفة للنحو « الضوء اللامع ج ١ ص ٤٧ »

اتهى والحمد لله

الحمد لله

تم القسم الثاني من الجزء الأول من كتاب
«عصر سلاطين الممالك ونتاجه العلمي والأدبي»

وقد تمت طبعته الأولى في يوليو عام ١٩٤٧ م

وتمت طبعته الثانية في يونيو عام ١٩٦٥ م

ويليه المجلد الثالث : وهو القسم الأول من الجزء الثاني - الذي يؤرخ الحركة
العلمية وأوله : «مدينة بغداد ومركزها العلمي والأدبي»

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	مراجع الكتاب	٤٣	المتوكل على الله الثالث
٥	مقدمة الطبعة الثانية	٤٦	القضاء
٧	مقدمة الطبعة الأولى	٤٨	السلطان وجلوسه للقضاء
٩	الخلافة العباسية الثانية	٥١	حاجب الحجاب
٢٢	الخلفاء العباسيون في مصر :	٥٥	القضاء الشرعي
٢٢	المستنصر بالله	٥٩	تعدد القضاة
٢٣	الحاكم بأمر الله الأول	٦٤	محاسن التعدد ومساوئه
٢٥	المستكني بالله الأول	٦٦	شعور الشافعية نحو تعدد القضاة
٢٦	الوائق بالله الأول	٦٨	تعيين القضاة وعزلهم
٢٧	الحاكم بأمر الله الثاني	٧٣	أعوان القضاة ونوابهم
٢٨	المعتضد بالله الأول	٧٦	أجورهم
٢٩	المتوكل على الله الأول	٧٩	جلوس القضاة للقضاء
٣٢	المستعصم بالله	٨٠	القضاة :
٣٣	الوائق بالله الثاني	٨٠	عماد الدين الحموي
٣٣	المستعين بالله	٨٠	عز الدين بن عبد السلام
٣٥	المعتضد بالله الثاني	٨١	بدر الدين السنجاري
٣٦	المستكني بالله الثاني	٨٣	تاج الدين بن بنت الأعز
٣٧	القائم بأمر الله	٨٧	محيي الدين عبدالله بن عين الدولة
٣٨	المستنجد بالله	٨٧	تقي الدين بن رزين الحموي
٣٩	المتوكل على الله الثاني	٨٨	صدر الدين بن بنت الأعز
٤١	المستمسك بالله	٨٨	وجيه الدين البهنسي

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
شمس الدين الأمشاطي	١٠٩	برهان الدين السنجاري	٨٩
شرف الدين موسى بن عيد-	١٠٩	شهاب الدين محمد الخوي	٩٠
محب الدين بن الشحنة	١١٠	تقي الدين بن بنت الأعز	٩١
ولي الدين الأسيوطي	١١٢	تقي الدين بن دقيق العيد	٩٤
شمس الدين الغزي بن المغربي	١١٢	القشيري	
سراج الدين بن حريز	١١٣	بدر الدين بن جماعة	٩٦
محيي الدين بن تقي	١١٣	جلال الدين القزويني	٩٩
برهان الدين المغربي	١١٣	ناصر الدين بن الميليقي	١٠٠
بدر الدين السعدي	١١٤	بدر الدين السبكي	١٠٠
ناصر الدين الإخميمي	١١٥	موفق الدين الحنبلي	١٠٠
عبد الغني بن تقي	١١٥	صدر الدين المناوي	١٠١
شهاب الدين أحمد بن فرفور	١١٥	ولي الدين بن خلدون	١٠١
برهان الدين الدميري	١١٦	تقي الدين القرشي	١٠١
بدر الدين المسكني	١١٧	صدر الدين بن العديم	١٠٢
شهاب الدين أحمد الشيشيني	١١٧	جلال الدين البلقيني	١٠٢
سري الدين بن الشحنة	١١٨	مجد الدين أبو البركات الحنبلي	١٠٣
محيي الدين بن النقيب	١٢١	زين الدين التغمي	١٠٤
برهان الدين بن الكركي	١٢٣	شهاب الدين بن حجر العسقلاني	١٠٤
عز الدين الشيشيني	١٢٥	سعد الدين الديري	١٠٥
علاء الدين الإخميمي	١٢٥	علم الدين البلقيني	١٠٦
جمال الدين الفلقشندي	١٢٦	شرف الدين يحيى المناوي	١٠٧
برهان الدين بن أبي شريف	١٢٦	حسام الدين بن حريز	١٠٧
حسام الدين بن الشحنة	١٢٦	عز الدين أحمد الحنبلي	١٠٨
جلال الدين بن قاسم	١٢٧	برهان الدين الديري	١٠٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
٢ - دفع الفرنجة عن ممتلكات مصر ودوائر نفوذها	٢٥٨	١٢٧ زين الدين زكريا الأنصارى	
٣ - المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها	٢٦١	١٢٩ شمس الدين السمديسى	
٤ - رصد الأوقاف وبذل الأموال وصنع البر	٢٦٣	١٢٩ محي الدين بن الدميرى	
٥ - تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب	٢٦٧	١٣١ كمال الدين محمد الطويل	
سيئاته	٢٦٧	١٣٣ شهاب الدين الفتوحى	
١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية	٢٦٧	١٣٤ يحيى البردينى	
التعليم	٢٦٩	١٣٤ قضاة آخرون	
الجيش	٢٧١	١٣٩ المحمل والحج	
ملكية الأرض	٢٧٤	١٤٨ أخبار ركبي الحج وأمرائهم	
الوظائف العامة	٢٧٨	وما يتصل بذلك	
التقاضى	٢٧٩	١٨٠ فيضان النيل والاهتمام به	
٢ - فداحة الضرائب وتعدد أنواعها	٢٨٠	١٨٨ أخبار فيضان النيل وما يتصل به	
٣ - الجور والعسف :	٢٩٠	٢٠٩ السفارة	
الإعدام والتعذيب	٢٩٣	٢١٠ من سفراء مصر إلى غيرها من الدول	
السجون الشهيرة	٢٩٦	٢١٨ من سفراء الدول إلى مصر	
٤ - كثرة الفتن الداخلية	٣٠٠	٢٣٩ الهدايا	
ثورات العربان	٣٠٤	٢٤٧ حسنات هذا العصر ومساوئه	
		٢٤٧ حسناته	
		٢٤٧ ١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضي المصرية	
		٢٤٩ حروب التتار فى الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطينها لهم	

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
عصائب النساء	٣٥٦	٥ - الزلازل والطواعين	٣١٦
خلع أبواب الإسكندرية عند	٣٥٦	والقحط والغلاء	
مقدم السلطان		العادات والتقاليد	٣٢٦
عمائم النصارى واليهود	٣٥٧	حفلة تولية السلطان	٣٢٧
الأسر البارزة	٣٥٧	حفلات الاستقبال	٣٢٩
الآثار النبوية والمصحف العثمانى	٣٦٠	الاحتفاء بخروج السلطان	٣٣١
البلسان	٣٦٠	من القاهرة أو عودنه إليها	
كبار الأضياف	٣٦٠	الفرح بشفاء السلطان من مرضه	٣٣٢
الطابق الخامس	٣٦١	عاداتهم في شهر رمضان	٣٣٣
تعليم الحيوانات	٣٦١	الاحتفال بعيد الفطر وعيد	٣٣٥
الأولياء والصالحون	٣٦٢	الأضحى	
قصص هذا العصر ونوادره	٣٦٣	الزواج وحفلاته	٣٣٧
نادرة عن الشيخ تاج الدين	٣٦٣	حفلات الختان	٣٣٩
الفاكهاني والشاطر الدهنورى		الجنائز وما يتعلق بها	٣٤٧
رؤيا الشيخ فرج الصفدى	٣٦٤	إقامة الموالد والمواسم	٣٤٣
الخاصة بالأمرد		حفلة كسر الخليج	٣٣٥
زهد بن أبى تمام الصالحى	٣٦٤	خروج المحمل	٣٤٧
من توضحاً باللبن	٣٦٤	الحفلات الأخرى وليالى	٣٤٧
الشيخ سنطباى المتصفوف	٣٦٤	السمر والمغنون والمغنيات	
المزيف		ملاحظات عامة	٣٥٥
حادث حريق فى مولد الشيخ	٣٦٥	عيد النيروز	٣٥٥
سويدان		اهتمام برقوق بلعب الرمح	٣٥٥
قاذف سيدنا إبراهيم	٣٦٥	شرب القمح	٣٥٦
خديجة السكيباتية	٣٦٥	التصدق بثمان الفرس	٣٥٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
نبوءة قلاوون بعصيان قفجق	٣٧٠	جمالان يحدثان حريقا	٣٦٦
خيبة ابن مفلح	٣٧١	رؤيا بواب جامع الحاكم	٣٦٦
الشيخ أسد الدين المزيف	٣٧٢	جمال الدين الزغلي صاحب دار	٣٦٦
الاستسقاء ببني العباس	٣٧٢	الضرب	
انشقاق العلماء بسبب ابن الفارض	٣٧٣	طفلة ترى النبي في منامها	٣٦٧
كتاب الفصوص لابن عربي	٣٧٥	ملك يرفض النيل برجله	٣٦٧
السلطان يقبل رجل الدشطوطي	٣٧٦	رؤيا تضطر السلطان إلى	٣٦٧
عبد الصليب يذم النبي	٣٧٧	العدل	
النحال ينظم الشعر	٣٧٧	عبد العظيم يكبر عمامته	٣٦٧
أ هـ		حادثة زنى يتهم فيها أحد نواب	٣٦٧
		الحكم ويعزل بسببها القضاة	٣٦٧

فهرس أعلام المجلد الثاني

ابن أبي كامل : ٦١
 ابن الأحذب : ٢٠٦
 ابن بيمج : ٣١٢
 ابن يلسار : ٣١٢
 ابن تقي المالكي : ٢٨٧
 ابن حجر العسقلاني و شهاب الدين :
 ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٧٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٦ ، ١٣١
 ابن حمادة : ٣١٥
 ابن درغل التركاني : ٢٣١
 ابن رحاب المغني : في علي
 ابن الرفعة : ٨٠
 ابن رمضان التركاني : ٢٣٥
 ابن السعلوس و الوزير : ٧٠ ، ٩٢ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧
 ابن سوار التركاني ملك : الأباستين ٢٣٤
 ٢٣٥ ، ٢٣٧
 ابن عربي : ٢٧٥
 ابن القراوح المغني : ٣٥٢
 ابن الليثوني المغني : ٣٥٢
 ابن مفلح تقي الدين : ١١٤ ، ٢٥٦
 ابن ميسر : ٦١
 ابن نبانة المصري : ٣٥٨
 أبو أحمد بن الأفضل : ٦١
 أبو البقا . بن الجيعان : ١٦٠ ، ٢١٣ ، ٣٥٩
 أبو بكر بن الشحنة : ١٢٧
 أبو بكر بن مزهر : ٢٢٩ ، ٢٩٨ ،
 ٣٤٠ ، ٣٥٩

(١)
 آل ملك و نائب السلطنة : ٢٩٩
 آمنة بنت المستكفي : ٤١
 آفص باي : ١٦٩ ، ١٨٠
 إبراهيم بن أبي شريف و برهان الدين :
 ١١٦ ، ١٢٦
 إبراهيم بن بابي : ٣٥٣
 إبراهيم بن الجندي المغني : ١٥٨ ، ٢٤٩
 ٣٥٠
 إبراهيم بن خلف النحال : ٣٧٧
 إبراهيم بن عبد الرحمن و برهان الدين
 ابن الكركي : ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٦٠
 إبراهيم بن علاء الدين و جمال الدين
 القلقشندي : ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣١
 إبراهيم بن محمد و برهان الدين الديري :
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٣٥٨
 إبراهيم بن محمد و برهان الدين المغربي :
 ١١٣
 إبراهيم الهواري : ٣١٠
 إبراهيم و الواثق بالله العباسي الأول :
 ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
 أبغا ملك التتار : ٢٥١
 ابن أبي حجلة المغربي و شهاب الدين :
 ٢٤١
 ابن أبي الرداد : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩١ ،
 ٢٠٢ إلى ٢٠٧

أحمد بن شكر : ٣١٤
أحمد بن طولون : ١٨٣
أحمد بن عبد الخالق د ولى الدين
الاسيوطى : ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٨
أحمد بن عبد العزيز د شهاب الدين
الفتوحى ،

أحمد بن عمر الهوارى : ٣٠٩
أحمد بن العيني د شهاب الدين : ١٠٨ ،
١١٢ ، ١٥٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
أحمد بن فرفور د شهاب الدين : ٧٠ ،
٧١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٦
أحمد بن المؤيد شيخ د المظفر : ٣٥ ،
٣٦ ، ١٣٦ ، ٣٠٣

أحمد بن محمد د من الموحدين : ٢٤١
أحمد بن مهنا : ٣١٢
أحمد بن وجيه : ١٥٧
أحمد د الحاكم بأمر الله العباسى الاول :
١٤ ، ١٦ ، ٢٠٣ ، ٣٠١
أحمد د الحاكم بأمر الله العباسى الثانى :
٢٧

أحمد المستنصر بالله العباسى الاول :
١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ،
٢٣ ، ٢٤ ، ٨٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢
أرزمك الناشف : ١٧٨ ، ٢٩٢
أركاس : ٢٣١

أزبك بن ططخ د الأتابكى : ١٥٨ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٣٣٧ ، ٣٣٨
أزبك خان : ٢٢٧

أبو بكر بن الليث : ١٦٣
أبو حامد الانطاكى : ١٨١
أبو حيان النحوى : ٣٥٨
أبو الخير المرافع : ٢٨٨
أبو الخير المغنى : ٣٥١
أبو زرعة د محمد بن عثمان : ٦٧
أبو السعادات البلقينى : ١١٢
أبو السعود بن الأمين الأقصرائى : ١٥٨
أبو السعود الجارحى : ١٨
أبو عبد الله بن الأحمر : ٢٢٤
أبو عمر بن أبى محمد الصنهاجى : ١٢
أبو الفضل بن الأزرق : ٦١
أبو الفوز الراعظ : ١٥٨ ، ٣٥٠
أبو محمد عبد المولى بن اللبى : ٦١
أبو نعيم د أمير مكة : ١٤٩
أجود بن مسقار : ٣١٤
أحمد أبو سنة : ٣٥٢
أحمد بن إبراهيم د شهاب الدين الحنبلى :
٥٥ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٥

٢٨٧
أحمد بن أحمد د موفق الدين الحنبلى :
أحمد بن أويس : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤١
٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٣٦١
أحمد بن إسماعيل المؤيد : ٢٧ ، ٢٨ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٤ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ،
٣٤٩

أحمد بن بقر : ٢٣٢ ، ٣١٥
أحمد بن تانى بك البردبكي : ١٥٦
أحمد بن الجمالى : ١٦٢
أحمد بن سعيد بن البوسى : ٦٩

أزبك السيفي : ١٩٧
 أزبك المسجل : ١٦٧
 أزبك اليوسفي : ١٥٨ ، ١٦٢٠
 أزدمر الأشقر : ١٦٢
 أزدمر تمساح : ١٦٢ إلى ١٦٥ ، ١٩٨
 أزدمر الدوادار : ٢٢٥ ، ٣١٣
 أزدمر الطويل : ٣٠٨
 أزدمر المسرط : ١٦٣
 أزدمر المهمندار : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥
 أسامة بن زيد التنوخي : ١٨٣
 أسد الدين الزيف : ٣٧٢
 إسماعيل بن حيدر الصوفي : ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ إلى ٢٣٣ ، ٢٤٥
 إسماعيل بن لؤلؤ الصالح :
 إسماعيل الإناباني : ٢٤٤ ، ٢٤٤
 إسماعيل المؤبد صاحب حماة : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠
 أسنباي الخاصكي : ١٦٠ ، ١٦١
 الأشرف إينال : في إينال
 الأشرف برسباي : في ب
 الأشرف جان بلاط : في ج
 الأشرف خليل : في خ
 الأشرف شعبان : في شعبان
 الأشرف طومان باي : في ط
 الأشرف فرج : في ف
 الأشرف قايتباي : في ق
 الأشرف قانصوه الغوري : في ق
 الأشرف محمد بن الفضل : ٢٤٢

أصطغر بن ولي الدين : ١٦٦ ، ١٦٨
 أصلان صاحب الأبلستين : ٢٤٣
 أصيل القنمية : ٣٥٣
 أطلش التتري : ٢٢٠ ، ٢٥٤
 أقباي الطويل : ٢١٦
 أقباي السكاشف : ٣١٢
 أقبردي بن أصباي : ١٥٥ ، ١٥٦
 أقبردي الأشقر الأشرفي : ١٥٩
 أقبردي الدوادار : ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٩٨
 ١٩٩ ، ٢١٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
 ٣٤٩ ، ٣٤١
 أقطوه السكاشف : ٣١٢
 أمير حاج د الملك : ١٣٥ ، ٣٠٢
 الأمين بن زبيدة : ٤١
 أمين الدين الأقصري : ٣٩ ، ١١٨ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٧٩
 ٢٨٦
 أمين الدين الطرابلسي : ١٠٤ ، ١٣٥
 أنصباي : ٣٣١
 أنعام المغنية : ٣٥٢
 الألوزاعي : ٦٧
 إيتمش البجاسي : ٢٩٥
 إيدكن د علاء الدين البندقدار :
 ١١ ، ١٤٩
 إيدمر د عز الدين الحلبي : ٤٨ ، ٦٥ ، ٨٦
 إينال باي دوادار سكين : ٢١٦
 إينال حطب : ٢٥٥
 إينال الحكيم : ٢٢٣
 إينال العلاني د الملك الأشرف : :

برسبای د الملك الأشرف : ٣٦ .

١٠٤ ، ١٥٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠٠ .

٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .

٢٤٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٨ .

برسبای الأشرفی د استادار الصحبة :

٢١٠ ، ٢١١ .

برسبای امیر آخور : ٢١٠ ، ٢٢١ .

برسبای الشرفی : ١٥٦ .

برسبای العلانی : ١٦٣ .

برسبای القیل : ١٧٨ .

برسبای قرا : ١١٢ .

برسبای کاشف الوجه القیل : ٩ ، ٣ .

برسبای الیوسنی : ١٦٣ .

برقوق د الملك الظاهر : ١٧ ، ٣٠ .

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٠١ ، ٥٠ .

١١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٦ .

١٥١ ، ١٥٦ ، ١٨٥ ، ١٩١ .

١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .

٢٠٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣ .

٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ .

٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ .

٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ .

٣٥٥ ، ٣٦١ .

برکات بن موسی د الزینی المحتسب :

٢٢٩ ، ٣٥٢ .

برکات شریف مکة ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧ .

برهان الدین بن أبی شریف : فی ابراهیم

برهان الدین بن جماعة : ١٣٤ ، ٣٥٩ .

برهان الدین البقاعی : ١١١ .

برهان الدین الدهیری : ١١٦ ، ١١٧ .

٢٧ ، ٣٨ ، ٧١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٥٢ .

١٥٣ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٣ .

٢٥٩ ، ٣٢٠ .

ایزال الفقیه : ١٦٤ ، ١٦٥ .

أینک البدری : ١٦ ، ٢٩ ، ٣٢ .

(ب)

بابندر د نائب حسن الطویل : ٢٢٤ .

بایزید الاول د ملک العثمانيين :

٣٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ .

بایزید الثاني د ملک العثمانيين : ٣٣٠ .

بدر بن سلام : ٣٠٦ .

بدر الدین بن جماعة : فی محمد بن ابراهیم

بدر الدین بن الفرس : ٣٧٣ .

بدر الدین البغدادی : ١٢٧ .

بدر الدین التونسی : ١٣٦ ، ١٣٧ .

بدر الدین حسن النابلسی : ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

بدر الدین الديری : ٣٥٨ .

بدر الدین الزيتونی : ٣٢١ .

بدر الدین السمکی : ١٠٠ .

بدر الدین السعدی : فی محمد

بدر الدین السنجاری : فی یوسف

بدر الدین العینی : فی محمود

بدر الدین محمد أبو السعادات : ١٣٨ .

بدر الدین المسکینی : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٦٩ .

بدریة بنت جریمه : ٣٥٢ .

براویه : ٣٥١ ، ٣٥٣ .

برد بك البجمةقداری : ١٥٣ .

برد بك نائب جدة : ١٦٦ .

برد بك هجين : ٣٠٧ .

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ،

٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ،

٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ،

بيبرس المنصورى الدوادار : ٣٠٥

بيبرس د الملك المظفر : ١٨٩ ،

٢٥١ ، ٢٧٦ ،

بيدرا د الامير بدر الدين ، :

٩٢ ، ٩٣ ، ٣٠٢ ،

بيبرى : ٢٥٠

بيغوا د سيف الدين ، : ٥٣

(ت)

تاج الدين بن بنت الاعز : فى
عبد الوهاب :

تاج الدين بن شرف : ٣٧٣

تاج الدين البلقينى : ١٠٣

تاج الدين الديرى : ١٠٥

تاج الدين السبكى : ٥٨ ، ٦٣ ، ٧٣ ،

٧٩ ، ٣٥٩ ،

تاج الدين الفاكهاني : ٣٦٣

تاج الدين المقدسى : ٣٦٤

ثانى بك الايج : ١٦٥ ، ١٧

ثانى بك الجرکسى : ١٥٣

ثانى بك الجبالى : ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،

ثانى بك قرا : ١٦٦

ثانى بك المعلم : ١٥٥

تغرى بردى بن ططر : ١٦١

تغرى بردى الاستادار : ١١٢ ، ٣٤١

برهان الدين الديرى : ٦٩ ، ٣٥٨

برهان الدين السنجارى : فى الخضر

برهان الدين العسقلانى : ١٣٥

برهان الدين القلقشندي : ١٢٢ ، ١٣٣

برهان الدين السكركى : فى ابراهيم

برهان الدين اللقانى : ١٣٨

برهان الدين المحلى التاجر الكارمى : ٢٤٢

برهان الدين المغربى : فى ابراهيم

بشير الطواشى : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٦

بضاع بن دلغادر : ٢٦١

بكار بن قتيبة : ١٨٤

بك باى : ١٧٤

بكتاش الفخرى د بدر الدين ، : ٩٣

بكتمر الساقى : ٢٩٧

بلباى المؤيدى : ٣٨ ، ٣٠٧

البوالقة : ٣٥٢

بهاء الدين بن حنا : ١١ ، ٨٩ ، ٣٦٠

بهاء الدين بن قدامة د عبد الرحمن ، :

١٣٨

بهاء الدين البارزى : ٣٥٨

بهاء الدين السبكى : ١٣٤ ، ٣٥٩

بهادر الجمالى : ١٥٢

بهرام : ٢٤٢

بيبردى بن كسباى : ١٧٨

بيبرس بن أحمد بن بقر : ٣١٢

بيبرس الاشرفى : ١٥٣

بيبرس د الملك الظاهر ، : ١٠ ، الى

١٦ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،

(ج)

الجازاني : ١١٩ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٣١١
 الجام بن عثمان : ١٦٢ ، ٣٦١
 جان يردى تاجر الماليك : ١٧١
 جان بلاط بن يشبك ، الأشرف :
 ٤١ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٦٧ ،
 ٢١٣ ، ٣٣٨
 جان بلاط ، الأشرفي : ١٦٤
 جان بلاط ، الخاصكي : ١٦٣
 جان بلاط الموتير : ١١٦ ، ١٦٧
 جانيم الزردكاش : ١٦٠
 جانيم الخاصكي : ٢١٧
 جاني بك الأشقر : ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨
 جاني بك حبيب العلاني : ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٢١٣
 جاني بك الحشن : ١٥٧ ، ١٥٨
 جاني بك الظريف : ١٥٢
 جاني بك الفقيه : ١٥٩
 جاني بك نائب جدة : ٢٩٥
 جاني بك الميحيوي : ٢٥٤
 جرجي ، سيف الدين : ٥٤
 جقمق ، الملك الظاهر : ٣٦ ، ٣٧ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٥٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٠ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣٧
 جلال الدين بن قاسم : في عبد الرحمن
 جلال الدين البلقيني : في عبد الرحمن
 جلال الدين السيوطي : ٢٠ ، ٢٨ ،
 ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢

نغري بردى الترحمان : ٢١٤ ، ٢٩٧
 نغري بردى نائب الشام : ٢١٤
 نغري يرمش : ٢٣٦
 تقي الدين بن بنت الأعز : في عبد الرحمن
 تقي الدين بن تيمية الحراني : ٢٥٢
 تقي الدين بن الثقة الإسفاني :
 ٣٥٣
 تقي الدين بن حجة الحموي : ٢٧٩
 ٣٥٨
 تقي الدين بن دقيق العيد القشيري :
 في محمد بن علي
 تقي الدين بن رزين : ٧٩ ، ٨٠
 تقي الدين بن محب الدين التيمي : ٢٩٤
 تقي الدين بن مفلح : في ابن مفلح
 تقي الدين الحصني : ١٢٨
 تقي الدين الزبيري : ١٣٥
 تقي الدين السبكي : ٦٧ ، ٣٥٩
 تقي الدين شبيب الحراني : ٧٨
 تقي الدين الشمني : ١١٨
 تقي الدين القرشي : في عبد الرحمن
 التلاشعوني : ٦٧
 تميز ، الأمير الكبير : ١٩٩
 تمر باي الهندي : ٢١٥ ، ٢٢٩
 تمر بغا ، الملك : ٣٨ ، ١٠٧ ، ١١١
 تمر الحاجب : ٣٠٨
 تمر الحسني الزردكاش : ١٧٠ ، ١٧٥
 قثم نائب الشام : ٢٤٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
 قيمورلنك ، ملك التتار :
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٦١

جنسكيز خان : ٥٢ ، ٥٣
الجويلي « شيخ العرب » : ٣١٤

(ح)

الحاكم بأمر الله أحمد الأول : ١٤ ،
١٥ ، ٢٣ ، ٢٦
الحاكم بأمر الله أحمد الثاني : ١٦ ،
٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

حامد المغربي : ٢١٦
حسام الدين بن بغداد : ١٧٥
حسام الدين بن حريز المالكي : ٧٠ ،
١٠٧ ، ١١٣ ، ١٣٧
حسام الدين بن الشحنة : في محمود
حسام الدين مظفر « أستاذ الفارابي » :
١٤٩

حسن بن أحمد العثماني : ٢٣٢
الحسن بن علي : ٤١
حسن الطويل : ١٥٧ ، ١٦٨ ، ٢١٠ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥
حسين الكردى : ٢٣١

حصن بن ثعلب : ٣٠٥
حضر بن كروان : ٣١٥
حمزة « الخليفة القائم بأمر الله » : ٣٧ ،

٣٨

حميد بن عمر : ٣١٠

(خ)

خانون ، أم الخليفة المستعين بالله
العباسي : ٣٣
خاير بك ابن إينال « كاشف الغيبة » :
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤

٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٤٠

جلال الدين القزويني : في محمد
جلال الدين السنطري : ٣٥٢
جمال الدين بن خير السكندري :
١٠١ ، ١٣٤

جمال الدين أقرش الباخلي : ١٤٩
جمال الدين الأقمي : ١٣٦
جمال الدين إيدغددي : ٥٩ ، ٦٠ ،
٨٥

جمال الدين الزرعي : ١٣٤
جمال الدين الزغلي : ٣٦٦
جمال الدين خضر أبو نوكبة : ١٤٩
جمال الدين السلونقي : ٧٨ ، ١١٩ ،
١٢٠

جمال الدين عبد الله التركماني : في
عبد الله

جمال الدين عبد الله القابوني : ٢٢١
جمال الدين القلقشندي : في إبراهيم
جمال الدين محمود الأستاذار : ٢٤٨
جمال الدين محمود القصيري : ١٣٥

جمال الدين يحيى بن عبد المنعم : ١٢
جمال الدين يوسف الملقب : ١٣٥ ،
١٣٦

الجمالي يوسف بن أبي الأصبع : ٢٩٧
الجمالي يوسف بن برسباي : ١٩٣
الجمالي يوسف الحبلي : ١٣٨
الجمالي يوسف ناظر الخاص : ١٠٧ ،

١٥٣ ، ١٥٤

جميعمة بن عثمان : ٣٤٠ .

جهان شاه : ٢٢١

خوند أصلبای و أم الناصر بن قايتباي :

١٧٢ ، ٢٧٣

خوند بركة : ٢٦٤

خوند جان كلدی و زوجة الظاهر

قانسوه : ١٧٣

خوند الخاصكية و زوجة العادل

طومان باي : ٣٣٩ ، ٣٥٢

خوند زينب و زوجة الملك إينال :

١٥٣ ، ١٥٤

خوند فاطمة : ٣٤٨ ، ٣٥٠

خوند مصر باي الجركسية : ٣٣٨

خوند مغل بنت البارزي و زوجة

جقمق : ٢٦٥

(د)

داود باشا و وزير العثمانيين : ٢٢٤ ،

٢٢٥

داود الخليفة المعتضد بالله العباسي :

١٩ ، ٣٥

دقاش المحمدي : ٢٥٤

دلوكة العجوز : ١٨٢

دولات باي و الأمير : ٣٠٤

دولات باي الجركسي : ١٥٢

دولات باي الحسني : ١٦٢

دولات باي حمام الأشرفي : ٢١٠

دولات باي قرموط : ١٦٧

(ر)

رستم و أمير الركب العراقي : ١٥٧

رستم بن حسن الطويل : ٢١٤

رستم بن قراملك : ٢٢٥

رسلان بصل : ٥٣

خاير بك الخازندار : ٢٦٦

خاير بك كاشف المحلة : ٣٦٤

خاير بك المعمار : ٣١٢

خاير بك و ملك الامراء : ١٣٠ ، ٤٣ ،

٢١٤ ، ٣١٣

خاتون بنت خليل : ١٦٨

خديجة أم خوخة المغنية : ٣٥٢

خديجة الرحابية : ٣٥٠

خديجة السكيباتية : ٣٦٥

خشقدم الاحمدى الزمام : ١٦٠ ،

١٦١

خشقدم و الملك الظاهر : ٣٨ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٨٥

١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١١ ، ٢٩٥ ،

٣٠٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦

خشكلدى السيفي : ٣٩

الخضر بن الحسين و برهان الدين

السنجاري : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ،

٧٩ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢

خليل بن شاهين و غرس الدين :

١٥٢

خليل ابن عم المستمسك بالله : ٢٠ ،

٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

خليل بن قلاوون و الملك الأشرف :

٢٤ ، ٢٥ ، ٤٨ ، ٧٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢

خوند الاحمدية و زوجة الملك خشقدم :

١٥٤

السعيد و محمد بن بويرس - : و الملك

٢٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ،

٢٩٩ ، ٣٠١

سلار المنصورى : ٤٩ ، ٢٧٦ ، ٣١٧

سلامش و الملك العادل ، : ٢٤ ، ٨٩ ،

٣٠١

سلطان بن رشا : ٦١

سليم و ملك بنى عثمان ، : ٢١ ، ٤٣ ،

٤٤ ، ٤٥ ، ٧٨ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،

٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٢

سليمان بن عبد الملك : ١٨٣

سليمان و المستكنى بالله الاول ، : ١٦ ،

١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ إلى ٢٨ ، ١٩٣

سليمان و المستكنى بالله الثانى ، : ٣٦ ،

٣٧

سنباي نائب سيس : ٣١٠

سنجر الشجاعى و علم الدين ، : ٨٩ ،

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٣٠٢

سنباي المتصوف : ٣٦٤ ، ٣٦٥

سنقر الأعسر : ٢١٧

سوار أخو على دولات و ملك

الأبلستين ، : ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٣٠٨

سودون بن زاده : ٢٥٥

سودون العجمى و الأتابكى ، : ١٦٧ ،

١٧٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٠٧ ، ٣٣١

(ز)

زبيدة أم الأمين : ٤١

زكريا الأنصارى و زين الدين ، : ٧٢ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ٢٧٩

زكريا و المستعصم بالله العباسى الاول ، :

١٦ ، ٢٩

زين الدين بن البارزى : ٣٥٨

زين الدين بن حنا : ٣٦٠

زين الدين بن النحاس : ٣٥٦

زين الدين أبو محمد عبد السلام

الرواوى : ٦٣

زين الدين الأنصارى : فى زكريا :

زين الدين التفهنى : فى عبد الرحمن :

زين الدين عبادة بن على الجوزائى : ٧٢

زين الدين الفارفى : ٢٥٢

زين العابدين بن الطويل : ١٣٢

الزين قاسم بن قطلوبغا : ١١٨

الزبى بركات بن موسى : فى بركات

(س)

سالم و مجد الدين الحنبلى ، : ١٠٣

ست الخلفاء : ٢٩

السخاوى و صاحب الضوء اللامع ، :

٥٥ ، ٧٢ ، ١٠٢ ، ١١٨

سديد الدين عثمان بن عبد الكريم : ١٢

سراج الدين بن حريز : فى عمر بن

أبى بكر :

سراج الدين بن الشحنة : فى عبد البر

سعد الدين الديلى : ١٠٥ ، ١٠٩ ،

٣٥٨

شمس الدين بن عوض : ٢٨٠ ، ٢٩٦ ،

٢٩٩

شمس الدين بن عيسى : ٨٩

شمس الدين بن المزلق : ١١٦

شمس الدين الأمشاطي : في محمد

شمس الدين البساطي : ٧٢ ، ١٣٦

شمس الدين التتائي : ١٣٨ ، ١٧٢

شمس الدين الحلبي : ٣٧٥

شمس الدين الحلبي : ٥١

شمس الدين الحنبلي : في محمد بن ابراهيم

شمس الدين الديري : ١٠٤

شمس الدين الركراكي : ١٣٥

شمس الدين الزنكلوني : ٣٦٨

شمس الدين السمديسي : في محمد

شمس الدين الصغير : ٢٢٠ ، ٢٤١

شمس الدين الطرابلسي : ١٣٥

شمس الدين عبد الرحمن بن قدامة : ٦٣

شمس الدين عبد الله بن عطا : ٦٣

شمس الدين الغزي : ١١٢ ، ١٢٩

شمس الدين القاياتي : ١٣١ ، ١٣٧

شمس الدين القسطلاني : ١٩٠

شمس الدين ابن أخت القاضي الدمياطي :

٣٦٨

الشفقي العجمي : ٣٤٧

شهاب الدين بن الجيعان : ٣٥٩

شهاب الدين بن حجر العسقلاني : في

ابن حجر .

شهاب الدين بن قرفور : في أحمد

شهاب الدين بن فضل الله العمري :

٤٩ ، ٥٠ ، ١٤٠ ، ٢٧٩ ، ٣٥٩

سويدان المجدوب : ٣٤٤ ، ٣٦٥

سليبي فائب الشام : ٢١٥

سيف الدين إسحاق المجاهد : ٣٦٠

(ش)

شاد بك الأمير آخور : ١٦٢

الشاطر الدهنوري : ٣٦٣

شاهين الجالي : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤

شاهين النوري : ١٦٢

شجرة الدر : ٣٠١

شرف الدين بن عين الدولة

الإسكندراني : ٨٢

شرف الدين البارزي : في هبة الله

شرف الدين البرديني : في يحيى

شرف الدين البوصيري : ٢٣٦

شرف الدين السبكي : ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١

شرف الدين الصغير د علي : ٢٩٨

شرف الدين موسى بن عيد الدمشقي :

١٠٩ ، ١١٠ ، ٣١٧

شرف الدين الفانزي : ٨٢

شرف الدين المناوي : في يحيى

شرف الدين النابلسي الاستادار : ٢٩٨

الشريف بن حريز المالكي : ١٩٤

شعبان د الملك الأشرف : ١٩ ، ٢٩٠ ،

١٥١ ، ١٣٤ ، ١٩٠ ، ٢٥٩ ،

٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٣١٨ ،

٣٢٣

شعبان د الملك الكامل : ٥٣ ، ٢٩٩

شمس الدين بن خلكان : ٦٣

صدر الدين بن منصور : ١٣٥
 صدر الدين سليمان الحنفي : ١٠٥٧ ، ٦٠
 صدر الدين عبد البر بن رزين : ٨٨
 صدر الدين المناوي : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٣٥
 صدر الدين موهوب الجزري :
 صرغتمش الناصري : ٣٠٦
 صفى الدين بن جوهر والطواشي الرومي :
 ٢١٩
 صقر بن بقر : ٣٠٧ ، ٣٠٨
 صلاح الدين بن بركوت المكي : ١٣٨
 صلاح الدين بن الجيعان : ١٧٢
 صلاح الدين الأيوبي : ٢٧٤
 الصلاح الثعالبي القوصي : ٣٥٣
 صلاح الدين الصفدي : ٩٩

(ط)

طاجن : ٣٠٨
 طاز : ١٥٠
 طراباي الشربيني : ١٧٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٠
 ٣١١
 طرنطاي و نائب السلطنة : ٢٩٤
 ططر و الملك الظاهر : ٣٦ ، ٣٠٣
 طغاي : ٢٥٣
 طغزدمر نائب الشام : ٢٩٩
 قططباي و نائب القطعة : ١٧٣ ، ١٧٦
 طومان باي و الملك الأشرف : ١٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٨
 ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥
 ٣٣١

شهاب الدين أحمد فاظر الجيش : ٢٨٧
 شهاب الدين الخوي : في محمد
 شهاب الدين السوسي : ٣٧٥
 شهاب الدين الشيشيني الحنبلي : في أحمد
 شهاب الدين الفتوحى : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣

شهاب الدين القلقيلي المغنى : ٣٥٤
 الشهاب المنصورى : ٣٤٨ ، ٣٥١
 شهاب الدين النحريرى : ١٢٥
 شيخ محمودى و الملك المؤيد : ١٨ ، ١٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٠٢ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣١٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٨
 شيخو العمري : ٣٠٦

(ص)

صارم الدين العواد المغنى : ٣٥٣
 الصالح إسماعيل و ملك دمشق : ٨١
 الصالح إسماعيل و ملك الموصل : ٣٦٠
 صالح البلقيني و علم الدين : ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٩٥
 الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد :
 ٢٨ ، ٥٤ ، ٣٠٦ ، ٣٥٧
 الصالح علاء الدين بن الناصر محمد
 و الملك : ١٤٥ ، ١٥٠
 الصالح نجم الدين الأيوبي : ٨١ ، ٨٢
 صدر الدين بن بنت الأعز : في عمر
 ابن عبد الوهاب :
 صدر الدين بن العديم : ٧١ ، ١٠٢
 صدر الدين بن المرحل : ٦٧

عبد الرحمن بن علي د زين الدين
التفهي : ١٠٤

عبد الرحمن بن عمر د جلال الدين
البلقيني : ٣٥٩، ١٠٦، ١٠٢، ٣٥

عبد الرحمن بن قاسم د جلال الدين :
١٣٦، ١٢٧

عبد الرحمن بن قدامة د بهاء الدين :
١١٧

عبد الرحمن بن محمد د تقي الدين
القرشي : ١٠١

عبد الرحيم البارزي : ٣٥٨، ٧٢
عبد العزيز بن عبد السلام د عز الدين :

٨٠، ٧٦، ٧٤، ٧٣، ٢٢، ١٢
٢٧٩، ٩٥، ٩٤، ٩١، ٨٤

عبد العزيز بن عمر الهواري د عزوز :
٣٠٩

عبد العزيز بن محمد بن جماعة : ٩٨
عبد العزيز بن محمد الصغير : ١٥٢

١٥٣
عبد العزيز بن مروان : ١٧٢

عبد العزيز د المتوكل على الله الثاني :
٤١، ٤٠، ٣٩، ١٨

عبد العظيم الصيرفي : ٣٦٧
عبد الغني بن الجيعان : ٣٥٩

عبد الغني بن أحمد بن تقي الدين :
١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٣

عبد القادر بن أحمد د محي الدين بن تقي :
١١٤، ١١٣

عبد القادر بن الرماح : ٣٧٦
عبد القادر بن النقيب د محي الدين :

١٢١، ١١٩، ٧٨، ٧٧، ٦٩، ٦٨
١٣١، ١٢٥، ١٢٣، ١٢٢

طومان باي الحاجب : ١٧٦

طومان باي د الملك العادل : ١٧ ،
٤١، ٤٢، ١١٥، ١١٧، ١١٩،

١٣١، ١٣٤، ٢٠١، ٣٠٣، ٣٣٨،
٣٤٩، ٣٣٩

الطنبغا د ألا تايكي : ٣٦

الطنبغا الخوارزمي د ناصر الدين :
١٤٩

طبرس الوزيري د علاء الدين : ١١

(ظ)

الظاهر برقوق : في ب

الظاهر بيبرس : في ب

الظاهر جقمق : في ج

الظاهر خشقدم : في خ

الظاهر طاهر : في ط

الظاهر قانصوه : في ق

(ع)

العادل طومان باي : في ط

العادل كتبغا المنصوري في ك

عبد البر بن الشحنة د سري الدين :

٦٥، ٧٩، ١١١، ١١٨، ١١٩،
١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ٣٥٩

عبد الحق السنباطي : ٣٦٩

عبد الدايم بن أحمد بن بقر : ٣١٤

عبد الدايم بن أبي الشوارب : ٣١٣

عبد الرحمن بن بنت الأعز د تقي الدين :

٦٢، ٧٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٣٥٨

عبد الرحمن بن خلدون د ولي الدين :

٢٨، ١٠١، ١٣٤، ١٣٦

عبد الرحمن الديري : ٣٥٨

عبد القادر الدشوطي : ١٢٥ ، ١٩٩
 عبد الله بن شرف : د يحيى الدين
 ابن عين الدولة : ٨٧ ، ٨٨
 عبد الله التركماني : د جمال الدين : ٥٤
 عبد المؤمن المعجمي : ٢١٤ ، ٢٤٣
 عبد الوهاب بن بنت الأعز : د تاج الدين :
 ١١ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٥٦ ،
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ،
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
 ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٣٥٨
 عبد الوهاب البهنسي : د وجيه الدين :
 ٨٨ ، ٩١
 عميد بن أبي الشوارب : ٣١٣
 عثمان بن بنت أبي سعيد : د القاضي
 نحر الدين : ١٤٩
 عثمان بن حنظل : د الملك المنصور : ١٥٥
 عز الدين بن أبيك : د الملك المعز : ٨٢
 عز الدين بن تركي : ٢٥٢
 عز الدين بن جماعة : د المقدسي : ١٣٤ ، ٢٥٩
 عز الدين بن عبد السلام : في عبد العزيز
 عز الدين بن القلانسي : ٢٥٢
 عز الدين الحنبلي : في أحمد بن إبراهيم
 عز الدين الحلبي : في إيدمر
 عز الدين الشيشيني الحنبلي : ١١٨ ، ١٢٥
 عز الدين الكنتاني : ١٣٧
 عز الدين المحلي : ٣٧٣
 عزيزة بنت السطحي : ٣٥١
 عفيف الدين بن الشحنة : ١١١
 علاء الدين بن الأثير : ١٤٤ ، ١٥٠ ،
 ٢٧٩
 علاء الدين بن الأخيمني : ١٢٥ ، ١٢٦

علاء الدين بن الأهناسي : د علي :
 علاء الدين بن خاص بك : ١٥٨ ،
 ١٦٤ ، ٣٥٠
 علاء الدين بن الصابوني : ٢٨٧
 علاء الدين بن الطبلأوى : ٢٩٨
 علاء الدين بن عبد الظاهر : ٣٥٩
 علاء الدين بن فضل الله العمري :
 ٢٧٩ ، ٣٥٩
 علاء الدين بن قرطام : ٣١١
 علاء الدين بن مغلي : ١٣٦
 علاء الدين بن النقيب : ١٠٥
 علاء الدين إيديك بن البندقدار : في
 إيديك بن
 علاء الدين بن إيديك : ١٧٨
 علم الدين بن شاكر الجيعان : ١٥٤
 علم الدين البلقيني : في صالح
 علم الدين سنجر الشجاع : في سنجر
 علم الدين شمائل : ٢٩٧
 علي بن أبي الجود : ٣٤١
 علي باي : د الأمير : ٣٠٢ ، ٣٠٣
 علي بن أبي طالب : ٤١
 علي بن أحمد بن إينال : ١٧٨
 علي بن الأشرف شعبان : د الملك
 المنصور : ١٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢٠
 و ٣٠٦
 علي بن بركات الحسني : ٣٦١
 علي بن رحاب المغني : د نور الدين :
 ٣٤٩ ، ٣٥١
 علي بن عبد الرحيم بن الأثير : ٧٦
 علي بن غانم : ٣٥٢
 علي التمرأوى : ٢٦

غرس الدين خليل : ٣٦٨، ٢٩٦
غياث الدين ملك الهند : ٣٩٦، ٣٩٧، ٢٢٢

(ف)

فارس الدين أقطاي الجمدار : ٣٠٥
فارس الدين أقطاي المستعرب : ٣٠٥
فارس حاجب الحجاب : ٢٩٥
فارس الدين الركني : ١٥٩
فاطمة بنت أسد : ٤١
فاطمة بنت رسول الله عليه السلام : ٤١
فاطمة زوجة قايتباي : ١٥٨
فتح الدين بن عبد الظاهر : ٣٥٩
نحر الدين بن العفيف .
نحر الدين بن فضل الله : ٢٧٧
نحر الدين بن حنا : ٢٦٠
نحر الدين بن قروينة : ٢٩٤
نحر الدين بن لقمان : ٨٩
نحر الدين ناظر الجيوش : ١٤٥، ١٥٠
فرج بن برقوق « الملك » : ١٨، ٣٣،
١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٣٥، ١٣٦،
٢١٥، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٥،
٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٩٤، ٢٩٥،
٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٩
فرج بن عبد الله المغربي : ٣٦٤

(ق)

القاسم بن إبراهيم « عماد الدين الحموي » : ٨٠
قاسم بن قطلوبغا : ٣٧٣
قاسم الغريب : ٣١٣
قانسوه بن سلطان جر كس : ١٧٤،
٣١١، ٣١٥
قانسوه بن قانسوه « الملك الظاهر » :
٤١، ١٢٤، ١٣٨، ١٦٧، ٢٠٠،
٢١٤، ٣٣٨، ٣٤٩

علي دولات أمير التركان : ٢٢٨، ٢٣٣،
٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٤

علي السكيزاني : ٢٦٠
عماد الدين الحموي « القاسم بن إبراهيم » :
في القاسم

عماد الدين السكركي : ١٠١
عمر بن إبراهيم « الوائق بالله الثاني » :
عمر بن أبي بكر « سراج الدين بن

حريز » : ١٠٧، ١١٣، ١١٤
عمر بن الأمير دولات باي : ٣٢٠
عمر بن الخطاب : ١٨٣، ١٨٤

عمرو بن العاص : ١٨٢، ١٨٤
عمر بن عبد الرحمن القزويني « إمام
الدين » : ٩٧

عمر بن علاء الدين النقيب : ٣٦٥
عمر بن الفاراض : ١١١، ١٢٨
عمر بن الملك المنصور بن جقمق : ١٧٦

عمر بن موسى : ٣١٤
عمر البلقيني « سراج الدين » : ١٠٢
٢٧٩، ٢٨٤، ٣٥٩

عمر السبكي المالكي « شرف الدين » :
عمر « صدر الدين بن عبد الوهاب
ابن بنت الأعز » : ٧٥، ٨٨، ٩١

و ٣٥٨

عنان بن مغاسر : ١٥١
عيسى بن بكر : ٣٠٨
عيسى بن مهنا :

(غ)

غازان « ملك التتار » : ٩٨، ٢٥١، ٢٥٢

١٠٨، ١٠٧، ٧٧، ٧٢، ٤٠، ٣٩
١٢٣، ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩
١٥٦، ١٥٥، ١٥٣، ١٤٥، ١٣٨
١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨
١٩٩، ١٩٥، ١٨٦، ١٦٦، ١٦٤
٢١٧، ٢١٣، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠
٢٣٤، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١
٢٤٤، ٢٤٣، ٢٣٧، ٢٣٦، ٢٣٥
٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٧٩، ٢٨٥
٢٨٦، ٢٩١، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٩
٣١٧، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٨
٣٤٠، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٥٧

٣٦١

قبحاس الإسحاق: ١٥٩، ١٦٠

قرا بغا أمير التتار: ١٤، ٢٣، ٢٥٠

قرا بغا الصرغتمشي: ٢٩٤

قراجا باشا: ٢٣٧

قرا محمد التركاني: ٢٥٣

قرا ملك التركاني: ٣٦، ٢٢٠، ٢٣٩

٢٤٣

قرا يوسف التركاني: ٢٥٤، ٢٥٥

قرقد بيك بن عثمان: ٣٢٩، ٣٣٠

قرقاس بن ولي الدين د الأتابكي:

١٦٧، ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٤، ٣١٠

٣٣٠، ٣٦٥

قرقاس الجلب: ١٩٥

قرقاس المقرى: ٢٩٢

قصروه نائب الشام: ٣٠٣

قطز د الملك المظفر: ٨٤، ٩٥، ٢١٨

٢٨٣، ٢٤٩

قانسوه أبو سنة: ١٧٢

قانسوه البرجى الحمدي: ١٦٧،

٢١٣، ٣١٠

قانسوه دولات يردى: ١٧٣

قانسوه الخفيف: ٣٠٨

قانسوه خمسمائة: ٤٠، ١٥٧، ١٦٥،

٣٠٣، ٣١٠، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٢٩

قانسوه الغورى د الملك الأشرف:

٢٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٥١،

٦٥، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ١١٣، إلى

١٢٢، ١٢٥، إلى ١٣٣، ١٣٨، ١٤٣

١٤٤، ١٥٥، ١٦٧، إلى ١٧٩، ١٨٥،

٢١٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦،

٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٦،

٢١٧، ٢١٨، إلى ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٧،

٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٦٠، ٢٦٢،

٢٦٦، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٧،

٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٥،

٢٩٩، ٣٠٣، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣،

٣١٤، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٨،

٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٤١،

٣٤٥، ٣٥٢، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١،

٣٦٨، ٣٦٦

قانسوه الفاجر: ١٥٢

قانسوه كرت: ١٧٦، ٢١٤

قائم أخو الظاهر قانسوه: ١٦٨

قائم التاجر: ١٥٣، ١٩٥

قانى باى الخزاوى: ١٥٤

قانى باى سلق: ٢٢٩، ٢٣٠

قانى باى قرا: ١٧١، ٢٤٦

قانى باى اليوسفى المهمندار: ٢١٠، ٢٢١

قانى بك قلقسير: ٣٠٨

قايتباى د الملك الأشرف: ١٧، ٣٨،

(هـ)

هبة الله بن البارزى « شرف الدين » :

٣٥٨

هجار أمير ينبع : ٣١٣

هولاكو ملك التتار : ١١ ، ٢١٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣

هيفة اللذيذة : ٣٥٢

(ى)

يحيى بن إبراهيم « يحيى الدين بن

الدميرى » ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣٨ ، ٣٥٩

يحيى بن الأمير يشبك الفقيه : ١٥٤

يحيى بن سميع : ١١٩ ، ١٧٢ ، ٣١٢ ،

٣١٤ ، ٣١٣

يحيى بن عبد المنعم « جمال الدين » : ١٢٠

يحيى البردبى « شرف الدين » ، ١٣٤

يحيى المناوى « شرف الدين » : ١٠٦

١٩٤ ، ١٩٣ ، ٣٨١ ، ١٣٥ ، ١٧

يرش « خازندار جاني بك » : ٢٩٥

يزيد بن عبد الملك : ١٨٣

يشبك بن حيدر : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٥٠

يشبك بن مهدي : ١٦٠

يشبك الأنقر : ١٦٥

يشبك الجمالى : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،

٢١١

يشبك جن : ١٥٥

نجم الدين البارزى : ١٦٥

ن. الدين يحيى بن يحيى : ٣٠٢

نجيب الدين الحرائى : ١٢

نصر الدين بن التونسى : ١٣٦

نكسبيه الأزدمرى : ١٥٢

نور الدين بن الجلال المالكي : ١٣٥ ،

١٣٦

نور الدين « الخطيب » ، ١٨٩

نور الدين المحلى : ٣٧٢

نور الدين المشالى : ٢٩٦ ، ٣٦٨

نوروز تاجر المالك : ١٧٤

نوروز الحافظى : ١٩٠ ، ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤٠

١٩٢ ، ٢٥٧

(و)

الوائق بالله العباسى الأول : فى إبراهيم

الوائق بالله العباسى الثانى : ١٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣

وجيه الدين البهنسى « عبد الوهاب » :

فى عبد الوهاب

الوليد بن عبد الملك : ١٨٣

ولى الدين بن خلدون « عبد الرحمن » :

فى عبد

ولى الدين الأرموى : ١٣٧

ولى الدين الأسيوطلى : فى أحمد

ولى الدين السقطى : ١٣٧

ولى الدين السنباطى : ١٠٧ ، ١٣٧

ولى الدين العراقى : ١٣٦